تفسير ابن باديس

أو

مجالس التذكير

من كلام الحكيم الخبير

للإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس

(1889م-1940م)

اعتنى به وخرج أحاديثه وآثاره

أبو عبد الرحمن محمود

دار الرشيد

للكتاب والقرآن الكريم

(الجزائر)

تفسير ابن باديس

أو

مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير

للإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس

(1889م-1940م)

المجلد الأول

اعتنى به وخرج أحاديثه وآثاره

أبو عبد الرحمن محمود

دار الرشيد

للكتاب والقرآن الكريم

(الجزائر)

الطَّبْعَة الأُولَى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



المبيعات: 33 ش محمد برقيه مقابل مسجد السنه (باب الوادى) 00213 21962546

الإدارة : شارع بوجمعه خليل العاشور وادى الرمان - الجزائر 00213 21308043


تفسير ابن باديس
١



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الإمام محمد البشير الإبراهيمي -رحمه اللَّه تعالى-



القرآن كتاب الإنسانية العليا استشرفت إليه قبل أربعة عشر قرنًا حين ضامها أبناؤها فعقُّوها، فارتكسوا في الحيوانية السفلى، فأخلدوا إلى الأرض، فأكثروا فيها الفساد، فأنزله اللَّه من السماء ليصلح به الأرض، وليدل أهلها المستخلفين عليها من بني آدم على الطريق الواصلة باللَّه، ويجدد ما رثَّ من علائقهم به.

وما أشدَّ شبه الإنسانية اليوم بالإنسانية قُبيل نزول القرآن في جفاف العواطف وضراوة الغرائز وتحكّم الأهواء والتباس السبل وتحكيم القوَّة وتغوّل الوثنية المالية.

وما أحوج الإنسانية اليوم إلى القرآن، وهي في هذا الظلام الحالك من الضلال، وقد عجز العقل عن هدايتها وحده، كما عجز قديمًا عن هدايتها، لولا تأييد اللَّه له بالأمداد السماوية من الوحي الذي يقوي ضعفه إذا أدركه

الوهن، ويصلح خطأه إذا اختل ميزانه.

وكما أتى القرآن لأوَّل نزوله بالعجائب والمعجزات في إصلاح البشر، فإنه حقيق بأن يأتي بتلك المعجزات في كل زمان، إذا وجد ذلك الطراز العالي من العقول التي فهمته، وذلك النمط السامي من الهمم التي نشرته وعممته، فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته ولا يؤتي آثاره في إصلاح النفوس إلَّا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف، وتولته بالتطبيق العملي نفوسٌ ساميةٌ وهِمَمٌ بعيدةٌ كنفوسهم وهممهم.

أما انتشاره بين المسلمين بهذه الصورة الجافة من الحفظ المجرد، وبهذا النمط السخيف من الفهم السطحي، وبهذا الأسلوب التقليدي من التفسير اللفظي- فإنه لا يفيدهم شيئًا ولا يفيد بهم شيئًا؛ بل يزيدهم بعدًا عن هدايته ويزيد أعداءهم استخفافًا بهم وإمعانًا في التكالب عليهم والتحكم في رقابهم وأوطانهم.

ولو فهمنا القرآن كما فهمه السلف، وعملنا به كما عملوا به، وحكَّمناه في نفوسنا كما حكَّموه، وجعلنا أهواءنا ومشاربنا تابعة له وموزونة بميزانه- لو فعلنا ذلك لكنا به أعزة في أنفسنا وأئمةً لغيرنا.

تفسير القرآن تفهيم لمعانيه وأحكامه وحِكَمِه وآدابه ومواعظه، والتفهيم تابع للفهم، فمن أحسن فهمه أحسن تفهيمه، ومن لم يحسن فهمه لم يحسن تفهيمه وإنْ كَتب فيه المجلدات وأملى فيه ألوف المجالس.

وفهم القرآن يتوقف -بعد القريحة الصافية والذهن النير- على التعمق في أسرار البيان العربي، والتفقه لروح السنة المحمدية المبينة لمقاصد القرآن،

الشارحة لأغراضه بالقول والعمل، والاطلاع الواسع على فهوم علماء القرون الثلاثة الفاضلة، ثم على التأمل في سنن اللّٰه في الكائنات، ودراسة ما تنتجه العلوم الاختبارية من كشف لتلك السنن وعجائبها.

وقد فهمه السلف حق الفهم ففسروه حق التفسير، مستعينين على ذلك بما ذكرنا من القرائح والأذهان، وأسرار البيان، ومستعينين بإرشاده على فقه سنن الأكوان.

ولو لم ينحسر تيار الفهوم الإسلامية للقرآن بما وقف في سبيله من توزع المذاهب والعصبيات المذهبية لانتهى بها الأمر إلى كشف أسرار الطبيعة ومكنونات الكون، ولسبق العقل الإسلامي إلى اكتشاف هذه العجائب العلمية التي هي مفاخر هذا العصر.

كان علماء السلف يشرحون الجانب العملي من القرآن على أنه هداية عامة لجميع البشر، يطالب كل مؤمن بفهمها والعمل بها، وكانوا يتحاشون الجانب الغيبي منه لأنه مما لا يصل إليه عقل المكلَّف، فلا يطالب بعلمه، ولا يحاسب على التقصير فيه، وكانوا ينظرون إلى الجانب الكوني منه نظرات مسددة لو صحبها بحث مسدد ممن أتى بعدهم.

وللمفسرين من عهد التدوين إلى الآن طرائق في فهم القرآن، وأساليب في كتابة تفسيره.

أما الأساليب فقلما تختلف إلا ببعد العصور حين تختلف الأساليب الأدبية، فتنحط أو تعلو، فيسري التطور منها إلى الأساليب العلمية.

أما الطرائق فإنها تختلف باختلاف الاختصاص في المفسرين والعلوم

التي غلبت عليهم وعُرفوا بها.

فالمحدِّثون يلتزمون التفسير بالمأثور، فإن اختلفت الرواية، فمنهم من يروي المتناقضين ويدعك في حيرة، ومنهم من يدخل نظره وفكره في التعديل والترجيح كما يفعل أبو جعفر الطبري[1].

ومقلدة المذاهب يفسرون القرآن بقواعد مذاهبهم ويحكّمونها فيه، فإذا خالفَ نصُّه قاعدةً من قواعدهم ردوه بالتأويل إليها.

وهذا شر ما أصيب به هذا العلم، بل هو نوع من التعطيل، وباب من التحريف والتبديل، لأنه في حقيقة أمره وضع لكلام اللَّه في الدرجة الثانية من كلام المخلوق، وفي منزلة الفرع من أصله يرد إليه إذا خالفه، وأعظم بها زلة، وإن هذه الزلة هي الغالبة من صنيع المفتتنين بالمذاهب والمتعصبين لها، يتباعدون عن القرآن ما شاء لهم الهوى، فإذا تناولوه فبهذه النظرة الخاطئة.

والمتكلمون في معاني القرآن معظمهم من اللُّغويِّين والنحاة، فهم يتكلمون غالبًا على الألفاظ المفردة وأوجه الإعراب، فهم أقرب الكاتبين في الغريب أمثال الأصفهاني[2] وأبي ذر الهروي[3]، وإنما أطلقوا على كتبهم هذا الاسم (معاني القرآن) لأن بساطة الأسماء كانت هي الغالبة في زمنهم.

والإخباريون مفتونون بالقصص فلا يقعون إلا على الآيات المتعلقة به،

---

(١) هو الإمام المجتهد محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة، منها: «التفسير» و«التاريخ» و«تهذيب الآثار». توفي سنة (٣١٠هـ). انظر «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٦٧- ٢٨٢) للذهبي، وغيره.

(٢) هو المعروف بالراغب، توفي سنة (٥٠٢هـ). الأعلام (٢/ ٢٥٥).

(٣) هو عبد بن أحمد أبو ذر الهروي، المتوفى سنة (٤٣٤هـ). الأعلام (٣/ ٢٦٩).

ويا ليتهم يحققون الحكمة من القصص، فيجلون العبر منها ويستخرجون الدقائق من سنن اللَّه في الأمم وجميع الكائنات، ولكنهم يسترسلون مع الرواية وتستهويهم غرابة الأخبار، فينتهي بهم ذلك إلى الاسرائيليات الخاطئة الكاذبة، وقد أدخلوا بصنيعهم هذا على المسلمين ضررًا عظيمًا، وعلى التاريخ فسادًا كبيرًا.

وأصحاب المذاهب العقلية إذا تعاطوا التفسير لا يتوسعون إلا في الاستدلالات العقلية على إثبات الصفات أو نفيها، وعلى الغيبيات والنبوات وما يتعلق بها.

والنحاة والباحثون في أسرار التراكيب لا يفيضون إلا في توجيه الأعاريب أو في نكت البلاغة كما يفعل الزمخشري[1] وأبو حيان[2].

هكذا فعل القدماء والمحدثون بالقرآن، حكَّموا فيه نِحلهم ومذاهبهم وصناعتهم الغالبة عليهم، فأضاعوا هديه وبلاغه، وأبعدوا الأمة عنه، وصرفوها عن حكمه وأسراره، ولو ذهبنا مذهب التحديد في معاني الألفاظ الاصطلاحية لوجدنا المفسر من هؤلاء قليلًا.

أما المفسرون الذين يصدق عليهم هذا الوصف فهم الذين يشرحون فقه القرآن، ويستثيرون أسراره وحِكمه معتمدين على القرآن نفسه وعلى السنة وعلى البيان العربي كما أشرنا إلى ذلك قبلًا.

---

(١) هو كبير المعتزلة محمود بن عمر الزمخشري، الملقب بـ(جار اللَّه). أشهر كتبه «الكشاف» في تفسير القرآن توفي سنة (٥٣٨هـ). سير النبلاء (٢٠/ ١٥١- ١٥٦)، والأعلام (٧/ ١٧٨).

(٢) هو محمد بن يوسف أبو حيان الغرناطي، النحوي، من كتبه «البحر المحيط» في تفسير القرآن. توفي سنة (٧٤٥هـ). الأعلام (٧/ ١٥٢).

ومن هؤلاء من اقتصر على الأحكام فقط كابن العربي[١] والجصاص[٢] وعبد المنعم بن الفرس[٣]، وهؤلاء الثلاثة هم الذي انتهت إلينا كتبهم.

ومنهم من عمم ولكن توسّعه ظاهر في الأحكام: أحكام العبادات والمعاملات، كالقرطبي[٤] وابن عطية[٥] وأضرابهما.

وكان خمود وكان ركود، وضرب التقليد بجرانه فقضى على ذكاء الأذكياء وفهم الفهماء إلى أن أذن اللَّه للعقل الإسلامي أن ينفلت من عقال التقليد ويستقل في الفهم، وللنهضة العلمية الإسلامية أن يتبلج فجرها، ويعم نورها، فكانت إرهاصات التجديد لهذا العلم ظاهرة في ثلاثة من أذكى علمائنا وأوسعهم اطلاعًا: الشوكاني[٦] والألوسي[٧] وصديق حسن خان[٨]، على

---

(١) هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد اللَّه ابن العربي الأندلسي، المالكي، صاحب «أحكام القرآن» و«عارضة الأحوذي» وغيرهما. توفي سنة (٥٤٣هـ). سير النبلاء (٢٠/ ١٩٧- ٢٠٤).

(٢) هو أحمد بن علي أبو بكر الجصاص، له «أحكام القرآن». توفي سنة (٣٧٠هـ). الأعلام (١/ ١٧١).

(٣) هو عبد المنعم بن محمد الخزرجي، المعروف بـ(ابن الفَرَس)، من علماء غرناطة. له كتاب «أحكام القرآن». الأعلام (٤/ ١٦٨).

(٤) هو محمد بن أحمد أبو عبد اللَّه القرطبي، له «الجامع لأحكام القرآن» المعروف بـ«تفسير القرطبي». توفي سنة (٦٧١هـ). الأعلام (٥/ ٣٢٢).

(٥) هو عبد الحق بن غالب بن عطية الغرناطي، له «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز». توفي سنة (٥٤٢هـ). الأعلام (٣/ ٢٨٢).

(٦) هو محمد بن علي الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، له تآليف كثيرة منها «فتح القدير» في التفسير، و«نيل الأوطار» وغيرهما. توفي سنة (١٢٥٠هـ). الأعلام (٦/ ٢٩٨).

(٧) هو محمود بن عبد اللَّه الحسيني الآلوسي، أبو الثناء البغدادي، صاحب «روح المعاني» في التفسير. توفي سنة (١٢٧٠هـ). الأعلام (٧/ ١٧٦- ١٧٧).

(٨) من مؤلفاته: «فتح البيان في مقاصد القرآن» في التفسير، و«الروضة الندية شرح الدرر البهية» وغيرهما. توفي سنة (١٣٠٧). الأعلام (٦/ ١٦٧- ١٦٨).

تفاوت بينهم في قوة النزعة الاستقلالية، وفي القدرة على التخلص من الصبغة المذهبية التقليدية، ثم كانت المعجزة بعد ذلك الإرهاص بظهور إمام المفسرين بلا منازع محمد عبده[١]، أبلغ من تكلم في التفسير بيانًا لهديه، وفهمًا لأسراره، وتوفيقًا بين آيات اللَّه في القرآن، وبين آياته في الأكوان. فبوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم ولم ينقصه إلا أنه لم يكتبه بقلمه كما بينه بلسانه، ولو فعل لأبقى للمسلمين تفسيرًا لا للقرآن بل لمعجزات القرآن، ولكنه مات دون ذلك، فخلفه ترجمان أفكاره ومستودع أسراره محمد رشيد رضا[٢] فكتب في التفسير ما كتب ودون آراء الإمام فيه، وشرع للعلماء منهاجه ومات قبل أن يتمه، فانتهت إمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي كله إلى أخينا وصديقنا ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر بل بالشمال الافريقي عبد الحميد بن باديس.

كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ ذوق خاص في فهم القرآن كأنه حاسة زائدة خُصَّ بها. يرفده - بعد الذكاء المشرق، والقريحة الوقادة، والبصيرة النافذة - بيان ناصع، وإطلاع واسع، وذرع فسيح في العلوم النفسية والكونية، وباع مديد في علم الاجتماع ورأي سديد في عوارضه وأمراضه. يمد ذلك كله شجاعة في الرأي وشجاعة في القول لم يرزقهما إلا الأفذاذ المعدودون في البشر.

---

(١) هو مفتي الديار المصرية. توفي سنة (١٣٢٣هـ). الأعلام (٦/ ٢٥٣- ٢٥٣).

(٢) هو صاحب مجلة «المنار» بث فيها آراءه الإصلاحية. له تفسير «المنار» مطبوع. توفي سنة (١٣٥٤هـ). الأعلام (٦/ ١٢٦).

وله في القرآن رأي بنى عليه كل أعماله في العلم والإصلاح والتربية والتعليم، وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هديه والاستقامة على طريقته، وهو رأي الهداة المصلحين من قبله.

وكان يرى - حين تصدَّى لتفسير القرآن - أنَّ في تدوين التفسير بالكتابة مشغلةً عن العمل المقدم وإضاعةً لعمر الضلال، لذلك آثر البدء بتفسيره درسًا تسمعه الجماهير فتتعجَّل من الاهتداء به ما يتعجَّله المريض المنهك من الدواء، وما يتعجله المسافر العجلان من الزاد.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستطيع أن يجمع بين الحسنيين لولا أنه كان مشغولًا مع ذلك بتعليم جيل وتربية أمة ومكافحة أمية ومعالجة أمراض اجتماعية ومصارعة استعمار يؤيدها. فاقتصر على تفسير القرآن درسًا ينهل منه الصادي، ويتزود منه الرائح والغادي، وعكف عليه إلى أن ختمه في خمس وعشرين سنة، ولم يختم التفسير درسًا ودراية بهذا الوطن غيره منذ ختمه أبو عبد اللَّه الشريف التلمساني[1] في المائة الثامنة.

كان ذلك الأخ الصديق رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعلِّل النفس باتساع الوقت وانفساح الأجل حتى يكتب تفسيرًا على طريقته في الدرس، وكان كلما جرتنا شجون الحديث إلى التفسير يتمنى عليَّ أن نتعاون على كتابة التفسير، ويغريني أن الكتابة عليَّ أسهل منها عليه، ولا أنسى مجلسًا كنا فيه على ربوة من جبل تلمسان في زيارة

(١) هو محمد بن أحمد أبو عبد اللَّه المعروف بالشريف التلمساني. من كتبه «مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول». توفي سنة (٧٧١هـ). الأعلام (٥/ ٣٢٧).

من زياراته لي، وكنا في حالة حزن لموت الشيخ رشيد رضا قبل أسبوع من ذلك اليوم فذكرنا تفسير «المنار»، وأسفنا لانقطاعه بموت صاحبه، فقلت له: ليس لإكماله إلا أنتَ، فقال لي: ليس لإكماله إلا أنتَ، فقلت له: حتى يكون لي علم رشيد، وسَعة رشيد، ومكتبة رشيد، ومكاتب القاهرة المفتوحة في وجه رشيد، فقال لي واثقًا مؤكدًا: أننا لو تعاونا وتفرغنا للعمل لأخرجنا للأمة تفسيرًا يغطي على التفاسير من غير احتياج إلى ما ذكرت.

ولما احتفلت الأمة الجزائرية ذلك الاحتفال الحافل بختمه لتفسير القرآن عام (١٣٥٧) هجرية، وكتبت بقلمي تفسير المعوذتين مقتبسًا من درس الختم، وأخرجته في ذلك الأسلوب الذي قرأه الناس في مجلة «الشهاب»، أُعجب به أيما إعجاب، وتجدد أمله في أن نتعاون على كتابة تفسير كامل، ولكن العوارض باعدت بين الأمل والعمل سنتين، ثم جاء الموت فباعد بيني وبينه، ثم ألحت الحوادث والأعمال بعده فلم تبق للقلم فرصة للتحرير ولا للسان مجالًا في التفسير، وإنا للَّه.

لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير، ولم يكتب تلامذته الكثيرون شيئًا منها، وضاع على الأمة كنزُ علمٍ لا يقوَّم بمالٍ، ولا يعوَّض بحالٍ، ومات فمات علمُ التفسير وماتت طريقة ابن باديس في التفسير، ولكن اللَّه تعالى أبى إلا أن يذيع فضله وعلمه، فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس، وكان ينشرها فواتح لأعداد مجلة «الشهاب» ويسميها (مجالس التذكير)، وهي نموذج صادق من فهمه للقرآن وتفسيره له، كما أنها نموذج من أسلوبه الخطابي وأسلوبه الكتابي.

هذه المجالس العامرة هي التي تصدى الأخ الوفي السيد أحمد بوشمال[1] عضد الإمام المفسر وصفيه وكاتبه والمؤتمن على أسراره، لتجريدها من مجلة «الشهاب» ونشرها كتابًا مستقلًا، قيامًا بحق الوفاء للإمام الفقيد وإحياء لذكراه بأشرف أثر من آثاره، وها هو ذا بين أيدي القراء يستروحون منه نفحات منعشة من روح ذلك الرجل العظيم، ويقرأونه فلا يزيدهم عرفانًا بقدره، فحسبهم ما بنى وشاد، وعلَّم وأفاد، وما ربَّى للأمة من رجال كالجبال، وما بثَّ فيها من فضائل وآداب، وما أبقى لها من تراث علمي خالد، لا يرثه الأخ عن الأخ، ولا الولد عن الوالد.

وشكرًا للأخ الوفي أحمد بوشمال على هذا العمل الذي هو عنوان الوفاء[2].

* * *

(١) من تلاميذ الإمام عبد الحميد بن باديس الأوائل، الملازمين لدروسه، وأحد مؤسسي «المطبعة الإسلامية الجزائرية» سنة (١٩٢٥م) ومدير مجلة «الشهاب»، انتخب عضوًا في المجلس الإداري لـ «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» عام ١٩٤٦م- اعتقل مرات من طرف الاستعمار الفرنسي، كان آخرها بتاريخ ١٣/ ٩/ ١٩٥٨م وبعدها لم يظهر له أثر، رَحِمَهُ اللهُ.
انظر «صراع بين السنة والبدعة» (١/ ١١٢- ١١٦) لأحمد حماني، و«من أعلام الإصلاح في الجزائر» (١/ ١٦٩- ١٧١) لمحمد الحسن فضلاء.

(٢) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٢/ ٢٤٩- ٢٥٣).

مجالس التذكير

بقلم: الإمام محمد البشير الإبراهيمي

هذا هو العنوان الذي كان يضعه الأستاذ الرئيس عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما يكتبه بقلمه البليغ في تفسير بعض الآيات القرآنية الجامعة، ويجعله فواتح لأعداد مجلة «الشهاب» وهي لمع لامعة في التفسير، يتمنى قارئها عند كل جملة منها لو أن الأستاذ أتم تفسير القرآن كله كتابة، كما أتمه درسًا على تلك الطريقة وبذلك التحليل، إذ يرى أسلوبًا مشرق الجوانب بنور العلم لا يفوقه في الروعة إلا حسن فهم كاتبه للقرآن.

قرأ الناس تلك الفواتح في «الشهاب»، واستفاد منها المستعدون ما يسَّر عليهم فهم القرآن في جملته، إذ جعلوا من ذلك القليل مرشدًا للكثير، فكأنهم لازموا الأستاذ خمسًا وعشرين سنة.

واستفاد منه المتأدبون مثالًا عاليًا من ذلك الأسلوب الذي يجمع الأدب والعلم، فيستهوي العالم والأديب.

وقد كان الأستاذ - في قلَّة من علمائنا - ممن انطبعت ملكاتهم على ذلك الأسلوب الذي يعلِّم العلم والأدب. ومن تلك القلة: الراغب ومسكويه[1]

(١) هو أحمد بن محمد بن يعقوب مِسْكَويه، أبو علي الأصفهاني. توفي سنة (٤٢١هـ). الأعلام (١/ ٢١١- ٢١٢).

وابن العربي وعياض[١] والزمخشري وابن خلدون[٢] والشاطبي[٣].

ولكن «الشهاب» مجلة، والمجلة عندنا بنت عم الجريدة، تُلفَظ، ولا تُحفَظ، وتُتلى ثم تُلقى. وتضيع الأجزاء، ثم يضيع الكُلّ.

وقد نشأ بعد موت الأستاذ جيل نفور من تلك النظريات الجوفاء، وتلك الأساليب الرثة، وتلك الكتب التي تحملها، شديد الظمأ إلى التحقيق العلمي الذي يفضي به إلى الاستقلال في العلم. وفتنة هذا الزمان الاستقلال في كل شيء.

وهذا الجيل لم يدرك دروس الأستاذ الحافلة، ولكنه أدرك مخايلها في مثل هذه الفصول من كتاباته، وأدرك آثارها في نفوس تلامذته، وأدرك أوصافها جائلة في أفواه الناس، فازداد شوقًا إليها، ولهفةً عليها.

فغير كثيرٍ على قادة هذا الجيل أن يهيئوا له ما يروي ظمأه ويرضي هواه من الكتب الممتازة بالتحقيق العلمي، وأن لا يتركوه فريسةً لتلك الكتب المعتلة التي نرجو أن يكون جيلنا آخر ضحاياها.

ومن الشعور بهذه الحالة التي ألممنا بها إلمامًا، سمت همة صديقنا الوفي

---

(١) هو عياض ين موسى السبتي، القاضي المالكي، من تصانيفه: «الشفا» و«ترتيب المدارك». توفي سنة (٥٤٤هـ). الأعلام (٥/ ٩٩).

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الأشبيلي، المؤرخ، العالم الاجتماعي، اشتهر بكتابه «العبر». توفي سنة (٨٠٨هـ). الأعلام. (٣/ ٣٣٠).

(٣) هو إبراهيم بن موسى الغرناطي، الشهير بالشاطبي، كان من أئمة المالكية، له «الموافقات» و«الاعتصام». توفي سنة (٧٩٠هـ). الأعلام (١/ ٧٥).

الأديب أحمد بوشمال، كاتب الأستاذ المفسر، وأمين سرِّه، فجرد من مجلة «الشهاب» قطعةً صالحةً من «مجالس التذكير» وطبعها في مطبعة «الشهاب» طبعًا أنيق الحرف، بديع الورق، فجاء تحفة فنيةً صغيرةَ الحجمِ، ولكنها عالية القدر، وفي نيته أن يصدر البقية في جزء آخر.

وقد طلب من كاتب هذه السطور أن يقدِّمه إلى القراء بكلمة، فكتبها في جلسةِ سمرٍ كثر ضجيجُها، وتمتع من الجد إلى الهزل حجيجُها، فجاءت كما يهوى العاتب، لم تف بحق المكتوب ولا بحق الكاتب. وعسى أن لا تكون كلمتي هذه دعاية سيئة للكتاب، فهو غني عن المقدمة بما فيه من علم وعرفان.

ونصيحتي الخالصة إلى كل من قرأه متفرقًا أن يقرأه مجتمعًا، وإلى كل من لم يقرأه أن يقرأه، وإلى كل ناشئ من هذا الجيل أن يجعله لدارسة التفسير مفتاحًا[1].

* * *

(١) جريدة «البصائر»: العدد (٥١) الصادر بتاريخ ٢٧/ ٩/ ١٩٤٨م (السنة الثانية من السلسلة الثانية)، وآثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٢/ ٢٥٤- ٢٥٥).

مقدمة التحقيق

إن الحمد للَّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعد، فأضع بين يدي قُراء العربية عمومًا، والجزائريين خصوصًا، الطبعة الأولى المحقَّقة للكتاب الجليل والسِّفر النفيس والتفسير البديع المعروف بـ «**تفسير ابن باديس**»، المسمَّى «**مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**»، تقييد وتحرير رائد النهضة العلمية بالجزائر، الأستاذ الكبير، والإمام المصلح الشهير، العلامة السلفي، الشيخ عبد الحميد بن باديس -المتوفى سنة ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م- رحمه اللَّه تعالى وطيَّب ثراه وجعل الجنَّة مأواه.

الباعث على تحقيق الكتاب:

وقد دفعني إلى تحقيق الكتاب وتخريج أحاديثه وآثاره والتعليق عليه أمور، من أهمها:

١- إحياء ما اندرس من تراث علماء الجزائر، ونشره نشرًا علميًّا، يسرُّ الباحثين وطلاب العلم، وفي مقدِّمتهم آثار إمامنا الهُمام، حسنة الأيام، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رحمه اللَّه تعالى وسائر علماء الإسلام.

٢- أن هذا الكتاب النفيس -تفسير ابن باديس- مع تعدُّد نشراته لم يلق العناية اللائقة به.

٣- الوفاء ببعض حقوق الإمام علينا -نحن معشر الطلبة الجزائريين- بما خرَّج من رجال، وربَّى من أجيال، وخلَّف من آثار، ولدوره الرائد في نهضتنا العلمية.

٤- التشرُّف بخدمة كتاب اللَّه -جلّ وعلا- في علم عظيم من علومه -علم التفسير- بإخراج أثر من آثاره المصنَّفة فيه.

٥- الاستجابة لرغبة وطلب من لا يمكنني ردُّ طلبه، وتحقيق أمنيته في إخراج الكتاب محققة نصوصه، مخرجة أخباره، أعني أستاذنا محمد الصالح رمضان -حفظه اللَّه تعالى وقوّاه- أحد تلاميذ الإمام الأوفياء، بعد اطلاعه على بعض بحوثي وتحقيقاتي المنشورة.

تفسير ابن باديس «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير»:

«هذا هو العنوان الذي كان يضعه الأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ لما يكتبه بقلمه البليغ في تفسير بعض الآيات القرآنية الجامعة، ويجعله فواتح لأعداد مجلة «الشهاب»، وهي لُمَعٌ لامعةٌ في التفسير، يتمنى قارئها عند كل جملة منها لو أنَّ الأستاذ أتمَّ تفسير القرآن كلِّه كتابة، كما أتمَّه درسًا على تلك الطريقة وبذلك التحليل، إذ يرى أسلوبًا مشرق الجوانب بنور العلم لا يفوقه في الروعة إلَّا حسن فهم كاتبه للقرآن»[1].

(١) ما بين المزدوجين من كلام الشيخ الإبراهيمي. انظر فيما تقدم (ص١٥).

مكانته عند أهل العلم والفضل:

- قال الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي -رحمه اللَّه تعالى- :

«كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ ذوقٌ خاصٌّ في فهم القرآن كأنه حاسَّة زائدة خُصَّ بها. يرفده -بعد الذكاء المشرق، والقريحة الوقادة، والبصيرة النافذة- بيانٌ ناصعٌ، واطلاعٌ واسعٌ، وذرعٌ فسيحٌ في العلوم النفسية والكونية، وباعٌ مديدٌ في علم الاجتماع، ورأيٌ سديدٌ في عوارضه وأمراضه. يمدُّ ذلك كلَّه شجاعةٌ في الرأي، وشجاعة في القول لم يرزقهما إلَّا الأفذاذ المعدودون في البشر»[١].

- وقال العلَّامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني -رحمه اللَّه تعالى- :

«وقد كنتُ قرأتُ حولها[٢] بحثًا فياضًا ممتعًا في «تفسير العلَّامة ابن باديس»، فليراجعه من شاء زيادة بيان»[٣].

- وقال الأستاذ الشاعر محمد العيد آل خليفة -رحمه اللَّه تعالى- :

يراعك في التحرير أمضى من الظبى ... وأقضى من الأحكام أيان يُشهرُ
ودرسك في التفسير أشهى من الجنى ... وأبهى من الروض النضير وأبهرُ
ختمتَ كتابَ اللَّهِ ختمةَ دارسٍ ... بصيرٍ له حلُّ العويصِ مُيَسَّرُ
فكم لك في القرآنِ فهمٌ مُوَفَّقٌ ... وكم لك في القرآنِ قولٌ مُحَرَّرُ

---

(١) انظر (ص ١١) المتقدمة.

(٢) يعني في بيان بطلان الجملة التي اشتهرت بها الصوفية رابعة العدوية: «ربّ! ما عبدتك طمعًا في جنتك، ولا خوفًا من نارك»!

(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ٤٢٧).

قبستَ مِن القرآنِ مشعلَ حكمةٍ يُنارُ به السِّرُّ اللَّطيفُ ويُبصَرُ
وبيَّنتَ بالقرآنِ فضلَ حضارةٍ أَقرَّ لها كِسرى وأَذْعَنَ قَيْصَرُ[١]

منهج ابن باديس في تفسيره وطريقته فيه:

إن منهج ابن باديس في تفسير القرآن ومعرفة معانيه هو منهج الراسخين في العلم من أئمة السلف الذين لا يُرتاب في كمال علمهم، وأئمة الخلف الذين درجوا على هديهم.

ويتلخص هذا المنهج في تفسيرهم القرآن بالقرآن والسنة الصحيحة، وإلَّا فبأقوال الصحابة[٢] ﵃، وإلَّا فبأقوال التابعين[٣] رحمهم اللَّه، وإلَّا فبلغة العرب التي نزل بها الوحي[٤].

وقد سار الإمام على هذا المنهج الصحيح في تفسيره، وطبقه أحسن تطبيق.

- **ففي تفسير قوله تعالى:** ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

يقول تحت عنوان: «بيان القرآن للقرآن»:

«في هذه الآية أنهم يلقَّون تحيةً وسلامًا، وقد بيَّن من يتلقَّاهم بذلك في

(١) ديوان محمد العيد آل خليفة (ص ١٥٦).

(٢) كعبد اللَّه بن مسعود الصحابي الجليل الفقيه، وكالحبر البحر ترجمان القرآن: عبد اللَّه بن عباس، وغيرهما، رضي اللَّه عن الجميع.

(٣) كمجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة مولى ابن عباس والحسن البصري وغيرهم.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٣- ٣٧٥) لابن تيمية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، فالملائكة هم الذين يتلقونهم بالسلام والدعاء لهم بالطيب، وهو مما يدخل في التحية، لأن من طيبهم طيب حياتهم.

وما أكثر ما تجد في القرآن بيان القرآن، فاجعله من بالك تهتد -إن شاء اللَّه- إليه».

- **وفي تفسير قوله تعالى:** ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] **يقول تحت عنوان: «تفسير نبوي»:**

«أخرج البخاري -رحمه اللَّه تعالى- في «صحيحه» عن أبي هُريرة -رضي اللَّه تعالى عنه- قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: «**تفضل صلاةُ الجميع صلاةَ أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءًا، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر**».

ثم يقول أبو هريرة: فأقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

فاستشهد أبو هُريرة بالآية على الحديث ليبيِّن أنه تفسيرٌ لها، وأن صلاة الفجر مشهودة تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار.

وجاء هذا عند أحمد عن ابن مسعود مرفوعًا إلى النبي ﷺ».

- **وفي تفسير قوله تعالى:** ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [الفرقان: ٧٧].

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحت عنوان: «تفسير أثري»:

«أخرج البخاري في «كتاب التفسير» عن عبد اللَّه بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «خمس قد مضين: الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام».

ورواه في مواضع أخرى من «صحيحه».

وعنى بالدخان المذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، وبالقمر المذكور في ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وبالبطشة المذكورة في ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [الدخان: ١٦]، وباللزام المذكور في هذه الآية.

وفسّر ابن مسعود البطشة الكبرى بيوم بدر، وفسّر اللزام به أيضًا، فهي في الحقيقة أربع، وعدَّها خمسًا باعتبار الوصفين: البطش والملازمة.

وفسّر الحسن[1] اللِّزام بعذاب يوم القيامة.

ومن عادة السلف أنهم يفسّرون اللفظ بما يدخل في عمومه دون قصد للقصر عليه، ولا منافاة حينئذ بين التفسيرين، فيكونون قد تُوُعِّدُوا على تكذيبهم بلزوم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة».

- وفي الكتاب أمثلة أخرى سيقف عليها القارئ -إن شاء اللَّه- في مواضعها.

(١) يعني الحسن البصري، التابعي الجليل.

*** وأمَّا الخطوات التي اتبعها الإمام في تفسيره، فتتمثل فيما يلي:**

١- تمهيد: يضع القارئ في جوِّ النص القرآني المراد تفسيره.

٢- المناسبة: وذلك ببيان ارتباط الآيات بما قبلها.

٣- سبب النزول: لأنه يعين على فهم الآية أو الآيات.

٤- الألفاظ أو المفردات، بتفسيرها بأرجح معانيها اللغوية، مما يساعد القارئ على فهم مضمون الآية أو الآيات.

٥- التراكيب: بتحليلها وحملها على أبلغ أساليبها البيانية، مبرزًا خصائص الأسلوب العربي.

٦- المعنى أو التفسير: بإيضاح المعنى العام للآية أو الآيات، إيضاحًا لا يشوبه إيجاز مخلّ ولا إسهابٌ مملّ.

٧- الأحكام، باستخراج ما في الآية أو الآيات من أحكام وحِكم، وحقائق وقيم مختلفة، عقدية، وتشريعية، وأخلاقية، ونفسية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وتاريخية، وكونية، مع استطراد -أحيانًا- في الجمع والتحقيق، و الغوص والتدقيق، والتأصيل والتفريع والتفصيل، والتعليل والتحليل، والتنبيه و التنويه والتوجيه، وتطريزها بالفوائد العلمية والنكت البلاغية ونحوها.

تحذير الإمام ابن باديس من تحريفات المبطلين في تفسيرهم للقرآن الكريم:

ومع اتباع الإمام لسبيل المؤمنين واقتفائه لآثار مَن سبقه من العلماء المحققين وتمسكه بالأصول العلمية في التفسير والقواعد المرعية في بيان القرآن، فقد كان -عليه الرحمة والرضوان- شجًا في حلوق المبطلين المحرّفين لكتاب اللَّه وآيِهِ عن معناها الصحيح وبيانها الرجيح، محذرًا المؤمنين من هذا السلوك المعوجّ القبيح[(١)]!

فقد كتب رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] تحت عنوان: «تحذير من تحريف»:

«رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة اليوم على الأرض -وهي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان- فقالوا: إن رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم اللَّه بإرث الأرض! وزعموا أن المراد بِ (الصالحون) في الآية الصالحون لعمارة الأرض!!

فيا للَّه للقرآن! وللإنسان! من هذا التحريف السخيف!

كأنّ عمارة الأرض هي كل شيء ولو ضلّت العقائد، وفسدت الأخلاق،

---

(١) كما حذّر رَحِمَهُ اللَّهُ من بعض التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية، كتفسير أبي عبد الرحمن السلمي من المتقدمين، والتفسير المنسوب لابن عربي من المتأخرين.
انظر (ص) الآتية.

واعوجّت الأعمال، وساءت الأحوال، وعذّبت الإنسانية بالأزمات الخانقة، وروّعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهدّدت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها.

هذه هي بلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمَّرت الأرض وأفسدت الإنسان، ثم يريد هذا المحرّف أن يطبّق عليها آية القرآن:

كتاب الحق والعدل والرحمة والإحسان، وإصلاح الإنسان ليصلح العمران.

فأمَّا «الصالحون» فهو لفظ قرآني قد فسّره القرآن كما قدّمناه، وقد شرّف أهله بإضافتهم إلى اللَّه في قوله: ﴿عِبَادِي﴾، فحمله على الصالحين لعمارة الأرض تحريف للكلام عن مواضعه أبشع التحريف وأبطله، فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين!».

من اختيارات الإمام في تفسيره للقرآن:

كان ابن باديس -على ما أُوتي من ملَكةٍ في هذا العلم- لا يتوانى عن الجمع بين الأقوال المختلفة والآراء المضطربة الواردة في «تفسير الآية إن أمكن، وإلَّا صرح بالراجح -في اختياره- منها، مبديًا -أحيانًا- رأيه المخالف للمشهور بلغة الواثق من نفسه، المتمكّن من فنه، المعتدّ باجتهاده.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩].

يقول: «والمصانع، يقول المفسِّرون إنها مجاري المياه أو هي القصور . . .

ولكن ليت شعري ما الذي صرف المفسِّرين اللفظيين عن معنى المصنع

اللفظي الاشتقاقي!؟

والذي أفهمه ولا أعدل عنه هو أنّ المصانع جمع مصنع، من الصنع، كالمعامل من العمل، وأنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران.

وهل كثير على أمة -توصف بما وصفت فيه في الآية- أن تكون لها مصانع بمعناها العرفي عندنا؟

بلى، وإنّ المصانع لأوّل لازم من لوازم العمران، وأوّل نتيجة من نتائجه.

ولا أغرب من تفسير هؤلاء المفسّرين للمصانع إلَّا تفسير بعضهم للسائحين والسائحات بالصائمين والصائمات!

والحق أن السائحين هم الرحالون والروَّاد للاطلاع والاكتشاف والاعتبار؛ والقرآن الذي يحث على السير في الأرض والنظر في آثار الأمم الخالية حقيق بأن يحشر السائحين في زمرة العابدين والحامدين والراكعين والساجدين، فربما كانت فائدة السياحة أتمّ وأعمّ من فائدة بعض الركوع والسجود».

ويقول أيضًا:

«وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، فإن المفسّرين السطحيين يحملونه على ظاهره، وأي عاقل يطلب بُعد الأسفار!؟

والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم، وإنما هو نتيجة أعمالهم، ومن عمل عملًا يفضي إلى نتيجة لازمة، فإن العربية تعبّر عن تلك النتيجة بأنها

قوله، وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة.

ولازال الناس -على عاميتهم- يقولون فيمن عمل عملًا يستحق عليه الضرب أو القتل إنه يقول: اقتلني أو اضربني، وهو لم يقل ذلك وإنما أعماله هي التي تدعو إلى ذلك.

فالمعنى أن أعمالهم هي التي طلبت جزاءها اللازم لها المرتبط بها ارتباط اللازم بالملزوم، والدال بالمدلول، فكأن ألسنتهم قالت ذلك.

ويؤيد هذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٣٩] لأن الجزاء أثر للفعل فهو مرتبط به.

ولا يقولن قائلٌ: إن القول يقع مدلوله في القلب حالًا، ولا كذلك العمل فقد يتأخر جزاؤه طويلًا؛ لأن الجزاء إذا كان محقق الوقوع يصير كأنه حاصل بالفعل، وكل عاقلٍ يقطع بأنه إذا وقع الظلم من الظالم فقد استحق عليه الجزاء، ولا يلاحظ مسافة ما بين الظلم وجزائه.

أمَّا المباعدة بين أسفارهم التي اقتضاها كفرهم بأنعم اللَّه، فهي كناية عن محو العمران وخراب القُرى التي كانت ظاهرة متقاربة حتى لا يبقى منها إلَّا القليل فيتباعد ذلك القليل بالطبع بخراب الكثير.

وأين العمران المتلاحم الذي يرتاح فيه المسافر لضبط المسافة وتعدّد المشاهد من الخراب الذي يوحش النفس، فيزيد المسافة بُعدًا على بُعد».

مصادر الإمام ومراجعه في دروس التفسير:

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وعمدتنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة:

١- تفسير ابن جرير الطبري: الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية، وبأسلوبه الترسلي البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية، وبترجيحاته لأَوْلى الأقوال عنده بالصواب.

٢- وتفسير الكشاف: الذي يمتاز بذوقه البياني في الأسلوب القرآني، وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب، والتنظير لها بكلام العرب، واستعمالها في أفانين الكلام.

٣- وتفسير أبي حيَّان الأندلسي: الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية وتوجيهه للقراءات.

٤- وتفسير الرازي: الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية مما يتعلّق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العلوم الكلامية، ومقالات الفِرَق، والمناظرة في ذلك والحِجاج.

إلى غير هذا مما لابدّ لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام، وغيرها مما يقتضيه المقام.

نقول هذا ليعرف الطلبة مصادر درسنا، ومآخذ ما يسمعونه منَّا».

أشهر طبعات الكتاب:

وقد تصدَّى بعضُ الباحثين من تلاميذ الإمام ابن باديس الأوفياء وحوارييه البررة، وغيرهم، لتجريد «مجالس التذكير» من مجلة «الشهاب» ونشرها كتابًا مستقلًّا، قيامًا بحق الوفاء للإمام الفقيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإحياءً لأشرف أثر من آثاره، فطبعت أكثر من مرَّة، ومن أشهر ما وقفتُ عليه منها:

١- نشرة أحمد بوشمال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: الذي جرّد من تلك المجالس آيات مختارة من سورة الفرقان فقط، وطبعت بالمطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م، مصدرة بمقدمة ضافية بقلم العلَّامة الأديب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢- نشرة الأستاذ محمد الصالح رمضان[2]، بمشاركة الأستاذ توفيق محمد شاهين المصري، اللَّذَين عملا على تجريد المجالس من المجلة، ولم يَفُتْهما منها سوى القليل[3]، فخرج الكتاب في ٥٣٨ صفحة، ونشره دار الكتاب الجزائري بالجزائر، وطبع بمطبعة الكيلاني بالقاهرة سنة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٣- نشرة وزارة الشؤون الدينية بالجزائر[4]، وطبع «دار البعث» بقسنطينة سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

---

(١) انظر صورة عن غلاف هذه النشرة الأولى آخر هذه المقدمة.

(٢) انظر صورة عن غلاف هذه النشرة آخر هذه المقدمة.

(٣) كتفسير الآيتين (٨٠، ٨١) من سورة الإسراء.

(٤) انظر صورة عن غلاف هذه النشرة آخر هذه المقدمة.

٤- نشرة دار الكتب العلمية ببيروت[1]، سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، مصورة عن النشرة الثانية، وعلق عليها وخرّج آياتها وأحاديثها: أحمد شمس الدين.

عملي في الكِتاب:

سلكتُ في خدمة الكتاب والاعتناء به ما يلي:

أ - تحقيقًا: بإخراج النصّ كما تركه الإمام، خاليًا -إن شاء اللَّه- من أيّ تحريفٍ أو تصحيف أو سقط، مما لا تخلو منه غالبًا النشرات المتقدمة، واستعنتُ لبلوغ ذلك بِ:

١- مقابلة المطبوع بالأصل، وهو مجلة «الشهاب» التي نُشرت قبل بضع سنين بدار الغرب الإسلامي ببيروت، في ١٦ مجلدًا.

٢- توثيق بعض النصوص بالرجوع إلى مصادرها.

ب - تخريجًا: لِ:

١- الآيات القرآنية الكريمة: بذكر السورة ورقم الآية، وجعلتُ ذلك في المتن.

٢- الأحاديث النبوية الشريفة والآثار السلفية: بعزوها إلى كتب السنة المشهورة، مُصَدِّرًا كلّ حديثٍ أو أثرٍ بدرجته: صحةً أو حسنًا أو ضعفًا، طبقًا للقواعد العلمية المقررة في علم مصطلح الحديث ورجاله، مستنيرًا بكلام الحفاظ الجهابذة فيه.

وقد أعطيتها رقمًا متسلسلًا من أوّل الكتاب إلى آخره.

---

(١) انظر صورة عن غلاف هذه النشرة آخر هذه المقدمة.

ج - تعليقًا : بِ:

١ - تصويب الأخطاء الواقعة في أصل مجلة «الشهاب»، والإشارة إلى ذلك في الحاشية.

٢- شرح بعض الألفاظ الغريبة.

٣- ترجمة بعض الأعلام المغمورين.

٤- تعقُّب الإمام في مواضع معدودة بعبارة لطيفة فيها أدب وإجلال، بعيدًا عن كل عجرفة وتطاول! مدَعمًا بالدليل والبرهان، مسترشدًا بالمحققين الفحول في هذا الشأن.

د - ترتيبًا :

فقد رتبتُ «مجالس التذكير» وفق ترتيب الآيات والسور في المصحف الشريف.

ثم ضممتُ لها بعض المقالات كملاحق، تذييلًا، لصلتها الوثيقة بالقرآن وتفسيره.

هـ - فهرسةً :

بصنع فهارس للكتاب وهي :

١ - فهرس أطراف الآيات القرآنية الكريمة.

٢- فهرس أطراف الأحاديث النبوية الشريفة.

٣- فهرس أطراف الآثار السلفية وغيرها.

٤- فهرس الفوائد.

٥- فهرس الألفاظ المشروحة.

٦- فهرس الأعلام.

٧- فهرس المذكورين بجرح أو تعديل.

٨- فهرس الشعر.

٩- فهرس الأمثال.

١٠ - فهرس الموضوعات.

هذا جهدي -وهو جهد المقلّ- في خدمة هذا الكتاب الجليل: «**تفسير ابن باديس**» فإن وُفِّقْتُ وأصبتُ ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾، وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان، واللَّه ورسوله منهما برآء.

فاللَّهمّ اغفر لي خطئي وعمدي، وهزلي وجِدّي، وكل ذلك عندي.

أسأل اللَّه تعالى أن يجعل أعمالي كلّها صالحةً ولوجهه خالصةً، وأن لا يجعل لأحدٍ فيها شيئًا.

اللَّهم ارحم عبدك ابن باديس رحمةً واسعةً، واجزه خير ما تجزي العلماء العاملين المصلحين.

وقبل أن أضع القلم، لا أنسى شكر كلّ من أعانني لإخراج الكتاب بهذه الصورة المشرقة والحُلَّة البهية التي تسرّ الباحثين.

أسأل اللَّه القبول، إنه بالإجابة مأمول.

و«سبحانك اللَّهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلَّا أنتَ، أستغفرك وأتوب إليك».

وكتب:

أبو عبد الرحمن محمود

الجزائر في ١٥ رجب ١٤٢٦هـ

التعريف بالمصنف(١)
الشيخ عبد الحميد بن باديس
-رحمه اللّٰه تعالى-

اسمه ونسبه:

هو عبد الحميد بن محمّد بن مكّي بن باديس الصنهاجي.

وينتهي نسبه إلى المعزّ بن باديس مؤسّس الدولة الصنهاجية الأولى التي خلّفت الأغالبة على مملكة القيروان.

مولده:

وُلد عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة يوم الأربعاء ١٠ ربيع الثاني ١٣٠٨هـ/ الموافق لـ ٤/ ١٢/ ١٨٨٩م.

ووالده: محمّد مصطفى بن مكّي بن باديس، صاحب مكانةٍ مرموقةٍ وشهرةٍ واسعةٍ.

وأمّه: السيدة زهيرة بنت عليّ الأكحل بن جلّول.

نشأته العلمية وأعماله:

- حفظ القرآن الكريم على الشيخ المدَّاسي، ولمَّا يبلغ الثالثة عشر من

---

(١) لَخَّصناه من «نبذة مختصرة عن العلَّامة الشيخ عبد الحميد بن باديس» الجزء الأول من سلسلتنا: «النبذ في التعريف بأعلام جمعية العلماء».

عمره.

- أخذ مبادئ العلوم الشرعية والعربية على الشيخ حمدان الونّيسي.

- سافر إلى جامع الزيتونة بتونس، فتتلمذ على خيرة علمائه كالشيخ محمّد النخلي والشيخ الطاهر بن عاشور وغيرهما، وتخرج منه بشهادة التطويع [العالمية] عام ١٩١١م.

- في عام ١٩١٢م عاد من تونس، ليلقي بعض الدروس في «الجامع الكبير» بقسنطينة من كتاب «الشفا» للقاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ، لكنّه سرعان ما مُنع.

- في عام ١٩١٣م غادر قسنطينة متوجّهًا إلى الحجاز لأداء فريضة الحجِّ.

- وفي المدينة النبوية التقى بأستاذه حمدان الونّيسي، كما تعرّف على الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي.

- رجع ابن باديس إلى قسنطينة ليباشر التعليم في «الجامع الأخضر» بسعي من والده لدى الحكومة.

- وفي «الجامع الأخضر» ختم تفسير القرآن تدريسًا في ربع قرن، كما أتمّ شرح كتاب «الموطأ» لإمام دار الهجرة مالك بن أنس -رحمه اللَّه تعالى- تدريسًا أيضًا.

- أصدر -بعد تأسيس «المطبعة الجزائرية الإسلامية»- عدَّة جرائد من أشهرها: «المنتقد» و«الشهاب» و«السنَّة» و«الشريعة» و«الصراط» و«البصائر»، لتبليغ الدعوة الإصلاحية السلفية.

- وفي سنة **١٩٣١**م تمّ تأسيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» فانتُخِبَ الشيخُ عبدُ الحميد رئيسًا لها.

- أسّس بمؤازرة إخوانه المصلحين المساجد والمدارس الحرَّة والنوادي العلمية في شتى أنحاء القطر الجزائري.

شيوخه:

- من أشهرهم بقسنطينة: الشيخ حمدان الونّيسي، وبتونس: العلَّامة محمّد النخلي، والشيخ الطاهر بن عاشور، ومحمّد بن القاضي، ومحمّد الصادق النيفر، وبلحسن النجار، وغيرهم من علماء الزيتونة الأعلام.

وبالمدينة النبوية: الشيخ أحمد الهندي.

وبمصر: شيخاه بالإجازة: العلَّامة محمّد بخيت المطيعي، والشيخ أبو الفضل الجيزاوي.

تلاميذه:

وهم كثيرون، من أبرزهم: العلَّامة الشيخ مبارك الميلي مؤلف «رسالة الشرك ومظاهره» و«تاريخ الجزائر»، والشيخ الفضيل الورثلاني، وموسى الأحمدي، والهادي السنوسي، وباعزيز بن عمر، ومحمّد الصالح بن عتيق، ومحمّد الصالح رمضان وغيرهم.

ثناء أهل العلم والفضل عليه:

- قال الشيخ محمّد البشير الإبراهيمي فيه: «باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر، وواضع أسسها على صخرة الحقّ وقائد زحوفها المغيرة

إلى الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية، ومنشئ مجلة «الشهاب» مرآة الإصلاح وسيف المصلحين، ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمّدي وعلى التفكير الصحيح، ومحيي دوارس العلم بدروسه الحيَّة، ومفسّر كلام اللَّه على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة، وملقّن مباديها، عالم البيان وفارس المنابر، الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد ابن باديس».

- وقال الشيخ الميلي: «الأستاذ العظيم والمرشد الحكيم، عدَّتنا العلمية وعمدتنا الإصلاحية».

- وقال الشيخ الطيّب العقبي: «المصلح الفذّ، والعلَّامة الذي ما أنجبت الجزائر -منذ أحقاب- مثله إلَّا قليلًا».

عقيدته:

كان العلَّامةُ ابنُ باديس سلفيًّا، متمسّكًا بالكتاب الكريم والسنَّة الصحيحة، مُعتدًّا بفهم السلف الصالح لهما، وقد قرّر ذلك في أكثر من مناسبة، منها ما حرّره في خاتمة «رسالة جواب سؤال عن سوء مقال» التي نُشِرَتْ باعتنائِنا. حين قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «. . الواجب على كلِّ مسلم في كلّ مكانٍ وزمانٍ أن يعتقد عقدًا يتشرّبه قلبُه، وتسكن له نفسُه، وينشرح له صدرُه، ويلهج به لسانُه، وتنبني عليه أعمالُه، أنّ دينَ اللَّه تعالى من عقائد الإيمان وقواعد الإسلام وطرائق الإحسان، إنّما هو في القرآن والسنَّة الصحيحة وعمل السلف الصالح، من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وأنّ كلّ ما خرج عن هذه الأصول ولم يحظ لديها بالقبول -قولًا كان أو عملًا أو عقدًا أو حالًا- فإنّه

باطلٌ من أصله، مردودٌ على صاحبه، كائنًا من كان، في كلّ زمانٍ ومكانٍ. . ».

آثاره:

لم يَصِلْ إلينا منها سوى:

١- «تفسير ابن باديس» أو «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير».

٢- «من هدي النبوة» أو «مجالس التذكير من كلام البشير النذير ﷺ».

٣- «رجال السلف ونساؤه».

٤- «القصص الهادف».

٥- «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية».

٦- «مبادئ الأصول».

٧- «رسالة جواب سؤال عن سوء مقال». وقد نُشِرَتْ قريبًا باعتنائِنَا.

٨- «العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي المالكي»: تحقيق وتقديم.

٩- «تحفة المستهدي في إثبات خروج المهدي»: وقفتُ على الورقة الأولى من هذه الرسالة المخطوطة في مكتبة الشيخ نُعيم النُّعيمي -رحمه اللَّه تعالى-.

١٠- «التأفين لمنكر التأبين»: وقفتُ على نسختين خطيتين منها، وعند أخينا الدكتور جمال عزّون نسخة ثالثة، وهو يعمل على تحقيقها، وفَّقه اللَّه وأعانه وسدَّد خطاه.

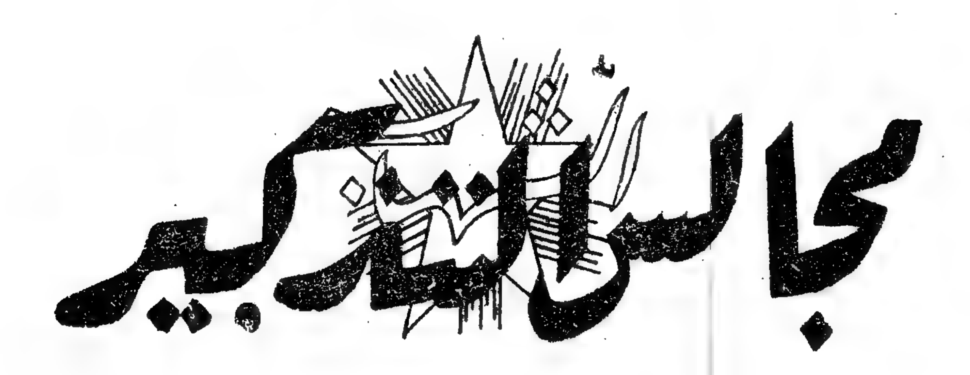
كما جُمعت مقالاته في «الشهاب» و«البصائر» وغيرهما ونُشرت ضمن آثاره غير مرَّة.

وفاته:

توفي الشيخ عبد الحميد بن باديس -بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال- مساء الثلاثاء ٨ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ الموافق لـ١٦/ ٤/ ١٩٤٠م، ودفن في روضة أسرته، بحي الشهداء قرب مقبرة قسنطينة.

رحمه اللَّه تعالى رحمةً واسعة وأسكنه فسيح جناته.

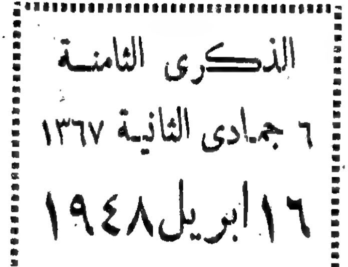
* * *



لفضيلة الاستاذ الرئيس

عبد الحميد بن باديس

رحمه الله



صورة عن غلاف النشرة الأولى

من تراثنا الخالد

تفسير ابن باديس

أو

مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير

للإمام العلامة

عبد الحميد بن باديس

جمع وترتيب وإعداد ومراجعة وتعليق

محمد الصالح رمضان
مدير التعليم الديني
بوزارة الأوقاف بالجزائر

توفيق محمد شاهين
بمجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر

الناشر
دار الكتاب الجزائري
١٣ شارع العربي بن مهيدي
الهاتف: ٦٢٩٤٩١ - الجزائر

صورة عن غلاف النشرة الثانية

مجالس التذكير

من كلام الحكيم الخبير

للإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس

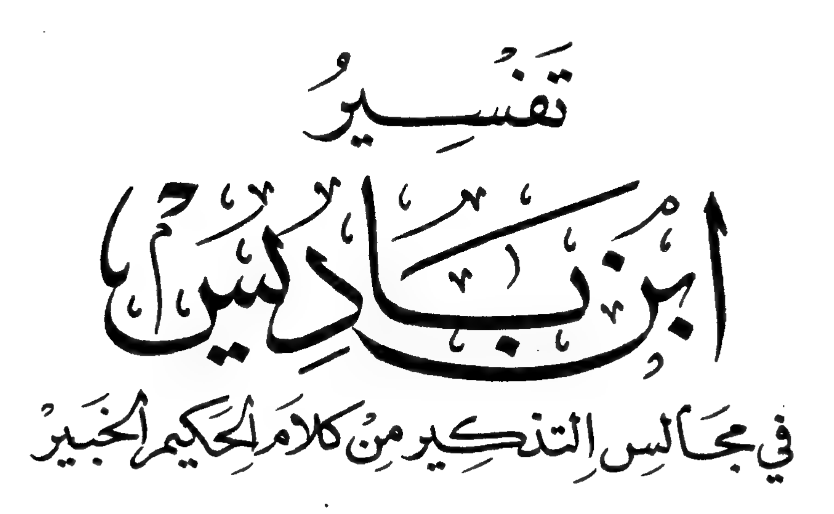
من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية

الطبعة الأولى

سنة 1402
1982



صورة عن غلاف النشرة الثالثة



للإمام العلامة

عبد الحميد بن محمد ابن باديس الصنهاجي

١٣٠٨ - ١٣٥٩ هـ

جمع وترتيب

د. توفيق محمد شاهين
جامعة الأزهر

محمد الصالح رمضان
أستاذ بوزارة التربية الجزائرية

علق عليه وخرج آياته وأحاديثه

أحمد شمس الدين

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

صورة عن غلاف النشرة الرابعة

بين يدي التفسير

* التذكير.
* الذكر.
* ما هو أفضل الأذكار؟

* * *

التذكير

* حقيقته.
* حاجة الخلق إليه.
* القائمون به.
* تذكير النبي ﷺ.
* ما كان يذكِّر به.
* من كان يذكِّر؟
* مشروعية التذكير في الإسلام.

❋ ❋ ❋

التذكير

حقيقته:

حقيقة التذكير: أن تقول لغيرك قولًا يذكر به ما كان به جاهلًا أو عنه ناسيًا أو غافلًا، وقد يقوم الفعل والسمت والهدي مقام القول فيسمَّى تذكيرًا مجازًا وتوسُّعًا، ويجمع الثلاثة قولك: عباد اللَّه الصالحون يذكِّرون الخَلق بالخالق بأقوالهم وأعمالهم وسمتهم.

حاجة الخلق إليه:

وحاجة العباد إلى هذا التذكير أعظم ما يحتاجون إليه وأشرفه وألزمه، فإنَّ سعادتهم الحقيقية في هذه الحياة بإنارة عقولهم وزكاة نفوسهم واستقامة سلوكهم، وفي الحياة الأخرى بنعيم الجنان وحلول الرضوان، إنما هي بإيمانهم بربهم وشكرهم له.

وأن دلائل وجوده ووحدانيته وقيوميته وآثار فضله وإحسانه ورحمته ماثلة في الكون بادية للعيان، داعية إلى الشكر هادية إلى الإيمان.

لكن العقول كثيرًا ما تكون مغلولة بقيود أهوائها، محجوبة بحجب غفلتها، فتعمى عن تلك الدلائل والآثار، فتكفر كفر جحود وعناد، أو كفر عصيان وطغيان، ويكون تورطها في كبائر الذنوب وصغائرها على مقدار تلك الحجب وتلك القيود، وليس لغير من عصم اللَّه انفكاك أو خروج منها، كلها، فهم إذن بأشد الحاجة إلى تذكيرهم بتلك الدلائل وتلك الآثار ليحصلوا

أسباب سعادتهم بالإيمان والشكر.

القائمون به:

قد علم اللَّه حاجة عباده إلى التذكير، فاصطفى منهم رجالًا أنعم عليهم بكمال الفكر ووقاية العصمة، وأرسلهم لتذكير العباد ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١٦٥] ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٩﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩].

فالأنبياء والمرسلون - عليهم الصلاة والسلام - هم أولوا هذا المقام الجليل، مقام التذكير، ثم من بعدهم ورثتهم من العلماء العاملين.

تذكير النبي ﷺ:

قد كان النبي ﷺ على سنة إخوانه من الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام - في القيام بتذكير العباد ممتثلًا أمر ربه - تعالى - له بقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٢].

إذ السيطرة لا تكون على القلوب، والإيمان - وهو من أعمال القلب - لا يكون بالإكراه، وإنما يكون بذكر الحجج والأدلة، وكذلك كانت سنة المرسلين في الدعوة إلى اللَّه كما قصَّها علينا القرآن الكريم في كثير من السور والآيات.

ما كان يذكِّر به:

كان ﷺ يذكِّرهم بقوله وعمله وهديه وسمته، وكان ذلك كله منه على

وفق هداية القرآن وحكمه.

وقد قالت عائشة الصديقة - رضوان الله عليها - لما سُئلت عن خُلقه - والخُلق هو الملكة النفسية التي تصدر عنها الأعمال - قالت: «كان خلقه القرآن»[١].

فكان تذكيره كله بآيات القرآن: يتلوها ويبينها بالبيان القولي والبيان العملي، ممتثلًا في ذلك كله أمر ربه تعالى بقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ٤٥].

فالقرآن وبيانه القولي والعملي من سنة النبي ﷺ، بهما يكون تذكير العباد ودعوتهم لله رب العالمين، ومن حاد في التذكير عنهما ضلَّ وأضلَّ، وكان ما يضر أكثر مما ينفع إن كان هنالك من نفع.

من كان يذكِّر؟

كان ﷺ لا يفتأ مذكرًا للمؤمنين والكافرين، والله يهدي من يشاء ويوفق من يريد، وقد أمر بالتذكير مطلقًا في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغَاشِيَة: الآية ٢١].

وكانت سيرته العملية في التذكير هي العمل بهذا الإطلاق، فما كان يخص قومًا دون قوم في الدعوة والتذكير، فكانت هاته السنة العملية دليلًا على أن ما

---

[١] صحيح:

قطعة من حديث رواه مسلم (٧٤٦) وأبو داود (١٣٣٨) والنسائي (٣/ ١٩٩-٢٠١) والدارمي (١/ ٣٤٤-٣٤٦) وأحمد (٦/ ٥٣-٥٤- و٩١ و٩٤-٩٥ و١٦٣ و٢١٦) وغيرهم مطولًا ومختصرًا عن عائشة رضي الله عنها.

جاء في صورة التقييد في بعض الآيات ليس المراد منه التقييد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: الآية ٩].

فالشرط الصوري هو للاستبعاد، أي استبعاد نفع الذكرى فيهم، ولا يزال من أساليب العربية في لسان التخاطب الدارج بيننا قول الناس لبعضهم بعضًا: «كلِّمه في كذا إذا نفع فيه الكلام» استبعادًا لنفعه فيه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ٤٥].

فليس ذكر المفعول للتقييد، وإنما هو للتنبيه على أنه هو الذي ينتفع بالتذكير نظير قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢].

مشروعية التذكير في الإسلام:

ولحاجة العباد للتذكير ومنزلته من الدين؛ شرعه اللَّه للمسلمين شرعًا مؤقتًا في خُطب الجُمع والأعياد، وشرعًا مرسلًا موكولًا للمذكِّرين على ما يرونه من نشاط الناس وحاجتهم، كما كان يتخوَّل النبي ﷺ الناس بالموعظة[٢]، وطلبه طلبًا عامًا من جميع المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العَصر: الآية ٣] في صفة المؤمنين العاملين.

وسيكون هذا الباب من المجلة مجالًا لفنون من التذكير.

جعلنا اللَّه والمؤمنين من أهل الذكرى، ونفعنا بها دنيا وأخرى(١).

---

[٢] صحيح:

فعن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال:

«كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا».

أخرجه البخاري (٦٨، ٧٠، ٦٤١١) ومسلم (٢٨٢١).

(١) الشهاب: (ج١ م٥) رمضان ١٣٤٧هـ - فيفري ١٩٣٩م.

الذكر

★ تمهيد.

★ القسم العلمي:

★ حقيقته.

★ محله.

★ إطلاقاته.

★ أقسامه:

★ القلبي: بالتفكر، بالاعتقاد، بالاستحضار.

★ اللساني: بالثناء والدعاء، بالارشاد والتعليم.

★ ذكر الجوارح: بالعمل، بالانكفاف.

★ القسم العملي:

★ السيرة النبوية في الذكر.

★ كيفية السلوك عليها.

★ التحذير.

❋ ❋ ❋

الذِّكْر

تمهيد:

- الذكر أصل من أصول الدين العظيمة أو هو الدين كله، ولذا امتلأ القرآن العظيم بالآيات المشتملة عليه.

فالمسلم إذًا شديد الحاجة إلى معرفته وفقهه، وطريقة العمل به.

وقد تعرضنا لبيان ذلك فيما سيأتي، وجعلنا الكلام في قسمين وختمناه بالتحذير مما خرج عن سواء القصد بغلوٍّ أو تقصير ليكون الواقف عليه على بصيرة مما يأتي منه أو يدع.

القسم العلمي

- الذكر حضور الشيء في القلب الحضور الثاني بعد زواله منه المسبوق بحضور متقدم.

هذه حقيقته.

وقد يطلق على الحضور الأول توسُّعًا.

وزواله بعد حضور هو النسيان، فهما ضدان.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: الآية ٦٣].

وفي مثل:

ذكَّرتني الطَّعْنَ وكُنْتُ ناسِيًا(١)

- فالمعنى الأصلي للذكر محلُّه القلب، إذ القلب محل ضده النسيان، والضدان إنما يتضادان في محل واحد، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: الآية ٢٨] أي جعلنا قلبه غافلًا عن ذكرنا، فالغفلة في القلب والذكر في القلب.

وأخوات الذكر - كالذكرى، والتذكير والذُّكر - بضم الذال، - كلها من أعمال القلب، وهو مثلها.

وأما الصمت الذي هو من شأن اللسان فليس ضدًّا له كما قد قيل، وإنما هو ضد في كلام العرب لأعمال لسانية، كالنطق في قولهم: في المال ناطق وصامت(٢)، وما في الحديث: «**فليقل خيرًا أو ليصمت**»[٣].

- ثم يطلق الذكر إطلاقًا شائعًا على ما يجري على اللسان مما يخبر به عما

(١) وتمامه:

رُدُّوا على أقربها الأقاصيا إنَّ لَها بالمَشْرَفيِّ حادِيَا
ذكَّرتني الطَّعْنَ وكُنْتُ نَاسيَا

وأوَّل من قاله رهيم بن حزن الهلالي. انظر «مجمع الأمثال» (١٤٦٩) للميداني.

(٢) يعنون بالناطق: الحيوان: الإبل والغنم.
وبالصامت: الذهب والفضة.
انظر «لسان العرب» (٨/ ٢٧٨).

[٣] صحيح:
قطعة من حديث أبي هريرة وأبي شريح مرفوعًا:
«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت».
أخرجه البخاري (٦٠١٨ و٦٠١٩ و٦١٣٥ و٦١٣٦ و٦١٣٨ و..) ومسلم (٤٧، ٤٨).

في القلب ويعبر عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ [الصَّافات: الآية ٣].

وسمَّى اللَّه - تعالى - القرآن ذكرًا كما في قوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٥٠]، لأن آياته متلوة بالألسنة، ومعانيه حاضرة في القلوب.

ومثله في هذه التسمية كلمات التسبيح والحمد والتهليل والتكبير من جميع الأذكار.

ويقال في كل عمل من أعمال الطاعة ذكر، لأنها كلها مرتبطة بذكر القلب ومن ثمراته.

وسمَّى اللَّه - تعالى - نبيه ﷺ ذكرًا في قوله: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا﴾ [الطلاق: الآية ١٠- ١١] لأنه مخبر عن ربه ومبلِّغ للذكر، أو لأنه هو ﷺ يذكر في الصلاة عليه والحديث، وفي سيره وشمائله بالألسنة والقلوب.

وعبر عن إرساله بالإنزال لأن رسالته وحي من العلي الأعلى، وأعظم رحمة نزلت من السماء.

وسمَّى اللَّهُ الآياتِ الكونيةَ المشاهدةَ ذكرًا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف: الآية ١٠١]، لأنها تحدث الذكر في القلب كما تحدثه آياته المتلوة التي تسمى أيضًا ذكرًا.

فالمعنى أنه كما لم يكن لهم ذكر في قلوبهم من الآيات المتلوة، لأنهم كانوا لا يستطيعون سمعًا، كذلك لم يكن لهم من الآيات المرئية لأن أعينهم في غطاء.

أقسام الذكر:

قد كثر ورود لفظ الذكر في آيات القرآن وأحاديث السنة، وهو منقسم إلى ثلاثة أقسام مرادة من تلك النصوص: ذكر القلب فكرًا واعتقادًا واستحضارًا، وذكر اللسان قولًا، وذكر الجوارح عملًا، وسنتكلم عليها واحدًا واحدًا.

ذكر القلب:

وهو على ثلاثة ضروب:

الأول: التفكُّر في عظمة اللَّه وجلاله، وجبروته وملكوته، وآياته في أرضه وسمواته وجميع مخلوقاته، والتفكُّر - أيضًا - في أنواع آلائه، وعظيم إنعامه على خلقه عامة، وعلى الإنسان خاصة، بما سخر له منها وما يسر له من أسباب الإنتفاع بها، بما يوجب الإيمان بوحدانيته في ربوبيته، فلا خالق ولا مدبر ولا مصرف ولا آمر ولا حاكم ولا منعم على الحقيقة سواه، وبوحدانيته في ألوهيته فلا يستحق العبادة سواه.

وهذا الضرب هو أعظم الأذكار وأجلُّها وأفضلها، وبه يتوصل إليها ويستحقُّ الثواب عليها، إذ هو أساسها الذي تُبنَى عليه.

فالأعمال مبنية على العقائد، والعقائد لا تثبت إلا بهذا التفكر، وبه تنجلي في العقول، وترسخ في النفوس، وتحصل للناظر طمأنينة اليقين.

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية ٢٨].

وهذا هو الذكر الذي يحصل به الإطمئنان.

وهو المراد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٥].

قال جماعة من السلف: ذكر اللَّه في الصلاة أكبر من الصلاة.

وهو المراد أيضًا في حديث أبي الدرداء موقوفًا في «الموطأ» ومرفوعًا في غيره:

«ألا أخبركم بخير أعمالكم وأرفعها في درجاتكم وأزكاها عند مليككم، وخير لكم من إعطاء الذهب، وخير لكم من أن تلقوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى. قال: «ذكر اللَّه»[٤].

---

[٤] صحيح:

أخرجه مرفوعًا أحمد (٥/ ١٩٥) والترمذي (٣٣٨٦) وابن ماجه (٣٧٩٠) والحاكم (١/ ٤٩٦) وغيرهم عن أبي الدرداء، وزادوا - غير أحمد - وقال معاذ بن جبل:

«ما عمل آدمي من عمل أنجى له من عذاب اللَّه من ذكر اللَّه ﷻ».

وقال الحاكم: «صحيح الإسناد». ووافقه الذهبي.

وأقره المنذري في «الترغيب» وقال: «رواه أحمد بإسناد حسن».

وأخرجه موقوفًا مالك في «الموطأ» (٢/ ٢٩-٣٠/ ٤٩٣ بشرح الزرقاني) عن زياد بن أبي زياد أنه قال: قال أبو الدرداء: فذكره.

وهذا إسناد فيه انقطاع: زياد لم يسمع من أبي الدرداء.

ومثله في الانقطاع ما أخرجه -عقبه- عن زياد قال: وقال أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل: «ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب اللَّه من ذكر اللَّه».

ولجملة معاذ هذه طرق مرفوعة، منها:

١- عن معاذ: أخرجه أحمد(٥/ ٢٣٩)بإسناد فيه انقطاع.

٢- عن جابر: أخرجه الطبراني في «الصغير» (١/ ٧٧) و«الأوسط» (٣/ ١٥٦/ ٢٣١٧) ورجالهما رجال الصحيح. قاله المنذري في «الترغيب».

قلتُ: لكن فيه عنعنة أبي الزبير!.

٣- عن عبد اللَّه بن عمر: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣٩٦/ ٥٢٢) بإسناد ضعيف جدًا، فيه سعيد بن سنان الحمصي «متروك» كما في «التقريب».

وفي حديث معاذ كذلك:

«ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب اللَّه من ذكر اللَّه»[٥].

وهذا كله لأنه هو أساس جميع الأعمال كما قدمنا، فإذا حصل ودام وجهه؛ حصلت كلها ودامت على وجوهها.

الثاني: العقد الجازم بعقائد الإسلام في اللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كله، عقدًا عن فهم صحيح، وإدراك راسخ، تتحلى به النفس بمقتضيات تلك العقائد، وتتذوق حلاوتها، وتتكون لها منها إرادة قويَّة في الفعل والترك تملك بها زمامها، تلك الإرادة التي لا تكون إلَّا عن عقيدة راسخة في النفس، ويقين مطمئن به القلب.

ولذا كان هذا الضرب من ذكر القلب متفرعًا عن الضرب الأول ومبنيًا عليه.

الثالث: استحضار عظمة الرب وإنعامه، وما يستحقه من القيام بحقه عند كل فعل وترك، فيفعله بإذنه لوجهه ويترك بإذنه لوجهه، ولا يدوم هذا الاستحضار إلا إذا رسخت العقيدة التي هي من مقتضى الضرب الثاني، ودامت الفكرة التي هي من مقتضى الضرب الأول، فهو متفرع عنهما ومتوقف عليهما.

وهذا الضرب هو أساس التقوى، وهو المراد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

[٥] صحيح:

انظر ما قبله.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] .

فإن الذكر المناسب لمواطن الحرب هو استحضار عظيم حق اللَّه على العبد في القيام بذلك الفرض، واستحضار وعده ووعيده، ممَّا يقوي القلب ويكسب الجرأة والثبات وانتظار النصر - دون كثرة الذكر اللساني - فقد جاء عن النبي ﷺ طلب الصمت عند جلبة العدو وصخبه[٦] .

وهو المراد أيضًا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجُمُعَة: الآية ١٠] .

فإن الابتغاء من فضل اللَّه هنا هو التصرف بوجوه التجارة والكسب، وليس ذلك مما يناسبه ذكر اللسان كثيرًا، فإن ذكر اللسان يطلب فيه التدبر، وأن ذلك غير متيسر للمشتغل بالبيع والشراء، وإنَّما يناسبه استحضار عظمة الرب وإنعامه، ولازم حقه، ليمتثل أمره ونهيه، في وجوه الأخذ والعطاء، والقضاء والاقتضاء.

ذكر اللسان:

وهو ضربان:

الأول: ذكر اللَّه - تعالى - بالثناء عليه والاعتراف بنعمه وإظهار الفقر إليه

---

[٦] **ضعيف:**

أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥/ ٢٤٢/ ٥١٣٠) عن زيد بن أرقم مرفوعًا:

«إن اللَّه ﷻ يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازة».

وإسناده ضعيف، وله علتان: الضعف والجهالة، فانظر «الضعيفة» (٥٧٢٨) للألباني.

بأنواع الأذكار والدعوات. . .

وهذا الذكر شرط الاعتداد به حضور القلب عنده.

ومن أظهر الآيات الواردة فيه قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٨]، فإن النبي ﷺ لما بلغ في حَجَّتِهِ المشعر استقبل القبلة ودعا وكبَّر وهلَّل ووحَّد[٧].

الثاني: ذكره تعالى بدعوة الخلق إليه، وإرشادهم إلى صراطه المستقيم الموصل إليه، بتعليم دينه، والتنبيه على آياته وإنعاماته، وتبيين محاسن شرعه وتفهيم أحكامه، وشرح حكمته في خلقه وأمره، والترغيب والترهيب بوعده ووعيده، وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين في التبليغ عن رب العالمين وأتباعهم المؤمنين، إلى يوم الدين.

ولذا قال عطاء: مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع وتصلِّي وتصوم وتنكح وتطلِّق وتحجُّ. . . وأشباه هذا(١).

وما سمَّاه قليلٌ من كثيرٍ، قصد به تقريب التبيين بالتمثيل.

ذكر الجوارح:

وهو ضرب واحد:

فذكرها استعمالها في الطاعات، وكلُّ عمل لها أو انكفاف على مقتضى

---

[٧] صحيح:

قطعة من حديث جابر رضي الله عنه الطويل في صفة حَجَّته عليه الصلاة والسلام:

أخرجه مسلم (١٢١٨) وغيره.

(١) انظر: «الفقيه والمتفقه» (٤٠) للخطيب البغدادي، و«الأذكار» (١/ ٥٥) للنووي.

الشرع، فهو طاعة، وكل طاعة للَّه فهي ذكر، فكل عامل للَّه بطاعته فهو ذاكر للَّه - تعالى -، كما حكاه النووي[1] عن سعيد بن جبير وغيره من العلماء، مستدلًّا به على أن فضيلة الذكر ليست منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها.

وبهذا يمكن للعبد الموفَّق أن يكون ذاكرًا لربه في يقظته ونومه وصحته ومرضه وعلى جميع أحيانه.

القسم العملي

أمر اللَّه عباده بذكره في غير ما آية من كتابه وغير ما حديث من كلام نبيه، ووعد عليه بجزيل الثواب.

ومن الآيات العامة في هذا الأمر قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٢] وهو أمر بالذكر بوجوهه الثلاث، فحق علينا أن نذكره بها.

وكما تلقينا هذا الأمر وهذا الوعد عن رسول اللَّه ﷺ كذلك علينا أن نتلقى عنه كيف كان يعمل به فهو المبلِّغ عن اللَّه - تعالى - بقوله وفعله والمبين كذلك بهما.

ولا شك أنه ﷺ كان دائم ذكر القلب بالفكر والعقد والاستحضار، دائم ذكر الجوارح في أنواع الطاعات.

وقد جاء في شمائله الشريفة أنه كان ﷺ: «دائم الفكرة لا يتكلَّم في غير

(١) في المصدر المتقدم.

حاجة، طويل السكوت»[٨] وأنه «كان سكوته على أربع: على الحِلم والحذر والتقدير والتفكير»[٩].

وأما الذكر اللساني فقد كان ﷺ - كما جاء في شمائله أيضًا -: «لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر»[١٠]. فلا يخلو مجلسه من ذكر اللَّه، كما كان يسكت ويطيل السكوت كما تقدم.

وقد روى عنه الأئمة من أذكار اليوم والليلة وسائر الأذكار ما فيه الكفاية والشفاء.

فالمؤمن الذي يحافظ على قلبه ويعتني به حتى يكون صحيح العقد دائم الفكر والاستحضار، ويأتي مع ذلك من الأذكار المأثورة المطلقة بما تيسر منها، وبالمرتبة في الأحوال والأوقات التي رتبت عليها، ولا يخلي مقامه ومقعده من شيء من ذكر اللَّه - وإن قلَّ - يكون متبعًا للنبي ﷺ في سنته في

---

[٨] ضعيف جدًّا:

قطعة من حديث طويل أخرجه الترمذي في «الشمائل» (٦- مختصره للألباني) وغيره من حديث هند ابن أبي هالة رضي الله عنه.

وإسناده ضعيف جدًّا كما سيأتي بيان عِلَلِه برقم (٩٩).

ويغني عنه ما أخرجه أحمد (٥/ ٨٦و٩١) من طريقين عن سماك قال: قلت لجابر بن سَمُرة: أكنت تجالس رسول اللَّه ﷺ؟ قال: نعم، وكان طويل الصمت، قليل الضحك... الحديث.

وهذا حديث حسن، سماك هو ابن حرب «صدوق في غير روايته عن عكرمة»، واللَّه أعلم.

[٩] ضعيف جدًّا:

قطعة من الحديث الطويل المتقدِّم قبله، لكنه من مسند علي رضي الله عنه.

[١٠] ضعيف جدًّا:

قطعة من الحديث المتقدم برقم (٨).

الذكر، ويكون بهذا - في بيته، وفي سوقه، وفي مصنعه، وفي مسجده - معدودًا من الذاكرين المكثرين، بالقلب واللسان والجوارح.

التحذير:

ربما شغل اللسان بالتعلُّم والعلم عن الأذكار المأثورة حتى يتركها الطالب جملةً ويكون عنها من الغافلين، فيحرم من خير كثير وعلم غزير، وقد كان ﷺ معلِّم الخَلق، وما كان يغفل عن تلك الأذكار.

وربما بالغ قومٌ في بعض هذه الأذكار فأتوا منه بالآلاف، وأهملوا جانب التفكير الذي هو أعظم أذكار القلب، والذكر اللساني أحد وسائله، فتشغلهم الوسيلة عن المقصود، وليس ذلك من هدي من كان - كما تقدم - دائم التفكير.

وقد يؤدِّيهم الذكر اللساني بالألوف إلى الانقطاع عن مجالس العلم والزهد في التعلُّم فيفوتهم ما قد يكون تعلُّمه عليهم من فروض الأعيان.

وليس من سداد الرأي وفقه الدين إهمال المفروض اشتغالًا بغير المفروض.

ويقابل هذا الغلوَّ في ذكر اللسان ما رآه آخرون من الإقبال على التفكير الأيام والليالي، مع ترك ذكر اللسان.

وهذا زيغ عن طريق النبي ﷺ في المحافظة على الأذكار اللسانية التي امتلأت كتب الحديث بالترغيب فيها والحث عليها.

فليحذر المؤمن من هذا كله ومن مثله، وليتمسك بما كان عليه النبي ﷺ

من الإتيان بضروب الذكر الثلاثة كلها منزِّلًا لها في منازلها، متعبدًا للَّه - تعالى - بجميعها، واللَّه الموفق، وبه المستعان[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٢ م٥). غرة شوال ١٣٤٧هـ/ مارس ١٩٢٩م.

ما هو أفضل الأذكار؟

* تمهيد.
* حالتا العبد.
* الفتوى النبوية فيهما.
* القسم العلمي:
* أفضل الأذكار.
* آيات في الباب.
* أحاديث فيه.
* القرآن يحصل فضل الحالتين.
* القرآن والذكر القلبي.
* القرآن والذكر اللساني.
* القرآن والذكر العملي.
* بعض علوم القرآن.
* نتيجة الاستدلال.
* القسم العملي:
* مقدار التلاوة.
* ما يقصد من التلاوة.
* التحذير.

ما هو أفضل الأذكار؟

- ⋆ تمهيد.
- ⋆ حالتا العبد.
- ⋆ الفتوى النبوية فيهما.
- ⋆ القسم العلمي:
- ⋆ أفضل الأذكار.
- ⋆ آيات في الباب.
- ⋆ أحاديث فيه.
- ⋆ القرآن يحصل فضل الحالتين.
- ⋆ القرآن والذكر القلبي.
- ⋆ القرآن والذكر اللساني.
- ⋆ القرآن والذكر العملي.
- ⋆ بعض علوم القرآن.
- ⋆ نتيجة الاستدلال.
- ⋆ القسم العملي:
- ⋆ مقدار التلاوة.
- ⋆ ما يقصد من التلاوة.
- ⋆ التحذير.

ما هو أفضل الأذكار؟

تمهيد:

للعبد حالتان:

(أ) حالة يعالج فيها شؤون الحياة من أمر نفسه وأهله، وما إلى رعايته من مصالحه، أو مصالح غيره، فيمارس فيها الأسباب، ويباشر فيها ما تقتضيه بشريته، وهو في هذه الحالة متعبد مأجور ما جرى فيها على حدود اللَّه، وقصد بها امتثال شرعه.

(ب) وحالة ينفرد فيها لربه، ويخلِّص من همِّ ذلك كلِّه قلبه، ويتوجَّه بكلِّيته إلى خالقه، بالفكر والاعتبار ودوام المراقبة والإقبال.

وهذه الحالة الثانية هي أشرف وأفضل حالتيه، وهي أساس الاستقامة في الحالة الأولى، وأصل الكمال فيها.

كانت هاتان الحالتان للنبي ﷺ كما كانتا لغيره.

وقوله ﷺ: «**إنَّه ليغان**(١) **على قلبي فأستغفر اللَّه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[11] إشارة إلى الحالة الأولى التي يكون فيها قائمًا بمصالح الأمة،

(١) غانت نفسه: غثت. وغينت السماء: طبقتها الغيم.

[11] صحيح:

رواه مسلم في «صحيحه» (٢٧٠٢) وأبو داود في «سننه» (١٥١٢) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٤٢) وأحمد في «المسند» (٤/ ٢١١و٢٦٠) عن الأغر المزني رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ «مائة مرة».

وناهضًا بأعباء الرسالة، ومباشرة الشؤون العامة والخاصة، ورآها دون الحالة الثانية التي يكون فيها متفرغ القلب للرب.

وما كان ذلك الغين إلا الاشتغال بأمور الخلق في الحالة الأولى الذي يحجب عن كمال مشاهدة الحق التي في الحالة الثانية، فاستغفر اللَّه تعالى منه، وما كان استغفاره - عليه الصلاة والسلام - إلا لاشتغاله بكامل عن أكمل، وتوجهه للقيام بأمر عظيم عن مقام أعظم.

وقد تفطن الصحابة - رضوان [اللَّه][1] عليهم - لهاتين الحالتين، وسألوا النبي ﷺ عنهما وأفتاهم فيهما.

فجاء في «الصحيح» أن حنظلة الأسيدي - وكان من كُتَّاب النبي ﷺ - قال:

«لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان اللَّه ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول اللَّه ﷺ يذكّرنا بالنار والجنة كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول اللَّه ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فواللَّه إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول اللَّه ﷺ قلتُ: نافق حنظلة يا رسول اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**وما ذاك؟**» قلت: يا رسول اللَّه، نكون عندك تذكّرنا بالجنة والنار كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرًا، فقال رسول اللَّه ﷺ:

(١) سقطت من الأصل.

«والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي في الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم !! ولكن يا حنظلة! ساعة وساعة» (ثلاث مرات))»[١٢].

فقوله ﷺ: «**ساعة وساعة**» بيان للحالتين وتقرير لهما.

وقوله: «والذي نفسي بيده» إلى آخره، بيان لفضلاهما.

هذه الحالة الفضلى، الذكر الذي يحصلها للعبد على أكمل وجه هو أفضل الأذكار، وستعرف مما سيأتي بعد أنه هو القرآن.

وقد قسمنا ما سنقوله إلى قسمين علمي وعملي، وختمنا بفصلٍ في التحذير.

القسم العلمي

القرآن أفضل الأذكار من طريق الأثر:

قال تبارك وتعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: الآية ٥٠].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: الآية ١٧].

---

[١٢] صحيح:

رواه مسلم (٢٧٥٠) والترمذي (٢٥١٩) وابن ماجه (٤٢٣٩) و أحمد (٤/ ١٧٨و٣٤٦) عن حنظلة الأسيدي رضي الله عنه.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

* وحنظلة هو «ابن الربيع بن صيفي، ويقال له حنظلة الكاتب. والأسيِّدي بالتشديد، نسبة للأسيِّدي ابن عمرو بن تميم.

روى عن النبي ﷺ، وكتب له، توفي في خلافة معاوية.

انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (١٨٦٤) لابن حجر.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ﴾ [النمل: الآية ٩١- ٩٢].

فهذه البركة، وهذا التيسير، وهذا الأمر بالتلاوة المقرون بالأمر بتوحيد العبادة وبالإسلام على طريق الحصر؛ لم ترد إلا في القرآن.

وروى الترمذي عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم:

«من قرأ حرفًا من كتاب اللّه فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[١٣].

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وهذه مثوبة لم ترد لغير القرآن من جميع الأذكار.

وروى الترمذي عن أبي أمامة مرفوعًا:

«ما تقرب العباد إلى اللّه بمثل ما خرج منه»[١٤].

---

[١٣] صحيح:

رواه الترمذي (٢٩١٥) عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه وقال: «حديث حسن صحيح غريب» وأقره المنذري في «الترغيب».

[١٤] ضعيف:

قطعه من حديث أبي أمامة وتمامه:

«ما أذن اللّه لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصلِّيهما، وإن البر لَيُذَرُّ على رأس العبد ما دام في صلاته وما تقرب..»

أخرجه الترمذي (٢٩١٦) وأحمد (٥/ ٢٦٨) من طريق بكر بن خنيس عن ليث بن أبي سُليم عن زيد بن أرطاة عنه مرفوعًا.

وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وبكر بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه في آخر أمره». =

ومن معناه ما ذكره القرطبي عن فروة بن نوفل عن خباب بن الأرت قال: إن استطعت أن تقرب إلى اللَّه عَزَّلَ، فإنك لا تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه[١٥].

ومثل هذا لا يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع.

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا:

«يقول الرب تبارك وتعالى: من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته

= قلت: ومثله في الضعف ليث بن أبي سليم وكان اختلط، ثم إنَّ فيه انقطاعًا، فإن زيد بن أرطاة حديثه عن أبي أمامة مرسل كما في «جامع التحصيل» (ص١٧٨) للعلائي، وغيره.

والقطعة الأخيرة منه أخرجها الترمذي (٢٩١٧) عن العلاء بن الحارث عن زيد بن أرطاة عن جبير بن نفير مرسلًا بلفظ:

«إنكم لن ترجعوا إلى اللَّه بأفضل مما خرج منه - يعني القرآن».

ومع إرساله فإن العلاء بن الحارث تكلم فيه، قال الحافظ في «التقريب»:

«صدوق فقيه لكن رمي بالقدر، وقد اختلط».

والحديث أشار الحافظ المنذري في «الترغيب» إلى ضعفه.

* وأبو أمامة: اسمه صدي بن عجلان الباهلي، صحابي مشهور.

[١٥] **صحيح**:

أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٣٦/ ٣٠٠٨٩) قال: حدثنا عبيدة، (في المطبوعة زيادة: اللَّه)، بن حُميد عن منصور عن هلال بن يساف عن فروة بن نوفل، قال: قال خباب بن الأرت - وأقبلت معه من المسجد إلى منزله - فقال لي: ... فذكره.

وهذا إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح، ومنصور هو ابن المعتمر واللَّه أعلم.

وأخرجه أحمد في «الزهد» (١١٢٣) حدثنا جرير عن منصور به نحوه.

وأخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (١٧-٣). حدثنا حجاج عن جرير بن عبد الحميد به.

*وخباب بن الأرت: من السابقين إلى الإسلام، وكان يعذب في اللَّه، شهد بدرًا، ثم نزل الكوفة، ومات بها سنة (٣٧هـ).

أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام اللَّه على سائر الكلام كفضل اللَّه على خلقه»[١٦].

وهذا الحديث والذي قبله نصان صريحان في المقصود.

وروى البيهقي في «شعب الإيمان» عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا:

«قراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن من غير الصلاة، وقراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من التسبيح والتكبير»[١٧].

وروى أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنه: «سئل رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: أي الأعمال

---

[١٦] ضعيف جدًا:

رواه الترمذي (٢٩٣١) من طريق محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن عمرو بن قيس عن عطية عنه به، وقال: «هذا حديث حسن غريب»

كذا قال: وفيه عِلَّتان:

الأولى: ضعف الهمداني، بل تركوه كما قال الذهبي في «الضعفاء» وكذبه ابن معين وأبو داود.

والأخرى: ضعف عطية - وهو ابن سعد العوفي - قال: الذهبي «مجمع على ضعفه».

وفي «التقريب»: «صدوق يخطئ كثيرًا، وكان شيعيًا مدلسًا».

ولذا قال الذهبي: «حسنه الترمذي فلم يحسن».

[١٧] ضعيف:

رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٤١٣/ ٢٢٤٣) من طريق محمد بن سلام الجُمحي قال: حدثنا الفضل بن سليمان النميري، وذكر رجلًا من بني مخزوم من ولد عبد اللَّه بن أبي ربيعة - وأحسن عليه الثناء - عن أبيه عن جده عنها، وزاد في آخره:

«والتسبيح أفضل من الصدقة، والصدقة أفضل من الصوم، والصوم جنة من النار».

قال المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٥١٣):

«وفيه محمد بن سلام، قال ابن منده: له غرائب، عن الفضل بن سليمان وفيه مقال، عن رجل من بني خزيمة (!) مجهول».

وله طريق آخر أورده الذهبي في «الميزان» (٣/ ٢٥١) لكن لا يفرح به فيه عمرو بن جُميع متهم بالوضع.

أفضل عند اللَّه؟ قال:

«قراءة القرآن في الصلاة، ثم قراءة القرآن في غير الصلاة، فإن الصلاة أفضل الأعمال عند اللَّه، وأحبها إليه، ثم الدعاء والاستغفار، فإن الدعاء هو العبادة، وإن اللَّه تعالى يحب المُلِحَّ في الدعاء، ثم الصدقة، فإنها تطفئ غضب الرب، ثم الصيام فإن اللَّه تعالى يقول: الصوم لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّةٌ للعبد من النار»[١٨].

قال القرطبي - بعدما خرَّج هذا الحديث بسنده -: «قال علماؤنا: هذا حديث عظيم في الدين يبين فيه أن أعظم العبادات قراءة القرآن في الصلاة»(١).

القرآن أفضل الأذكار من طريق النظر:

إن أشرف حالتي الإنسان - وهي حالة انفراده بربه، وتوجهه بكليته إليه،

---

[١٨] ضعيف جدًا:

رواه القرطبي في «التذكار» (ص٦٨): من طريق محمد بن الحسن التسنيمي، (في الأصل: التميمي! وفي الهامش علق الغماري بقوله: وفي نسخة التيمي !!)، قال: حدثنا محمد بن بكر (في الأصل أبي بكر) البرساني قال: حدثنا إبراهيم بن يزيد المكي قال سمعت نافعًا يحدث ابن عمر قال: . . . فذكره.

وهذا إسناد ضعيف جدًا، إبراهيم بن يزيد المكي «تركوه» كما في «الضعفاء» للذهبي، وفي «التقريب»: «متروك الحديث».

(تنبيه): عزا المصنف - عفا اللَّه عنا وعنه - الحديث لأبي نعيم - كما ترى - وهذا يوهم أنه في كتابه «الحلية» لأنه المراد عند إطلاق العزو إليه، وليس الأمر كذلك، فقد تتبعت أحاديث الكتاب حديثًا حديثًا دون العثور عليه.

نعم، من طريقه رواه القرطبي، فالعزو إليه أولى. واللَّه أعلم.

(١) «التذكار في أفضل الأذكار» (ص٦٨)، وعبارته فيه: «هذا حديث صحيح عظيم في الدين بيّن فيه . .».

وخلوص قلبه له، وتعلُّقه به - إنما تحصل على أكملها لتالي القرآن العظيم، فإن أفضل ما فيه - وهو قلبه - يكون قائمًا بأفضل أعماله، وهو التفكر والتدبر، في أفضل المعاني، وهي معاني القرآن.

وأن ترجمان ذلك القلب - وهو لسانه - يكون قائمًا بأفضل أعماله، وهي البيان بأفضل كلام، وهو القرآن.

وجوارحه - إذا لم يكن في صلاة - كانت محبوسة على قيام القلب واللسان بأفضل الأعمال، وإذا كان في صلاة، كانت قائمة بأفضل عبادة، وهي الصلاة، في أشرف موقف، وهو مناجاة الرحمن بآيات القرآن.

فهذا الذكر الحكيم، تنزيل الرحمن الرحيم، الذي يحصل هذه الحال، التي هي أشرف الأحوال، وهي معراج الأرواح لمنازل الكمال - هو أفضل الأذكار.

وأيضًا فإن الذكر قلبي ولساني وعملي، والقرآن محصل لذلك كله على أكمله كما سنبينه.

القرآن والذكر القلبي:

فالتالي للقرآن المتدبر لآياته، يكون متفكرًا في مخلوقات اللَّه، وما فيها من حكم ومن نعم، وفي معاني أسمائه وصفاته، وفي مظاهر رحمته وإحسانه وبطشه وانتقامه، وفي أسباب ثوابه وعقابه، وفي مواقع رضاه وسخطه.

كما يكون التالي أيضًا متبصرًا في عقائده، خبيرًا بأدلتها، وردِّ الشُّبَهِ عنها.

كما يكون أيضًا مستحضرًا لربه في قلبه باستحضار حقوقه ونعمه وآلائه؛ إذ هذا كله ممَّا تضمنته آي القرآن، على أكمل بيان، وأوضح برهان.

القرآن والذكر اللساني:

وكذلك قد اشتمل القرآن على أفضل الأذكار اللسانية: من تهليل، وتكبير، وتحميد، وتسبيح، وتمجيد، واستغفار، ودعاء، وعلى الأسماء الحسنى، والصفات العلى للرب تبارك وتعالى، فتاليه يكون ذاكرًا بهذه الأذكار كلها.

القرآن والذكر العملي:

إن تلاوة القرآن بالتدبر تثمر للتالي التوبة والإنابة والرجاء والخوف، وذلك كله مما يكون له خير داع إلى الاستقامة - ولو بعض الشيء - في سلوكه العملي.

هذا شيء قليل مما للقرآن في الذكر بأنواعه الثلاثة، إلى ما فيه من علم مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبسط أسباب الخير والشر، والسعادة والشقاوة في الدنيا والأخرى، وعلم النفوس وأحوالها، وأصول الأخلاق والأحكام، وكليات السياسة والتشريع، وحقائق الحياة في العمران والاجتماع، ونظم الكون المبنية على الرحمة والقوة، والعدل والاحسان.. إلى ما تقصر عن عدِّه الألسنة، وتعجز عن الإحاطة به الأفهام.

وإنما ينال كلٌّ تالٍ منها على قدر ما عنده من سلامة قصد وصحة علم، بتقدير وتيسير من الحكيم العليم.

نتيجة الاستدلال:

لهذه الأدلة الأثرية والنظرية المذكورة وغيرها ذهب الأئمة من السلف والخلف إلى أن قراءة القرآن أفضل من الذكر.

قال سفيان الثوري: «سمعنا أن قراءة القرآن أفضل من الذكر». نقله القرطبي في الباب السابع من كتاب «التذكار»[١].

وقال النووي: «واعلم أن المذهب الصحيح المختار الذي عليه من يعتمد من العلماء أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك»[٢].

قاله في الباب الثاني من كتاب «التبيان»[٣].

القسم العملي

مقدار التلاوة:

قد كان النبي ﷺ لا يخلي ليله ونهاره من تلاوة القرآن، وكان - كما قال القرطبي -: يختمه في سبع.

وهكذا قال لعبد اللّه بن عمرو رضي الله عنه: **«واقرأ في كلِّ سبع ليال مرة»**[١٩]،

(١) (ص٣٩، ٤٠)؛ وفي مطبوعة «التذكار»: «سمعنا أن القرآن أفضل الذكر إذا عمل به».

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٢٤).

(٣) الشهاب: (ج٣ م٥) غرة ذي القعدة ١٣٤٧هـ - أبريل ١٩٢٩م.

[١٩] صحيح:

قطعة من حديث رواه البخاري (٥٠٥٢) ومسلم (١١٥٩) (١٨٢) وأبو داود (١٣٨٥-١٣٨٧)=

وقد كان قال له أوَّلًا : «**واقرأ القرآن في كل شهر**» ، فلما قال له : أنه يطيق أكثر من ذلك نقله إلى العشرين ، وإلى الخمسة عشر ، وإلى العشر ، وانتهى به إلى السبع في قول الأكثر .

وكان هذا فعل الأكثرين من السلف .

وعند الترمذي وغيره من حديث ابن عمرو رضي الله عنه مرفوعًا :

«**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**»[٢٠] .

وهذا ترخيص فيما دون السبع ، وترغيب عما دون الثلاث .

وقد فهم السلف من هذه الأحاديث بيان ما يكون وظيفةً وحزبًا يستمر عليه ، فلذا لم يمتنعوا من ختم القرآن في أقلَّ من ذلك في مراتٍ في بعض الأحوال ، وقد ثبت عن كثير منهم ختم القرآن في ركعة واحدة(١) .

= والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٤-٢٥/ ٨٠٦٤-٨٠٦٥) وابن ماجه (١٣٤٦) وأحمد (٢/ ١٦٣و١٨٨و١٩٩و٢٠١) من طرق عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

[٢٠] صحيح:

رواه أبو داود (١٣٨٧و١٣٩١) والترمذي (٢٩٥٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ٢٥/ ٨٠٦٧) والدارمي (١/ ٣٥٠) وابن ماجه (١٣٤٧) وأحمد (٢/ ١٢٤و١٦٤و١٨٩و١٩٣و١٩٥) عن ابن عمرو مرفوعًا .

وقال الترمذي : «حديث حسن صحيح» .

وصححه النووي في «الأذكار» (ص٨٦) وفي «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص٦١-٦٢) .

(١) منهم عثمان بن عفان وتميم الداري رضي الله عنهما ، وسعيد بن جُبير رحمه الله ، وقد أورد الحافظ ابن كثير آثارهم في كتابه «فضائل القرآن» وقال : «وهذه كلُّها أسانيد صحيحة» . ثم قال : «فهذا وأمثاله من الصحيح عن السلف محمول إمَّا على أنه ما بلغهم في ذلك حديث مما تقدم ، أو أنهم كانوا يفهمون ويتفكرون فيما يقرءونه مع هذه السرعة ، واللَّه تعالى أعلم» .

ولا شك أن أحوال حملة القرآن تختلف في التفرغ للتلاوة والاشتغال بغيرها، وأحوال الشخص الواحد في نفسه تختلف كذلك، فيرتب حامل القرآن حزبه من الشهر إلى السبع على حسب حاله، فإذا لم يكن من حملة القرآن فلا يخل ليله ولا نهاره من تلاوة شيء مما معه حسب استطاعته، ولا يكن من الغافلين.

ما يقصده من التلاوة:

قراءة القرآن أفضل أعمال اللسان، وتدبر معانيه أفضل أعمال القلب، هذا من حديث أبي أمامة[٢١] عند الترمذي الذي قدمناه في القسم الأول، فليقصد التالي التقرُّب إلى اللَّه تعالى بهما.

والقرآن موعظة ترقق القلوب القاسية، فليقصد تليين قلبه.

والقرآن شفاء لأدواء النفوس في عقائدها وأخلاقها وأعمالها، فليقصد الشفاء به من ذلك كله.

والقرآن هدى ودلالة على كل ما يوصل إلى سعادة الدنيا والأخرى، فليقصد الاهتداء بهدايته.

والقرآن رحمة من اللَّه للمؤمنين، فليستنزل بتلاوته وتدبره الرحمة من اللَّه تعالى، بإفاضة علوم القرآن على قلبه، وبتوفيقه إلى القيام بمقتضى هدايته.

ولا يسلم تالي القرآن -لأنه غير معصوم- من ذنوب قد يصدأ لها قلبه، فليقصد بتلاوته جلاء قلبه، والتوفيق للتوبة من ذنبه، وليجعل تلاوته لأجل

---

[٢١] ضعيف:

تقدم تخريجه برقم (١٤).

تحصيل التوبة من أعظم وسائله إلى ربه .

وقد مضى لك في الحديث القدسي في القسم الأول : «**من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»[٢٢] .

التحذير:

زعم قوم : أن الصلاة على النبي ﷺ خيرٌ لعامةِ الناس من تلاوة القرآن .

قالوا : لأن الصلاة ثوابها محقق ولا يلحق فاعلها إثم ، والقرآن إذا تلاه العاصي كانت تلاوته عليه إثمًا لمخالفته لما يتلوه .

واستدلوا على هذا بقول أنس ﷺ الذي تحسبه العامة حديثًا : «رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه»[٢٣] .

فأدى هذا معتقديه إلى ترك قراءة القرآن أو التقليل منها ، فليحذر من هذا الرأي ومما أدى إليه .

للصلاة منزلتها وفضلها ، وللقرآن منزلته وفضله ، فليأت الذاكر من الصلاة ومن غيرها من أبواب الذكر بما لا يؤدي إلى ترك أو تقليل تلاوة القرآن الذي هو أفضل الأذكار .

وهذا الرأي المتقدم في تفضيل الصلاة على التلاوة مخالفٌ تمام المخالفة لما نقلناه في : «نتيجة الاستدلال» ، عن أئمة السلف والخلف : من أن قراءة القرآن أفضل من جميع الأذكار ، ولم يفرقوا في ذلك بين عامة وخاصة ،

---

[٢٢] ضعيف :

تقدم تخريجه برقم (١٦) .

[٢٣] لم أقف عليه مسندًا بعد البحث الشديد عنه في مظانه ، فاللَّه أعلم .

ومخالفٌ كذلك لمقاصد الشرع من تلاوة القرآن؛ وذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن المذنبين مرضى القلوب، فإن القلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، فكل معصية يأتي بها الجسد هي من فساد في القلب، ومرض به، وأن اللَّه تعالى قد جعل دواء أمراض القلب تلاوة القرآن فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: الآية ٥٧]. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: الآية ٨٢].

فمقصود الشرع من المذنبين أن يتلوه ويتدبروه ويستشفوا به، بألفاظه ومعانيه، وذلك الرأي يصرف المذنبين عن تلاوته.

الوجه الثاني: أن القلوب تعتريها الغفلة والقسوة والشكوك والأوهام والجهالات، وقد تتراكم عليها هذه الأدران كما تتراكم الأوساخ على المرآة فتطمسها وتبطل منفعتها، وقد يصيبها القليل منها أو من بعضها، ولا تسلم القلوب على كل حال من إصابتها، فهي محتاجة دائمًا وأبدًا إلى صقل وتنظيف بتلاوة القرآن.

وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا - فيما رواه البيهقي في «الشعب» والقرطبي في «التذكار»:

«**إنَّ القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد**. قالوا: يا رسول اللَّه فما جلاؤها؟ قال: **تلاوة القرآن**»[٢٤].

---

[٢٤] ضعيف:

رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٣٥٢-٣٥٣/ ٢٠١٤) من طريق عبد الرحيم بن هارون أنا=

فمقصود الشارع من المذنبين أن يتلوا القرآن لجلاء قلوبهم، وذلك الرأي يصرفهم عنه .

الوجه الثالث: أن الوعيد والترهيب قد ثبتا في نسيان القرآن بعد تعلُّمه، وذهابه من الصدور بعد حفظه فيها .

فروى أبو داود عن سعد :

«ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلَّا لقي اللَّه أجذم»[٢٥] .

= عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر مرفوعًا .
وهذا إسناد معلول : عبد الرحيم بن هارون «ضعيف، كذبه الدارقطني» كما في «التقريب» .
ومن طريقه أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/ ٨٥) وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢١٣-٢١٤/ ١١٩١٧) والقرطبي في «التذكار» (ص٨٥-٨٦).
لكنه لم يتفرد به فقد تابعه :
١- عبد اللَّه بن عبد العزيز بن أبي رواد عن أبيه به ولفظه :
«إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه ماء، قيل : يا رسول اللَّه وما جلاؤها؟ قال : «كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن» .
رواه البيهقي أيضًا .
وعبداللَّه بن عبدالعزيز بن أبي رواد ؛ قال أبو حاتم وغيره : أحاديثه منكرة : وقال ابن الجنيد : لا يساوي فلسًا، وقال ابن عدي : روى أحاديث عن أبيه لا يتابع عليها، كذا في «الميزان» للذهبي .
٢- إبراهيم بن عبد السلام المخزومي المكي : رواه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٤١٩) في ترجمة إبراهيم هذا وقال فيه : «ليس بمعروف، حدث بالمناكير، وعندي أنه يسرق الحديث» إلا أن فيه «كثرة ذكر اللَّه» .

[٢٥] ضعيف:
رواه أبو داود (١٤٧١) من طريق يزيد بن أبي زياد عن عيسى بن فائد عن سعد بن عبادة ﷺ مرفوعًا وزاد : «يوم القيامة» .
وهذا إسناد ضعيف وفيه علتان :
الأولى : يزيد بن أبي زياد الهاشمي مولاهم الكوفي «لا يحتج بحديثه» كما قال المندري، وفي «التقريب» : «ضعيف . كبر فتغير وصار يتلقن» . =

وروى الشيخان عن عبد اللَّه:

«استذكروا القرآن، فإنه أشد تفصِّيًا من صدور الرجال من النَّعَم»[٢٦].

فمقصود الشرع دوام التلاوة لدوام الحفظ ودفع النسيان، وذلك الرأي أدَّى إلى تقليلها أو تركها الموقع في النسيان.

وإلى مخالفته لمقصود الشرع بهذه الوجوه فإن له لوازم فاسدة.

منها: أن صلاة النافلة مرغب فيها على العموم، وهي مشتملة على قراءة القرآن.

فماذا يقول أصحاب هذا الرأي؟

فهل يرغِّبون المذنبين - أمثالنا - عن النافلة طردًا لأصلهم؟

= والعلة الأخرى: الانقطاع، قال ابن أبي حاتم: عيسى بن فائد رواه عمن سمع سعد بن عبادة، كما في «عون المعبود» (٤/ ٢٤٢).

والحديث أشار إلى ضعفه الحافظ في «الفتح» (٩/ ١٠٨).

(تنبيه): المراد بِـ«سعد» عند الإطلاق: سعد بن أبي وقاص ﵁، كما لا يخفى، فإذا ذكر غيره ممن اسمه «سعد» فينبغي تقييده دفعًا للإيهام، واللَّه ولي التوفيق.

[٢٦] صحيح:

رواه البخاري (٥٠٣٢) ومسلم (٧٩٠) من حديث عبد اللَّه بن مسعود ﵁، وزاد في آخره: «بِعُقُلِها».

وكذا رواه الترمذي (٢٩٤٧) والنسائي في «المجتبى» (٢/ ١٥٤-١٥٥) وفي «الكبرى» (٨٠٣٩) والدارمي (٢/ ٣٠٨-٣٠٩و٤٣٩) وأحمد (١/ ٤١٧و٤٢٣و٤٣٨-٤٣٩و٤٦٣).

وللحديث شاهد عن ابن عمر عند البخاري (٥٠٣١) وآخر عن أبي موسى الأشعري عند البخاري (٥٠٣٣) ومسلم (٧٩١).

و(التفصي): التخلص، يقال: تفصى فلان من البلية إذا تخلص منها، ومنه: تفصِّي النوى من الثمرة إذا تخلص منها: أي: إن القرآن أشد تفلتًا من الصدور من النَّعم إذا أُرسلت من غير عقال.

كذا في «فضائل القرآن» لابن كثير.

أم ينهون عن قراءة القرآن في النافلة، فيقولون ما لم يقله أحد؟

أم يقولون بالاقتصار على قراءة سور دون سور، فيتحكَّمون في الأحكام؟

ومنها: أنه قلَّ من يسلم من مخالفة للقرآن بعمله، فإذا ذهبنا مع ذلك الرأي حرم خلقٌ كثيرٌ من تلاوة القرآن.

وكفى بقول يؤدي إلى هذا كله رادًا على نفسه.

وأما قولهم: «أن تالي القرآن يأثم بقراءته مع مخالفته».

فهي دعوى لم يقيموا عليها من نص صحيح صريح من سنة أو كتاب، بل الدليل قائم على خلافها، فإن المذنب يكتب عليه ذنبه مرة واحدة، ولا يكتب عليه مرة ثانية إذا ارتكب ذنبًا آخر، وإنما يكتب عليه ذلك الذنب الآخر، فكيف إذا باشر عبادة التلاوة؟؟

والأصل القطعي - كتابًا وسنة - أن من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، وهو يبطل أن تجدد له سيئاته إذا جاء بحسنة تلاوة القرآن.

وأما قول أنس ﷺ: «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه»، فليس معناه أن القرآن يلعنه لأجل تلاوته. وكيف وتلاوته عبادة؟

وإنما معناه: أنه ربما تكون له مخالفة لبعض أوامر القرآن أو نواهيه من كذب أو ظلم مثلًا، فيكون داخلًا في عموم لعنه للظالمين والكاذبين، فخرج هذا الكلام مخرج التقبيح لمخالفة القرآن مع تلاوته، بعثًا للتالي على سرعة الاتعاظ بآيات القرآن وتعجيل المتاب، لا مخرج الأمر بترك التلاوة والانصراف عنها.

هذا هو الذي يتعين حمل كلام هذا الصحابي الجليل عليه بحكم الأدلة

المتقدمة.

وثبت في الصحيح قوله ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**»[٢٧].

وهذا في المتعبد بالصيام الذي يوقع الزور والعمل به في وقت صيامه، فيكون متلبسًا بالعبادة والمخالفة في وقت واحد.

ومع هذا فقد قال الشراح في معنى الحديث - والعبارة للقسطلاني -: «وليس المراد الأمر بترك صيامه إذا لم يترك الزور، وإنما معناه التحذير من قول الزور، فهو كقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**من باع الخمر فليشقص الخنازير**»[٢٨] أي يذبحها، ولم يأمره بشقصها(١)، ولكنه على التحذير والتعظيم لإثم شارب الخمر. وكذلك حذر الصائم من قول الزور والعمل به،

---

[٢٧] صحيح:

رواه البخاري (١٩٠٣) وأبو داود (٢٣٥٩) والترمذي (٧٠٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٣٨-٢٣٩/ ٣٢٤٥-٣٢٤٨) وابن ماجه (١٦٨٩) وأحمد (٢/ ٤٥٢-٤٥٣و٥٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

[٢٨] ضعيف:

رواه أبو داود (٣٤٨٥) وأحمد (٤/ ٢٥٣) والدارمي (٢/ ١١٤) وغيرهم من طريق عمر بن بيان التغلبي عن عروة بن المغيرة بن شعبة عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه مرفوعا.

وهذا إسناد ضعيف لجهالة حال التغلبي هذا، وإليها أشار الحافظ في «التقريب» بقوله: «مقبول» يعني عند المتابعة وإلا فلين الحديث، كما بينه في المقدمة.

وانظر لزامًا «الضعيفة» (٤٥٦٦) للألباني.

(١) في مطبوعة «الإرشاد»: بتشقيصها.

ليتم له أجر صيامه»[١].

فمن باب أحرى وأولى ألا يكون قول أنس رضي الله عنه، محمولًا على طلب ترك التلاوة من المذنب، لأنه غير مباشر لذنبه في حال تلاوته، وإنما المقصود تحذيره من الاستمرار على المخالفة، وترغيبه في المبادرة بالتوبة، ليكمل له أجر تلاوته بكمال حالته.

هذا حظ العلم في الاستدلال على حاجة المذنبين إلى تلاوة القرآن العظيم.

وأما حظ التجربة، فو اللَّه الذي لا إله إلا هو، ما رأيتُ - وأنا ذو النفس الملأى بالذنوب والعيوب - أعظم إلانةً للقلب، واستدرارًا للدمع، وإحضارًا للخشية، وأبعث على التوبة من تلاوة القرآن وسماع القرآن.

عود إلى تتميم الكلام على التحذير:

ليحذر القارئ من السرعة في التلاوة التي تؤدي إلى تخليط كلماته، وتذهب بحلاوته، وتمنع من بقاء أثره في النفس.

وليحذر من ذهاب قلبه مسترسلًا مع خواطره، منصرفًا عن تدبره والتذكر به، وإذا عرضت له الخواطر فليصرفها ليدفعها، وليحمل فكره على تدبر آيات الكتاب، ولا ينقطع عن التلاوة إذا كانت تلك الخواطر لا تفارقه، فإن تصميمه على دفعها مع تكاثرها من جهاده لنفسه، الذي يثاب عليه، وينتهي به في الأخير إلى الانتصار عليها.

---

(١) إرشاد الساري (٣/ ٣٥٣- ٣٥٤).

وليحذر من الاستمرار على ما عنده من مخالفةٍ لأوامر ونواهي الكتاب، ومن عدم الخوف والوجل عند المرور بآيات الوعيد والتقريع على ذلك الذنب إذا لم يوفق للتوبة في بعضها، فليستحضر الخشية والخشوع عند الآيات المتعلقة بذلك الذنب، وليكررها وليتفهمها، وليقف عندها وقفة العاجز الذليل الفقير المتضرع لربه، المتعرض لرحمته بتلاوة كلامه، فإن هذا من أعظم الوسائل لتيسير التوبة.

فرتل القرآن، وتدبر معانيه، والتزم حدوده، واضرع إلى اللّٰه تعالى أن يرزقك التوبة فيما عندك له من مخالفة، تكن من الفائزين بإذن رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٤ م٥) غرة ذي الحجة ١٣٤٧هـ - مايو ١٩٢٩م.

خُطب
افتتاح دورس التفسير

خطبة افتتاح
لدروس التفسير هاته السنة(١)

جرت عادتنا أن نفتتح دروس التفسير من كل سنة بخطبةٍ، تارة نخرج منها إلى نفس التفسير، وتارة نطرق بعدها موضوعًا مناسبًا للمقام، ولم نكن فيما مضى نعود إلى كتابتها، وفي هذه السنة رأينا أن نحلِّي بها صدر «الشهاب» تعميمًا للفائدة.

* * *

الحمد للّٰه الذي جمَّل الإنسان بالبيان، وجمَّل البيان بالقرآن، فالإنسان دون بيان حيوان أبكم، والبيان دون قرآن كلام أجذم. وذو البيان والقرآن هو الأكمل الأعظم، قدرًا وتقديرًا، والأحسن الأقوم، عملًا وتفكيرًا، والأسعد الأكرم، حالًا ومصيرًا.

أحمده، أرسل محمدا ﷺ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللّٰه بإذنه وسراجًا منيرًا، وأنزل عليه القرآن تبصرةً وذكرى، ومعجزةً كبرى، حجة وتذكيرًا، وشرع لنا من دينه الحنيف مناهل العز والسعادة، ومهَّد لنا من شرعه الشريف، سبل الحسنى والزيادة، رحمة منه تعالى وفضلًا كبيرًا.

وأشكره: هدانا واجتبانا، فرضينا باللّٰه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وبالقرآن إمامًا، وحبب إلينا ديننا، فواللّٰه لو بذلت لنا الدنيا بحذافيرها في

---

(١) أي: سنة ١٣٤٨هـ- ١٩٢٩م.

تركه ما ساوت عندنا حبة رغامًا، توفيقًا منه تعالى ويقينًا صادقًا منا وبصرًا بصيرًا.

وأستغفره لما كان منا من نقص وتقصير في الوفاء بعهده الحق، وشكر فضله الكبير، إنه كان عفوًّا غفارًا شكورًا.

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد أشرف خلقه وأكرم رسله، فرَّق بالقرآن بين الحق والباطل، وهدى به الضال وعلَّم به الجاهل، وجاهد به - في اللَّه - جهادًا كبيرًا.

وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، اقتفوا طريقته، وأحيوا سنته، فوقاهم اللَّه شرَّ ذلك اليوم، ولقَّاهم نضرةً وسرورًا، وجزاهم بما صبروا جنةً وحريرًا.

وعلى بقية أمَّته، وأهل ملَّته، لبّوا دعوته وأمّوا غايته، ناشطًا وحسيرًا[1].

صلاةً وسلامًا دائمين متلازمين إلى يوم نلقى محمدا ﷺ ونسعد بلقائه، ونحشر بين الأمم تحت لوائه ونجزى بمحبته - إن شاء اللَّه تعالى - جزاءً موفورًا.

أما بعد:

فقد عُدنا - والحمد للَّه تعالى - إلى مجالس التذكير، من دروس التفسير، نقتطف أزهارها، ونجتني ثمارها، بيسر من اللَّه تعالى وتيسير، على عادتنا في

(١) أي: كليلًا، انقطع من الإعياء، يقال: حسر. إذا أعيا وتعب، فهو حسير. ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤].

تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات بوجوه المناسبات، معتمدين في ذلك على صحيح المنقول، وسديد المعقول، مما جلاه أئمة السلف المتقدمون أو غاص عليه علماء الخلف المتأخرون، رحمة اللَّه عليهم أجمعين.

وعمدتنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة: تفسير ابن جرير الطبري، الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية، وبأسلوبه الترسلي البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية، وبترجيحاته لأَوْلى الأقوال عنده بالصواب.

وتفسير «الكشاف» الذي يمتاز بذوقه البياني في الأسلوب القرآني، وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب والتنظير لها بكلام العرب، واستعمالها في أفانين الكلام.

وتفسير أبي حيان الأندلسي الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية وتوجيهه للقراءات.

وتفسير الرازي الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية، مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العلوم الكلامية ومقالات الفرق والمناظرة في ذلك والحجاج.

إلى غير هذا مما لا بد لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام، وغيرها، مما يقتضيه المقام.

نقول هذا ليعرف الطلبة مصادر درسنا، ومآخذ ما يسمعونه منَّا، ونحن نعلم أننا - واللَّهِ - كما قال أخو العرب:

لَعَمْرُ أبيك ما نسب المعلى إلى كرم وفي الدنيا كريمُ
ولكن البلاد إذا اقشعرت. وصَوَّح نبتها رعي الهَشيمُ[(١)]

وكما نقول في مثل: «إنما نكحل في موضع العينين».

وإذا نظرنا إلى قصورنا وخطورة مقام الكلام على كلام اللَّه تعالى، أحجمنا، وإذا رأينا إلى فضل اللَّه وثقتنا به وحسن قصدنا إن شاء اللَّه تعالى - في خدمة كتابه - أقدمنا، وهذا الجانب الكريم أرجح عندنا، فنحن نقدم معتمدين على اللَّه تعالى، سائلين منه تعالى لنا ولكم أن يوفقنا إلى حسن القصد، وصحة الفهم، وصواب القول، وسداد العمل[(٢)].

* * *

(١) البيتان لأبي علي البصير. انظر «أمالي القالي» (٢/ ٢٨٧) و«لسان العرب» (٨/ ٣٠٢).
و(صوَّح نبتُها): إذا يبس وتشقق.
و(الهشيم) من النبات: اليابس المتكسر.
والمعنى: إذا يبس النبت وجفَّ وتغير لونه بعد خضرته اليانعة، فلا مفر للراعي من رعي الهشيم اليابس.
والمقصود: أن الأوائل ذهبوا بالفضل وخُصُّوا بالعلم، ولم يبق الآن إلَّا الضعفاء ومن هم عالة عليهم، ولكن لا حيلة ولا مفر من الأخذ عنهم والاستماع إليهم، وهذا تواضع من الإمام المصنِّف -رحمه اللَّه تعالى-.

(٢) الشهاب (ج١١ م٥) غرة رجب ١٣٤٨هـ- ديسمبر ١٩٢٩م.

خطبة
في افتتاح دروس التفسير العام بالجامع الأخضر

الحمد للَّه الذي شرفنا بخطابه، وألهمنا حفظ كتابه، وجعلنا من أمة سيد أحبابه.

والصلاة والسلام [على](١)سيدنا محمد الذي اختاره اللَّه تعالى من صميم العنصر العربي ولبابه، وحلاه بأسمى معارف النوع البشري وأكمل آدابه، وأرسله رحمة للعالمين ليكشف عن الدين ما كثف من حجابه، ويهدي من سبقت له العناية الربانية إلى أعتابه، فأدى الرسالة وبلغ الأمانة وجاهد في اللَّه حق جهاده، حتى رجع الحق إلى نصابه. وعلى الغر الميامين من آله، والشمِّ الغطاريف(٢) من أصحابه، وعلى التابعين لهم بإحسان على مر الزمان وتوالي أحقابه.

أما بعد، فإن القرءان كلام الجبار، وسيد الأذكار، فيه من العلم ما يفتح البصائر، ومن الأدب ما ينور السرائر، ومن العبر ما يبهر الألباب، ومن الحكم ما يفتح للعلم والعمل كل باب، هو القول الفصل، والحكم العدل، فمن استهدى بغيره ضل، ومن سلك غير نهجه زل، ومن اتبعه كان على الصراط المستقيم.

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) جمع غطريف أي: السيّد.

فالحمد للَّه الذي يسر لنا العود إلى تفسيره، والكرع من عذب نميره. وطوبى وبشرى - إن شاء اللَّه تعالى - لحاضري دروسه بالنفع العميم والأجر العظيم والنعيم المقيم.

واللَّه نسأل أن يرزقنا الإخلاص في القصد، والصحة في الفهم، والبيان في القول، والتوفيق في العمل، والتيسير للختم، إنه المولى الكريم، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل، والحمد للَّه رب العالمين[١].

* * *

(١) الشهاب: (ج١١ م٦) غرة رجب ١٣٤٩هـ- ديسمبر ١٩٣٠م.

خطبة الافتتاح

ألقاها عبد الحميد بن باديس بعد صلاة العشاء بالجامع الأخضر مفتتحا بها درس تفسير القرآن العظيم الذي افتتح به التدريس كما هي العادة في كل سنة

الحمد للَّه حمدًا كبيرًا كثيرًا، ومجده أكبر، ورفده أكثر.

والشكر للَّه شكرًا جزيلًا وفيرًا، ونعمته أجزل، ورحمته أوفر.

أحمده، قذف بالحق على الباطل فدمغه فأزهقه.

وأشكره، نصر حزب الحق وبحلية آلائه طوقه.

وخذل حزب الباطل وبغصة كيده أشرقه.

فله الحمد، وله الشكر بدءًا وعودًا رب العالمين.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، توحيدًا خالصًا له في ألوهيته وربوبيته.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله تصديقًا صادقًا له في نبوته ورسالته، شهادةً نتنكب بها من سبل الغالين والمقصرين.

ونكون بها على ملة إبراهيم عليه السلام و﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٦٧].

ونرجو بها من فضل ربِّنا أن نكون مع الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين

والصديقين والشهداء والصالحين.

والصلاة والسلام على الشاهد المبشر النذير، الداعي إلى اللَّه بإذنه والسراج المنير، سيدنا ومولانا محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب العربي القرشي الهاشمي، إمام الأنبياء وخاتم المرسلين.

ورضي اللَّه عن آله الطيبين الطاهرين؛ وعن أصحابه الهادين المهتدين، وعن أئمة الهدى من صالح سلف المؤمنين، وعن التابعين لهم بإحسان من جميع المسلمين.

أما بعد، فقد عُدنا - بفضل اللَّه - إلى رياض القرآن المونقة، وأنهاره العذبة المتدفقة، وأنواره الواضحة المشرقة.

نتعظ بمواعظه المليِّنة للصخور، ونتعالج بدوائه الشافي لما في الصدور، ونستهدي بهداه الموضِّح للصراط المستقيم، ونستنزل رحمته العامة للمؤمنين.

وعُدنا - والحمد للَّه - إلى مدارسة القرآن العظيم الذي[1] أنزله اللَّه آمرًا وزاجرًا، وسنةً خاليةً، ومثلًا مضروبًا، فيه نبؤنا، وخبر من كان قبلنا، وحكم ما بيننا. لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، لا يشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، هو الحق ليس بالهزل.

من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن قسم به قسط، ومن عمل به

(١) قد وصف القرآن العظيم بهذه الصفات في حديث الترمذي وغيره. [المصنف].
قلت: سيأتي تخريجه - إن شاء اللَّه- برقم (٢١٠).

أجر؛ ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم.

من طلب الهدى في غيره أضله اللَّه، ومن حكم بغيره قصمه اللَّه.

هو الذكر الحكيم، هو النور المبين، هو الصراط المستقيم، هو حبل اللَّه المتين، فمن تمسك به نجا، ومن تركه كان من الهالكين - عياذًا باللَّه السميع العليم.

فاللَّه نسأل - كما وفقنا لقراءته ومدارسته - أن يوفقنا لفقهه ومتابعته، وأن يجعله - في الدارين - حجة لنا لا علينا، وأن يكون نورًا لنا في الدنيا والآخرة؛ وفي عرصات القيامة، وعلى متن الصراط، حتى ندخل معه الجنة دار السلام بسلام آمنين. آمين يا رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج١٣ م٩) غرة شعبان ١٣٥٢هـ- ديسمبر ١٩٣٣م.

تفسير ابن باديس

أو

مجالس التذكير
من كلام الحكيم الخبير

من سورة المائدة

تفسير الآيتين (١٥ - ١٦)

دعوة أهل الكتاب

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ١٥ - ١٦].

أرسل اللَّه محمدًا ﷺ لجميع الأمم، فكانت رسالته عامة وكانت دعوته عامة مثلها، وجاءت آيات القرآن بالدعوة العامة في مقامات، وبالدعوة الخاصة لبعض من شملتهم الدعوة العامة في مقامات أخرى.

ولمَّا أرسل اللَّه محمَّدًا ﷺ كان الخلق قسمين أهل كتاب - وهم اليهود والنصارى - وغيرهم.

وكان أشرف القسمين أهل الكتاب بما عندهم من النصيب من الكتاب الذي أوتوه على نسيانهم لحظ منه وتحريفهم لما حرفوا. وكانوا أولى القسمين باتباع محمد ﷺ بما عرفوا قبله من الكتب والأنبياء، فلهذا وذاك كانت توجه إليهم الدعوة الخاصة بمثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ إلى آخر الآيتين.

وفي ندائهم بيا أهل الكتاب تشريفٌ وتعظيمٌ لهم بإضافتهم للكتب، وبعثٌ لهم على قبول ما جاء به محمد ﷺ، لأنه جاء بكتاب وهم أهل الكتاب،

واحتجاجٌ عليهم بأن الإيمان بالكتاب الذي عندهم بمقتضى الإيمان بالكتاب الذي جاء به لأنه من جنسه.

أدب واقتداء:

هذا هو أدب الإسلام في دعوة غير أهله، ليعلِّمنا كيف ينبغي أن نختار عند الدعوة لأحدٍ أحسن ما يُدعى به، وكيف ننتقي ما يناسب ما نريد دعوته إليه، فدعاء الشخص بما يحب مما يلفته إليك ويفتح لكِ سمعه وقلبه، ودعاؤه بما يكره يكون أول حائل يبعد بينك وبينه.

وإذا كان هذا الأدب عامًا في كل تداع وتخاطب، فأحق الناس بمراعاته هم الدعاة إلى اللَّه والمبينون لدينه، سواء دعوا المسلمين أو غير المسلمين.

بيانه لهم حُجَّته عليهم:

كانت كتبهم مقصورةً على أحبارهم ورهبانهم، مخفيةً عندهم لا تصل إليها أيدي عامتهم، فكانوا لا يظهرون منها إلا ما يشاءون، ولا تعرف عامتهم منها إلا ما أظهروا، فجاء رسول اللَّه ﷺ - وهو أُمِّيٌّ من أمةٍ أُمِّيَّةٍ - يبين لهم بما أنزل اللَّه عليه وأوحى إليه به من آيات اللَّه وحججه وأحكامه وكلمات رسله فيما عندهم مما هو حجة عليهم مقدارًا كثيرًا، ويتجاوز عن كثير فيما عندهم من ذكر قبائح أسلافهم وذمهم، وما لقي رسل اللَّه عليهم الصلاة والسلام من عنتهم وشرهم وأذاهم.

فكان هذا البيان العليم وهذا الخلق الكريم من هذا النبي الأُمِّيِّ كافيًا أن يعرفهم بنبوته وصدق دعوته ونهوض حجته، ولهذا ذكر اللَّه هذا البيان وهذا التجاوز في أول صفاته لما أخبرهم بمجيئه إليهم بقوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا

مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾.

تمثيل:

وفي أول الإصحاح العشرين من سفر اللاويين التصريح برجم الزناة، فأبطل أحبارهم هذا الحكم وعوضوه بغيره من التخفيف وكتموا النص، فبينه لهم النبي ﷺ، والقصة مشهورة في كتب السنن[٢٩].

جاءت صفات النبي ﷺ التي لا تنطبق على غيره فكتموها، مثل قول

---

[٢٩] صحيح:
رواه مالك (٤/ ١٣٥-١٣٦/ ١٥٩٢) ومن طريقه البخاري (٣٦٣٥و٦٨٤١) ومسلم (١٦٩٩) (٢٧) وأبو داود (٤٤٣٤) عن نافع عن عبد اللَّه بن عمر أنه قال:
جاءت اليهود إلى رسول اللَّه ﷺ فذكروا له أن رجلًا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرَّجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون! فقال عبد اللَّه بن سلام: كذبتم، إن فيها آية الرَّجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرَّجم ثم قرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له عبد اللَّه بن سلام: ارفع يدك! فرفع يده فإذا فيها آية الرَّجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرَّجم، فأمر بهما رسول اللَّه ﷺ فَرُجِما.
فقال عبد اللَّه بن عمر:
فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة.
وأخرجه مختصرًا من طريق مالك: الترمذي (١٤٤٠) وأحمد (٢/ ٧و٦٣و٧٦) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».
وتابع مالكًا: أيوب عند البخاري (٧٥٤٣) ومسلم (١٦٩٩) والنسائي في «الكبرى» (٧٢١٣و٧٢١٤) وأحمد (٢/ ٥).
وعُبيد اللَّه عند مسلم (١٦٩٩) (٢٦).
وموسى بن عقبة عند البخاري (١٣٢٩و٤٥٥٦و٧٣٣٢) مطولًا ومختصرًا، ومسلم (١٦٩٩) والنسائي في «الكبرى» (٧٢١٥).
وتابع نافعًا: عبد اللَّه بن دينار عند البخاري (٦٨١٩).
وللحديث شاهد عن البراء بن عازب ﷺ: أخرجه مسلم (١٧٠٠) وأبو داود (٤٤٣٥) و (٤٤٣٦) والنسائي في «الكبرى» (٧٢١٨).

عيسى - عليه الصلاة والسلام - في الفقرة الثانية عشرة وما بعدها في الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا:

«إن لي أمورًا كثيرةً أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم».

صرح عيسى - عليه الصلاة والسلام - بأن اللَّه هو الإله وحده، وأن عيسى رسوله، فكتموها، وقالوا فيه ما قالوا.

جاء في الفقرة الثانية من الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا قول عيسى - عليه الصلاة والسلام -:

«وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته».

وأمثال هذا فيما عندهم كثير.

أدب واقتداء:

على الداعي إلى اللَّه والمناظر في العلم أن يقصد إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإقناع الخصم بالحق وجلبه إليه، فيقتصر من كل حديثه على ما يحصل له ذلك، ويتجنب ذكر العيوب والمثالب - ولو كانت هنالك عيوب ومثالب - اقتداء بهذا الأدب القرآني النبوي في التجاوز مما في القوم عن كثير.

وفي ذكر العيوب والمثالب خروجٌ عن القصد، وبُعدٌ عن الأدب، وتعدٍّ

على[1] الخصم وإبعاد له، وتنفير عن الاستماع والقبول، وهما المقصود من الدعوة والمناظرة.

نعمة الإظهار والبيان بالرسول والقرآن:

لقد كان الناس - أهل الكتاب وغيرهم - قبل بعثة النبي ﷺ في ظلام من الجهل باللَّه وبأنبيائه وبشرعه، ومن الجهل بآيات اللَّه في أنفسهم وفي الكون، ومن الجهل بنعم اللَّه عليهم[2] في أنفسهم بالعقل والفكر والاستعداد للخير والكمال، وفي العالم المسخر لهم بما أودع فيه من مرافق العيش والعمران والحياة، ومن الجهل بقيمة أنفسهم الإنسانية وكرامتها وحريتها.

فلما بعث اللَّه محمدًا ﷺ كان بقوله وبفعله وبسيرته معرفًا للخلق بما كانوا يجهلون، فكان نورًا سطع في ذلك الظلام الحالك فبدَّده عن البصائر.

وكما أن النور الكوني يجلو الموجودات الكونية للأبصار، فكذلك كان محمد ﷺ ذلك النور الروحي الرباني يجلو تلك الحقائق للبصائر.

وكما أن النور الكوني يظهر الموجودات الكونية فلا يحرم منها إلا معدوم البصر.

فكذلك كان محمد ﷺ ذلك النور الرباني مجليًا للحقائق للبشرية كلها، ولا يحرم من إدراكها إلا مطموسو البصائر الذين زاغوا فأزاغ اللَّه قلوبهم.

وكما كان محمد ﷺ نورًا تنبعث من أقواله وأفعاله وسيرته الأشعةُ الكاشفةُ للحقائق - كذلك كان الكتاب الكريم الذي أنزله اللَّه عليه يبين بسوره

(١) في الأصل: «عن».

(٢) في الأصل: «عليه».

وآياته وكلماته تلك الحقائق أجلى بيان.

فبمحمد ﷺ وكتابه تمت نعمة اللّه تعالى على[١] البشرية كلها بإظهار وبيان كل ما تحتاج إلى إظهاره وبيانه.

ولما دعا اللّه إلى تصديق رسوله بالحجة العلمية الخلقية من بيانه وتجاوزه، ذكَّر بهذه النعمة العظمى في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾.

محمد ﷺ والقرآن، نور وبيان:

في هذه الآية وصف محمد ﷺ بأنه نور، ووصف القرآن بأنه مبين.

وفي آيات أخرى وصف القرآن بأنه نور كقوله: ﴿فآمنوا باللّه ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ [التغابن: الآية ٨]. ووصف الرسول بأنه مبين بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: الآية ٤٤].

وهذا ليبين لنا اللّهُ تعالى أن إظهار النبي ﷺ وبيانه وإظهار القرآن وبيانه واحدٌ.

ولقد صدقت عائشةُ رضي الله عنها لما سُئلت عن خُلُق النبي ﷺ، فقالت[٢]: «كان خلقه القرآن»[٣٠].

---

(١) في الأصل: «عن».

(٢) ذكره القاضي عياض في «الشفا» وابن سعد في «الطبقات». [المصنِّف].

[٣٠] صحيح:

تقدم تخريجه برقم (١).

ومنه تعلم ما في تخريج المصنف من قصور! واللّه ولي التوفيق.

استفادة:

نستفيد من هذا:

أولًا: أن السنة النبوية والقرآن لا يتعارضان، ولهذا يُرَدُّ خبر الواحد إذا خالف القطعي من القرآن[1].

وثانيًا: أن فقه القرآن يتوقف على فقه حياة النبي ﷺ وسنته، وفقه حياته ﷺ يتوقف على فقه القرآن، وفقه الإسلام يتوقف على فقههما.

اقتداء:

هذا نبينا ﷺ نور وبيان، وهذا كتابنا نور وبيان، فالمسلم المؤمن بهما المتبع لهما له حظه من هذا النور وهذا البيان، فهو على ما يسر له من العلم - ولو ضئيلًا - يبيِّنه وينشره، يعرِّف به الجاهل، ويرشد به الضال، وهو بذلك

---

(١) فيه نظر من وجهين:
الأوّل: أنّ خبرَ الواحد الثابت -الصحيح والحسن- حُجَّةٌ في العقائد والأحكام، في القطعيات والظنيات، والتفريق بينهما بدعة اعتزالية -وهو مذهب بعض المتكلِّمين- لم يعرفها السلف الصالح من أهل القرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية على لسان خير البرية ﷺ، كما حققه العلَّامة ابن القيم في «الصواعق المرسلة» (٣/ ٧١١ وما بعدها -من مختصره).
الوجه الآخر: أنّ هذا قائمٌ - عند القائلين به- على أن خبر الواحد لا يفيد إلَّا الظن الراجح، ولا يفيد اليقين والعلم القاطع!
وهذا ليس مسلّمًا على إطلاقه، فإن خبر الواحد يفيد العلم واليقين في كثير من الأحيان، من ذلك الأحاديث التي تلقّتها الأمة بالقبول، ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» مما لم ينتقد عليهما فإنه مقطوع بصحته، والعلم اليقيني النظري حاصل به، كما جزم به الإمام ابن الصلاح في كتابه «علوم الحديث»، ونصره الحافظ ابن كثير في «مختصره»، وقبله شيخ الإسلام ابن تيمية وتبعه تلميذه العلَّامة ابن القيِّم كما في كتابه المتقدم، واختاره الحافظ ابن حجر والشوكاني وصديق حسن خان والشنقيطي والألباني وغيرهم.

وبعمله الصالح كالنور يشعُّ على من حوله، وتتسع دائرة إشعاعه، وتضيق بحسب ما عنده من علم وعمل.

فعلى المسلم أن يعلم هذا من نفسه، ويعمل عليه وليضرع إلى اللَّه دائمًا في دعواته أن يمده بنوره، وليدْعُ بدعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به في ذلك وهو(١):

«اللَّهم اجعل في قلبي نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، وتحتي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، واجعل لي نورًا»[٣١].

الهداية ونوعاها:

قد دل اللَّه الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه كمالهم وسعادتهم ومرضاة خالقهم، وهذه هي هداية الدلالة، وهي من فضل اللَّه العام للناس أجمعين، وبها وبما يجده كل عاقل في نفسه من التمكن والاختيار، قامت حجة اللَّه على العباد.

ثم يسر من شاء - وهو الحكيم العدل - إلى العمل بما دل عليه من أسباب السعادة والكمال، وهذه هي دلالة التوفيق، وهي من فضل اللَّه الخاص بمن

---

(١) البخاري ومسلم وغيرهما. [المصنِّف].

[٣١] صحيح:

رواه البخاري (٦٣١٦) ومسلم (٧٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

بِتُّ عند ميمونة، فقام النبي ﷺ فأتى حاجته فغسل وجهه ويديه ثم نام، ثم قام فأتى القربة فأطلق شناقها، ثم توضأ وضوءًا بين وضوءين لم يكثر وقد أبلغ، فصلى فقمت فتمطيت كراهية أن يرى أني كنت أتقيه، فتوضأت، فقام يصلي فقمت عن يساره فأخذ بأذني فأدارني عن يمينه، فتتامت صلاته ثلاث عشرة ركعة ثم اضطجع فنام حتى نفخ - وكان إذا نام نفخ - فآذنه بلال بالصلاة، فصلى ولم يتوضأ، وكان يقول في دعائه: «اللَّهم اجعل في قلبي نورًا..» فذكره.

قبلوا دلالته وأقبلوا على ما أتاهم من عنده فآمنوا برسوله والنور الذي أنزل معه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محَمَّد: الآية ١٧].

أما الذين أعرضوا عن ذكره وزاغوا عما دلهم عليه فأولئك يخذلهم ويحرمهم من ذلك التيسير كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الصف: الآية ٥].

فالمقبلون على اللَّه، القابلون لما أتاهم من عنده، هدوا دلالةً وتوفيقًا، والذين أعرضوا قامت عليهم الحجة بالدلالة، وحرموا من التوفيق جزاء إعراضهم.

بماذا تكون الهداية؟

كما أنعم اللَّه على عباده بالهداية إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم، كذلك أنعم عليهم فبيَّن لهم ما تكون به الهداية حتى يكونوا على بينة فيما به يهتدون، إذ من طلب الهدى في غير ما جعله اللَّه سبب الهدى كان على ضلال مبين.

فلذا بين تعالى أن هدايته لخلقه إنما تكون برسوله وكتابه فيتمسك بها من يريد الهدى، وليحكم على من لم يهتد بها بالزيغ والضلال.

ولما كانا في حكم شيء واحد في الهداية يصدِّق كلٌّ واحد منهما الآخر، جاء بالضمير مفردًا في قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾.

لمن تكون الهداية؟

أما هداية الدلالة والإرشاد وحدها فهي - كما تقدم - عامة.

وأما هداية الدلالة والإرشاد مع التوفيق والتسديد فهي للذين اتبعوا ما

جاءهم من عند اللَّه من رسوله وكتابه، وكانوا باتباعهم لهما متبعين لرضوانه المقتضي لقبوله ومثوبته وكرامته لهم، ولم يتبعوا أهواءهم ومألوفاتهم وما ألفوا عليه آباءهم ولا أهواء الناس ورضاهم، فكان اتباعهم لرضوان اللَّه سببًا في دوام إرشادهم وتوفيقهم، وبقدر ما يكون ازدياد اتباعهم يكون ازدياد توفيقهم، إذ قوة السبب تقتضي قوة المسبب، والخير يهدي إلى الخير، والهدى يزداد بالاهتداء.

وهذا الربط الشرعي بين التوفيق والاتباع يقتضي الربط بين ضديهما: الإعراض والخذلان، وأنه بقدر ما يكون الإعراض عن الهدى يكون الخذلان والحرمان، والشر يدعو بعضه إلى بعض، والسيئة تجر إلى السيئة.

وقد أفاد تخصيص التوفيق بأهل الاتباع وجعل التوفيق مسببًا عنه - بما في صلة الموصول من التعليل - قوله تعالى: ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ﴾.

إلى ماذا تكون الهداية؟

فشؤون الشخص في نفسه، وشؤونه فيما بينه وبين أهله، وفيما بينه وبين بنيه، وفيما بينه وبين أقاربه، وفيما بينه وبين جيرانه، وفيما بينه وبين من تربطه به علاقة من علاقات الحياة ومصالحها، وشؤون الجماعات وشؤون الأمم فيما بينها، كل هذه الشؤون سبل وطرق في الحياة تُسلَك ويُسار عليها للبلوغ إلى الغايات المقصودة منها مما به صلاح الفرد والمجموع.

وكلها إن سُلكت بعلم وحكمة وعدل وإحسان كانت سبلَ سلامةٍ ونجاةٍ، وإلا كانت سبلَ هلاكٍ، فيحتاج العبد فيها إلى إرشاد وتوفيق من اللَّه تعالى.

وقد منَّ اللَّه بفضله على العباد بهذا النبي الكريم والكتاب العظيم، فمن

آمن بهما واتبعهما ففيهما ما يهديه إلى كل ما يحتاج إليه في كلِّ سبيل من تلك السبل في الحياة، باتباعهما - واتباعهما اتباع لرضوان اللَّه - يوفقه اللَّه ويسدده في سلوك تلك السبل - الفردية والجماعية والأممية - إلى ما يفضي به إلى السلامة والنجاة.

وتكون تلك السبل كلها له سبل سلام، أي سلامة ونجاة، لأنها أفضت به بإرشاد اللَّه وتوفيقه جزاء لاتباعه وتصديقه إليها، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾.

الإخراج من حالات الحيرة إلى حالة الاطمئنان:

تمر على العبد أحوال يكون فيها متحيرًا مرتبكًا كمن يكون في ظلام، منها حالة الكفر والإنكار، وليس لمنكر الحق المتمسك بالهوى والمقلد للآباء من دليل يطمئن به ولا يقين بالمصير الذي ينتهي إليه.

ومنها حالة الشك، ومنها حالة اعتراض الشبهات، ومنها حالة ثوران الشهوات.

وكما أن اللَّه يرشد ويوفق من اتبعوا رضوانه طرق السلامة والنجاة بالرسول ﷺ والقرآن، كذلك يخرجهم بهما باتباعهما والاهتداء بهما من ظلمات الكفر والشك والشبهات والشهوات وما فيها من حيرة وعماية إلى الحالة التي تطمئن فيها القلوب كما تطمئن في النور عندما يسطع فيبدد سدول الظلام، فباتباعهما فقط تطمئن القلوب بالإيمان واليقين، فتضمحل أمامها الشبهات، وتكسر سلطان الشهوات.

فتلك الأحوال العديدة الظلمانية التي يكون فيها من أعرض عنهما أو

خالفهما يخرج منها إلى الحالة النورانية الوحيدة، وهي حالة من آمن بهما واتبعهما كما قال تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

على العبد أن يقبل ما فيه كماله وسعادته ومرضاة خالقه مما هداه اللَّه إليه برسوله وكتابه، وجعل قبوله له سببًا في توفيقه وإخراجه من الظلمات إلى النور، وعليه أن يعتقد أنه لا ينال شيئًا من التوفيق وحظًا من النور إلا بإذن اللَّه، أي إرادته وتيسيره، فلا يعتمد على نفسه ولا على أعماله، وإنما يكون اعتماده على اللَّه، فيحمله ذلك على الاجتهاد في العمل، وعدم العجب به، ودوام التوجه إلى اللَّه، وصدق الرجاء فيه، والخوف من عقابه، ودوام المراقبة له.

ولأجل لزوم هذا الاعتماد على اللَّه الميسر للأسباب الذي لا يكون في ملكه إلا ما أراد قرن قوله: ﴿يَهْدِى﴾ ﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ بقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾.

الإسلام هو السبيل الجامع العام:

ما جاء به النبي ﷺ، والقرآن العظيم هو دين اللَّه الإسلام.

فكل ما دل اللَّه عليه الخلق بهما، وما وفق إليه من العلم والعمل باتباعهما فهو من الإسلام.

ولهذا لما ذكر تعالى إرشاده وتوفيقه للذين اتبعوا رضوانه وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ذكر إرشاده وتوفيقه لهم إلى الطريق المستوي الموصل إلى الكمال والسعادة ومرضاة اللَّه، الجامع لذلك كله، بقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله - لازم دائم:

إن الحاجة إلى إرشاد الله وتوفيقه دائمة متجددة، فكل عمل من أعمال الإنسان، وكل حال من أحواله، هو محتاج فيه إلى هداية الله ودلالته ليعرف ما يرضاه الله منه ممَّا لا يرضاه، وهو محتاج فيه إلى توفيق الله وتيسيره ليقوم بما يرضاه منه وشرعه له ودلَّه عليه.

ولن يزال العبد - غير المعصومين عليهم الصلاة والسلام - تغشاه ظلمات الشبهات والشهوات، فيحتاج إلى دلالة الله وتوفيقه، ليخرج منها إلى نور الإيمان والاستقامة.

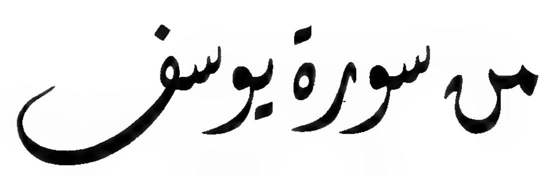
فالعبد محتاج دائمًا إلى الرجوع إلى كتاب الله وما ثبت من سنة نبيه ﷺ ليهتدي إلى ما يرضي الله مما شرعه له من أحواله وأفعاله، وإلى ما يدفع عنه شبهاته وينقذه من شهواته، ومحتاج إلى التوسل بذلك الرجوع إليهما وذلك الاتباع لهما إلى الله، ليفتح له أبواب المعرفة، ويمد له أسباب التوفيق.

وهذا هو القصد من صيغة المضارع المفيدة للتجدد في قوله تعالى: ﴿يَهْدِى﴾ و﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ و﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

جعلنا الله من المتبعين لرضوانه، الرجَّاعين لكتابه وسنة رسوله، الفائزين منهما بالهداية، لخير غاية، بإذنه وفضله، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٣ م١١) ربيع الأول ١٣٥٤هـ- جوان ١٩٣٥م.



تفسير الآية (١٠٨)

سبيل السعادة والنجاة

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٨] .

خلق اللَّه محمدًا ﷺ أكمل الناس، وجعله قدوتهم، وفرض عليهم اتباعه والائتساء به، فلا نجاة لهم من المهالك والمعاطب، ولا وصول لهم إلى السعادة في دنياهم وأُخراهم، ومغفرة خالقهم ورضوانه، إلا باقتفاء آثاره والسير في سبيله.

فلهذا أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يبين سبيله بيانًا عامًا للناس لتتضح المحجة للمهتدين، وتقوم الحجة على الهالكين، أمره أن يبينها البيان الذي يصيرها مشاهدةً بالعيان، ويشير إليها كما يشار إلى سائر المشاهدات، فقال له: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ .

ثم بين سبيله بثلاثة أشياء: الدعوة إلى اللَّه على بصيرة، وتنزيه اللَّه تعالى، والبراءة من المشركين، فقال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ .

الدعوة إلى اللَّه:

فالنبي ﷺ من يوم بعثه اللَّه إلى آخر لحظة من حياته، كان يدعو الناس كلهم إلى اللَّه بأقواله وأفعاله وتقريراته وجميع مواقفه في سائر مشاهده.

وكانت دعوته هذه بوجوهها كلها واضحة جلية لا خفاء بها، كما قال ﷺ[(١)]: «**وَأَيْمُ اللَّهِ لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء**»[٣٢] فكانت مشاهدة معينة[(٢)] كما أشير إليها في الآية إشارة المعين[(٣)] المشاهد.

كان يدعو إلى دين اللَّه، ويبين هو ذلك الدين ويمثله.

يدعو إلى عبادة اللَّه وتوحيده وطاعته، ويشاهد الناس تلك العبادة والتوحيد والطاعة.

فكان ﷺ كله دعوة إلى اللَّه، فما دعا إلى نفسه، فقد مات ودرعه مرهونة

---

(١) رواه ابن ماجه من طريق أبي الدرداء رضي الله عنه بسند موثق، وفيه ابن سُميع، قال فيه ابن عدي: «حسن الحديث». [المصنف].

[٣٢] صحيح:

جملة من حديث رواه ابن ماجه (٥) عن أبي الدرداء قال:

خرج علينا رسول اللَّه ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوفه، فقال:

«آلفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لَتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صبًّا حتى لا يزيغ قلبُ أحدكم إزاغةً إلَّاهِيَهْ، وأيم اللَّه . . . .» (فذكره).

قال أبو الدرداء: صدق - واللَّه - رسول اللَّه ﷺ، تركنا - واللَّه - على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء.

وإسناده حسن، كما أشار إليه المصنف «فإن في بعض رجاله - وهما هشام بن عمار وابن سميع، كلامًا لا ينزل حديثهما عن رتبة الاحتجاج به.

ومن هذا الوجه رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٤٧) أيضًا.

والجملة التي ساقها المصنف صحيحة، لأن لها شاهدًا عن العرباض بن سارية: أخرجه ابن ماجه (٤٣) وأحمد (٤/ ١٢٦) والحاكم (١/ ٩٦)، وصححه جمع من أئمة الحديث وحفاظه سيأتي ذكرهم - إن شاء اللَّه - في التخريج رقم (٣٩).

(٢) كذا الأصل، والصواب: مُعاينة.

(٣) كذا الأصل، والصواب: المُعاين.

في دَين[٣٣]، وما دعا إلى قومه فقد كان يقول: «**لا فضل لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بتقوى اللَّه**»[٣٤].

كان يدعو الناس كلهم، إذ هو رسول اللَّه، إلى الناس كلهم، فكتب الكتب وأرسل الرسل، فبلغت دعوته إلى الأمم وملوك الأمم.

كان يدعو الكافرين كما يدعو المؤمنين، يدعو أولائك إلى الدخول في دين اللَّه، ويدعو هؤلاء إلى القيام بدين اللَّه، فلم ينقطع يومًا عن الإنذار والتبشير، والوعظ والتذكير.

كان يدعو إلى اللَّه على بينةٍ وحجةٍ يحصل بها الإدراك التام للعقل حتى يصير الأمر المدرك واضحًا لديه كوضوح الأمر المشاهد بالبصر، فهو على بينةٍ

---

[٣٣] صحيح:

رواه البخاري (٢٩١٦و٤٤٦٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفي رسول اللَّه ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير».

وله شاهد عن ابن عباس رواه أحمد (١/ ٣٦١) وغيره وإسناده صحيح، وآخر عن أسماء بنت يزيد رواه أحمد (٦/ ٤٥٣) مختصرًا. وفي إسناده شهر بن حوشب!

[٣٤] صحيح:

قطعة من حديث رواه أحمد (٥/ ٤١١) عن أبي نضرة حدثني من سمع خُطبة رسول اللَّه ﷺ في وسط أيام التشريق فقال:

«يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى... الحديث».

وإسناده صحيح كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤١٢) وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢٦٦).

«ورجاله رجال الصحيح».

وله شاهد عن أبي ذر رواه أحمد (٥/ ١٥٨) «ورواته ثقات إلا أن بكر بن عبد اللَّه المزني لم يسمع من أبي ذر» كما قال المنذري في «الترغيب» والهيثمي في «المجمع» (٨/ ٨٤).

ويقينٍ من كل ما يقول ويفعل، وفي كل ما يدعو من وجوه الدعوة إلى اللَّه، في حياته كلها وفي جميع أحواله.

وكانت دعوته المبنية على الحجة والبرهان مشتملة على الحجة والبرهان، فكان يستشهد بالعقل، ويعتضد بالعلم، ويستنصر بالوجدان، ويحتج بأيام اللَّه في الأمم الخالية، وما استفاض من أخبارها، وبقي من آثارها من أنباء الأولين، وما يمر الناس عليه مصبحين وبالليل.

على كل مسلم أن يكون داعيًا إلى اللَّه:

لقد كان في بيان أن الدعوة إلى اللَّه هي سبيل محمد ﷺ ما يفيد أن على أتباعه - وهو قدوتهم، ولهم فيه الأسوة الحسنة - أن تكون الدعوة إلى اللَّه سبيلهم، ولكن لتأكيد هذا عليهم، وبيان أنه من مقتضى كونهم أتباعه، وأن اتباعهم له لا يتم إلا به - جاء التصريح بذلك هكذا: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾.

فالمسلمون، أفرادًا وجماعات، عليهم أن يقوموا بالدعوة إلى اللَّه، وأن تكون دعوتهم على بينة وحجة وإيمان ويقين، وأن تكون دعوتهم وفقًا لدعوته وتبعًا لها.

[ماهية الدعوة][1]:

فمن الدعوة إلى اللَّه دروس العلوم كلها مما يفقه في دين اللَّه، ويعرف بعظمة اللَّه وآثار قدرته، ويدل على رحمة اللَّه وأنواع نعمته.

---

(١) زيادة للتوضيح ثابتة في بعض النشرات، ولم ترد في الأصل.

فالفقيه الذي يبين حكم اللَّه وحكمته داع إلى اللَّه، والطبيب المشرح الذي يبين دقائق العضو ومنفعته داعٍ إلى اللَّه، ومثلهما كل مبين في كل علم وعمل.

ومن الدعوة إلى اللَّه بيان حجج الإسلام، ودفع الشُّبَه عنه، ونشر محاسنه بين الأجانب عنه ليدخلوا فيه، وبين مزعزعي العقيدة من أبنائه ليثبتوا عليه.

ومن الدعوة إلى اللَّه مجالس الوعظ والتذكير لتعريف المسلمين بدينهم وتربيتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ما جاء به، وتحبيبهم فيه ببيان ما فيه من خير وسعادة لهم، وتحذيرهم مما أدخل من محدثات عليه هي سبب كل شقاوة وشر لحقهم، وبيان أنه ما من سبب مما تسعد به البشرية - أفرادها وأممها - إلا بينه لهم ودعاهم إليه، وما من سبب مما تشقى به البشرية - أفرادها وأممها - إلا بينه لهم ونهاهم عنه، وبيان أنه لولا عقيدته المتأصلة فيهم، وبقاياه الباقية لديهم، ومظاهره القائمة بهم، لما بقيت لهم - وهم المجردون من كل قوة - بقية، ولتلاشت أشلاؤهم - وهم الأموات - في الأمم الحية.

ومن الدعوة إلى اللَّه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بدون استثناء، وإنما يتنوع الواجب بحسب رتبة الاستطاعة فيجب باليد، فإن لم يستطع فباللسان، فإن لم يستطع فبالقلب، وهو أضعف الإيمان[1]، وأقل الأعمال في هذا المقام.

---

(١) كما في الحديث الصحيح: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».
أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

ومن الدعوة إلى اللَّه ظهور المسلمين - أفرادًا وجماعاتٍ - بما في دينهم من عفة وفضيلة، وإحسان ورحمة، وعلم وعمل، وصدق وأمانة، فذلك أعظم مرغب للأجانب في الإسلام، كما كان ضده أعظم منفِّر لهم عنه، وما انتشر الإسلام أول أمره بين الأمم إلا لأن الداعين إليه كانوا يدعون بالأعمال كما يدعون بالقول، وما زالت الأعمال عيارًا على الأقوال.

ومن الدعوة إلى اللَّه بعث البعثات إلى الأمم غير المسلمة، ونشر الكتب بألسنتها، وبعث المرشدين إلى عوام الأمم المسلمة لهدايتهم وتفقيههم.

كل هذا من الدعوة إلى اللَّه، ثابتة أصوله في سنة النبي ﷺ وسنَّة السلف الصالح من بعده.

فعلى كل مسلم أن يقوم بما استطاع منه في كل وجه من وجوهه، وليعلم أن الدعوة إلى اللَّه على بصيرة هي سبيل نبيه ﷺ وسبيل إخوانه الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من قبله، فلم يكن المسلم ليدع من هذا المقام الشريف مقام خلافة النبوة شيئًا من حظه.

وإذا كان هذا المقام ثابتًا لكل مسلم ومسلمة، وحقًّا القيام به - بقدر الاستطاعة - على كل مسلم ومسلمة - فأهل العلم به أولى وهو عليهم أحق، وهم المسؤولون عنه قبل جميع الناس.

وما أصاب المسلمين ما أصابهم إلا يوم قعد أهل العلم عن هذا الواجب عليهم. وإذا عادوا إلى القيام به - وقد عادوا والحمد للَّه - أوشك - إن شاء اللَّه - أن ينجلي عن المسلمين مصابهم.

تفرقة:

ليس كل من زعم أنه يدعو إلى اللَّه يكون صادقًا في دعواه، فلابد من التفرقة بين الصادقين والكاذبين، والفرق بينهما مستفاد من الآية بوجهين:

الأول: أن الصادق لا يتحدث عن نفسه، ولا يجلب لها جاهًا ولا مالًا، ولا يبغي لها من الناس مدحًا ولا رفعةً.

أما الكاذب فإنه بخلافه فلا يستطيع أن ينسى نفسه في أقواله وأعماله.

وهذا الفرق من قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾.

الثاني: أن الصادق يعتمد على الحجة والبرهان، فلا تجد في كلامه كذبًا ولا تلبيسًا ولا ادعاءً مجردًا، ولا تقع من سلوكه في دعوته على التواءٍ ولا تناقضٍ ولا اضطرابٍ.

وأما الكاذب فإنه بخلافه، فإنه يلقي دعاويه مجردة، ويحاول تدعيمها بكل ما تصل إليه يده، ولا يزال لذلك في حنايا وتعاريج لا تزيده إلا بعدًا عن الصراط المستقيم.

وهذا الفرق من قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

مباحث لفظية:

«على بصيرة»: يتعلق بأدعو، واختيرت (على) لتدل على تمام التمكن.

«أنا»: تأكيد للضمير المستتر في (أدعو). ونكتته الإعلان بنفسه في مقام الدعوة، وشأن الداعي على بصيرة أن يجهر بدعوته ولا يستتر بها، واتصال اللفظ الدال عليه باللفظ الدال على أتباعه كما تتصل دعوتهم بدعوته، وشأن

الصورة اللفظية مطابقة الصورة الخارجية، والكلام تصوير للواقع.

«مَن»: تفيد العموم لكل تابع، وأكملهم في الاتباع أكملهم في الدعوة، لأن الموصول يفيد التعليل بصلته، فهم يدعون لأنهم متبعون.

تنزيه اللَّه تعالى:

الاعتراف بوجود خالق للكون يكاد يكون غريزة مركوزة في الفطرة، ويكاد لا تكون لمنكريه - عنادًا - نسبة عددية بين البشر.

ولكن أكثر المعترفين بوجوده قد نسبوا إليه ما لا يجوز عليه ولا يليق بجلاله: من الصاحبة، والولد، والمادة، والصورة، والحلول، والشريك في التصرف في الكون، والشريك في التوجه والضراعة إليه، والسؤال منه والاتكال عليه.

فأرسل اللَّه الرسل ليبينوا للخلق تنزهه عن ذلك كله. وكان من سبيل محمد ﷺ أنه يدعو الخلق إلى اللَّه، وينزهه عن كل ما نسبه إليه المبطلون وتخيله المتخيلون، وهو معنى قوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

فهو يدعوهم إلى اللَّه الذي قد عرفوا وجوده بفطرتهم، وعرفوا أنه هو خالق الكون وخالقهم، لا يسمِّيه إلا بما سمَّى به نفسه، ولا يصفه إلا بما وصف به نفسه، ويعرفهم بآثار قدرته، ومواقع رحمته، ومظاهر حكمته، وآيات ربوبيته وألوهيته ووحدانيته في جلاله وسلطانه، وينزهه عن المشابهة والمماثلة لشيء من مخلوقاته، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله.

وهذا التنزيه - وإن كان داخلًا في الدعوة إلى اللَّه - فإنه خصص بالذكر لعظم شأنه فإنه ما عرف اللَّه من شبهه بخلقه، أو نسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو أشرك به سواه، وإن ضلال أكثر الخلق جاءهم من هذه الناحية، فمن أعظم وجوه الدعوة وألزمها تنزيه اللَّه تعالى عن الشبيه والشريك وكل ما لا يليق.

والمسلمون المتبعون لنبيهم ﷺ في الدعوة إلى اللَّه على بصيرة، متبعون له في هذا التنزيه عقدًا وقولًا وعملًا وإعلانًا ودعوةً.

مباحث لفظية:

«سبحان»: منصوب بفعل محذوف تقديره أسبِّح، أي أنزِّه، والجملة معطوفة على جملة (أدعو)، فهي من بيان القبيل.

البراءة من المشركين:

الأمة التي بعث منها النبي ﷺ، وهي أول أمة دعاها إلى اللَّه، هي الأمة العربية، وهي أمة كانت مشركة تعرف أن اللَّه خلقها ورزقها وتعبد مع ذلك أوثانها، تزعم أنها تقربها إلى اللَّه وتتوسط لها لديه.

فكان النبي ﷺ كما يدعو إلى اللَّه وينزهه، يعلن ببراءته من المشركين، وأنه ليس منهم، براءة من عقيدتهم وأقوال وأعمال شركهم، فهو مباين لهم في العقد والقول والعمل مباينة الضد للضدِّ، فكما باين التوحيد الشرك، باين هو المشركين، وذلك معنى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وهذه البراءة والمباينة، وإن كانت مستفادة من أنه يدعو إلى اللَّه وينزهه، فإنها نص عليها بالتصريح لتأكيد أمر مباينة المشركين (والبعد عن الشرك بجميع

وجوهه وصوره: جليه وخفيه) في جميع مظاهر شركهم حتى في صورة القول، كـ(ما شاء اللَّه وشاء فلان)، فلا يقال هكذا، ويقال: ثم شاء فلان كما جاء في حديث[٣٥] بيناه في جزء من الأجزاء الماضية[١] أو في صورة الفعل، كأن يسوق بقرة أو شاة مثلًا إلى ضريح من الأضرحة ليذبحها عنده، فإنه ضلال[٢] كما قاله (الشيخ الدردير في باب النذر)[٣]، فضلًا عن عقائدهم، كاعتقاد أن هنالك ديوانًا من عباد اللَّه يتصرف في ملك اللَّه، وأن المذنب لا يدعو اللَّه، وإنما يسأل من يعتقد فيه الخير من الأموات، وذلك الميت يدعو له اللَّه.

لتأكيد أمر المباينة للمشركين في هذا كله نص عليها بالتصريح كما قلنا، وللبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره: جليه وخفيه.

والمباينة والتبري لازمة من كل كفر وضلال، وذلك مستفاد من الدعوة إلى اللَّه وتنزيهه، وإنما خصص المشركين لما تقدم، ولأن الشرك هو شر الكفر وأقبحه.

ولما كانت هذه المباينة والبراءة داخلة في الدعوة إلى اللَّه وتنزيهه،

---

[٣٥] صحيح:

أخرجه أبو داود (٤٩٧٠) وغيره عن حذيفة مرفوعًا:

«لا تقولوا ما شاء اللَّه وشاء فلان ولكن قولوا: ما شاء اللَّه ثم شاء فلان».

وصححه النووي وغيره ممن ذكرناهم في تخريج «رسالة الشرك ومظاهره» (٣٢) لتلميذ المصنف: الشيخ مبارك الميلي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١) انظر مجلة «الشهاب» (ج٦ م٨) (ص ٣٠٦- ٣١١) الصادر غرة صفر ١٣٥١هـ- جوان ١٩٣٢م.

(٢) انظر تفصيل هذا الإجمال في رسالة «الشرك ومظاهره» (ص ٣٦٥- ٣٩١) لتلميذ المصنف الشيخ مبارك الميلي رَحِمَهُ اللَّهُ - بتحقيقي.

(٣) «الشرح الكبير» للدردير بحاشية الدسوقي (٢/ ٤٧١).

فالمسلمون المتبعون لنبيهم ﷺ كما يدعون إلى اللَّه على بصيرة وينزهونه، يباينون المشركين في عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم، ويطرحون الشرك بجميع وجوهه، ويعلنون براءتهم وانتفاءهم من المشركين. والحمد للَّه رب العالمين[١].

* * *

(١) الشهاب: (ج١ م١١) محرم ١٣٥٤هـ- أفريل ١٩٣٥م.

من سورة النحل

تفسير الآية (١٢٥)

كيف تكون الدعوة إلى الله والدفاع عنها؟

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥].

سبيل الرب جَلَّ جَلَالُهُ:

شرع الله لعباده بما أنزل من كتابه وما كان من بيان رسوله ما فيه استنارة عقولهم وزكاء نفوسهم واستقامة أعمالهم، وسماه سبيلًا ليلتزموه في جميع مراحل سيرهم في هذه الحياة ليفضي بهم إلى الغاية المقصودة، وهي السعادة الأبدية في الحياة الأخرى. وأضافه إلى نفسه ليعلموا أنه هو وضعه، وأنه لا شيء يوصل إلى رضوانه سواه.

وذكر من أسمائه الرب ليعلموا أن الرب الذي خلقهم وطورهم ولطف بهم في جميع أطوار خلقهم ومراحل تكوينهم، هو الذي وضع لهم هذه السبيل، لطفًا منه بهم وإحسانًا إليهم، لينهجوها في مراحل حياتهم.

فكما كان رحيمًا بهم في خلقه كان رحيمًا بهم في شرعه، فيسيروا فيها عن رغبة ومحبة فيها، ومع شكر له وشوق إليه.

وأمر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الناس أجمعين - وحذف معمول (ادع) لإفادة العموم - إلى هذه السبيل، فقال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

اهتداء:

أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يدعو إلى سبيل ربه، وهو الأمين المعصوم، فما ترك شيئًا من سبيل ربه إلا دعا إليه.

فعرفنا بهذا أن ما لم يدع إليه محمد ﷺ فليس من سبيل الرب ﷻ.

فاهتدينا بهذا - وأمثاله كثير - إلى الفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ودعاة اللَّه ودعاة الشيطان.

فمن دعا إلى ما دعا إليه النبي ﷺ فهو من دعاة اللَّه، يدعو إلى الحق والهدى.

ومن دعا إلى ما لم يدع إليه محمد ﷺ فهو من دعاة الشيطان، يدعو إلى الباطل والضلال.

اقتداء:

فالمسلم المتبع للنبي ﷺ لا يألو جهدًا في الدعوة إلى كل ما عرف من سبيل ربه.

وبقيام كل واحد من المسلمين بهذه الدعوة بما استطاع تتضح السبيل للسالكين، ويعم العلم بها عند المسلمين، وتخلو سبل الباطل على دعاتها من الشياطين.

أركان الدعوة:

أركان الدعوة أربعة:

الداعي: وهو النبي ﷺ.

والمدعو: وهم جميع الناس.

والمدعو إليه: وهو سبيل الرب ﷻ، والدعوة إلى سبيله الموصل إليه دعوة إليه، فالمدعو إليه في الحقيقة هو اللَّه تعالى.

والبيان عن الدعوة.

وتجيء الآيات القرآنية منها ما هو حديث وبيان عن الداعي، ومنها ما هو حديث وبيان عن المدعو إليه، ومنها حديث وبيان عن بيان الدعوة، وتتضمن كل آيةٍ جاءت في واحدٍ الذكر أو الإشارة للثلاثة الأخرى.

وهذه الآية الكريمة جاءت في بيان كيفية الدعوة، وبماذا تؤدَّى، وكيف يدافع عنها، مع ذكر الداعي والمدعو إليه، فقال تعالى: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾.

الحكمة:

الحكمة هي العلم الصحيح الثابت المثمر للعمل المتقن، المبني على ذلك العلم.

فالعقائد الحقة والحقائق العلمية الراسخة في النفس رسوخًا تظهر آثاره على الأقوال والأعمال حكمة.

والأعمال المستقيمة والكلمات الطيبة التي أثمرتها تلك العقائد - حكمة.

والأخلاق الكريمة كالحلم والأناة - وهي علم وعمل نفسي - حكمة.

والبيان عن هذا كله بالكلام الواضح الجامع - حكمة، تسمية للدال باسم المدلول.

استدلال واستنتاج:

في سورة الإسراء ثمان عشرة آية، جمعت أصول الهداية من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٢٢] إلى ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٣٩].

وقد تكلمنا عليها في الجزء (٦ و ٧ و ٨ و ٩ و ١٠) من المجلد السادس[1].

وقد جمعت تلك الآيات كل ما ذكرنا من العقائد الحقة، والحقائق العلمية، والأعمال المستقيمة، والكلمات الطيبة، والأخلاق الكريمة، وسمى الله ذلك كله حكمة، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسرَاء: الآية ٣٩].

وقال النبي ﷺ: «**إن من الشعر حكمة**»[٣٦] وذلك لأن من الشعر ما فيه

---

(١) انظر (ص٩٤- ١٥٠) الآتية.

[٣٦] صحيح:

رواه البخاري (٦١٤٥) وأبو داود (٥٠٠٠) والدارمي (٢/ ٢٩٦-٢٩٧) وابن ماجه (٣٧٥٥) وأحمد (٣/ ٤٥٦و٥/ ١٢٥) عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

وله شواهد:

١- عن ابن مسعود: رواه الترمذي (٢٨٤٩) وقال: «غريب».

٢- عن عائشة: رواه البزار (٢١٠١-٢١٠٣-الكشف) والطبراني في «الأوسط» (١٠/ ١١/ ٩٠١٧) وقال الهيثمي (٨/ ١٢٣): «رواه البزار والطبراني في «الأوسط» بأسانيد، وأحد أسانيد البزار رجاله رجال الصحيح غير علي بن حرب الموصلي وهو ثقة». =

بيان عن عقيدة حق أو خلق كريم أو عمل صالح أو علم وتجربةٍ، كشعر أمية بن أبي الصلت(١) الذي قال فيه النبي ﷺ: **«كاد أن يسلم»**[٣٧]، وككلمة لبيد رضي الله عنه:

«ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل»(٢).

التي قال فيها ﷺ: **«أصدق كلمة قالها الشاعر»**[٣٨](٣).

فالحكمة التي أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يدعو الناس إلى سبيل ربه بها هي البيان

= ٣- عن ابن عباس: رواه أبو داود (٥٠٠١) والترمذي (٢٨٥٠) وابن ماجه (٣٧٥٦) وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(١) هو أمية بن أبي الصلت ربيعة بن عوف الثقفي، أكثر في شعره من ذكر التوحيد والبعث يوم القيامة، ولم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافرًا. والمشهور أنه مات سنة تسع للهجرة بالطائف.

انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (٥٥٢) و«فتح الباري» (٧/ ١٩٣- ١٩٤) للحافظ.

[٣٧] صحيح:

رواه البخاري (٣٨٤١و٦١٤٧و٦٤٨٩) ومسلم (٢٢٥٦) وابن ماجه (٣٧٥٧) وأحمد (٢/ ٣٩٣و٤٧٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل.

وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم».

وللجملة الأخيرة شاهد عن عمرو بن الشريد عن أبيه: أخرجه مسلم (٢٢٥٥) وابن ماجه (٣٧٥٨).

(٢) هذا صدر بيت للبيد بن ربيعة، وعجزه: وكلُّ نعيم لا محالةَ زائلُ.

انظر «ديوانه» (ص٢٥٦).

[٣٨] صحيح:

تقدم في الذي قبله.

(٣) روى الثلاثة البخاري في كتاب الأدب باب ما يجوز من الشعر. [المصنف].

الجامع الواضح للعقائد بأدلتها، والحقائق وبراهينها، والأخلاق الكريمة بمحاسنها ومقابح أضدادها، والأعمال الصالحة - من أعمال القلب واللسان والجوارح - بمنافعها ومضار خلافها.

وهكذا كان بيانه لهذه الأشياء كلها بما صح من أحاديثه وجوامع كلمه، وهكذا هو بيان القرآن لها كلها حيثما كانت من آياته.

فآيات القرآن وأحاديثه ﷺ في بيان هذه الأشياء - البيان المذكور - هما الحكمة التي كان يدعو إلى سبيل ربه بها.

وتلك الأشياء كلها هي أيضًا حكمة، وهي التي كان يعلمها كما في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٩] و[آل عمران: الآية ١٦٤] و[الجمعة: الآية ٢].

فصلى اللَّه عليه وآله وسلَّم من داع إلى الحكمة ومعلم للحكمة بالحكمة.

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآية الكريمة إلى أسلوب الدعوة وهو الحكمة، وتجلت هذه الحكمة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

فعلينا أن نلتزمها جهدنا حيثما دعونا، ونقتدي بأساليب القرآن والسنة في دعوتنا، فبها يحصل الفهم واليقين، والفقه في الدين والرغبة في العمل والدوام عليه.

وها نحن قد بلغ الحال بنا إلى ما بلغ إليه من الجهل بحقائق الدين، والجمود في فهمه، والإعراض عن العمل به، والفتور في العمل.

فحق على أهل الدعوة إلى اللَّه - وخصوصًا المعلِّمين - أن يقاوموا ما بيَّنا من جهل وجمود وإعراض وفتورٍ بالتزام البيان للحقائق العلمية بأدلتها، والعقائد ببراهينها، والأخلاق بمحاسنها، والأعمال بمصالحها.

وقد وجد الأخذ بهذه الأساليب القرآنية - والحمد للَّه - وأخذ أثرها - بفضل اللَّه - يظهر في الناس بقدر الأخذ بها، يوشك أن تتجدد بذلك في المسلمين حياة إن شاء اللَّه.

الموعظة الحسنة:

الوعظ والموعظة: الكلام الملِّين للقلب بما فيه من ترغيب وترهيب، فيحمل السامع - إذا اتعظ وقبل الوعظ وأثر فيه - على فعل ما أمر به وترك ما نُهي عنه، وقد يطلق على نفس الأمر والنهي.

الاستدلال:

ففي حديث العرباض الذي رواه الترمذي وغيره:

«وعظنا رسول اللَّه ﷺ موعظة وجلت (خافت) منها القلوب وذرفت (سالت) منها العيون»[٣٩].

---

[٣٩] صحيح:

أخرجه أبو داود (٤٥٩٤) والترمذي (٢٦٨١) والدارمي (١/ ٤٤-٤٥) وابن ماجه (٤٣و٤٤) وأحمد (٤/ ١٢٦) وابن حبان (١٠٢- الموارد) والحاكم (١/ ٩٥-٩٧) عن العرباض بن سارية قال:

وعظنا رسول اللَّه ﷺ يومًا بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودِّع. فماذا تعهد إلينا يا رسول اللَّه؟

قال:

«أوصيكم بتقوى اللَّه والسمع والطاعة، وإن عبدٌ حبشيٌّ، فإنه من يعش منكم يرى اختلافًا كثيرًا، =

فقد خطب فيهم خطبة كان لها هذا الأثر في قلوبهم، فهذه حقيقة الموعظة.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ [النساء: الآية ٦٦] أي يؤمرون به.

وقال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ [النور: الآية ١٧] أي ينهاكم.

فهذا من إطلاق الوعظ على الأمر والنهي، لأن شأن الأمر والنهي أن يقترن بما يحمل على امتثاله من الترغيب والترهيب.

بماذا تكون الموعظة؟:

يكون الوعظ بذكر أيام اللَّه في الأمم الخالية، وباليوم الآخر وما يتقدمه وما يكون فيه من مواقف الخلق وعواقبهم ومصيرهم إلى الجنة أو النار، وما في الجنة من نعيم وما في النار من عذاب أليم، وبوعد اللَّه ووعيده.

وهذه أكثر ما يكون بها الوعظ، ويكون بغيرها، كتذكير الإنسان بأحوال نفسه ليعامل غيره بما يحب أن يُعامَل به، وهو من أدق فنون الوعظ وأبلغها، مثل قوله تعالى - وقد نهى أن يقال لمن ألقى السلَم، لست مؤمنًا - ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: الآية ٩٤]، وقوله تعالى - وقد أمر

= وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ».

وفي رواية: «فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وصححه البزار وابن عبد البر والحاكم والضياء المقدسي وأبو نعيم والذهبي وغيرهم.

وراجع «إرواء الغليل» (٢٤٥٥) للألباني.

بالعفو والصفح -: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: الآية ٢٢].

تفريق بالتمثيل:

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٢] هذه حكمة.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] هذه موعظة.

ويقول تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ [النّساء: الآية ٩] هذه أيضًا موعظة.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ [النّحل: الآية ٩٤] هذه حكمة ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النّحل: الآية ٩٤] هذه موعظة.

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ﴾ [الحج: الآية ٣٠- ٣١] هذه حكمة، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحجّ: الآية ٣١] هذه موعظة.

وهكذا تمتزج المواعظ الحسنة بالحكم البالغة في آيات القرآن العظيم، فتتبَّعْها في جميع سوره تَجِدْها، وتدبَّرْها تَقَعْ منها على علوم جَمَّةٍ وأسرارٍ غزيرةٍ.

حسن الموعظة:

الموعظة التي تحصل المقصود منها من ترقيق للقلوب، للحمل على الامتثال لما فيه خير الدنيا والآخرة، هي الموعظة الحسنة.

وإنما يحصل المقصود منها إذا حسن لفظها بوضوح دلالته على معناها، وحسن معناها بعظيم وقعه في النفوس، فعذبت في الأسماع، واستقرت في القلوب، وبلغت مبلغها من دواخل النفس البشرية، فأثارت الرغبة والرهبة وبعثت الرجاء والخوف، بلا تقنيط من رحمة اللَّه، ولا تأمين من مكره، وانبعثت عن إيمان ويقين، وتأدت بحماس وتأثر، فتلقتها النفس من النفس، وتلقفها القلب من القلب، إلاّ نفسًا أحاطت بها الظلمة، وقلبًا عمّ عليه الرّان(١)، عافى اللَّه قلوب المؤمنين.

تطبيق واستدلال:

كل هذا تجده في مواعظ القرآن، وفيما صح من مواعظ النبي ﷺ.

وكان ﷺ - كما جاء في «الصحيح» - إذا خطب وذكر الساعة، اشتد غضبه، وعلا صوته، واحمرت عيناه، وانتفخت أوداجه، كأنه منذر جيش، يقول: صبَّحكم (أغار عليكم في الصباح) مسَّاكم [٤٠] (أغار عليكم في المساء).

(١) أصله: الطبع والتغطية، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] أي: طبع وختم. النهاية (٢/ ٢٩١) لابن الأثير.

[٤٠] صحيح:

رواه مسلم (٨٦٧) عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

وسنسوقه بتمامه في التخريج رقم (١٨٠) إن شاء اللَّه تعالى.

وكان يقصر خطبه في بلاغة وإيجاز.

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها إلى أنَّ من الموعظة ما هو حسن، وهو الذي تكون به الدعوة، ومنها ما هو ليس بحسن فيجتنب.

وبينت مواعظ القرآن ومواعظ النبيِّ ﷺ ذلك الحسن.

فعلينا أن نلتزمه لأنه هو الذي تبلغ به الموعظة غايتها، وتثمر بإذن اللَّه ثمرتها، وعلينا أن نجتنب كل ما خالفه مما يعدم ثمرة الموعظة كتعقيد ألفاظها، أو يقلبها إلى ضدّ المقصود منها، كذكر الآثار الواهية التي فيها أعظم الجزاء على أقل الأعمال.

تحذير:

أكثر الخطباء في الجمعات اليوم في قطرنا يخطبون الناس بخطب معقدة مسجعة طويلة من مخلفات الماضي، لا يراعى فيها شيءٌ من أحوال الحاضر وأمراض السامعين، تُلقى بترنُّم وتلحينٍ، أو غمغمةٍ[1] وتمطيطٍ، ثم كثيرًا ما تُختم بالأحاديث المنكرات، أو الموضوعات.

هذه حالة بدعية في شعيرة من أعظم الشعائر الإسلامية سدَّ بها أهلها بابًا عظيمًا من الخير فتحه الإسلام، وعطَّلوا بها الوعظ والإرشاد، وهو ركن عظيم من أركان الإسلام.

---

(١) الترنُّم: التطريب والتغني.
والغمغمة: كلام غير بيِّن.

فحذار أيها المؤمن من أن تكون مثلهم إذا وقفتَ خطيبًا في الناس، وحذار من أن تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية إلى ما أحدثه المحدثون.

ورحم اللَّه أبا الحسن - كرم اللَّه وجهه - فقد قال[1]: «الفقيه، كل الفقيه، كل الفقيه: من لم يقنِّط الناس من رحمة اللَّه، ولم يؤمنهم من مكره، ولم يَدَعِ القرآنَ رغبةً عنه إلى ما سواه»[٤١].

الجدال بالتي هي أحسن:

لا بد أن يجد داعيةُ الحقِّ معارضةً من دعاة الباطل، وأن يلقى منهم مشاغبةً بالشُّبه، واستطالةً بالأذى والسفاهة، فيضطر إلى رد باطلهم، وإبطال شغبهم، ودحض شبههم، وهذا هو جدالهم ومدافعتهم الذي أُمر به نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَجَادِلْهُم﴾.

ولما كان أهل الباطل لا يجدون في تأييد باطلهم إلا الكلمات الباطلة يموِّهون بها، والكلمات البذيئة القبيحة يتخذون سلاحًا منها، ولا يسلكون في مجادلتهم إلا الطرق الملتوية المتناقضة، فيتعسفون فيها، ويهربون إليها - لما كان هذا شأنهم أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يجتنب كلماتهم الباطلة والقبيحة وطرائقهم المتناقضة والملتوية، وأن يلتزم في جدالهم كلمة الحق والكلمات الطيبة البريئة، وأن يسلك في مدافعتهم طريق الرفق والرجاحة والوقار، دون فحش ولا طيش ولا فظاظة.

---

(١) أخرجه رزين. ذكر في «تيسير الوصول». [المصنف].

[٤١] حسن:

له طرق عن علي يقوي بعضها بعضًا، خرجتها في تحقيقي لِ «رسالة الشرك ومظاهره» (٢٣٩).

وهذه الطريقة في الجدال هي التي هي أحسن من غيرها في لفظها ومعناها ومظهرها وتأثيرها وإفضائها للمقصود، من إفحام المبطل وجلبه، ورد شره عن الناس، وإطلاعهم على نقصه وسوء قصده.

وهذه هي الطريقة التي أمر اللَّه نبيه ﷺ بالجدال بها في قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

اهتداء واقتداء:

هدتنا الآية الكريمة إلى الطريقة المحمودة المشروعة في الجدال، وفي آيات القرآن بيان لهذه الطريقة البيان التام.

فإنه كما لم يترك القرآن عقيدةً من عقائد الإسلام إلَّا بينها وأوضح دليلها، ولا أصلًا من أصول أحكامه أو أصول آدابه إلَّا بينه، واحتج له، وذكر حكمته وثمرته، كذلك لم يترك شُبهة من شُبه الباطل إلَّا ردها بالطريقة الحسنة التي أمر بها، وجاءت السنة النبوية الكريمة والسيرة المحمدية الشريفة مطبقة لذلك ومنفذة له.

فالكتاب والسنة فيهما البيان الكافي الشافي للجدال بالتي هي أحسن، كما فيهما البيان الشافي الكافي للحكمة والموعظة الحسنة.

فعلينا أن نطلب هذا كله من الكتاب والسنة، ونجهد في تتبعه وأخذه واستنباطه منهما، وندأب على العمل بما نجده والتحلي به والالتزام له من هذه الأصول الثلاثة في الدعوة والدفاع عنها.

أحكام وتنزيل:

أمر اللَّه بالدعوة وبالجدال على الوجه المذكور، فكلاهما واجب على المسلمين أن يقوموا به، فكما يجب لسبيل الرب ﷻ أن تعرف بالبيان بالحكمة، وأن تحب بالترغيب بالموعظة الحسنة، كذلك يجب أن يدافع من يصدون عنها بالتي هي أحسن، إذ لا قيام لشيء من الحق إلا بهذه الثلاث.

غير أن الدعوة بوجهيها والجدال ليستا في منزلة واحدة في القصد والدوام، فإن المقصود بالذات هو الدعوة، أما الجدال فإنه غير مقصود بالذات، وإنما يجب عند وجود المعارض بالشبهة والصاد بالباطل عن سبيل اللَّه.

فالدعوة بوجهيها أصل قائم دائم، والجدال يكون عند وجود ما يقتضيه، ولهذا كانت الدعوة بوجهيها محمودة على كل حال، وكان الجدال مذمومًا في بعض الأحوال، وذلك فيما إذا استعمل عند عدم الحاجة إليه، فيكون حينئذ شاغلًا عن الدعوة ومؤديًا - في الأكثر - إلى الفساد والفتنة. فإذا كان جدالًا لمجرد الغلبة والظهور فهو شر كله، وأشد شرًا منه إذا كان لمدافعة الحق بالباطل.

وفي هذه الأقسام الممنوعة جاء مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى: الآية ٣٥] ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: الآية ٥٦]، وقوله ﷺ: «**ما ضل قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»[1]. ثم

(١) الترمذي وصححه. [المصنِّف].

تلا : ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٥٨]»[٤٢] .

تحذير:

المدافعة والمغالبة من فطرة الإنسان، ولهذا كان الإنسان أكثر شيءٍ جدلًا ، غير أن التربية الدينية هي التي تضبط خلقه وتقوّم فطرته ، فتجعل جداله بالحق عن الحق .

فلنحذر من أن يطغى علينا خُلُقُ المدافعةِ والمغالبةِ فنذهب في الجدل شر مذاهبه وتصير الخصومة لنا خلقًا ، ومن صارت الخصومة له خُلُقًا ؛ أصبح يندفع معها في كل شيء ولأدنى شيء لا يبالي بحق ولا باطل، وإنما يريد الغلب بأي وجه كان ، وهذا هو الذي قال فيه النبي ﷺ(١) : «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد (الشديد الخصومة) الخصم**[٤٣] (الكثير الخصومات)» .

---

[٤٢] حسن :

رواه الترمذي (٣٢٦٦) عن محمد بن بشر ويعلى بن عُبيد، وابن ماجه (٤٨) عن محمد بن فضيل ومحمد بن بشر ، وأحمد (٥/ ٢٥٢) عن شهاب بن خراش و (٥/ ٢٥٦) عن ابن نمير ويعلى، والحاكم (٢/ ٤٤٧-٤٤٨) عن جعفر بن عون : ستتهم قالوا : عن حجاج بن دينار عن أبي غالب عن أبي أمامة مرفوعًا .

وهذا إسناد حسن ، رجاله ثقات غير أبي غالب واسمه حَزَوَّر ، فإن حديثه لا ينزل عن رتبة الحسن ، وفي «التقريب» قال الحافظ : «صدوق يخطئ» .

وقال الترمذي : «حديث حسن صحيح» !

وقال الحاكم : «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي ! .

(١) الصحيحان . [المصنِّف] .

[٤٣] صحيح :

رواه البخاري (٢٤٥٧و٤٥٢٣و٧١٨٨) ومسلم (٢٦٦٨) والترمذي (٢٩٨٢) والنسائي في «المجتبى» (٨/ ٢٤٧-٢٤٨) وفي «الكبرى» (٥٩٨٧) وأحمد (٦/ ٥٥و٦٣و٢٠٥) عن عائشة .

وقال الترمذي : «حديث حسن» .

ومن ضبط نفسه وراقب ربه لا يجادل إذا جادل إلا عن الحق وبالتي هي أحسن.

علينا الدعوة والجدال، وإلى الله الهدى والضلال والمجازاة على الأعمال:

الدعوة بوجهيها يجب أن تكون عامة، والجدال على وجهه عام مثلها، ثم يكون حظ كل واحد من الهدى والضلال على حسب استعداده وقابليته، وما سبق عليه من أمر ربه، وتكون مجازاته على ذلك للخالق الذي هو العالم بمن خرج عن طريقه وأعرض عن هداه، وبالذين قبلوا هداه فاهتدوا وساروا في سبيله.

والعدل الحقيقي التام في الجزاء إنما يكون ممن يعلم السر والعلن، وليس ذلك إلا لله فلا يكون الجزاء على الهدى والضلال من سواه.

ولهذا ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

ثمرة:

ثمرة العلم بهذا أن الداعي يدعو ولا ينقطع عن الدعوة ولو لم يتبعه أحد، لأنه يعلم أن أمر الهدى والضلال إلى الله، وإنما عليه البلاغ، وأنه يصبر على ما يلقى من إعراض وعناد وكيد وأذى دون أن يجازي بالمثل أو يفتر في دعوة من أذاه، لعلمه بأن الذي يجازي إنما هو الله.

جعلنا الله والمسلمين من الدعاة إلى سبيله كما أمر، الصابرين المحتسبين أمام من آمن وشكر، ومن جحد وكفر، غير منتظرين إلا جزاءه، ولا متكلين إلا عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل[1].

---

(١) الشهاب: (ج٢ م١١) صفر ١٣٥٤هـ- ماي ١٩٣٥م.

من سورة الإسراء

تفسير الآيات (١٢و١٨و٢٠ - ٣٩و٥٣ و٥٤ و٥٦ و٥٧ و٥٩ و٧٠ و٧٨ - ٨٣)

آية الليل وآية النهار

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ١٢] .

للَّه تعالى في سور القرآن، وعالم الأكوان، آيات بينات دالة على وجوده، وقدرته، وإرادته، وعلمه، وحكمته، ونعمٌ سابغاتٌ موجبةٌ لحمده، وشكره، وعبادته.

ولما ذكر تعالى آيته، ونعمته، بالقرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، ذكر آيته ونعمته بالليل والنهار المتعاقبين على هذا الكون الأعظم، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ الآية.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: خلقناهما ووضعناهما آيتين، وجعل الشيء هو وضعه على حالة أو كيفية خاصة، فهما حادثان مسيران بتدبير وتقدير.

و﴿ٱلَّيْلِ﴾: هو الوقت المظلم الذي يغشى جانبًا من الكرة الأرضية عندما تكون الشمس منيرة لجانبها المقابل.

و﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: هو الوقت الذي يتجلى على جانب الكرة المقابل للشمس فتضيئه بنورها.

ولا يزالان هكذا متعاقبين على جوانب هذه الكرة وأمكنتها، يكور الليل على النهار بأن يحل محله في جزء من الكرة - وجزء الكرة مكور - فيكون

النهار الحال مكورًا بحكم تكور المحل، وكذلك النهار يكور عليه فيحل محله من الكرة فيكون أيضًا مكورًا بحكم تكور المحل.

وإنما جعلنا تكوير أحدهما على الآخر بحلوله في محله، لأنه لا يمكن تكويره عليه بحلوله عليه في نفسه لأنهما ضدان لا يجتمعان، وليس جسمين يحل أحدهما على الآخر.

والآية: هي العلامة الدالة، وكان الليل والنهار «آيتين»: بتعاقبهما مقدرين بأوقات متفاوتة بالزيادة والنقص في الطول والقصر على نظام محكم وترتيب بديع، بحسب الفصول الشتوية والصيفية، وبحسب الأمكنة ومناطق الأرض، المناطق الاستوائية، والقطبية الشمالية والجنوبية، وما بينهما، حتى يكونا في القطبين ليلة ويومًا في السنة، ليلة فيها ستة أشهر هي شتاء القطبين، ويوم فيه ستة أشهر هو صيفهما.

فهذا الترتيب والتقدير والتسيير دليل قاطع على وجود خالق حكيم قدير، لطيف خبير.

الليل في نفسه آية، وفيه آيات، وأظهر آياته هو القمر، فيقال في القمر ﴿ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾.

والنهار في نفسه آية، وفيه آيات، وأظهر آياته هو الشمس، فيقال في الشمس ﴿ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾.

وبعدما ذكر تعالى الليل والنهار آيتين في أنفسهما ذكر أظهر آيات كل واحد منهما وأضافها إليه، فقال تعالى: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾.

وليس محو القمر وإبصار الشمس متأخرًا عن الليل والنهار، وكيف؟ وما كان الليل والنهار إلا باعتبار إضاءة الشمس لجانب وعدم إضاءتها لمقابله، فليست الفاء في (فمحونا) للترتيب في الوجود، وإنما هي للترتيب في الذكر، وللترتيب في التعقل، فإن القمر والشمس بعضٌ من آيات الليل والنهار، والجزء متأخر في التعقل عن الكل.

وقد اتفق الكاتبون على الآية ممن رأينا على أن المراد من لفظ الآية في الموضوعين واحد:

فإما أن يراد بها نفس الليل والنهار، والإضافة في ﴿ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ و﴿ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ للتبيين كإضافة العدد للمعدود.

أو يراد بها الشمس والقمر، فيكون ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ على تقدير مضاف في الأول مقدرًا هكذا: وجعلنا نيِّري الليل والنهار، أو في الأخير مقدرًا هكذا: وجعلنا الليل والنهار ذوي آيتين.

وأما على تقديرنا المتقدم فإن لفظ «آيتين» صادق على الليل والنهار، ولفظ «آية الليل» و«آية النهار» صادق على الشمس والقمر، وعليه يكون تقدير الآية هكذا: وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا قمر الليل وجعلنا شمس النهار مبصرة، وهو تقدير صحيح لا معارض له من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى، وسالم من دعوى تقدير محذوف، ومفيد لكثرة المعنى بأربع آيات: بالليل وقمره، والنهار وشمسه، فالتقدير به أولى، ولذلك فسرنا الآية عليه.

«فمحونا» المحو هو الإزالة: إزالة الكتابة من اللوح، وإزالة الآثار من الديار.

فمحو «آية الليل» إزالة الضوء منها. وهذا يقتضي أنه كان فيها ضوء ثم أزيل.

فتفيد الآية أن القمر كان مضيئا ثم أزيل ضوؤه فصار مظلما.

وقد تقرر في علم الهيئة أن القمر جرم مظلم يأتيه نوره من الشمس.

واتفق علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرم القمر - كالأرض - كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحمو والحرارة ثم برد، فكانت إضاءته في أزمان حموه، وزالت لما برد.

لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية، ذلك الكتاب الذي جعله اللَّه حجة لنبيه ﷺ وبرهانًا لدينه على البشر مهما ترقوا في العلم وتقدموا في العرفان، فإن ظلام جرم القمر لم يكن معروفًا أيام نزول الآية عند الأمم إلا أفرادًا قليلين من علماء الفلك، وأن حمو جرمه أولًا وزواله بالبرود ثانيًا ما عرف إلا في هذا العهد الأخير.

والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ نحو أربعة عشر قرنًا - نبي أمي من أمة أمية كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم، فلم يكن ليعلم هذا ويقوله إلا بوحي من اللَّه الذي خلق الخلائق وعلم حقائقها . . .

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم[1].

(١) البيت من بردة البوصيري.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ .

فقد وضعت كذلك من أول خلقها (مبصرة) يبصر بها ، والإسناد مجازي ، كما تقول: لسان متكلم، أي متكلم به ، فيسند الشيء إلى ما يكون به من آلة وسبب. والمبصرون حقيقة هم ذوو الأبصار. ولكنهم لا ينتفعون بأبصارهم إلا في ضوئها ولا ينتفعون بها في الظلام. وإذا كان الضوء يكون من النار ، فأين ضوء النار من ضوء الشمس في القوة والدوام والعموم؟

وكما أفادت الآية زوال نور القمر بعد أن كان بمقتضى لفظة «فمحونا» ومدلولها لغة ، فإنها تشير إلى أن نوره مكتسب ، وتومئ إلى أنه من الشمس ، وذلك أننا نرى فيه نورًا مع علمنا أن نوره قد أزيل ، فنعلم قطعًا أن ذلك النور ليس منه ، وإذا كان مذكورا مع الشمس المبصرة في الاستدلال والامتنان ، ومعاقبًا مصاحبًا لها في الظهور ، فنوره جاءه منها وهي التي أبصرته .

وقدم الليل وآيته على النهار وآيته في ترتيب النظم ، لأنه ظلام ، والظلام عدم الضوء ، والعدم مقدم على الوجود في هذه المخلوقات .

﴿لِتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ .

ذكر تعالى الليل والنهار وآيتيهما استدلالًا على الخلق ليعرفوه ، وذكر ما فيها من النعمة عليهم ليشكروه ويعبدوه ، فكانت فائدة خلقها على هذا الوجه راجعة للعباد ، ليبتغوا ويطلبوا فضلًا من ربهم بالسعي لتحصيل المعاش وأسباب الحياة ووجوه المنافع ، وليضبطوا أوقاتهم بعلم عدد السنين الشمسية والقمرية وما اشتملت عليه السنون من الشهور والأيام والساعات ، وليعلموا جنس الحساب الذي منه حساب الشمس وتنقلها في منازلها ، وحساب القمر

وتنقله في بروجه، وحساب أبعادهما وسَعتهما ومسير نورهما، ثم حساب ما يرتبط بهما من أجرام سابحة في الفضاء.

والابتغاء: هو طلب الشيء بسعي إليه ومحبة فيه.

ويسمِّي - تعالى - طلب أسباب الحياة ابتغاء تنبيهًا على هذا السعي وهذه المحبة، فهما الشرطان اللازمان للفوز بالمطلوب.

كما يسمِّي - تعالى - المطلوب بالابتغاء فضلًا من الرب، وفضله من رحمته، ورحمته واسعة لا تضبطها حدود ولا تحصرها الأعداد - تنبيهًا على سَعة هذا الفضل ليذهب الخلق في جميع نواحيه ويأخذوا بجميع أسبابه مما أذن لهم فيه وليكونوا - إذا ضاق بهم مذهب - آخذين بمذهب آخر من مسالك هذا الفضل الرباني الواسع غير المحصور.

وتنبيهًا أيضًا على قوة الرجاء في الحصول على البغية، لأن طلبهم طلب لفضل رب كريم.

ويقول تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، والرب المالك المدبر لمملوكه بالحكمة، فيعطيه في كل حال من أحواله ما يليق به، ليكون الخلق بعد قيامهم بالعمل راضين بما ييسره اللَّه من أسباب وما يقسمه لهم من رزق، ثقةً بعدله وحكمته، فلا يبغي أحدٌ على أحدٍ بتعدٍّ أو حسدٍ.

فهذه الكلمات القليلة الكثيرة وهي: ﴿لِتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، جمعت جميع أصول السعادة في هذه الحياة: بالعمل مع الجد فيه والمحبة له والرجاء في ثمرته، الذي به قوام العمران. وبالرضاء والتسليم للمولى، الذي به طمأنينة القلب وراحة الضمير، وبالكف للقلب واليد عن الناس، الذي به

الأمن والسلام.

ويذكر تعالى علم عدد السنين المتضمن لعدد الشهور والأيام والساعات تنبيهًا لخلقه على ضبط الأعمال بالأوقات، فإن نظام الأعمال واطرادها وخفتها والنشاط فيها وقرب انتاجها إنما هو بهذا الضبط لها على دقائق الزمان.

كما ذكر - تعالى - جنس الحساب تنبيهًا على لزومه لهذا الضبط ولجميع شؤون الحياة من علم وعمل.

فكل العلوم الموصلة إلى هذا العد وهذا الحساب هي وسائل لها حكم مقصدها في الفضل والنفع والترغيب.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

فكل ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحق، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الإحسان، كلٌّ هذا فصِّل في القرآن تفصيلًا، كلٌّ فصل على غاية البيان والأحكام.

وهذا دعاء وترغيب للخلق أن يطلبوا ذلك كله من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في العلم والعمل، ويأخذوا منه ويهتدوا به. فهو الغاية التي ما وراءها غاية في الهدى والبيان(١).

* * *

(١) الشهاب: (ج١٢ م٥) شعبان ١٣٤٨هـ- جانفي ١٩٣٠م.

إرادة الدنيا وإرادة الآخرة

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٨].

كل الناس في هذه الحياة حارث وهمام: عامل ومريد، فسفيه ورشيد، وشقي وسعيد.

منهم من يريد بأعماله هذه الدار العاجلة والحياة الدنيا، عليها قصر همه، وعلى حظوظها عقد ضميره، جعلها وجهة قصده، ونصبها غاية سعيه، لا يرجو وراءها ثوابًا، ولا يخاف عقابًا، فهو مقبلٌ عليها بقلبه وقالبه، معرض عن غيرها بكليته، فلا يجيب داعي اللّٰه بترغيب ولا ترهيب، ولا يتقيد في سلوكه بشرائع العدل والاحسان.

فمن كان هذه إرادته، وهذا عمله، عجل اللّٰه له في الدنيا ما مضى في مشيئته تعالى أن يعجله له، إن كان ممن أراد التعجيل لهم، بحكم إبدال الجار والمجرور في قوله: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ من الجار والمجرور في قوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ﴾.

فالتعجيل منه تعالى لمن يريد، لا لكل مريد، والشيء المعجل - في قدره وجنسه ومدته - على ما يشاء الرب المعطي، لا على ما يشاء العبد المريد.

فكم من مريدي الدنيا من يقصد الشيء فلا ينال إلا بعضه، فيضيع عليه شطر عمله، فلا في هذه الدار ولا في تلك الدار.

وكم منهم من سعى واجتهد وانتهى بالخيبة والحرمان، فعاد - بعد النصب -

ولا ثمرة حصلها عاجلًا، ولا ثوابًا ادخره آجلًا، وذلك هو الخسران المبين.

ثم إذا قدم على اللَّه في الآخرة جعل له وحضر له جهنم دار العذاب، واضطره إلى دخولها فيصلاها.

مذمومًا: مذكورًا بقبح فعله وسوء صنيعه في قلة شكره لربه، وعدم استعماله لما كان أنعم عليه به في طاعته، وعدم نظره لعاقبة أمره.

مدحورًا: مبعدًا في أقصى النار مطرودًا من الرحمة. حرم نفسه من استثمار رحمة اللَّه في الدنيا بالشكر عليها، فكان عدلًا أن يحرم منها في الآخرة.

ونظير هذه الآية آية (الشورى): ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: الآية ٢٠].

عمل للدنيا فنال نصيبه منها، ولم يعمل للآخرة فلم يكن له نصيب فيها.

والتقييد بِ(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا﴾ على أن ما يناله - سواء كان كل ما أراد أو بعضه - ما هو إلا بعضه من الدنيا.

وإذا كانت الدنيا كلها شيئًا زهيدًا بقلتها وفنائها ونغصها بالنسبة لأقل شيء من نعيم الآخرة - فما بالك بما هو بعض منها؟

فلقد خاب وخسر من استبدل بنعيم الآخرة هذا القليل الخسيس المنغص الزهيد.

ونظيرها أيضًا آية «هود»: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: الآية ١٥- ١٦].

وتوفيتهم أعمالهم إنالتهم ثمراتها مكملة في الدنيا.

وهم فيها لا يبخسون: لا ينقصون من جزائهم عليها بتحصيل المسببات التي توسلوا إليها بأسبابها.

ثم في الآخرة تحبط تلك الأعمال فلا يكون عليها من جزاء ولا لها من ثمرة، لأنها كانت أعمالًا باطلةً لا ثبات لها، عمل للدنيا دار الزوال فزالت بزوالها، وبقي على عمالها إثم عدم شكرهم لربهم فيه فدخلوا به النار. وتلك عاقبة الظالمين.

غير أن هاتين الآيتين مطلقتان في الشيء المعطى والشخص المعطى له، وآية «الإسراء» مقيدة بمشيئة اللَّه تعالى وإرادته فيهما. والمطلق محمول على المقيد في البيان والأحكام.

وقد أفادت هذه الآيات كلها أن الأسباب الكونية التي وضعها اللَّه تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها - موصلة - بإذن اللَّه تعالى - مَن تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه، بمقتضى أمر اللَّه وتقديره، وسننه في نظام هذه الحياة والكون. ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن باللَّه ولا باليوم الآخر ولا يصدق المرسلين.

ومن مقتضى هذا أن من أهمل تلك الأسباب الكونية التقديرية الإلهية ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين، وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم.

نعم، لا يضيع على المؤمن أجر إيمانه، ولكن جزاءه عليه في غير هاته الدار، كما أن الآخر لم يضع عليه أخذه بالأسباب، فنال جزاءه في دار

الأسباب، وليس له في الآخرة إلا النار.

أقسام العباد:

فالعباد - إذًا - على أربعة أقسام:

١ - مؤمن آخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الدنيا والآخرة.

٢ - ودهري تارك لها، فهذا شقي فيهما.

٣ - ومؤمن تارك للأسباب، فهذا شقي في الدنيا وينجو - بعد المؤاخذة على الترك - في الآخرة.

٤ - ودهري آخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الدنيا، ويكون في الآخرة من الهالكين.

فلا يفتتن المسلمون بعد علم هذا ما يرونه من حالهم وحال من لا يدين دينهم. فإنه لم يكن تأخرهم لإيمانهم، بل بترك الأخذ بالأسباب الذي هو من ضعف إيمانهم. ولم يتقدم غيرهم بعدم إيمانهم بل بأخذهم بأسباب التقدم في الحياة. وقد علموا أنهم مضت عليهم أحقاب وهم من أهل القسم الأول بإيمانهم وأعمالهم. وما صاروا من أهل القسم الثالث إلا لما ضعف إيمانهم وساءت أعمالهم وكثر إهمالهم... فلا لوم إذًا إلا عليهم في كل ما يصيبهم، وربك يقضي بالحق وهو الفتاح العليم.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: الآية ١٩].

وهذا قسم آخر من الخلق، قصد بعمله الآخرة وإياها طلب، وثوابها

انتظر، يرجو أن يزحزح فيها عن النار ويفوز بالجنة ويحل عليه الرضوان، فهذا كان سعيه مشكورًا بثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يقصد بعمله ثواب الآخرة قصدًا مخلصًا. كما يفيده فعل الإرادة في ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ ولام الأجل في ﴿وَسَعَىٰ لَهَا﴾.

الشرط الثاني: أن يعمل لها المعروف في الشرع اللائق بها، الذي لا عمل يفضي إلى نيل ثوابها سواه، وهو طاعة اللَّه تعالى وتقواه بامتثال أوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده.

الشرط الثالث: أن يكون مؤمنًا موقنًا بثواب اللَّه تعالى وعظيم جزائه.

فإذا توفرت هذه الشروط الثلاثة لهم ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ متقبلًا مثابًا عليه بحسن الثناء وجميل الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦١].

وإذا اختل واحد منها فليس العمل بمتقبل ولا بمثاب عليه بضرورة انعدام المشروط بانعدام شرطه.

وفي هذه الشروط مباحث:

المبحث الأول:

أن قصد الثواب والجزاء على العمل لا ينافي الإخلاص فيه للَّه: لأن الإخلاص هو أن تجعل عبادتك للَّه وحده.

ورجاؤك الثواب وطمعك فيه، وحذرك العقاب وخوفك منه: هما مقامان

عظيمان لك في جملة عبادتك. يجب عليك أن تكون فيهما أيضًا مخلصًا، لا ترجو إلا ثوابه، ولا تخاف إلا عقابه.

وإذا أخلصت في رجائك وخوفك هانت عليك نفسك، فقمت في طاعته مجاهدًا، لا يردك معارضٌ، ولا تأخذك في اللَّه لومة لائم، وصغرت في نظرك العوالم فنطقت بقولك «اللَّه أكبر» نطق عالم واجد مشاهد.

والمقصود أن رجاء الثواب، وخوف العقاب، روحهما الإخلاص، فكيف ينافيانه؟

فالعامل الراجي للثواب، الخائف من العقاب. المخلص في الجميع آت بأربع عبادات: عمله، ورجائه، وخوفه، وإخلاصه، وهو روح الجميع.

وقد جاء في القرآن ثناء شيخ الأنبياء إبراهيم الخليل عليه وعليهم الصلاة والسلام هكذا:

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشُّعَراء: الآية ٨٢].

وذكر تعالى دعاء عباد الرحمن الصالحين هكذا: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٥].

وفي دعاء القنوت: «**نرجو رحمتك، ونخاف عذابك الجد**»[٤٤].

---

[٤٤] صحيح موقوفًا:

جزء من دعاء القنوت الثابت عن عمر رضي الله عنه، رواه البيهقي (٢/ ٢١٠و٢١١) من طريق عبد الرحمن بن أبي أبزى قال:

صليت خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه صلاة الصبح فسمعته يقول بعد القراءة قبل الركوع:

إلى غير هذا من أدلة كثيرة تؤيد ما ذكرناه.

المبحث الثاني:

أفاد هذا الشرط أن من لم يرد الآخرة لم يكن سعيه مشكورًا.

وفي هذا تفصيل، لأن العامل إما [أن][1] يكون في عبادته لم يرد بها الآخرة أصلًا، بل أراد بها شيئًا دنيويًا من محمدة الخلق أو استفادة شيء أو تحصيل منفعة العمل. أو أراد الآخرة وشيئًا مما ذكر شركة متساوية أو متفاوتة. وإما أن يكون في عمل عادة لم يرد بها الآخرة أصلًا بل أراد الغرض الدنيوي، أو أرادهما معًا، والدنيوي وسيلة للأخروي.

فهنالك - إذًا - أقسام:

القسم الأول:

العامل في أمر تعبدي كالصلاة والصدقة والحج والعلم، فهذا إذا لم يرد الآخرة أصلًا فهو موزور غير مشكور.

وفيه جاء حديث أبي هريرة في «الصحيح» قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ

«اللَّهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك بالكافرين ملحق.

اللَّهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك الخير ولا نكفرك، ونؤمن بك، ونخضع لك ونخلع من يكفرك».

وصححه البيهقي، وأقره النووي في «المجموع» (٣/ ٤٧٧-٤٧٨).

(تنبيه): ظاهر دعاء عمر رضي الله عنه هذا أنه كان في قنوت النازلة، واللَّه أعلم.

(١) سقطت في الأصل.

يقول:

«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ. قال: كذبتَ، ولكنك قاتلتَ لأن يقال جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فماذا عملت فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلم وعلَّمته، وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبتَ، ولكنك تعلَّمت العلم ليقال عالم، وقرأتَ القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل وسَّع اللَّه عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبتَ، ولكنك فعلتَ ليقال هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»[٤٥].

وهذا الذي كان من هؤلاء، هو الرياء، وهو أن يفعل العبادة ليقال إنه مطيع.

وما(١) دخل الرياء في عبادة إلا أحبطها، ولو كان قليلًا، لحديث أبي هريرة

---

[٤٥] صحيح:

رواه مسلم في «صحيحه» (١٩٠٥) والنسائي في «المجتبى» (٦/ ٢٣-٢٤) وفي «الكبرى» (٤٣٤٥و٨٠٨٣و١١٥٥٩) وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٢٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(١) في الأصل: ومهما.

في «الصحيح»، قال رسول اللَّه ﷺ:

«قال اللَّه تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن شرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِركَه»[٤٦].

وإشراك غيره معه صادق بالقليل والكثير، فلا فرق بينهما في الإحباط.

والعامل المرائي موزور غير مشكور.

القسم الثاني:

العامل في العبادة الذي يقصد بها ثواب الآخرة وشيئا آخر من أعراض الدنيا «كالرجل يبتغي الجهاد وهو يريد من عرض الدنيا».

وقد سئل النبي ﷺ عن هذا فقال: «**لا أجر له**»[٤٧].

---

[٤٦] **صحيح**:

رواه مسلم (٢٩٨٥) وابن ماجه (٤٢٠٢) بنحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٤٧] **حسن**:

رواه أبو داود (٢٥١٣) وأحمد (٢/ ٢٩٠) وابن حبان (١٦٠٤- موارد الظمآن) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٨٥) من طريق ابن مكرز عن أبي هريرة:

«أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه، الرجل يريد الجهاد في سبيل اللَّه وهو يبتغي عرض الدنيا؟ فقال رسول اللَّه ﷺ:

«**لا أجر له**».

فأعظم الناس ذلك، وقالوا للرجل: عد لرسول اللَّه ﷺ لعله لم يفهم، فعاد. فقال: يا رسول اللَّه، الرجل يريد الجهاد في سبيل اللَّه، وهو يبتغي عرض الدنيا؟ فقال رسول اللَّه ﷺ:

«**لا أجر له**».

ثم عاد الثالثة: فقال رسول اللَّه ﷺ:

«**لا أجر له**».

=

روه أبو داود وابن حبان.

وعلى وزانه نقول: من قصد الهجرة والتزوج بامرأة معًا أو قصد الوضوء والتبرد، أو قصد الصوم والحمية - وإن صحت عبادته لأن الصحة تتوقف على نية القصد، والثواب يتوقف على نية الإخلاص - لا أجر له.

هذا إذا سوى ما بينهما في القصد كما هو ظاهر لفظ الحديث.

وأما إذا كان الغالب هو قصد العبادة، فالظاهر أنه له من الأجر بقدر ما غلب من قصده.

القسم الثالث:

العامل في العبادة الذي يكون قصده إلى ثواب الآخرة، وما عداه من منافع تلك العبادة ملحوظ له على سبيل التبع لها، من حيث إنه مصلحة شرعية معتبرة في التشريع.

والأحكام الشرعية المعللة بفوائدها في الآيات والأحاديث لا تحصى كثرة، ومنها في الحج: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحَجّ: الآية ٢٨].

ومن منافع الحج الحركة الاقتصادية لخير تلك البقاع ومصلحة أهلها

= وإسناده ضعيف، ابن مكرز مجهول كما قال الحافظ في «التهذيب» (١/ ٣٧١) وفي «الميزان» (٤/ ٥٩٦) قال الذهبي: «لا يعرف».

لكن الحديث حسن لأن له شاهدًا من حديث أبي أمامة عند النسائي في «المجتبى» (٦/ ٢٥)، حسن إسناده الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٣٨٤).

وقال الحافظ المنذري في «الترغيب» وتبعه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٦): «إسناده جيد».

والحديث صححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي.

وغزارة عمرانها، ولذا قال تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٩٨].

والفضل هو الاتجار في مواسم الحج(١).

فكل منفعة تجلبها عبادة أو مضرة تدفعها، فملاحظتها عند قصد العبادة لا تنافي الإخلاص ولا تنقص من أجر العامل، وهي مثل الثواب المرتب على العمل. هي في الدنيا وهو في الآخرة، وكلاهما من رحمة اللَّه التي نرجوها بأعمالنا، ويشملها لفظ دعاء القنوت: «نرجو رحمتك» إذ هو تبارك وتعالى رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما.

القسم الرابع:

العامل لعمل عادي دنيوي من أكل وشرب ونوم وجماع ونحوها، فهذا إذا قصد بعملها النفع الدنيوي، ولا قصد له في الثواب، فهو غير مأجور ولا مأزور.

وهذه هي حالة أهل الغفلة والجهل.

القسم الخامس:

عامل الأعمال العادية الذي يتناولها بنية كونها مباحًا تناولها شرعًا، ويقصد بها التوسل إلى ما يتوقف عليها من أعمال واجبة ومندوبة، وإلى الانكفاف بها عن المحرمات والمكروهات، كمباضعة زوجته للقيام بواجب

(١) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري (١٧٧٠)، وراجع «تفسير ابن كثير».

حقها، وكف نفسه وكفها، وكالنوم ليقوى على العبادة، والرياضة ليصح للطاعة، فهذا مثاب وسعيه مشكور. وله ما نوى.

وبهذه السبيل يستطيع العبد الموفق أن تكون حركته وسكناته كلها للَّه، وفي طاعته. دائم الذكر له يعبده كأنه يراه(١). لأن من كان يعبد كأنه يرى مولاه، لا يمكن أن يغفل عنه قلبه ويشتغل بسواه، حتى إذا اشتغل بشيء كان بإذنه ورضاه، فلم يخرج في أيٍّ عن حضرة قدس اللَّه.

ومن أدلة هذا قوله ﷺ في حديث أبي ذر رضي الله عنه عند مسلم:

«**وفي بضع أحدكم صدقة**، قالوا: يا رسول اللَّه، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: **أرأيتم لو وضعهافي حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»[٤٨].

---

(١) وهي مرتبة الإحسان التي بينها النبي ﷺ في حديث جبريل - عليه الصلاة والسلام- كما في «صحيح مسلم» (٨، ٩) وغيره. وسيأتي برقم (١٥٢).

[٤٨] صحيح:

قطعة من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول اللَّه! ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضل أموالهم، قال: «أو ليس قد جعل اللَّه لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضع...» الحديث.

أخرجه مسلم (١٠٠٦) وأحمد (٥/ ١٦٧و١٦٨).

وأخرج نحوه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٢٧) وأبو داود (١٢٨١و٥٢٣٢) والنسائي في «الكبرى» (٩٠٢٧و٩٠٢٨) وأحمد (٥/ ١٥٤و١٦١و١٦٧).

المبحث الثالث:

من الناس من يخترع أعمالًا وأوضاعًا من عند نفسه ويتقرب بها إلى اللَّه، مثل ما اخترع المشركون عبادة الأوثان بدعائها، والذبح عليها، والخضوع لديها، وانتظار قضاء الحوائج منها، وهم يعلمون أنها مخلوقة للَّه مملوكة له، وإنما يعبدونها - كما قالوا - لتقربهم إلى اللَّه زلفى.

وكما اخترع طوائف من الهنود أنواع التعذيب بقتل أنفسهم وإحراقها طاعة - زعموا - وتقربًا!.

وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر، والطواف حول القبور والنذر لها، والذبح عندها ونداء أصحابها، وتقبيل أحجارها، ونصب التوابيت عليها، وحرق البخور عندها، وصب العطور عليها.

فكل هذه الاختراعات فاسدة في نفسها، لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان يسعاه محمد ﷺ وأصحابه من بعده، فساعيها موزور غير مشكور.

المبحث الرابع:

شكر الرب لعبده هو جزاء شكر عبده له، وإنما يكون العبد شاكرًا لربه إذا كان عاملًا بطاعته مؤمنا به. فإذا انعدم الإيمان لم يتصور شكران، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

وأفادت الجملة الاسمية ثبوت الإيمان ورسوخه حال العمل، وعلى قدر ثبوت الإيمان ورسوخه يكون الثبات والدوام على الأعمال.

فالمؤمن باللَّه يعمل موقنًا برضاه، موقنًا بلقائه وعظيم جزائه، فهو يعمل

ولا يفشل، وسواء عليه أوصل إلى الغاية التي يسعى إليها أم لم يصل إليها، حال بينه وبينها موانع الدنيا أو مانع الموت، كانت مما تجنى ثماره في جيله أو لا تجنى ثماره إلا بعد أجيال.

فأفادت الجملة المذكورة شرط القبول للعمل. وسر الدوام عليه، والمضي بغبطة وسرور فيه.

إمكان العمل بالآية لجميع المسلمين:

خاتمة:

إن المسلمين كلّهم - والحمد للّه - أهل إيمان، فليستشعروه عند جميع الأعمال، ولا يخلون من عمل لمعاشهم أو لمعادهم، فليقصدوا بذلك كله وجه اللّه، وامتثال أمره وحسن جزائه، وليقتصروا في عبادتهم على ما ثبت عن رسول اللّه ﷺ ليكونوا على يقين من موافقه رضى اللّه وسلوك طريق النجاة.

فإذا فعلوا هذا وصمدوا إليه وجاهدوا أنفسهم في حملها عليه، كانوا شاكرين مشكورين على تفاوتهم في منازل العاملين عند رب العالمين، واللّه يقول الحق وهو يهدي السبيل[١].

* * *

(١) الشهاب (ج١، م٦) رمضان ١٣٤٨هـ- فيفري ١٩٣٠م.

عموم النوال من الكبير المتعال

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٠].

إن هذه الموجودات كلها، علويَّها وسفليها، مشمولة برحمة اللَّه، مغمورة بنعمته.

وأول تلك النعم هو وجودها، وذلك الوجود من مقتضى الرحمة.

ثم تتنوع تلك النعم الرحمانية بتنوع أجناس الموجودات وأنواعها وأصنافها وأفرادها، وتتفاوت أيضًا حسب ذلك. وينال كلٌّ حظَّه منها بتقدير الحكيم العليم.

ومن مظاهر هذه الرحمة العامة أن كل موجود قد أعطي من التكوين مايناسب وجوده وما يتوقف عليه بقاؤه أو ارتقاؤه، سواء أكان من عالم الجماد أو عالم النبات أو عالم الحيوان.

وقد مضى قبل هذه الآية ذكر مريدي العاجلة الذين لا يعملون إلا لها، وما أعدَّ لهم من عذاب النار. وذكر مريدي الآخرة بأعمالهم في الدنيا وما أعدَّ لهم من حسن الجزاء، فحالتهم في الآخرة متباينة: هؤلاء في النعيم المقيم، وأولئك في العذاب الأليم.

هذا في الآخرة.

وأما في الدنيا ، فإنهم قد أعطوا من نعم الحياة ومكنوا من أسبابها ، فقد تساووا في الخلقة البشرية ، وفي العقل المميز المفكر ، وفي الإرادة الحرة ، وقد أظلتهم السماء . وأصابتهم نعمة الشمس والقمر والكواكب وما ينزل من السماء ، وقد أقلتهم الأرض ، وشملتهم نعمة الهواء والماء والغذاء والدواء من النبات والحيوان والجماد وكل ما يخرج من الأرض ، وشاهدوا كلهم آيات اللَّه الكونية الدالة عليه ، وجاءتهم كلهم رسل اللَّه بآياته السمعية داعية إليه .

فاختار كلٌّ بعقله - وهو حر في إرادته حرية لا يمكن لأحد أن يكابر فيها - ما اختار لنفسه . وحجة اللَّه بما تقدم قائمة عليه .

وبقوا بعد ذلك الاختيار الذي اختلفت به منازلهم عند اللَّه فيما أعد لهم يوم لقائه سواء ، في تلك النعم الدنيوية والتمكن من أسباب بقائها والتقدم فيها . لا فرق في ذلك بين بر وفاجر ، ومؤمن وكافر ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ .

وليس تعالى مانعًا كافرًا لكفره أو عاصيًا لعصيانه من هذه الحياة وأسبابها ، وليس أحد على منع ما لم يمنعه اللَّه بقادر . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ، والحظر المنع ، والمحظور الممنوع .

وتركيب الآية يفيد أن عطاء الرب لا يمنع ولا يجوز أن يمنع ، لأن من مقتضى ربوبيته داوم عطائه ومدده لعموم خلقه ، بعلمه وحكمته .

وقدم المفعول وهو (كُلًّا) ردًّا على من يعتقد أن اللَّه تعالى يمد بعضًا دون بعض .

وفيه إيجاز بالحذف ، والأصل كلا الفريقين ، يعني فريق مريدي العاجلة ،

ومريدي الآخرة.

و(نمد) من الإمداد وهو المواصلة بالشيء، وذلك الشيء يسمى مددًا.

وأصل المد البسط للشيء، فيستطيل ويتسع، ومنه مد يده، ومد شبكته، ومنه مد اللَّه لك أسباب السعادة، أي بسطها ووسعها.

والإمداد بالشيء والمواصلة به يكون به دوام فائدته وامتداد النفع به.

والخلق كلهم في حاجة دائمة وفاقة مستمرة إلى مدد اللَّه وعطائه وأنواع بره وإحسانه. وهو تبارك وتعالى لا يزال يواصلهم في كل لحظة من وجودهم بما يحتاجون إليه من فيض عطائه.

وأضاف العطاء للرب لأنه من مقتضى ربوبيته بتكوينه للخلق وتطويرهم وإعطائهم ما يحفظهم في تلك الأطوار.

وأضاف الرب إلى ضمير المخاطب، وهو النبي ﷺ لتشريفه بهذه الإضافة.

ولما تشرف بهذه الإضافة الربانية. والرب ﷻ قد مضى من وصفه في الآية أنه عام الرحمة والنعمة والنوال، فمن شكر نعمة هذا الشرف أن يتخلق العبد وهو محمد ﷺ بما هو من مقتضى وصف ربه.

هذا من فوائد هذه الإضافة في هذا المقام.

وقد كان ﷺ رحمة للعالمين، شديد الشفقة على الخلق أجمعين، حريصًا على هدايتهم إلى الصراط المستقيم. حتى خاطبه ربه بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٣] أي قاتل نفسك غمًا لعدم إيمانهم.

وكان أساس شرعه على العدل، والإحسان العدل مع كل واحد والإحسان إلى كل شيء فقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: الآية ٨] أي لا يحملنك بغض قوم على عدم العدل فيهم.

وقال ﷺ: **«إن اللَّه كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»**[٤٩].

ولما كان هو عليه الصلاة والسلام قدوتنا، فنحن مخاطبون بأن نكون مثله في عموم رحمته وشفقته وعدله وبره وإحسانه، نفعل الخير عامًا، كما تعم خيرات اللَّه تعالى العباد، نفعله لأنه خير نستطعم لذته، غير منتظرين جزاءه إلا من اللَّه. لأن من انتظر الجزاء من الناس وفي هذه الحياة لابد أن يميل بخيره عن جهة إلى جهة، وربما يكون في ميله قد أخطأ وجه الصواب، ولابد أيضًا أن ييأس فيفتر في العمل أو ينقطع عنه عند ما يرى عدم المكافأة من الناس وعدم ظهور أثر خيره في الحياة وأبناء الحياة.

وقد أفادت الآية - حسبما تقدم - أن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء، وأن من تمسك بسبب بلغ - بإذن اللَّه - إلى مسببه، سواء أكان برًا أو فاجرًا، مؤمنًا أو كافرًا.

---

[٤٩] صحيح:

رواه مسلم (١٩٥٥) وأبو داود (٢٨١١) والترمذي (١٤١٣) والنسائي (٧/ ٢٢٧و٢٢٩و٢٣٠) والدارمي (٢/ ٨٢) وابن ماجه (٣١٧٠) وأحمد (٤/ و١٢٣و١٢٤و١٢٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، وزادوا في آخره:

«وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديمًا وحديثًا، فقد تقدموا حتى سادوا العالم، ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع، لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم.

وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب فخسروا دنياهم، وخالفوا مرضاة ربهم، وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط، ولن يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب.

فهذه الآية من أنجع الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم، لما فيها من بيان أن ذلك المسلم ما تأخر بسبب إسلامه، وأن غيره ما تقدم بعدم إسلامه، وأن السبب في التقدم والتأخر هو التمسك والترك للأسباب.

ولو أن المسلم تمسك بها كما يأمره الإسلام، لكان - مثل سالف أيامه - سيد الأنام.

* * *

النظر في تفاضل البشر

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية: ٢١].

إن من أعظم العبر ما نشاهده في أحوال الخلق أممًا وجماعاتٍ وأفرادًا من الاختلاف الشديد.

فقد اختلفت بواطنهم النفسية، كما اختلفت ظواهرهم الجسدية، وإنك كما تجد أبناء الأمة الواحدة يتشابهون في تركيب أجسامهم، ثم لا بد من فروق تتمايز بها أشخاصهم، كذلك تجدهم يتشابهون في شؤونهم النفسية مع فروق لازمة تتمايزبها شخصياتهم، ويتبع هذا الاختلاف اختلافهم في إدراكهم وتمييزهم وأخلاقهم وعاداتهم، في ضلالهم وهداهم، وفي درجات الهدى ودركات الضلال.

كل هذا دال على بديع صنع الخالق القدير، وعجيب وضع العليم الحكيم.

فمكنهم تعالى كلهم من الأسباب وإدراك العقل وحرية الإرادة، ثم فضل بينهم هذا التفضيل. فكان منهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والشقي والسعيد، إلى تقسيم كثير.

وفقه أسباب هذا التفضيل هو فقه الحياة والعمران والاجتماع، فلذا أمر تعالى بالنظر في أحوال هذا التفضيل بقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾.

و(كيف) سؤال عن الأحوال، والنظر المأمور به هو نظر القلب بالفكرة والاعتبار، والجملة في محل نصب على العامل عن لفظها بكلمة الاستفهام.

وكما فضل بعض خلقه على بعض في دار الابتلاء، كذلك فضل بعضهم على بعض في دار الجزاء لكن التفضيل هنالك أكبر، والتفاوت بين العباد أظهر. في مواقف القيامة، وفي داري الإقامة، ويا بعد ما بين من في الجنة ومن في النار. وأهل النار متفاوتون في دركاتها، وأهل الجنة متفاوتون في درجاتها.

روى البخاري عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال:

«إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[٥٠].

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ﵁ أن رسول الله ﷺ قال:

«إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم.

قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم.

---

[٥٠] صحيح:

رواه البخاري في «صحيحه» (٢٧٩٠) و(٧٤٢٣) وأحمد (٢/ ٣٣٥و٣٣٩) عن أبي هريرة مرفوعًا.

وفي إسناده من تكلم فيه لكن الحديث صحيح لشاهدين:

الأول: عن أبي الدرداء عند النسائي (٦/ ٢٠) وإسناده حسن.

والثاني: عن عبادة بن الصامت عند الترمذي (٢٥٣٦) والحاكم (٢/ ٨٠) وصححه ووافقه الذهبي.

قال: **بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»**[٥١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النِّساء: الآية ١٤٥].

وهذا التفضيل الأخروي هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

وفي هذا ترغيب للخلق في تحصيل الفضل في درجات الآخرة. فإنهم إنما يتهالكون في الدنيا على أن يفضل بعضهم بعضًا في شيء منها، وهي الدار الفانية، فلم لا يتسابقون فيما ينالون به الفضل في الدار الباقية مع أن من عمل لنيل الفضل في الآخرة - وما عملها إلا الخير والمعروف - حاز الفضل والسعادة فيهماعلى أفضل وجه وأكمل حال؟.

فللآخرة ونيل درجاتها فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون(١).

* * *

---

[٥١] صحيح:

رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

و(الدري): هو النجم الشديد الإضاءة.

و (الغابر): الذاهب.

(١) الشهاب (ج٢ م٦) غرة شوال ١٣٤٨هـ- مارس ١٩٣٠م.

أصول الهداية في ثمان عشرة آية

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ - إلى - ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية: ٢٢ - ٣٩].

تمهيد:

قد أوتي رسول اللّه ﷺ جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارًا[١].

فالآية من كتاب اللّه، والأثر من حديث رسول اللّه، تجد فيه من أصول الهداية، ودقيق العلم، ولطيف الإشارة، في لفظ قليل، وكلام بيِّن، ما فيه الكفاية وفوق الكفاية لمن أوتي العلم ومنح التوفيق.

فهذه ثمان عشرة آية من سورة الإسراء قد أتت في إيجاز ووضوح على أصول الهداية الإسلامية كلها. وأحاطت بأسباب السعادة في الدارين من جميع وجوهها.

وهي - فوق بلاغتها التي عرف العرب إعجازها بسليقتهم، وأدركه علماء البيان بعلمهم ومرانهم - قد جاءت معجزة للخلق من أي جنس كانوا، وبأي لغة نطقوا، بما جمعت من أصول الهداية التي تدركها الفطر وتسلمها العقول.

وأنك لست واجدًا مثلها في مقدارها وأضعاف مقدارها من كلام الخلق بجمع ما جمعت من هدى وبيان.

---

(١) انظر مقدمة «جامع العلوم والحكم» للحافظ ابن رجب- رحمه اللّه تعالى- ففيها فوائد هامة.

وهذا أحد وجوه إعجاز القرآن العامة التي تقوم بها حجته على الناس أجمعين.

ارتباط الآيات بما قبلها:

موقع هذه الآيات موقع البيان والتفصيل للسعي المشكور المتقدم في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾، ووقوعها بلصق قوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾، إشارة إلى أن التفاضل في تلك الدرجات مرتبط بالتفاضل في السلوك والسعي المشكور المستفاد من هذه الآيات.

التوحيد:

﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾.

هذا هو أساس الدين كله، وهو الأصل الذي لا تكون النجاة ولا تتقبل الأعمال إلا به. وما أرسل اللّٰه رسولًا إلا داعيًا إليه ومذكرًا بحججه، وقد كانت أفضل كلمة قالها الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هي كلمة: «لا إله إلا اللّٰه» وهي كلمته الصريحة فيه. ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو من ذكره والأمر به والنهي عن ضده.

وأنت ترى أن هذه الآيات الجامعة قد جعلت بين آيتين صريحتين فيه.

﴿لَّا تَجۡعَلۡ﴾: الجعل يكون عمليًّا، كجعلت الماء مع اللبن في إناء واحد.

ويكون اعتقاديًّا، كجعلت مع صديقي صديقًا آخر.

والجعل في الآية من هذا الثاني.

﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ : المعية هنا أيضًا هي معية اعتقادية.

﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ : الإله هو المعبود، والعبادة نهاية الذل والخضوع، مع الشعور بالضعف والافتقار، وإظهار الانقياد والامتثال، ودوام التضرع والسؤال.

﴿فَتَقْعُدَ﴾ : القعود ضد القيام، والعرب تكني بالقيام عن الجد في الأمر والعمل فيه، سواء أكان العامل قائمًا أو جالسًا، فتقول: قام بحاجتي، إذا جد وعمل فيها، ولو كان لم يمش فيها خطوة، وإنما قضاها بكلمة قالها أو خطاب أرسله.

وتكني كذلك بالقعود عن الترك للعمل، وانحلال العزيمة، وبطلان الهمة، سواء كان الشخص واقفًا أو جالسًا، فتقول: قعد زيد عن نصرة قومه، إذا لم يعمل في ذلك عملًا، ولم تكن له فيه همة ولا عزيمة، ولو كان قائمًا يمشي على رجليه.

فالقعود في الآية بمعنى المكث، كناية عن بطلان العمل، وخيبة السعي، وخور القلب، وفراغ اليد من كل خير.

﴿مَذْمُومًا﴾ : مذكورًا بالقبيح موصوفًا به.

﴿مَّخْذُولًا﴾ : متروكًا بلا نصير مع حاجتك إليه.

فنهى اللَّه الخلق كلهم عن أن يعتقدوا معه شريكًا في ألوهيته فيعبدوه معه، ليعتقدوا أنه الإله وحده فيعبدوه وحده. وبين لهم أنهم إن اعتقدوا معه شريكًا وعبدوه معه، فإن عبادتهم تكون باطلة، وعملهم يكون مردودًا عليهم، وأنهم

يكونون مذمومين من خالقهم ومن كل ذي عقل سليم من الخلق، ويكونون مخذولين لا ناصر لهم. فأمَّا اللَّه فإنه يتركهم وما عبدوا معه، وأمَّا معبوداتهم فإنها لا تنفعهم، لأنها عاجزة مملوكة مثلهم، فما لهم - قطعًا - من نصير.

والخطاب وإن كان موجهًا للنبي ﷺ فإنه عام للمكلفين، وسر مثل هذا الخطاب تنبيه الخلق إلى أن شرائع اللَّه وتكاليفه عامة للرسول والمرسل إليهم، وإن كان هو قد عصم من المخالفة، فلا يبقى بعد ذلك وجهٌ لدعوى مدع خروج فرد من أفراد الأمة المكلَّفين عن دائرة التكليف.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾:

القضاء يكون بمعنى الإرادة، وهذا هو القضاء الكوني التقديري الذي لا يتخلف متعلقه، فما قضاه اللَّه لا بد من كونه.

ويكون القضاء بمعنى الأمر والحكم، وهذا هو القضاء الشرعي الذي يمتثله المُوَفَّقون ويخالفه المخذولون.

والذي في الآية من هذا الثاني.

﴿رَبُّكَ﴾ الرب هو الخالق المدبر المنعم المتفضل.

﴿أَن﴾ مصدرية والتقدير بألا تعبدوا إلا إياه، أي بعدم عبادتكم سواه، بأن تكون عبادتكم مقصورة عليه.

فالعبادة بجميع أنواعها لا تكون إلَّا له.

فذل القلب وخضوعه والشعور بالضعف والافتقار والطاعة والانقياد والتضرع والسؤال، هذه كلها لا تكون إلا للَّه.

فمن خضع قلبه لمخلوق على أنه يملك ضره أو نفعه فقد عبده .

ومن شعر بضعفه وافتقاره أمام مخلوق على أنه يملك إعطاءه أو منعه فقد عبده .

ومن ألقى قياده بيد مخلوق يتبعه فيما يأمره وينهاه ، غير ملتفت إلى أنه من عنده أو من عند اللَّه فقد عبده .

ومن توجه لمخلوق فدعاه ليكشف عنه السوء أويدفع عنه الضر فقد عبده .

فاللَّه تعالى يعلم الخلق كلهم في هذه الآية بأنه أمر أمرًا عامًا وحكم حكمًا جازمًا بأن العبادة لا تكون إلَّا له .

وجيء باسم الرب في مقام الأمر بقصر العبادة عليه تنبيهًا على أن الذي يستحق العبادة هو من له الربوبية بالخلق والتدبير والملك والإنعام، وليس ذلك إلَّا له ، فلا يستحق العبادة بأنواعها سواه .

فهو تنبيه بوحدانية الربوبية التي من مقتضاها انفراده بالخلق، والأمر الكوني والشرعي على وحدانية الألوهية التي من مقتضاها استحقاقه وحده عبادة جميع مخلوقاته .

وكما انتظمت هذه الجملة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية كذلك انتظمت مع الآية السابقة التوحيد العلمي والتوحيد العملي .

فالأولى : نهي عن أن تعتقد الألوهية لسواه، وهو يتضمن النهي عن اعتقاد ربوبية سواه، وهذا من باب العلم .

والثانية: أمر بأن تكون عبادتك مقصورة عليه، لأنه هو ربك وحده، وهذا من باب العمل.

فمن وحَّد اللَّه ﷻ في ربوبيته وألوهيته، علمًا وعملًا، فقد استكمل حظه من مقام هذا الأساس العظيم، ومن أخل بشيء من ذلك كان نقصًا في دينه بقدر ما أخل، حتى ينتهي الأمر إلى خلَّص المشركين.

نعوذ باللَّه من الشرك، جليِّه وخفيِّه، إنه سميع عليم.

بيان واستدلال:

يكون الذل بمعنى ضعف الحال، وهذا قد يكون لأهل التوحيد والإيمان كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٣].

ويكون بمعنى اللين المشوب بالعطف، وهذا من صفات المؤمنين الممدوحة إذا وقعت في محلها كما في قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥٤].

ويكون الذل بمعنى خنوع القلب وخضوعه وانكساره للضعف والافتقار، وهذا هو الذي لا يكون من المؤمن الموحد إلا لربه كما في حديث دعاء القنوت «**ونخنع لك**»[٥٢] أي نذل ونخضع لك.

وهذا الخنوع هو أساس العبادة القلبية، فلذلك لا يكون إلا للَّه.

وإن من أسرار كلمة «اللَّه أكبر» التي يأتي بها المؤمن مراتٍ كثيرةً في

[٥٢] صحيح:

جزء من دعاء قنوت عمر رضي الله عنه المتقدم برقم (٤٤).

صلواته وغيرها من أحواله حفظ القلب من الخنوع للخلق باستشعار عظمة الخالق التي يصغر عندها كل مخلوق.

فلا يزال المؤمن لهذا قوي القلب، عزيز النفس بالله، لا ينتظر قوة ضعفه إلَّا به، ولا سدَّ مفاقره إلَّا منه.

ولقلب المؤمن الموحد أمام من يحب في الله ويعظم بتعظيم الله خضوع أيضًا، ولكنه خضوع هيبة وتوقير وإجلال، لا خضوع ذل وخنوع وضعف وافتقار، إذ هذا - كما قدمنا - لا يكون إلا للغني القوي العزيز القهار.

من مظاهر هذا الخنوع الذي لا يكون إلا للَّه الطاعة والانقياد، وهي أيضًا لا تكون إلَّا له، وقد قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: الآية ٢٣] أي أطاعه واتبعه، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمَّد: الآية ١٤].

فمن تبع مخلوقًا وأطاعه فيما يأمره وينهاه دون أن يكون في طاعته مراعيًا طاعة الله فقد عبده واتخذه ربا فيما أطاعه فيه.

وفي حديث عديٍّ بن حاتم الذي رواه الترمذي وغيره لما جاء للنبي ﷺ وسمعه يتلو قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التّوبَة: الآية ٣١].

فقال عدي: يا رسول الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم؟ قال:

«أليس كانوا إذا حرموا عليهم شيئًا حرموه، وإذا أحلوا لهم شيئًا أحلوه».

قال: قلت: نعم. قال رسول الله ﷺ:

«فتلك عبادتهم إياهم»[٥٣].

فالمؤمن الموحد لا تكون طاعته إلا للَّه أو لمن طاعته طاعة للَّه.

ومن مظاهر ذلك الخنوع: الدعاء والسؤال والتضرع والجؤار (رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة إليه).

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النّحل: الآية ٥٣].

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: الآية ٦٢].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٩].

في آيات كثيرة.

---

[٥٣] حسن لغيره:

رواه الترمذي (٣١٠٤) والطبري في «تفسيره» (١٠/ ١١٤) والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٢١٨و٢١٩/ ٩٢) والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١١٦) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨٦٤) والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٧٥٣) من طرق عن عبد السلام بن حرب عن غطيف بن أعين عن مصعب بن سعد عن عدي بن حاتم رضي الله عنه مرفوعًا.

وقال الترمذي:

«هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث».

قلت: بل ضعفه الدارقطني كما في «الميزان» واعتمده الحافظ فقال في «التقريب» «ضعيف» لكن للحديث شاهد موقوف عن حذيفة - وله حكم الرفع - يتقوى به:

أخرجه الطبري (١٠/ ١١٤و١١٥) والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١١٦) وابن عبد البر في «الجامع» (١٨٦٤) والخطيب في «الفقيه» (٧٥٤و٧٥٥) ورجال إسناده ثقات إلا أن فيه انقطاعًا: أبو البختري - واسمه سعيد بن فيروز - لم يدرك حذيفة، واللَّه أعلم.

ولذا قال الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٧١): «حسن».

وقال ﷺ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الترمذي - :

«**إذا سألت فاسأل اللَّه**»[٥٤].

في أحاديث كثيرة.

فلا يدعو المؤمن الموحد غير اللَّه ولا أحدًا مع اللَّه، إذ الدعاء عبادة، كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه يرفعه:

«**الدعاء هو العبادة**»[٥٥].

---

[٥٤] صحيح:

قطعة من حديث ابن عباس قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا، فقال:

«يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلَّا بشيء قد كتبه اللَّه لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

رواه الترمذي (٢٥٢١) وقال: «حديث حسن صحيح».

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٦٠-٤٦٢):

«وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة من رواية ابنه علي، ومولاه عكرمة، و عطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، وعبيد اللَّه بن عبد اللَّه، وعمر مولى غفره، وابن أبي مليكة وغيرهم.

وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي، كذا قال ابن منده وغيره.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه وصى ابن عباس بهذه الوصية من حديث علي بن أبي طالب، وأبي سعيد الخدري، وسهل بن سعد، وعبد اللَّه بن جعفر، وفي أسانيدها كلها ضعف.

وذكر العقيلي أن أسانيد الحديث كلها لينة، وبعضها أصلح من بعض، وبكل حال، فطريق حنش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة».

والحديث صححه غير واحد من أهل العلم بالحديث كما كنت بينته في تخريجي لأحاديث «رسالة الشرك» (١١٦).

[٥٥] صحيح:

وزادوا في آخره: =

رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة.

وكما في حديث أنس رضي الله عنه يرفعه:

«الدعاء مخ العبادة»[٥٦].

رواه الترمذي.

وكل عبادة لا تكون إلا للَّه، فالدعاء لا يكون إلا للَّه، وإنما كان للدعاء من العبادة هاته المنزلة لأن حقيقة العبادة هي التذلل والخضوع، وهو حاصل في الدعاء غاية الحصول، وظاهر فيه أشد الظهور.

ألهمنا اللَّه رشدنا وأعاذنا من شرور أنفسنا، إنه سميع قريب مجيب[١].

* * *

= «ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]

وهو مخرج في «رسالة الشرك» (١٠٩) بقلمي.

[٥٦] ضعيف بهذا اللفظ:

وهو مخرج أيضًا في المصدر المذكور قريبًا برقم (١٠٨).

(١) الشهاب (ج٣ م٦) غرة ذي القعدة ١٣٤٨هـ- أفريل ١٩٣٠م.

بر الوالدين

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٣] .

اللَّه: هو الخالق، والوالدان - بوضع اللَّه - هما السبب المباشر في التخليق.

واللَّه هو المبتدئ بالنعم عن غير عمل سابق، وهما يبتدئان بالإحسان عن غير إحسان تقدم.

واللَّه يرحم ويلطف وهو الغني عن مخلوقاته وهم الفقراء إليه، وهما يكنفان بالرحمة واللطف الولد، وهما في غنى عنه، وهو في افتقار إليهما.

واللَّه يوالي إحسانه ولا يطلب الجزاء، وهما يبالغان في الإحسان دون تحصيل الجزاء.

فلهذه الحالة التي خصَّهما اللَّه بها، وأعانهما بالفطرة عليها، قرن ذكرهما بذكره، فلما أمر بعبادته أمر بالإحسان إليهما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النّساء: الآية ٣٦] ولما أمر بشكره أمر بشكرهما فقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: الآية ١٤].

وفي هذا الجمع في القضاء والحكم بالإحسان، والأمر بالشكر لهما مع اللَّه تعالى، أبلغ التأكيد وأعظم الترغيب، ثم زاد هذا الحكم، وهذا الأمر،

تقريرًا بلفظ التوصية بهما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العَنكبوت: الآية ٨] ليحفظ حكم اللَّه وأمره فيهما ولا يضيع شيءمن حقوقهما، فكان حقهما بهذه الوصاية أمانة خاصةووديعة من اللَّه عظيمة عند ولدهما. وكفى بهذا داعيًا إلى العناية بهذه الأمانة وحفظها وصيانتها.

وكما جاء هذا الجمع في باب الأمر في القرآن، كذلك جاء الجمع بينهما في باب النهي وكبر المعصية في السنة.

ففي «الصحيح» عن أبي بكرة رضي الله عنه قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم:

«**ألا أخبركم بأكبر الكبائر**: قلنا: بلى يا رسول اللَّه، قال: **الإشراك باللَّه وعقوق الوالدين**»[٥٧].

وتقدير نظم الآية هكذا: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبأن تحسنوا للوالدين إحسانًا. فحذف (أن تحسنوا) لوجود ما يدل عليه وهو إحسانًا. وفي تنكيره إفادة للتعظيم، فهو إحسان عظيم في القول والفعل والحال.

وتقول: أحسنت إليه وأحسنت به، وأحسنت به أبلغ لتضمن أحسنت معنى لطفت، ولما في الباء من معنى اللصوق. ولهذا عدي في الآية بالباء ليفيد الأمر باللطف في الإحسان والمبالغة في تمام اتصاله بهما، فلا يريان ولا يسمعان ولا يجدان من ولدهما إلا إحسانًا، ولا يشعران في قلوبهما منه إلا بالإحسان.

---

[٥٧] صحيح:

رواه بهذا اللفظ البخاري (٦٢٧٣) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

ورواه أيضًا (٥٩٧٦و٦٢٧٤) ومسلم (٨٧) وزادا: «قول الزور» أو «شهادة الزور».

ومن الإحسان ما يكون ابتداءً وفضلًا، ومنه ما يكون جزاءً وشكرًا، فعليه أن يعلم أن كل إحسانه هو شكر لهما على سابق إحسانهما الذي لا يمكنه أن يكافئه بمثله، لثبوت فضيلة سبقه.

وفي تعليق الحكم - وهو الأمر بالإحسان - بلفظ الوالدين المشتق من الولادة إيذان بعليتها في الحكم، فيستحقان الإحسان بالوالدية سواء أكانا مؤمنين أم كافرين، بارين أو فاجرين، محسنين إليه أو مسيئين، وقد جاء هذا صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: الآية ١٥] فأمر بمصاحبتهما بالمعروف على كفرهما.

وفي «الصحيح» عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت:

قدمتْ عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاستفتيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قلتُ: قدمت عليَّ أمِّي وهي راغبة (أي في العطاء والإحسان) أفأصل أمِّي؟ قال:

«نعم، صِلِي أمَّك»[٥٨].

وهذا الإحسان الواجب لهما جانب الأم آكد فيه من جانب الأب، وحظها فيه أوفر من حظه، ويشير إلى هذا تخصيصها بذكر أتعابها في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ -ضعفًا على ضعفٍ- وَفِصَٰلُهُۥ فِي

[٥٨] صحيح:

رواه البخاري (٢٦٢٠) ومسلم (١٠٠٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

عَامَيْنِ﴾ [لقمان: الآية ١٤] وفي الأخرى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ [الأحقاف: الآية ١٥].

فذكر ما تعانيه من ألم الحمل ومشقة الوضع ومقاساة الرضاع والتربية.

وجاء التصريح بهذا في الحديث الصحيح:

فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ (أي صحبتي من حسن العشرة والبر والتكرمة) قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»[٥٩].

فذكر الأب في الثالث.

وفي طريق آخر للحديث ذكره في الرابعة.

ولقد كان لها هذا بما ذكر من مزيد أتعابها وضعف جانبها ورقة عاطفتها

---

[٥٩] صحيح:

أخرجه - بذكر الأم مرتين - ابن ماجه (٣٦٥٨) وأحمد (٢/ ٣٩١) من طريقين عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة.

وصححه البوصيري في «الزوائد».

وعزاه الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٤٩٤) لمسلم من رواية محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع، وهو فيه (٢٥٤٨) (٢) لكن بذكر الأم ثلاثًا، فلا أدري هل يرجع إلى اختلاف نسخ «الصحيح» أم ماذا؟

وأما الطريق الآخر: فأخرجه البخاري (٥٩٧١) وفي «الأدب المفرد» (٥) ومسلم (٢٥٤٨) وابن ماجه (٢٧٠٦) وأحمد (٣/ ٣٢٧-٣٢٨و٤٠٢).

وله شواهد عن معاوية بن حيدة، وأبي رمثة، وجد كليب بن منفعة، وخداش أبي سلامة، خرجها الألباني في «الإرواء» (٨٣٧) فليراجعها من شاء ثمة.

وشدة حاجتها، فكان هذا الترجيح لجانبها من عدل الحكيم العليم، ومحاسن الشرع الكريم.

ومن الإحسان إليهما طاعتهما في الأمر والنهي، ومن عقوقهما مخالفتهما فيهما. وإنما تحل له مخالفتهما إذا منعاه من واجب عيني أو أمراه بمعصية، لما في الصحيح من قوله ﷺ: «**لا طاعة لأحد في معصية اللَّه، إنما الطاعة في المعروف**»[٦٠].

وعند الحاكم وأحمد: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[٦١].

[٦٠] **صحيح**:

رواه البخاري (٧٢٥٧) ومسلم (١٨٤٠) وأبو داود (٢٦٢٢) والنسائي (٧/ ١٥٩-١٦٠) وأحمد (١/ ٩٤) عن علي رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ بعث جيشًا، وأمّر عليهم رجلًا، فأوقد نارًا فقال: ادخلوها، فأراد ناسٌ أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنا قد فررنا منها، فذكر ذلك لرسول اللَّه ﷺ فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: لو دخلتموها، لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة، وقال للآخرين قولًا حسنًا، وقال: «لا طاعة في معصية الخالق، إنما الطاعة في المعروف».

والسياق لمسلم.

[٦١] **صحيح**:

رواه بهذا اللفظ الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ١٧٠/ ٣٨١) موصولًا عن الحسن عن عمران بن حصين مرفوعًا، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٧٠٦) عن الحسن مرسلًا.

ورواه أحمد (١/ ١٣١) عن علي، وفي (٥/ ٦٦) عن الحكم بن عمرو الغفاري، وفي (١/ ٤٠٩) عن ابن مسعود مرفوعًا بلفظ: «لا طاعة لمخلوق في معصية اللَّه ﷻ».

وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٢٦):

«رواه أحمد بألفاظ والطبراني باختصار، وفي بعض طرقه: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ورجال أحمد رجال الصحيح».

ومن الدليل على رجحان جانبهما على الواجب الكفائي ما ثبت في «الصحيح» من حديث الرجل الذي أتى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحي والداك؟**» قال: نعم. قال: «**ففيهما فجاهد**»[٦٢].

وفي الطريق الثاني قال عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنه: أقبل رجل إلى النبي ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من اللَّه، قال: «**فهل من والديك أحد حي؟**» قال: نعم، بل كلاهما قال: «**فتبغي الأجر من اللَّه؟**» قال: نعم. قال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**»[٦٣].

هذا لأن القيام عليهما فرض عيني، والجهاد كان عليه فرض كفاية، ولو تعين عليه، ولم يكونا في كفاية قدم القيام عليهما وكفايتهما عليه.

ومن حقوقهما عليه أن لا يخرج إلى ما فيه خوف ومخاطرة بالنفس إلا بإذنهما، بدليل ما جاء في سنن أبي داود: أن رجلًا من أهل اليمن هاجر إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: «**هل لك أحد باليمن؟**» قال: أبواي. قال: «**أذنا لك؟**» قال: لا. قال:

---

[٦٢] صحيح:
رواه البخاري (٣٠٠٤) ومسلم (٢٥٤٩) من طريق أبي العباس الشاعر عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
وكذا رواه أبو داود (٢٥٢٦) والترمذي (١٦٧٥) والنسائي (٦/ ١٠) وأحمد (٢/ ١٦٥و١٨٨و١٩٣و١٩٧و٢٢١) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

[٦٣] صحيح:
رواه مسلم (٢٥٤٩) والبيهقي (٩/ ٧٦) من طريق ناعم مولى أم سلمة عن عبد اللَّه بن عمرو.
وزاد الحافظ في «الفتح» (٦/ ١٧٠) نسبته لسعيد بن منصور.

«فارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرهما»[٦٤].

أما إذا أراد تعاطي ما لا خطر فيه ولا فجيعة من شؤون الحياة ووجوه التصرفات فليس عليه أن يستأذنهما، وليس لهما منعه، ولكن إذا منعاه من شيء امتنع لوجوب برهما، وطاعتهما - في غير المعصية - من برهما.

* * *

---

[٦٤] صحيح لغيره:

رواه أبو داود (٢٥٢٧) من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ومن هذا الوجه رواه أحمد (٣/ ٧٥-٧٦) والحاكم (٢/ ١٠٣-١٠٤) وابن الجارود في «المنتقى» (١٠٣٥) وابن حبان (١٦٢٢) وقال الحاكم: «صحيح الإسناد»!

وتعقبه الذهبي بقوله:

«قلت: دراج واهٍ».

لكن الحديث صحيح بشواهده منها حديث ابن عمرو المتقدم.

تفضيل الإحسان إليهما في القول والعمل وتأكيده في حالة الكبر

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣ - ٢٤]

الأمر بالإحسان إليهما عام في جميع الأحوال، وخصصت حالة بلوغ أحدهما أو كليهما الكبر بالذكر، لأنها حالة الضعف، وشدة الحاجة، ومظنة الملل والضجر منهما، وضيق الصدر من تصرفاتهما.

فهما في هذه الحالة قد عادا في نهايتهما إلى ما كان ولدهما عليه في بدايته وليس عنده من فطرة المحبة مثل ما عندهما، فكان بأشد الحاجة إلى التذكير بما عليه من تمام العناية بهما، ومزيد الرعاية لهما، وشدة التوقي والتحفظ من كل ما يمس بسوء جانبهما في هاته الحال على الخصوص، وإن كان ذلك واجبًا عليه في كل حالٍ على العموم.

وطول بقائهما عنده في كنفه وثقل مؤونتهما عليه، وما يكون من ضرورات الكبر والمرض مما يستقذره في بيته، كل هذا قد يؤديه إلى الضجر والتبرم، فيقول ما يدل على ضجره وتبرمه.

فنهي عن التفوُّهِ بأقل كلمة تدل على ذلك، وهي كلمة أف بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾، فأحرى وأولى ما فوقها.

وهذا أمر بتحمل كل ذلك منهما ، ونهي عن التضجر منهما .

ومن ضرورة مباينتهما لولدهما في السن وفي النشأة أنهما كثيرا ما يخالفانه في آرائه وأفكاره، وقد يتناولان ما لايحب أن تصل يدهما إليه، وقد يسألانه للمعرفة أو للحاجة، وكل هذا قد يؤديه إلى نهرهما، أي زجرهما بصياح وإغلاظ أو إظهار للغضب في الصوت واللفظ، فنهى عن هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ .

وفي هذا أمر له بالتلطف معهما في الطلب والعرض والدلالة على وجه الصواب في الأمر وأبواب الفعل والترك، وبحسن التلقي لكل ما يسألان ويطلبان، ونهي عن أي إغلاظ في اللفظ والصوت وحالة الكلام .

ولما نهاه عن القول القبيح المؤذي أمره بالقول اللين السهل، الحسن في لفظه وفي معناه، وفي قصده، وفي منشأه، السالم من كل عيب ومكروه بقوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ .

وفي هذا أمر بأن يخاطبهما بجميل القول ويؤنسهما بطيب الحديث، ونهي عن أن يؤذيهما في قول أو يوحشهما بطول السكوت، فليس له أن يتركهما وشأنهما، بل عليه مجالستهما، ومحادثتهما، وجلب الأنس إليهما، وإدخال السرور عليهما .

ثم إن القول إنما هو عنوان ما في الضمير، ولا يكون كريمًا شريفًا إلا إذا كان عنوانًا صادقًا، حسن مظهره ومخبره، وعذب جناه، وطاب مغرسه، وما ثماره إلا معانيه، وما مغرسه إلا القلب الذي صدر عنه .

فيفيد هذا أن على الولد أن يكون معهما باللطف والعطف من صميم قلبه كما هو يعرب لهما عنهما بلسانه، فيكون محسنا لهما حينئذ في ظاهره وباطنه، وذلك هو تمام البر الذي أمر به.

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾:

مضى فيما تقدم أدب القول، وهذا أدب الفعل وبيان الحال التي يكون عليها.

فالوالدان عند ولدهما في كنفه كالفراخ الضعيفة المحتاجة للقوت والدفء والراحة، وولدهما يقوم لهما بالسعي كما يسعى الطائر لفراخه ويحيطهما بحنوه وعطفه، كما يحيط الطائر فراخه، فشبه الولد في سعيه وحنوه وعطفه على والديه بالطائر في ذلك كله على فراخه، وحذف المشبه به وأشير إليه بلازمه، وهو خفض الجناح، لأن الطائر هو ذو الجناح، وإنما يخفض جناحه حنوًا وعطفًا وحياطةً لفراخه، فيكون في الكلام استعارة بالكناية.

وأضيف الجناح إلى الذل - وهو الهون واللين - إضافة موصوف إلى صفة. اخفض لهما جناحك الذليل، وهذا ليفيد هونه وانكساره عند حياطتهما حتى يشعر بأنهما مخدومان للاستحقاق، لا متفضل عليهما بالإحسان.

وفي ذكر هذه الصورة التي تشاهد من الطير تذكير بليغ مرقق للقلب موجب للرحمة وتنبيه للولد على حالته التي كان عليها معهما في صغره، ليكون ذلك أبعث له على العمل وعدم رؤية عمله أمام ما قدما إليه.

و«مِن» في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ للتعليل متعلقة بأخفض، فتفيد مع متعلقها الأمر بأن يكون ذلك الخفض ناشئا عن الرحمة الثابتة في النفس،

لا عن مجرد استعمال ظاهر كما كان يكنفانه ويعطفان عليه عن رحمة قلبية صادقة، فيكون هذا مفيدًا ومؤكدًا لما قدمناه من لزوم أن يتطابق على الإحسان إليهما، الظاهر والباطن، ليتم البرور.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ : مهما اجتهد الولد في الإحسان إلى أبويه فإنه لا يجازي سابق إحسانهما، فأمر بأن يتوجه بسؤال الرحمة لهما من اللَّه تعالى، وهي النعمة الشاملة لخير الدنيا والآخرة، إظهارًا لشدة رحمته هو لهما، ورغبةً في وصول الخير العظيم من المولى الكريم إليهما واعترافًا بعجزه عن مجازاتهما.

يدعو لهما هكذا في حياتهما وبعد مماتهما.

أما في حياتهما فيدعو لهما بالرحمة، سواء كانا مسلمين أم كافرين، ورحمة الكافرين بهدايتهما إلى الإسلام.

وأما بعد الموت فلا يسأل الرحمة لهما إلا إذا ماتا مسلمين لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: الآية ١١٣].

والكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾. للتعليل، أي: رب ارحمهما لتربيتهما لي، وجزاء على إحسانهما إليَّ في حالة الصغر، حالة الضعف والافتقار.

وفي هذا اعتراف بالجميل، وإعلان لسابق إحسانهما العظيم، وتوسل إلى اللَّه تعالى في قبول دعائه لهما بما قدَّما من عمل لأنه وعد أنه يجزي العاملين، وقد كانت تربيتهما لولدهما من أجلِّ مظاهر الرحمة، وهو قد أخبر

تعالى على لسان رسوله أنه يرحم الراحمين[٦٥]، ولا أرحم - بعده تعالى - من الوالدين.

خاتمة:

من بر الوالدين أن نتحفظ من كل ما يجلب لهما سوءًا من غيرنا، فإن فاعل السبب فاعل للمسبب، ومن هذا أن لا نسبَّ الناس حتى لا يسبُّوا والدينا، لأنا إذا سببنا الناس فسبوهما كنا قد سببناهما، وسبهما من أكبر الكبائر.

ففي «الصحيح» عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**»، قيل: يا رسول اللَّه، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[٦٦].

ومن برهما، حفظهما بعد موتهما بالدعاء والاستغفار، و إنفاذ عهدهما

---

[٦٥] صحيح:

ثبت عنه مرفوعًا من طريق جماعة من الصحابة، منهم:

١- عبد اللَّه بن عمرو: رواه أبو داود (٤٩٣١) والترمذي (١٩٢٩) وأحمد (٢/ ١٦٠) والحاكم (٤/ ١٥٩) بلفظ: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى...».

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وثبته الحافظ في «الفتح» (٣/ ٢٠٢).

٢- أسامة بن زيد: رواه البخاري (١٢٨٤) ومسلم (٩٢٣) ولفظه:

«إنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء».

[٦٦] صحيح:

رواه البخاري (٥٩٧٣) واللفظ له، ومسلم (٩٠) عن ابن عمرو رضي الله عنهما.

وإكرام صديقهما وصلة رحمهما.

فقد روى ابن ماجه وأبو داود وابن حبان في «صحيحه» عن أبي أسيد مالك ابن ربيعة الساعدي البدري رضي الله عنه قال:

«بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال:

«**نعم، الصلاة** (أي الدعاء) **عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما**»[٦٧].

وفي إكرام صديقهما جاء في «الصحيح» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أن رجلًا من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلَّم عليه عبد الله وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه.

قال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله، إنهم الأعراب وأنهم يرضون

---

[٦٧] ضعيف:

رواه أبو داود (٥١٣١) وابن ماجه (٣٦٦٤) وأحمد (٣/ ٤٩٧- ٤٩٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥) وابن حبان (٢٠٣٠- الموارد) والحاكم (٤/ ١٥٤- ١٥٥) من طريق أسيد بن علي بن عبيد مولى بني ساعدة عن أبيه عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه.

وهذا إسناده ضعيف وفيه جهالة، علي بن عبيد والد أسيد «لا يعرف» كما قال الذهبي في «الميزان» (٣/ ١٤٤) ولم يوثقه غير ابن حبان!

ومع ذلك صححه الحاكم، وليس ذلك بغريب لما عرف به من تساهل، وإنما الغريب أن يوافقه الذهبي الحافظ النقاد!!

وراجع «الضعيفة» (٥٩٧) للألباني.

* وأبو أسيد الساعدي: مشهور بكنيته، شهد بدرًا وغيرها.

ومات سنة (٣٠هـ)، وقيل: هو آخر من مات من البدريين.

باليسير.

فقال عبد اللَّه: إن أبا هذا كان ودًّا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

«**إن أبر البر صلة الولد أهل ودِّ أبيه**»[٦٨].

هذا، وإن من راض نفسه على هذه الأخلاق الكريمة والمعاملة الحسنة والأقوال الطيبة التي أُمر بها مع والديه، حصل له من الارتياض عليها كمال أخلاقي مع الناس أجمعين، وكان ذلك من ثمرات امتثال أمر اللَّه وطاعة الوالدين.

واللَّه يوفقنا ويهدينا سواء السبيل. إنه المولى الكريم رب العالمين(١).

* * *

[٦٨] صحيح:

رواه مسلم (٢٥٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والجزء المرفوع رواه بنحوه أبو داود (٥١٣٢) والترمذي (١٩٠٨) وقال: «هذا إسناد صحيح، وقد روي هذا الحديث عن ابن عمر من غير وجهٍ».

(١) الشهاب (ج٤ م٦) غرة ذي الحجة ١٣٤٨هـ- ماي ١٩٣٠م.

صلاح النفوس وإصلاحها

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٥].

صلاح الشيء: هو كونه على حالة اعتدال في ذاته وصفاته، بحيث تصدر عنه أو به أعماله المرادة منه على وجه الكمال.

وفساده: هو كونه على حالة اختلال في ذاته أو في صفاته بحيث تصدر عنه أو به تلك الأعمال على وجه النقصان.

اعتبر هذا في البدن، فإن له حالتين: حالة صحة. وحالة مرض.

والأولى: هي حالة صحته باعتدال مزاجه، فتقوم أعضاؤه بوظائفها وينهض هو بأعماله.

والثانية: هي حالةفساده باختلال مزاجه فتتعطل أعضاؤه أو تضعف كلها أو بعضها عن القيام بوظائفه، ويقعد هو أو يثقل عن أعماله.

هذا الذي تجده في البدن هو نفسه تجده في النفس، فلها صحة ولها مرض، حالة صلاح وحالة فساد.

والإصلاح: هو إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من فساد.

والإفساد: هو إخراج الشيء عن حالة اعتداله بإحداث إختلال فيه.

فإصلاح البدن بمعالجته بالحمية والدواء، وإصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصادقة.

وإفساد البدن بتناول ما يحدث به الضرر، وإفساد النفس بمقارفة المعاصي والذنوب.

هكذا تعتبر النفوس بالأبدان في باب الصلاح والفساد. في كثير من الأحوال. غير أن الإعتناء بالنفوس أهم وألزم لأن خطرها أكبر وأعظم.

إن المكلف المخاطب من الإنسان هو نفسه، وما البدن إلا آلة لها، ومظهر تصرفاتها.

وإن صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها، وإنما رقيه وانحطاطه باعتبار رقي نفسه وانحطاطها، وما فلاحه إلا بزكائها، وما خيبته إلا بخبثها. فقد قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: الآيتان ٩- ١٠].

وفي «الصحيح»: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**[٦٩].

---

[٦٩] **صحيح:**

رواه البخاري (٥٢و٢٠٥١) ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل مَلِكٍ حمىً، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة.....». =

وليس المقصود من القلب مادته وصورته، وإنما المقصود النفس الإنسانية المرتبطة به.

وللنفس ارتباط بالبدن كله، ولكن القلب عضو رئيسي[1] في البدن ومبعث دورته الدموية، وعلى قيامه بوظيفته تتوقف صلوحية البدن لارتباط النفس به، فكان حقيقيًا لأن يعبر به عن النفس على طريق المجاز.

وصلاح القلب -بمعنى النفس- بالعقائد الحقة والأخلاق الفاضلة، وإنما يكونان بصحة العلم وصحة الإرادة، فإذا صلحت النفس هذا الصلاح صلح البدن كله بجريان الأعضاء كلها في الأعمال المستقيمة، وإذا فسدت النفس من ناحية العقد أو ناحية الخلق أو ناحية العلم أو ناحية الإرادة فسدالبدن وجرت أعمال الجوارح إلى غير وجه السداد.

فصلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس، إما مباشرة وإما بواسطة.

فما من شيء مما شرعه اللّٰه تعالى لعباده من الحق، والخير، والعدل، والإحسان، إلَّا وهو راجع عليها بالصلاح.

وما من شيء نهى اللّٰه تعالى عنه من الباطل والشر والظلم والسوء،

= والسياق لمسلم.

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٩٣):

«وقد روي عن النبي ﷺ من حديث ابن عمر، وعمار بن ياسر، وجابر، وابن مسعود، وابن عباس، وحديث النعمان أصح أحاديث الباب».

(١) كذا في الأصل!.

إلا وهو عائد عليها بالفساد.

فتكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل، وشرع الشرائع.

وهذه الآيات الثمان عشرة قد جمعت من أصول الهداية ما تبلغ به النفوس إذا تمسكت به غاية الكمال.

قد أمر تعالى في الآيات المتقدمة بعبادته، وتوحيده، والإخلاص له، وأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما في الظاهر والباطن، كما أمر بغير ذلك في الآيات اللاحقة.

ووضع هذه الآية أثناء ذلك، وهي متعلقة بالنفس وصلاحها، لينبِّه الخلق على أصل الصلاح، الذي منه يكون، ومنشأه الذي منه يبتدئ، فإذا صلحت النفس قامت بالتكاليف التي تضمنتها هذه الآيات الجامعة لأصول الهداية، وهذا هو وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها وما بعدها الذي قد يكون قبل التدبر خفيًا.

ونظير هذه الآية - في موقعها ودلالتها على ما به يسهل القيام بأعباء التكاليف- قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٨]، فقد جاءت أثناء آيات أحكام الزوجية آمرة بالمحافظة على الصلوات، تنبيهًا للعباد على أن المحافظة عليها على وجهها تسهل القيام بأعباء تكاليف تلك الآيات، لأنها تزكي النفس بما فيها من ذكر وخشوع وحضور وانقطاع إلى اللّٰه تعالى وتوجه إليه ومناجاة له، وهذا كله تعرج به النفس في درجات الكمال.

والنفوس الزكية الكاملة تجد في طاعة خالقها لذة وأنسا تهون معهما أعباء التكليف.

ثم إن العباد بنقص الخلقة وغلبة الطبع معرَّضون للتقصير في ظاهرهم وباطنهم، في صور أعمالهم ودخائل أنفسهم - وخصوصًا في باب الإخلاص - فذكِّروا بعلم ربِّهم في نفوسهم في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ ليبالغوا في المراقبة، فيتقنوا أعمالهم في صورها، ويخلصوا بها له.

وهذه المراقبة هي الإحسان الذي هو عبادتك اللَّه كأنك تراه، وذكر اسم الرب لأنه المناسب لإثبات صفة العلم، فهو الرب الذي خلق النفوس وصورها ودبرها. ولا يكون ذلك إلا بعلمه بها في جميع تفاصيلها. وكيف يخفى عليه شيء منها وهو خلقها. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المُلك: الآية ١٤].

والصالحون: في قوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ هم الذين صلحت أنفسهم فصلحت أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، وصلاح النفس وهو صفة لها خفي كخفائها.

وكما أننا نستدل على وجود النفس وارتباطها بالبدن بظهور أعمالها في البدن؛ كذلك نستدل على اتصافها بالصلاح وضده بما نشاهده من أعمالها.

فمن شاهدنا منه الأعمال الصالحة - وهي الجارية على سنن الشرع وآثار النبي ﷺ - حكمنا بصلاح نفسه وأنه من الصالحين.

ومن شاهدنا منه خلاف ذلك حكمنا بفساد نفسه وأنه ليس منه.

ولا طريق لنا في معرفة صلاح النفوس وفسادها إلا هذا الطريق.

وقد دلّنا اللّه تعالى عليه في قوله تعالى:

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣- ١١٤].

فذكر الأعمال ثم حكم لأهلها بأنهم من الصالحين.

فأفادنا أن الأعمال هي دلائل الصلاح، وأن الصلاح لا يكون إلا بها، ولا يستحقه إلا أهلها.

ثم إن العباد يتفاوتون في درجات الصلاح على حسب تفاوتهم في الأعمال.

ويكون لنا في أن نقضي بتفاوتهم في الظاهر بحسب ما نشاهد، ولكن ليس لنا أن نقضي بين أهل الأعمال الصالحة في تفاوتهم عند اللّه في الباطن، فندعي أن هذا أعلى درجة في صلاحه عند اللّه تعالى من هذا، لأن الأعمال قسمان: أعمال الجوارح، وأعمال القلوب، وهذه أصل لأعمال الجوارح، وقد قال النبي ﷺ: «**التقوى ها هنا**»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات»[٧٠].

فمنازل الصالحين عند ربهم لا يعلمها إلا اللّه.

---

[٧٠] صحيح:

جزء من حديث رواه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة مرفوعًا:

«لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد اللّه إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه».

والأوابون في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ هم الكثيرو الرجوع إلى اللَّه تعالى.

والأوبة في كلام العرب هي الرجوع.

قال عُبيد[1]:

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

والتوبة: هي الرجوع عن الذنب، ولا يكون إلا بالإقلاع عنه.

واعتبر فيها الشرع الندم على ما فات، والعزم على عدم العود، وتدارك ما يمكن تداركه.

فيظهر أن الأوبة أعم من التوبة، فتشمل من رجع إلى ربه تائبًا من ذنبه، ومن رجع إليه يسأله ويتضرع إليه أن يرزقه التوبة من الذنب.

فنستفيد من الآية الكريمة سَعة باب الرجوع إلى اللَّه تعالى. فإذا تاب العبد فذاك هو الواجب عليه والمخلِّص له - بفضل اللَّه - من ذنبه. وإن لم يتب فليدم الرجوع إلى اللَّه تعالى بالسؤال والتضرع والتعرض لمظان الإجابة، وخصوصًا في سجود الصلاة فَقَمِنٌ - إن شاء اللَّه تعالى - أن يستجاب له[2].

---

(١) هو عُبيد بن الأبرص الأسدي، شاعر جاهلي فحل. قال أيضًا في هذه البائية:

من يسأل الناس يحرموه وسائل اللَّه لا يخيب

ساعد بأرض إن كنت فيها ولا تقل إنني غريب

ترجمته في «الأعلام» (٤/ ١٨٨).

(٢) لقوله ﷺ: «.. وأمَّا السجود فاجتهدوا في الدعاء، فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم». أخرجه مسلم (٤٧٩) عن ابن عباس، وسيأتي تخريجه برقم (١٤٣) مع ذكر لفظه بتمامه.

و«قَمِنٌ»: أي: جدير وخليق وحقيق.

وشر العصاة هو الذي ينهمك في المعصية مصرًا عليها غير مشمئز منها ولا سائل من ربه بصدق وعزم التوبة منها، ويبقى معرضًا عنه ربه كما أعرض هو عنه، ويصر على الذنب حتى يموت قلبه.

ونعوذ باللَّه من موت القلب، فهو الداء العضال الذي لا دواء له.

وجاء لفظ (الأوابين) جمعًا لأواب، وهو فعال من أمثلة المبالغة، فدلَّ على كثرة رجوعهم إلى اللَّه، وأفاد هذا طريقة إصلاح النفوس بدوام علاجها بالرجوع إلى اللَّه.

ذلك أن النفوس بما ركب فيها من شهوة، وبما فطرت عليه من غفلة، وبما عرضت له من شؤون الحياة، وبما سلط عليها من قرناء السوء من شياطين الإنس والجن - لا تزال - إلا من عصم اللَّه - في مقارفة ذنب، ومواقعة معصيةٍ، صغيرة أو كبيرة، من حيث تدري، ومن حيث لا تدري، وكل ذلك فساد يطرأ عليهما، فيجب إصلاحها بإزالة نقصه، وإبعاد ضرره عنها، وهذا الإصلاح لا يكون إلا بالتوبة وبالرجوع إلى اللَّه تعالى.

ولما كان طروء[1] الفساد متكررًا، فالإصلاح بما ذكر يكون دائمًا متكررا، والمداومة على المبادرة إلى إصلاح النفس من فسادها والقيام في ذلك والجد فيه والتصميم عليه هو من جهاد النفس الذي هو أعظم الجهاد.

ومن معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٢] وهم الذين كلما أذنبوا تابوا، والتوبة طهارة للنفس من درن المعاصي.

---

(١) في الأصل: طرو.

و«الغفور»: في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ هو الكثير المغفرة، لأنه على وزن فعول، وهو من أمثلة المبالغة الدالة على الكثرة.

و«المغفرة»: ستره للذنب وعدم مؤاخذته به، ولما ذكر من وصف الصالحين كثرة رجوعهم إليه، ذكر من أسمائه الحسنى ما يدل على كثرة مغفرته، ليقع التناسب في الكثرة من الجانبين، ومغفرته أكثر، وليعلم أن كثرة الرجوع إليه يقابلها كثرة المغفرة منه، فلا يفتأ العبد راجعًا راجيًا للمغفرة، لا تقعده كثرة مايذنب عن تجديد الرجوع، ولا يضعف رجاؤه في نيل مغفرة الغفور، كثرة الرجوع.

وقد أكد الكلام بـ(إنَّ) لتقوية الرجاء في المغفرة، وجيء بلفظة (كان) لتفيد أن ذلك هو شأنه مع خلقه من سابق. وهذا مما يقوي الرجاء فيه في اللاحق، فقد كان عباده يذنبون ويتوبون إليه ويغفر لهم، ولا يزالون كذلك، ولا يزال تبارك وتعالى لهم غفورا.

وإنما احتيج إلى هذا التأكيد كله في تقوية رجاء المذنب في المغفرة ليبادر بالرجوع على كل حال، لأن العبد مأخوذ بأمرين يضعفان رجاءه في المغفرة:

أحدهما: كثرة ذنوبه التي يشاهدها، فتحجبها كثرتها عن رؤية مغفرة اللَّه تعالى التي هي أكبر وأكثر.

والآخر: رؤيته لطبعه البشري وطبع بني آدم من المنع عند كثرة السؤال، كما قال شاعرهم - أي البشر - لأن الشاعر العربي عبَّر عن طبع بشري:

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ... ومن أكثر التسآل يومًا سيحرم[1]

فيقوده القياس - وهو من طباع البشر أيضًا - القياس الفاسد إلى ترك الرجوع والسؤال من الرب الكريم العظيم النوال.

فهذان الأمران يقعدانه عن الرجوع والتوبة فيستمر في حمأة المعصية، وذلك هو الهلاك المبين، فكان حاله مقتضيًا لأن يؤكد له حصول المغفرة عند رجوعه بتلك المؤكدات.

وقد كان مقتضى الظاهر في تركيب الآية أن يقال: إن تكونوا صالحين فإنه كان لكم غفورا، لأن المقام للإضمار لكنه عدل عن الضمير إلى الظاهر فقيل: (فإنه كان للأوابين غفورًا) لينص على شرط المغفرة وهو الأوبة والرجوع.

وعلم من ذلك أن الصالح عند ما تقع منه الذنوب مطالب - كغيره - بالأوبة لتحصيل المغفرة، لأن فرض الأوبة إلى اللَّه من المعاصي عام على الجميع.

وقد اشتملت الآية من فعل الشرط وهو (إن تكونوا صالحين)، وجوابه وهو (فإنه كان للأوابين غفورًا)... على الحالتين اللازمتين للإنسان لتكميل نفسه، وهما الصلاح المستفاد من الأول، والإصلاح بالأوبة المستفاد من الثاني.

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو البيت الأخير من معلقته. انظر «ديوانه» (ص١١٢).
وزهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني، أحد فحول الجاهلية الأربعة، وهو أعف الشعراء قولًا، وأكثرهم تهذيبًا لشعره، وجرت أبيات كثيرة له مجرى المثل، وكثير من أصوله وفروعه شعراء لا يشق لهم غبار. ترجمته في «الأعلام» (٣/ ٥٢).

وما دام الإنسان يجاهد في تزكية نفسه بهذين الأصلين فإنه بالغ - بإذن اللَّه - درجة الكمال .

ثبتنا اللَّه والمسلمين عليهما، وحشرنا في زمرة الكاملين المكملين، إنه المولى الغفور الكريم[1] .

* * *

(١) الشهاب (ج٥ م٦) غرة محرم ١٣٤٩هـ- جوان ١٩٣٠م.

إيتاء الحقوق لأربابها

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٦] .

الناس كلهم في حاجة مشتركة إلى بعضهم. ومامن أحد إلا وله حقوق على غيره، ولغيره حقوق عليه.

ولهذه الحاجة المشتركة والحقوق الممتزجة كان الاجتماع والتعاون ضروريين لحياة المجتمع البشري واطِّراد نظامه.

وقيام كل واحد من أفراد المجتمع بما عليه من حقوق نحو غيره هو الذي يسد تلك الحاجة المشتركة بين الناس.

وعند ما يؤدي كل واحد حق غيره فليست خدمته له وحده، بل هي خدمة للمجتمع كله. وبالأحرى[1] هي خدمة له هو في نفسه لأنه جزء من المجتمع، وما يصيب الكل يعود على جزئه .

فإذا تواردت أفراد المجتمع على هذه التأدية سعدت وسعد مجتمعنا بنيله حاجيات الحياة ولوازم البقاء والتقدم في العمران.

أما إذا توانى الأفراد في القيام بالحقوق وقصروا في تأديتها إلى بعضهم، فإن الحاجة المشتركة من العلم، والثقافة، وحفظ الصحة، والأخلاق، وأنواع الصناعة - تتعطل، وبتعطلها يختل نظام الاجتماع ويعود إلى الانحلال

(١) في الأصل: بالآخرة!.

والتقهقر، وينحط بأفراده إلى أسفل الدركات.

فلهذا بعد ما أمر اللَّه تعالى بإيتاء حقه - وهو توحيده في عبادته - أمر بإيتاء حقوق العباد، القريب منهم والبعيد.

حق القريب:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾.

ابتدأ بحق القريب لوجوه:

الأول: أنه هو مقتضى طبيعة الترتيب.

الثاني: تأكيد حق القريب.

الثالث: أن من حكمة التربية أن يبدأ من الأوامر بما تعين فطرة النفوس الإنسانية على قبوله ببداهة الفكرة أو بشعور العاطفة.

وكلتا هاتين يحبب للنفس إيتاء حق القريب، فابتدئ به في الأمر ليكون تقبلهاله أسهل، ومبادرتها للامتثال أسرع، فإذا سخت النفوس بإيتاء حق القريب، ومرنت عليه، اعتادت الإيتاء وصار من ملكاتها، فسهل عليها إيتاء كل حق ولو كان لأبعد الناس.

وشيء آخر، وهو أن الأقارب قد تكون بينهم المنافسات والمنازعات لقرب المنازل، أو تصادم المنافع، أو التشاح على المواريث، ما لا يكون بين الأباعد، فيقطعوا حق القرابة ويهدموا بناء الأسرة، ويعود ذلك عليهم أولًا بالوبال، ويرجع ثانيًا على مجتمعهم - والمجتمع مؤلَّف من الأُسر - بالتضعضع، فكان هذا من جملة ما يقتضي الابتداء بحقهم إلى المقتضيات

المتقدمة الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ عام يشمل الأصل - وهو الأبوان - وما يتصل بالمرء من ناحيتهما من أصولهما وفصولهما، ويشمل الفصل - وهو الأبناء والبنات - وما يتصل به منهما من فصول، غير أن الوالدين لمزيد العناية بهما خصصا بالذكر في الآيات المتقدمة وإن كانا داخلين في هذا العموم.

والحق في قوله تعالى: ﴿حَقَّهُۥ﴾ هو الثابت له شرعًا المبيَّن في آيات من الكتاب: من صلة رحمٍ، ونصيب إرثٍ، ونفقة فرضٍ وندبٍ، وإحسانٍ بالقول والفعل، ومواساةٍ عن محبة وعطف.

حق المسكين:

«والمسكين».

قد ذكر في آية الزكاة الفقير والمسكين[1].

والحق أنهما متغايران، والراجح أن الفقير من له بلغة لا تكفيه، والمسكين من لا شيء له، فهو أشد حالًا من الفقير.

ولذا لما أريد هنا ذكر أحدهما اقتصر عليه تنبيهًا بالأعلى في الفقر على الأدنى، فالمراد أهل الفقر والحاجة كلهم.

وحق المساكين ما ثبت لهم من الزكاة وكذلك ما تدعو إليه الحاجة من تعليمهم، وإيوائهم، وطبهم، وتجهيز موتاهم، مما تقوم به الجمعيات

(١) يعني المصنف قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ..﴾ الآية [التوبة: ٦٠].

الخيرية في هذا العصر، فكلّ هذا مما تصرف إليه الزكاة، ويجب القيام به عند عدم الزكاة أو فنائها أو قصورها عنه، ويجب القيام به واجبًا موزعًا على كل واحد ما استطاع، فإذا لم يقم به المجتمع عاد الإثم على جميع الأفراد كل بقدر ما قصر فيما استطاع. ثم ما إلى هذا من عموم الصدقة والإحسان.

حق ابن السبيل:

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

السبيل هي الطريق، وابنها هو المسافر، لأنه منها أتى كما أتى الإبن من أمه.

وحقه هو الثابت له في الزكاة، فيأخذ منها إذا قطع به ولم يكن معه ما يبلغه ولو كان غنيًّا في بلده، وعلى جماعة المسلمين تبليغه إذا لم تكن ثَمَّ زكاة.

ومن حقه ضيافته حسب السنة[1]، وإرشاده ودلالته على ما يريد معرفته من طريقه أو مرافقها.

وبذكر ابن السبيل والمسكين مع ذي القربى جمعت الآية القريب والبعيد من ذوي الحقوق.

وبذكر ابن السبيل والمسكين جمعت ذا الحاجة الثابتة وهو المسكين، والحاجة العارضة وهو ابن السبيل، وقدم الأول لأصالة حاجته.

وفي ذكرهما أيضًا جمع ما بين القريب الدار والبعيد الدار والمسافر.

---

(١) انظر «أحاديث الضيافة» (٦٢، ٦٣، ٦٦- ٦٩) لأبي بكر بن داود الحنبلي، بتحقيقي.

كل هذا ليعلم أن ذا الحق يُعطى حقه على كل حال، وبقطع النظر عن أي اعتبار.

وسمى هؤلاء الثلاثة بأسمائهم المذكورة لأنها ترقق عليهم القلوب من القرابة والمسكنة وغربة الطريق.

وسمى ما ينالونه حقًّا ليشعر المكلَّف بتأكده، ويحذر المعطي من المنِّ به ولا ينكسر قلب آخذه.

* * *

الإنفاق في غير وجه شرعي

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٦] .

المال قوام الأعمال، وأداة الاحسان، وبه يمكن القيام بالحقوق، فصاحبه هو مالكه، ولكن الحقوق فيه تشاركه ولا يقوم له بوجوه الحق إلا إذا أمسكه عن وجوه الباطل، ثم لا يقوم له بجميع تلك الوجوه إلا إذا أحسن التدبير في التفريق وأصاب الحكمة في التوزيع.

فلذا بعدما أمر اللَّه تعالى بإعطاء الحقوق لأربابها نهى عن تبذير المال الذي هو أصلها وبه يمكن إعطاؤها.

والتبذير هو التفريق للمال في غير وجه شرعي أو في وجه شرعي دون تقدير فيضر بوجه آخر.

فالإنفاق في المنهيات تبذير وإن كان قليلًا.

والإنفاق في المطلوبات ليس بتبذير ولو كان كثيرًا. إلا إذا أنفق في مطلوب دون تقدير فأضر بمطلوب آخر، كمن أعطى قريبًا وأضاع قريبًا آخر، أو أنفق في وجوه البر وترك أهله يتضورون بالجوع، وقد نبه النبي ﷺ على هذا بقوله: «**وابدأ بمن تعول**»[٧١].

---

[٧١] صحيح:

رويت هذه الجملة مرفوعة إلى النبي ﷺ من طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة ﷺ، منهم:

١- أبو هريرة: أخرجه البخاري (١٤٢٦و٥٣٥٥و٥٣٥٦) ومسلم (١٠٤٢). =

والإنفاق في المباحات إذا لم يضيع مطلوبًا ولم يؤد إلى ضياع رأس المال بحيث كان ينفق في المباح من فائدته ليس بتبذير، فإذا توسع في المباحات وقعد عن المطلوبات أو أداه إلى إفناء ماله فهو تبذير مذموم.

وأفادت النكرة وهي قوله «تبذير» - بوقوعه بعد النهي - العموم، فهو نهي عن كل نوع من أنواع التبذير، القليل منه والكثير، حتى لا يستخف بالقليل؛ لأن من تساهل في القليل وصلت به العادة إلى الكثير.

* * *

= ٢- أبو أمامة: أخرجه مسلم (١٠٣٦).

٣- حكيم بن حزام: أخرجه البخاري (١٤٢٧) ومسلم (١٠٣٤).

٤- جابر بن عبد اللّه: أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٠و٣٤٦) وابن حبان في «صحيحه» (٨٢٦-الموارد).

٥- عبد اللّه بن عمر: أخرجه أحمد (٢/ ٤و٩٣-٩٤و١٥٢). من طريقين: أحدهما بسند على شرط الشيخين، والآخر بسند جيد. أفاده الألباني في «الإرواء» (٣/ ٣١٩).

٦- طارق المحاربي: أخرجه النسائي (٥/ ٦١) وابن حبان (٨١٠- الموارد) وصححه.

إخوان الشياطين

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٧].

إن الشيطان يعمل وأعماله كلها في الضلال والإضلال.

فقد ضيع أعماله في الباطل، وقد كان يمكنه أن يجعلها في الخير. وهو جاد في ذلك ضار عليه لرسوخه في نفسه.

والمبذر يضيع أمواله في الباطل وقد كان يمكنه أن يجعلها في الخير، وقد أخذت عادة التبذير بخناقه واستولت عليه، فهو أخو الشيطان لمشاركته له في وصفه كمشاركة الأخ لأخيه، وهو أخوه بامتثاله لأمره، وصحبته له في الحال وفي المآل، وفي سوء العاقبة، في العاجل والآجل.

المال كما هو أداة لكل خير، كذلك هو أداة لكل شر.

فالمبذر المفرق لماله في وجوه الباطل بالغ - لا محالة - بماله إلى شر كثير وفساد كبير، ولذلك وصف بأنه أخ الشيطان الذي هو أصل الشر والفساد، ووصف تعالى الشيطان بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ لأنه أنعم عليه بنعمته، فبدلًا من أن يستعملها في طاعته في الخير قصرها على المعصية والشر.

وذكر هذا من وصف الشيطان بعد ما تقدَّم يفيد أنه من وصف المبذِّر أيضًا.

فالمبذِّر أخو الشيطان، والشيطان كان لربه كفورًا. فالمبذر كان لربه كفورًا.

ذلك لأن اللَّه تعالى أنعم عليه بالمال الذي هو أداةٌ لكلِّ خير وعونٌ عظيمٌ على الطاعة، فجعله أداة في الشر واستعان به على المعصية. ومكَّنه بالمال من نعمة القدرة على القيام بالحقوق فضيعها وقام بالشرور والمفاسد. وهذا من أقبح الكفر لنعمة ربه الذي كان به مضارعًا للشيطان أخيه. والعياذ باللَّه.

* * *

حسن المقال، عند العجز عن النوال

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٨] .

للمرء حالتان: حالة وجد وحالة عوز.

فلما علمنا الله تعالى ما نصنع في حالة الوجد من الإيتاء لذوي القربى واليتامى والمساكين - علمنا ما نصنع في حالة العوز من الرد الجميل والقول اللين الحسن.

وقوله تعالى: ﴿تُعْرِضَنَّ﴾ من الإعراض، وهو الانصراف عن الشيء، وهو هنا كناية عن عدم العطاء، لأن من يأبى أن يعطي يعرض بوجهه ولو إعراضًا قليلًا.

ولما كان الإعراض كناية عن عدم العطاء فإنه يشمل عدم العطاء عند السؤال الذي قد يكون معه الإعراض بالفعل ولو قليلًا، ويشمل عدم العطاء لمن هو أهل لأن يعطي مع عدم وجود السؤال.

وقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾:

الابتغاء هو الطلب باجتهاد، وذلك بالأخذ في الأسباب والاعتماد على مسببها وهو الله تعالى.

ورحمة الربِّ هنا رزقه.

ورجاؤها هو انتظارها مع الأخذ في أسبابها بالقلب والعمل.

وابتغاء رحمة الربِّ ورجاؤها كناية عن حالة العوز والإعسار، لأن شأن المعوز المؤمن أن يكون كذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

تقول: يسَّرتُ له القول إذا لينته له. فالقول الميسور هو القول الملين.

وحاصل المعنى: إن أعرضت عنهم فلم تعطهم لأنك لم تجد ما تعطيهم - وهي الحالة التي تكون فيها تطلب رحمة من ربك راجيًا رزقه - فقل لهم قولًا لينًا سهلًا، فتواسيهم بالقول عند عدم السؤال، ولا تتركهم في ساحة الإهمال، وتردهم الرد الجميل عند السؤال فتقول لهم: يرزق اللَّه، ونحوه من لين الكلام.

وفي الآية تعليم وتربية للمعسر من ناحيتين:

الأولى: معاملته لذوي القربى واليتامى والمساكين عند السؤال وعدمه. وعرف من الآية أنه مطالب بحسن المقال بدلًا مما عجز عنه من النوال.

والثانية: أدبه هو في نفسه، والحالة التي ينبغي له أن يكون عليها. فإن حالة العسر حالة شدة وبلاء يحتاج المكلف أشد الحاجة أن يعرف دواءه فيها لسيرته العملية، وحالته النفسية، فأعطته هذه الآية الكريمة الدواء لهما.

فأما في سيرته العملية فعليه أن يكون ساعيًا في الأسباب حسب جهده، وذلك هو ما يفيده قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾. وأن يكون مطمئن القلب باللَّه، معتمدًا عليه، قوي الثقة فيه. وذلك هو ما يفيده قوله: ﴿تَرْجُوهَا﴾.

وقد ذكر برحمة الرب ﷻ لوجوه:

الأول: تقوية رجائه، فإنه يعلم سَعة رحمة اللَّه وغمره بها في كل حين. ومن ذا الذي لم يجد نفحات الرحمات في أكثر الأوقات في أحرج الساعات؟

الثاني: بعثه على الصبر والتسليم، وعدم الضجر والسأم من الطلب والانتظار، فإنها رحمة الرب، ومن مقتضى ربوبيته تدبيره للخلق بحكمته، فما جاء منه كيف جاء وفي أي وقت جاء أبطأ أم تأخر - هو مقبول منه محمود منا عليه.

الثالث: بعث عاطفة الرحمة على غيره، فإن من كان يرجو رحمة ربه جدير بأن يكون رحيما بعباده.

ورحمته بعباد اللَّه تعينه على القيام بما أمر به من حسن المقال عند العسر، وجميل النوال عند اليسر. وتكون سببا له في رحمة اللَّه إياه، والراحمون يرحمهم الرحمن، وإنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء[1].

* * *

---

(١) الجملتان ثبت رفعهما إلى النبي ﷺ، فانظر: «صحيح الجامع الصغير» (٢٣٧٧، ٣٥١٦) للألباني، وانظر التخريج المتقدم (٦٥).

العدل في الإنفاق

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

[الإسرَاء: الآية ٢٩] .

لما أمرنا تعالى بالإنفاق علمنا كيف ننفق، وبين لنا أدب الإنفاق في هذه الكلمات.

شبهت حالة وهيئة البخيل المسيك الذي لا يكاد يرشح بشيء، ولا يقدر لبخله على إخراج شيء من ماله، بحالة وهيئة الذي جعل يده مغلولة مجموعة بغلٍّ إلى عنقه. فذاك لا تتوجه نفسه للبذل ولا تمتد يده للعطاء، وهذا لا تمتد يده للتصرف.

ونقل الكلام المركب الدال على المشبه به فاستعمل في المشبه على طريق الاستعارة التمثيلية لتقبيح حالة البخيل.

والمعنى: لا تبخل بالنفقة في حقوق اللّه، ولا تمسك إمساك المغلولة يده الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء.

وشبهت حالة المسرف الذي لا يُبقي على شيء بحالة الشخص الباسط لكفيه، فلا يمسكان عليه من شيء، فذلك يملك المال ولكنه بسرفه لا يبقى له منه شيء، وهذا قد يمر الشيء على يده، ولكنه لا يبقى فيها شيء.

ونقل المركب الدال على المشبه به إلى المشبه استعارة تمثيلية أيضًا.

والمعنى: ولا تخرج جميع ما تملك مع حاجتك إليه ولا تنفق جميع مالك.

وبهذا يعلم أن كل البسط المنهي عنه هنا غير التبذير المنهي عنه في الآية المتقدمة، ذاك توزيع المال وتبديده في غير وجوهه، وهذا التجاوز في الإنفاق المطلوب والتوسع في الإنفاق المأذون حتى يبقى بلا شيء.

نهى تعالى بهذه الآية عن طرفي الإفراط والتفريط، وهما الإسراف والتقتير.

فالمأمور به هو العدل الوسط، فعلى ذي المال أن يأخذ في إنفاقه بهذا الميزان ليكون إنفاقه محمودًا. فلا يمسك عما يستطيع ولا يتجاوزه إلى ما لا يستطيع أو إلى ما يوقعه في عسر وضرر.

وكان النهي عن كل البسط لأنه هو الذي فيه إسراف، وأما أصل البسط الذي هو توسعة بحكمة فغير منهي عنه لأنه لا ضرر فيه.

وحذَّر تعالى من سوء عاقبة الإسراف والتقتير بقوله: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

فالبخيل الممسك ملوم من اللَّه تعالى ومن العباد إذا لم تلمه نفسه الخبيثة لموت قلبه. على أنه سيلوم هو نفسه بعد الموت.

والمسرف ملوم من الجميع ومن نفسه بعد ضياع ما في يده.

والمحسور: المتعب المضنى الذي انكشفت عنه القوة ولم تبق به قدرة على شيء.

تقول العرب: حسرت البعير، أي أنضيته وأتعبته بالسير حتى لم تبق به قدرة عليه.

والجمل لا يقطع الطريق ويصل إلى الغاية إلا إذا حافظ صاحبه على ما فيه من قوة فسار به سيرًا وسطًا.

أما إذا أجهده واستنزف قوته فإنه يسقط كليلًا محسورًا، فلا قطع طريقه، ولا وصل منزله، ولا أبقى جمله.

فكذلك الإنسان في طريق هذه الحياة محتاج إلى قوة المال، فإذا أنفقه بحكمة نفع به وانتفع، وبلغ غاية حياته هادئًا راضيًا، وإذا بسط يده فيه كل البسط أتى عليه فانقطع النفع والانتفاع، ولم يبلغ غاية حياته إلا بأتعاب ومشاق.

وعلم من هذا أن قوله: ﴿مَلُومًا﴾ يرجع للمقتر والمسرف، وقوله: ﴿مَّحْسُورًا﴾ يرجع للمسرف فقط.

ولكن لما كان المحسور هو الذي ذهبت قوته فلا قدرة له على شيء، فقد نقول إن البخيل أيضًا مبغوض من الناس مخذول منهم، فلا يجد في ملماته معينًا ولا في نوائبه معزيًا، فهو أيضًا ضعيف الجانب لا قوة له.

فالمسرف ضيع المال. والبخيل ضيع الإخوان، فكلاهما مكسور الظهر، عديم الظهير.

والمخاطب بهذا الخطاب إما مفرد غير معين، فيشمل جميع المكلفين غير النبي ﷺ، لأنه كان يأخذ لعياله قوت سنتهم حين أفاء اللّه عليه النضير

وفدك وخيبر، ثم يصرف ما بقي في الحاجات حتى يأتي أثناء الحول وليس عنده شيء، وما كان ملومًا ولا محسورًا، بل كان على ذلك صبارًا شكورًا مشكورًا.

وإما هو النبي ﷺ، والمراد أمته، وعادة العرب أن تخاطب سيد القوم، تريد القوم، وتعبر بالمتبوع عن أتباعه.

ونظير هذه الآية في ذلك: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يُونس: الآية ٩٤].

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٥].

فالنبي ﷺ غير داخل في هذا الخطاب بإجماع، وقد تقدم قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ [الإسرَاء: الآية ٢٣]، يعني الوالدين، وكان والداه -عليهما الرحمة-(١) قد توفيا، فلم يدخل في الخطاب قطعًا، فكذلك هنا.

قال الإمام ابن العربي - في تعليل عدم دخوله ﷺ في هذا الخطاب:

«لما هو عليه من الخلال والجلال، وشرف المنزلة، وقوة النفس على الوظائف، وعظيم العزم على المقاصد.

فأما سائر الناس فالخطاب عليهم وارد، والأمر والنهي - كما تقدم - إليهم متوجه، إلا أفرادًا خرجوا من ذلك بكمال صفاتهم وعظيم أنفسهم، منهم أبو بكر الصديق خرج عن جميع ماله للنبي ﷺ[٧٢]، فقبله منه اللَّه سبحانه،

---

(١) لازم الدعاء لهما بالرحمة أنهما توفيا مسلمين، والتحقيق خلاف ذلك كما سيأتي في (٢/ ٢٧٨-٢٨٢).

[٧٢] حسن:

أخرجه أبو داود (١٦٧٥) والترمذي (٣٦٨٤) والدارمي (١/ ٣٩١-٣٩٢) والحاكم (١/ ٤١٤) عن=

وأشار على أبي لبابة[٧٣] وكعب[٧٤] بالثلث من جميع مالهم لنقصهم عن هذه المرتبة في أحوالهم.

= عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:
أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالًا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي: فقال رسول اللَّه ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله. وأتى أبو بكر بكل ما عنده. فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم اللَّه ورسوله، قلت: واللَّه لا أسبقه إلى شيء أبدًا».
وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».
وقال الحاكم: «حديث صحيح على شرط مسلم». ووافقه الذهبي!
قلت: وإسناده حسن على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال مسلم غير هشام بن سعد المدني فإنه «صدوق له أوهام» كما قال الحافظ في «التقريب» واللَّه أعلم.

[٧٣] ضعيف منكر:
أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٢-٤٥٣و٥٠٢) من طريق ابن شهاب أن الحسين بن السائب بن أبي لبابة أخبر أن أبا لبابة بن عبد المنذر لما تاب اللَّه عليه، قال: يا رسول اللَّه، إن من توبتي أن أهجر دار قومي، وأساكنك، وإني أنخلع من مالي صدقة لِلَّه ولرسوله، فقال الرسول ﷺ: «يجزئ عنك الثلث».
ومن هذا الوجه أخرجه ابن حبان (٨٤١- الموارد) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ١٨١) بنحوه.
وأخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (٣/ ٦٨-٦٩/ برقم: ١٠٥٨- شرح الزرقاني) عن عثمان بن حفص بن عمرو بن خلدة عن الزهري بلاغًا.
قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله في «التمهيد» (١/ ٣٢٨- فتح البر للمغراوي):
«ولا يتصل حديث أبي لبابة - فيما علمت - ولا يستند - وقصته مشهورة في السير محفوظة».
وقال العلامة الألباني رحمه الله في «ضعيف موارد الظمآن» (٩٧-٨٤١):
«منكر: والمحفوظ أن صاحب القصة كعب بن مالك - تخريج المشكاة (٣٤٣٩)».

[٧٤] صحيح:
أخرجه أبو داود (٣٣١١- عون المعبود) من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن كعب عن أبيه عن جده في قصته، قال:
قلت: يا رسول اللَّه، إن من توبتي إلى اللَّه أن أخرج من مالي كله إلى اللَّه وإلى رسوله صدقةً. =

وأعيان من الصحابة كانوا على هذا فأجراهم النبي ﷺ عليه، وائتمروا بأمر اللَّه واصطبروا على بلائه، ولم تتعلق قلوبهم بدنيا، ولا ارتبطت أبدانهم بمال منها، وذلك لثقتهم بموعود اللَّه في الرزق وعزوب أنفسهم عن التعلق بغضارة الدنيا.

وقد كان من أشياخي من ارتقى إلى هذه المنزلة فما ادخر قط شيئًا لغدٍ، ولا نظر بمؤخر عينه إلى أحد، ولا ربط على الدنيا بيد»[1].

فههنا ثلاثة أصناف من الخلق: الأعم الأكثر، وهم أهل الحظوظ البشرية، والقليل وهم الذين ضعفت فيهم حظوظهم، والأقل الأندر وهم الذين زالت منهم تلك الحظوظ.

وقد أفادتنا السنَّة العملية المتقدمة في كلام الإمام ابن العربي أن لأهل الصنف الثاني أن يخرجوا عن كثير من أموالهم على مقدار ما بقي من حظوظهم، وأن لأهل الصنف الثالث أن يخرجوا منها كلها، وأما أهل الصنف

= قال: «لا»، قلت: فنصفه؟ قال: «لا»، قلت: فثلثه؟ قال: «نعم». قلت: فإني سأمسك سهمي من خيبر.

وإسناده حسن: رجاله ثقات غير ابن إسحاق - وهو محمد بن إسحاق بن يسار صاحب «السيرة» - ف «صدوق يدلس» لكنه صرح بالتحديث فأمن تدليسه.

وقد تابعه ابن عيينة: أخرجه ابن مردويه كما في «الفتح» (٨/ ١٥٤) لابن حجر.

وتابعه أيضًا عقيل -وهو ابن خالد-: أخرجه البخاري (٢٧٥٧و٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) مطولًا دون تعيين لقدره.

ويونس عند البخاري (٤٦٧٦) ومسلم أيضًا؛ وغيرهم.

وبهذه المتابعات يرتقي الحديث إلى درجة الصحة، واللَّه أعلم.

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٢٠٤، ١٢٠٥).

الأول فلا يخرجون عن الوسط الذي بينته الآية .

وقد جاءت الآية الكريمة على مقتضى حال الأعم الأكثر لأنها قاعدة عامة في سياسة الإنفاق ، وشأن القواعد العامة أن يعتبر فيها جانب الأعم الغالب ، ولا يلتفت للنادر .

وقد وكل للنبي ﷺ بيانه فجاء مبينا فيما تقدم من سنته ، وتقررت القاعدة واستثناؤها من الكتاب والسنة ، وهما مصدر التشريع .

* * *

تفاوت الأرزاق من حكمة الخلاق

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٠].

لما أرشدنا تعالى إلى السلوك الأقوم في العمل في باب الإنفاق؛ أرشدنا إلى العقد الصحيح في مسألة تفاوت الأرزاق، وفي ذلك تمام الهداية إلى الاستقامة في الظاهر والباطن.

وأن أحوال العباد في الغنى والفقر، والسَّعة والضيق، وتعاقبها عليهم بسرعة وبمهل، وتفاوتهم فيها لما يخفى ولما يظهر من العلل - لأمر عجب عجاب يحيِّر الألباب.

فعلَّمنا اللَّه تعالى في هذه الآية أن الرب وهو الذي يربي المربوب في أحواله وأطواره بمقتضى الصلاح والصواب هو الذي يبسط ويوسع على من يشاء - ولا يشاء إلا ما هو حق وعدل وصواب وإن خفي علينا وجهه - ويقدر، أي يضيق على من يشاء، وكل أحد هو حقيق بالحال الذي هو فيه.

وأنه كان بعباده خبيرًا: مطلعًا على دواخل أمورهم وبواطن أسرارهم من أنفسهم، ومما يرتبط بهم ومن سوابقهم ومصائرهم.

بصيرًا: منكشفة له جميع أمورهم.

وكما أنه بالعمل بآية الإنفاق ينتظم أمر العباد في معاشهم، كذلك بالإيمان بهذه العقيدة تزول حيرتهم وتطمئن قلوبهم فيما يرونه من أحوال

الرزق في أنفسهم وفي غيرهم. والله يبصر القلوب ويقوِّم الأعمال، إنه سميع مجيب[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٦ م٦)، غرة صفر ١٣٤٩هـ - جويلية ١٩٣٠م.

حفظ النفوس
بحفظ النسل وحفظ الفرج وعدم العدوان

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٣١ - ٣٣].

إن الأرواح الإنسانية كريمة الجوهر لأنها من عالم النور، فقد خُلقت من نفخ الملك، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه الثابت في «الصحيح»:

«إن أحدكم يُجمَع خَلقُه في بطن أمه أربعين يومًا نطفةً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسَل إليه الملك فينفخ فيه الروح.. إلخ»[٧٥].

---

[٧٥] صحيح:

رواه البخاري (٣٢٠٨و٣٣٣٢و٦٥٩٤و٧٤٥٤) ومسلم (٢٦٤٣) وأبو داود (٤٦٩٤) والترمذي (٢١٤٢) وقال: «حسن صحيح» والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٦٦/ ١١٢٤٦) وابن ماجه (٧٦) وأحمد (١/ ٣٨٢و٤١٤و٤٣٠) وغيرهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق -:

«إن أحدكم يُجمَع خَلقُهُ فِي بَطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقةً مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغةً، مثل ذلك، ثم يُرسَل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فو الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم يعمل بعمل أهل النار حتى=

والملائكة - كما في «الصحيح» - خُلقوا من النور»[٧٦].

وأنها كريمة الخلقة أيضًا لأنها فطرت على الكمال، ولذا أضافها اللَّه تعالى إلى نفسه في معرض الامتنان في قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السَّجدَة: الآية ٩]، دع ما يطرأ عليها بعد اتصالها بالبدن من تزكية ترقى بها في معارج الكمال، أو تدسية تنحط بها إلى أسفل سافلين، وبعد ارتباطها بالبدن يتكون منهما المخلوق العظيم العجيب المسمى بالإنسان، الذي جعله اللَّه تعالى خليفةً في الأرض ليعمرها ويستثمرها، ويعبرها إلى دار الكمال الحق والحياة الدائمة الأبدية.

هذه النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها بإيجاب حفظها، فكان حفظها أصلًا قطعيًا، وكليةً عامة في الدين، وجاءت هذه الآيات في تقرير هذا الحفظ من وجوه ثلاثة سنتكلم عليها واحدًا واحدًا:

(١) - حفظ النسل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ

= ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

والسياق لمسلم.

قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٥٣):

«هذا الحديث متفق على صحته، وتلقته الأمة بالقبول».

(تنبيه): قال الحافظ في «الفتح» (١١/ ٥٨٤):

«ووقع عند أبي عوانة من رواية وهب بن جرير عن شعبة مثل رواية آدم لكن زاد: «نطفة» بين قوله: «أحدكم» وبين قوله «أربعين» فبين أن الذي يجمع هو النطفة...».

[٧٦] صحيح:

أخرجه مسلم (٢٩٩٦) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم:

«خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارجٍ من نارٍ، وخُلق آدم مما وصف لكم».

كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٣١] .

العرب في زمان البعثة هم المخاطَبون قبل الناس بالقرآن، وهم المأمورون أول الناس - لعموم الرسالة - بالبلاغ، وعلى اهتدائهم كان يتوقف اهتداء غيرهم، فمن الحكمة توجه القصد إلى تطهيرهم من مفاسدهم.

وقد كانوا في الجاهلية منهم من يقتل البنات خشية الفقر وليوفر ما ينفق عليهن لينفقه على نفسه وبيته وبنيه، ويرى النفقة عليهن ضائعة لأنه لا ينتظر منهن سعيًا للكسب ولا نصرةً على العدو، وهذه هي الموءودة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: الآية ٨-٩].

على أنه قد كان من ساداتهم من يحيي الموءودة، فيشتريها من عند أبيها وينجيها من القتل، كزيد ابن نفيل القرشي[1] أبي سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين ﷺ، وصعصعة بن ناجية التميمي[2] الصحابي، جد الفرزدق الشاعر المشهور.

وقد كان قتل البنات شائعًا فيهم مستفيضًا، ومنهم - كما في «لسان العرب»[3] - من كان يئد البنين عند المجاعة، فجاء النهي عن القتل في الآية متعلقًا بلفظ الولد شاملًا للبنات والبنين، ومعه السبب الذي كان يحملهم على القتل، وهو خشية الإملاق: أي خوف الفقر والإقتار.

(١) انظر «صحيح البخاري» (٣٨٢٨)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ١٢٨) للذهبي، و«الإصابة» (٢٩٣٠) للحافظ.

(٢) ترجمته في «الإصابة» (٤٠٨٨).

(٣) في (١٥/ ١٣٦).

والمملق هو الذي خرج ماله من يده فلم يبق بها شيء، ومن مادته الملقة، وهي الصفاة الملساء[١].

فنهوا عن هذا القتل الفظيع مع ذكر سببه لتصوير حالتهم بوجه تام، وليتخلص من ذكر السبب إلى إبطاله ورده.

معالجة هذه الرذيلة؛ بإبطال سببها، وعظيم قبحها، وسوء عاقبتها:

أبطل تعالى خوفهم من الفقر بقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، فأخبر أن رزق الجميع عليه، وأنه متكفل برزق خلقه بما يسر لهم من أسباب جلية أو خفية، لا فرق في ذلك بين الذكر والأنثى، والكبير والصغير.

كما أنه تعالى هو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، كما في الآية السابقة، فهما مرتبطان بهذه المناسبة.

ومن ضلالهم أنهم نظروا إلى قوة الكبير فحسبوه مرزوقًا من نفسه فهداهم بقوله: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ إلى أن الكبار مرزوقون من اللَّه بتقديره وتيسيره.

ولما كان لا فرق بين الكبير والصغير في الحاجة إلى لطف اللَّه وضمان الرزق من اللَّه، فلا وجه لخوف الفقر من وجود الأولاد وكثرتهم، لأنه ما من واحد منهم إلا ورزقه مضمون من خالقه ﷻ.

وبيَّن تعالى فظاعة هذا القتل بقوله: ﴿أَوْلَٰدَكُمْ﴾ بإضافة الأولاد إليهم، فإن الأولاد أفلاذ الأكباد، وبضعة من لحم المرء ودمه، ونسخة من ذاته، فمحبتهم فطرة، والعطف التام عليهم خلقة، فكيف يكون قبح وفظاعة فعل من بلغ بهم

(١) انظر «لسان العرب» (١٤/ ١٢٥).

القتل؟

وأي خير يرجى من قاتل ولده لغيره من الناس بعد ما جنى أفظع الجنايات على ألصق الناس به؟

وبيَّن تعالى سوء العاقبة لهذا القتل بقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾: أي إثمًا كبيرًا، لما فيه من قتل النفس، وقطع النسل، وهلاك الجنس، وخراب العمران، وسوء الظن باللَّه، وعدم خشيته، وعدم الشفقة على خلقه.

يقال: خطئ يخطأ خِطئًا، إذا قصد الفعل القبيح ففعله.

وأخطأ يخطئ خطأً، إذا قصد شيئًا فأصاب غيره.

ومن مثل وعيد الآية ما ثبت في «الصحيح» عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل أي ذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل للَّه ندًّا وهو خلقك**» قال: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»[٧٧].

عموم حكم الآية وترغيبها:

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والحكم يعم بعموم اللفظ، كما أن ذكر سبب القتل في الآية لا يقتضي التخصيص، لأنه ذكر لتصوير الحال الذي كانوا عليه، فالقتل حرام لأي سبب كان.

---

[٧٧] صحيح:

رواه البخاري (٤٤٧٧ و٤٧٦١ و٦٠٠١ و٦٨١١ و٦٨٦١ و٧٥٢٠ و٧٥٣٢) ومسلم (٨٦) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه، وزادا في آخره:

«قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك».

وهذا الفعل الذي كان في الجاهلية على الوجه المتقدم، وهو فعل مؤدٍّ إلى قطع النسل وخراب العمران، لا تسلم منه الأمم الأخرى في مختلف الأزمنة والبلدان، إما بالقتل بعد الولادة، وإما بإفساد الحمل بعد التخليق(١)، وهو حرام باتفاق.

وقد يكون بالامتناع من التزوج أو بعدم الإنزل في الفرج وهو العزل(٢).

والآية كما نهت عن القتل قد رغبت في النسل بذكر ضمان الرزق، فعلى المؤمن أن يسعى لذلك من طريقه المشروع وأن يتلقى ما يعطيه اللّٰه من نسل، ابنٍ أو بنتٍ، بفرحٍ لنعمة اللّٰه وثقةٍ برزق اللّٰه وإيمان بوعده.

(٢) - حفظ الفرج: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٢].

في الزنى إراقة للنطفة وسفح لها في غير محلها، فلو كان منها ولد لكان مقطوع النسب، مقطوع الصلة، ساقط الحق.

فمن تسبب في وجوده على هذه الحالة فكأنه قتله.

ولهذا بعد ما نهى عن قتل الأولاد نهى عن الزنى الذي هو كقتلهم لأنه

---

(١) أي: بعد نفخ الروح فيه.

(٢) وهو جائز لحديث جابر ﷺ قال: «كُنا نعزل والقرآن ينزل». أخرجه البخاري (٥٢٠٩)، ومسلم (١٤٤٠).

وفي رواية له: «كنا نعزل على عهد رسول اللّٰه ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فلم ينهنا».

لكن الأولى تركه؛ لقوله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم». أخرجه أبو داود (٢٠٤٩) وغيره، وصححه الحاكم (٢/ ١٦٢) ووافقه الذهبي.

سبب لوجودهم غير مشروع.

قال الجوهري[١]: «قربته أقربه قربانًا، أي (دنوت منه)».

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ أبلغ في النهي من (ولا تزنوا) لأنه بمعنى: ولا تدنوا من الزنى.

وأفاد هذا تحريم الزنى وتحريم الدنو منه، لا بالقلب ولا بالجوارح.

فقد جاء في «الصحيح»: «**كُتب على ابن آدم نصيبُه من الزنى، فهو مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليدان زناهما البطش، والرجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه**»[٧٨].

فزنى هذه الجوارح دنو من الزنى الحقيقي ومؤد إليه.

وقد حمى الشرع الشريف العباد من هذه الفاحشة بما فرض من الحجاب الشرعي، وهو ستر الحرة ما عدا وجهها وكفيها، وجمع ثيابها عند الخروج بالتجلبب، وبما حرم من تطيب المرأة، وقعقعة حُليِّها عند الخروج، وخلوتها بالأجنبي، واختلاط النساء بالرجال، فتظافر النهي والتشريع على إبعاد الخلق عن هذه الرذيلة.

والمسلم المسلم مَن تحرَّى مقتضى هذا النهي وهذا التشريع في الترك والابتعاد.

---

(١) في الصحاح (١/ ١٩٨).

[٧٨] صحيح:

رواه البخاري (٦٢٤٣و٦٦١٢) ومسلم (٢٦٥٧) - واللفظ له - من حديث أبي هريرة.

معالجة هذه الرذيلة بتقبيحها وسوء عاقبتها:

بيَّن تعالى قبحها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾.

والفاحشة: هي الرذيلة التي تجاوزت الحد في القبح.

وعظم قبح الزنى مركوز في العقول من أصل الفطرة، كان ولم يزل كذلك معروفًا.

ومن رحمة اللَّه تعالى بخلقه أن ركز في فطرهم إدراك أصول القبائح والمحاسن ليسهل انقيادهم للشرع عندما تدعوهم الرسل إلى فعل المحاسن وترك القبائح، وتأتيهم بما هو معروف في الحسن أو القبح لهم، فتبين لهم حكم اللَّه فيه وما لهم من الثواب أو العقاب عليه.

وبين تعالى سوء عاقبة الزنى بقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي بئس طريقًا طريقه، طريق مؤد إلى شرور ومفاسد كثيرة في الدنيا، وعذاب عظيم في الأخرى، فهو طريق إلى هلاك الأبدان، وفساد الأعراض، وضياع الأموال، وخراب البيوت، وانقطاع الأنساب، وفساد المجتمع وانقراضه، زيادة على ما فيه من معنى القتل للنفوس الذي تقدم في صدر الكلام...

فعلى المؤمن إذا وسوس له الشيطان بهذه الرذيلة أن يتعوذ باللَّه منه، ويستحضر قبحها، والمفاسد التي تجر إليها، والإثم الكبير الذي يعقبها، وقبل ذلك كله حرمة النهي الشرعي عنها، فيكون ذلك له - بإذن اللَّه - وقاية منها...

(٣) عدم العدوان:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٣] .

جاء أسلوب هذه الآيات تدرجًا من الخاص إلى العام ، فقتل الأولاد قتل للنفس التي حرَّم اللَّه ، والزنى كالقتل للنفس كما قدمناه ، وجيء هنا بالنهي الصريح عن قتل النفس ، وأكد مقتضى النهي بوصف النفس بقوله : ﴿ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ والتحريم هو المنع ، فحرم اللَّه معناه منع اللَّه ، والتقدير حرم اللَّه قتلها ، فحذف لدلالة : «لَا تَقْتُلُوا» عليه ، فالمنهي عنه هو القتل ، والمحرم هو القتل ، فتأكد المنع بالنهي والتحريم .

وفي إسناد التحريم إلى اللَّه بعث للنفوس على الخشية من الإقدام على المخالفة ، وتنبيه لها على ما يكفُّها عن الإقدام ، وهو استشعار عظمة اللَّه .

القتل المحرم:

وبيَّن تعالى بقوله : ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أن القتل المحرم هو القتل بالباطل ، وأن القتل بالحق ليس بمنهي عنه .

وبيَّن الحق في الحديث الصحيح بقوله ﷺ : «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الزاني الثيب، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[٧٩] في غير هذه الثلاث مما جاء في بيانات أخرى عند بعض الأئمة ،

---

[٧٩] صحيح :

رواه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه . =

ويرجع إلى إحدى هذه الثلاث، أو يقال بتقدم هذا الحصر في الورود عليها.

وهذا القتل الحق لا يتولاه أفراد الناس في بعضهم، إنما يتولاه الإمام الذي إليه القيام بتنفيذ الأحكام وفصل الحقوق.

الردع عن العدوان بشرع القصاص:

القتل وسفك الدم عمل قديم في البشر، فلهم - على الجملة - ضراوة عليه وإلف به، وأعظم ما يكف الشخص عن نفس أخيه خوفه على نفسه، فلذلك شرع اللَّه تعالى القصاص بين النفوس، وبين تعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

المظلوم من قتل عمدًا عدوانًا. والولي هو القريب، والسلطان هو التسلط.

والمعنى: ومن قتل عمدًا عدوانًا، فقد جعلنا لقريبه تسلطًا بتمكينه من القصاص.

= وله شاهد من حديث عثمان بن عفان: أخرجه أبو داود (٤٤٩١) والترمذي (٢١٦٣) وقال: «حديث حسن» والنسائي (٧/ ٩١-٩٢و١٠٣و١٠٤) وابن ماجه (٢٥٣٣) وأحمد (١/ ٦١-٦٢و٦٣و٦٥و٧٠) والحاكم (٤/ ٣٥٠) وقال: «صحيح على شرط الشيخين». ووافقه الذهبي، وصححه الحافظ في «الفتح» (١٢/ ٢٥١).

وآخر من حديث عائشة: أخرجه مسلم (١٦٧٦) (٢٦) - ولم يسق لفظه - والنسائي (٧/ ١٠١-١٠٢و٨/ ٢٣) والحاكم (٤/ ٣٦٧) وأحمد (٦/ ٥٨و١٨١و٢٠٥و٢١٤) من طرق عنها، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

وفي الباب عن جابر وعمار بن ياسر، أخرجهما الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٥٢و٢٥٣) فليراجعه من شاء.

لا يحفظ النفوس إلا العدل:

كفاء النفس نفس، فلا يقتل إلا القاتل بما قتل، دون غيره ودون تمثيل به، وبين تعالى هذا بقوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ أي لا يتجاوز القصاص المشروع، لأن الإسراف ظلم ومثير للحفائظ؛ فيتسلسل الشر.

تسكين نفس الموتور:

الموتور هو من قُتل قريبه، ولفقد القريب لوعة ربما تذهب بالنفس إلى شر غاية، فذكر بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾، فإن قريب المقتول قد نصره اللَّه بما جعل له من القصاص، فإذا لم يستوف له في الدنيا، استوفى له في الأخرى.

والمؤمن بيقينه لا يرى يوم القيامة إلا قريبًا. وكفى باللَّه حسيبًا[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٧، م٦) غرة ربيع الأول ١٣٤٩هـ- أوت ١٩٣٠م.

حفظ الأموال باحترام الملكية

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء: الآية ٣٤].

مال الشخص: هو ما كان ملكًا له.

واليتيم: هو من عدم أباه، من اليتم، بمعنى الانفراد، ومنه الدرة اليتيمة.

ومن عدم أباه فقد عدم ناصره، فإذا بلغ النكاح فقد بلغ القوة فاستغنى عن الناصر، فلا يقال فيه يتيم في اللغة[1].

واعتبر الشرع الشريف وجود قوة العقل فمنع استقلاله ودفع ماله إليه بعد البلوغ حتى يؤنس منه الرشد.

والتي هي أحسن: الفعلة والخصلة التي هي أنفع.

والبلوغ إلى الشيء: الوصول والانتهاء إليه.

والأشدُّ: جمع شدَّة، كأنعم جمع نعمة، فالأشد هو القوي، وبلوغ الأشد هو بلوغ القوى والوصول إلى الحالة التي تحصل فيها القوى للإنسان، القوى البدنية والقوى العقلية، ولا يقال في الشخص قد بلغ أشده إلا إذا حصل على قواه من الجهتين.

فأما القوى البدنية فعلامة حصولها هو البلوغ.

---

(١) وكذلك في الشرع؛ لقوله ﷺ: «لا يُتْمَ بعد احتلام». أخرجه أبو داود (٢٨٧٠) عن علي رضي الله عنه، وحسنه النووي في «رياض الصالحين» (١٨٩٠)، وفي «المجموع شرح المهذب» (٦/ ٤٢٢).

وأما القوى العقلية فعلامة حصولها هو الرشد الذي يظهر في حسن التصرف.

وقد جمع العلامتين قوله تعالى في سورة النساء: -

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٦].

فابتداء الأشد من البلوغ إذا كان معه رشد، ولا يزال يتدرج حتى يستكمل في الأربعين كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: الآية ١٥].

فالأربعون هي سن الاستكمال والاستواء والتمام في القوى، وهي السن التي بعث اللَّه فيها النبي ﷺ للعالمين بشيرًا ونذيرًا، ولا يزال الإنسان في قوته - ما لم تعرض الطوارئ - إلى الخمسين، قال الشاعر[1]:

أخو الخمسين مجتمعُ أَشُدِّي ونجّذني مداورة الشؤون

ثم يأخذ في التراجع.

مال المرء قطعة من بدنه، ويدافع عنه كما يدافع عن نفسه، وبه قوام أعماله في حياته.

فالأموال مقرونة بالنفوس في الاعتبار، فقرنت في النظم آية حفظ الأموال بآيات حفظ النفوس، كما قرن بينهما النبي ﷺ في قوله: «**فإن دماءكم**

(١) هو سُحيم، عبدُ لبني الحسحاس بطن من بني أسد، شاعر مخضرم مشهور، عاش إلى أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر «الإصابة» (٣٦٧٨) للحافظ، و«الأعلام» (٣/ ٧٩) للزركلي.

وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»[٨٠].

---

[٨٠] صحيح:

قطعة من الحديث الطويل في خطبته ﷺ في حجة الوداع، رواه جمع من أصحابه ﷺ، منهم:

١- أبو بكرة: أخرجه البخاري (٦٧و١٠٥و١٧٤١و٤٤٠٦و٥٥٥٠و٧٠٧٨و٧٤٤٧) ومسلم (١٦٧٩).

٢- جابر بن عبد اللَّه: أخرجه مسلم (١٢١٨) وليس فيه «وأعراضهم».

٣- عبد اللَّه بن عمر: أخرجه البخاري (١٧٤٢).

٤- عبد اللَّه بن عباس: أخرجه البخاري (١٧٣٩).

٥- أبو سعيد الخدري: أخرجه ابن ماجه (٣٩٣١) وأحمد (٣/ ٨٠) وصححه البوصيري وليس فيه «أعراضكم».

٦- عبد اللَّه بن مسعود: أخرجه ابن ماجه (٣٠٥٧) وليس فيه «وأعراضكم» وصححه البوصيري.

٧- عمرو بن الأحوص: أخرجه الترمذي (٢١٦٤و٣٠٩٦) وقال: «حسن صحيح» والنسائي في «الكبرى (٤١٠٠) وابن ماجه (٣٠٥٥).

٨- نُبيط بن شريط: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٤٠٩٧) وأحمد (٤/ ٣٠٥-٣٠٦) وإسناده صحيح.

٩- أبو غادية الجهني: أخرجه أحمد (٤/ ٧٦) ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٨٤).

١٠- العداء بن خالد: أخرجه أحمد (٥/ ٣٠).

١١- عم أبي حرة الرقاشي: أخرجه أحمد (٥/ ٧٢-٧٣) وفيه علي بن زيد بن جدعان ضعيف، لكنه حسن في الشواهد.

١٢- رجل من أصحاب النبي ﷺ: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٤٠٩٩) وإسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، واللَّه أعلم.

١٣- حِذْيم بن عمرو الساعدي: أخرجه النسائي وابن حبان في «صحيحه» - كما قال الحافظ في «الإصابة» (٢/ ٤١/ ١٦٥٧) - من طريق موسى بن زياد بن حذيم عن أبيه عن جده.

وهذا إسناد ضعيف، موسى بن زياد «لا يعرف كأبيه» كما قال الذهبي في «الميزان» (٤/ ٢٠٥)، وأشار الحافظ في «التقريب» لذلك بقوله في ترجمة كُلٍّ منهما: «مقبول» يعني عند المتابعة وإلا فلين الحديث.

=

نهى تعالى عن قربان مال اليتيم إلا بالوجه الذي هو أنفع، فلابُدَّ لكافل اليتيم من النظر والتحري عند التصرف في ماله حتى يعرف ما هو ضار وما هو نافع، وما هو ضار ولا نافع، وما هو أنفع، فلا يتصرف إلا بما هو نافع. فإذا تعارض وجهان نافعان تحرَّى أنفعهما لليتيم.

وفي هذا النهي - بطريق الأحرى - تحريم أخذ مال اليتيم بالباطل والتعدي عليه ظلمًا.

ومثل اليتيم في وجهي النهي المتقدمين غيره، فكل ذي ولاية أو أمانة على مال غيره يجب عليه أن يتحرَّى التحري[1] المذكور.

كما يحرم على كل أحد أن يتعدى على مال غيره.

وإنما خص اليتيم بالذكر لأنه ضعيف لا ناصر له، والنفوس أشد طمعًا في مال الضعيف، فالعناية به أوكد، والعقوبة عليه أشد.

ومن تأدب بأدب الآية في مال الضعيف، كاليتيم، كان حقيقا أن يتأدب بأدبها في مال غيره.

ومن بليغ إيجاز القرآن في بيانه أنه يذكر الشيء ليدل به على نظيره، أو الذي هو أحرى بالحكم منه، أو لكون امتثال الحكم الشرعي فيه داعيًا إلى

= لكن الحديث صحيح لشواهده المتقدمة.

وفي الباب أحاديث أخر أخرجها الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٦٥-٢٧٣) فليراجعها من شاء.

(١) في الأصل: التحرير.

امتثاله في غيره بالمساواة أو الأحروية .

وأجاز تعالى لولي اليتيم أن يتصرف في ماله بالاستثناء في قوله : ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ، فيجوز له تنميته لليتيم بوجوه التجارة .

الولاية والاستقلال:

الولاية على اليتيم واستقلاله حالتان كلتاهما حق وخير إذا كانت كل واحدة منهما في وقتها المناسب لها .

وكل واحدة منهما تكون ظلمًا وشرًا إذا كانت في غير وقتها .

فلذلك بين تعالى الحالتين ووقتهما بما قبل (حتى) وما بعدها .

فوقت عدم بلوغ الأشد هو وقت الولاية، فمن الفروض الكفائية على الأمة أن يكون أيتامها مكفولين غير مهملين .

ووقت بلوغ الأشد - ببلوغ الحلم والرشد - هو وقت استقلال من كان يتيمًا، ووقت دفع ماله إليه، فلا يجوز حينئذ الاستيلاء على ماله والسيطرة عليه .

* * *

الوفاء بالعهد

﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤].

أوفى بعهده: إذا أتى بما التزم تامًّا وافيًا.

والعهد: من عهد إليه بالشيء إذا أعلمه به.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: الآية ١١٥] أي أعلمناه.

فالعهد هو الإعلام بالالتزام، أو الإعلام بما يلتزم.

فمن الأول: عاهدت زيدًا على كذا. أي أعلمته بالتزامي له، وتعاهد القوم على الموت، أي أعلم بعضهم بعضًا بالتزامه.

ومن الثاني: عهد اللَّه إلى العباد أي إعلامهم بما عليهم أن يلتزموه.

وقول عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنه: «الدينار بالدينار، والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما، هذا عهد نبينا إلينا، وعهدنا إليكم»[٨١] أي إعلامه لنا، وإعلامنا لكم

[٨١] صحيح:

رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٣/ ٢٧٧-٢٧٨/ ١٣٦٢- مع شرح الزرقاني) عن حميد بن قيس المكي عن مجاهد أنه قال:

كنت مع عبد اللَّه بن عمر فجاءه صائغٌ فقال له: يا أبا عبد الرحمن! إني أصوغ الذهب ثم أبيع الشيء من ذلك بأكثر من وزنه فأستفضل من ذلك قدر عمل يدي، فنهاه عبد اللَّه عن ذلك، فجعل الصائغ!؟ يردِّد عليه المسألة وعبد اللَّه ينهاه حتى انتهى إلى باب المسجد أو إلى دابة يريد أن يركبها، ثم قال عبد اللَّه بن عمر:

=

بما يلتزم.

والمسؤول: مِن سأل. وسأل: بمعنى طلب، إما طلب علمًا وإما طلب شيئًا.

فإن كانت الأولى تعدى الفعل إلى المفعول الثاني بعن، تقول: سألته عن كذا فأجابني.

وإن كانت الثانية تعدى الفعل إليه بنفسه، تقول: سألته ثوبًا فأعطانيه.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ إذا كان من الأولى فالأصل «مسؤولًا عنه» فحذف إيجازًا لظهور المراد - وإذا كان من الثاني فلا حذف، والمعنى حينئذ مطلوب أي مطلوب الوفاء به.

الوفاء بالعهد شرط ضروري لحصول السعادتين:

عهد اللَّه تعالى لعباده هو ما شرعه لهم من دينه، فوفاؤهم بعهده قيام بأعباء ذلك الدين الكريم، وانتظام شؤونهم في هذه الحياة - أفرادًا وجماعات وأممًا - متوقف على الوفاء من بعضهم لبعض بما بينهم من عهود، فالوفاء ضروري

= «الدينار... (فذكره)».

وهذا إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح، واللَّه أعلم.

وله شواهد عن:

١- أبي هريرة: أخرجه مسلم (٣/ ١٢١٢/ ١٥٨٨).

٢- علي: أخرجه ابن ماجه (٢٢٦١) والدارقطني (٣/ ٢٥) والحاكم (٢/ ٤٩) وقال: «صحيح غريب» ووافقه الذهبي.

٣- أبي أسيد الساعدي: أخرجه الحاكم (٢/ ١٩-٢٠) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، وعزاه الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١١٤) للطبراني في «الكبير» وقال: «إسناده حسن».

لنجاة العباد مع خالقهم، ولسلامتهم من الشرور والفوضى والفتن، وضروري - إذًا - لتحصيل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

ولمكانة هذا الأصل وضرورته تكرر في الكتاب والسنة الأمر به على وجه عام بين الأفراد والأمم بلا فرق بين الأجناس والملل.

وجاء هنا في آية الوصاية باليتيم، وهي آية حفظ الأموال باحترام الملكية، لوجهين:

الأول: أن الكافل لليتيم قد أعلن بكفالته - بلسان حاله - أنه ملتزم لحفظه في بدنه وماله، فهذا عهد منه يطالب بالوفاء به ويسأل عن ذلك الوفاء.

الثاني: أن الآية في حفظ الأموال وعدم التعدي على ملك أحد، والناس يتعاملون بحكم الضرورة، ويبنون تعاملهم على تبادل الثقة والعهود المبذولة من بعضهم لبعض بلسان المقال أو بلسان الحال، فأمروا بالوفاء بالعهد الذي هو أساس للتعامل، وفي ذلك سلامة مال كل أحد من التعدي عليه.

ولا ينافي هذا عموم اللفظ الذي يقتضي الأمر بالوفاء عامًّا لأنه باق على عمومه، وإنما يدخل فيه هذان الوجهان المذكوران في ارتباط النظم دخولًا أوليًّا.

ومن بديع إيجاز القرآن في نظم الآيات أن يؤتى باللفظ مفيدًا للعام ومقويًا للخاص.

الترغيب في الوفاء والترهيب من الخيانة:

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾

إذا كان مسؤول بمعنى مطلوب، أي مطلوب الوفاء به، فإنه مطلوب في الفطرة وفي الشريعة، فالعباد فطروا على استحسان الوفاء ومطالبة بعضهم بعضًا به، والشرع طالبهم بالوفاء وشرعه لهم ووعدهم الثواب عليه.

ففي قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ ترغيب لهم في الوفاء بحسنه ومشروعيته وحسن الجزاء عليه. ويتضمن هذا الترغيب بالتخويف من ترك المطلوب.

وإذا كان مسؤول بمعنى «مسؤول عنه» فإن المعنى: أن اللَّه تعالى يسأل العباد يوم القيامة عن عهودهم هل أوفوا بها ليجازيهم على الوفاء بحسن الجزاء، وعلى الخيانة بالعذاب والإهانة، «**فينصب لكل غادر لواء يوم القيامة ويقال هذه غدرة فلان**» كما جاء في «الصحيح»[٨٢].

ففي الآية على هذا - أيضًا - ترغيب وترهيب.

* * *

---

[٨٢] صحيح:

رواه البخاري (٣١٨٨و٦١٧٧و٦١٧٨و٦٩٦٦و٧١١١) ومسلم (١٧٣٥) عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.

ورواه البخاري (٣١٨٦) ومسلم (١٧٣٦) بنحوه عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

ورواه البخاري (٣١٨٧) ومسلم (١٧٣٧) عن أنس رضي الله عنه.

ورواه مسلم (١٧٣٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

إيفاء الحقوق عند التعامل

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٥].

إيفاء الكيل: إتمامه.

والقسطاس: هو الآلة التي يحصل بها الإيفاء من المكيال والميزان على تعدد أنواعهما.

والمستقيم: الصحيح الذي لا عيب فيه، وممَّا يجعله غير صالح للوفاء بالعدل، ككسره أو اعوجاجه أو أي خلل في تركيبه.

والخير: النافع.

والتأويل: مصدر أول، بمعنى رجع من آل يؤول أولًا، بمعنى رجع، وهو هنا بمعنى المرجع والمآل، أي العاقبة.

الأمر بإيفاء الكيل من موضوع ما قبله في الأمر بحفظ الأموال واحترام الملكية.

والمكيلات والموزونات مورد عظيم للتعامل، ومعرضة تعريضًا كبيرًا للبخس والتطفيف، وأخذ مال الناس بالزيادة أو بالتنقيص، إمَّا بفعل الشخص وإما بفساد الآلة، فأمر تعالى بإيفاء الكيل، وأمر باختيار الآلة الصالحة لذلك، وبين أن الوفاء يكون عند الكيل بقوله: ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ على سبيل التأكيد،

حتى لا يتأخر الوفاء عن الكيل بأن يكمل ما نقص أو يرد ما زاد، فإن الذي يفصل الحق ويطيب النفوس هو الوفاء وقت الكيل.

* * *

الترغيب في إيفاء الكيل

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾.

رغب تعالى في الإيفاء بوجهين:

الأول: أنه خير، فيفيد العدل والحق وأكل الحلال وراحة البال، وفيه حصول الثقة التي هي رأس مال التاجر، وفيه حفظ نظام التعامل الذي هو ضروري للحياة، وهذه كلها وجوه نفع وخير.

الثاني: أنه أحسن عاقبةً عاجلًا في نفس الشخص وأخلاقه، وفي عرضه وسمعته، وفي سلامته من المطالبات والمنازعات، وآجلًا بحسن جزائه عند اللَّه بما أعد للموفين من الأجر العظيم.

تركيب على هذا الترغيب:

هذا الوجهان اللذان رغب اللَّه تعالى بهما في الوفاء - ينبغي للعاقل أن يجعلها نصب عينيه في كل ما يتناوله ويعمله، فيقتصر على ما هو خير ينفعه في الحال، وحسن العاقبة بنفعه وعدم ضرره في المآل.

واللَّه يوفقنا إلى خير الأقوال والأعمال، إنه الكريم الواسع النوال[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٨، م٦) غرة ربيع الثاني ١٣٤٩هـ- سبتمبر ١٩٣٠م.

العلم والأخلاق

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٣٦ - ٣٧].

المناسبة:

العلم الصحيح والخلق المتين هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان. وبهما يضطلع بأعباء ما تضمنته الآيات المتقدمة من أصول التكليف، فهما أعظم مما تقدمهما من حيث توقفه عليهما، فجيئ بهما بعده ليكون الأسلوب من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى.

ولما كان العلم أساس الأخلاق قدمت آيته على آياتها تقدم الأصل على الفرع.

آية العلم:

المفردات والتراكيب:

القفو: اتباع الأثر، تقول: قفوته أقفوه، إذا اتبعت أثره، والمتبع لأثر شخص مُوالٍ في سيره لناحية قفاه، فهو يتبعه دون علم بوجهة ذهابه ولا نهاية سيره.

فالقفو اتباع عن غير علم، فهو أخص من مطلق الاتباع، ولذلك اختيرت

مادته هنا.

ولكونه اتباعًا بغير علم جاء في كلام العرب بمعنى قول الباطل. قال جرير:

وطال حذاري خيفة البين والنوى وأحدوثة من كاشح متقوف[1].

أي متقول بالباطل.

والعلم: إدراك جازم مطابق للواقع عن بينة، سواء كانت تلك البينة حسًّا ومشاهدةً أو برهانًا عقليًّا، كدلالة الأثر على المؤثر والصنعة على الصانع، فإذا لم تبلغ البينة بالإدراك رتبة الجزم فهو ظن، هذا هو الأصل.

ويطلق العلم أيضًا على ما يكاد يقارب الجزم ويضعف فيه احتمال النقيض جدًّا كما قال تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨١].

فسمى القرآن إدراكهم لما شاهدوا: علمًا، لأنه إدراك كاد[2] يبلغ الجزم لانبنائه على ظاهر الحال وإن كان ثَمَّ احتمال خلافه في الباطن، لأنه احتمال ضعيف بالنسبة لما شاهدوه.

والسمع: القوة التي تدرك بها الأصوات بآلة الأذن.

والبصر: القوة التي تدرك بها الأشخاص والألوان بآلة العين.

وقدم السمع على البصر لأن به إدراك العلوم وتعلم النطق، فلا يقرأ

(١) البيت في «ديوان جرير» (ص٢٨١) وفيه «غربة» بدل «خيفة»، و«يتقوَّف» بدل «متقوف».
(٢) في الأصل: كان.

ولا يكتب إلا من كان ذا سمع وقتًا من حياته .

والفؤاد: القلب، والمراد به هنا العقل من حيث اعتقاده لشيء ما، وإطلاق لفظ الفؤاد والقلب على العقل مجاز مشهور .

وكان : تفيد ثبوت خبرها لاسمها، وكونها على صورة الماضي لا يدل على انقضاء ذلك الارتباط، ومثل هذا التركيب يفيد في الاستعمال استحقاق الاسم للخبر، فالجوارح مستحقة للسؤال، ويكون ذلك بالفعل يوم القيامة .

والمسؤول : الموجه إليه السؤال ليجيب .

وأولئك إشارة إلى هذه الثلاثة، وضمير (كان) عائد على (كل)، وضمير (عنه) عائد على (ما)، وضمير (مسؤولًا) عائدٌ على ما عاد عليه ضمير (كان) .

والتقدير : كل واحد من هذه الثلاثة : السمع والبصر والفؤاد كان مسؤولًا عما ليس لك به علم .

العقل ميزة الإنسان وأداة علمه:

يمتاز الحيوان عن الجماد بالإدراك، ويمتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل، وعقله هو القوة الروحية التي يكون بها التفكير، وتفكيره هو نظره في معلوماته التي أدرك حقائقها وأدرك نسب بعضها لبعض إيجابًا وسلبًا، وارتباط بعضها ببعض نفيًا وثبوتًا، وترتيب تلك المعلومات بمقتضى ذلك الارتباط على صورة مخصوصة ليتوصل بها إلى إدراك أمر مجهول .

فالتفكير اكتشاف المجهولات من طريق المعلومات، والمفكر مكتشف ما دام مفكرًا .

ولما امتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير - امتاز عنه بالتنقل والتحول في أطوار حياته ونظم معيشته بمكتشفاته ومستنبطاته، فمن المشي على الأقدام إلى التحليق في الجو مثلًا، وبقي سائر الحيوان على الحال التي خلق عليها دون أي انتقال.

وبقدر ما تكثر معلومات الإنسان ويصح إدراكه لحقائقها ولنسبها ويستقيم تنظيمه لها - تكثر اكتشافاته واستنباطاته في عالمي المحسوس والمعقول وقسمي العلوم والآداب.

وهذا كما كان العرب والمسلمون أيام بل قرون مدنيتهم. عربوا كتب الأمم إلى ما عندهم ونظروا وصححوا واستدركوا واكتشفوا. فأحيوا عصور علم من كانوا قبلهم، وأناروا بالعلم عصرهم، ومهدوا الطريق، ووضعوا الأسس لما جاء بعدهم، فأدوا لنوع الإنسان بالعلم والمدنية أعظم خدمة تؤديها له أمة في حالها وما ضيها ومستقبلها.

وكما نرى الغرب في مدنيته اليوم ترجم كتب المسلمين فعرف علوم الأمم الخالية التي حفظتها العربية وأدتها بأمانة، وعرف علوم المسلمين ومكتشفاتهم فجاء هو أيضًا بمكتشفاته العجيبة التي هي ثمرة علوم الإنسانية من أيامها الأولى إلى عهده، وثمرة تفكيره ونظره فيها.

وقد كانت مكتشفاته أكثر من مكتشفات جميع من تقدمه، كما كانت مكتشفات صدر هذا القرن أكثر من مكتشفات عجز القرن الماضي لتكاثر المعلومات، فإن المكتشفات تضم إلى المعلومات فتكثر المعلومات فيكثر ما يعقبها من المكتشفات على نسبة كثرتها، وهكذا يكون كل قرنٍ - ما دام التفكير

عمالًا - أكثر معلومات ومكتشفات من الذي قبله.

فإذا قلَّت معلوماته قلَّت اكتشافاته. وهذا كما كان النوع الإنساني في أطواره الأولى.

وإذا كثرت معلوماته وأهمل النظر فيها بقي حيث هو جامدًا، ثم لا يلبث أن تتلاشى من ذهنه تلك المعلومات المهملة حتى تقل أو تضمحل لأن المعلومات إذا لم تتعاهد بالنظر زالت من الحافظة شيئًا فشيئًا، وهذا هو طور الجمود الذي يصيب الأمم المتعلمة في أيامها الأخيرة عندما تتوافر الأسباب العمرانية القاضية بسنة اللَّه بسقوطها.

وإذا لم يصح إدراكه للحقائق أو لنسبها، أو لم يستقم تنظيمه لها كان ما يتوصل إليه بنظره خطأً في خطأ وفسادًا في فسادٍ.

ولا ينشأ عن هذين إلا الضرر في المحسوس والضلال في المعقول.

وفي هذين هلاك الفرد والنوع جزئيًّا وكليًّا من قريب أو من بعيد.

وهذا هو طور انحطاط الأمم الانحطاط التام، وذلك عندما يرتفع منها العلم ويفشو الجهل وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها، فتتخذ رؤوسًا جهالًا لأمور دينها وأمور دنياها، فيقودونها بغير علم، فيَضِلُّون ويُضِلُّون، ويَهلكون ويُهلكون، ويفسدون ولا يصلحون.

وما أكثر هذا - على أخذه في الزوال بإذن اللَّه - في أمم الشرق والإسلام اليوم.

العلم هو وحده الإمام المتبع في الحياة في الأقوال والأفعال والاعتقادات:

سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطا وثيقا، يستقيم باستقامته، ويعوج باعوجاجه، ويثمر بإثماره، ويعقم بعقمه. لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات، واعتقاداته ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره ونظره.

وهذه الإدراكات الحاصلة عن التفكير والنظر ليست على درجة واحدة في القوة والضعف، فمنها ما هو قوي معتبر، ومنها ما هو ضعيف ساقط عن الاعتبار.

فالأول: العلم، وهو إدراك أمر على وجه لا يحتمل أن يكون ذلك الأمر على وجه من الوجوه سواه، وهو عام الاعتبار.

ويليه الظن، وهو إدراك لأمر على وجه هو أرجح الوجوه المحتملة، وهو معتبر عندما تتبين قوة رجحانه فيما لا يمكن فيه إلا ذاك، وهذه هي الحالة التي يطلق عليه فيها لفظ العلم مجازًا.

والثاني: الوهم، وهو إدراك لأمر على الوجه المرجوح.

والشك، وهو إدراك لأمر على وجهين أو وجوه متساوية في الاحتمال.

وكلا هذين لا يعوَّل عليه.

ولما كان الإنسان - بما فطر عليه من الضعف والاستعجال - كثيرًا ما يبني أقواله وأفعاله واعتقاداته على شكوكه وأوهامه وعلى ظنونه حيث لا يكتفي بالظن، وفي هذا البناء الضرر والضلال - بيَّن اللَّه تعالى لعباده - في محكم

كتابه أنه لا يجوز لهم ولا يصح منهم البناء لأقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم إلا على إدراك واحد وهو العلم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي لا تتبع ما لا علم لك به، فلا يكن منك اتباع بالقول أو بالفعل أو بالقلب لما لا تعلم.

فنهانا عن أن نعتقد إلا عن علم، أو نفعل إلا عن علم، أو نقول إلا عن علم.

فما كل ما نسمعه وما كل ما نراه نطوي عليه عقد قلوبنا، بل علينا أن ننظر فيه ونفكر، فإذا عرفناه عن بينة اعتقدناه وإلا تركناه حيث هو في دائرة الشكوك والأوهام أوالظنون التي لا تعتبر.

ولا كل ما نسمعه أو نراه أو نتخيله أو نقوله، فكفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع كما جاء في «الصحيح»[٨٣]، بل علينا أن نعرضه على محك الفكر، فإن صرنا منه على علم قلناه، مراعين فيه آداب القول الشرعية ومقتضيات الزمان والمكان والحال.

فقد أُمرنا أن نحدث الناس بما يفهمون(١)، وما حُدِّث قوم بحديث لا تبلغه

---

[٨٣] صحيح:

أخرجه مسلم في «مقدمة صحيحه» (١/ ١٠/ ٥) وأبو داود (٤٩٨٢) والحاكم (١/ ١١٢) عن أبي هريرة مرفوعًا وقال:

«صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

وصححه أيضًا النووي وغيره.

(١) كما قال علي ﷺ: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّب اللَّهُ ورسولُه. أخرجه البخاري (١٢٨). قال الحافظ في «الفتح» (١/ ٢٩٧): «والمراد بقوله: (بما يعرفون) أي: يفهمون».

عقولهم إلا كان عليهم فتنة[1] وإلا طرحناه.

ولا كل فعل ظهر لنا نفعله، بل حتى نعلم حكم اللَّه تعالى فيه لنكون على بينة من خيره وشره، ونفعه وضره.

فما أمر تعالى إلا بما هو خير وصلاح لعباده، وما نهى تعالى إلا عما هو شر وفساد لهم أو مؤد إلى ذلك.

وإذا كان من المباحات نظرنا في نتائجه وعواقبه ووازنا بينها. فإذا علمنا بعد هذا كله من أمر ذلك الفعل ما يقتضي فعله فعلناه وإلا تركناه.

فلا تكون عقائدنا - إذا تمسكنا بهذا الأصل الإسلامي العظيم - إلا حقًّا، ولا تكون أقوالنا إلا صدقًا، ولا تكون أفعالنا إلا سدادًا.

ولَعمر اللَّه، إنه ما دخل الضلال في عقائد الناس، ولا جرى الباطل والزور على ألسنتهم، ولا كان الفساد والشر في أفعالهم، إلا بإهمالهم أو تساهلهم في هذا الأصل العظيم.

تفصيل:

نهينا عن أن نتبع ما ليس لنا به علم، فالذي نتبعه هو ما لنا به علم، أي لنا علم يقتضي اتباعه بأن يكون من عقائد الحق وأقوال الصدق وأفعال السداد.

فأما ما كان من عقائد الحق في أمر الدين أو في أمر الدنيا فلا حظر في اعتقاد شيء منه.

---

(١) كما في أثر ابن مسعود: ما أنتَ بمحدثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. أخرجه مسلم في مقدمة «صحيحه».

وأما ما كان من أفعال السداد فكذلك.

وأما ما كان من أقوال الصدق، ففيه تفصيل، إذ ليس كل قول صادق يقال، فالنقائص الشخصية في الإنسان لا تقال في غيبته لأنها غيبة محرمة، ولا يجابه بها في حضوره لأنها إذاية، إلا إذا ووجه بها على وجه النصحية بشروطها المعتبرة التي من أولها أن لا تكون في الملأ.

وهكذا يجب في مثل هذه الأصول الكلية عندما يتفقه فيها أن ينظر فيما جاء من الآيات والأحاديث مما في البيان لها والتفصيل في مفاهيمها.

تفريع:

الفرع الأول:

من اتبع ما ليس له به علم، فاعتقد الباطل في أمر الدين أو في حق الناس أو قال الباطل كذلك فيهما، أوفعل المحظور فهو آثم من جهتين: اتباعه ما ليس له به علم، واعتقاده أو قوله للباطل وفعله للمحظور.

ومن اعتقد حقًّا عن غير علم، أو قال في الناس صدقًا عن غير علم، أو فعل غير محظور عن غير علم، فإنه - مع ذلك - آثم من جهة واحدة، وهي اتباعه ما ليس له به علم، ومخالفته لمقتضى هذا النهي.

الفرع الثاني:

المقلد في العقائد الذي لا دليل عنده أصلًا، وإنما يقول: سمعت الناس يقولون فقلت - هذا آثم لاتباعه ما ليس له به علم.

فأما إذا كان عنده دليل إجمالي كاستدلاله بوجود المخلوق على وجود

خالقه فقد خرج من الإثم لتحصيل هذا الاستدلال له العلم.

والمقلد في الفروع دون علم بأدلتها متبع لمفتيه فيها، يصدق عليه باعتبار الأدلة التي يجهلها أنه متبع ما ليس له به علم، ولكنه له علم من ناحية أخرى وهي علمه بأن التقليد هو حكم الله تعالى في حق مثله من العوام بما أمر تعالى من سؤال أهل العلم، وما رفع عن العاجز من الإصر، وهو من العامة العاجزين عن درك أدلة الأحكام(١).

نصيحة على هذا الفرع:

أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير.

وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفاصيلها في سنة النبيِّ ﷺ - الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم.

فحقٌّ على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية، وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم. إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم. ولن يجد العامي الأدلة لعقائده سهلة قريبة إلا في كتاب الله، فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين إليه(٢).

---

(١) التقليد ضرورة، فلا يجوز إلا عند عدم التمكن من اتباع الدليل، لا فرق في ذلك بين العقائد والأحكام؛ لعموم قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]. ويؤكده السياق والسباق، فتأمل.

(٢) على هذا المنهج السلفي الأقوم في تعليم العقيدة سار إمامنا المصنف - رحمه الله تعالى - في دروسه، فألقى على طلابه: «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية»، وقد نشرت مرات، برواية وتعليق أستاذنا محمد الصالح رمضان، أطال الله عمره في الصالحات.

أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية، فإنه من الهجر لكتاب اللّٰه، وتصعيب طريق العلم إلى عباده وهم في أشد الحاجة إليه، وقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه.

ومما ينبغي لأهل العلم أيضًا - إذا أفتوا أو أرشدوا - أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم، ويذيقوهم حلاوته، ويعرفوهم منزلته، ويجعلوه منهم دائمًا على ذكر، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب، ويكون لفتاواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب وأثر في النفوس.

فإلى القرآن والسنة - أيها العلماء - إن كنتم للخير تريدون.

الفرع الثالث:

المجتهد إذا أفتى مستندًا إلى ما يفيد الظن من أخبار الآحاد أو الأقيسة أو النصوص الأخرى الظنية الدلالة، هل هو متبع لغير العلم؟

والجواب: لا، بل هو متبع للعلم، وذلك من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: إن كل دليل يكون ظنيًّا بمفرده - يصير يقينًا إذا عرض على كليات الشرع ومقاصده وشهدت له بالصواب. وهذا هو شأن المجتهدين في الأدلة الفردية.

الوجه الثاني: أن المجتهد يعتمد في الأخذ بالأدلة الظنية لما له من العلم بالألة الشرعية الدالة على اعتبارها.

الوجه الثالث: أن تلك الأدلة بمفردها تفيد الظن القوي الذي يكون جزمًا ويسمى كما تقدم - علمًا، فما اتبع المجتهد إلا العلم.

الفرع الرابع:

لا نعتمد في إثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبي ﷺ من الحديث الضعيف لأنه ليس لنا به علم.

فإذا كان الحكم ثابتًا بالحديث الصحيح مثل قيام الليل، ثم وجدنا حديثًا في فضل قيام الليل بذكر ثواب عليه مما يرغب فيه، جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه الذي لم يكن شديدًا على وجه الترغيب.

ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الالتفات إليه، وهذا هو معنى قولهم: «الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال» أي في ذكر فضائلها المرغبة فيها لا في أصل ثبوتها[1].

فما لم يثبت بالدليل الصحيح في نفسه، لا يثبت بما جاء من الحديث الضعيف في ذكر فضائله باتفاق من أهل العلم أجمعين.

الفرع الخامس:

أحوال ما بعد الموت كلها من الغيب، فلا نقول فيها إلا ما كان لنا به علم بما جاء في القرآن العظيم أو ثبت في الحديث الصحيح.

وقد كثرت في تفاصيلها الأخبار من الروايات مما ليس بثابت، فلا يجوز

(١) انظر تحقيق هذه المسألة الهامة في بحث نفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٦٥- ٦٨) والشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٢٢٨- ٢٣١).

الالتفات إلى شيء من ذلك.

ومثل هذا كل ما كان من عالم الغيب، مثل الملائكة، والجن، والعرش، والكرسي، واللوح، والقلم، وأشراط الساعة، وما لم يصل إليه علم البشر.

سؤال الجوارح يوم الهول الأكبر:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

من قال ما لم يسمع سئل يوم القيامة سمعه فشهد عليه، ومن قال: رأيت ولم ير سئل بصره فشهد عليه، ومن قال: عرفت ولم يعرف أو اعتقد ما لم يعلم سئل فؤاده فشهد عليه، لأنه في هذه الأحوال الثلاثة قد اتبع ما ليس له به علم.

وهذه الشهادة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: الآية ٢٤].

هذه الثلاثة تسأل على وجوه منها ما تقدم وهو الذي يرتبط به هذا الكلام بما تقدم من النهي.

ومنها سؤال السمع لِمَ سمع ما لا يحل؟ ولِمَ لَمْ يسمع ما يجب؟

وسؤال البصر لِمَ رأى ما لا يحل؟ وعن جميع أعمال البصر من نظر البغض والاحتقار ونحو ذلك.

وسؤال الفؤاد عما اعتقد وعما قصد وجميع أعمال القلوب.

فوائد ختام الآية:

فختام هذه الآية تأكيد للنهي السابق وتفصيل لطرق العلم وتنبيه على لزوم حفظها واحدة واحدة، وترهيب للإنسان من اتباع ما لا يعلم بما يؤول إليه أمره

من فضيحة يوم القيامة وخزي بشهادة جوارحه عليه.

فاللَّه نسأل أن يجعلنا متبعين للعلم في جميع ما نعمل، ويثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٩، م٦) غرة جمادى الأولى ١٣٤٩هـ- أكتوبر ١٩٣٠م.

آية الأخلاق

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسرَاء: الآية ٣٧] .

المفرادت والتراكيب:[1]

المرح: مشية فيها خفة ونشاط واختيال، ناشئة عن شدة فرح بالنفس.

تقول العرب: أمرح الكلأ الفرس فمرح، فهو فرس مرح وممراح، إذا شبع فأخذ يمشي بخفة ونشاط واختيال.

ويقال: مرح الرجل إذا اختال في مشيته ونظر في عطفيه، ولا يكون ذلك إلا لفرحه بنفسه وإعجابه بها.

وخرق الأرض: ثقبها.

والطول: ارتفاع القامة.

نصب (مرحًا) بـ(تمش) لأنه متضمن له تضمن الكلي لجزئيه، إذ المرح جزئي من جزئيات المشي، فكأنه قال: لا تمرح مرحًا.

ونظيره قول الشاعر:

يعجبه السخون والبرود   والتمر حبًّا ما له مزيد[2]

---

(١) ارتباط الآية بما قبلها في صدر الجزء السابق. [المصنف].

(٢) البيت لِرُؤْبَةَ بن العَجَّاج. انظر ملحق ديوانه (ص١٧٢)، وقارن بما في «لسان العرب» (٧/ ١٤٧-١٤٨). =

فنصب حبًّا بيعجب لأن الإعجاب متضمن للحب، أو نصب على أنه حال كجاءني زيد ركضًا.

ونصب طولًا على أنه تمييز أي من جهة الطول. والتقدير: ولن يبلغ طولك طول الجبال.

التفسير:

حبُّ الإنسان لنفسه غريزة فيه، وذلك يحمله على الإعجاب والفرح بها وبكل ما يصدر عنها، ويستخفه ذلك حتى يتركه يمشي بين الناس مختالًا متبخترًا، وهذه هي مشية المرح التي نهى اللَّه تعالى في هذه الآية عنها.

ولما كانت هي فرعًا عن الإعجاب بالنفس والفرح بها، فالنهي منصب على أصلها كما انصب عليها.

ولما كانت هذه العلة ناشئة عن علة العجب أعقب اللَّه تعالى بيان الداء الذي نهى عنه بذكر الدواء الذي يقلعه من أصله، فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾.

فذكر الإنسان بضعفه بين مخلوقين عظيمين من فوقه ومن تحته، فإذا ضرب برجليه الأرض في مرحه فهو لا يستطيع خرقها، وإذا تطاول بعنقه في اختيال فهو لن يبلغ طول الجبال، فقد أحاط به العجز من ناحيتيه، وذكر الإنسان لضعفه وعجزه أنجع دواء لمرض إعجابه بنفسه.

= ورؤبة راجز من الفصحاء المشهورين من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، لما مات قال الخليل: دفنَّا الشِّعرَ واللغةَ والفصاحةَ.

توفي سنة ١٤٥هـ. انظر «الأعلام» (٣/ ٣٤).

نعم، الإنسان أعظم من الأرض والجبال بعقله، ولكنه لو سار على نور عقله لما مشى في الأرض مرحًا، لأن عقله يبصره بعيوب نفسه ونقائص بشريته، فلا يدعه يعجب بها، فلا يكون من المرحين.

فما مرح إلا وهو محروم من نور العقل مفتون بمادة الجسم، فذكر بضعف هذا الجسم وصغارته.

العجب أصل الهلاك:

إذا أعجب المرء بنفسه عمى عن نقائصها، فلا يسعى في إزالتها، ولها عن الفضائل فلا يسعى في اكتسابها، فعاش ولا أخلاق له، مصدرًا لكل شر، بعيدًا عن كل خيرٍ.

وعن العجب بالنفس ينشأ الكبر على الناس والاحتقار لهم، ومن احتقر الناس لم ير لهم حقًا، ولم يعتقد لهم حرمة، ولم يراقب فيهم إلًّا ولا ذمة، وكان عليهم - مثل ما كان على نفسه - أظلم الظالمين.

وإبليس اللعين - نعوذ باللَّه تعالى منه - كان أصل هلاكه من عجبه بنفسه، وأنه خلق من النار، وأنه خير من آدم، فتكبر عليه فكان من الظالمين الهالكين.

ترك العجب شرط في حسن وكمال الأخلاق:

تربية النفوس تكون بالتخلية عن الرذائل، والتحلية بالفضائل.

والعجب هو أساس الرذائل، فأول الترك تركه، وهو المانع من اكتساب الفضائل، فشرط وجودها تركه كذلك.

ومن لم يكن معجبًا بنفسه كان بمدرجة التخلق بمحاسن الأخلاق والتنزه

عن نقائصها، لأن الإنسان مجبول على محبة الكمال وكراهة النقص، فإذا سلم من العجب فإن تلك الجبلة تدعوه إلى ذلك التخلق والتنزه. فإذا نبه على نقصه لم تأخذه العزة، وإذا رغب في الكمال كانت له إليه هزة، فلا يزال بين التذكيرات الإلهية والجبلة الإنسانية الخلقية يتهذب ويتشذب حتى يبلغ ما قدر له من كمال.

ولهذه المعاني التي تتصل بتفسير هذه الآية الكريمة - وهي أصول في علم الأخلاق - عنونًا عليها بآية الأخلاق.

* * *

تأكيد الأوامر والنواهي المتقدمة بطريق الإيجاز

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٨] .

المناسبة:

إن الغاية التي يسعى إليها كل عاقل هي السعادة الحقة، وأن التكاليف الإسلامية كلها شرعت لسوقه إليها، ولما كانت أصولها قد تضمنتها الآيات السابقة أمرًا ونهيًا بطريق الإطناب والتفصيل - أعيد الحديث عنها في هذه الآية بطريق الإيجاز والإجمال، قصدًا للتأكيد وتقرير هذه الأصول العظيمة في النفوس، مع اشتمال هذه الآية الموجزة على ما لم يشتمل عليه ما تقدمها، وهذا من بديع التأكيد، لاشتماله على السابق مع شيء جديد.

المفردات والتراكيب:

السيئ: هو القبيح، والقبائح المنهي عنها فيما تقدم، قبيحة لذاتها، ولنهي اللَّه تعالى عنها.

والمكروه: هو المبغوض المسخوط عليه، وهو ضد المحبوب المرضي عنه.

والمحاسن محبوبة للَّه، أمر بها، ويثيب عليها، ويرضى على فاعلها.

والمقابح مبغوضة له تعالى نهى عنها، ويعاقب عليها ويسخط على مرتكبها.

وليس المكروه بمعنى عدم المراد لأنه لا يكون في ملكه تعالى ما لا يريد، وما تشاءون إلا أن يشاء اللَّه.

وليس بمعنى المنهي عنه نهيًا غير جازم، لأن ذلك اصطلاح فقهي حادث بعد نزول القرآن، والقرآن لا يفسر بالاصطلاحات الحادثة(١).

ذلك: إشارة إلى جميع ما تقدم من المأمورات والمنهيات على قراءة (سيئه)، فالمكروه هو سيئ ما تقدم، وهو القبائح المنهي عنها.

أو إشارة إلى خصوص القبائح على قراءة (سيئة).

ومكروهًا خبر (كان) على القراءة الأولى، وخبر ثان على القراءة الثانية.

وتقدم الكلام على القراءة الأولى: كل ذلك المذكور كان سيئه - وهو المنهيات - مكروهًا عند ربك، ومفهومه أن حسنه - وهو المأمورات - محبوب عنده.

وعلى الثانية كل ذلك المنهي عنه كان سيئةً مكروهًا عند ربك، ، ومفهومه أن المأمور به حسن عنده.

التفسير:

عرف - تعالى - عباده في هذه الآية بمنطوقها ومفهومها - على ما تقدم في التقرير - أن ما أمرهم به هو الحسن المحبوب، وأن ما نهاهم عنه هو القبيح

---

(١) وقد حصل بذلك للمتأخرين أغلاط شديدة في فهم نصوص الكتاب والسنة، وفي رسالتي «أحكام صلاة المسبوق في السنن والآثار» أمثلة أخرى لتلك الأخطاء، فليراجع المبحث الثالث منها، واللَّه ولي التوفيق.

المبغوض.

فعلموا من ذلك أن أوامر الشرع ونواهيه هي على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة، وأنه - تعالى - لا يأمر بقبيح ولا ينهى عن حسن، وفي علمهم بهذا ما يحملهم على الامتثال ويرغبهم فيه، فإن الحسن تميل إليه النفوس، والقبيح تنفر منه.

وفي قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ غاية الترغيب في الحسن، والتنفير من القبيح، فإن الحسن جد الحسن ما كان حسنًا عند اللَّه تعالى، والقبيح جد القبيح ما كان قبيحًا عنده.

وفي اسم الرب تنبيه على أن العلم بالحسن والقبيح على وجه التفصيل والتدقيق، حتى يكون المأمور به حسنًا قطعًا والمنهي عنه قبيحًا قطعًا، إنما هو له تعالى، وأن أوامره ونواهيه - تعالى - الجارية على مقتضى ذلك هي من مقتضى ربوبيته - تعالى - وتدبيره لخلقه.

* * *

مكانة هذه الأصول علمًا وعملًا

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ [الإسراء: الآية ٣٩].

المناسبة:

لما بُينت الأصول تمام البيان، وقُررت غاية التقرير، جاءت هذه الآية للتنويه بها، لحث العباد على تحصيل ما فيها من علم، والتحلي بما دعت إليه من عمل.

المفردات والتراكيب:

الحكمة: هي العلم الصحيح والعمل المتقن المبني على ذلك العلم.

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: هي الفقه في دين اللّه والعمل به[1].

والقرآن حكمة لدلالته على ذلك كله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته الآيات المتقدمة من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

و(من) في ﴿مِمَّآ﴾ تبعيضية. و(من) في ﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ بيانية، مجرورها بين المبهم وهو ما في قوله: (مما).

والتقدير: ذلك الذي تقدم بعض الحكمة التي أوحاها إليك ربك.

(١) انظر «جامع بيان العلم وفضله (٧٠) لابن عبد البر.

التفسير:

هذا ضرب آخر من تأكيد العمل بما تقدم والترغيب فيه، فبين تعالى أن ما تضمنته الآيات المتقدمة كله حكمة، فالمتحقق بما فيها من علم، والمتحلي بما حثت عليه من أعمال، هو الحكيم الذي كمل من جهته العلمية وجهته العملية، وتلك أعلى رتب الكمال للإنسان.

وفي ذكر أنها بعضٌ مِن كلٍّ تنبيهٌ على جلالة كلها، وهو عموم ما أوحى اللَّه تعالى إلى نبيه ﷺ، وتنبيهٌ أيضًا على أن شرح هذه الأصول فيما أفادته من علم وعمل، والتفقه فيها يرجع فيه إلى الوحي، ويعتمد في ذلك على بيانه.

وفيه بيان أن الوحي هو المرجع الوحيد لبيان دين اللَّه تعالى وشرعه، وما أنزله لعباده من الحكمة، وذلك الوحي هو القرآن العظيم وسنة النبيِّ ﷺ الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم.

* * *

ختام الآيات

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٩].

المناسبة:

لما كانت هذه الآيات في أصول الهداية، وأساس الهداية وشرطها هو التوحيد، ختمت الآيات بالنهي عن الشرك كما بدئت به.

المفردات والتراكيب:

الإلقاء: هو الطرح.

والملوم: هو الذي يقال له: لِم فعلت القبيح؟ وما حملك عليه؟ ونحو هذا.

والمدحور: المبعد، وانتصبا على الحال.

المعنى:

نهى تعالى عن الشرك وأن يعبد معه سواه، فالعبادة بالقلب واللسان والجوارح لا تكون إلَّا له.

وكما حذر في فاتحة الآيات بقعود المشرك في الدنيا مذمومًا بالشرك الذي ارتكبه، مخذولًا لا ناصر له.

كذلك حذر هنا بمآل المشرك في آخرته، بإلقائه في جهنم ملومًا على ما قدم، مطرودًا مبعدًا في دركات الجحيم.

نظرة عامة في الآيات المتقدمة:

قد تضمنت هذه الآيات على قِلَّتها الأصول التي عليها تتوقف حياة النوع البشري وسعادته من حفظ النفوس والعقول ﴿وَلَا تَقْفُ﴾الآية، والأنساب والأموال والحقوق ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾، والأعراض ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾، ﴿وَلَا تَقْفُ﴾، والدين الذي هو عمدة ذلك كله، وفي حفظه حفظ لجميعها.

وفي افتتاح الآيات بقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٢]. وختمها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٩]، بيان من اللَّه تعالى لخلقه بأن الدين هو أصل هذه الكمالات كلها، وهو سياج وقايتها وسور حفظها، وأن التوحيد هو ملاك الأعمال وقوامها ومنه بدايتها وإليه نهايتها.

وكذلك المسلم الموفق يبتدئ حياته بكلمة التوحيد حتى يموت عليها.

فاللَّه نسأل - كما منَّ علينا بها في البداية - أن يمنَّ علينا بها في النهاية.

اللَّهم هذا لنا وللمسلمين أجمعين[1].

* * *

---

(١) الشهاب (ج١٠، م٦) غرة جمادى الثانية ١٣٤٩هـ- نوفمبر ١٩٣٠م.

القول الحسن

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: الآية ٥٣] .

اللسان أداة البيان، وترجمان القلب والوجدان، والكلام به يتعارف الناس ويتقاربون، وبه يتحاجون ويتفاصلون، ولولاه لما ظهرت ثمرات العقول والمدارك، ولما تلاقحت الأفكار والمشاعر، ولما تزايدت العلوم والمعارف، ولما ترقى الإنسان في درجات أنواع الكمالات، ولما امتاز على بقية الحيوانات.

فهو رابطة أفراد النوع الإنساني وعشائره وأممه، وبريد عقله وواسطة تفاهمه.

فإذا حسن قويت روابط الألفة، وتمكنت أسباب المحبة، وامتد رواق السلام بين الأفراد والعشائر والأمم، وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم، وتشابكت الأيدي على التعاون والتوازر، وجنى العالَم من وراء ذلك تقرر الأمن واطراد العمران.

وإذا قبح كان الحال على ضد ذلك.

فالكلام السيئ قاطع لأواصر الأخوة، باعث على البغضاء والنفرة، يبعد بين العقول فتحرم الاسترشاد والاستمداد والتعاون، وبين القلوب فتفقد عواطف المحبة وحنان الرحمة، وهما أشرف ما تتحلى به القلوب، وإذا بطلت الرحمة والمحبة بطلت الألفة والتعاون، وحلت القساوة والعداوة، وتبعهما

التخاصم والتقاتل. وفي ذلك كل الشر لأبناء البشر.

فالمحصل للناس سعادتهم وسلامتهم، والمبعد لهم عن شقاوتهم وهلاكهم هو القول الحسن، ولهذا أمر اللّه تعالى نبيه ﷺ أن يرشد العباد إلى قول التي هي أحسن فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

والعباد المأمورون هنا هم المؤمنون، لوجهين:

الأول: أنهم أضيفوا إليه، وهذه إضافة شرف لا يكون إلا للمؤمنين به.

الثاني: أن الذين يخاطبون بهذا الإرشاد ويكون منهم الامتثال إنما هم من حصلوا على أصل الإيمان.

والتي هي أحسن: هي الكلمة الطيبة، والمقالة التي هي أحسن من غيرها، فيعم ذلك ما يكون من الكلام في التخاطب العادي بين الناس حتى ينادي بعضهم بعضًا بأحبِّ الأسماء إليه، وما يكون من البيان العلمي فيختار أسهل العبارات وأقربها للفهم، حتى لا يحدث الناس بما لا يفهمون فيكون عليهم حديثه فتنة وبلاء، وما يكون من الكلام في مقام التنازع والخصام فيقتصر على ما يوصله إلى حقه في حدود الموضوع المتنازع فيه، دون إذاية لخصمه، ولا تعرض لشأن من شؤونه الخاصة به، وما يكون من باب إقامةالحجة وعرض الأدلة، فيسوقها بأجلى عبارة وأوقعها في النفس، خالية من السب والقدح، ومن الغمز والتعريض، ومن أدنى تلميح إلى شيء قبيح.

وهذا يطالب به المؤمنون سواء كان ذلك فيما بينهم أو بينهم وبين غيرهم.

وقد جاء في «الصحيح» أن رهطًا من اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم، ففهمتها عائشة رضي الله عنها فقالت: وعليكم السام واللعنة. فقال لها رسول الله ﷺ:

«مهلًا يا عائشة! إن اللَّه يحب الرفق في الأمر كله». فقالت: ألم تسمع ما قالوا؟ فقال: «**قد قلت: وعليكم**»[٨٤].

فكان الرد عليهم بمثل قولهم بأسلوب العطف على كلامهم وهو قوله: «وعليكم» أحسن من الرد عليهم باللعنة. فقال ﷺ القولة التي هي أحسن، وهذا هو أدب الإسلام للمسلمين مع جميع الناس.

وأفاد قوله تعالى: ﴿أَحۡسَنُ﴾ بصيغة اسم التفضيل، أن علينا أن نتخير في العبارات الحسنة فننتقي أحسنها في جميع ما تقدم من أنواع مواقع الكلام.

فحاصل هذا التأديب الرباني هو اجتناب الكلام السيئ جملة، والاقتصار على الحسن، وانتقاء واختيار الأحسن من بين ذلك الحسن.

وهذا يستلزم استعمال العقل والروية عند كل كلمةٍ تقال ولو كلمة واحدة، فربَّ كلمة واحدة أوقدت حربًا. وأهلكت شعبًا، أو شعوبًا. ورب كلمة واحدة أنزلت أمنًا، وأنقذت أمة أو أممًا.

وقد بين لنا النبي ﷺ مكانة الكلمة الواحدة من الأثر في قوله: «الكلمة

---

[٨٤] صحيح:

رواه البخاري (٦٠٢٤) و(٦٠٣٠) و(٦٢٥٦) ومسلم (٢١٦٥) عن عائشة رضي الله عنها.

وله شاهد عن جابر رضي الله عنه: أخرجه مسلم (٢١٦٦) والبخاري في «الأدب المفرد» (١١١٠).

الطيبة صدقة»[٨٥]، «**واتقوا النار ولو بكلمة طيبة**»[٨٦].

وهذا الأدب الإسلامي - وهو التروي عند القول، واجتناب السيئ، واختيار الأحسن - ضروري لسعادة العباد وهنائهم.

وما كثرت الخلافات ، وتشعبت الخصومات، وتنافرت المشارب، وتباعدت المذاهب، حتى صار المسلم عدوَّ المسلم، والنبي ﷺ يقول: «**المسلم أخو المسلم**»[٨٧] إلا بتركهم هذا الأب، وتركهم للتروي عند القول،

---

[٨٥] صحيح:

قطعة من حديث رواه البخاري (٢٨٩١) و (٢٩٨٩) ومسلم (١٠٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«كل سُلامى من الناس عليه صدقة: كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة: و يعين الرجل على دابته فيحمل عليها - أو يرفع عليها - متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها الرجل إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة».

[٨٦] صحيح:

رواه البخاري (٦٠٢٣و٦٥٤٠و٦٥٦٣) ومسلم (٢/ ٧٠٤/ ١٠١٦) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: ذكر رسول اللَّه ﷺ النار فأعرض وأشاح، ثم قال: «اتقوا النار» ثم أعرض وأشاح حتى ظننا أنه كأنما ينظر إليها، ثم قال:

«اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

[٨٧] صحيح:

وردت هذه الجملة النبوية في أحاديث صحيحة عن جماعة من الصحابة، منهم:

١- عبد اللَّه بن عمر: أخرجه البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠).

٢- أبو هريرة: أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

٣- عقبة بن عامر: أخرجه ابن ماجه (٢٢٤٦) والحاكم (٢/ ٨) وقال:

«صحيح على شرط الشيخين» ! ووافقه الذهبي وأقره المنذري في «الترغيب».

٤- سويد بن حنظلة: أخرجه أبو داود (٣٢٥٣) وابن ماجه (٢١١٩) وأحمد (٤/ ٧٩) والحاكم (٤/ ٢٩٩-٣٠٠) وصححه ! ووفقه الذهبي !

=

والتعمد للسيئ بل للأسوإ في بعض الأحيان.

* * *

= وفي سنده جدة إبراهيم بن عبد الأعلى «مجهولة لا تعرف» كما في «عون المعبود» لكن الجملة المرفوعة منه صحيحة لشواهدها.

٥- عمرو بن الأحوص: أخرجه الترمذي (٣٠٩٦) وقال: «حسن صحيح».

٦- واثلة بن الأسقع: أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١) بإسناد ضعيف، لكن يشهد له ما قبله.

٧-رجل من بني سليط: أخرجه أحمد(٤/ ٦٦ و٦٩ و٥/ ٢٤ و٢٥و٣٧٩و٣٨١) بأسانيد، وإسناده حسن، ورواه أبو يعلى بنحوه كما في«المجمع» (٨/ ١٨٤) للهيثمي.

التحذير من كيد العدوِّ الفتَّان

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٣].

نزغ الشيطان: وسوسته ليهيج الشر والفساد.

وعداوته باعتقاده البغض، وسعيه في جلب الشر والضر.

وإبانته لعداوته بإعلانه لها كما علمنا القرآن.

وهو يلقي للإنسان كلمة الشر والسوء، ويهيج غضبه ليقوله، ويهيج السامع ليقول مثلها، وهكذا حتى يشتد المراء، ويقع الشر والفساد.

ولون آخر من نزغه، وهو أنه يحسن للمرءقول الكلمة التي يكون فيها احتمال السوء، ويلح عليه في قولها، ويبالغ في تحسين الوجه السالم منه، وفي تهوين أمر وجهها القبيح - حتى يقولها، فإذا قالها أعاد لسامعه بالنزغ يطمس عنه الوجه السالم منها، ويكبر له الوجه القبيح، ولا يزال به يثير نخوته، ويهيج غضبه، حتى يثور، فيقع الشر والفساد بينه وبين صاحبه.

فحذر اللّٰه تعالى عباده من كيده حتى يحترسوا منه إذا تكلموا وإذا سمعوا، فيتباعدون عما فيه احتمال السوء فضلًا عن صريحه، ويحملون الكلام على وجهه الحسن عند احتماله له، ويتجاوزون عن سيئه الصريح ما أمكن التجاوز.

* * *

المحاسنة على الحال والظاهر والتفويض إلى اللَّه تعالى في العواقب والسرائر

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٤].

أقوى الأحوال مظنة لكلمة السوء هي حالة المناظرة والمجادلة، وأقرب ما تكون إلى ذلك إذا كان الجدال في أمر الدين والعقيدة.

فما أكثر ما يضلل بعضٌ بعضًا أو يفسقه أو يكفره فيكون ذلك سببًا لزيادة شقة الخلاف اتساعًا، وتمسك كلٍّ برأيه ونفوره من قول خصمه. دع ما يكون عن ذلك من البغض والشر.

فذكَّر اللَّه تعالى عباده بأنه هو العالم ببواطن خلقه وسرائرهم وعواقب أمرهم، فيرحم من يشاء ويعذب من يشاء بحكمته وعدله، فلا يقطع لأحدٍ أنه من أهل النار لجهل العاقبة، سواء كان من أهل الكفر، أو كان من أهل الفسق، أو كان من أهل الابتداع، كما لا يقطع لأحد بالجنة كذلك، إلا من جاء النص بهم(١).

فلا يقال للكافر عند دعوته أو مجادلته أنك من أهل النار، ولكن تذكر

(١) كالعشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، فإنا نشهد لهم بالجنة على شهادة الرسول ﷺ. انظر شرح «العقيدة الطحاوية» (ص٤٢٦) لابن أبي العزِّ.

الأدلة على بطلان الكفر وسوء عاقبته.

ولا يقال للمبتدع: يا ضال، وإنما تبين البدعة وقبحها.

ولا يقال لمرتكب الكبيرة: يا فاسق، ولكن يبين قبح تلك الكبيرة وضررها وعظم إثمها.

فتقبح القبائح والرذائل في نفسها، وتجتنب أشخاص مرتكبيها. إذ رُبَّ شخص هو اليوم من أهل الكفر والضلال تكون عاقبته إلى الخير والكمال، ورُبَّ شخص هو اليوم من أهل الإيمان ينقلب - والعياذ باللَّه تعالى - على عقبه في هاوية الوبال.

وخاطب اللَّه تعالى نبيه ﷺ - أنه لم يرسله وكيلًا على الخلق، حفيظًا عليهم، كفيلًا بأعمالهم.

فما عليه إلا تبليغ الدعوة ونصرة الحق بالحق، والهداية والدلالة إلى دين اللَّه وصراطه المستقيم.

خاطبه بهذا ليؤكد لخلقه ما أمرهم به من قول التي هي أحسن للموافق والمخالف، فلا يحملنهم بغض الكفر والمعصية على السوء في القول لأهلهما، فإنما عليهم تبليغ الحق كما بلغه نبيهم ﷺ، ولن يكون أحد أحرص منه على تبليغه، فحسبهم أن يكونوا على سنته وهديه.

أحيانا اللَّه عليهما، وأماتنا عليهما، وحشرنا في زمرة أهلهما، آمين[1].

* * *

---

(١) الشهاب (ج١١، م٦) رجب ١٣٤٩هـ- ديسمبر ١٩٣٠م.

دعاء غير اللَّه
من دعا غير اللَّه فقد عبد ما دعاه
وهو في عبادته من الخاسرين

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾

[الإسرَاء: الآية ٥٦] .

المفردات:

الدعاء: هو النداء لطلب شيء من المدعو، ولذلك لا يدعى إلا العاقل أو ما نزل منزلته مجازًا من الجمادات، أو ما كان له فهم لبعض الأصوات من العجماوات[1] .

وإذا كان لشيء معظَّم ليطلب منه ما هو وراء الأسباب العادية وفوق الطاقة البشرية فهو عبادة، ولا يكون إلَّا من المخلوق لخالقه.

وإذا لم يكن كذلك فهو عادة، وهو دعاء المخلوقين بعضهم بعضا لغرض من الأغراض.

و(الزعم): القول بغير دليل.

و(من دونه): أي غيره.

و(الملك): الاستيلاء على الشيء والتمكن من التصرف فيه.

---

(١) جمع عجماء، وهي البهيمة.

و(كشف الضر): إزالته.

و(لا تحويلًا): نقلًا له إلى شخص آخر.

التراكيب:

أمروا بالدعاء لتوقيفهم على خيبتهم فيه بظهور عجز من يدعون. وحذف مفعولا (زعم)، والتقدير زعمتوهم آلهة، للعلم بهما لأنهم ما دعوهم إلا لكونهم آلهة في زعمهم.

ولا يملكون: وقع بعد الفاء، ولم يجزم في جواب الأمر، لأنه خبرلمبتدأ محذوف تقديره فهم لا يملكون، وهذا لأن الفاء قصد بها العطف ولم يقصد بها السببية، ولا يصح أن تقصد بها السببية لأن ذلك يقتضي أن يكون عدم ملكهم متسببًا عن الدعاء، مثلها في قول الشاعر:

رب وفقني فلا أعدل عن   سنن الساعين في خير سنن[1].

فإن عدم العدول متسبب عن التوفيق.

وليس كذلك الأمر في هذه الآية فإن عدم ملكهم متحقق، سواء دعوا أم لم يدعوا، فلذلك امتنع النصب ووجب الرفع على التقدير المتقدم.

المعنى:

قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك الذين اتخذوا آلهة من دون اللَّه فعبدوها: ادعوا معبوداتكم هذه التي زعمتموها آلهة من دون اللَّه عندما ينزل

---

(١) البيت بلا نسبة كما في «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (٢/ ٣٢٣).

بكم الضر، وانظروا هل تستطيع تلك المعبودات الباطلة أن تكشف وتزيل عنكم ذلك، أو أن تحوِّله عنكم إلى غيركم، فإنكم تجدونها عاجزة عن ذلك غير قادرة على شيء منه، و إنما يقدر على ذلك الإله الحق، وهو اللَّه الذي خلقها وخلقكم، فاعبدوه هو وادعوه هو، وأقلعوا عن عبادة ودعاء ما سواه.

الأحكام:

تدل الآية على أن دعاء غير اللَّه تعالى لدفع الضرر -ومثله جلب النفع- عبادة للمدعو، فإن المشركين كانوا يتعبدون لآلهتهم بهذا الدعاء الذي نهاهم اللَّه تعالى عنه ببيان خيبتهم فيه ووقوعه في غير محله.

وتسمية الدعاء عبادة ثابتة لغةً وشرعًا بغير ما دليل:

منها حديث النعمان بن بشير عند أحمد وأصحاب السنن مرفوعًا:

«**الدعاء هو العبادة**»[٨٨].

وحديث أنس عند الترمذي مرفوعًا:

«**الدعاء مخ العبادة**»[٨٩].

وهذا لأن العبادة هي الخضوع والتذلل لمن بيده الخلق والتصرف، والعطاء والمنع، ومظهر هذا الخضوع والتذلل هو الدعاء لدفع الضر، أو

---

[٨٨] صحيح:

تقدم برقم (٥٥).

[٨٩] ضعيف بهذا اللفظ:

تقدم برقم (٥٦).

جلب النفع، فلذلك عبر عنه في الحديث الأول بأنه هو العبادة أي معظمها، وفي الثاني بأنه مخ العبادة أي خالصها.

ودلت الآية أيضًا على أنه لا يجوز دعاء غير اللَّه من المخلوقين أيّ مخلوق كان لدفع ضر - ومثله جلب نفع - لأن الآية نَعَتْ على المشركين دعاءهم مَن لا يملك كشف الضر ولا تحويله، وهذا أمر يشترك فيه جميع المخلوقين، فلا مخلوق يستطيع كشف الضر أو تحويله عن نفسه ولا عن غيره، فلا مخلوق يجوز دعاؤه.

ودلت على أن كشف الضر أو تحويله - ومثله جلب النفع - إنما هو للمعبود الحق، لأن الآية استدلت عليهم في مقام الأمر بتوحيد اللَّه بالعبادة، بانتفاء ملك كشف الضر أو تحويله عن غير اللَّه، فأفاد ذلك قصر هذا التصرف عليه تعالى وحده.

استنتاج:

لما ثبت شرعًا أن الدعاء عبادة، فمن دعا شيئًا فقد عبده ولو كان هو لا يسمي دعاءه عبادة، جهلًا منه أو عنادًا، لأن العبرة بتسمية الشرع واعتباره لا بتسمية المكلَّف واعتباره.

ألا ترى لو أن شخصًا قام للصلاة بدون وضوء مستحلًّا لذلك، فلما أنكرنا عليه، قال: إنني لا أعتبر هذه الأفعال والأقوال عبادة ولا أسميها صلاة، أترى ذلك يجيز فعله ويدفع عنه تبعته؟

كلا، ولا خلاف في ذلك بين المسلمين، بل قد حكموا بردَّته إن كان يفعل ذلك ويراه حلالًا، لأنه يكون قد أنكر معلومًا من الدين بالضرورة.

فالداعي لغير اللَّه تعالى يطلب منه قضاء حوائجه قد عبد من دعاه وإن لم يعتبر دعاءه عبادة، لأن اللَّه قد سماه عبادة، وإذا استمر على فعله ذلك مستحلًّا له بعد تعليمه وإرشاده يكون قد أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، وهو أن العبادة - والدعاء منها - لا تكون إلا للَّه، فيحكم بردَّته نظير مستحل الصلاة بلا وضوء بلا فارق.

تطبيق:

إذا علمت هذه الأحكام فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقًا في هذا الضلال، فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون، ويذهبون إلى الأضرحة التي شيدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد، فيدعون مَن فيها، ويدقون قبورهم، وينذرون لهم، ويستثيرون حميتهم بأنهم خدامهم وأتباعهم فكيف يتركونهم، وقد يهددونهم بقطع الزيارة، وحبس النذور، وتراهم هنالك في ذل وخشوع وتوجُّه قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم.

فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجُّههم كلها عبادة لأولئك المدعوين وإن لم يعتقدوها عبادة، إذ العبرة باعتبار الشرع لا باعتبارهم.

فيا حسرتنا على أنفسنا! كيف لبسنا الدين لباسًا مقلوبًا حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال!؟

تحذير وإرشاد:

فليحذر قراؤنا من أن يتوجهوا بشيء من دعائهم لغير اللَّه، وليحذِّروا غيرهم منه.

ولينشروا هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين بما استطاعوا عسى أن يتنبه الغافل، ويتعلم الجاهل، ويقلع الضالون عن ضلالهم، ولو بطريق التدريج، وبذلك يكون قراؤنا قد أدوا أمانة العلم وقاموا بفريضة النصح، وخدموا الإسلام والمسلمين.

* * *

نجاة المعبودين بهداهم، وهلاك العابدين بضلالهم

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٧] .

المفردات:

(يبتغون) : يطلبون باعتناء واهتمام .

(الوسيلة) : سبب الوصول إلى البغية والقرب من المطلوب، والوسيلة الموصلة إلى اللّه هي عبادته، وطاعته بامتثال أوامره ونواهيه، والتزام محابه واجتناب مكارهه، وهذا المعنى هو المراد هنا .

(أقرب) : أي في المكانة والمنزلة .

(يرجون رحمته) : ينتظرون إنعاماته[1] لافتقارهم إليه .

(ويخافون عذابه) : يخشون عقوبته وانتقامه لعلمهم بقوته وسلطانه، وقصورهم عن القيام بجميع واجب حقه .

(محذورًا) : مخيفًا متحرزًا منه .

التراكيب:

أولئك : إشارة إلى المعبودين الذين وصفهم .

---

(١) انظر ما سيأتي التعليق عليه في (٢/ ١٥- ١٦ و٨٢).

و(يدعون) ضميره للداعين. وأصله يدعونهم، يبتغون خير أولئك.

و(أيهم): اسم موصول مضاف إلى ضمير المبتغين، وهو بدل بعضٍ من كلٍّ من الواو في (يبتغون).

و(أقرب) خبر مبتدأ محذوف تقديره هو.

والجملة صلة الموصول، ويحتمل أن يكون أيهم استفهامًا مبتدأ، وأقرب خبر، وتقدير الكلام ينظرون أيهم أقرب.

نزول الآية:

قال ابن مسعود: هي في نفر من الإنس كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم الجن وبقي الإنس على عبادتهم[٩٠].

وجاء عنه وعن غيره أنها في الذين كانوا يعبدون الملائكة من العرب[٩١].

---

[٩٠] صحيح:

رواه البخاري (٤٧١٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٨٧-١١٢٨٩) عن عبد اللَّه بن مسعود مرفوعًا.

(تنبيه): قال الحافظ في «فتح الباري» (٨/ ٥٠٥).

«وهذا هو المعتمد في تفسير هذه الآية، وأما ما أخرجه الطبري من وجه آخر عن ابن مسعود قال: كان قبائل العرب يعبدون صنفًا من الملائكة يقال لهم الجن، ويقولون: هم بنات اللَّه، فنزلت هذه الآية».

فإن ثبت فهو محمول على أنها نزلت في الفريقين، وإلا فالسياق يدل على أنهم قبل الإسلام كانوا راضين بعبادتهم، وليست هذه من صفات الملائكة.

وفي رواية سعيد بن منصور عن ابن مسعود في حديث الباب «فعيَّرهم اللَّه بذلك».

وكذا ما أخرجه من طريق أخرى ضعيفة عن ابن عباس أن المراد من كان يعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا».

[٩١] ضعيف:

انظر ما قبله.

المعنى:

أولئك الجن والملائكة، الذين يدعوهم هؤلاء المشركون أربابًا قد أسلموا، فصاروا من عباد اللَّه المؤمنين، يطلبون أسباب الزلفة والقرب عند ربهم، ينظرون من هو الذي يكون منهم أقرب مكانة باجتهاده، وصالح عمله.

هذا على الإعراب الثاني

وعلى الإعراب الأول: يطلب الذي هو أقرب منهم أسباب الزلفة عند اللَّه فأحرى وأولى غيره، ويرجون بأعمالهم الصالحة رحمته، ويخافون بمخالفتهم عذابه. إن عذاب ربك كان من حقه وشأنه أن يتقى ويُحذَر لما فيه من عظيم الخزي وشديد الألم.

الأحكام:

أفادت الآية أن العبادة لا تنفع صاحبها إلا إذا كانت على الوجه الحق، وإلَّا فإنه لايحصل منها إلا على الخيبة والوبال.

وأن المكلف لا يحمل شيئًا من إثم عمل غيره إذا لم يكن راضيًا به ولو كان ذلك العمل متسببًا عنه إذا لم يكن متسببًا هو فيه.

وأن المكلف مطالب أن يطلب أسباب القرب إلى اللَّه بجد واجتهاد، وأن يكون جامعًا بين الرجاء والخوف في سلوكه.

التطبيق:

نعرف كثيرًا من الصالحين - رحمهم اللَّه تعالى - قد شُيِّدت عليهم القباب، ونُذرت لهم النذور، وقُصدوا لقضاء الحاجات، ودُعوا في

المهمات، وكان ذلك كله مما أحدثه المحدثون بعدهم، وبالغ فيه المستغلون له ممن ينتمون إليهم، فهم - إن شاء اللّٰه تعالى - برآء من إثم ذلك كله، وإنما إثمه على فاعليه.

عبرة وتحذير:

يأتي يوم القيامة أولئك الذين كانوا يدعون الملائكة والجن المسلمين وعباد اللّٰه الصالحين، ويحسبون أنهم ينفعونهم في ذلك اليوم. فيتبرأ منهم أولئك الذين كانوا يعبدونهم بدعائهم ويتركونهم في ذلك الموقف العصيب.

فما أمرّ خيبتهم يومذاك! وما أعظم حسرتهم! ويا لها من عبرة لقوم يعقلون!.

فحذار يا إخواننا من هذه العاقبة السيئة، وهذا الموقف المخزي!.

فبادروا إلى توحيد اللّٰه بالدعاء الذي هو مخ العبادة، واقتصروا في جانب الصالحين على محبتهم، والترضية عليهم، وسؤال الرحمة لهم، والاقتداء بهم فيما كان منهم من طاعة وخير، ولا تعظِّموهم بما لا يكون إلا للّٰه رب العالمين.

واللّٰه يبصرنا بالحق، ويهدينا إليه، ويجعلنا من حزبه، ويميتنا عليه، آمين يا رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١٢، م٦) شعبان ١٣٤٩هـ- جانفي ١٩٣٠م.

الطور الأخير لكل أمة وعاقبتُه

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٨] .

تمهيد:

الأمم كالأفراد، تمر عليها ثلاثة أطوار: طور الشباب، وطور الكهولة، وطور الهرم.

فيشمل الطور الأول نشأتها، إلى استجماعها قوتها ونشاطها مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة.

ويشمل الطور الثاني ابتداء أخذها في التقدم والانتشار وسَعة النفوذ وقوة السلطان، إلى استكمالها قوتها وبلوغها غاية ما كان لها أن تبلغه من ذلك بما كان فيها من مواهب، وما كان لها من استعداد، وما لديها من أسباب.

ويشمل الطور الثالث ابتداءها في التقهقر والضعف والانحلال، إلى أن يحل بها الفناء والاضمحلال. إما بانقراضها من عالَم الوجود، وإما باندراسها من عالَم السيادة والاستقلال.

وما من أمة إلا ويجري عليها هذا القانون العام وإن اختلفت أطوارها في الطول والقصر كما تختلف الأعمار.

هذه السنة الكونية التي أجرى اللَّه عليها حياة الأمم في هذه الدنيا أشار

إليها في كتابه العزيز في غير ما آية.

فذكر أعمار الأمم وأنها مقدرة محددة بآجالها في مثل قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٤].

وذكر إنشاء الأمم على إثر الهالكين في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١١].

وذكر طور شباب الأمة ودخولها معترك الحياة في مثل قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٩].

فإن بني إسرائيل ما استخلفوا في الأرض حتى قووا واشتدوا وتكونت فيهم أخلاق الشجاعة والنجدة والحمية والأنفة بعد خروجهم من التيه.

وذلك هو الطور الأول: طور الشباب للأمة الإسرائيلية.

وذكر الطور الثاني: وهو طور الكهولة واستكمال القوة وحسن الحال ورغد العيش في مثل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النّحل: الآية ١١٢].

وذكر الطور الثالث: طور الضعف والانحلال في مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: الآية ٥٩].

وإهلاكهم يكون بعد إسباغ النعمة، وإقامة الحجة عليهم، وتمكُّن الفساد فيهم، وتكاثر الظلم منهم.

فإهلاكهم هو نهاية الطور الثالث من أطوار الأمم الثلاث.

وإلى خاتمة الطور الثالث وعاقبته جاء البيان في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٨].

الألفاظ:

«القرية»: المساكن المجتمعة ومادة (ق ر ي) تدل على الجمع، فتصدق على القرية الصغيرة والمدينة الكبرى، وتطلق القرية مجازًا على السكان إطلاقًا لاسم المحل على الحال. ومنه هذا.

و«الإهلاك»: الإبادة والإفناء بالاستئصال كما فعل بعاد وثمود.

و«قبل يوم القيامة»: أي في الدنيا.

و«العذاب الشديد»: كأمراض الأبدان، وفساد القلوب، وانحطاط الأخلاق، وافتراق الكلمة، وتسليط الظُّلَّام، كما أرسل على بني إسرائيل عبادًا أولي بأس شديد فساؤوا وجوههم وجاسوا خلال ديارهم، وكتسليط أهل الحق على أهل الباطل، وكالجدب والقحط وجوائح الأرض وجوائح السماء.

و«في الكتاب»: أي اللوح المحفوظ.

و«مسطورًا»: أي مكتوبًا أسطارًا مبينًا.

التراكيب:

«إنْ» نافية، و«مِن» زيدت لاستغراق الجنس وتأكيد العموم، و«إلَّا» أفادت مع «إن» النافية حصر كل قرية في أحد الأمرين من الهلاك والعذاب

الشديد، ليعلم أن لا نجاة لكل قرية من أحدهما قطعًا.

و«أو» تفيد أحد الشيئين المذكورين على الإبهام وعدم التعيين.

و«ذلك» إشارة إلى المذكور من الهلاك والتعذيب.

المعنى:

يقول تعالى: ما من قرية على وجه الأرض إلا ولا بد أن يحل بها منا هلاك وفناء بما يبيدها ويفنيها، أو عذاب شديد لا يفنيها ولكنه يذيقها أنواع الآلام وشديد النكال. كان هذا قضاء سابقًا في علمنا، ماضيًا في إرادتنا، مكتوبًا أسطارًا في اللوح المحفوظ.

الأحكام:

أحكام اللَّه تعالى قسمان:

أحكام شرعية: وهي التي فيها بيان ماشرعه لخلقه مما فيه انتظام أمرهم وحصول سعادتهم إذا ساروا عليه.

وأحكام قدرية: وهي التي فيها بيان تصرفه في خلقه على وفق ما سبق في علمه وما سبق في إرادته.

والأحكام الشرعية تقع من العباد مخالفتها؛ فيتخلف مقتضاها من الفعل أو الترك.

والأحكام القدرية لا تتخلف أصلًا، ولا يخرج المخلوقات عن مقتضاها قطعًا.

وفي هذه الآية حكم من أحكامه القدرية، وهو أن كل قرية لابدَّ أن يصيبها

أحد الأمرين المذكورين بما سبق من علمه وما مضى من إرادته، فلا يتخلف هذا الحكم، ولا تخرج عنه قرية.

إيضاح وتعليل:

اللَّه حكم عدل حكيم خبير، فما من حكم من أحكامه الشرعية إلا وله حكمته، وما من حكم من أحكامه القدرية إلا وله سببه وعلته. لا لوجوب أو إيجاب عليه، بل بمحض مشيئته، ومقتضى عدله وحكمته.

وقد قضى على كل قرية بهذه العاقبة من الهلاك أو العذاب الشديد في هذه الآية، وبين في غيرها سبب استحقاقها لهما فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ [الكهف: الآية ٥٩] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هُود: الآية ١١٧] ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: الآية ٥٩] ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: الآية ١١] ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: الآية ٨] ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النّحل: الآية ١١٢].

فأفادت هذه الآيات أن سبب الهلاك والعذاب هو الظلم والفساد والعتوُّ والتمرد عن أمر اللَّه ورسله والكفر بأنعم اللَّه، وما ربك بظلام للعبيد.

توجيه:

الطور الأخير للأمم هو الذي ذكر في الآيات كثيرًا دون الطور الأول والثاني.

ووجه ذلك أنه هو الطور الذي ينتشر فيه الفساد، ويعظم فيه الظلم، وينتهي فيه الإعذار للأمة، ويحلُّ فيه أجلها، فينزل بها ما تستحقه من هلاك أو عذاب.

فكرر ذكر هذا الطور لزيادة التحذير منه، والتخويف من سوء عاقبته، والحث على تدارك الأمر فيه، بالإقلاع عن الظلم والفساد، والرجوع إلى طاعة اللَّه، وإعمال يد الإصلاح في جميع الشؤون؛ فيرتفع العذاب بزوال ما كان لنزوله من أسباب.

استنتاج وتطبيق:

القُرى التي قضي عليها بالهلاك والاستئصال، هذه قد انتهى أمرها بالموت وفات عن العلاج، مثل عاد وثمود من الأمم البائدة.

وأما القرى التي قضي عليها بالعذاب الشديد، فهذه لا تزال بقيد الحياة، فتداركها ممكن وعلاجها متيسر، مثل الأمم الإسلامية الحاضرة.

فمما لا شك أن فينا لظلمًا وعتوًّا وفسادًا وكفرًا بأنعم اللَّه، وإننا من جراء ذلك لفي عذاب شديد.

ولا نعني بهذا أن الأمم الإسلامية مخصوصة بهذا، بل مثلها وأقوى منها في أسباب العذاب والهلاك غيرها من أمم الأرض. وأن لهم لقسطهم من العذاب الشديد، إذا لم يأت المقدار المماثل من الهلاك أو العذاب لما عندهم من أسبابهما، فلأنه لكل أمة أجل، ولما يأت ذلك الأجل بعد. فإذا جاء لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

إرشاد واستنهاض:

قد ربط اللَّه بين الأسباب ومسبباتها، خلقًا وقدرًا، بمشيئته وحكمته، لنهتدي بالأسباب إلى مسبباتها، ونجتنبها باجتناب أسبابها.

وقد عرفنا في الآيات المتقدمة بأسباب الهلاك والعذاب لنتقي تلك الأسباب، فنسلم أو نقلع عنها فننجو. فإن بطلان السبب يقتضي بطلان المسبب.

وقد ذكر لنا في كتابه أمةً أقلعت عن سبب العذاب فارتفع عنها بعدما كان ينزل بها، ليؤكد لنا أن الإقلاع عن السبب ينجي من المسبب، فقال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يُونس: الآية ٩٨].

فبمبادرتهم للإيمان، وإقلاعهم عن الكفر، كشف عنهم العذاب.

وأرشدنا في ضمن هذا إلى العلاج الناجع في كشف العذاب وإبطال أسبابه وهو الإيمان، كما أرشدنا إليه أيضًا في قوله تعالى قبل هذا: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يُونس: الآية ٩٨] أي نجاها من العذاب، وذكر قوم يونس دليلًا على ذلك.

وأرشدنا إليها أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعرَاف: الآية ٩٦].

فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد لنا من حالتنا لأننا إذا التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب.

ولا ننهض بهذا العلاج العظيم إلا إذا قمنا متعاونين أفرادًا وجماعاتٍ، فجعل كل واحد ذلك نصب عينيه، وبدأ به في نفسه، ثم فيمن إليه ثم فيمن يليه من عشيرته وقومه، ثم جميع أهل ملته، فمن جعل هذا من همه وأعطاه ما قدر عليه من سعيه؛ كان خليقًا أن يصل إلى غايته أو يقرب منها.

ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك، وأخلاقنا من الفساد، وأعمالنا من المخالفات، ولنستشعر أخوة الإيمان التي تجعلنا كجسد واحد، ولنشرع في ذلك غير محتقرين لأنفسنا، ولا قانطين من رحمة ربنا، ولا مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا.

فبدوام السعي واستمراره يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله.

وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا، وسنة نبينا، وسيرة صالح سلفنا.

ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق، ويبصرنا في العلم، ويفقهنا في الدين، ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة والعز، والسيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الأخرى. وليس هذا عن العاملين ببعيد، وما هو على اللَّه بعزيز.

رجاء وتفاؤل:

إن المطلع على أحوال الأمم الإسلامية يعلم أنها قد شعرت بالداء، وأحست بالعذاب، وأخذت في العلاج.

وأن ذلك وإن كان يبدو اليوم قليلًا لكنه بما يحوطه من عناية اللَّه، وما يبذل

فيه من جهود المصلحين - سيكون بإذن اللَّه كثيرًا، وعسى أن يكون في ذلك خير لأمم الأرض أجمعين.

حقق اللَّه الآمال، وسدد الأعمال، بلطف منه وتيسير، إنه نعم المولى ونعم النصير[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١، م٧) رمضان ١٣٤٩هـ- فيفري ١٩٣١م.

التكريم الرباني للنوع الإنساني

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٠] .

اللغة:

(كرَّمنا) : الكرم ضد اللؤم، يوصف به الشيء لشرفه في ذاته بكمال صفاته أو لحسن أفعاله وما يصدر عنه من النفع لغيره.

فيقال فرس كريم وشجرة كريمة وأرض كريمة، إذا حسنت هذه الأشياء في ذواتها وكملت فيها صفات أنواعها.

ويقال: نفس كريمة، إذا كملت بمحاسن الأخلاق التي بها كمال النفوس.

وقالت بلقيس في كتاب سليمان عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النَّمل: الآية ٢٩] لأنه كان على أكمل ما تكون عليه الكتب: من بيان اسم مرسله، وذكر اسم اللّه تعالى في أوله وختمه على ما فيه، هذا كله من كرم الذات بما كمل فيها من صفات.

ووصف جبريل بأنه رسول كريم[1] لشرف ذاته الملكية، وحسن أفعاله بما كان على يده من نفع للخلق بتبليغ الوحي والهُدى، وهذا من كرم الذات

(١) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠].

والأفعال، وهو الكرم الكامل الذي يكون بشرف الذات ونفع الأفعال.

ويقال: كَرُمَ الشيءُ - بضم الراء - لازمًا، ويتعدى بالهمز والتضعيف، فيقال أكرمته وكرَّمته بمعنى واحد، أي فعلت له فعلًا فيه رفعة له ومنفعة.

فكرمنا بني آدم، أي فعلنا لهم ما فيه رفعتهم ومنفعتهم، من إنعاماتنا عليهم.

و(حملناهم): من الحمل بمعنى الرفع، أي أركبناهم ورفعناهم على المركوبات مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [التوبة: الآية ٩٢] . ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ [القمر: الآية ١٣] ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ [الإسراء: الآية ٣] .

و(الطيبات): ما يطيب للأكل والشرب مما يلذ في الطعم وتحمد عاقبته، فلا يكون الطيب إلا حلالًا، لأن غير الحلال - وإن لذ طعمه في بعض أقسامه - فإنه لا تحمد عاقبته بما فيه من إثم وتبعة، وما يكون فيه من ضرر.

و(فضلناهم): من الفضل بمعنى الزيادة، أي صيرناهم ذوي فضل وزيادة في الكرامة، كما تقول: فضلت زيدًا على عمرفي العطاء، أي صيرته ذا فضل وزيادة عليه فيه.

التراكيب:

متعلق (حملناهم) محذوف لقصد التعميم المناسب لمقام الامتنان بالتكريم مع الاختصار، تقديره: على كل ما يصلح لحملهم عليه.

المعنى:

يقول تعالى: ولقد أنعمنا على بني آدم نعمًا عظيمةً كثيرةً في خلقتهم من تركيب أبدانهم وأرواحهم وعقولهم، وفي حياتهم بما مكَّناهم منه من أسباب السلطان على غيرهم من الخلق، من عالم الجماد والنبات والحيوان، وتسخير هذه العوالم لهم يحصلون منها منافعهم، فأوصلنا إليهم هذه النعم وكرمناهم بها، فنفعناهم ورفعنا أقدارهم.

ومن هذا التكريم والإنعام الذي فيه المنفعة وفيه الرفعة، أننا سخرنا لهم ما يركبونه في البر والبحر، ومكناهم من أسباب تسييره والانتفاع به، وأننا بثثنا لهم على وجه الأرض أنواعًا من المآكل والمشارب اللذيذة المباحة من النبات والحيوان والجماد، فخلقناها صالحة لغذائهم، ومكناهم من أسباب تحصيلها وإصلاحها والتفنن فيها. فكان لهم بذلك كله زيادة بينة من نعمتنا، وفضل محقق على كثير من مخلوقاتنا.

مسائل:

الأولى: تكريم اللَّه تعالى لخلقه، قسمان: أحدهما عام، والآخر خاص.

فأما العام: فهو إخراجه لهم من العدم إلى الوجود، وإعطاؤه لكل شيء منهم خلقته اللائقة به، من تركيب أجزاء ذاته، وتعديل مادة تكوينه، ومن أعضائه - إذا كان من ذوي الأعضاء - التي يحتاج إليها في حياته لجلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وهدايته وإلهامه ما خلق صالحًا لذلك إلى استعمال تلك الأعضاء وطرق الجلب والدفع بها.

وأما الخاص: فهو تكريمه وإنعامه على عباده المؤمنين بنعمة الإسلام في الدنيا، وبدار السلام في الأخرى.

والتكريم المذكور في هذه الآية من القسم الأول العام كما سيتبين في المسألة الرابعة.

المسألة الثانية: جميع المخلوقات التي أخرجها اللَّه تعالى من الوجود إلى العدم[1] وإن كانت متساوية في أصل التكريم العام، فإنها متفاوتة فيه بحسب تفاوتها في شرف الذات وكمال الخلقة، فعالم النبات أكثر حظًّا في التكريم من عالم الجماد، وعالم الحيوان أكثر حظًّا منهما، ونوع الإنسان أكثر حظًّا في التكريم العام من جميع الحيوان.

المسألة الثالثة: عظم حظ الإنسان من هذا التكريم من جهة ذاته بحسن صورته واعتدال مزاجه، ومن جهة روحه بأنها من العالم النوراني العلوي، وبأنها مع اتصالها بالبدن قابلة للتحلي بأكمل الصفات وأطهر الأخلاق، ومن جهة عقله الذي به أدرك الحقائق وحصل المعارف، وعرف الأسباب ومسبباتها ووجوه ارتباطاتها واتصالاتها ونسبة بعضها إلى بعض، فملك وساد واستفاد وأفاد.

المسألة الرابعة: هذا التكريم المذكور في المسألة السابقة هو عام للنوع الإنساني من حيث هو إنسان؛ لا فرق فيه بين من آمن ومن كفر، لأنه راجع للخلقة الإنسانية التي يتساوى فيها الجميع، والتمكين من أسباب المنافع

(١) كذا في الأصل!.

الذي هو ثابت لجميع النوع بما عنده من عقل وتفكير، وهذا هو مقتضى العموم المستفاد من لفظ (بني آدم).

ومثل هذا التكريم في العموم الحمل في البر والبحر والرزق لأنهما من جملة التكريم، كما تقدم في فصل بيان المعنى.

المسألة الخامسة: تفضيل اللَّه تعالى لمن يشاء من خلقه قسمان: تفضيل في الخلقة، وتفضيل في الجزاء والمثوبة.

فمن الأول تفضيل بني آدم المذكور في هذه الآية بما كرموا به وأعطوه في خلقتهم من الوجوه المتقدمة زائدًا على كثير من مخلوقات اللَّه مما كانت لهم به الرفعة والمنفعة لجميع نوعهم على العموم.

ومن الثاني تفضيل المجاهدين على القاعدين في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٥].

المسألة السادسة: اقتضى قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾ أي بما كرمناهم به في خلقتهم أنهم لم يفضلوا على جميع مخلوقات اللَّه وأن بعض المخلوقات أفضل منهم في الخلقة وأكثر منهم كرمًا في الجنس، فمن هو هذا المخلوق المفضل عليهم؟

هذا ما نبينه في المسألة التالية:

المسألة السابعة: إذا نظرنا في عوالم المخلوقات فإننا نجدها منقسمة إلى قسمين: قسم مشاهد، وقسم غير مشاهد علمناه بالوحي الصادق من الكتاب والسنة.

فالقسم الأول: هو عالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان، وهذا القسم كله قد فضل عليه الإنسان بميزة عقله التي ساد بها الجميع وبغيرها مما تقدم.

والقسم الثاني: هو الملائكة والجن.

فأما الجن، فالإنسان أشرف منهم خلقةً وأكرم عنصرًا، فهم ظلمانيون خلقوا من النار. وهو ترابي وروحه من عالم النور الذي هو عالم الملائكة. فلذا كان أهلاً لاصطفاء الرسل منه كما اصطفيت من الملائكة، ولم يصطف من الجن رسول ولا نبي.

وأما الملائكة فخلقتهم أشرف من خلقة الإنسان وأكرم، لأنهم خلقوا من نور محض، منزهة أجسامهم النورانية عن كثافة الأجساد الإنسانية الترابية وأخلاطها وظلمتها، فلم يفضل عليهم النوع الإنساني في الخلقة بل فضلوا عليه، فهم غير الكثير الذي فضل عليه الإنسان.

المسألة الثامنة: المفاضلة تقع بين الملائكة وبني آدم على وجهين: إمَّا من جهة الخلقة، وإمَّا من جهة المثوبة.

فأما من جهة الخلقة فقد عرفنا في المسألة المتقدمة أن الملائكة أفضل، والآية ظاهرة في ذلك ظهورًا بيِّنًا.

وأما من جهة الأجر والمثوبة فهو خارج عن معنى الآية وموضوعها، وأفضل الخلق ﷺ أفضل منهم قطعًا.

وفي المفاضلة بين الأنبياء والملائكة في الأجر والثواب خلاف كبير،

وتفويض أمر ذلك إلى اللَّه تعالى في مقام التذكير أسلم .

سلوك المكرمين - حكمة الامتنان بتكريم الإنسان:

امتن اللَّه تعالى على بني آدم بهذا التكريم لهم في شرف الخلقة ورفعتها وكثرة المنفعة وتيسير أسبابها ، تذكيرًا لهم بنعمته ليشكروها فيزيدهم منها ، وتعريفًا لهم بشرف أنفسهم ليقدروها فينتفعوا بها .

فهذان الأمران هما الحكمة المقصودة بهذا الامتنان، فلنتكلم عليها في الفصلين التاليين .

شكر العبد لنعمة ربه:

قد ابتدأنا بهذه الكرامة في الخلقة بدون سعي منا ولا عمل ، وهوالمبتدئ بالنعم قبل استحقاقها . فمن قبل هذه الكرامة وشكرها كان من المكرمين ، ومن لم يعرف قيمتها وكفرها كان من المهانين . ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾ [الحَجّ: الآية ١٨] .

فلنقابل هذا التكريم في الخلقة بالشكر الجزيل بأن نعقد قلوبنا على تعظيم النعمة به ، ونطلق ألسنتنا بالإعتراف والثناء على مسديه ، ونستعمل هذه الخلقة الكريمة في مراضي ربنا وطاعته . متوسلين بشكر ما ابتدأنا به خالقنا من تكريم الخلقة، إلى ما وعد به الشاكرين من تكريم الجزاء والمثوبة بأنواع ألطافه وإنعامه، وجزيل فضله وإكرامه . فسبحانه ذا الجلال والإكرام .

معرفة العبد لقدر نفسه:

قد استودعنا خالقنا خلقة كريمة، فعلينا أن نعرف قيمتها ، وأن نقدرها

قدرها . وحق على من كرمه ربه أن يكرم نفسه .

فعلينا أن نكرم أنفسنا بتكريم أرواحنا بتنزيهها عن مساوئ الأخلاق وتحليتها بمكارمها .

وتكريم عقولنا بتنزيهها عن الأوهام والشكوك والخرافات والضلالات، وربطها على العلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات .

وتكريم جوارحنا بتنزيهها عن المعاصي، وتجميلها بالطاعات، فنتحرى بأقوالنا وأفعالنا أكرم الأقوال وأكرم الأعمال، ونترفع عن جميع الرذائل والدنايا، ونتباعد عن كل مواطن السوء والسفالة .

ونحفظ كرامتنا وشرفنا أمام اللَّه والناس، ونجتهد أن لا يُمَسَّا بسوء لا مِنَّا ولا من غيرنا .

فإذا قدرنا - هكذا - أنفسنا وشكرنا - كما تقدم - ربنا، بلغنا - بإذن اللَّه تعالى - أبعد الغايات من التكريم والتفضيل .

يسَّرنا اللَّه والمسلمين أجمعين لما يسَّر له عباده المكرمين المفضلين، برحمتك يا أرحم الراحمين[1] .

* * *

(١) الشهاب (ج٢، م٧) غرة شوال ١٣٤٩هـ- مارس ١٩٣١م.

الصلاة لأوقاتها

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] .

المفردات:

(أقم) : أمر من أقام أي اجعلها قائمة ، وذلك بحفظها والمحافظة عليها .

وحفظها : صونها من الخلل في شروطها وأركانها ، من أقوالها وأعمالها ، في الظاهر والباطن .

والمحافظة عليها بالمداومة عليها في أوقاتها .

(الصلاة) : المراد الصلوات الخمس المكتوبة .

(لدلوك) : اللام : لام الأجل والسببية .

(الدلوك) : هو الميل ، وبدايته عند الزوال ونهايته بالغروب .

(إلى) : لانتهاء الغاية ، فغسق الليل هو نهاية غاية الإقامة .

(الغسق) : هو ظلمة الليل ، وبداية الظلمة بالغروب ، وتمامها بعد مغيب الشفق عند اشتداد الظلمة .

(قرآن الفجر) : ما يقرأ به في صلاة الفجر - وهي الصبح - من القرآن ، فسميت قرآنًا من تسمية الكل باسم جزئه تنبيهًا على أهمية ذلك الجزء ومكانته .

(مشهودًا) : محضورًا .

التراكيب:

أفادت اللام السببية أن ميل الشمس سبب في وجوب الصلاة و(إلى) عند التجرد عن القرائن لا يدخل ما بعدها في حكم ما قبلها، لكن هنا قامت القرينة الشرعية - وهي مشروعية الصلاة في الليل - على أن ما بعد (إلى) داخل في حكم ما قبلها، فهو محل أيضًا لإقامة الصلاة فيه.

وقرآن الفجر منصوب عطفًا على الصلاة، وخصصت بالذكر لأنها لم تكن عند ميل الشمس ولا عند الغسق. بل تكون عند الوقت الذي أضيفت إليه وهو الفجر.

وجملة ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تذييل لتأكيد إقامة صلاة الفجر.

المعنى:

أقم يا محمد ﷺ -وأمره أمر لأمته لأنهم مأمورون بالاقتداء به- الصلاة لأجل ميل الشمس، فأدِّ الظهر والعصر، وفي غسق الليل فأد المغرب والعشاء وأقم صلاة الفجر إنها صلاة مشهودة.

بيان وتوجيه:

هذه الآية قد انتظمت أوقات الصلوات الخمس، ووجِّه ذلك بوجوه:

الأول: أن الظهر تكون أول الميل، والعصر تكون وسطه. وأن المغرب تكون عند أول الغسق، والعشاء تكون عند شدته بمغيب الشفق، والصبح عند الفجر.

الثاني: أن الظهر عند أول الميل، والعصر عند وسطه، والمغرب عند نهايته، والعشاء عند الغسق أي اشتداد الظلمة بمغيب الشفق.

والفرق بين الأول والثاني أن الأول اعتبر المغرب عند بداية الظلمة والثاني اعتبرها عند تمام الميل، وهما في الواقع متلازمان، فإنه إذا تم الميل ابتدأت الظلمة.

الثالث -ولم أره لأحد واللفظ يحتمله-: أن ميل الشمس يبتدئ بالزوال، وينتهي فيما يرى لنا بالبصر بمغيب الشفق، غير أن ميلها في الزوال والغروب مشاهد بمشاهدة ذاتها، وميلها بعد الغروب مستدل عليه بما يشاهد من أخذ الشفق في المغيب إلى أن يغيب بتمامه، ولا شك أن ذلك نتيجة ميلها من وراء الأفق، فالصلوت الأربع على هذا واجبة لدلوك الشمس.

أما غسق الليل فهو اشتداد ظلمته، وذلك يكون على أتمه بعد مضي الثلث الأول من الليل، فيكون غسق الليل بهذا المعنى خارجًا عن حكم ما قبل (إلى)، لأن وقت العشاء ينتهي بانقضاء الثلث الأول، فالأوقات تنتهي عند غسق الليل.

تفسير نبوي:

أخرج البخاري - رحمه الله تعالى - في «صحيحه» عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«تفضل صلاةُ الجميع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءًا، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر».

ثم يقول أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] [٩٢].

فاستشهد أبو هريرة بالآية على الحديث ليبين أنه تفسير لها، وأن صلاة الفجر مشهودة، تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار.

وجاء هذا عند أحمد عن ابن مسعود مرفوعا إلى النَّبيِّ ﷺ [٩٣].

وجاء اجتماع الملائكة بأبسط من هذا عند مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، فأخرج في «موطئه» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال:

«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون» [٩٤].

---

[٩٢] صحيح:

رواه البخاري (٦٤٨) و (٤٧١٧) ومسلم (٦٤٩) والنسائي (١/ ٢٤١) وأحمد (٢/ ٢٣٣و٢٦٦) عن أبي هريرة.

[٩٣] صحيح:

رواه أحمد (٢/ ٤٧٤) وابن ماجه (٦٧٠) بإسنادين:

الأول: عن الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ.

والآخر: عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله عز وجل: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] قال:

«تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار».

ورواه الترمذي (٣١٤٧) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٩٣) من طريق الأعمش عن أبي صالح به، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

وصحح إسناده الحافظ في«الفتح» (٢/ ٤٩).

[٩٤] صحيح:

رواه البخاري (٥٥٥) عن عبد اللَّه بن يوسف و (٧٤٢٩) عن إسماعيل بن أبي أويس و (٧٤٨٦) عن=

استنباط:

من تخصيص صلاة الفجر بجملة التذييل المؤكدة، وما اشتملت عليه من هذه المزية أخذ جماعة من أهل العلم أفضليتها على غيرها.

فإن قلتَ: إن صلاة العصر أيضًا لها هذه المزية كما تقدم في حديث مالك.

قلتُ: إن ثبوت هذه المزية للفجر قطعي بنص القرآن، ومتفق عليه في روايات الحديث، بخلاف العصر فقد جاء في بعض الروايات دون بعض، وتبقى الفجر ممتازة بتخصيصها بالتأكيد في نص الكتاب، وكفى هذا مرجحًا لها[1].

ترغيب وترهيب:

قد جاء عن النبي ﷺ في الترغيب في امتثال هذا الأمر ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

= قتيبة بن سعيد، ومسلم (٦٣٢) عن يحيى بن يحيى، والنسائي (١/ ٢٤٠-٢٤١) عن قتيبة، وأحمد (٢/ ٤٨٦) عن عبد الرحمن بن مهدي وإسحاق بن عيسى بن نجيح، ستتهم عن مالك - وهذا في «الموطأ» (١/ ٣٤٦- ٣٤٨/ ٤١٢- بشرح الزرقاني) عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

(١) ومن مرجِّحات صلاة العصر قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].
وقد بينت السنة الصحيحة أن المراد بالصلاة الوسطى: صلاة العصر، وهو قول أكثر علماء الصحابة كما قال الترمذي، واختاره من المالكية: ابن حبيب وابن العربي وابن عطية؛ وتخصيصها بالذكر دليل على أفضليتها كما لا يخفى.
ثم إن الشارع خص تاركها بالوعيد الشديد دون غيرها من الصلوات؛ تنبيهًا على أفضليتها.
فعن عبد اللَّه بن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «الذي تفوته صلاة العصر كأنما وُترَ أهلَه وماله». أخرجه البخاري (٥٥٢) ومسلم (٦٢٦).
وعن بُريدة أن النبي ﷺ قال: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله». أخرجه البخاري (٥٥٣).
والعلم عند اللَّه تعالى.

وفي الترهيب من مخالفته من الأحاديث ما فيه مقنع ومزدجر.

فمما جاء فيهما حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«خمس صلوات كتبهن الله عز وجل على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئًا استخفافًا بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة»[٩٥].

رواه مالك وغيره.

ومما جاء في الترغيب حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟»

---

[٩٥] صحيح:
رواه مالك في «الموطأ» (٢٦٧) وأبو داود (٤٢١و١٤١٧) والنسائي (١/ ٢٣٠) والدارمي (١/ ٣٧٠) وابن ماجه (١٤٠١) وأحمد (٥/ ٣١٥-٣١٦و٣١٧و٣١٩و٣٢٢) والطيالسي (٥٧٣) وابن حبان (٢٥٢و٢٥٣- الموارد) وغيرهم من طرق عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
وصححه ابن حبان وابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ٩١- فتح البر للمغراوي) والنووي في «المجموع شرح المهذب» (٣/ ٢٠و٥١٦).
وللحديث شاهدان:
١- عن قتادة بن ربعي: أخرجه أبو داود (٤٢٥) وابن ماجه (١٤٠٣) وقال البوصيري في «الزوائد»: «في إسناده نظر من أجل ضبارة ودريد».
٢- عن كعب بن عجرة: أخرجه أحمد (٤/ ٢٤٤) والدارمي (١/ ٢٧٨-٢٧٩) من طريقين عنه.

قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال:

«**فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو اللَّه بهن الخطايا**»[٩٦].

رواه الشيخان في «صحيحيهما».

ومما جاء في الترهيب حديث جابر بن عبد اللَّه ﵄: قال رسول اللَّه ﷺ:

«**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[٩٧].

رواه مسلم وغيره بنحوه.

وحديث بريدة ﵁ مرفوعًا: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»[٩٨].

رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم.

---

[٩٦] صحيح:

رواه البخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧) عن أبي هريرة.

[٩٧] صحيح:

رواه مسلم (٨٢) وأبو داود (٤٦٦٤) والترمذي (٢٦٢٣-٢٦٢٥) والنسائي في «المجتبى» (٢/ ٢٣٢) و «الكبرى» (٣٣٠) وابن ماجه (١٠٧٨) وأحمد (٣/ ٣٧٠و٣٨٩) وغيرهم عن جابر بن عبد اللَّه ﵄.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وللحديث شاهدان:

١- عن ثوبان: رواه هبة اللَّه الطبري بإسناد صحيح كما قال المنذري في «الترغيب والترهيب».

٢- عن أنس: رواه ابن ماجه (١٠٨٠) بإسناد ضعيف.

[٩٨] صحيح:

رواه الترمذي (٢٦٢٦) والنسائي في «المجتبى» (١/ ٢٣١-٢٣٢) وفي «الكبرى» (٣٢٩) وابن ماجه (١٠٧٩) وأحمد (٥/ ٣٤٦) وابن حبان (١٤٥٤) والحاكم (١/ ٦-٧) وغيرهم عن بريدة ﵁. =

الأحكام:

قد قال بكفر تارك الصلاة جماعات كثيرة من الفقهاء والمحدثين، سلفًا وخلفًا، مستدلين بحديث جابر وحديث بريدة الصريحين في كفره.

وذهب جماعات أخرى كذلك إلى عدم كفره على عظم جرمه، مستدلين بحديث عبادة بن الصامت المتقدم الصريح في جعله في المشيئة، والكافر مقطوع له بدخول النار، ويجيبون عن حديث جابر وبريدة بأن المراد من كفر تارك الصلاة هو الكفر العملي.

والكفر قسمان[1]: اعتقادي، وهو الذي يضاد الإيمان، وكفر عمل: وهو لا يضاد الإيمان، ومنه كفر تارك الصلاة غير المستحل للترك، وكفر من لم يحكم بما أنزل اللَّه كذلك. وبهذا يجمع بين الأحاديث.

وكفى زاجرًا للمرء عن ترك الصلاة أن يختلف في إيمانه هذا الاختلاف.

= وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب» وصححه ابن حبان.

وقال الحاكم: «صحيح الإسناد، لا نعرف له علة». ووافقه الذهبي.

(١) عقد العلامة ابن القيم - رحمه اللَّه تعالى- في كتابه القيم «الصلاة وحكم تاركها» (ص٥٥- ٦٠) فصلًا بديعًا في بيان القسمين: كفر الاعتقاد، وكفر العمل، وخلص فيه إلى أن «هذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب اللَّه، وبالإسلام والكفر ولوازمهما، فلا تتلقى هذه المسائل إلا عنهم، فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم، فانقسموا فريقين: فريقًا أخرجوا من المِلَّة بالكبائر، وقضوا على أصحابها بالخلود في النار، وفريقًا جعلوهم مؤمنين كاملي الإيمان، فهؤلاء غلوا، وهؤلاء جفوا، وهدى اللَّه أهل السنة للطريقة المثلى، والقول الوسط الذي هو في المذاهب كالإسلام في الملل، فهاهنا كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك، وفسوق دون فسوق، وظلم دون ظلم».

تعليم:

في ربط الصلاة بالأوقات تعليم لنا لنربط أمورنا بالأوقات، ونجعل لكل عمل وقته، فللنوم وقته، وللأكل وقته، وللراحة وقتها، ولكل شيء وقته. وبذلك ينضبط للإنسان أمر حياته، وتطرد له أعماله، ويسهل عليه القيام بالكثير من الأعمال.

أما إذا ترك أعماله مهملة غير مرتبطة بوقتٍ، فإنه لا بد أن يضطرب عليه أمره، ويتشوش باله ، ولا يأتي إلا بالعمل القليل، ويحرم لذة العمل، وإذا حرم لذة العمل أصابه الكسل والضجر، فقلَّ سعيه، وكان ما يأتي به من عمل - على قلته وتشويشه - بعيدًا عن أي إتقان.

وقد كان النبي ﷺ مُقَسِّمًا لزمانه على أعماله، وفيه القدوة الحسنة.

فقد روى عياض في «الشفا» عن علي رضي الله عنه قال:

«كان ﷺ إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء، فجزءًا للّه، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزء جزأه بينه وبين الناس، فيرد ذلك على العامة بالخاصة، ولا يدخر عنهم شيئًا.

فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه قسمته على قدر فضلهم في الدين، منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول:

«ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي

حاجته، فإنه من أبلغ سلطانًا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبَّت اللَّه قدميه يوم القيامة».

لا يذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره، يدخلون رُوَّادًا، ولا يتفرَّقون إلَّا عن ذَوَاق، ويخرجون أدلَّة»[٩٩] انتهى.

---

[٩٩] **ضعيف:**

رواه القاضي عياض في «الشفا» (٢/ ١٧٥-١٨٩) مطولًا من طريقين:

الأول: من طريق الترمذي وهذا أخرجه في «الشمائل» (ص٢١-٢٢/ رقم: ٦- مختصره للألباني) وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٤٢٢-٤٢٥) والفسوي في «المعرفة» - كما في «البداية والنهاية» (٦/ ٣١-٣٣) لابن كثير - وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٤١٩-٤٢٠) وكذا الطبراني - كما في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٧٨) - والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١٥٤-١٥٧/ ١٤٣٠) وفي «دلائل النبوة» (١/ ٢٨٥-٢٩٢) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٥٦٥) من طريق جميع بن عمير بن عبد الرحمن العجيلي قال: حدثنا رجل من بني تميم من ولد أبي هالة زوج خديجة أم المؤمنين ﵂ يكنى أبا عبد اللَّه عن ابن لأبي هالة عن الحسن بن علي بن أبي طالب عن الحسين بن علي بن أبي طالب عن علي ﵁.

وهذا إسناد ضعيف جدًّا وله علتان بل ثلاث:

الأولى: جهالة ابن أبي هالة: قال الذهبي في «الميزان»: «لا يعرف».

الثانية: جهالة أبي عبد اللَّه التميمي: قال الحافظ في «التقريب»: «مجهول».

الثالثة: ضعف جُميع بن عمير كما في «الميزان» و«التهذيب» و«التقريب» بل قال أبو داود: أخشى أن يكون كذابًا! وفي رواية: أخشى أن يكون حديثه موضوعًا.

وقال الهيثمي: «رواه الطبراني وفيه من لم يسم».

الطريق الآخر: أخرجه أيضًا عياض في «الشفا» من طريق علي بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أخيه موسى بن جعفر عن جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن عليٍّ بن الحسين عن الحسن ابن علي به.

ومن هذا الوجه أخرجه البيهقي في «الدلائل» أيضًا.

وهذا إسناد ضعيف أيضًا فيه علي بن جعفر لم يوثقه أحد، قال الذهبي في «الميزان»: «ما رأيتُ أحدًا ليَّنه، نعم ولا من وثقه» وفي «التقريب»: «مقبول» يعني عند المتابعة وإلا فلين الحديث. =

فهكذا ينبغي للمسلم أن يقسم أوقاته على أعماله، ويعمرها كلها بالخير.

وكما ربط اللَّه له صلاته بالأوقات، وهي من أمور دينه، كذلك يربط هو بالأوقات جميع أمور دنياه.

واللَّه نسأل لنا ولجميع المسلمين أن يقصرنا على طاعته، ويفقهنا في أسرار دينه، ويوفقنا إلى اتباع سنة رسوله عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام.

* * *

= قوله: (رُوَّادًا): جمع رائد، وهو الذي يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث؛ أي يدخلون عليه طالبين العلم وملتمسين الحكم من عنده.

و(الذواق): المأكول والمشروب، أي لا يتفرقون إلَّا عن علمٍ وأدبٍ يتعلمونه، يقوم لأنفسهم وأرواحهم مقام الطعام والشراب لأجسامهم.

و(أدلة): جمع دليل، أي هُداةً للناس. «النهاية» لابن الأثير.

نافلة الليل وحسن عاقبتها

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: الآية ٧٩] .

الألفاظ:

من : للتبعيض .

الهجود : النوم ، والهاجد النائم ، و ج هجود ، ومنه :

(ألا طرقتنا والرفاق هجود) .

والتهجد ترك الهجود ، كالتحرج والتأثم في ترك الإثم والحرج ، وبناء تفعَّل يكثر في التحصيل كتعلَّم وتقدَّم ، وجاء قليلًا في معنى الترك ، والمراد منه هنا ترك النوم للقيام بالعبادة .

نافلة : قال الجوهري[1] : «عطية التطوع من حيث لا تجب ، ومنه نافلة الصلاة» اهـ .

أي أن الصلاة مؤداة على وجه التطوع دون الوجوب ، فلذا قيل فيها نافلة .

وهي على كلام الجوهري بمعنى الشيء الزائد ، فهي اسم غير مصدر .

قال أبو البقاء وغيره : النافلة الزيادة ، فهي مصدر كالعاقبة .

---

(١) في الصحاح (٥/ ١٨٣٣).

عسى: للرجاء، وهي من اللَّه تعالى على الوجوب، لأن إطماعه تعالى لعباده في الجزاء على أعمالهم هو من وعده، ومحال عليه تعالى أن يخلفه.

مقامًا: محل القيام.

محمودًا: مثنيًا عليه.

التراكيب:

من الليل: متعلق بفعل محذوف دل عليه تهجد، تقديره أسهر.

الضمير في (به) عائد على القرآن لتقدم ذكره ولا تراعى الإضافة، والباء باء الأداة لأن التهجد بمعنى التعبد يحصل بالقرآن، أي بالصلاة.

ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا على الليل، فالباء بمعنى في، أي فيه.

نافلة: مصدر منصوب بتهجد لا تفاقهما في المعنى.

والتقدير: تنفل نافلة، وهذا يجري على الوجهين في معاد الضمير.

ويحتمل أن يكون حالًا. وهذا يجري على عود الضمير على القرآن بمعنى الصلاة.

مقامًا: إمَّا مصدر من غير لفظ عامله الذي هو يبعثك بمعنى يقيمك من مرقدك.

وإما ظرف أي يبعثك في مقام.

ومحمودًا: صفة لمقام، ولكن الذي يحمد حقيقة هو القائم في المقام، فجعل الحمد للمقام توسعًا، تنبيهًا على عظم الحمد وكثرته، فإنه فاض على

صاحب المقام حتى غمر مقامه.

المعنى:

أسهر بعضًا من الليل، فتعبد بالقرآن في الصلاة زيادة على تعبدك به في صلاة فرضك، فتكون على رجاء أن يبعثك ربك من مرقدك يوم يقوم الناس لرب العالمين. فيقيمك مقامًا يحمدك فيه جميع الناس، لما يرون لك من فضل، وما يصل إليهم بسببك من خير.

وفي الآية مسائل:

الأولى: كيف يكون التهجد؟

فأما اللفظ فإنه يفيد ترك النوم للعبادة، فيشمل تركه كله أو بعضه، بأن لم ينم أصلًا، أو لم ينم أولًا ثم رقد، أو نام أولًا ثم قام.

لكن ثبت أن النبي ﷺ كان ينام ثم يقوم، فبينت السنة العملية أن التهجد المطلوب هو القيام بعد النوم.

المسألة الثانية: هل كان قيام الليل فرضًا عليه ﷺ دون أمته بمقتضى قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾.

قد ذهب إلى هذا جماعة كثيرة من أهل العلم سلفًا وخلفًا.

ويرد عليه أن توجيه الخطاب إليه لا يقتضي تخصيص الحكم به كما في آية: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] وآيات كثيرة، ولأن قيام الليل يقع من غيره فيسمى نافلة اتفاقًا. ولحديث عائشة رضي الله عنها:

«إن اللّٰه افترض قيام الليل في أول هذه السورة - تعني سورة المزمل -

وهي مكية (قم الليل) - فقام النبي - ﷺ وأصحابه حولًا، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرًا، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيامه تطوعًا بعد فرضه»[١٠٠].

رواه مسلم.

فهذا يدل على أنهم فهموا أن الأمر من قوله تعالى: ﴿قُمْ﴾ لهم معه، مع أنه موجه إليه بخطاب الإفراد، وإنه كان فرضًا عليه وعلى الناس فصار تطوعًا عليه وعلى الناس.

ولحديث المغيرة بن شعبة في «الصحيحين» وغيرهما:

«قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه - وهذا لمداومته على القيام كل ليلة بِبِضْع عشرة ركعة - فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[١٠١].

فلو كانوا يعلمون أن قيام الليل واجب عليه، ويفهمونه من القرآن، لما أنكروا مشفقين عليه أن يقوم بما هو واجب عليه، ولأن قوله: «**أفلا أكون عبدا شكورًا**» يفيد أنه متطوع بهذا القيام باختيار، ليؤدي شكر نعمة ربه عليه.

---

[١٠٠] صحيح:

قطعة من حديث رواه مسلم (٧٤٦) عن عائشة رضي الله عنها مطولًا.

[١٠١] صحيح:

رواه البخاري (٤٨٣٦) ومسلم (٢٨١٩) والترمذي (٤١٢) وقال: «حديث حسن صحيح» والنسائي في «المجتبى» (٣/ ٢١٩) وفي «الكبرى» (١٣٢٥و١١٥٠١) وابن ماجه (١٤١٩) وأحمد (٤/ ٢٥١) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

فإن قيل: إن السؤال والجواب راجعان إلى تورم قدميه، وذلك ناشئ على[1] المداومة.

قيل: إذا أنكر الشيء الناشئ عن المداومة فقد أنكرت المداومة، والمداومة على الفرض لا تنكر. فبقي الدليل سالمًا.

ولهذا كله قال هؤلاء الموردون: إن قيام الليل تطوع ونفل في حقه وفي حق أمته.

وبقي للأولين أن يقولوا: إن قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ خاص به ﷺ اتفاقًا، وقد جعل جزاء لتهجده بالليل، ولما كان الجزاء خاصًا به فالعمل المجزي عنه خاص به، فلهذا حملنا قوله على معنى دون غيرك، ولما رأيناه واظب على التهجد ولم يتركه حملناه على أنه كان مفروضًا عليه، وحملنا نافلة على معنى أنها فريضة زائدة فوق الصلوات الخمس.

فيقول المخالفون في هذا: إنكم حملتم النافلة على الفريضة، وهذا خلاف أصل معناها الذي هو التطوع.

وأما ما ذكرتم من خصوص الجزاء به، فإنا نقول: إن الخطاب موجَّه له في الأول وفي الآخر.

ففي الأول لما لم يعارضنا معارض ألحقنا به أمته.

وفي الثاني لما منعنا مانع وهو اختصاصه بالمقام المحمود لم نلحقهم به،

(١) كذا في الأصل!.

وبقي الجزاء مساويًا للعمل في صورة اللفظ حيث كان كل منهما موجهًا إليه .

وإذا تأملت في هذا البحث الذي سقناه أدركت أن القول بعدم الخصوصية هو الراجح، فالآية حث وترغيب على قيام الليل للعموم، ووعد له ﷺ بالمقام المحمود .

المسألة الثالثة : ماهو المقام المحمود؟

«هو مقامه ﷺ للشفاعة العظمى» يشفع للخلائق وقد جهدوا من كرب الموقف، فجاءوا إلى كُبراء الرسل عليهم الصلاة والسلام يسألونهم أن يشفعوا لهم إلى ربهم ليفصل القضاء ويريحهم من كرب الموقف، فيتدافع الشفاعة أولئك الرسل - صلوات اللَّه عليهم - ويتنصلون منها بأعذار هيبةً للربِّ جَلَّ جَلَالُهُ حتى ينتهوا إليه ﷺ فيتقدم فيشفع فيشفَّع ويسأل فيعطى . كما جاء هذا كله مفصلًا في الأحاديث الصحيحة المستفيضة[١٠٢]، فيحمده الخلق

---

[١٠٢] صحيح :

وقد روي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، منهم :

١- أبو هريرة : أخرجه البخاري (٣٣٤٠و٣٣٦١و٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) وغيرهما، مطولًا .

٢- أنس بن مالك : أخرجه البخاري (٤٤٧٦و٦٥٦٥و٧٥١٠) ومسلم (١٩٣) مطولًا .

٣- أبو هريرة وحذيفة : أخرجه مسلم (١٩٥) .

٤- ابن عمر : أخرجه الترمذي (٣١٦٠) وقال : «حديث حسن» .

٦- أبو بكر الصديق : أخرجه أحمد (١/ ٤-٥) وأبو يعلى بنحوه والبزار، ورجالهم ثقات كما قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٧٥) .

وصححه ابن حبان (٢٥٨٩و٢٥٩٠- موارد الظمآن) .

٧- ابن عباس : أخرجه أحمد (١/ ٢٨١-٢٨٢و٢٩٥- ٢٩٦) وفيه علي بن زيد بن جدعان وحديثه حسن في الشواهد .

٨- سلمان الفارسي : أخرجه الطبراني بإسناد صحيح كما قال المنذري في «الترغيب» .

كلهم لما يرون من فضله عند ربه، ولما وصل إليهم من الخير المطلوب بسببه.

اختصاصه ﷺ بالمقام المحمود ودليله:

ثم له ﷺ بعد هذه الشفاعة العظمى شفاعات أخرى(١) بينتها صحاح الأحاديث.

ولعموم فضل هذه الشفاعة العظمى لأهل الموقف كلهم، قال ﷺ كما في صحيح مسلم: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»[١٠٣].

والسيد مَن يتولى أمر السواد، فظهر عموم سيادته بعموم نفعه.

وقد فسر المقام المحمود بمقام الشفاعة عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما رواه عنه البخاري في «صحيحه»[١٠٤]، وفسره بها غيره[١٠٥].

---

(١) ذكر ابن أبي العز في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٥٧- ٢٥٨) سبع شفاعات أخرى مع الشفاعة العظمى، فليراجعها ثمة من رام الاستفادة.

[١٠٣] **صحيح**:

قطعة من حديث رواه مسلم (١٩٤) عن أبي هريرة مطولًا، وقد تقدم في الذي قبله.

[١٠٤] **صحيح**:

رواه البخاري (٤٧١٨) من طريق آدم بن علي قال سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول:

«إن الناس يصيرون يوم القيامة جثًا، كل أمةٍ تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه اللّه المقام المحمود».

[١٠٥] **صحيح**:

ثبت عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، منهم:

١- حذيفة: أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٩٤) بإسناد صحيح كما قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٥٠٨).

وأخرجه أيضًا الطيالسي في «مسنده» (٤١٤) والبزار (٣٤٦٢ - كشف الأستار) ورجاله رجال=

المسألة الرابعة: هل المقام المحمود خاص به؟

قد علمت من المسألة السابقة أنه مقام الشفاعة العظمى، وهي خاصة به، فهو خاص به.

يدل عليه حديث جابر الصحيح:

«من قال حين يسمع النداء - الأذان -: اللَّهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»[١٠٦].

= الصحيح كما قال الهيثمي (١٠/ ٣٧٧).

٢- عبد اللَّه بن مسعود: أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٢٩٦) والطيالسي في «مسنده» كما في «تفسير ابن كثير» والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٩٨-٦٠٠) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» وتعقبه الذهبي بقوله: «قلت: ما احتجا بأبي الزعراء».

٣- سلمان الفارسي: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٨١٣) والطبراني بإسناد صحيح كما قال المنذري في «الترغيب».

٤- ابن عباس: أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٤٤) وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٦٧) من طريق رشدين بن كريب عن أبيه عنه، وقال:

«ورشدين أحاديثه مقاربة، لم أر فيها حديثًا منكرًا جدًا، وهو - على ضعفه - ممن يكتب حديثه».

بل إن تفسير المقام المحمود بالشفاعة ثبت مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وفي ذلك حديثان صحيحان:

الأول: حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (٢/ ٤٤١و٤٤٤و٤٧٨و٥٢٨) والترمذي (٣١٤٩) وقال: «حديث حسن».

والآخر: حديث كعب بن مالك: أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٦) وابن حبان (٢٥٧٩- الموارد) والحاكم (٢/ ٣٦٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

[١٠٦] صحيح:

رواه البخاري (٦١٤) وغيره عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

وقد كنت خرجته في تحقيقي لِـ«رسالة الشرك» برقم (١١٧). فلا داعي للإعادة.

فهو ﷺ الموعود بالمقام المحمود.

تنبيه وإلحاق:

قد جعل اللّه تعالى جزاء نبيه ﷺ على تهجده وخلوته بربه في مناجاته في هذا المقام الذي يحمده فيه الخلق، ويتقبل فيه شفاعته، ويستجيب دعوته، ويفتح عليه فيه بمحامد من ذكره لم يفتح عليه بها قبل.

ففي هذا تنبيه للمؤمنين على حسن عاقبة القائمين لربهم في جنح الليل، وما يكون لهم من مقامات عند ربهم على حسب منازلهم.

فكما كان المؤمنون ملحقين بنبيهم ﷺ في مشروعية هذه العبادة، كذلك هم ملحقون به في حسن الجزاء عليها، وإن كان قد خصص هو عليه السلام بذلك الجزاء الأعظم، فلهم جزاؤهم من مقامات القرب، والزلفى والقبول، والرضا، على ما يناسب منازلهم، جزاء بما كانوا يعملون[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٣، م٧) غرة ذي القعدة ١٣٤٩هـ - مارس ١٩٣١م.

صدق المدخل والمخرج

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ [الإسراء: الآية ٨٠] .

المناسبة:

مضى في الآيات السابقة ذكر اللَّه تعالى ما كان من المشركين من الكيد لنبيه ﷺ بمحاولتهم فتنته في دينه، واللَّه يثبته، ومبالغتهم في عداوته وإذايته، حتى كادوا يستفزونه ويزعجونه من أرض مكة فيخرجونه منها .

وجاء بعدها أمر اللَّه تعالى بإقامة الصلاة والتهجد بالليل، وفي ذلك أمر اللَّه له بالقيام بعبادة ربه والتوجه والانقطاع إليه وعدم المبالاة والاشتغال عن مهام العبادة بهم .

فجاء بعد ذلك الأمر الذي في هذه الآية بسؤاله أن يختار له ، وفي ذلك تفويض أمره إلى ربه، ورضاه بما يختاره له .

فالآيات السابقة أمر بالتجرد لعبادته، وهذه أمر بالتسليم لمشيئته، فبتلك يكون منقطعًا إليه، وبهذه يكون معتمدًا عليه .

الألفاظ:

المدخل : يكون بمعنى الإدخال، ويكون بمعنى زمانه أو مكانه .

المخرج : يكون أيضًا بمعنى الإخراج، وبمعنى زمانه أو مكانه .

الصدق: أصله وصف للقول بمعنى ثبوته ومطابقته للواقع.

ويوصف به الفعل إذاوقع على وجهه، وكما ينبغي أن يكون. وتضاف إليه الأشياء الكاملة في أنفسها، الحسنة في ظاهرها وباطنها.

لدن: بمعنى عند.

السلطان: بمعنى التسلط. يصدق على التسلط على العقول بالحجة وعلى غيرها بالملك والولاية.

النصير: بمعنى ناصر.

التراكيب:

مدخل ومخرج منصوبان على المصدرية أو على الظرفية.

المعنى:

قل يا محمد سائلًا ربك متضرعًا إليه: يا رب أدخلني إدخالًا حسنًا كاملًا تساوى ظاهره وباطنه في الحسن والكمال، وتماثلت بدايته ونهايته وحاله وعاقبته فيهما، أكون فيه على بصيرة ويقين، وثبات وقوة، وأخرجني إخراجًا كذلك.

وإذا كان بمعنى الظرف كان المعنى: أدخلني في مكان حسن أو زمان حسن... إلخ، وأخرجني كذلك.

واجعل لي من عندك تسلطًا بالحق على العقول بالحجة والبرهان، وعلى الملك بالعدل والإحسان. ينصرني ويؤيدني على كل من يقف في طريق دعوتي إليك، وهداية خلقك من جبابرة البغي أو رؤوس الضلال.

توجيه:

قدمنا احتمال المصدرية في مدخل ومخرج لأنه أعم، والعموم أنسب بهذا الدعاء الجليل الذي ليس في ألفاظه ما يدل على التخصيص.

ولما كان الذي يضاف إلى الصدق لا يكون إلا حسنًا لا عيب فيه، ثابتًا لا خلل فيه، وصفنا الإدخال والإخراج بما وصفناهما به، لأن ذلك كله من مقتضى الحسن والكمال والثبوت.

ولما كان السلطان المطلوب هو من عند اللَّه، ولا يكون إلا سلطانًا بالحق، سواء أكان في العلم أم في الحكم؛ فسَّرناه بالحجة والبرهان والعدل والإحسان.

ترجيح:

إذا نظرنا إلى ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: الآية ٧٦].

قيل: إن المراد بمدخل الصدق هو المدينة. ومخرج الصدق هو مكة.

وتكون مكة مخرج صدق لأنه يخرج منها على حق ويقين وبصيرة وبإذن من اللَّه تعالى وتأييده.

وتكون المدينة مدخل صدق لذلك كذلك.

وإذا نظرنا إلى عموم اللفظ حملنا الآية على العموم اعتبارًا بحكم اللفظ، ولا يفوت اعتبار المناسبة لما تقدم، فإن الخروج من مكة ودخول المدينة يكون مما دخل في العموم دخولًا أوليًا، فالحمل على العموم - كما رأيت -

محصل لاعتبار اللفظ واعتبار المناسبة، ولذلك اخترناه.

تطبيق:

كل فرد من أفراد بني الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته لا ينفك عن المداخل والمخارج، فكل ساعة يقضيها من حياته هي مدخل باعتبار دخوله فيها من غيرها، ومخرج باعتبار خروجه منها إلى سواها.

فإن قضاها صادق العقد، صادق القول، صادق العمل، وفارقها كذلك فهي مدخل صدق ومخرج صدق.

وإن قضاها وفارقها سيئ العقد، سيئ القول، سيئ العمل، فهي ليست كذلك، بل هي مدخل كذب وفجور، ومخرج كذب وفجور.

فالإنسان محتاج في كل لحظة من حياته لتوفيق اللَّه وتأييده، وحفظه وإمداده، فجاء هذا الدعاء القرآني منبهًا على هذه العقيدة، مشتملًا على سؤال ما يحتاج إليه الإنسان في جميع شؤونه في حياته وأطواره فيه - من ألطاف ربه.

ولما كان الإنسان في كل لحظة من حياته - لابد - واجدًا معارضًا وصادًا عن الخير والصدق، وقاطعًا في طريق الحق - من نفسه وشياطين الإنس والجن - قرن الدعاء السابق بالدعاء الثاني الذي فيه طلب التأييد من اللَّه بالسلطان المبين، فالدعاءان - على اختصارهما وإيجازهما - قد جمعا للإنسان كل حاجته من تحصيل الخير ودفع الشر، فهما من أعظم الأدوية الربانية للإنسان، ومن أعظم وسائله الشرعية إلى خالقه، فما أحراهما بأن يلهج بهما في كثير من أوقاته.

استنباط:

إذا علَّمنا اللَّه تعالى دعاء، ففي ضمن ذلك التعليم تعليم آخر لنا كيف نعمل ما يناسب ذلك الدعاد، وكيف نسلك السلوك الذي هو مظنة الاستجابة.

فلما علَّمنا تعالى - مثلًا - كيف ندعوه بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٦]، كان في ذلك إرشاد لنا إلى سلوك الطريق المستقيم، والاهتداء بأهله، والمباينة لغيرهم.

فكذلك هنا لمَّا علَّمنا كيف ندعوه بالحفظ والتوفيق في المدخل والمخرج، كان في ذلك إرشاد لنا إلى ما ينبغي لنا أن نكون عليه في مداخلنا ومخارجنا، وجميع مصادرنا ومواردنا من تحري ما فيه مرضاته واجتناب ما فيه سخطه.

ولما علَّمنا كيف ندعوه بالتقوية والتأييد بسلطان من لدنه مبين، كان في ذلك إرشاد لنا أن نكون أهل قوة في الأيدي، وقوة في البصائر، ودفاع عن الحق بما استطعنا من قوة.

سلوك وامتثال:

فعلينا أن لا ندخل في أمر إلا على بصيرة به وعلم بحكم اللَّه تعالى فيه، وأن دخوله خير، وأن لا نخرج من أمر إلا على بصيرة وعلم كذلك، لا فرق بين أمر وأمر، من كبير وصغير، وجليل وحقير، ونكون - مع بذل غاية ما عندنا من نظر واختيار - معتمدين على ربنا، واثقين بحسن اختياره لنا، مسلمين له فيما اختاره، ضارعين له، مظهرين فقرنا وحاجتنا في كل حال.

وعلينا أن نحصل من الأسباب ما يحصل لنا قوة العلم وقوة العمل، لنكون أهلًا للدفاع عن الحق وحزبه، ومقيمين لسلطان اللَّه في أرضه بالحق والعدل والإحسان، معتمدين - مع تحصيل تلك الأسباب - على اللَّه وحده، ومنتظرين منه الفرج والتيسير.

هذان هما الأصلان الأساسيان في سلوك أهل اللَّه: التمسك بالحق، ومدافعة الباطل، فاستمسك بهما تكون - بإذن اللَّه - من الفائزين.

* * *

مجيء الحق وزهوق الباطل
واستجابة دعاء الصادقين

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: الآية ٨١] .

المناسبة:

لما أمر اللَّه تعالى نبيه أن يدعوه بحسن المدخل والمخرج والنصرة والتأييد، أمره أن يعلن استجابته لدعوته بمجيء الحق، وفي ذلك نصره، وذهاب الباطل، وفي ذلك هلاك أعدائه وذهاب دولتهم.

هذا على النظر العام.

وأما على النظر الخاص فإن اللَّه تعالى بعدما ذكر أن أعداءه كادوا يستفزونه من الأرض، وأمره أن يتوجه إلى عبادته ودعائه، ذكر في هذه الآية ما كان من نصره على المشركين، وفتح مكة عليه، وتنكيس الأصنام التي هي باطلهم، وإعلان كلمة التوحيد الذي هو دينه وهدايته.

ولذلك كان النبي ﷺ يتلو هذه الآية عندما كان يشير إلى الأصنام فتسقط إلى الأرض.

ففي «الصحيح» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول اللَّه ﷺ دخل مكة (يعني عام الفتح) وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا، جاء الحق**

وما يبدئ الباطل وما يعيد»[١٠٧].

الألفاظ:

الحق: الثابت الذي لا يعتريه زوال.

الباطل: الذي لا ثبات له في نفسه.

فالإسلام حق ويشمل كل ما هو طاعة.

والشرك والكفر باطل، ومثله كل ما هو معصية.

زهقت الروح: خرجت، وزهق الباطل: ذهب واضمحل.

الزهوق: الهالك الذاهب.

التراكيب:

جملة (إن الباطل كان زهوقًا) إطناب بالتذييل، المخرج إخراج المثل لتأكيد منطوق الكلام السابق.

وشبه الباطل الذي غلب بأدلة الحق، فزالت شُبهه من الأذهان، وطواغيته من الأرض، بالحيوان الذي صرع فذبح فزهقت روحه، وذهب على طريق المكنية حيث حذف المشبه به، وهو الحيوان المصروع المذبوح، وذكر المشبه وهو الباطل المغلوب، وأشير إلى المحذوف بذكر لازمه وهو الزهوق.

---

[١٠٧] صحيح:

أخرجه البخاري (٤٢٨٧و٤٧٢٠) ومسلم (١٧٨١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

المعنى:

وقل يا محمد - معلنًا بما أظهر اللَّه على يدك، وما قضى به من نصرك، وما أجاب من دعائك -: جاء الإسلام والتوحيد بأدلته وحججه وقوته وسلطانه، وذهب الكفر والشرك فبطلت شبهه، واضمحلت دولته، وأصبح الحق غالبًا والباطل مغلوبًا، وكذلك كان الباطل شأنه الذهاب والاضمحلال.

صدق وعد اللَّه ﷻ:

نزلت هذه الآية بمكة والنبي ﷺ - وأصحابه رضوان اللَّه تعالى عليهم، يلقون من ا لمشركين ما يلقون و المسلمون في ضعف - من العدد - وقلة، والمشركون في قوة، وكثرة، فكانت هذه الآية وعدًا بما سيكون من غلبتهم وقوتهم وكثرة عددهم، فيبطل الشرك ويذهب سلطانه.

وقد صدق اللَّه وعده، ففتح عليهم مكة وتمت لهم على المشركين النصرة.

وللإشارة إلى إنجاز هذا الوعد وصدق الخبر، قرأ النبي ﷺ الآية يوم فتح مكة كما تقدم.

تفصيل:

مجيء الحق هو بظهور أدلته وقيام دولته، وزهوق الباطل هو ببطلان شُبهه وذهاب دولته.

فأما القسم الأول: فإن الأمر فيه ما زال ولن يزال كذلك، ولن تزداد على الأيام أدلة الحق إلا اتضاحًا، ولن تزداد شُبه الباطل إلا افتضاحًا.

وأما القسم الثاني : فإنه مرتبط بأحوال أهل الحق وما يكونون عليه من تمسك به وقيام فيه ، أو إهمال له وقعود عنه ، فيدال لهم ، ويدال عليهم بحسب ذلك .

عقيدة:

يرتبط قلب المسلم مطمئنًا على أن ما هو عليه من الإسلام حق لا شك فيه ، وأنه مؤيد منصور ما تمسك به ، وأنه إذا خذل فإنما جاءه ذلك من ناحية نفسه .

وعلى أن ما عدا الإسلام هو باطل لا شك فيه ، وأن صاحبه هالك عند ربه ، وأن ما يكون له من سلطان لم يأته من جهة باطله وإنما جاءه من أسباب عمرانية مما يقتضيه الحق وفرط فيه أهله ، فحرموا ثمرته .

سلوك:

على أهل الحق أن يكون الحق راسخًا في قلوبهم عقائد وجاريًا على ألسنتهم كلماتٍ، وظاهرًا على جوارحهم أعمالًا ، يؤيدون الحق حيثما كان وممن كان ، ويخذلون الباطل حيثما كان وممن كان ، يقولون كلمة الحق على القريب والبعيد، على الموافق والمخالف ، ويحكمون بالحق كذلك على الجميع ، ويبذلون نفوسهم وأموالهم في سبيل نشره بين الناس وهدايتهم إليه بدعوة الحق وحكمة الحق وأسبابه ووسائله ، على ذلك يعيشون وعليه يموتون .

فلنجعل هذا السلوك سلوكنا وليكن من همِّنا .

فما وفينا منه حمدنا اللَّه تعالى عليه، وما قصرنا فيه تُبنا واستغفرنا ربنا.

فمن صدقت عزيمته ووطَّن على العمل نفسه - أُعين ويُسِّر للخير. وربك التواب الرحيم[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٤، م٧)، غرة ذي الحجة ١٣٤٩هـ- أفريل ١٩٣١م.

القرآن شفاء ورحمة

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٢] .

المناسبة:

لما جاء في الآية السابقة الإخبار بمجيء الحق، وفي مجيئه صحة الأرواح والأبدان والأحوال، وبزهوق الباطل، وفي ذهابه ذهاب العلل والأمراض كذلك - جاء في هذه الآية بذكر القرآن، والإخبار عما جاء فيه من الشفاء والرحمة تنبيهًا على أنه هو الشافي من أمراض الباطل وعِلَله، وأنه هو مصدر الحق وحجة ناصره، ومحصل الرحمة لأتباعه والمتمسكين به .

المفردات:

مِن : لابتداء الغاية أو للتبعيض، لأنه نزل مبعضًا، فكل بعض نزل منه فهو شفاء ورحمة .

الشفاء : البرء من المرض، مرض الأبدان أو مرض النفوس .

الرحمة : النعمة .

الظلم : وضع الشيء في غير محله، كوضع الكفر موضع الإيمان .

الخسار : النقص والضياع، يكون في الأموال، يقال خسر ماله، إذا ضيعه .

ويكون في النفوس، فيقال: خسر نفسه، إذا ضيعها ولم يستعملها فيما خُلقت له من الطاعة والكمال.

ويكون في الدين، فيقال خسر دينه إذا ضيعه ولم يعمل به.

فخاسر القرآن هو من ضيعه ولم يؤمن به.

التراكيب:

قرنت جملة (ننزل) بالواو مع أن ما قبلها إنشائية. وذلك على وجهين:

الأول: أن تكون معطوفة على (جاء الحق)، أي وقُلْ ننزل، فعطفت الخبرية على الخبرية التي لها محل، وهو المفعولية بالقول.

الثاني: أن تكون الواو للاستئناف، وهي في الحقيقة صلة في الكلام لتقويته.

وقرنت جملة (لايزيد) بالواو، لأنها معطوفة على جملة الصلة، وعبر بالمضارع في (ننزل) و(يزيد)، قصدًا لمعنى التجدد، لأن الآيات كانت تنزل شيئًا فشيئًا.

وتنكير شفاء ورحمة للتعظيم.

وقدم الشفاء لأنه برء من النقص، على الرحمة لأنها حصول الكمال، تقديم التخلية على التحلية.

وآيات القرآن سبب في حصول الشفاء، فجعلت هي شفاء على طريق المبالغة، تنبيهًا على تحقق حصوله بها.

المعنى:

وننزل عليك يا محمد بحسب الوقائع والمناسبات آيات من القرآن العظيم، هي شفاء يستشفي بها المؤمنون، ، ونعمة عظيمة أنعمنا بها عليهم، يؤمنون بها، ويحلُّون حلالها، ويحرِّمون حرامها، ويعملون بمافيها، فينالون سعادة الدنيا والآخرة.

أما الكفار الظالمون الذين قابلوا بالكفر ما يجب أن يقابل بالإيمان، وقابلوا بالرد ما يجب أن يقابل بالقبول، فإن نزول تلك الآيات، يكون سببًا في زيادة خسارهم وضياع الخير عليهم، إذ كل آية من تلك الآيات كانت كافية في شفائهم لو استشفوا بها، ونزول الرحمة عليهم لو اهتدوا بها إلى الإسلام، لكنهم يقابلون كل آية بالكفر والجحود، فيخسرون في كل مرة كنزًا عظيمًا، وهكذا يزداد خسارهم بقدر كفرهم المتجدد بنزول الآيات.

تنظير:

وصف اللَّه تعالى القرآن بأنه شفاء في مواضع من كتابه، منها هذه.

ومنها قوله تعالى في سورة يونس عليه السلام: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: الآية ٥٧].

ومنها في سورة فصلت[1]: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فُصّلَت: الآية ٤٤].

وأفادت الآيات كلها أنه شفاء لأهل الإيمان الذين يؤمنون، دون غيرهم

(١) في الأصل: «السجدة».

فإنهم بإعراضهم عنه كانوا من الخاسرين.

وجاءت آية يونس بتقييد الشفاء بها في الصدور الذي هو العقائد، لأن ذلك هو المقصود الأول من هداية القرآن، وأصل لغيره، فإنه إذا شفيت الصدور من عقائد السوء ونزغات الشكوك، واعتقدت الحق، وارتبطت على اليقين؛ زكت النفوس، واستقام سلوك الإنسان: فرده وجماعاته، ورقي درجات الكمال.

فلا ينافي ذلك أن القرآن شفاء أيضًا للنفوس من سيئ الأخلاق، كما هو مقتضى الإطلاق في آية الإسراء هذه، وآية فصلت[1]، لأن الأخلاق ناشئة عن العقائد، ولازمة لها، ولأنهما كليهما - العقائد والأخلاق- لا تكمل النفس الإنسانية إلا بالشفاء فيهما.

ولا ينافي أيضًا حصول الشفاء للأبدان بالقرآن في بعض الأحوال، كما هو مقتضى الإطلاق أيضًا، ومقتضى ما سيأتي من الآثار، وإن كان هذا ليس هو المقصود بالقصد الأول من شفاء القرآن.

تقسيم:

الأمراض الإنسانية قسمان: أمراض أرواح، وأمراض أبدان. وكلاهما أنواع.

وأمراض الأرواح المقصودة بالذات هنا ترجع إلى نوعين: مرض العقول، ومرض النفوس.

---

(١) في الأصل: «السجدة».

فالأول: بجمود النظر، وفساد الإدراك، وتقليد الآباء، واعتقاد الباطل، والشك في الحق.

والثاني: بفساد الأخلاق، وانحطاط الصفات.

أما الأعمال فهي تابعة لهما، فتصلح بصلاحهما، وتفسد بفسادهما.

والقرآن قد جاء داعيًا إلى النظر والتفكر والاعتبار والتدبر، مبينًا - بما ساق من حجج اللَّه وحجج رسله - الطريق الأقوم في الإدراك الصحيح، والسبيل الأسد في الفهم والتفهيم، ناعيًا على المقلدين تقليدهم، كاشفًا لأهل الباطل عن باطلهم، ذاكرًا من قواطع البراهين البينة الواضحة ما لا يبقى معه خفاء في الحق ولا ريب.

وجاء أيضًا مبيِّنًا للأخلاق الفاسدة، وذاكرًا سوء أثرها، وقبح مغبتها، مبينًا كذلك الأخلاق الصحيحة، وعظيم نفعها وحسن عاقبتها؛ فهذا شفاؤه للنفوس والعقول، وهو راجع إلى تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، وبهما سلامة الأرواح وكمالها، وعليهما قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها.

على أن القرآن هو شفاء للاجتماع البشري، كما هو شفاء لأفراده، فقد شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس، ما فيه العلاج الكافي، والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني من جميع أمراضه وعِلَلِه.

شفاء العقائد والأخلاق، - وهما أساس الأعمال- والمجتمع.

وهذه الثلاثة لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها، وبيان ما هو

شفاء لها .

ولا شفاء لها إلا بالقرآن ، - والبيان النبوي راجع إلى القرآن - ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضًا .

فهذه الأمم الغربية بسجونها ومشانقها ومحاكمها وقوتها ، قد امتلأت بالجنايات والفضائح المنكرة التي تقشعر منها الأبدان .

وهذه الممالك الإسلامية التي تقيم الحدود القرآنية كالمملكة النجدية الحجازية ، والمملكة اليمانية . قد ضرب الأمن رواقه عليهما ، واستقرت السكينة فيها ، دون سجون ولا مشانق مثل أولئك ، وما ذلك إلا لأنهم داووا الملك بدواء القرآن ، فكان الشفاء التام .

وأما الأمراض البدنية ، فقد قال رسول اللَّه ﷺ :

«**ما أنزل اللَّه داء إلا أنزل له شفاء**»[١٠٨] .

رواه البخاري من طريق أبي هريرة .

وقال : «**لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن اللَّه تعالى**»[١٠٩] .

رواه مسلم من طريق جابر .

وثبت عنه أنه داوى وتداوى .

---

[١٠٨] صحيح :

رواه البخاري (٥٦٧٨) عن أبي هريرة ﷺ .

[١٠٩] صحيح :

رواه مسلم (٢٢٠٤) عن جابر ﷺ .

وروى الأئمة من ذلك عنه الكثير الطيِّب في كتاب الطب من «صحيح البخاري» وغيره.

وثبت عنه ﷺ أنه استشفى واسترقى ببعض آيات القرآن العظيم، وأقر على ذلك من فعله من أصحابه.

روى البخاري من طريق يونس عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها قالت:

«كان رسول اللَّه ﷺ، إذا أوى إلى فراشه، نفث في كفيه بـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وبالمعوذتين جميعًا، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده.

قالت عائشة: فلما اشتكى، كان يأمرني أن أفعل ذلك به.

قال يونس: كنت أرى ابن شهاب يصنع ذلك إذا أتى إلى فراشه»[١١٠].

وروى الشيخان، واللفظ للبخاري، عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه تعالى عنه قال:

«انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم واللَّه، إني لأرقي، ولكن واللَّه لقد استضفناكم فلم تضيفونا،

---

[١١٠] صحيح:

رواه البخاري (٥٧٤٨) عن عائشة رضي الله عنها.

فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جعلًا(١)، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فكأنما أنشط(٢) من عقال(٣) فانطلق يمشي وما به قلبة(٤)، قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ، فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا. فقدموا على رسول اللَّه ﷺ فذكروا له، فقال:

«وما يدريك(٥) أنها رقية». ثم قال: **«قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهمًا»**، فضحك رسول اللَّه ﷺ[١١١].

ثبت بهذين الحديثين أن في القرآن شفاءً للأبدان.

وحصل عندنا من جميع ما تقدم أنه شفاء للأرواح والأبدان، للأفراد والمجتمع.

مداواة الأبدان، بالطب والقرآن:

ثبت عنه ﷺ الأمر بالتداوي قولًا وعملًا، وثبت عنه الاستشفاء بالقرآن، ولا منافاة بينهما، فإن الإنسان مركب من روحٍ من عالم النور، وجسمٍ من عالم المادة المركبة.

---

(١) هو الأجرة على الشيء.

(٢) حل.

(٣) حبل يشد به ذراع البهيمة.

(٤) بحركات أي علّة.

(٥) تعجب من قوله على أنها رقية وإصابته في ذلك.

[١١١] صحيح:

رواه البخاري (٢٢٧٦) واللفظ له، ومسلم (٢٢٠١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فمن الحكمة الإلهية، أن شرع اللَّه لنا عند الأمراض على لسان رسوله ﷺ الجمع بين الأدوية المادية التي هي المناسبة للبدن، ، والآيات القرآنية التي هي المناسبة للروح، مع ما في الأدوية القرآنية من اطمئنان القلب باللَّه وقوَّته به وانتعاشه بذكره.

وفي ذلك من تقوية للروح ونعيمها ما يهوِّن عليها ألم المرض، ويغلبها بإذن اللَّه تعالى عليه.

ومثل الآيات القرآنية في ذلك، كل ما ثبت في السنة من الرقى النبوية المأثورة.

تحذير:

فرَّط قوم فأهملوا الاستشفاء بالذكر المأثور، واقتصروا على الدواء المادي، فحرموا أنفسهم من خير كثير إذا لم يكونوا له كالمنكرين!.

وأفرط آخرون، فأهملوا الدواء المادي، وزهَّدوا الناس فيه، وتزيَّدوا في جانب المأثور، حتى خرجوا عنه، واتخذوا لهم من ذلك حرفة وموردًا للمعاش، ونسوا أنواع أشفية القرآن الروحية والاجتماعية التي هي المقصودة بالقصد الأول من تنزيله، مقتصرين على الوجه الذي وجدوا منه سبيلًا إلى الاسترزاق على ما أحدثوا فيه وما ابتدعوا. فعكسوا الأمر، وخالفوا السنة ووقعوا في المحظور من عدة وجوه.

هذان الطرفان مذمومان.

والعدل هو الوسط الذي لا يهمل هذا ولا ذاك، ويقف في الوارد عندما ورد، ويتناوله على ما ورد.

تطبيق:

نزول الآيات في الكافرين لا يمنع من تطبيقها على من شاركهم في مثل الحال الذي أنكرته عليهم من المؤمنين، لأن الوصف المذوم مذموم، سواء أكان المتصف به مؤمنًا أم كان كافرًا.

فالذين تتلى عليهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتوضح لهم الدلائل الشرعية، وهم عنها معرضون، وعن تدبرها غافلون، وبها متهاونون - يزدادون بكل مرة إثمًا بإعراضهم وغفلتهم وتهاونهم، فيخسرون بقدر ما يفوتهم من الهداية على حسب حالهم، وإذا لم يكن خسارهم كخسار الكافرين، فهو كخسار المعرضين الغافلين المتهاونين، وكفى به خسارًا يتنزه عنه المؤمنون ويأباه الراشدون.

سلوك:

نتناول القرآن العظيم دواءً من عند ربنا، شفاءً لأمراض عقولنا، وأمراض نفوسنا، وأمراض مجتمعنا، فنتطلب ذلك منه بتدبر آياته، وتفهم إشاراته، ووجوه دلالاته، وشفاءً أيضًا لأبداننا، فنفعل كما كان يفعل النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه على ما تقدم في حديث عائشة رضي اللَّه تعالى عنها، وعلى ما جاء من نحو ذلك مما ثبت عنه عليه وآله الصلاة والسلام، وانتهى إليه علمنا، غير مقصِّرين ولا غالين، وعلى ربنا متوكلين، سائلين أن يشفينا بالقرآن أجمعين، آمين يا رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٥، م٧) محرم ١٣٥٠هـ- ماي ١٩٣١م.

صفتان من صفات النوع الإنساني: الإعراض عن النعمة واليأس من الرحمة

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٣] .

تمهيد:

في النوع الإنساني غرائز غالبة عليه، لا يسلم منها إلا من عصم اللَّه أو وفق إلى الإيمان والعمل الصالح.

وفي آيات القرآن العظيم بيان لكثير من تلك الغرائز، للتحذير من شرها، والتنبيه على سوء مغبتها، منها هذه الآية الكريمة.

المناسبة:

لما ذكر تعالى أن القرآن يكون شفاءً ورحمةً للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا؛ بين تعالى سبب خسار أولئك الظالمين، وهو إعراضهم عن اللَّه وبعدهم منه ويأسهم من رحمته.

وعلم منه أن المؤمنين الذين كان القرآن لهم شفاءً ورحمةً هم على الضد منهم، فهم أهل إقبال على اللَّه تعالى، وقرب منه، ورجاء فيه.

المفردات:

(أنعمنا): أوصلنا أنواع الإحسان.

(الإنسان): المراد به النوع باعتبار مجموعه، فلا ينافي خروج أفراد كثيرين بالعصمة والتوفيق.

(أعرض): صد بوجهه إلى ناحية أخرى فأرى عرض وجهه، أي ناحية وجهه.

(نأى): بَعُد.

(بجانبه): بناحيتيه بشقه الأيمن أو الأيسر، والباء للتعدية أي أبعد جانبه.

(مسه): أصابه.

(الشر): البلايا والرزايا بأنواعها.

(يئوسًا): شديد اليأس والقنوط وعدم انتظار الفرج.

التراكيب:

جيء بفعل الشرط وجوابه ماضيين[1] لتحقق وقوعهما، ولذلك كان التعليق بإذا وجواب الشرط، والفعل والمعطوف عليه فيهما الصورة التامة للمعرض غاية الإعراض، فإنه يصرف عنك وجهه، وهذا مفاد الفعل الأول، ويلوي عنك عطفه، ويبعد جانبه، ويوليك ظهره، وهذا مفاد الفعل الثاني.

ثم هما كناية عن الاستكبار وعدم الاكتراث والالتفات إلى مولى النعم، سواء حصلت هذه الصورة بالفعل أو لم تحصل.

---

(١) في الأصل: «ماضين».

المعنى:

وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض تمام الإعراض:

إما بعدم قبول تلك النعمة استكبارًا أو تهاونًا كما يكون من الذين يكفرون بالقرآن أو يخالفونه، وهو من أعظم نعم اللّٰه عليهم.

وإما بعدم القيام بحق اللّٰه في تلك النعمة، وعدم شكره عليها، كنعمة العقل والبدن والحال وغيرها، إذا لم تستعمل في طاعة اللّٰه ولم يقم بحقه فيها.

وإذا مس الإنسان الشر ونزلت به المصائب، وحلت به النوائب، استولى عليه اليأس والقنوط، وانسدت في وجهه أبواب الرجاء.

توجيه:

يرتبط اليأس من رحمة اللّٰه بالإعراض عن نعمته من جهتين:

الأولى: أن من أعرض عن نعمة اللّٰه فقد قطع صلته بخالقه، وذهب ممعنًا في بُعده، فإذا نزلت به المصيبة كان كالمنقطع به في البيداء، يجد نفسه وحده، فيأخذه اليأس والقنوط من كل جانب.

الثانية: أن الإعراض عن النعمة ترك لها ولموليها، والآيس متروك لوحده مغضوب عليه، قد ترك فترك، وكان جزاؤه من جنس عمله.

انتقال واعتبار:

هذه حالة أهل الإعراض.

أما أهل الإقبال على اللَّه تعالى والقبول لإنعامه، فإن قلوبهم عامرة باللَّه وصلتهم متينة به، فإذا نزلت بهم المصائب رجعوا إليه وانتظروا رحمته، فكان ذكره غناهم في الفقر، وأنسهم في الوحشة، ونعيمهم في الألم، وكان لهم من الرجاء في أنواع رحمته ما يهون عليهم جميع المصائب.

تبصير وتحذير:

بصرنا القرآن في هذين الوصفين الذميمين: الإعراض عن النعمة، واليأس من الرحمة، ونحن نراهما فاشيين في أكثر الناس على تفاوت بينهم على حسب ما عندهم من إيمان وعمل صالح.

بصرنا القرآن بهما ليحذرنا منهما ومن سوء عواقبهما، فإن الإعراض عن النعمة كفر بها ومقتضٍ لسلبها، وإن اليأس من رحمة اللَّه جهل به وكفر بما هو متقلب فيه من نعمه، وموجب لانطماس القلب وشلل البدن وانقطاع الأعمال.

فليحذر المؤمن من هذين الوصفين الذميمين، وليعمل على اجتنابهما واجتثاثهما من أصلهما.

سلوك:

على المرء أن يَقبل نعم اللَّه تعالى ويُقبل عليها إقبال المستعظم لها، العارف بحقها وعظيم الفضل بها، ليقوم بشكرها وذكر اللَّه عندها، وليتفحصها وليتأملها نعمة نعمة، ليشكر اللَّه عليها واحدة واحدة، بالقلب واللسان والأركان حسب المستطاع، حتى ما يكون من باب المصائب والآلام فإنه يتناوله على أنه نعمة من اللَّه تعالى بما فيه من أجر وتمحيص، وما

يحصل به من رجوع وإنابة، وما يكون منه من تربية وتدريب على السلوك اللازم في الحياة الفردية والاجتماعية.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: الآية ٣٠].

وليكن دائمًا متمسكًا بحبل الرجاء في اللَّه في تيسير الأسباب، وكشف الكروب، ودفع المكروه.

فالرجاء حسن ظن في الرب، وقوة في القلب، وباعث على العمل، ومخفف أو مذهب للألم.

فيالها من طاعة عظيم أجرها، جليل نفعها في الدنيا والدين.

فهنيئًا للشاكرين الراجين، ويا ويح الكافرين - كفر عقيدة أو كفر نعمة - القانطين.

* * *

مباينة سلوك أهل الحق لسلوك أهل الباطل

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٤] .

المناسبة:

قد استفيد مما تقدم تقسيم الخلق إلى قسمين: أهل إيمان ورجاء، وأهل كفر وقنوط، فجاء البيان في هذه الآية بأن كل فريق له مذهبه وطريقه الذي يكون عليه .

المفردات:

(شاكلته): طريقته ومذهبه المشاكلة له اللّائقة به التي صارت له طبيعة وخلقًا .

(أهدى سبيلًا): أسدُّ مذهبًا وأقوم طريقًا .

التراكيب:

التعبير بالمضارع مع لفظة (على) يفيد تجدد العمل وانبناءه على الخلق والطبيعة .

المعنى:

قل يا محمد ﷺ كل فريق منا ومنكم يعمل في حياته على طريقته ومذهبه، فأعمالنا مباينة لأعمالكم، لأن طريقتنا مباينة لطريقتكم، فربكم أعلم بمن هو أقوم طريقًا وأسدُّ مذهبًا، فيثبِّت المهتدين ويعاقب الضالين .

ومن فوائد الآية الكريمة:

استدراج الضال لقبول الهداية: وذلك بمناصفته بأنك على ناحيتك، وهو على ناحيته، وإظهار التساوي معه أمام علم اللَّه وقدرته، وهذا من أنفع الأسباب في نجاح الدعوة، وعليه في القرآن آيات كثيرة منها سورة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، فينبغي لدعاة الحق أن يلتزموه ولا يهملوه.

والبراءة من أهل الباطل: وذلك بإعلان المباينة لهم، والمخالفة لهم في عملهم، وما انبنى عليه عملهم، بأسلوب المناصفة الذي جاءت به الآية، فتحصل البراءة مع الفائدة المتقدمة.

انبناء الأعمال على العقائد والأخلاق:

فإن الآية: وإن كانت بالخطاب الأول للمشركين ثم لأمثالهم من الكافرين، فإنها تفيد أن كل أحد تبنى أعماله على مذهبه وطريقته التي هي خلقه وطبيعته.

ونأخذ من هذا أن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر، وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله[1].

فعل المؤمن ما يناسب إيمانه:

فإن كل أحد يعمل على طريقته وطبيعته اللائقة به، ولا يليق بالمؤمن ولا

---

(١) كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما الذي أخرجه البخاري (٣٩)، ومسلم (١٥٩٩)، وقد تقدم برقم (٦٩).

يشاكله إلا الصدق في القول والعمل والعدل والإحسان والوفاء والأمانة، فلا يظلم من ظلمه، ولا يخون من خانه، ولا يكذب على من كذب عليه، فلا تجري أفعاله في مقابلة الناقص على ما يشاكل ذلك الناقص، بل تجري أفعاله على ما يشاكله هو في إيمانه وكماله.

مراقبة اللَّه في السلوك:

فإنَّ عِلمَنا بأنه أعلم بمن هو أهدى سبيلًا يدعونا إلى المبالغة في تقويم سلوكنا حتى نكون على الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، فإنه هو أهدى الطريق وأقربها.

وما ذلك الصراط المستقيم إلا القرآن العظيم والهدي النبوي الكريم وسلوك السلف الصالح، وذلك هو دين الإسلام.

نسأل اللَّه لنا ولجميع المسلمين الاستقامة والنجاة يوم القيامة، بمنِّه وكرمه آمين[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٧، م٧) ربيع الأول ١٣٥٠هـ- جوليت ١٩٣١م.

من سورة مريم

تفسير الآية (٩٦)

الودُّ
من إكرام اللَّه لأولياء اللَّه

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريَم: الآية ٩٦] .

سبب النزول، ووعد السابقين:

كان السابقون الأوَّلون من المؤمنين - أوَّل الإسلام بمكَّة - مبغوضين من أهل مكة المشركين، مهجورين منهم، مزهودًا فيهم .

ومن أشد الآلام على النفس وأشقها أن يعيش الإنسان بين قومه مبغوضًا مهجورًا مزهودًا فيه، خصوصًا مثل تلك النفوس الحية الأبية .

فأنزل اللَّه هذه الآية تأنيسًا لأولئك السادة، ووعدًا لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنه سيجعل لهم ودًا فيصيرون محبوبين مرغوبًا فيهم .

وقد حقق اللَّه وعده، فكان أولئك النفر بعد السادة المقدمين من أقوامهم وعشائرهم لسبقهم وفضلهم، وكانوا - وهم قادة الجيوش في الفتوحات الإسلامية - المحبوبين هم وجيوشهم المرغوب فيهم من الأمم التي فتحوها لعدلهم ورحمتهم، ورفعهم لنير الاستعباد الديني والدنيوي الذي كانت تئن تحته تلك الأمم، وأثبت التاريخ أن بعض الأمم الأجنبية دعتهم إلى إنقاذها من أيدي رؤسائها، فكانت هذه الآية من آيات الإعجاز بالإعلام بما يتحقق في الاستقبال مما هو كالمحال في الحال، فكان على وفق ما قال .

عموم الوعد لعموم اللفظ:

الإيمان - وهو التصديق الصادق المثمر للأعمال - والأعمال الصالحة - وهي المستقيمة النافعة المبنية على ذلك الإيمان - هما اللذان جعلهما اللَّه سببًا في تحقيق جعل هذا الود لما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ فيعمُّ ذلك كل أهل الإيمان والعمل الصالح. وهم أولياء اللَّه و﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤].

سبب الود وسبب الجعل:

تُكسَب مودة الناس بأسباب متعارفة بينهم، منها القرابة، ومنها الصداقة، ومنها صنائع المعروف ومآثر الإحسان.

أما هذا الودُّ الذي وعد اللَّه به الذين آمنوا وعملوا الصالحات فسببه جعل من اللَّه له في قلوب العباد لهم دون تودد منهم ولا توقف على تلك الأسباب، فيودهم من لم يكن بينه وبينهم علاقة نسب أو صداقة، ولا وصل إليه منهم معروف، فهذا نوع من الود خاص يكرمهم اللَّه به، وينعم عليهم به الرحمن، من جملة نعمه التي يحدثها ويجددها لهم، زيادة على ما يقتضيه الإيمان والعمل الصالح - ومنه الإحسان - من مودة القلوب.

أما سبب هذا الجعل والوضع والإيجاد من اللَّه لهذا الود والإكرام به فهو الإيمان والعمل الصالح، وهما سبب لإكرامات كثيرة من اللَّه تعالى - هذا الجعل للود منها.

بشارة وتثبيت:

في الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحق، وأنصار السنة، ومرشدي الأمم، عندما يقومون بدعوة القرآن في عشائرهم، ويلقون منهم النفور والإعراض والبغض والإنكار، ويجدون أنفسهم غرباء بينهم يعاديهم من كانوا أحبابهم، ويقاطعهم أقرب الناس قرابة إليهم، ويصبح يؤذيهم من كان يحميهم ويدافع عنهم.

في الآية بشارة لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنهم سيكون لهم على كلمة الحق مؤيدون، وفي اللَّه محبُّون، وسيكون لهم ودٌّ في القلوب ممن يعرفون وممن لا يعرفون.

وفيها أيضًا تثبيت لهم في تلك الغربة ووحشة الانفراد بما يكون لهم من أنس الودِّ وأي ود هو. ودٌّ يكون من جعل الرحمن.

دفع إشكال:

الآية منظور فيها إلى مجموع الذين آمنوا وعملوا الصالحات وغالبهم، فلا يشكل علينا أن منهم من يموت في غُربة الحق قبل أن يكون له على الحق أنصاره، ومنهم من يموت غير معروف من الناس.

كما أن الودَّ الذي يجعل لهم غير منظور فيه للعموم، فلا يشكل ببغض من يبغضهم تعصبًا لهوى، أو تقليدًا لضالٍّ، أو حرصًا على منفعةٍ، ومحافظةً على جاهٍ أو منصبٍ أو مالٍ.

تفسير نبوي:

قال رسول ﷺ: «إن اللَّه إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبَّه، فيحبُّه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن اللَّه يحبُّ فلانًا فأحبوه، فيحبُّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.

وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي (جبريل) في أهل السماء: إن اللَّه يبغض فلانًا فأبغضوه، فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»[١١٢].

---

[١١٢] صحيح:

رواه -كما قال المصنف- بهذا اللفظ مسلم (٢٦٣٧) عن أبي هريرة، وكذا أحمد (٢/ ٤١٣و٥٠٩) والترمذي (٣١٧٣/ ١) إلا أنه زاد قبل قوله: «وإذا أبغض»:

«فذاك قول اللَّه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريَم: الآية ٩٦]».

وقال: «حديث حسن صحيح».

ورواه مالك (٤/ ٣٤٨/ ١٨٤٢) ومن طريقه مسلم ولم يسق لفظه، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٤٧) وأحمد (٢/ ٢٦٧و٣٤١) بنحوه.

ورواه البخاري (٣٢٠٩و٦٠٤٠و٧٤٨٥) دون ذكر البغض، وهي رواية لمسلم وأحمد (٢/ ٥١٤).

وللحديث شاهدان:

١- عن ثوبان: أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٩) والطبراني في «الأوسط» (١٢٦٢) وسيأتي لفظه قريبًا، وقال الهيثمي (١٠/ ٢٠٢) بعد عزوه لأحمد: «ورجاله رجال الصحيح غير ميمون بن عجلان وهو ثقة».

وعزاه في (١٠/ ٢٧٢) للطبراني في «الأوسط» وقال: «رجاله ثقات».

٣- عن أبي أمامة: أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٣) بسند ضعيف، فيه شريك بن عبد اللَّه القاضي وهو سيئ الحفظ لكنه حسن في الشواهد والمتابعات.

ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» (٣٦٣٩و٦٥٧٨) وقال الهيثمي (١٠/ ٢٧١): «ورجاله وثقوا».

وأما الزيادة التي أشار إليها المصنف: =

رواه بهذا اللفظ مسلم، ورواه البخاري وغيرهما.

وزاد الطبراني «ثم قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريَم: الآية ٩٦].

فارتبط الحديث بالآية بزيادة الطبراني.

وبيَّن النبي ﷺ بقراءة الآية أن هذا القبول الذي يجعل لمن أحبه اللَّه في أهل الأرض - والمراد بهم من يعرفونه منهم - هو نوع الود المذكور في الآية.

وبيَّن أن أهل القبول في الأرض محبوبون في أهل السماء قبل أهل الأرض.

= فرواها أيضًا الطبراني في «الأوسط» (٢/ ١٣٩-١٤٠/ ١٢٦٢) عن ثوبان مرفوعًا:

«إن العبد يلتمس مرضاة اللَّه ﷻ، فلا يزال كذلك، فيقول اللَّه: يا جبريل، إن عبدي فلانًا يلتمس أن يرضيني، فرضائي عليه. قال: فيقول جبريل عليه السلام: رحمة اللَّه على فلان، وتقول حملة العرش، ويقول الذين يلونهم، حتى يقوله أهل السموات السبع ثم يهبط إلى الأرض، فقال رسول اللَّه ﷺ: وهي الآية التي أنزل اللَّه عليكم في كتابه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريَم: الآية ٩٦].

وإن العبد ليلتمس سخط اللَّه، فيقول اللَّه ﷻ: يا جبريل، إن فلانًا يسخطني، ألا وإن غضبي عليه، فيقول جبريل: غضب اللَّه على فلان، ويقول حملة العرش، ويقول من دونهم، حتى يقوله أهل السموات السبع ثم يهبط إلى الأرض».

وقال: «لا يُروى هذا الحديث عن ثوبان إلا بهذا الإسناد، تفرد به ميمون».

وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٧٢): «ورجاله ثقات».

وسكت الحافظ عنه في «الفتح» (١٠/ ٥٦٧).

قلت: وللزيادة شاهد عن أبي هريرة: أخرجه الترمذي - كما تقدم قريبًا - وابن أبي حاتم - كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٩١)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

وأشار الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٥٦٧) إلى ثبوتها.

وبيَّن أن سبب ذلك القبول هو محبة اللَّه لهم، فمن أحبهم حبَّبهم لعباده.

ولما كان سبب القبول محبة اللَّه لهم، بيَّن ﷺ أن بغض اللَّه سبب في بغض الخلق لهم، إذ ما تسبَّب عن أحد الضدين يتسبب عن الآخر ضده.

ولما كانت محبة اللَّه مسببة عن الإيمان والعمل الصالح، فبغض اللَّه مسبب عن ضدهما، إذ ما تسبب عنه أحد الضدين يتسبب عن ضده الضدُّ الآخر.

وكما كان ذلك الود والقبول يكون شيئًا زائدًا على ما تقتضيه أسباب الود بين الناس، كذلك تكون هذه البغضاء التي يهين اللَّه بها ويعاقب من يشاء، زيادة على ما تقتضيه أسباب البغضاء بينهم، فيكون هذا الذي وضعت له البغضاء - والعياذ باللَّه - مبغوضًا حتى ممن لم يكن منه إليه شيء من أسباب البغض.

تبيين وتعيين:

قد يكون الأتباع والمحبون والراغبون لأهل الحق ولأهل الباطل، لأئمة الهُدى ولرؤوس الضلال، لدعاة الإتباع ولدعاة الابتداع.

ولكن أهل المحبَّة من اللَّه والود والقبول من العباد هم أهل الحق وأئمة الهدى ودعاة الاتباع للكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالحون، لا لأنفسهم والتحزب لهم وجلب النفع لهم، والذي يعينهم لهذه الكرامة دون غيرهم هو اتباعهم للنبي ﷺ في سيرته ودعوته. وما كانت دعوته إلا للقرآن وبالقرآن دون أن يسأل على ذلك من أجر.

وهذا لأن الود والقبول عند العباد مسببان عن محبة اللّٰه للعبد، ومحبة اللّٰه لا تكون إلا للمتبعين للنبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١].

فكرامة الود والقبول إنما هي للمتَّبعين له ﷺ، فأمَّا غيرهم فما يكون لهم من قبول عند أمثالهم فهو فتنة وبلاء عليهم.

إرشاد:

أفادت الآية الكريمة والحديث الشريف أن على المسلم أن يتمسك بالإيمان والعمل الصالح والاتباع للنبي ﷺ ولو كان في قوم انفرد بينهم بذلك وحده. ولا يستوحش من انفراده بينهم. فحسبه رضى اللّٰه ومحبته وكفى بهما أنسًا.

وليثق بأنه - إن صدق ومدَّ اللّٰه في عمره- يكون له ودٌّ وقبول في عباد اللّٰه وأنس بمن يحبهم ويحبونه للّٰه، وتلك المحبة النافعة الدائمة والصلة المتينة الجامعة التي تجمع بين أهلها في الدنيا والآخرة.

جعلنا اللّٰه والمسلمين من العاملين له المتحابين فيه[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٤، م١١) ربيع الثاني ١٣٥٤هـ- جويلية ١٩٣٥م.

من سورة طه

تفسير [الآية: ١١٤]

من آداب المتعلم
حسن التلقي وطلب المزيد

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤] .

لا حياة إلا بالعلم، وإنما العلم بالتعلم(١)، فلن يكون عالمًا إلا من كان متعلمًا، كما لن يصلح معلمًا إلا من قد كان متعلمًا .

ومحمد ﷺ الذي بعثه اللَّه معلمًا(٢) كان أيضًا متعلمًا . علمه اللَّه بلسان جبريل، فكان متعلمًا عن جبريل عن رب العالمين. ثم كان معلمًا للناس أجمعين .

أرأيتَ أصل العلم ومَن معلِّموه ومتعلِّموه؟

ثم أرأيت شرف رتبة التعلُّم والتعليم؟

---

(١) ثبت ذلك في حديث مرفوع، أورده ابن أبي عاصم والطبراني من حديث معاوية رضي الله عنه بلفظ: «يا أيها الناس، تعلموا، إنما العلم بالتعلّم، والفقه بالتفقه، ومن يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين» .
قال الحافظ في «الفتح» (١/ ٢١٢): «إسناده حسن، إلا أن فيه مبهمًا اعتضد بمجيئه من وجه آخر، فروى البزار نحوه من حديث ابن مسعود موقوفًا، ورواه أبو نعيم الأصبهاني مرفوعًا. وفي الباب عن أبي الدرداء وغيره». قال: «والمعنى ليس العلم المعتبر إلا المأخوذ من الأنبياء وورثتهم على سبيل التعلم» .

(٢) كما في الحديث الصحيح: «إن اللَّه لم يبعثني مُعَنِّتًا ولا مُتعنِّتًا، ولكن بعثني مُعَلِّمًا ميسرًا». أخرجه مسلم (١٤٧٨) عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما .
وله شاهد عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما عند الدارمي (١/ ٩٩) وابن ماجه (٢٢٩) .

لا جرم كان لرتبة التعلم آدابها، ولرتبة التعليم آدابها.

وكان محمد ﷺ أكمل الخلق في آدابهما بما أدبه اللَّه وأنزل عليه من الآيات فيهما، مثل آيتنا اليوم وغيرها.

لزوم الصمت عند السماع:

كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي وقرأه عليه قرأ معه وساوقه في القراءة، وكان ذلك منه ﷺ لحرصه على حفظه وعدم نسيانه، حتى يبلِّغه كما أنزل عليه.

ولأنَّ تعلق قلبه بما يسمع من جبريل وامتلاءه به واستيلاء ذلك المسموع على لبه يدعوه إلى النطق به لما بين القلب واللسان من الارتباط.

ولأنَّ شوقه إلى ذلك المسموع ومحبته ورغبته فيه تبعثه على التعجيل بقراءته، غير أن القراءة عند السماع وقبل تمام الإلقاء تمنع تمام الوعي، لأن عمل اللسان بالنطق يضعف عمل القلب بالوعي والحفظ.

فلذا نهى اللَّه تعالى نبيه ﷺ عن أن يعجل بقراءة القرآن عند سماعه من جبريل من قبل أن يقضى ويتمم إليه وحيه فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾.

تأكيد الصمت بكفِّ اللسان:

لا يتم تفرغ القلب للوعي إلا بسكون اللسان، فلا يكفي في تفرغه ترك القراءة الجهرية عند السماع حتى ينكف اللسان عن الحركة، فلا تكون قراءة لا جهرًا ولا سرًّا.

فلذا أكد اللَّه تعالى طلب ترك القراءة بالنهي عن تحريك اللسان فقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القِيَامَة: الآية ١٦] .

ثم بين أن اللَّه يجمعه في قلبه ﷺ بالحفظ، وأنه يطلق بقراءته لسانه بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: الآية ١٧] أي قراءتك إياه.

ثم أمره أن يتبع قراءة جبريل إذا قرأه عليه فيقرأه كما قرأه بعد فراغه بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: الآية ١٨] أي فإذا قرأه جبريل وفرغ منه، فاتبع قراءته فاقرأه كما قرأه.

وأنه تعالى يبينه بأقوال نبيه ﷺ وأفعاله بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: الآية ١٩] .

هذا الأدب أدب عام:

إنما المقصود من الكلام البيان عن المراد، وإنما المقصود من السماع وعي الكلام ليفهم المراد.

فكما كان على المتعلِّم أن يسكت حتى يفرغ معلِّمه من القدر المرتبط بعضه ببعض مما يلقيه إليه المعلم حتى يفرغ المعلم من إلقائه، كذلك على المناظر أن يستمع لمناظره حتى يستوفي دعواه وحجته، وعلى كل قارئ لكتاب أن يستوفي ما يرتبط بعضه ببعض منه ثم يبدي رأيه فيه، وعلى كل مستمع لمتكلم كذلك.

فبهذا الأدب يتم وعي المتعلم فيحفظ، وفهم المناظر فيردُّ ويقبل، وفهم القارئ فيعرف ما يأخذ ويترك، وفهم السامع لتحصل فائدة الاستماع.

وبترك هذا الأدب، كثيرًا ما يقع سوء الوعي أو سوء الفهم، وفوات القصد من المناظرة أو القراءة أو الكلام.

دوام التعلم للازدياد من العلم:

يتعلم الإنسان حتى يصير عالمًا ويصير معلمًا، ولكنه مهما حاز من العلم وبلغ من درجة فيه ومهما قضى من حياته في التعليم وتوسع فيه وتكمل به، فلن يزال بحاجة إلى العلم، ولن تزال أمامه فيما علمه وعلَّمه أشياء مجهولة يحتاج إليها، فعليه أبدًا أن يتعلم، وأن يطلب المزيد.

ولذا أمر اللَّه نبيه ﷺ - وهو المعلِّم الأعظم - أن يطلب من اللَّه - وهو الذي علَّمه ما لم يكن يعلم - أن يزيده علمًا فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

تحذير واقتداء:

ما أكثر ما رأينا من قطعهم ما حصلوا من علم عن العلم، فوقف بهم عندما انتهوا إليه فجمدوا، وأكسبهم الغرور بما عندهم فتعظموا، وتكلَّموا فيما لم يعلموا فضلوا وأضلوا، وكانوا على أنفسهم وعلى الناس شر فتنة وأعظم بلاء.

فبمثل هذه الآية الكريمة يداوي نفسَه مَنِ ابتُلي بهذا المرض فيقلع عن جموده وغروره، ويزداد مما ليس عنده ممن عنده علم ما لم يعلم.

ويحذر من أن يقف عن طلب العلم ما دام فيه زمن من الحياة، ويقتدي بهذا النبي الكريم ﷺ، فلن يزال يطلب من اللَّه تعالى أن يزيده علمًا، ما ييسر له من أسباب، وما يفتح له من خزائن رحمته، وما يلقيه في قلبه من نور، وما

يجعل له من فرقان، وما يوفقه إليه من أصل ذلك كله، وهو تقوى اللّٰه والعمل بما علمه.

نسأل اللّٰه لنا وللمسلمين العلم النافع والعمل الصالح، فهو ولي الهداية والتوفيق[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٥، م١١) جمادى الأولى ١٣٥٤هـ- أوت ١٩٣٥م.

من سورة الأنبياء

تفسير (الآية: ١٠٥)

من وعد اللَّه للصالحين

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٥] .

المناسبة:

لما مضى في السورة ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأممهم، وختم الحديث عنهم بذكر الساعة وقربها ومقدماتها وأحوال الخَلق يوم القيامة - جاء في هذه الآية ذكر الأمة التي جاءت بعد تلك الأمم كلها، وهي أمة محمد ﷺ .

توجيه:

وإنَّما كانت هذه الآية في أمة محمد، لأنه لما تكلم على الأمم الخالية لم يبق الكلام إلَّا عليها، فخوطبت بما قضاه اللَّه وكتبه من إرث الصالحين الأرض.

والمخاطَبون بهذه الآية المكية هم المؤمنون باللَّه الموحِّدون له المتبعون لرسوله محمد ﷺ المصدق لجميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وهم أصحاب النبيِّ ﷺ، وهم الصالحون الموجودون يوم ذاك على وجه الأرض، فكانت الآية إعلامًا بما كتبه اللَّه لهم، ووعدًا بإرثهم الأرض.

الألفاظ:

«الزبور»: بمعنى المزبور أي المكتوب، والمراد به جنس ما أنزله اللَّه من الوحي على رسله -عليهم الصلاة والسلام- وأمر بكتابته.

وقرأ حمزة(١) الزُّبور، جمع زِبْر، أي كتاب، فعينت هذه القراءة أن المراد بالزبور في القراءة الأولى الكتب المنزلة، لا خصوص زبور داود عليه السلام.

«الذكر»: المراد به هنا اللوح المحفوظ الذي كتب اللَّه فيه كل شيء قبل أن يَخلُق الخَلق.

وجاءت تسميته بالذكر فيما رواه البخاري في مواضع من «صحيحه» عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم:

«كان اللَّه ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض»[١١٣].

ومما كتبه في الذكر ما أنزله على رسله -عليهم الصلاة والسلام- كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: الآية ٢١- ٢٢].

«الأرض»: جنس الأرض الدنيوية، لأن هذا اللفظ موضوع لها، فإذا

---

(١) هو الإمام القدوة شيخ القراءة، حمزة بن حبيب بن عمارة، التيمي الكوفي. توفي سنة (١٥٦هـ).
ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٩٠- ٩٢).

[١١٣] **صحيح**:
رواه - كما قال المصنف - البخاري في مواضع من «صحيحه» (٣١٩١و٧٤١٨) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٤٠) وأحمد (٤/ ٤٣١-٤٣٢) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

أطلق انصرف إليها، وبهذا فسرها ابن عباس[١١٤] من طريق علي بن [أبي](١) طلحة وهي أصح طرقه.

«يرثها»: تنتقل إليهم من يد غيرهم. وأصل الإرث الإنتقال من سالف إلى خالف. وقد يطلق في غير هذا الموضع على أصل التمليك مجازًا.

«الصالحون»: الصالح من كل شيء: هو ما استقام نظامه فحصلت منفعته، وضده الفاسد: وهو ما اختل نظامه فبطلت منفعته.

ويظهر هذا من تتبع مواقع الاستعمال، فإذا قالوا: هذه آلة صالحة عنوا أنها محصلة للمنفعة المرادة منها لانتظام أجزائها، وإذا قالوا آلة فاسدة عنوا أنها لا تحصل المنفعة لاختلال في تركيبها.

والصالح في لسان الشرع - قرآنا وسنة - لم يخرج عن هذا المعنى حيثما جاء.

---

[١١٤] ضعيف:

رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٠٤) قال: حدثنا علي ثنا أبو صالح قال: ثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٥]

قال: أخبر سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض و يدخلهم الجنة، وهم الصالحون.

وهذا إسناد ضعيف؛ علي - وهو ابن أبي طلحة - لم يسمع من ابن عباس فهو منقطع، وأبو صالح هو عبد الله بن صالح كاتب الليث فيه كلام من قبل حفظه، وباقي الإسناد ثقات: معاوية هو ابن صالح، وعلي شيخ الطبري هو ابن سهل الرملي، والله أعلم.

(١) سقطت من الأصل.

فالصالح هو من استنار قلبه بالإيمان والعقائد الحقة، وزكت نفسه بالفضيلة والأخلاق الحميدة، واستقامت أعماله، وطابت أقواله، فكان مصدر خير ونفع لنفسه وللناس.

استقام نظامه في عقده وخلقه وقوله وعمله، فعظمت وزكت منفعته، وهذا هو معنى الصالحين حيثما جاء كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النِّساء: الآية ٦٩] وكما في حديث التشهد «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**»[١١٥].

وقد بيَّن القرآن من هم الصالحون بيانًا شافيًا وكافيًا بذكر صفاتهم مثل قوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي

[١١٥] صحيح:

قطعة من حديث روي عن جماعة من الصحابة، منهم:

١- عبد الله بن مسعود: أخرجه البخاري (٨٣١ و٨٣٥ و١٢٠٢ و٦٢٣٠ و٦٢٦٥ و٦٣٢٨ و٧٣٨١) ومسلم (٤٠٢) وأبو داود (٩٦٤) والترمذي (٢٨٩) والنسائي (٢/ ٢٣٧-٢٤١) و(٣/ ٤١) والدارمي (١/ ٣٠٨) وابن ماجه (٨٩٩) وأحمد (١/ ٣٨٢).

٢- عبد الله بن عباس: أخرجه مسلم (٤٠٣) وأبو داود (٩٧٠) والنسائي (٢/ ٢٤١-٢٤٣) والترمذي (٢٩٠) وابن ماجه (٩٠٠) وأحمد (١/ ٢٩٢) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

٣- عبد الله بن عمر: أخرجه أبو داود (٩٦٧) والدارقطني (١/ ٣٥١) وقال: «هذا إسناد صحيح».

٤- أبو موسى الأشعري: أخرجه مسلم (٤٠٤) وأبو داود (٩٦٨) والنسائي (٢/ ٢٤١-٢٤٢ و٣/ ٤١-٤٢) والدارمي (١/ ٣١٥- ٣١٦) وابن ماجه (٩٠١) وأحمد (٤/ ٤٠٩).

٥- عمر بن الخطاب: أخرجه مالك (١/ ١٨٥-١٨٦/ ٢٠٠) موقوفًا عليه وإسناده صحيح كما قال الحافظ الزيلعي في «نصب الراية» (١/ ٤٢٢) وهو في حكم المرفوع لأنه لا يقال بالرأي كما قال ابن عبد البر.

ٱلْخَيْرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١١٣- ١١٤].

المعنى:

يخبرنا اللّٰه تعالى أنه كتب في الكتب التي أنزلها على رسله من بعدما كتب في اللوح المحفوظ الذي هو أصل تلك الكتب أن الأرض يرثها ويملكها عباده الصالحون: أهل العقائد الصحيحة، والأخلاق الكريمة، والأعمال المستقيمة، الذين ينفعون العباد والبلاد.

تطبيق:

خاطب اللّٰه بهذه الآية المؤمنين بمكة، وهم في قلَّة عَدد وعُدد، يعدهم بذلك - لا بطريق صريح - أنهم يرثون الأرض، ويكون لهم فيها القوة والنفوذ، ويبعثهم - بتعليق الوعد بوصف الصلاح -على التمسك به والازدياد منه والاستمرار عليه.

ثم صرح لهم بالوعد بعد في سورة النور وهي مدنية بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النُّور: الآية ٥٥].

وقد حقق اللّٰه لهم هذا الوعد؛ ففتح لهم الفتوح، وأورثهم ملك كسرى وقيصر، ومدَّ ملكهم في الشرق والغرب.

وأولئك الذين كانوا في قلة وخوف يوم نزلت الآية المكية هم الذين شاهدوا ذلك النصر وتلك الفتوح، وترأسوا ذلك المُلك العريض.

تعميم وتقييد:

علَّق الوعد بالوصف وهو الصلاح ليعلم أنه وعد عام، ولتعلم كل أمة صالحة أنها نائلة حظها - ولا محالة من هذا الوعد.

واقتضى هذا التعليق بالوصف أيضًا تقييده بأهله، فإذا زال وصف الصلاح من أمة زال من يدها ما ورثت.

ونظير هذا التقييد قوله في آية النور: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

تنظير:

مثل هذه الآية فيما تضمنته من الوعد الذي يقوي به قلوبهم، ويثبت إيمانهم، ويظهر به صدق نبيه ﷺ بما أعلمه به من غيب - أحاديث صحيحة كقول(١) النبي ﷺ لخباب رضي الله عنه، وقد لقي الصحابة من المشركين شدة، فسأله أن يدعو، فقال له النبي ﷺ:

«لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن اللَّه هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا اللَّه»[١١٦].

---

(١) البخاري في باب ما لقي النبي ﷺ من المشركين. [المصنف].

[١١٦] صحيح:

رواه البخاري (٣٦١٢) و (٣٨٥٢و٦٩٤٣) وأبو داود (٢٦٤٦) والنسائي في «الكبرى» (٥٨٩٣) وأحمد (٥/ ١٠٩و١١٠و١١١و٦/ ٣٩٥) عن خباب بن الأرت رضي الله عنه.

وكقوله(١) ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه:

«فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى»[١١٧].

---

(١) البخاري في باب علامات النبوة في الإسلام. [المصنف].

[١١٧] صحيح:

رواه البخاري (٣٥٩٥) عن عديٍّ بن حاتم قال:

بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال:

«يا عدي: هل رأيت الحيرة؟ قلتُ: لم أرها، وقد أُنبئتُ عنها. قال:

«فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله - قلتُ فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد؟ - لئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى»، قلتُ: كسرى بن هرمز؟ قال:

«كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولًا فيبلغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالًا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم».

قال عدي: سمعت النبي ﷺ يقول:

«اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة».

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي ﷺ أبو القاسم:

«يخرج ملء كفه».

ورواه أحمد (٤/ ٢٥٧و٢٥٨و٣٧٨و٣٧٨-٣٧٩) والحاكم (٤/ ٥١٨-٥١٩) من طريق آخر بنحوه وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي!.

و(الظعينة): أصلها الراحلة التي يرحل ويظعن عليها، أي يُسار.

وقيل للمرأة ظعينة، لأنها تظعن مع الزوج حيثما ظعن، أو لأنها تحمل على الراحلة إذا ظعنت.

وقيل الظعينة: المرأة في الهودج، ثم قيل للهودج بلا امرأة وللمرأة بلا هودج: ظعينة.

كذا في «النهاية» (٣/ ١٥٧) لابن الأثير.

وقد امتدت به الحياة حتى رأى ذلك.

ومثل هذا أحاديث أخرى في «الصحيح».

فقد تطابقت الآيات والأحاديث في هذا الوعد. وقد صدق اللَّه وعده لعباده الصالحين وصدق نبيه ﷺ بما لم يكن يعلمه أحد ولا يرى شيئًا من أسبابه، بل لا يرى إلا ما هو منافٍ له، ولكن العاقبة للمتقين.

إشكال وحلُّه:

قال أُناسٌ: إن أرض الدنيا كما يستولي عليها الصالحون يستولي عليها غيرهم، والأرض التي لا يرثها إلا الصالحون هي أرض الجنة، فيجب تأويل الآية بها.

والجواب: أن هذا التأويل إنما يحتاج إليه أن لو كانت الآية هكذا: «إن الأرض لا يرثها إلا عبادي الصالحون» بطريق الحصر فيهم.

أما لما كانت الآية لا حصر فيها، فلا حاجة إلى هذا التأويل، بل في لفظ الإرث وربطه بوصف الصلاح دلالة على أنها كانت لغيرهم فانتقلت إليهم، وأنها تزول مع زوال وصف الصلاح.

وقد جاء التنبيه على أن الأرض يرثها الصالحون وغيرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨]، فيرثها الصالحون نعمة؛ ويرثها غيرهم فتنة ونقمة، كل ذلك حسب مشيئة الحكيم الخبير.

إيرادٌ وجوابه:

قد يقال: فما هي الفائدة إذًا في تخصيص الصالحين بالذكر في هذه الآية؟

والجواب:

١ - أن هذه الآية خوطب بها أول الناس الصحابة بمكة، وهم الصالحون في الأرض، ليعلموا ما وعدهم اللَّه به، وليعلموا أن قوة الباطل إلى ضعف، وأن ضعف الحق إلى قوة.

٢ - ولأن شأن الصالحين إذا كانوا أن يكونوا قليلًا سيما أول أمرهم، فهم بحاجة إلى أن يعلموا هذا الوعد ليزدادوا إيمانًا وقوةً وثباتًا.

٣ - ولأن الخلق مفتونون بالكثرة في العدد والعدة، غافلون عن القوة الروحية والأخلاقية وما ينشأ عنهما من استقامة، لا يحسبون لذلك حسابًا، فيحتاجون إلى علم بأن الصالحين نائلون حظهم من هذا الوعد وإن كانوا قلة في الناس.

و ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٩].

تحذير من تحريف:

رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة اليوم على الأرض - وهي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان -فقالوا: إن رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم اللَّه بإرث الأرض. وزعموا أن المراد بـ(الصالحون) في الآية

الصالحون لعمارة الأرض.

فياللَّه للقرآن . وللإنسان . من هذا التحريف السخيف! كأن عمارة الأرض هي كل شيء ولو ضلت العقائد، وفسدت الأخلاق، واعوجت الأعمال، وساءت الأحوال، وعذِّبت الإنسانية بالأزمات الخانقة، وروِّعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهدِّدت بأعظم حربٍ تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها.

هذه هي بلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمرت الأرض وأفسدت الإنسان، ثم يريد هذا المحرِّف أن يطبق عليها آية القرآن: كتاب الحق والعدل والرحمة والإحسان. وإصلاح الإنسان ليصلح العمران.

فأما الصالحون فهو لفظ قرآني قد فسره القرآن كما قدمناه، وقد شرّف أهله بإضافتهم إلى اللَّه في قوله: «عبادي»، فحمله على الصالحين لعمارة الأرض تحريف للكلام عن مواضعه أبشع التحريف وأبطله، فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين.

موعظة وإرشاد:

فعلى الأمم التي تريد أن تنال حظها من هذا الوعد أن تصلح أنفسها الصلاح الذي بيَّنه القرآن.

فأما إذا لم يكن لها حظ من ذلك الصلاح، فلا حظَّ لها من هذا الوعد وإن دانت بالإسلام.

وللَّه سنن نافذة بمقتضى حكمته ومشيئته في ملك الأرض وسيادة الأمم، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

من أخذ بنوع من تلك السنن بلغت به وبلغ بها إلى ما قدر له من عز وذل، وسعادة وشقاء، وشدة ورخاء، وكلُّ محاولة لصدها عن غايتها - وهو آخذ بها - مقضي عليها بالفشل.

سنة اللَّه، ومن ذا يبدِّلها أو يحوِّلها؟

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٢] و[الفتح: الآية ٢٣] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: الآية ٤٣] ثم ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: الآية ٤٩][1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٦، م١١)، جمادى الثانية ١٣٥٤هـ- سبتمبر ١٩٣٥م.


من سورة الحج
تفسير (الآية: ٣٨)

دفاع اللَّه عن المؤمنين

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحَجّ: الآية ٣٨].

الكلمات:

دفع الشيء: صدُّه وردُّه، والدفاع عن الشيء حمايته بصدِّ ما يؤذيه عنه.

وقرئ في المتواتر (يدفع)[1]، وقرئ (يدافع)، وهو بمعنى يدفع، ولكنه أريد قوة الدفع فجيء بيفاعل الذي يقتضي المغالبة في أصله، لأن دفع المغالب أقوى وأبلغ. أو لأن ما يهيئه اللَّه لهم من أسباب الدفع التي يباشرونها مقابلة لما يقصدهم به أضدادهم فكان الدفع من الجانبين.

خان: إذا ضيع ما جعل في حفظه وعهدته، والخوَّان الكثير التضييع لما استحفظ.

والكفور: الكثير الجحود للنعم، فلا يعترف بها أو لا يؤدي شكرها.

التراكيب:

عندما يكون المؤمنون في قلة وضعف، وأعداؤهم في كثرة وقوة، كالحالة التي كان عليها المؤمنون يوم نزلت الآية بُعيد الهجرة - تشك النفوس في سلامتهم من كيد عدوهم، فلذا جاء هذا الخبر مؤكدًا بإنَّ.

---

(١) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، كما قرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، بالأخرى (يدافع). أفاده ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٤٣٥).

ولكون هذا الدفع متجددًا جيء بالفعل مضارعًا.

ولبيان سبب الدفع جيء بالجملة المستأنفة بعد الجملة الأولى.

وأُكِّدت بإنَّ لأنَّ الأولى تحمل المخاطب على أن يسأل سؤال المتردد: هل هؤلاء المدفوعون أعداء مبغوضون؟ فأجيب بالتأكيد.

وحذف مفعول يدافع ليعم كل ما يدفع، فشمل كيد جميع الكائدين.

التفسير:

هذا من اللَّه تعالى خَبرُ حقٍّ ووعدُ صدقٍ للمؤمنين بأنه يردُّ عنهم كيد أعدائهم، ويبطل مكرهم، ويكف شرهم، وإن عظم ذلك منهم وكثر.

وأن هذا منه لهم متكرر متجدد.

ذلك لأنهم بإيمانهم حافظوا على أمانة اللَّه عندهم وعهده لديهم، واعترفوا بنعمه وشكروها؛ فأحبهم اللَّه ورضي عنهم؛ فأيدهم ونصرهم ودافع عنهم.

ولأن أعداءهم ضيَّعوا أمانة اللَّه عندهم بارتكاب المنهيات وترك المأمورات، وجحدوا وحدانيته أو نبوة نبيه ﷺ أو ما جاءهم به من شرعه؛ فأبعدهم ورد كيدهم مغلوبين مدحورين.

تحرير في التعليل:

إن الحبَّ من اللَّه والبغض كسائر أفعاله لا تقع إلا على وجه الحق والعدل والسداد، وهذا أمر واجب لأفعال الرب الحكيم.

فالمؤمنون أحبهم ونصرهم لإيمانهم، وأعداؤهم أبغضهم وخذلهم

لخيانتهم وكفرهم.

واقتضت هذه المقابلة أن الخيانة والكفر من صفات أضدادهم وليست من صفاتهم، فإيمانهم مستلزم لأمانتهم بحفظ عهد اللَّه عندهم في نفوسهم وعقولهم وأبدانهم وجميع ما لديهم على جميع أحوالهم، ومستلزم لاعترافهم بنعم اللَّه وشكره عليها باستعمالها في طاعته وطلب المزيد من برِّه.

وأمانتهم هذه وشكره هي مظهر إيمانهم الذي يميزهم عن أضدادهم، ويدل على صدقهم في ذلك الإيمان ورسوخه في قلوبهم.

فإذا عدمت منهم الأمانة، فخانوا اللَّه والرسول، وخانوا أماناتهم، وفشت الفواحش والمناكر والبدع فيهم، وصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه، وإذا بطروا نعم اللَّه عندهم، فعطلوا منها ما عطلوا بجهلهم وكسلهم وقعودهم عن الخير وأسباب الحياة والسعادة، واستعملوا منها ما استعملوا في الشر والفساد واتباع الشهوات - إذا كانوا هكذا، فقد استوجبوا غضب اللَّه وبغضه ونقمته، وحرموا نصرته ودفاعه، وكانوا هم الظالمين.

خيانة دون خيانة وكفر دون كفر:

الخيانة خيانتان: خيانة عقيدة، وخيانة أعمال، وكذلك الكفر، وكذلك النفاق، وكذلك الشرك[1].

---

(١) قال ابن القيم في «الصلاة وحكم تاركها» (ص٥٨- ٥٩): «والكفر كفران، والظلم ظلمان، والفسق فسقان، وكذا الجهل جهلان: جهل كِفر كما في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩]، وجهل غير كفر كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: الآية ١٧]، كذلك الشرك شركان: شرك ينقل عن الملة، =

وإنما يخرج المرء عن أصل الإسلام بما كان في أصل العقيدة، لا بما كان في الأعمال إلا عملًا يدل دلالة ظاهرةعلى فساد العقيدة وانحلالها.

وعلى هذا عقد البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الجامع الصحيح» أبوابًا في (ظلم دون ظلم)، و(كفر دون كفر)[1].

تطبيق:

لما كان المسلمون أهل الإيمان والصدق والشكر والأمانة دافع اللَّه عنهم، وقد شهد التاريخ بذلك من اللَّه لهم، فلما خانوا وكفروا تركهم ومكَّن منهم.

= وهو الشرك الأكبر، وشرك لا ينقل عن الملة، وهو الشرك الأصغر، وهو شرك العمل كالرياء.
وقال تعالى في الشرك الأكبر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: الآية ٧٢]، وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: الآية ٣١].
وفي شرك الرياء: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠].
ومن هذا الشرك الأصغر قوله ﷺ: «من حلف بغير اللَّه فقد أشرك». [رواه أبو داود وغيره]. ومعلوم أن حلفه بغير اللَّه لا يخرجه عن الملة، ولا يوجب له حكم الكفار. ومن هذا قوله ﷺ: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل».
فانظر كيف انقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملة، وإلى ما لا ينقل عنها.
وكذا النفاق نفاقان: نفاق اعتقاد ونفاق عمل، فنفاق الاعتقاد هو الذي أنكره اللَّه على المنافقين في القرآن، وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار، ونفاق العمل كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

(١) في كتاب الإيمان: (٢١- باب كفران العشير، وكفر دون كفر) و(٢٣- باب ظلم دون ظلم).
قال الحافظ في «الفتح» (١/ ١١٩): «(دون) يحتمل أن تكون بمعنى غير، أي أنواع الظلم متغايرة. أو بمعنى الأدنى، أي بعضها أخف من بعض، وهو أظهر في مقصود المصنف».

ولكنه برحمته وعدله لم ينس لهم أصل إسلامهم فأبقى لهم أصل وجودهم الذاتي، وهم لحم على وضم[١] بين الأمم لايستطيعون دفعًا عن أنفسهم. وأبقى لهم أصل وجودهم الروحي بكتابه المتلوِّ بين ظهرانيهم رغم إعراضهم عن تدبُّره وهجرهم لما فيه - عساهم يرجعون.

تنبيه وتحذير:

كل عمل لا يحلُّ فهو خيانة وإن كان بأدنى إشارة، وقد نبه اللَّه على هذا بقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: الآية ١٩] وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل، و الإشارة بطرف العين فيما يحرم.

وأعظم الخيانة بعد الكفر خيانة العامة، لأن الذنب يعظم بعظم أثره وانتشار ضرره.

ولهذا جاء ما جاء من الوعيد الشديد فيمن ولي أمرًا من أمور المسلمين فغشهم ولم ينصح لهم[٢].

فحق على المسلم أن يحذر من الخيانة، دقيقها وجليلها، وخصوصًا ما اتصل بالناس منها، ويتنبه من أقل كلمة وأدنى إشارة توقعه في خطرها.

(١) الوضم: الخشبة أو البارية التي يوضع عليها اللحم، تقيه من الأرض كما قال ابن الأثير، شبه المصنّف الأمة الإسلامية في الضعف بمثل ذلك اللحم الذي لا يمتنع على أحدٍ ما دام على الوضم.

(٢) ساق الحافظ المنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة طيبة منها في كتابه الحافل «الترغيب والترهيب» فليراجعها من شاء في «كتاب القضاء وغيره» (باب ترغيب من ولي شيئًا من أمور المسلمين في العدل إمامًا كان أو غيره. وترهيبه أن يشق على رعيته أو يجور أو يغشهم أو يحتجب عنهم أو يغلق بابه دون حوائجهم) بالأرقام (٢١٨٢- ٢٢١٠) من «صحيح الترغيب» للألباني.

سؤال وجوابه:

فإن قيل: قد نجد من عباد اللَّه المؤمنين من يصيبه البلاء والشدة فيعذب، وقد يُقْتَل (وكأين من نبي قُتِل[1]) [آل عمران: الآية ١٤٦]، وقد أصاب المؤمنين يوم أُحد ويوم حنين ما أصابهم.

فالجواب: أن دفع اللَّه يكون بأسباب وأنواع وعلى وجوه تختلف بحسب الحكمة، ولا تخلو كلها من دفاع، فإن ما يصيب المؤمنين من البلاء في أفرادهم وجماعتهم هو ابتلاء يكسبهم القوة والجلد، ويقوي فيهم خلق الصبر والثبات، وينبههم إلى مواطن الضعف فيهم أو ناحية التقصير منهم، فيتداركوا أمرهم بالإصلاح والمتاب، فإذا هم بعد ذلك الابتلاء أصلب عودًا، وأظهر قلوبًا، وأكثر خبرة، وأمنع جانبًا، وإن في صبر الصابر منهم - وقد نزل به البلاء الذي لا يقدر على دفعه والظلم الذي لا يقدر على إزالته - لبعثًا للقوة في نفس غيره ممن يأتسي به، وضعفًا في قلب ظالمه - وفي كليهما دفع من اللَّه عن المؤمنين.

---

(١) بضم القاف وكسر التاء من غير ألف: قرأ بها ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبان والمفضل كلاهما عن عاصم.

وقرأ الباقون: «قاتل» بألف. كذا في «زاد المسير» (١/ ٤٧١- ٤٧٢). لابن الجوزي.

فمن الغرائب: قول المعلق على طبعة دار الكتب العلمية:

«كذا جاء في الأصل المطبوع «قُتِلَ»، والصواب «قاتل»، كما في الآية الكريمة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ...﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٦] »!

ومن جهل شيئًا عاداه، وعش رجبًا تر عجبًا!!.

مشاهدة وتوصية:

نعرف في حياتنا مواطن ما نجونا فيها إلا بدفع اللّٰه، وبطل كيد الكائدين فيها بمحض صنع اللّٰه، وقد كنا فيها - فيما نرى[١] على شيء من العمل للّٰه. فكيف بمن كانت أعمالهم كلها للّٰه.

وهذه المشاهدة التي شاهدنا - ولا نشك أن من غيرنا مَن شاهد مثلنا أو أكثر منا - توجب علينا أن نوصي بالإيمان باللّٰه والمحافظة على عهده والثقة به، فإنَّ ذلك يحقق وعد اللّٰه بالدفع، وينيل أهله العزة والحفظ.

فعلى المسلم أن يعمل لذلك ويعتد به ثقة باللّٰه وصادق وعده. واللّٰه لايخلف الميعاد[٢].

* * *

(١) أي: نظن.

(٢) الشهاب: (ج٩، م١١)، غرة رمضان ١٣٥٤هـ- ديسمبر ١٩٣٥م.



تفسير [الآية: ٥١]

أكل الحلال والعمل الصالح

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: الآية ٥١] .

الكلمات:

الطيب: ما صلح واعتدل في نفسه وسلم من كل ما يفسده ويخرجه عن اعتداله وأصل خلقته، فكان مستلذًا للنفوس، سواء كان ما يدرك بالسمع أو بالبصر أو بالذوق أو بالشم أو باللمس أو بالعقل.

فالطيب هو اللذيذ لذة حسية أوعقلية. ويقابله الخبيث وهو ا لمستقذر حسًّا أو عقلًا، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧] .

فما أحل اللَّه إلا الطيب المستلذ، وما حرم إلا الخبيث المستقذر.

فلهذا صار الطيب في لسان الشرع يجيء كثيرًا بمعنى الحلال ويكون ضده الخبيث بمعنى الحرام. ومنه ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي المحلَّلات.

فملك غيرك وإن كان مستلذًا في الحس. فإنه ليس طيبًا لك شرعًا، وذلك لأنه مستقذر في العقل بما فيه عند تناوله بدون إذن صاحبه من التعدي المستقبح في العقل.

وقد يجيء الطيب بمعنى الجيد، والخبيث بمعنى الرديء، وعليه قوله

تعالى: ﴿يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧].

الصالح: هو المستقيم النافع، وهو فعل المأمورات، وترك المنهيات، وتناول المباحات من حيث أنها مباحات أو وسائل لفعل المأمورات وترك المنهيات.

التراكيب:

للاهتمام بالمأمور به قُدِّمت قبل الأمر جملةُ النداء.

ولأن هذا المأمور به مما يجب عليهم تبليغه نودوا بلفظ الرسل.

ولأن كل واحد منهم أوحى اللَّه إليه بهذا النداء والأمر في زمانه، كان النداء والأمر للجمع.

وقد دخل في الجمع عيسى - عليه الصلاة والسلام - الذي كان الحديث عليه في الآية التي قبل هذه وهي: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: الآية ٥٠].

كما دخل في الجمع محمد ﷺ الذي نزلت عليه هذه الآية.

ولأن المقصود من الأكل - وهو الغذاء واللذة - يحصل ببعضٍ، قيل «من الطيب» بمن التبعيضية.

ولمَّا كان المخاطب بأكل الحلال والعمل الصالح شأنه أن تستشرف نفسه لتعيين ثمرة ذلك، جاء الخبر مؤكدًا بإنَّ في ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

وعلم اللَّه مستلزم لجزائه للعاملين، فكان كناية عن الجزاء، وفي الكناية

عن الجزاء بالعلم تفخيم لهذا الجزاء وتعظيم، فهو جزاء اللَّه العليم وكفى به.

التفسير:

خُلق الإنسان مركبًا من روح وبدن، وإنما بقاء بدنه بالغذاء، وإنما كمال روحه بالعمل؛ فأمر اللَّه بالأكل لبقاء البدن، واشترط أن يكون من الطيبات لأنها هي التي تغذي ولا تؤذي، أما الخبائث ففيها الأذى ويتفه[1] أو يعدم منها الغذاء، وأمر بالعمل الصالح الذي فيه زكاء للنفس ونفع لها في العاجل والآجل، وخير للعباد والبلاد. وأخبر بعلمه بعمل العاملين ليجتهدوا في العمل ويخلصوا له فيه وينتظروا جزاءهم من عنده.

والدين كله عمل صالح وتوحيد خالص.

وقد انتظمتهما الآية تصريحًا في العمل واستلزامًا في التوحيد.

وبيَّن - تعالى - بهذه الآية أن هذا الذي اشتملت عليه هو دين اللَّه لجميع الأمم أوصى به رسله -عليهم الصلاة والسلام- ليبلغوه لِخَلْقِه، فهو حقيقٌ أن يُؤخذ به ويعمل عليه.

توجيه الترتيب:

تتوقف الأعمال على سلامة الأبدان، فكانت المحافظة على الأبدان من الواجبات، ولهذا قدم الأمر بالأكل على الأمر بالعمل.

فليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أحلها اللَّه كما حرَّم غلاة

(١) تفه الرجل يتفه تفوهًا: قلّ عقله فهو تافه. وتفه الطعام يتفه تفاهة: لم يكن له طعم حلاوة أو حموضة أو مرارة فهو تفه وتافه.

المتصوفة اللَّحم.

وليس من الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها كما يفعله متصوفة الهنادك، ومن قلدهم من المنتسبين للإسلام.

والميزان العدل في ذلك هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وقد بيَّن ذلك أئمة السنة والأثر رحمهم اللَّه، وقد جوده مالك رحمه الله في كتاب الجامع من «الموطأ»[1].

وفي تقديم الأكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيه على أنه هو الذي يثمرها، لأن الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن فتصلح الأعمال، كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن فتفسد الأعمال.

بيان نبوي:

أخرج مسلم في «صحيحه» من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال:

«**أيها الناس إن اللَّه تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا. وإن اللَّه تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: الآية ٥١] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٧٢] **ثم ذكر الرجل يطيل السفر - أشعث أغبر - يمد يديه إلى السماء - يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام**

(١) انظر (٤/ ٣٠٦- ٣١٧- بشرح الزرقاني).

وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟»[١١٨].

فبيَّن الحديث الشريف أن اللَّه طيِّب - أي منزَّه عن النقص في ذاته وصفاته وأفعاله، تنعم العقول والأرواح بمعرفته - كما يليق به - ومحبته. وأنه لا يقبل من الأعمال إلا طيبًا، أي صالحًا في نفسه، خالصًا من شوائب المخالفة والرياء والشرك.

وبيَّن أن الشرع عام للرسل وللأمم، ولا يستثنى من هذا إلا ما دل الدليل على اختصاصه بالرسل.

وبيَّن أن أكل الحلال هو الذي يثمر قبول الدعاء، والدعاء هو مخ العبادة. فإذا رد عليه فقد ردت عليه عبادته، فكان هذا البيان النبوي على مقتضى ما أفاده ترتيب الأمرين في الآية.

تكميل:

في آية الرسل الأمر بالأكل من الطيبات، والأمر بالعمل الصالح، واستلزام الأمر بالإخلاص.

وفي آية المؤمنين الأمر بالأكل من الطيبات، والأمر بالشكر، والتصريح

---

[١١٨] حسن:

أخرجه - كما قال المصنف - مسلم في «صحيحه» (١٠١٥) وكذا الترمذي (٢٩٩٦) والدارمي (٢/ ٣٠٠) وأحمد (٢/ ٣٢٨) عن أبي هريرة، وقال الترمذي:

«حديث حسن غريب، وإنما نعرفه من حديث فضيل بن مرزوق».

قلت: هو ثقة وسط خرَّج له مسلم دون البخاري كما قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٥٨) وفي «التقريب»: «صدوق يهم» فمثله يحسن حديثه إن شاء اللَّه.

بلزوم توحيده تعالى في العبادة لأنَّ تمامها هكذا : ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٢] .

واقتصر في الحديث على الأمر بالأكل من الطيبات، إما لأن الكلام كان في الحث على أكل الحلال، وإما لأن الراوي اختصر الرواية .

الاهتداء:

على المؤمن أن يتحرى في مأكله ومشربه وكل ما به قوام ذاته - الحلال الطيب، يمتثل بذلك أمر اللَّه، ويقصد التوصل به إلى العمل الصالح .

وعليه أن يتحرى في فعله وتركه ، أمر اللَّه ونهيه، حتى يكون عمله عملًا صالحًا طيبًا متقبلًا ، يمتثل بذلك أمر اللَّه، ويقصد قبول عبادته ودعائه لديه .

والمتحري للحق والخير جدير بالتوفيق إليه وكثرة إصابته .

رزقنا اللَّه والمسلمين التحري لطاعته، والتوفيق لمرضاته، والتأدب بكتابه . آمين[1] .

* * *

---

(١) الشهاب: (ج١١، م١١) ذي القعدة ١٣٥٤هـ - فيفري ١٩٣٦م.

من سورة النور

تفسير الآيتين (٦٢ و٦٣)

الاجتماع العام للأمر الهامِّ
وارتباط الجماعة بأمر الإمام

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ٦٢] .

الألفاظ:

الأمر الجامع: هو الحادث الذي يتطلب الاجتماع بطبيعته فيجمع الإمام الناس من أجله، من ذوي الرأي والمعرفة بمثله، والخبرة والتجربة فيه، من كل ما يعم نفعه أو ضرره، من أمور السلم والحرب، وشؤون الحياة والاجتماع، ليتشاوروا فيما بينهم ويستضيئوا بعضهم لرأي بعض.

والاستئذان: هو طلب الإذن من الإمام بمفارقة الاجتماع لعذرٍ قاضٍ بالمفارقة.

المعنى:

يأمر اللَّه المؤمنين إذا كانوا مع رسوله ﷺ على أمرٍ جامعٍ أن لا يفارقوا مجلسه كلهم أوبعضهم إلا بإذنه.

وأكد هذا الأمر بما وطأ له من ذكر الإيمان باللَّه ورسوله تنبيهًا على أنه من مقتضاهما. وبقرنه بهما وجعله ثالثًا لهما، تعظيمًا لشأنه، وتنبيهًا على ملازمته

لهما ممن صدق فيهما. حتى كأنَّ غير المستأذنين لا إيمان لهم، وبإعادته في الجملة الثانية ببيان أن الذين يستأذنون هم دون غيرهم الثابتون في إيمانهم، المستمرون عليه، تعريضًا بالذين لا يستأذنون وتقبيحًا لحالهم بأنهم لا ثبات لهم في الإيمان ولا استمرار منهم على العمل به، فليسوا بالمؤمنين ولا بالذين يؤمنون.

ثم جعل الخيار لرسوله في الإذن وعدم الإذن لهم إذا استأذنوه لبعض شأنهم، تعظيمًا لأمر الاجتماع، وتعظيمًا للصالح العام، وتوكيدًا لحق الإمام على الجماعة لحفظ الاجتماع وتتميم الأعمال.

ثم أمره أن يستغفر لهم، فقد يكون العذر دون الإضطرار. وقد يكون ما فاته من بركات الاجتماع، وحسنات المشاركة فيه بالرأي والاهتمام وتكثير السواد - بسبب ذنب كان منهم في أمر غير الاجتماع، وأكد هذا الأمر بأنه الكثير المغفرة لعباده الدائم الرحمة بهم.

الأحكام:

لما كان الاجتماع شُرع للمصلحة، والذهاب بدون استئذان حُرِّم للمفسدة، فالمشروعية والتحريم دائمان بدوام المصلحة والمفسدة.

فأحكام الآية مستمرة الأحكام، عامة للمسلمين في كل زمان وكل مكان مع أئمتهم وقادتهم والمقدمين منهم فيهم، في كل ما يعرض من اجتماع لصالح عام.

فمن أحكام الآية الكريمة:

١- أن على أئمة المسلمين وذوي القيادة فيهم إذا نزل بهم أمر هام أن

يجمعوا جماعة المسلمين الذين يرجى منهم الرأي والعمل فيما نزل، فلا يجوز لهم أن يهملوا أمرهم، ولا أن يستبدوا عليهم.

٢- وأن على المسلمين أن يجتمعوا إليهم، ويكونوا معهم يظاهرونهم ويؤيدونهم وينصحون لهم. فلا يجوز لهم أن يتخلفوا عنهم، ولا أن يخذلوهم.

٣- وأن على المجتمعين أن لا يذهب واحد منهم إلا بإذن.

٤- وأن لا يستأذن إلا لعذر ببعض الشأن.

٥- وأن على الإمام أن ينظر في الإذن وعدمه، فيفعل ما هو أولى.

بيان مراد، ودفع اغترار واعتراض:

تجد في آيات القرآن العظيم أخبارًا ووعودًا من اللَّه تعالى للمؤمنين، ولربما حسب من لا يعلم أنها تشمل كل من كان على أصل الإيمان من اعتقاده مع بعض أعماله، وإن فرط في كثير من أصول الأعمال.

فيبين اللَّه تعالى في هذه الآية وأمثالها مراده بالمؤمنين عند إطلاق لفظ المؤمنين في تلك الأخبار والوعود، حتى لا يغتر المفرِّطون ولا يعترض الجاهلون.

توجيه وإرشاد:

إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم باللَّه ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة، تفكر وتدبر، وتتشاور وتتآزر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة.

ولهذا قرن اللَّه في هذه الآية بين الإيمان باللَّه ورسوله ، والحديث عن الجماعة، وما يتعلق بالاجتماع.

فيرشدنا هذا إلى خطر أمر الاجتماع ونظامه، ولزوم الحرص والمحافظة عليه، كأصل لازم للقيام بمقتضيات الإيمان، وحفظ عمود الإسلام.

موعظة:

ما أصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به إلا بإهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه، إما باستبداد أئمتهم وقادتهم، وإما بانتثار جماعتهم، بضعف روح الدين فيهم، وجهلهم بما يفرضه عليهم.

وما ذاك إلَّا من سكوت علمائهم، وقعودهم عن القيام بواجبهم في مقاومة المستبدين، وتعليم الجاهلين، وبث روح الإسلام الإنساني السامي في المسلمين.

فعلى أهل العلم - وهم المسؤولون عن المسلمين بما لهم من إرث النبوة فيهم - أن يقوموا بما أرشدت إليه هذه الآية الكريمة فينفخوا في المسلمين روح الاجتماع الشوري في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم، حتى لا يستبد بهم مستبد، ولا يتخلف منهم متوان، وحتى يظهر الخاذل لهم ممن ينتسب إليهم، فينبذ ويطرح، ويستغنى عنه باللَّه وبالمؤمنين.

موازنة وترجيح:

هنالك المصلحة العامة، وهنالك المصلحة الخاصة، ومحال أن تساوى هذه بتلك.

انظر إلى الذكر الحكيم كيف عبَّر عن الأولى بالأمر الجامع، وفي هذا ما فيه من تفخيم.

وعبَّر عن الثانية ببعض الشأن، وفي هذا ما فيه من التحقير والتقليل.

وفي قرنها بالاستغفار تنبيه على ترجيح الأولى على الثانية، وأنها ما كانت تعتبر إلا على وجه الرخصة، والاستغراق في الاهتمام والتدبير للمصلحة العامة أحق وأولى.

امتثال ورجاء:

لنجعل المصلحة العامة غايتنا والمقدمة عندنا، حتى لايكون - إن شاء اللَّه - في مصالحنا الخاصة ما يصرفنا أو يشغلنا عنها، راجين من اللَّه تعالى أن يعيننا على ما قصدنا، وأن يوفقنا إلى استعمال كل مصلحة خاصة لنا في مصلحة عامة لنا ولإخواننا، إنه نعم الموفق، ونعم المعين[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج١، م١٣) غرة محرم ١٩٥٦هـ - مارس ١٩٣٧م.

الاجتماع العام، للأمر الهامِّ وارتباط الجماعة بأمر الإمام

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ٦٣] .

المناسبة والارتباط:

لما بينت الآية السابقة وجوب الاستئذان عند إرادة الإنصراف من مجلسه، عليه الصلاة والسلام، بينت هذه الآية وجوب تلبية دعوته إذا دعا، وفضحت حالة الذين يتسللون غير مستأذنين، وحذرت من فعلهم، وأوعدت الوعيد الشديد المخالفين أمثالهم.

الألفاظ:

الدعاء: النداء وطلب الإقبال للحضور.

بينكم: في اعتقادكم ومعاملتكم.

يتسللون: يذهبون قليلًا قليلًا من الجماعة متخفين.

لواذًا: ملاوذة، بأن يلوذ هذا بهذا، ويلوذ هذا بهذا، متسترًا به حتى لا يرى عند خروجه.

فليحذر: فليتيقظ وليتحرز، وذلك باجتناب المخالفة.

يخالفون عن أمره: يصدون ويعرضون عن طريقته وسنته ومنهاجه، وما كان عليه من سير في الحياة.

الفتنة: البلاء بأنواع النقم أو بنعم تستدرج إلى النقم، هذا معنى الفتنة لأنها ذُكرت في مساق الوعيد.

عذاب أليم: في الآخرة.

المعنى:

لا تنزلوا دعاء الرسول لكم إذا دعاكم إلى الحضور عنده منزلة دعاء بعضكم بعضًا للحضور، فتحسبون أنفسكم مخيرين: إن شئتم أجبتم وإن شئتم تخلفتم، فتارة تجيبون وتارة تتخلفون، فإجابة دعوته والإسراع إليه واجب محتم عليكم، والتخلف أو التباطؤ - لغير عذر واضح - محرم عليكم. ذلك لأنه إذا دعاكم لا يدعوكم إلا لمصلحة قطعية، وخير محقق، يعود عليكم في أمر الدين أو أمر الدنيا، ففي تخلفكم أو تباطئكم تفويت أو تعطيل أو تثبيط.

وإذا حضرتم مجلسه فابقوا كلكم عنده، ولاتذهبوا من مجلسه واحدًا واحدًا، أو اثنين اثنين، يتستر بعضكم ببعض عند الخروج، حتى لا يراه الناس ولا يراه الرسول، فإن اللَّه يعلم قطعًا أولئك الذين يخرجون متسللين متسترين بعضهم ببعض، فإذا نجوا من ملام الرسول، فإنهم لا ينجون من عذاب اللَّه.

وإذا كان اللَّه عالمًا بصنعهم، ومفارقتهم لمجلس رسوله، وثلمهم لجماعته، وصدهم وإعراضهم عما هو عليه هو ومن معه - فهو معاقبهم على ما ارتكبوا بالبلايا، يصبها عليهم في الدنيا، أو العذاب الأليم ينزله بهم في الأخرى، أو يجمع لهم ما بينهما، فليجتنب أولئك المخالفون لأمره هذه الفتنة

وهذا العذاب، وليحذروا منهما. وما ذلك إلا بترك المخالفة والإقلاع عنها، والرجوع إلى الموافقة والاتباع.

تنظير وتعميم:

أمراء المسلمين وقادتهم ومن يتولون أمرًا من أمورهم العامة تجاب دعوتهم إذا دعوا لأمر عام وشأن مما يرتبط بما في عهدتهم من أمر الناس، ويسرع إليهم، ولا يتسلل من مجالسهم.

ذلك لما لهم من حق الخلافة عن الرسول ﷺ فيما كان يقوم به من أمر الناس، وتدبير شؤونهم، وضبط نظامهم، ورعاية مصالحهم.

ميزان:

كل الأقوال والأعمال توزن بأقواله وأعماله، وكل الأحوال والسير توزن بسيرته وحاله.

فما وافقها فهو الحق والخير والهدى، وهو الذي يُقبَلُ مِن كائن مَن كان.

وما خالفها فهو الباطل والشر والضلال، وهو الذي يردُّ على صاحبه كائنًا من كان.

وقد ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أنه ﷺ قال:

«**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١١٩].

---

[١١٩] صحيح:

أخرجه بهذا اللفظ مسلم (١٧١٨) وأحمد (٦/ ١٤٦و١٨٠و٢٥٦) وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

وأخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم وأبو داود (٤٥٩٣) وابن ماجه (١٤) وأحمد (٦/ ٢٤٠و٢٧٠) بلفظ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ».

وجوه الفتنة وسببها:

مخالفة السنة النبوية والهدي المحمدي، وما كان عليه رسول اللَّه ﷺ في تنفيذ شرع اللَّه وتطبيق أحكامه وتمثيل الإسلام تمثيلًا عمليًّا -تلك المخالفة هي سبب كل بلاء لحق المسلمين حتى اليوم بحكم صريح هذه الآية.

وقد ذكر المفسرون في تفسير الفتنة أشياء على وجه التمثيل لا على وجه الحصر والتحديد، فذكروا الكفر، والقتل، والاستدراج بالنعم، وقسوة القلب عن معرفة المعروف والمنكر، والطبع على القلب حتى لا يفقه شيئًا، وكل هذا قد أصاب المسلمين بسبب مخالفتهم.

أعظم الفتنة:

غير أن أعظم الفتنة - فيما نرى[1] - هو ما قاله الإمام جعفر الصادق: «أن يسلط عليهم سلطان جائر» فإنه إذا جار السلطان - وهو من له السلطة في تدبير أمر الأمة والتصرف في شؤونها - فسد كل شيء، فسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال والأحوال، وانحطت الأمة في دينها ودنياها إلى أحط الدركات، ولحقها من جرائه كل شر وبلاء وهلاك. ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور في قدره وسعته ومدة بقائه.

هذا إذا كان ذلك الجائر من جنسها ويدين - بحسب ظواهره - بدينها، فكيف إذا لم يكن من جنسها ولا دينها في شيء.

حقًّا إن أعظم ما لحق الأمم الإسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على يد

---

(١) أي: نظن.

السلاطين الجائرين منها ومن غيرها. وهذا ما يشهد به تاريخها في ماضيها وحاضرها.

فما أصدق كلمة جعفر الصادق وما أعمق نظره فيها. ومن أحق بمثلها من بيت النبوة ومعدن الحكمة؟ عليهم الرضوان والرحمة.

تطبيق وتحذير:

من أبين المخالفة عن أمره وأقبحها الزيادة في العبادة التي تعبد للّه بها على ما مضى من سنته فيها، وإحداث محدثات على وجه العبادة في مواطن مرت عليه ولم يتعبد بمثل ذلك المحدث فيها.

وكلا هذين زيادة وإحداث وابتداع مذموم، يكون مرتكبه كمن يرى أنه اهتدى إلى طاعة لم يهتد إليها رسول اللّه ﷺ وسبق إلى فضيلة قصر رسول اللّه ﷺ عنها.

وكفى بهذا وحده فتنة وبلاء، دع ما يجرُّ إليه من بلايا أخرى.

وقد طبق الإمام مالك رضي الله عنه هذه الآية الكريمة على هؤلاء المتزيِّدين أحسن تطبيق وأبلغه وأردعه لمن كان له فهم وإيمان.

روى الإمام ابن العربي[1] رحمه الله بسنده المتصل إلى سفيان بن عيينة رحمه الله قال:

«سمعت مالك بن أنس - وأتاه رجل - فقال يا أبا عبد اللّه من أين أُحْرِم؟ قال: من ذي الحُليفة من حيث أحرم رسول اللّه ﷺ، فقال: إني أريد أن

(١) في «أحكام القرآن» (٣/ ١٤١٢- ١٤١٣).

أحرم من المسجد. فقال: لا تفعل. قال: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة. قال: وأي فتنة في هذا؟ إنما هي أميال أزيدها. قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ. إني سمعت الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: الآية ٦٣] ».

فليتأمل المسلمون - وخصوصًا المنتسبين إلى مذهب مالك - في فقه هذا الإمام العظيم، ووقوفه عند حدود الله، وليحذروا من عاقبة المتزيدين المتغالين.

بوارق أمل:

لقد شعر المسلمون عمومًا بالبلايا والمحن التي لحقتهم، وفي أولها سيف الجور المنصب على رؤوسهم، وأدرك المصلحون منهم أن سبب ذلك هو مخالفتهم عن أمر نبيهم ﷺ، فأخذت صيحات الاصلاح ترتفع في جوانب العالم الإسلامي في جميع جهات المعمور، تدعو الناس إلى معالجة أدوائهم، بقطع سببها واجتثاث أصلها، وما ذلك إلا بالرجوع إلى ما كان عليه محمد -عليه الصلاة السلام- وما مضت عليه القرون الثلاثة المشهود لها منه بالخير في الإسلام.

وقد حفظ الله علينا ذلك بما إن تمسكنا به لن نضل أبدًا - كما في الحديث الصحيح[١٢٠] - الكتاب والسنة.

---

[١٢٠] حسن:

رواه مالك (٤/ ٢٤٦/ ١٧٢٧) بلاغًا، وله شواهد:

وذلك هو الإسلام الصحيح الذي أنقذ اللَّه به العالَم أوَّلًا، ولا نجاة للعالم ممَّا هو فيه اليوم إلا إذا أنقذه اللَّه به ثانيًا.

وقد أخذ المسلمون يصيخون أسماعهم، ويستجيبون أفواجًا أفواجًا لداعي الاصلاح أينما دعاهم.

وفي ذلك - والحمد للَّه - ما يقوي الرجاء والأمل، ويبعث على الجد والعمل.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: الآية ١٣] (١).

* * *

١- عن ابن عباس: أخرجه الحاكم (١/ ٩٣) بسند حسن، وصححه هو ووافقه الذهبي.

٢- عن أبي هريرة: أخرجه الحاكم والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٢٧٤/ ٢٧٤و٢٧٥) من طريق صالح بن موسى الطلحي عن عبد العزيز بن رفيع عن أبي صالح عنه، والطلحي متروك.

٣- عن أبي سعيد الخدري: أخرجه الخطيب في «الفقيه» (٢٧٦) بإسناد فيه ضعيفان ومجهول.

(١) الشهاب: (ج٢، م١٣) صفر ١٣٥٦هـ، أفريل ١٩٣٧م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

من سورة النحل

الآية (١٨)

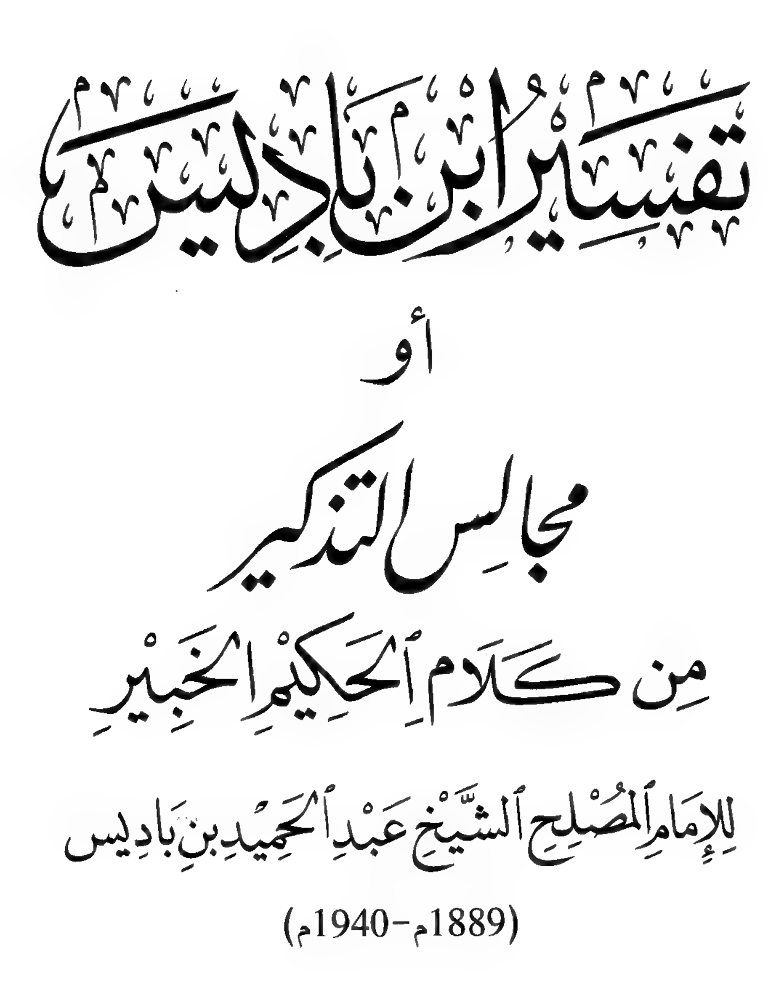
الآية (٢٠)

من سورة مريم

من سورة (طه)

من سورة الحج

* * *



للإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس

(1889م-1940م)

المجلد الثاني

اعتنى به وخرج أحاديثه وآثاره

أبو عبد الرحمن محمود

دار الرشيد

للكتاب والقرآن الكريم

(الجزائر)

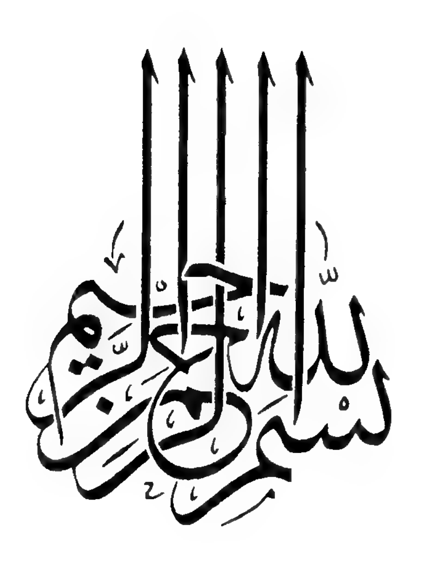
الطَّبْعَةُ الأُولَىٰ
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



المبيعات: 33 ش محمد برقيه مقابل مسجد السنه (باب الوادى) 00213 21962546
الإدارة : شارع بوجمعه خليل العاشور وادى الرمان - الجزائر 00213 21308043


تفسير ابن باديس

٢


بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة الفرقان

تفسير الآيات [١ و٢ و٤ - ٦ و٢٠ و٢٧ - ٣٤ و٥١ و٥٢ و٦٢ - ٧٧]

«الفرقان»

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾. [الفرقان: الآيات: ١ - ٢].

المفردات:

«تبارك»: مادة (ب. ر. ك) كلها ترجع إلى معنى الثبوت.

منها بروك الإبل، استناختها.

والبركة كالقربة مثل الحوض يثبت فيها الماء.

والبراكاء الثبات في الحرب.

ومنها البركة بمعنى النماء والزيادة.

ولا ينمو ويزيد إلا ما كان ثابت الأصل، وشأن ثابت الأصل أن ينمو ويزيد، فلم تخرج عن معنى الثبوت.

وتبارك من البركة، فمعناه تزايد خيره، والله تعالى له الكمال ومنه الإنعام، فتبارك أي تزايد كماله وإنعامه، فلا تحصى إنعاماته ولا تحد كمالاته.

وثبوت الكمال ينافي وينفي ضده، فيقتضي التنزه عن النقص، فانتظم اللفظ ثلاثة معاني[1]: التنزه عن النقص، والاتصاف بالكمال، والإفاضة للإنعام.

---

(١) كذا في الأصل!

فتبارك «تقدس وتعاظم»، الفعل الأول مفيد للأول، والفعل الثاني مفيد للثاني والثالث.

«نزَّل»: مادة نزل كلها ترجع إلى معنى الهبوط من عَلٍ والحلول في أسفل. ونزَّل المضاعف أبلغ في المعنى من أنزل، وقد يفيد كثرة النزول كما هنا، لأنه نزله مفرقًا على نيف وعشرين سنة، وقد يفيد القوة في نزول واحد كما في ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: الآية ٣٢]: لأن تنزيل الجملة أقوى من إنزال التفصيل.

«الفرقان»: أصله مصدر فرق بمعنى فصل، وهو أبلغ في الدلالة على المعنى من فرق المصدر المجرد بما فيه من زيادة الألف والنون، كما كان القرآن أبلغ من القراءة لذلك، وهو هنا اسم من أسماء هذا الكتاب الكريم.

«نذير»: مادة نذر كلها ترجع إلى الإعلام والتحتيم.

فمنها نذر على نفسه الصوم، أوجبه وحتمه وأعلم به، ونذر بالعدو كفرح علم به، وأنذره أعلمه، ولا يستعمل إلا في إبلاغ ما فيه تخويف، فهو إعلام بتأكيد وتحتيم.

ونذير هنا بمعنى منذرٍ، من فعيل بمعنى مفعل.

التراكيب:

«الذي نزَّل» عرف المسند إليه بالموصولية لزيادة تقرير الغرض الذي إليه سيق الكلام، لأنَّ الغرض بيان كمالات اللَّه تعالى وإنعاماته، وتنزيل الفرقان منها، فهو من أعظم نعم اللَّه على البشر، ومن آيات اللَّه الدالة على قدرته

وعلمه وحكمته.

عبده: إضافة تشريف لأنه أكمل العباد.

المعنى:

تقدَّس وتعظام الربُّ الذي نزَّل الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وحزبيهما من الناس، مفصلًا آياتٍ آياتٍ على محمد ﷺ أكمل عباده، ليكون بذلك الكتاب لجميع الإنس والجن منذرا لهم، يعلمهم بعذابه، ويخوفهم بشديد عقابه، إن لم يعبدوه وحده، ويخلعوا غيره من آلهتهم الباطلة، ويدخلوا في الدِّين الذي جاءهم به وهو الإسلام.

توحيد:

هذا الفعل وهو «تبارك» لا يسند إلا إلى اللَّه تعالى، ذلك لأن العظمة الحقيقية بالكمال والإنعام، والتقدّس بالتنزُّه التام، ليسا إلا له، وما من كامل من مخلوقاته إلا وهو ﷻ الذي كمله، وما من منعم عليه منهم إلا وهو تعالى الذي أنعم عليه، وما من زكي منهم إلا وهو - سبحانه - الذي زكاه.

سلوك:

هذا الرب الكامل المكمل، المنعم المتفضل، القدوس المقدس، هو الذي أنزل هذا الفرقان، فإذا أردت أن ترقى في درجات الكمال، وتظفر بأنواع الإنعام، وتزكي نفسك الزكاء التام، فعليك بهدى هذا الفرقان، فهو بساط القدس، ومعراج الكمال، ومائدة الإكرام.

وقد سُئلت عائشة -رضي اللَّه تعالى عنها- عن خُلق النبي ﷺ، فقالت:

«كان خلقه القرآن»[١٢١].

تفقُّهٌ واستنباطٌ:

لما سمَّى اللَّه كتابه الفرقان علمنا أنه به يفرق بين الحق والباطل، وأهل هذا وذاك، فهو الحكم العدل والقول الفصل بين كل متنازعين يدَّعي كل منهما أنه على الحق فيما هو عليه من عقد أو قول أو عمل.

فما تقابل حق وباطل، وما تعالجت حُجَّةٌ وشُبهةٌ، إلَّا وفي هذا الكتاب الحكيم ما يفرق ما بينهما، وإنما يتفاوت الناس في إدراك ذلك منه على حسب ما عندهم من قوة علم وصدق بصيرة وحسن إخلاص.

فعلينا - إذًا - أن يكون أول فزعنا في الفرق والفصل إليه، وأن يكون أول جهدنا في استجلاء ذلك من نصوصه ومراميه مستعينين بالسنة القولية والعملية على استخراج لآليه.

فإذا حَكَم قَبِلْنا وسَلَّمْنا، وكُنا مع ما حكم له وفارقنا ما حكم عليه.

فاللَّه سمَّاه الفرقان لنعلم أنه فارق بنفسه، ولنعمل بالفرق به، ولا يكمل إيماننا بأنه الفرقان إلا بالعلم والعمل.

ولما جعل - تعالى - غاية تنزيل الفرقان أن يكون عبده نذيرًا اقتضى ذلك أن نذارته تكون بالفرقان لتقوم الحجة وتتم الحكمة وتحصل الفائدة وتشمل النعمة.

---

[١٢١] صحيح:

تقدم تخريجه برقم (١).

وقد صرح بهذا في قوله تعالى بالأعراف: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: الآية ٢] .

وبالأنعام: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: الآية ١٩] .

وبالنمل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: الآية ٩١- ٩٢] .

وبـق: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ٤٥] .

وبالتوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٦] .

فعلينا - إذًا - أن نعلم أن القرآن هو كتاب النذارة والهداية، فنستخرج أصولهما وفنونهما من آياته، وهذا حظ العلم، وأن يكون اهتداؤنا في أنفسنا وهدينا لغيرنا به، وهذا حظ العمل، وهما ركنا الإيمان.

تطبيق وتحاكم:

في العالم الإسلامي كله اليوم طائفتان من المؤمنين تتنازعان خطة الهداية والنذارة والتذكير، ولكل منهما في سلوكها للقيام بتلك الخطة سبيل، وكل منهما تدعي أنها هي التي على الصواب، وأنها الأحق والأولى بنفع العباد.

فرأينا أن نطبق فصل الفرقان عليهما، وننظر كيف يفرق ما بينهما وبين المصيبة من المخطئة منهما، وفي ضمن ذلك تحاكمهما إليه وفصل النزاع بينهما بحكمه.

وإنما اخترناهما للتطبيق والتمثيل لخطر الخطة التي تنازعا عليها، وعظيم

النفع والضرر الذي يحصل من خطأ المخطئ وصواب المصيب بها، ولأن الهداية والنذارة والتذكير أمور لها أنزل القرآن، فتنازعهما عليها تنازع عليه، فأحق فصل نمثل به لنعلمه هو فصله بين المتنازعين فيه.

وها نحن نعرض بعض حال كل طائفة في قيامها بالخطة، ثم نسوق آيات القرآن، وننظر مَن أسعد الطائفتين بها:

الطائفة الأولى: يذكِّرون من يدعونهم بغير القرآن، بأحزاب وأوراد من وضعهم لا مما ثبت عن النبي ﷺ إلا قليلًا.

ولهم عليهم في أموالهم حق في أوقات من السنة معلومة.

والطائفة الثانية: يذكِّرون الناس بالقرآن، فيأمرونهم بقراءته وتدبره، ويبينون لهم معانيه، ويحثونهم على التمسك به والرجوع إليه.

ويدعونهم إلى الأذكار النبوية الثابتة في الكتب الصحاح لرجوعها إلى القرآن بحكم قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: الآية ٧]، ولا يطلبون عليهم في ذلك أجرًا.

واللَّه تعالى يقول في الحال الأول: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ [ق: الآية ٤٥] وغيرها من الآيات المتقدمة في هذا المجلس.

ويقول - تعالى - في الحال الثاني لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٥٧]. ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: الآية ٢٣].

ويقول في آية صريحة صراحة تامة في بيان من يجب أن يُتَّبَع من الدعاة:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [يس: الآية ٢١] .

ومن هم المهتدون؟

هم المتبعون للنبي ﷺ لقوله تعالى في الأعراف: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٨] .

واتباعه بالنسبة لموضوعنا هو اتباعه في طريق دعوته الخلق إلى اللَّه .

وقد ثبت بالقرآن أنه كان يدعو بالقرآن ويذكِّر به، وأنه لا يسأل على ذلك أجرًا .

بان - والحمد للَّه - بما ذكرنا حكم القرآن بين الطائفتين، واتضح طريق الحق في الدعوة والإرشاد لمن يريد سلوكه منهما .

واللَّه نسأل لنا ولهم قبول الحق والتعاون عليه، والقوة والإخلاص في الصدع به والثبات عليه .

و﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٧] (١) .

* * *

(١) الشهاب: (ج١٢، م٧) غرة شعبان ١٣٥٠هـ - ديسمبر ١٩٣١م.

كلام الظالمين في الكتاب الحكيم والرسول الكريم ورَدُّ ربِّ العالمين

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. [الفرقان: الآيات ٤- ٦].

الألفاظ:

كفروا: غطوا الحق بإنكاره وعدم الاعتراف والإعلان به، وكل من غطى شيئًا وستره فقد كفره، وسمي الليل كافرًا لأنه يغطي الأشياء بظلامه، والزارع كافر لأنه يغطي البذر بالتراب.

إفك: كذب مصروف عن وجهه الحق، من أفكه يفكه أفكا أي صرفه.

افتراه: اختلقه واخترع صورته.

جاءوا: وردوه وانتهوا إليه.

ظلمًا: وضع الشيء في غير موضعه.

زورا: شهادة بالباطل.

أساطير: جمع أسطورة، أي أخبار وحكايات مسطورة في كتب الأوائل، ليست محل الثقة.

اكتتبها : أمر بكتابتها له ، وافتعل يأتي للطلب كاحتجم وافتصد .

تُملى : تلقى عليه ليحفظها فليقيها على الناس .

بكرة : ما بين الفجر والطلوع .

أصيلًا : ما بعد العصر إلى الغروب .

السر : الخفي من كل شيء .

غفورًا : ستارًا للذنوب ، كثير التجاوز عنها .

رحيمًا : دائم الإفاضة للنعم(١) .

---

(١) هذا من تفسير اللفظ بلازمه ، وهو من تأويل الأشاعرة وغيرهم لأسماء اللَّه وصفاته ، المخالف لمنهج السلف أهل السنة والجماعة ، القائم على إثبات ما أثبته اللَّه لنفسه في الكتاب والسنة الصحيحة من الأسماء والصفات ، دون تأويل أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل .
وقد بيّن الشيخ رشيد رضا - رحمه اللَّه تعالى- في «تفسير المنار» (١/ ٧٦- ٧٧) أن ما ذهب إليه أستاذه الشيخ محمد عبده - رحمه اللَّه تعالى- من تأويل الرحمة بلازمها وهو الإحسان والإنعام ، إنما تبع فيه متكلمي الأشاعرة والمعتزلة ومفسريهم كالزمخشري والبيضاوي .
قال : «وهذا القول من فلسفة المتكلمين الباطلة المخالفة لهدي السلف الصالح .
والتحقيق أن صفة الرحمة كصفة العلم والإرادة والقدرة وسائر ما يسميه الأشاعرة صفات المعاني ، ويقولون إنها صفات قائمة بذاته تعالى خلافًا للمعتزلة ، فإن معاني هذه الصفات كلها بحسب مدلولها اللغوي . . » .
قال : «فقاعدة السلف في جميع الصفات التي وصف اللَّه تعالى بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله أن نثبتها له ونمرها كما جاءت مع التنزيه عن صفات خلقه ، الثابتة عقلًا ونقلًا بقوله ﷻ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١] .
فنقول : إن له علمًا حقيقيًا هو وصف له ولكنه لا يشبه علمنا ، وإن له سمعًا حقيقيًا هو وصف له لا يشبه سمعنا ، وإن له رحمة هي صفة لا تشبه رحمتنا التي هي انفعال النفس ، وهكذا نقول في سائر صفاته تعالى ، فنجمع بين النقل والعقل . =

المعنى:

وقال الذين أنكروا الحق مع ظهوره، وجحدوه مع وضوحه: ما هذا الكلام الذي يتلوه محمدعلينا إلا كلام كذب مصروف عن وجه الحق، اخترعه وصوره وأعانه عليه غيره أناس آخرون!.

فقد سموا الحق الصراح والصدق الخالص إفكًا، وجعلوا أخبار الأمين الذي كانوا يدعونه هم أمينًا - افتراء، وجعلوا القرآن الذي عجزوا عن معارضته كلامًا عاديًا متعاونًا على تركيبه وتصويره، فسموا الشيء بغير اسمه، ووضعوا الوصف في غير موضعه، فانتهوا بذلك إلى ظلم عظيم أتوه ووقعوا فيه.

وقد شهدوا بالباطل، فنسبوا للرسول ﷺ ما هو بريء منه من الإفتراء والإستعانة بغيره، فانتهوا إلى زور عظيم تحمَّلوه.

وقالوا -أيضًا- : هذا الذي يتلوه علينا هو من أخبار الأوائل وكتبهم المسطورة التي سطورها من أعاجيب أحاديثهم ممايتلهى به ولا يوثق بصحته توصل إليها من غيره، أمر فكتبت له، فكاتبها له يمليها عليه دائمًا في طرفي

= وأما التحكم بتأويل بعض الصفات وجعل إطلاقها من مجاز المرسل أو الاستعارة التمثيلية كما قالوا في الرحمة والغضب وأمثالها دون العلم والسمع والبصر وأمثالها فهو تحكُّمٌ في صفات اللَّه وإلحادٌ فيها».

والمسألة حرّرها العلامة ابن القيم - رحمه اللَّه تعالى- تحريرًا بديعًا في كتابه النفيس «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (٢/ ٤٧١- ٤٨٦- مختصره) من عشرين وجهًا، فليراجع فإنه نسيج وحده، واللَّه ولي التوفيق والهداية.

والخلاصة أن «الرحمن» و«الرحيم» اسمان من أسماء اللَّه الحسنى، مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، و«الرحمن» أشد مبالغة من «الرحيم» كما في «تفسير ابن كثير» وغيره، واللَّه أعلم.

النهار، فيحفظها هو ويأتينا بها.

قل - يا محمد - أنزل هذا الذي أتلوه عليكم الخالقُ الذي يعلم الشيء الخفي والأمر المكتوم في العالَم العلوي والعالَم السفلي.

وما أمهلكم فلم يعاجلكم بالعذاب، وبقي يجدد لكم التذكير مع إعراضكم وعنادكم وقبح صنيعكم وسوء ردِّكم إلا أنه من شأنه الصفح والتجاوز، ودوام الإنعام والتفضل، فهل لكم أن ترجعوا إلى هذا الرب الغفور الرحيم؟

مزيد بيان:

بهر العرب ما رأوا وما سمعوا، من رجل كان بالأمس معرضًا عنهم تاركًا لهم وشأنهم، يشهد موسم الحج معهم، ويجتنب مشاهد وثنيتهم، ولكنه لا يعاديهم، ولا ينكر عليهم، ويسير بينهم بالصدق والجد والعفاف وكمال المروءة: سيرة تخالف سيرتهم، فهم لذلك يحبونه ويعظمونه ويدعونه الأمين: لقبًا خصصوه به فصار يدعى به بينهم.

فأصبح اليوم - وقد جاوز الأربعين - ينكر عليهم، ويسفِّه أحلامهم، ويقبِّح عبادتهم وما يعبدون، ويصبر على أذاهم، ولا يقابلهم بالمثل، ويستمر على دعوته غير مبال بهم ولا حاسب شيئًا لكثرتهم ولا لسطوتهم.

ومن كلام مثل كلامهم في ألفاظه وفي تراكيبه ثم هم يعجزون عن معارضته بمثل أقصر سورة منه، ثم يشهدون الفرق بينه وبين كلام محمد نفسه، فهو إذا حدثهم حدثهم بما اعتادوا من حديثه معهم، حتى إذا تلى عليهم القرآن جاءهم بما هو فوق كلامه وكلامهم، وما تقصر عن معارضته ألسنتهم.

بهرهم هذا وهذا، وأخذ العناد بعقولهم واستحوذت عليهم شياطينهم

فحاروا فيما يقذفون به هذا الرسول وهذا الكتاب، فأخذوا يقولون عن الكتاب إنه إفك مفترى، ورأوه أكبر مما كانوا يسمعون من كلام محمد، فلم يكن ليأتي به وحده وهو فوق المعتاد من كلامه، فإذًا هنالك أقوام يعينونه. ومن هم الأقوام؟.

وهو - بعد - في نفر قليل ممن آمن به، وهم هم في كثرتهم وتساندهم وقد عجزوا عن الإتيان بشيء مثله، فالقليل الأحرى بالعجز من الكثير.

ويقولون أنه أساطير الأولين وقد كان منهم من عرف شيئًا من أخبار الفرس وملوكهم وكان يحدثهم بها، ويقصها عليهم، ويزعم لهم أنها مثل ما يأتي به محمد، فقالوا - وقد علموا الفرق - هذه منها وهي مثلها، ولكن محمدًا عرفوه أميًا لا يقرأ ولا يكتب، فيكف اتصل بهاته التي زعموها أساطير؟

فاخترعوا وسيلة لذلك أنه يكتبها له غيره ويمليها عليه وهو يحفظها، ومن هو هذا الذي يكتب ويملي عليه وهم قد عرفوا مدخل محمد ومخرجه ومغداه ومجلسه، وعرفوا بلدتهم ومن يساكنهم، فكيف لا يرونه ولا مرة بين يدي هذا الكاتب المملي ولا يشاهدونه يومًا في صحبته؟.

فاخترعوا لذلك أنه يمليها عليه في طرفي النهار، في ظلام من الوقت وسكون من الناس.

وقالوا في الرسول ﷺ أنه مفتري[1] يستعين على افترائه بغيره، ويتظاهر باستقلاله وينسب للَّه ما هو من حكايات الأوائل وأوضاعهم. فيكذب عليه - تعالى - لديهم.

رد اللَّه عليهم كل ما قالوا فيهما بأنه ظلم وزور، وأن ما يتلوه عليه هذا

---

(١) كذا في الأصل!

النبي الكريم من ذلك الكتاب الحكيم ليس مما يكون إلا من خالق المخلوقات، العالم بأسرارها .

أسلوب في البيان:

لقد جاءوا بالظلم والزور في قولهم الأول وقولهم الثاني .

وقوله : «قل» أمر بما يرد قولهم الأوَّل وقولهم الثاني غير أنه قصد إلى الإيجاز وعدم التكرار، فجعل مع قولهم الأول الوصف، وهو الظلم، واكتفى بذكره هنا عن إعادته، وجعل مع قولهم الثاني الدليل وهو إنزال من يعلم السر . واكتفى بذكره هنا عن ذكره مع الأول فحذف من كلٍّ ما أثبت مع الآخر . وجعل الوصف مع الأول والدليل مع الثاني ترقيا من الدعوى للدليل .

وجه الدليل:

القرآن أعجز العرب ببلاغته حتى عرفوا وعرف العلماء بلسانهم، المرتاضين ببيانهم، أنه ليس مثله من طوق البشر .

هذه هي الناحية الظاهرة في إعجاز القرآن والاستدلال به له ولمن أتى به ﷺ .

وهنالك ناحية أخرى هي أعظم وأعم وهي ناحيته العلمية التي يذعن لها كل ذي فهم من جميع الأمم في كل قطر وفي كل زمن .

وهذه الناحية هي التي احتج بها في هذا الموطن .

فقد استدل على أن القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل - بأنه ينطوي

على أشياء من أسرار الكون لا يعلمها إلا خالقه.

فمن ذلك ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية، وبين من أسرار الكتب الماضية، وما أنبأ من أحداث مستقبلة، وما ذكر من حقائق كونية كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة، كالزوجية في كل شيء، وسبح الكواكب في الفضاء، وسير الشمس إلى مستقر مجهول معيَّن عنداللّه لها، وغير ذلك من أسرار العمران والإجتماع، وما تصلح عليه حياة الإنسان مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم، وإلى ما بعد اليوم.

فكتاب اشتمل على كل هذه الأسرار لايمكن أن يأتي به مخلوق.

ترغيب:

قد دعانا اللّه إلى العلم، ورغبنا فيه في غير ما آية، وأعلمنا أنه خلق لنا ما في السموات وما في الأرض جميعا، وأمرنا بالنظر فيما خلقه لنا، وأعلمنا هنا أن في هذه المخلوقات أسرارًا بينها القرآن واشتمل عليها، وكان ذلك من حجته العلمية على الخلق.

فكان في هذا ترغيب لنا في التقصي في العلم، والتعمق في البحث، لنطلع على كل ما نستطيع الإطلاع عليه من تلك الأسرار: أسرار آيات الأكوان والعمران، وآيات القرآن، فنزداد علمًا وعرفانًا، ونزيد الدين حجةً وبرهانًا، ونجني من هذا الكون جلائل ودقائق النعم، فيعظم شكرنا للرب الكريم المنعم.

فقهنا اللّه في كتابه، ووفقنا إلى الاهتداء به والسير على سننه[1].

(١) الشهاب (ج٣، م١٣) غرة ربيع الأول ١٣٥٦هـ- ماي ١٩٣٧م.

منزلة الرسالة العلية والضرورات البشرية

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفُرقان: الآية ٢٠].

المناسبة:

لما طعنوا في رسالته بأنه بشر يفعل ما يفعله البشر بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفُرقان: الآية ٧] رد اللَّه عليهم بأن هذا هو حال جميع المرسلين من قبله، واحتج عليهم بما يعلمون من ذلك بما يسمعون من أهل الكتاب جيرانهم، وبما عندهم من أخبار عاد وثمود من بني جلدتهم.

المفردات:

الإرسال: هو البعث لتبليغ شيء أو قضائه.

وفي لسان الشرع: هو إنزال اللَّه تعالى الوحي على من اصطفاه من خلقه لينذر به من أمره بإنذاره من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٤].

فالرسالة وحي مع أمر بالتبليغ.

التراكيب:

مفعول أرسلنا محذوف تقديره رجالًا، وعليه عاد الضمير في «إنهم» وهو

صاحبِ الحال، والحال هي الجملة التي بعد إلا ، والجملة الثانية حال بالعطف على الأولى ، والاستثناء مفرغ من الأحوال .

وتقدير الكلام: وما أرسلنا قبلك رجالًا من المرسلين إلا حالة أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق . أي ما أرسلناهم في حالة من الأحوال إلا في هذه الحال .

وإنَّ واللام والحصر بما وإلَّا : كل هذه لتأكيد المعنى الذي سيق إليه الكلام ، وهو إثبات أن رسول البشر لا يكون إلا بشرًا ، ردًّا على منكري ذلك من المشركين .

وعبر بالمضارع في «يأكلون ويمشون» ، لأن ذلك من ضروريات بشريتهم فهو يتجدد ويتكرر منهم .

وأكل الطعام والمشي في الأسواق كناية عن البشرية لأنهما وصفان لازِمانِ لها .

المعنى:

وما ينكر عليك هؤلاء من أكلك الطعام ومشيك في الأسواق مع أنك رسول اللَّه ، وقد علموا أنه ما من رسول كان قبلك إلا وهذه حالته ، وما أنت إلَّا واحدٌ منهم ، فلا عيب عليك في ذلك ، ولا حجة لهم عليك به .

تاريخ:

هذه المقالة شنشنة قديمة من الأمم التي أرسلت إليها الرسل فقابلتها بالجهل والعناد .

فقد قال لنوحٍ قومُه: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هُود: الآية ٢٧].

وقال لهودٍ قومُه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٣٣].

ولصالح: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٥٤].

ولشُعيب: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٨٦].

ولموسى وهارون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: الآية ٤٧].

وفي سورة إبراهيم عن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم أنهم قالوا لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: الآية ١٠].

فقال المشركون للنبي ﷺ ما قاله أمثالهم لإخوانه المرسلين -عليهم الصلاة والسلام-.

تعليل:

ما اعترض المعترضون على الرسل ببشريتهم إلا من جهلهم وسوء نظرهم وغباوتهم:

أما جهلهم، فقد جهلوا ما في البشرية من استعداد لنيل أرقى الكمالات، وجهلوا ما تقتضيه الرسالة من مشاكلة بين الرسول والمرسل إليهم لتحصل المفاهمة والاتصال، وجهلوا ما يؤهل به البشر لرتبة الرسالة من كمال في الروح والعقل والأخلاق والسلوك، مما كان الرسل متصفين به كله أمام أعين أقوامهم.

وأما سوء نظرهم فإنهم نظروا إلى بشرية الرسل فقاسوهم بهم، وقالوا

لهم: أنتم مثلنا، مع وجود الفارق الواضح بينهم وبين الرسل في الصفات النفسية التي بها كمال الإنسان.

وأما غباوتهم فإنهم لغلبة الجسمانيات على حسهم، وإهمالهم استعمال عقولهم، لم يتفطنوا للكمال المشاهد الذي امتاز به الرسل بين أقوامهم.

تعليم:

هذه العلل التي صدر اعتراض المعترضين عنها، قد علَّمنا اللَّه تعالى في كتابه العزيز ما يعصمنا منها.

فعلَّمنا أن الإنسان مستعد لأن تخضع له العوالم بما فيه من روح اللَّه، وأنه يلتحق بعالم الملائكة الأطهار بتلك الروح عند ما تكون على أصل طهرها وقدسها.

علمنا هذا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٢٩] فأخضع له ملائكته أشرف العوالم، وبقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٣] فاتصل بهم وخاطبهم وعلمهم، فلا عجب أن يأتي المماثلون له من أبنائه في طهره وعصمته على سنته في الإتصال بالملائكة ومخاطبتهم.

وعلمنا أن الرسول لا يكون إلا من جنس المرسل إليهم ليحصل الإتصال ويمكن التلقي، وأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لأُرسِل لهم مَلَكٌ، وأنهم لو أنزل عليهم مَلَكٌ وهم بشر لَكُسي حلة البشرية، ولَالْتَبس عليهم أمره، ولقالوا فيه مثل ما قالوا في المرسلين من البشر.

علَّمنا هذا بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٩٥] وبقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٩].

وعلَّمنا أن البشر يؤهل للرسالة باصطفاء اللَّه له، ومن مقتضى ذلك الاصطفاء تطهيره من أول نشأته من أوضار البشرية، وظلم الجسمانية وتسفلها، فتبقى روحه على غاية الطهر والعلوية النورانية، مستعدة للإتصال بالملأ الأعلى حتى تستكمل قواها فيأتيها الملك بالوحي.

علَّمنا هذا بمثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحجّ: الآية ٧٥]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: الآية ٤٧]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٢] وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٤] وغيره كثير.

وعلَّمنا أن الرسل وإن كانوا موافقين لنا في الخلقة البشرية، فإنهم مباينون لنا غاية المباينة في الخلقة النفسية من حيث الطهر والكمال.

فنفوسهم بقيت على طهرها لم تدنس بشيء، ونفوسنا لا تخلو من تدنس، والموفق من داوم على غسلها بالتوبة وتحليتها بالصالحات.

وكمالهم فطري ويبلغون فيه بعملهم المتواصل وعصمتهم الربانية إلى الغايات التي لا تنال، وكمالنا ليس كذلك في الأمور الثلاثة: الفطرة والعمل المتواصل والعصمة.

علَّمنا هذه بقوله تعالى: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: الآية ١١].

فبالنظر الصحيح فيما منَّ اللَّه عليهم به ندرك أنهم ليسوا مثلنا وإن ساوونا في الخلقة البشرية.

وعلَّمنا أن لا ننظر إلى ظواهر الأمور دون بواطنها، وإلى الجسمانيات الحسية دون ما وراءها من معان عقلية، بل نعبر من الظواهر إلى البواطن، وننظر من المحسوس إلى المعقول، ونجعل حواسنا خادمة لعقولنا، ونجعل عقولنا هي المتصرفة الحاكمة بالنظر والتفكير.

علَّمنا هذا بقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: الآية ١٠٠].

فلا ينظر إلى بهرجة الكثرة، ولكن إلى حقيقة وحالة الشيء الكثير فيعتبر بحسبهما.

وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: الآية ١٥- ١٧].

فلا يجوز أن نغتر بالمال والقوة والجاه وأنواع النعيم إذا سيقت إلينا، فنحسب أنها هي نفس الكرامة الربانية التي دعينا إلى العمل لنيلها، بل إنما نعدها كذلك إذا كان معها التوفيق إلى شكرها بالقيام بحقوقها وصرفها في وجوهها.

ولا نغتر بحالة الضيق والعسر والضعف، فنحسب أنها إهانة من اللَّه لصاحبها، بل علينا أن ننظر إلى ما معها من صبر ورجاء وبر، أو ضجر ويأس وفجور: فنعلم حينئذ أنها مع الأولى للتمحيص والتثبيت، ومع الأخيرة للزجر والعقاب بعدل وحكمة من أحكم الحاكمين.

وبقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: الآية ١١٠] .

فعلمنا أنه بشر، ولكنه خصص بالوحي إليه بتوحيد اللّه وبما يقتضيه مقام الإيحاء إليه من طهر وكمال حتى لا تحجب عنا بشريته التي نشاهدها بأبصارنا كمال حاله ومنزلته الذي ندركه ببصائرنا .

عقيدة:

الرسول إنسان ذو روح طاهرة نورانية علوية بها تأتّى له تلقي الوحي من الملائكة، وذو جسد بشري تجري عليه ضروريات البشرية الخلقية دون نقائصها الكسبية، لأنه مصرف بتلك الروح العلوية الطاهرة التي لا يصدر عنها إلا الخير، وبهذا الجسد البشري تأتّى للبشر الأخذ عنه والاقتداء به .

ومأخذ هذه العقيدة من الآيات التي تلوناها في فصل التعليم المتقدم .

تحذير:

علينا أن نحذر من أن نعترض أو نحكم بالأنظار السطحية دون بحث عن الحقائق، أو أن نلحق شيئًا بشيء دون أن نتحقق انتفاء جميع الفوارق .

فقد انتشرت بعدم الحذر من هذين الأمرين جهالات، وارتكبت ضلالات .

وبالنظر السطحي ازدرى إبليس آدم فامتنع من السجود له واعترض على خالقه، فكانت عليه اللعنة إلى يوم الدين .

وبعدم النظر إلى الفوارق، قال أحد ابني آدم لأخيه لما تقبل قربانه دونه هو

﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٧] ، حتى ذكَّره أخوه بوجود الفارق، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٧] .

وحقيقة الأول ترجع إلى الجهل المركب، وحقيقة الثاني ترجع إلى القياس الفاسد، وهما أعظم أصول الفساد والضلال.

سلوك:

الأنبياء والمرسلون أكمل النوع الإنساني، وهم المثل الأعلى في كماله، وقد كان أصل كمالهم بطهر أرواحهم وكمالها، فأقبل على روحك بالتزكية والتطهير والترقية والتكميل، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاقتداء بهم والإهتداء بهديهم.

وقد قال اللَّه تعالى لنبينا -عليه وعليهم الصلاة والسلام-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعَام: الآية ٩٠] .

فاقرأ ما قصه القرآن العظيم من أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم وسيرهم، وتفقه فيه، وتمسَّك به، تكن - إن شاء اللَّه تعالى - من الكاملين.

* * *

فتنة العباد بعضهم ببعض

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: الآية ٢٠] .

المناسبة:

أفاد ما تقدم من الآية أن الرسل يأكلون الطعام فيحتاجون للغذاء وتحصيله، وأنهم يمشون في الأسواق للسعي والتكسب .

وأفاد آخِرُ الآية الحكمةَ الربانيةَ في ذلك، وهو أن يكون بذلك فتنةً واختبارًا للعباد، وتلك سنة اللَّه تعالى في خلقه، فقد جعل بعضهم لبعض فتنة .

المفردات:

قال في «لسان العرب»[1]: «الأزهري وغيره: جماع معنى الفتنة الابتداء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك: فتنت الفضة والذهب، إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد». اهـ.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٢] و﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: الآية ١٥] و﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: الآية ٤٠] و ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥] .

أتصبرون: الصبر: حبس النفس على المكروه. والمكروه لها فعل ما فيه

(١) في (١١/ ١٢٥).

تعب، وترك ما فيه لذة، ويكون في المشروع والمقدور.

ففي الأول القيام بالمأمورات والترك للمنهيات.

وفي الثاني - وهو المصائب والبلايا - بالرضا والتسليم للخالق، وعدم الاعتراض عليه، وعدم السعي في إزالتها بغير الوجه المأذون فيه.

و«البصير»: هو المشاهد للأشياء، ظاهرها وباطنها، ذواتها ونعوتها وأحوالها، مباديها وغاياتها وعواقبها.

التراكيب:

الاستفهام في «أتصبرون» بمعنى الأمر أي اصبروا، وخرج الأمر في صورة الاستفهام تنبيهًا على قلة الصبر في الوجود، فهو من الأمر المعدوم الذي يسأل عنه هل يوجد، وفي ذلك بعث للهمم على تحصيله والتمسك به.

وجملة «وكان.. إلخ» معطوفة على جملة «وجعلنا»، وعدل عن مقتضى الظاهر وهو (وكنا بصراء) بالإضمار إلى «وكان ربك بصيرا» بالإظهار، للتنبيه على أن فتنته لعباده من مقتضى ربوبيته لهم وحسن تدبيره فيهم.

موقع هذه الجملة بعد الجملة الأولى لبيان أن فتنته لهم هي عن علم وبصر بصواب ذلك وحكمته، وأنه مطلع على حقيقة ما يكون منهم عند الاختبار، ليجازيهم عليه، وفي هذا وعد ووعيد للممتحَنين.

المعنى:

امتحنا بعضكم ببعض لتظهر حقائقكم عند الامتحان، جعلنا الرسل يأكلون كما يأكل البشر، ويتكسبون كما يتكسَّبون، لنمتحن العباد بهم، فيظهر

من يتبعهم بالإيمان واليقين، لما معهم من الحق والكمال، ويصبر على ما يلحقه في اتباعهم من الجهد والبلاء، ممن يحتقرهم ويعرض عنهم لما يرى من بشريتهم.

كما جعلنا الأمم فتنة لرسلها وامتحانًا لهم ليظهر صبرهم على ما يلاقون منهم من إذاية وشر، فتعلو درجاتهم، ويضاعف أجرهم.

وجعلنا الغني امتحانًا للفقير حتى يظهر صبره على حاله. وكفه لعينه ويده عن شيء غيره.

كما جعلنا الفقير امتحانًا للغني حتى يظهر صبره على القيام بواجبه نحوه.

وجعلنا الصحيح فتنة للمريض حتى يظهر صبره على بلواه ورضاه بما أعطاه اللَّه.

كما جعلنا المريض فتنة للصحيح، حتى يظهر صبره على القيام بواجبه نحوه من العطف عليه وعيادته ومواساته.

وجعلنا الرعية فتنة للراعي، حتى يظهر صبره على القيام بواجب رعايتها.

كما جعلنا الراعي فتنة للرعية ليظهر صبرها على طاعته.

وهكذا في جميع أقسام الناس.

أتصبرون على هذا الامتحان؟ فإن الصبر عليه عزيز شديد، فاصبروا، فإنه لا يخرجكم من هذا الامتحان خالصين خلوص الذهب الإبريز إلَّا الصبر.

وكان ربك يا محمد بصيرًا، عالمًا بعاقبة الامتحان في عباده، مطَّلعًا على كل ما يكون منهم عند الامتحان ليجازيهم عليه.

سؤال وجوابه:

اللَّه تعالى عالِمٌ بما يكون من عباده بعد امتحانهم قبل أن يمتحنهم، فما هي حكمة الامتحان؟

والجواب: أن اللَّه تعالى إنما يحاسب عباده على ما عملوه وكسبوه واكتسبوه بما عندهم من التمكن من الفعل والترك، وما عندهم من الاختيار، لا على ما علمه منهم قبل أن يعملوه، فلهذا يمتحنون، لتظهر حقائقهم، ويقع جزاؤهم على ما كسبت أيديهم باختيارهم، ولا حُجَّة لهم في تقدم علمه تعالى بما يكون منهم، لأن تقدم العلم لم يكن ملجئًا لهم على أعمالهم، ففي هذا الامتحان قيام حجة اللَّه على العاملين أمام أنفسهم وأمام الناس، كما فيه إظهار لحقيقتهم لأنفسهم ولغيرهم.

تطبيق:

كما يفتن الفردبالفرد، كذلك تفتن الأمة بالأمة.

من ذلك أننا - معشر الأمة الإسلامية - قد فُتنَّا بغيرنا من أمم الغرب، وفُتنوا هم أيضًا بنا.

فنحن ندين بالإسلام وهو دين السعادة الدنيوية والأخروية، ولكن حيثما كنا - إلا قليلًا - لسنا سعداء، لا في مظاهر تديننا، ولا في أحوال دنيانا.

ففي الأولى نأتي بما يبرأ منه الإسلام. ونصرح أنه من صميمه.

وفي الثانية ترانا في حالة من الجهل والفقر والتفرق والذل والاستعباد

يرثى لها الجماد، فلمَّا يرانا الغربيون على هذه الحالة ينفرون من الإسلام، ويسخرون منه إلا من نظر منهم بعين العلم والإنصاف، فإنه يعرف أن ما نحن عليه هو ضد الإسلام، فكنا فتنة عظيمة عليهم، وحجابًا كثيفًا لهم عن الإسلام، فكنا - ويا للأسف - فتنة للقوم الظالمين.

وهم من ناحيتهم نراهم في عز وسيادة، وتقدم علمي وعمراني، فننظر إلى تلك الناحية منهم، فنندفع في تقليدهم في كل شيء حتى معائبهم ومفاسدهم، ونزدري كل شيء عندنا حتى أعز عزيز إلا من نظر بعين العلم فعرف أن كل ما عندهم من خير هو عندنا في ديننا وتاريخنا، وأن ذلك هو هو، الذي تقدموا وسادوا به، وأن ما عندهم من شر هو شر على حقيقته، وأن ضرره فيهم هو ضرره، وأنه لا يجوز أن يتابعوا عليه، فكانوا فتنة لنا حتى يظهر من ينظر بعين الحق للحقائق ممن تبهره الظواهر، فتسلبه إدراكه، فيغدو لا يفرق بين اللُّبِّ والقشور.

اقتداء:

علمنا من هذه الآية وغيرها أن اللَّه تعالى يمتحن عباده ويختبرهم ليظهر حقائقهم، فلنقتد به تعالى في هذا، فنبني أمورنا على الامتحان والاختبار، فلا نقرر علما، ولا نصدر حكما إلا بعد ذلك، وخصوصًا في معرفة الناس والحكم عليهم، فالظواهر كثيرا ما تخالف البواطن، والتصنع والتكلف، قلما يسلم منهما أحد، ولا يعصم من الخطأ مع هذه المغلطات كلها إلا الامتحان والاختبار، فاعتصم بهما.

اهتداء:

كل من اتصل بك من أهلك وبنيك وأبيك وأمك وأصحابك وعشيرتك وقومك، وكل من ترتبط به برباط من أبناء جنسك - هو فتنة وامتحان لك، هل تقوم بواجبك نحوه من جلب خير له أو دفع شر عنه أو جلب خير منه لغيره أو دفع شره عن غيره، وهل تكف يدك عن شيئه، وتكف بصرك عما متع به، وتسأل اللَّه مما عنده من فضله؟

وإنما تقوم بواجبك نحوه مما تقدم، وتكف يدك وعينك عنه، وتسأل اللَّه مما عنده راضيًا بما قسم لك، معتقدًا الخير كل الخير في قسمه - إذا تدرعت بالصبر على إتيان ما يطلب منك إتيانه وإن كان عليك ثقيلًا، والكف عما يطلب منك الانكفاف عنه وإن كان منك قريبًا وفي طبعك لذيذًا، وإنما يكون لك هذا الصبر إذا كنت دائم اليقين بعلم اللَّه بك واطلاعه عليك، وأنه كان بك بصيرًا.

هذه الحقائق كلها هدتنا هذه الآية الكريمة إليها: هدتنا إلى أنا امتحنا ببعضنا، وأن الذي يخلصنا في هذا الامتحان، ويخرجنا سالمين هو الصبر، وأن حالتنا في الامتحان منكشفة لمن سيجازينا عليها.

فلنهتد بهدايتها إلى ما هدتنا إليه، ولنتدرع في هذا الامتحان العظيم بالصبر المتين، ولنستحضر في قلوبنا مراقبة اللَّه لنا لتثبت قدمنافي مقام الصبر بروح اليقين، فبذلك نخرج -إن شاء اللَّه تعالى- من نار الفتنة ذهبًا خالصًا نقيًّا، وجوهرًا طيبًا زكيًّا، فنسعد في الدارين برضى رب العالمين. واللَّه ولي التوفيق[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١، م٨) رمضان ١٣٥٠هـ- جانفي ١٩٣٢م.

ندامة الظالم على تركه السبيل القويم وصحبته للمضلين

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾. [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

المناسبة:

لما سأل المشركون أن يروا الملائكة أُخبروا بأنهم سيرونهم في يوم يكون شره عليهم عظيمًا.

وذكر في الآيات السابقة مايكون في ذلك اليوم من حبوط أعمالهم، وتشقق السماء بالغمام، وتنزل الملائكة، وغير ذلك.

وذكر في هذه الآية ما يكون في ذلك اليوم من ندم الظالم وسوء حاله.

المفردات:

الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، كوضع الكفر موضع الإيمان، ووضع المعصية موضع الطاعة، وحقُّ اللّه تعالى أن يُؤمَن به ويُوحَّد ويُطاع. فمن كفر أو أشرك به أو عصاه فقد ظلم. وهو هنا الكافر والمشرك لأنه الذي لم يتخذ مع الرسول سبيلًا.

الويلة: الهلكة، كالويل بمعنى الهلاك.

فلان: يكنى به عن الأعلام، كما يكنى بِالهَنِ عن الأجناس.

الخليل: فعيل، بمعنى فاعل، وهو من تخللت مودته القلب وامتزجت بالنفس، فكانت له مكانة منهما وسلطان عليهما.

هذا في جانب الخلق.

وأما في جانب اللَّه تعالى، فبالمعنى الذي يليق بقدسه وتنزيهه.

فإبراهيم عليه السلام خليل الرحمان بما له عنده تعالى من عظيم المنزلة ورفعة الشأن وقبول الدعوة، وما له عليه من جزيل الإنعام.

الإضلال: الصد والصرف عن طريق الحق والنجاة.

الذكر: القرآن العظيم. وفسر بالشهادتين وبالإسلام. والقرآن فيه ذلك كله، وهو الذي سيأتي على الأثر ذكر هجرهم له، ولذلك اخترناه في معنى الذكر هنا.

الشيطان: الخبيث الشرير الذي استولى عليه، وتمكن منه خلق الإفساد والإضرار من الجن والإنس.

الخذول: الكثير الخذل، أي التسليم والترك لمن نزل به البلاء في وقت الحاجة إلى إنقاذه.

التراكيب:

شأن من وقع في غيظ وحسرة وندامة أن يعضَّ يديه ويأكل بنانه، كأنه لما لم يجد شيئًا يطفئ فيه غيظه رجع على نفسه بذلك، فعضُّ اليد لازم لحالة الحسرة والغيظ والندامة، فلذا يكنى به عنها، من إطلاق اللازم وإرادة

الملزوم، وذلك لا يمنع من وقوع العض منه حقيقة، بل وقوع ذلك هو الشأن الغالب.

وجملة (يقول يا ليتني) حالية، فهو يعض حالة كونه قائلًا: يا ليتني، فبينت هذه الجملة ما يقول، كما بينت التي قبلها ما يعمل، فصورتاه في حاله الشنيع الفظيع.

ويوم منصوب بأذكر، أو معطوف على (يوم يرون الملائكة)، كما عطف عليه (ويوم تشقق السماء)، و(يوم يرون) منصوب بأذكر، أو بيمنعون البشرى، كما يدل عليه: (لا بشرى يؤمئذ للمجرمين).

والتنكير في قوله (سبيلًا) للإفراد، أي سبيلًا واحدًا لا تعدد فيه، بخلاف ما كان عليه الظالم من سبل أهوائه المتعددة المتشعبة.

والألف في (يا ويلتى) منقلبة عن ياء المتكلم، والأصل: يا ويلتي، نادى ويلته، أي هلكته لتحضر في ذلك الوقت لأنه وقتها، وليس نداؤها رغبة في حضورها، فالهلاك لا يرغب فيه، وإنما نادى الهلاك ليحضر، لما حصل له من اليأس والقنوط من أسباب النجاة فلم يبق له إلا الهلاك، كما يقول العليل للطبيب وقد أيس من معالجة جرح بيده مثلًا: اقطع، فهذا وقت القطع.

وهكذا يخرج كل نداء في حالة شدة لما لا يخلص منها وإنما يزيد في اشتدادها كما ينادي الشقي «يا شقوتاه» والمفتضح «يا فضيحتاه» والمصاب «يا مصيبتاه».

وكنى بفلان، لأن لكل ظالم خليلا له اسمه الخاص، فلا يمكن التصريح بأسماء الجميع، فما بقي إلا الكناية عنها بفلان.

وجملة (لقد أضلَّني) بيان لسبب تمنيه السابق.

و«الـ» في الشيطان، والإنسان، للجنس، فيدخل في جنس الشيطان خليل الظالم الذي صده عن الذكر، وقرين خليله من الجن الذي سوَّل له ذلك وأعانه، وقرينه هو الذي زينه له ودعاه إليه.

والجملة من كلام الظالم لإعلان خيبته وإظهار ألمه منها لما وجد نفسه وحده مخذولًا ممن أضله وأغواه.

المعنى:

ويوم يعضُّ الظالم لنفسه بالكفر بربه أو الشرك على يديه، ندمًا وحسرةً على تفريطه، وعدم اتباعه لسبيل الحق مع الرسول الذي أرسل إليه، وعلى توريطه لنفسه بصحبته لخليله وطاعته له حتى صرفه عن الإيمان بالقرآن بعد ما جاءه وسمعه وتمكن من الإيمان به، فأغواه ذلك الخليل وقرينه، وقرينه هو حتى أردوه، ثم خذلوه في ذلك اليوم العظيم، وفي وقت الحسرة والندامة، فلم يجد منهم نصرًا ولا معونة كما هو شأن الشياطين في خذلان من يغوونه ويردونه[1].

إلحاق واعتبار:

كما علينا أن نتبع سبيل الرسول -عليه وآله الصلاة والسلام-، التي جاء بها من عند اللَّه تعالى وهي الإسلام، كذلك علينا أن نتبع سبيله في القيام بشرائع الإسلام علمًا وعملًا في أبواب العبادات وأحكام المعاملات، وفي

(١) في الأصل: «من يغووه ويردوه»

تطبيق أصول الإسلام وفروعه على الحياة الخاصة والعامة، وهذه هي سنته التي كان عليها وكان عليها أصحابه وأهل القرن الثاني من التابعين وأهل القرن الثالث من أتباع التابعين، تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم[١].

وكما أن من عدل عن الإسلام ولم يسلك سبيله وقع في ضلال الكفر، كذلك من عدل عن السنة ولم يسلك سبيلها وقع في ضلال الابتداع.

وكما أن من لم يتخذ مع الرسول سبيل الإسلام يندم أشد الندم ويتحسر أعظم الحسرة على ما كان من تفريطه، كذلك من لم يتخذ مع الرسول سبيل السنة، إذ كلٌّ منهما قد ظلم نفسه، وفرط في سبيل نجاته.

فالآية وإن كانت في الكافر والمشرك فهي تتناول بطريق الإعتبار أهل الأهواء والبدع.

وبهذا كانت الآية متناولة بوعظها وترهيبها جميع الخلق ممن لم يدخل في الإسلام، أو دخل فيه ولم يلتزم سنة نبيه ﷺ.

تحذير:

عندما تتخلل صحبة شخص من الناس قلبك وتمتزج بروحك، ويستولي

(١) كما في قوله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».
أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه.
وله شاهد عن عمران بن حصين: أخرجه البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).
وآخر عن أبي هريرة: أخرجه مسلم (٢٥٣٤).
وثالث عن عائشة: أخرجه مسلم (٢٥٣٦).

بسلطان مودته عليك، تصير أقواله وأفعاله كلها عندك مرضية، وعيوبه ونقائصه عنك محجوبة، فتمسي طوع بنانه ورهن إشارته، يوجهك حيث شاء، ويصرفك عما أراد.

وهذه حالة من أخطر الأحوال عليك، لأنك فيها قد سلبت تمييزك وخسرت إرادتك، وصرت آلة في يد غيرك، فقد ترى الخير وتُدعى إليه فيصرفك عنه، وقد ترى الشر وتحذر منه ويوقعك فيه.

وهَبْ هذا الخليل كان مخلصًا لك وحدبًا عليك، فإنه غير معصوم من الخطإ والضلال، أمَّا إذا كان شريرًا مفسدًا فهنالك الهلاك المحقق والوبال الشديد.

وقد ذكر لنا اللَّه تعالى في الآية ما كان من سوء مآل الظالم بسبب انقياده لخليله واتباعه له عن غير روية وصدق تمييزٍ.

يحذرنا من سلطان الخلة الذي يهمل معه شأن الإرادة والتمييز، ويعلمنا أن علينا أن نحافظ على إرادتنا وتمييزنا ونظرنا لأنفسنا مع الصديق والعدوِّ، ومع الخليل وغير الخليل، بل نحافظ عليهما مع الخليل أكثر لأنه مظنة الخوف بما له من المكانة في القلب والسلطان على النفس.

إرشاد:

لما كان خليل المرء بهذه المنزلة فعليك أن تختار من تخال، فلا تخال إلا من حسنت سريرته واستقامت سيرته، وغلب الصواب على أقواله وأعماله، ليكون دليلك إلى الخير وسائقك إليه، مع محافظتك على إرادتك وتمييزك معه على كل حال.

علامة:

إذا أردت أن تعرف شر خلانك، وأحقهم بهجرك له وابتعادك عنه، فانظر فيما يرغبك هو فيه، وما يرغبك عنه.

فإذا وجدته يرغبك عن القرآن وعما جاء به القرآن، فإياك وإياه، فتلك أصدق علامة على خبثه وسوء عاقبة قربه، فابتعد عنه في الدنيا قبل أن تعض على يديك على صحبتك له في الأخرى.

وإذا وجدته يرغبك في القرآن وما جاء به القرآن، فذلك الخليل الزكي الصادق، فاستمسك به وحافظ عليه.

وإنَّ خلَّة أُسِّست على الرجوع إلى القرآن، والتحابِّ على القرآن، والتناصح بالقرآن، لخلة نافعة دنيا وأخرى، لأنها أسست على أساس التقوى.

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٦٧].

* * *

شكوى النبي الكريم من هجر القرآن العظيم

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: الآية ٣٠] .

المناسبة:

لما ذكر تعالى ما قاله المشركون من الباطل في معارضة القرآن والإعراض والصد عنه، وما قالوه من عبارات الحسرة والندامة يوم القيامة على ما كان منهم من ذلك في الدنيا، ذكر ما قاله النبي ﷺ من الشكوى لربه بهم من تركهم للقرآن العظيم وهجره.

المفردات:

مهجورًا: متروكًا مقاطعًا مرغوبًا عنه.

الرسول: محمد ﷺ.

وقومه: قريش.

التراكيب:

في قوله: يا رب، إظهار لتعظيم التجائه، وشدة اعتماده، وتمام تفويضه لمالكه ومدبر أمره وموالي الإنعام عليه.

وفي التعبير عنهم بقومه وإضافتهم إليه، وفي التعبير عن القرآن باسم الإشارة القريب، بيان لعظيم جرمهم بتركهم للقرآن وهو قريب منهم في متناولهم، وقد أتاهم به واحد منهم أقرب الناس إليهم، فصدوا وأبعدوا في

الصد عمن هو إليهم قريب من قريب. وهذا أقبح الصد وأظلمه.

وفي قوله (اتخذوا.. إلخ) بيان أنهم جعلوا الهجر ملازمًا له ووصفًا من أوصافه عندهم، وذلك أعظم من أن يقال: هجروه، الذي يفيد وقوع الهجران منهم دون دلالة على الثبوت والملازمة.

المعنى:

وقال الرسول شاكيًا لربه: إن قومي الذي أرسلتني إليهم بالقرآن لأتلوه عليهم؛ قد صدوا عنه، وتركوه، وثبتوا على تركه وهجره.

استنتاج واعتبار:

في شكوى النبي ﷺ من هجر القرآن دليل على أن ذلك من أصعب الأمور وأبغضها لديه.

وفي حكاية القرآن لهذه الشكوى وعيد كبير للهاجرين بإنزال العقاب بهم إجابة لشكوى نبيه.

ولما كان الهجر طبقات أعلاها عدم الإيمان به، فلكلٍّ هاجرٍ حظُّه من هذه الشكوى وهذا الوعيد.

تنزيل:

ونحن - معشر المسلمين - قد كان مِنَّا للقرآن العظيم هجرٌ كثيرٌ في الزمان الطويل. وإن كُنَّا به مؤمنين.

بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة،

فهجرناها، وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة، وإشكالاتها المتعددة، واصطلاحاتها المحدثة، مما يصعب أمره على الطلبة فضلًا عن العامة.

وبيَّن القرآن أصول الأحكام، وأمهات مسائل الحلال والحرام، ووجوه النظر والاعتبار، مع بيان حِكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام، فهجرناها، واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، محجبة وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفنى الأعمار قبل الوصول إليها.

وبيَّن القرآن مكارم الأخلاق ومنافعها، ومساوئ الأخلاق ومضارها، وبيَّن السبيل للتخلي عن هذه، والتحلي بتلك، مما يحصل به الفلاح بتزكية النفس، والسلامة من الخيبة بتدسيتها، فهجرنا ذلك كلها، ووضعنا أوضاعا من عند أنفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا، خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطع، وعن السنة البيضاء إلى الإحداث والتبدع، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي والتخيُّل الفلسفي ما أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام، وألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام، وآل الحال بهم إلى الخروج من أثقال أغلالها، والاقتصار على بقية رسومها للانتفاع منها، ومعارضة هداية القرآن بها.

وعرض القرآن علينا هذا الكون وعجائبه، ونبهنا على ما فيه من عجائب الحكمة ومصادر النعمة، لننظر ونبحث، ونستفيد ونعمل، فهجرنا ذلك كله إلى

«خريدة العجائب»[(١)] و«بدائع الزهور»[(٢)] والحوت والصخرة وقرن الثور[(٣)]!.

ودعانا القرآن إلى تدبره وتفهمه والتفكر في آياته، ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه، فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبيينه، فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية دون أن يكون قد طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلًا، بل ويصير مدرسًا متصدرًا ولم يفعل ذلك.

وفي جامع الزيتونة - عمره اللَّه تعالى - إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس تفسير، فإنه - ويا للمصيبة - يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل، فيقضي في خصومة من الخصومات أيامًا أو شهورًا، فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ، أو ما تجاوزه إلا قليلًا دون أن يحصل على شيء من حقيقة

---

(١) من الكتب المتداولة التي تكثر فيها الأحاديث الموضوعة والشديدة الضعف، كما قال الشيخ رشيد رضا في «الفتاوى» (٣/ ١٧١)، واسمه الكامل «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» اشتهرت نسبته لابن الوردي المتوفى سنة (٧٤٩هـ). انظر حاشية «الأعلام» (٥/ ٦٧) للزركلي.

(٢) مؤلفه أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس مؤرخ مصري، توفي نحو سنة (٩٣٠هـ). وقد حذر إمامنا المصنف من كتابه هذا «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لغلبة الأحاديث الموضوعة عليه. وانظر «فتاوى اللجنة الدائمة» (١/ ٢٦) و«كتب حذر منها العلماء» (٢/ ٢١-٢٢) لمشهور حسن.

(٣) يشير الإمام إلى ما ذكره بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القَلَم: الآية ١] أن النون: الحوت العظيم الذي تحت الأرض السابعة، وأن على ظهر هذا الحوت صخرة سمكها كغلظ السموات والأرض، وعلى ظهرها ثور له أربعون ألف قرن وعلى متنه الأرضون السبع وما فيهن وما بينهن؛ في روايات: لا زمام لها ولا خطام، بل إما ضعيفة أو موضوعة أو من الإسرائيليات، كما نبه إليه الجهابذة النقاد، جزاهم اللَّه خيرًا.

وللإمام جواب حول المسألة نشر في مجلة «الشهاب» (ج١، م٧) الصادر غرة رمضان ١٣٤٩هـ، فليراجعه من شاء.

التفسير، وإنما قضى سنته في المماحكات بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات، كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية.

فهذا هجر آخر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن.

وعلمنا القرآن أن النبي ﷺ هو المبيِّن للناس ما نزل إليهم من ربِّهم، وأن عليهم أن يأخذوا ما أتاهم، وينتهوا عما نهاهم عنه، فكانت سنته العملية والقولية تالية للقرآن، فهجرناها كما هجرناه، وعاملناها بما عاملناه، حتى إنه ليقل في المتصدرين للتدريس من كبار العلماء في أكبر المعاهد من يكون قد ختم كتب الحديث المشهورة كالموطأ والبخاري ومسلم ونحوها، مطالعةً، فضلًا عن غيرهم من أهل العلم، وفضلًا عن غيرها من كتب السنة.

وكم وكم وكم بيَّن القرآن! وكم وكم وكم قابلناه بالصدِّ والهجران!.

بيان واستشهاد:

شرُّ الهاجرين للقرآن هم الذين يضعون من عند أنفسهم ما يعارضونه به، ويصرفون وجوه الناس إليهم وإلى ما وضعوه عنه، لأنهم جمعوا بين صدهم وهجرهم في أنفسهم وصد غيرهم، فكان شرهم متعديًا وبلاؤهم متجاوزًا، وشر الشر وأعظم البلاء ما كان كذلك.

وفي هؤلاء جاء ما ذكره الإمام ابن القيم في كتاب «إعلام الموقعين»[1] عن

---

(١) في (١/ ٦٠) نشر دار الجيل بيروت، سنة ١٩٧٣م.

حماد بن سلمة ثنا أيوب السختياني عن أبي قلابة عن يزيد بن أبي[1] عميرة عن معاذ بن جبل قال:

«تكون فتن، فيكثر المال، ويفتح القرآن، حتى يقرأه الرجل والمرأة، والصغير والكبير، والمنافق والمؤمن، فيقرؤه الرجل فلا يُتَّبَع، فيقول: واللَّه لأقرأنه علانيةً، فيقرؤه علانية فلا يُتَّبع، فيتخذ مسجدًا، ويبتدع كلامًا ليس من كتاب اللَّه ولا من سنة رسول اللَّه ﷺ، فإياكم وإياه، فإنه بدعة وضلالة»[١٢٢].

قاله معاذ ثلاث مرات اهـ.

فانظر في قطرنا وفي غير قطرنا، كم تجد ممن بنى موضعًا للصلاة، ووضع كتبًا من عنده، أو مما وضعه أسلافه من قبله، وروَّجها بين أتباعه! فأقبلوا عليها، وهجروا القرآن، وربما يكون بعضهم قصد بما وضع النفع فأخطأ وجهه، إذ لا نفع بما صرف عباد اللَّه عن كتاب اللَّه، وإنما يدعى للَّه بكتاب اللَّه، ولذلك سمي صنيع هذا الواضع بدعة وضلالة، وحذر معاذ منه وأكد في

---

(١) كذا الأصل، والصواب: «بن عميرة»، كما في كتب الرجال والمصادر التي خرجته.

[١٢٢] **صحيح**:

أخرجه الحاكم (٤/ ٤٦٦) وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (رقم٦٣ - تحقيق بدر البدر) عن حماد بن سلمة به.

وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم».

وتابع أبا قلابة أبو إدريس الخولاني: أخرجه أبو داود (٤٥٩٨)، وإسناده صحيح رجاله ثقات، وأورده الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وله طرق أخرى أشار إليها أخونا الفاضل الشيخ مشهور حسن - حفظه اللَّه - في تحقيقه لكتاب «إعلام الموقعين» (١/ ١١٢و ١٩٤- ١٩٥و ٢/ ٤٥٥- الطبعة الجديدة لدار ابن الجوزي) لابن القيم، فليراجعه من أراد التوسع في التخريج، واللَّه ولي التوفيق و الهداية.

التحذير بالتكرير.

وهذا الحديث وإن كان موقوفًا على معاذ فهو في حكم المرفوع، لأنه إخبار بمغيب مستقبل، وهذا ما كان يعلمه الصحابة رضوان اللَّه تعالى عليهم إلا بتوقيف من النبي ﷺ، وقد تحقق مضمونه في المسلمين منذ أزمان ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

سبيل النجاة:

لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه، والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه، إلا بالرجوع إلى القرآن: إلى علمه وهديه وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه والتفقه فيه، وفي السنة النبوية: شرحه وبيانه، والإستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحة الفهم، والإعتضاد بأنظار العلماء الراسخين، ، والإهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين.

وهذا أمر قريب على من قربه اللَّه عليه، ميسر على من توكل على اللَّه فيه، وقد بدت طلائعه والحمد للَّه، وهي آخذة في الزيادة إن شاء اللَّه، وسبحان من يحيى العظام وهي رميم.

* * *

التسلية والتثبيت للنبي ﷺ

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٣١] .

المناسبة:

لما شكا -عليه الصلاة والسلام- قومه، سلّاه اللَّه تعالى وعزَّاه، وأمره بالصبر والثبات، ووعده ورجَّاه.

المفردات:

العدوُّ: وزنه فعول، يكون للواحد والجماعة.

التراكيب:

كاف (كذلك) بمعنى مثل، والإشارة للجعل المفهوم مما تقدم، أي مثل ذلك الجعل للأعداء لك جعلنا لكل نبي . . . إلخ.

المعنى:

مثلما جعلنا لك أعداءً من قومك، كفروا بك، وهجروا كتابك، وصدوا عنك، وبالغوا في إذايتك؛ جعلنا لكل نبي مما نبأنا أعداء من أهل الذنب والإجرام.

فما أصابك إلا ما أصابهم، فاصبر كما صبروا، وكفى بربك هاديًا - يهديك إلى صراط الحق، ويبصرك الرشد، ويعرفك بما تؤدي به رسالة ربك،

فلا تتحير في أمرك لما ترى من صدود قومك - وناصرًا ينصرك على أعدائك، يأمره بالصبر ويثبته بالتأسي، يعده بأنه يهديه في طريق التبليغ، وينصره على معارضيه حتى يتم أمر اللَّه على يده.

ترهيب:

هؤلاء الذين سماهم اللَّه - تعالى - أعداءً لنبيه ووصفهم بالإجرام، هم أولئك الذين هجروا القرآن وصدُّوا عنه.

فهذا تخويف عظيم ووعيد شديد لكل من كان هاجرًا للقرآن العظيم بوجه من وجوه الهجران.

اقتداء وتأسٍّ:

حق على حزب القرآن الداعين به والداعين إليه أن يقتدوا بالأنبياء والمرسلين في الصبر على الدعوة، والمضي فيها، والثبات عليها، وأن يداووا أنفسهم عند ألمها واضطرابها بالتأسي بأولئك السادة الأخيار.

بشارة:

قد وعد اللَّه تعالى نبيه - بعد ما أمره بالتأسي والصبر - بالهداية والنصر.

وفي هذا بشارة للدعاة من أمته من بعده السائرين في الدعوة بالقرآن وإلى القرآن على نهجه، أنه يهديهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩] معهم بالفضل والنصر والتأييد، وهذا عام للمجاهدين المحسنين، والحمد للَّه رب العالمين[1].

(١) الشهاب (ج٢، م٨) غرة شوال ١٣٥٠هـ- فيفري ١٩٣٢م.

تثبيت القلوب بالقرآن العظيم

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٣٢].

المناسبة:

هذا اعتراض آخر من اعتراضاتهم الباطلة نسق مع ما تقدم منها ليجاب عنه، ويبين خطأهم فيه كما فعل بما تقدم.

المفردات:

(لولا): مع المضارع للتحضيض نحو: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ [النمل: الآية٤٦]، ومع الماضي للوم والتوبيخ، نحو: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: الآية ١٣].

وهي هنا مع الماضي فتكون للوم على عدم حصول المذكور وحصول ضده، والمقصود من اللوم هنا الاعتراض على عدم نزوله جملة واحدة ونزوله مفرقًا، فالمعترض عليه هو نزوله مفرقًا.

(نزَّل): يأتي مرادفًا لأنزل، والتضعيف أخو الهمزة.

ويأتي مفيدًا للتكثير، فيفيد تكرر النزول وتجديده، وخرج على هذا قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ[1] وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: الآية ٢].

(١) في الأصل: «بين يديه من الكتاب»!.

وأما هنا فلا يصح حمله على التكثير المفيد للتدريج، لئلا يناقض قولهم: جملة واحدة، فيكون من التضعيف المرادف للهمزة.

وعندي أن نزَّل المضاعف يرد لكثرة الفعل ولقوته، فجاء لكثرته في آية آل عمران المتقدمة، وجاء لقوته في هذه الآية، لأن إنزال الجملة مرة واحدة أقوى من إنزال كل جزء من الأجزاء بمفرده.

(كذلك): الإشارة للإنزال المفرق المفهوم من قولهم: لولا نزل عليه القرآن جملة، لأنه في معنى: لِمَه نزل عليه جملة ولم ينزل عليه مفرقًا.

(التثبيت): ثبات الشيء إقامته ورسوخه دون اضطراب، وذلك من قوته، كما أن اضطراب المضطرب من ضعفه، فتفسير تثبيت الفؤاد هنا بتقويته تفسير بلازم معناه، على أنه مراد منه أيضًا أصل المعنى وهو السكون وعدم الاضطراب.

فتثبيته - إذًا - هو تسكينه وتقويته.

(الترتيل): مادة: ر.ت.ل. كلها ترجع إلى تناسق الشيء وحسن تنضيده، منه ثغر رتل، بالتحريك، أي مفلج، بين الأسنان فرج لا يركب بعضها بعضًا.

وترتيل القرآن في التلاوة هو إلقاء حروفه حرفًا حرفًا، وكلماته كلمةً كلمةً، وآياته آيةً آيةً، على تؤدة ومهل حتى يتبين للقارئ والسامع، ولا يخفى عليه منه شيء.

وأما ترتيله في نزوله، وهو المراد هنا، فإنه إنزاله آية وآيتين وآيات مفرقًا نجومًا على حسب الوقائع.

التراكيب:

(وقال الذين كفروا): وصل لأنه قيلٌ من أقوالهم، فعطف على ما تقدم من مثله.

(كذلك لنثبت): الأصل: أنزلناه كذلك، فأوجز بحذف المتعلق لوجود ما يدل عليه في اعتراضهم، وفصل لأنه جواب عن اعتراضهم.

(ورتلناه): وصل لأنه معطوف على أنزلناه المحذوف.

والتنوين في (ترتيلًا) تنوين تنويعٍ وتعظيمٍ، أي نوعًا من الترتيل عظيمًا.

المعنى:

وقال الذين كفروا - وهم قريش أو اليهود أو الجميع، وهو الظاهر، لأن قريشًا واليهود كان يتصل بينهم الكلام في شأن النبي ﷺ وشأن القرآن - قالوا معترضين ومقترحين: لمه لم ينزل عليه القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة وغيرها، ونزل عليه مفرقًا؟

فقال اللَّه تعالى جوابًا لهم: أنزلنا كذلك الإنزال مفرقًا لنثبت به قلبك فيسكن ويطمئن، ونقويه فيصبر ويتحمل. وأنزلناه مرتلًا مفرقًا تفريقًا مرتبًا منزلًا كل قسم منه في الوقت المناسب لإنزاله والحالة الداعية إليه اللَّائقة به.

مزيد بيان للاعتراض والجواب:

أما اعتراضهم فكان لأنهم سمعوا القرآن يذكر أن الكتاب أنزل على النبي ﷺ، كما أنزلت الكتب على الأنبياء عليهم السلام من قبله بمثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٤٧]. فقالوا: لماذا نزل هذا الكتاب مفرقًا، ولم ينزل مثل تلك الكتب جملة واحدة؟.

وهم لما عجزوا عن معارضة أقصر سورة منه أخذوا يباهتون بالباطل ويعترضون بمثل هذا الاعتراض.

وأما الجواب فكان ببيان حكمتين في إنزاله مفرقًا:

الحكمة الأولى: تثبيت قلبه.

والحكمة الثانية: تفريقه مرتبًا على الوقائع.

وكان في تينك الحكمتين مزيتان عظيمتان للقرآن العظيم على غيره من كتب اللَّه تعالى، فكان ما اعترضوا به على أنه نقص فيه عنها هو كمال له عليها.

شرح الحكمة الأولى:

كان كل نجم ينزل من القرآن العظيم - والنجم: القسم الذي ينزل معًا آية أو آيتين أو أكثر - يزداد به عجزهم وعنادهم ظهورا، وتزداد به حُجة النبي ﷺ وصدقه وضوحًا. فيزداد بذلك سكون قلبه وطمأنينته بظهور أمره على عدوه، وعلو كلمة الحق على كلمة الباطل.

وفي ذلك تقوية له وأي تقوية، لا عن شك كان في قلبه أو تردد، ولكن البراهين المتوالية والحجج المتتالية تزيد في سكون القلب واطمئنانه، وإن كان معقودًا من أول أمره على اليقين.

فهذا وجه من تثبيت فؤاده بالآيات المتفرقات في النزول.

وقد كان كل نجم من نجوم القرآن ينزل بشيءٍ من العلم والعرفان مما يرجع إلى العقائد أو الأخلاق أو الأحكام أوالتذكير بالأمم الماضية وأخبار الرسل المتقدمين أو باليوم الآخر أو بسنة اللَّه في المكذبين، إلى غير ذلك من علوم

القرآن، فيتقوى قلبه عند نزول كل نجم بما يكتسبه منه من معرفة وعلم.

وكان يلقى من الجهد والعناء في تبليغ الرسالة ما تضعف عن تحمُّله القوى البشرية، فإذا نزل عليه القرآن، واتصل بالملك الروحاني النوراني، وقذف في قلبه ذلك الوحي القرآني تقوى قلبه على تحمله أعباء الرسالة ومشاق التبليغ.

ولما كان البلاء والعناء في سبيل التبليغ متكررًا متجددًا كان محتاجًا إلى تجديد تقوية قلبه، وكان ذلك مقتضيًا لتفريق نزول الآي عليه.

فهذه ثلاثة وجوه من التثبيت.

حظنا من العمل بهذه الحكمة:

قلوبنا معرَّضة لخطرات الوساوس، بل للأوهام والشكوك، فالذي يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن العظيم.

ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم ومماحكات المتكلمين ومناقضاتهم، فما ازدادوا إلا شكًّا، وما ازدادت قلوبهم إلا مرضًا حتى رجع كثير منهم في أواخر أيامهم إلى عقائد القرآن وأدلة القرآن؛ فشفوا بعد ما كادوا كإمام الحرمين(١) والفخر الرازي(٢).

---

(١) هو أبو المعالي الجوُيني المتوفى سنة (٤٧٨هـ) القائل:
«يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلتُ به».
وقال عند موته: «لقد خضتُ البحر الخِضَمّ، وخليتُ أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتدراكني ربي برحمته، فالويل لابن الجُويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي- أو قال- على عقيدة عجائز نيسابور».

(٢) القائل آخر عمره:

نهاية إقدام العقول عِقالُ ... وغاية سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشةٍ من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذًى ووبالُ
=

وقلوبنا معرَّضة لران المعصية الذي تظلم منه القلوب وتقسوا حتى تحجب عنها الحقائق، وتنطمس أمامها سبل العرفان، فالذي يجلو عنها ذلك الران، ويزيل منها تلك القسوة، ويكشف لها حقائق العلم، ويوضح لها سبل المعرفة هو القرآن العظيم.

فقراؤه المتفقهون فيه، قلوبهم نيرة، مستعدّة لتلقي العلوم والمعارف، مستعدة لسماع الحق وقبوله، لها من نور القرآن فرقان تفرق به بين الحق والباطل، وتميز به بين الهدى والضلال.

وقلوبنا معرَّضة للضعف عن القيام بأعباء التكليف وما نحن مطالبون به من الأعمال، والذي يجدد لنا فيها القوة ويبعث فيها الهمة هوالقرآن العظيم.

فحاجتنا إلى تجديد تلاوته وتدبره أكيدة جدًا لتقوية قلوبنا باليقين وبالعلم وبالهمة والنشاط للقيام بالعمل.

شرح الحكمة الثانية:

من محاسن هذه الشريعة المطهرة أنها نزلت بالتدريج المناسب، كما في تحريم الخمر(1)، وكما كان في العدد المفروض عليه الثبات للعدو في آيات

= ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سِوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا

قال: «لقد تأملتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيتُ أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٠]». ثم قال: «ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي».

(1) وقد حُرِّمت في ثلاث مراحل، كما في حديث عمر بن الخطاب الذي أخرجه أبو داود (٣٦٦٥)، والترمذي (٣٠٥٨)، وغيرهما، وصححه والحاكم وغيرهما. انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٦٣٦)، و«فتح الباري» (٨/ ٣٥٤).

الأنفال[١]، وكما كان في مشروعية قيام الليل في آيات سورة المزمل[٢].

وما كان ليكون هذا التدريج بغير تفريق الآيات في التنزيل.

ومن محاسنها نسخ الحكم عند انتهاء المصلحة التي اقتضت تشريعه وانقضاء زمنها لحكم آخر أنسب منه للبقاء في الأزمان، كما كان في آيتي المتوفى عنها في سورة البقرة[٣].

وما كان ذلك ليتأتى إلا بتفريق الآيات في الإنزال.

وكانت الوقائع تقع، والحوادث تحدث، والشُّبه تعرض، والاعتراضات تَرِد، فكانت الآيات تنزل بما تتطلبه تلك الوقائع من بيان، وما تقتضيه تلك الحوادث من أحكام، وما تستدعيه تلك الشُّبه من رد، وتلك الاعتراضات من إبطال، إلى غير ما ذكرنا من مقتضيات نزول الآيات المعروفة بأسباب النزول.

وفي بيان الواقعة عند وقوعها، وذكر حكم الحادثة عند حدوثها، وردّ الشبهة عند عروضها، وإبطال الاعتراض عند وروده؛ ما فيه من تأثير في

---

(١) يعني المصنف قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦].

وراجع ما أخرجه البخاري (٤٦٥٣) عن ابن عباس.

(٢) يعني الآيات (١- ٤) والآية (٢٠) منها.

(٣) يشير المصنف إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ..﴾ الآية [البقرة: ٢٤٠] والمنسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ..﴾ الآية [البقرة: ٢٣٤]. وراجع «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٢٦- ٥٢٧).

النفوس، ووقع في القلوب، ورسوخ في العقول، وجلاء في البيان، وبلاغة في التطبيق، واستلاء على السامعين.

وما كان هذا كله ليتأتَّى لولا تفريق الآيات في التنزيل وترتيلها وتنضيدها هذا الترتيل العجيب، وهذا التنضيد الغريب، الذي بلغ الغاية من الحسن والمنفعة، حتى أنه ليصح أن يعدَّ وحده وجهًا من وجوه الإعجاز.

حظنا من العمل بهذه الحكمة:

أن نقرأ القرآن ونتفهمه حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا، ومعانيه نصب أعيننا، لنطبق آياته على أحوالنا، وننزلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع.

فإذا حدث مرض قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه.

وإذا عرضت شبهة أو ورد اعتراض طلبنا فيه الرد والإبطال.

وإذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها.

وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشؤون والأحوال إلى أقصى حد يمكننا.

اقتداء:

انظر إلى هذه الحكمة في هذا الترتيل[1] كيف كان تنزل آياته على حسب الوقائع، أليس في هذا قدوة صالحة لأئمة الجُمع وخطبائها في توخيهم بخطبهم الوقائع النازلة وتطبيقهم خطبهم على مقتضى الحال؟.

(١) وقع في بعض النشرات: «التنزيل»!

بلى واللَّهِ! بلى واللَّه!.

ولقد كانت الخطب النبوية والخطب السلفية كلها على هذا المنوال تشتمل مع الوعظ والتذكير على ما يقتضيه الحال.

وأما هذه الخطب المحفوظة المتلوة على الأحقاب والأجيال، فما هي إلا مظهر من مظاهر قصورنا وجمودنا.

فإلى اللَّه المشتكى، وبه المستعان[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٣، م٨) غرة ذي القعدة ١٣٥٠هـ - مارس ١٩٣٢م.

الحق والبيان في آيات القرآن

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٣٣] .

المناسبة:

لما رد تعالى اعتراضاتهم وأبطل شبهاتهم، أخبر تعالى بأنه لا يزال القرآن كذلك يدمغ باطلهم بحقه فيزهقه، ويصدع غشاء تمويههم بصادق بيانه فيمزقه، لطمأنة قلب نبيِّه ﷺ وتثبيته، ووعدًا له بدوام النصر والتأييد.

المفردات:

(المثل): هو الشبه، هذا أصله، ثم يطلق على الكلام الذي قيل أول ما قيل في مقام، ثم لحسنه وإيجازه حفظ وجرى على الألسنة وصار يقال في كل مقام يشابه مقامه الأصلي الذي قيل فيه أولًا، لمشابهة المقام الثاني للمقام الأول.

ثم صار يطلق أيضًا على كل كلام فيه بيان لشيء وتصوير له، سواء أطابق ذلك البيان والتصوير الواقع وأتى بالحق، أم لم يطابق الواقع ولم يأت بالحق.

وهذا المعنى هو المراد هنا، فإن المشركين جاءوا بكلمات في حق اللَّه تعالى، وفي حق كتابه، وفي حق ملائكته، وفي حق نبيه، لم يطابقوا فيها الواقع ولا أتوا فيها بحق، كقولهم في اللَّه وملائكته: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفُرقان: الآية ٢١] .

وفي نبيه: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفُرقان: الآية ٧].

وفي القرآن: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ [الفُرقان: الآية ٥] ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفُرقان: الآية ٣٢].

فهذه هي أمثالهم التي ضربوها فضلُّوا.

وجاء القرآن بعد كلماتهم الباطلة بكلمات الحق الدامغة مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفُرقان: الآية ٦].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: الآية ٢٠].

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفُرقان: الآية ٣٢].

فهذه هي أمثال اللَّه التي جاءت بالحق وأحسن تفسيرًا.

«التفسير»: الكشف عن المعنى.

التراكيب:

وصلت الجملة لمشاركتها لما قبلها في الخبرية والمخبر عنهم والموضوع المتحدث عنه مما جاءوا به من الباطل وما رد عليهم به من الحق.

وجملة (جئناك) حالية من كاف الخطاب المفعول في (لا يأتونك).

والحصر بالنفي وإلَّا في تلك الحال.

والتقدير: ولا يأتونك بمثل في حال من أحوالك إلا في حال مجيئنا لك

بالحق وأحسن تفسيرًا.

والتعبير بالمضارع في (يأتونك) يفيد الحدوث وتجدد الإتيان منهم.

والتعبير بالماضي في (جئناك) مع أنه في معنى المستقبل يفيد تحقق المجيء، وهو المناسب لمقام الوعد والتثبيت.

المعنى:

ولا يأتيك يا محمد هؤلاء المشركون وأمثالهم بكلام يحسنونه ويزخرفونه، ويصورون به شبهةً باطلةً، أو اعتراضًا فاسدًا، إلا جئناك بالكلام الحق، الذي يدمغ باطلهم، ويدحض شبهتهم، وينقض اعتراضهم، ويكون أحسن بيانًا وأكمل تفصيلًا.

اهتداء:

إذا تتبعتَ آيات القرآن وجدتَها قد أتت بالعدد الوافر من شُبه الضالين واعتراضاتهم، ونقضَتْها بالحق الواضح والبيان الكاشف في أوجز لفظ وأقربه وأبلغه.

وهذا قسم عظيم جليل من علوم القرآن يتحتم على رجال الدعوة والإرشاد أن يكون لهم به فضل عناية ومزيد دراية وخبرة.

ولا نحسب شبهة ترد على الإسلام إلَّا وفي القرآن العظيم ردُّها بهذا الوعد الصادق من هذه الآية الكريمة.

فعلينا عند ورود كل شبهة من كل ذي ضلالة أن نفزع إلى آي القرآن، ولا أخالنا إذا أخلصنا القصد وأحسنا النظر إلَّا واجديها فيها، وكيف

لا نجدها في آيات ربنا التي هي الحق وأحسن تفسيرًا؟

اقتداء:

لنقتد بالقرآن فيما نأتي به من كلام في مقام الحِجاج أو مقام الإرشاد، فلنتوخ دائما الحق الثابت بالبرهان أو بالعيان، ولنفسره أحسن التفسير، ولنشرحه أكمل الشرح، ولنقربه إلى الأذهان غاية التقريب، وهذا يستدعي صحة الإدراك، وجودة الفهم، ومتانة العلم، لتصور الحق ومعرفته، ويستدعي حسن البيان، وعلوم اللسان، لتصوير الحق وتجليته والدفاع عنه.

فللاقتداء بالقرآن في الإتيان بالحق وأحسن بيان، علينا أن نحصل هذه كلها ونتدرب فيها ونتمرن عليها حتى نبلغ إلى ما قدر لنا منها.

هذا ما على أهل الدعوة والإرشاد وخدمة الإسلام والقرآن.

فأما ما على عموم المسلمين من هذا الاقتداء: فهو دوام القصد إلى الإتيان بالحق، وبذل الجهد في التعبير بأحسن لفظ وأقربه، ومن أخلص قصده في شيء وجعله من وكده[1] أعين - بإذن اللّه تعالى -عليه.

* * *

(١) أي: دأبه وقصده.

حشر الكفار إلى النار

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفُرقان: الآية ٣٤].

المناسبة:

لما أبطل شُبههم بيَّن مآلهم وجزاءهم.

المفردات:

(الحشر): السوق والجمع.

(المكان): المنزل.

و(السبيل): الطريق.

التراكيب:

فصلت الجملة لأنها بيان لحالهم في الآخرة، وهو غير الموضوع المتقدم.

عرف المسند إليه بالإشارة في قوله: (أولئك شر مكانًا) للتنبيه على أن المشار إليه وهو (الذين) المتقدم حقيق بما بعد اسم الإشارة من قوله: (شر مكانًا وأضل سبيلًا)، بسبب ما اتصف به المشار إليه المتقدم مما دلت عليه الصلة، وهو حشرهم على وجوههم إلى جهنم الذي ما أصابهم إلا بما قدمت أيديهم، ففي الحقيقة هم أحقاء بكونهم شرًّا مكانًا وأضل سبيلًا بسبب ما

أداهم إلى ذلك الحشر، فاكتفى بذكر المسبب عن السبب.

وأفعل التفضيل لم يذكر معه المفضل عليه، ليفيد أن مكانهم شر مكان من أمكنة الشر، وسبيلهم أضل سبيلًا من سبل الضلال، وإسناد الضلال للسبيل مجاز.

المعنى:

هؤلاء المشركون القائلون للمقالات المتقدمة ومن كان على شاكلتهم في الكفر والعناد، الذين يجمعون ويساقون إلى جهنم مقلوبين على وجوههم، أولئك شر مكانًا ومستقرًا، فإنهم أهل النار وأضل طريقًا، فإنهم سلكوا طريق الكفر الذي أداهم إلى ذلك المستقر.

حديث:

أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه، أن رجلا قال: يا نبي اللَّه كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال ﷺ:

«أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟»[١٢٣].

فقه:

من هذا الحديث علمنا أنه يجب فيما يرد من الأخبار عن اليوم الآخر أن يحمل على ظاهره ولو كان غيرمعتاد في الدنيا، لأن أحوال العالَم الآخر

[١٢٣] صحيح:
رواه البخاري (٤٧٦٠و٦٥٢٣) ومسلم (٢٨٠٦) عن أنس رضي الله عنه.

لا تقاس على أحوال هذا العالم.

توجيه:

رفعوا وجوههم في الدنيا عن السجود للَّه، فأذل اللَّه تلك الوجوه فمشوا عليها في المحشر، ورفعوا رؤوسهم كِبرًا عن الحق فنكَّسها اللَّه يوم القيامة، ومشوا في طريق النظر والاستدلال مشيًا مقلوبًا، فمشوا في الآخرة مشيًا مقلوبًا، فكان ما نالهم من سوء تلك الحال جزاءً وفاقًا لما أتوا من قبيح الأعمال. وما ربك بظلام للعبيد.

تحذير:

فيما يذكره اللَّه تعالى من هذا الجزاء العادل تخويف عظيم لنا من سوء الأعمال التي تؤدي إلى سوء الجزاء، وخصوصًا من مثل ما ذكر فيما تقدم من ترك السجود والكبر على الحق والنظر المقلوب.

عصمنا اللَّه والمسلمين أجمعين بالعلم والدين، وهدانا سنن المرسلين، آمين يا رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٣، م٨) غرة ذي القعدة ١٣٥٠هـ - مارس ١٩٣٢م.

من إكرام اللَّه تعالى عبده، تحميله أعباء الرسالة وحده

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ [الفرقان: الآية ٥١].

المناسبة:

قد استفيد من الآيات المتقدمة ما كان يكابد النبي ﷺ من إذاية قومه، وما كان يلقاه من مكابرتهم للحق وتعنتهم بالباطل، وما كان يعانيه من الجهد الجهيد في إنذارهم وتبليغ دين اللَّه تعالى إليهم، وقد أحاط به الأعداء من كل جانب، ولقيته العقبات من كل ناحية، وهو في ذلك كله جاهدٌ في القيام بتبليغ الأمانة، ناهضٌ بأعباء الرسالة، ماضٍ في تلك السبيل ليس معه من نذير، وقد كان ذلك مما تتفسخ له القوى البشرية لولا تأييد من اللَّه.

فأراد تعالى في هذه الآية أن يثبته في مقامه، ويؤنسه في انفراده، فيبين له أن تخصيصه بالقيام هذا المقام العظيم هو لأجل تعظيمه وتكريمه، وتخصيصه بالأجر الكثير، والثواب الذي ليس له من مثيل.

المفردات:

البعث: الإرسال.

القرية: منازل الناس حيث يقيمون ويكونون مجتمعًا كبيرًا أو صغيرًا.

النذير: المخوِّف من الوقوع في الشر والهلاك.

التراكيب:

مفعول المشيئة محذوف قياسًا، وتقدير الكلام: ولو شئنا أن نبعث، والبعث في كل قرية منتفٍ بحكم لو، لأنها هنا تدل على امتناع جوابها لامتناع شرطها.

المعنى:

لو أردنا لأرسلنا في كل بلدة ومصر رسولًا ينذرهم ويخوفهم من حلول نقمتنا بهم بكفرهم بنا، ومعصيتهم لنا، فيخفَّ عنك عبء ما حملت، ويسقط عنك بذلك تعب كثير، ولكنا لم نرد ذلك وحملناك أنت وحدك أعباء وأثقال النذارة لجميع القرى، ليظهر فضلك بعموم رسالتك، ويعظم أجرك بعظم جهادك وصبرك، ويكثر ثوابك بكثرة من يؤمن بك ومن تودُّ وتعمل ليؤمن بك.

حديث:

صح عن النبي ﷺ أنه قال:

«أُعطيت خمسًا لم يُعطَهن أحدٌ قبلي: كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجُعلتْ لي الأرضُ طيبةً طهورًا ومسجدًا، فأيما رجلٌ أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونُصرتُ بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأُعطيت الشفاعة»[١٢٤].

وذكر اللونين الأحمر والأسود لقصد التعميم.

---

[١٢٤] صحيح:

رواه مسلم (٥٢١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

هكذا جاء هذا الحديث عن جابر بن عبد اللَّه في «صحيح مسلم».

وجاء فيه من طريق أبي هريرة زيادة: «**وخُتم بي النبيون**»[١٢٥].

فتعميمُ رسالتِه وختمُ النبوةِ به في هذا الحديث الصحيح من طريقيه من مقتضى معنى الآية، فإنه لما عمت رسالته ولم يكن معه رسول في حياته، وختمت به النبوة فلا يكون كذلك بعد وفاته، ثبتت له كرامة في الخصوصية وعظمة المنزلة وجزالة المثوبة، وهو ما كنا بيناه في معنى الآية.

وما أحسن التفسير تعضده الأحاديث الصحاح!

تأسٍّ ورجاء:

قد ثبت في السنة ما يكون من كثرة الجهل وموت السنة وانتشار البدعة(١)، وقد أيد ذلك الواقع والمشاهدة.

فإذا كان دعاة العلم والسنة، وخصوم الجهل والبدعة، فلابد أن يكونوا قليلًا في العدد الكثير خصوصًا في مبدإ أمرهم وأول دعوتهم، ولابد أن يلقوا ما يلقون ويقاسوا ما يقاسون.

ومما يثبت قلوبهم في عظيم مواقفهم تأسيهم بالنبي ﷺ الذي جاء وحده بالحق والناس كلهم على الباطل، فمازال يجاهد حتى لقي ربه.

---

[١٢٥] صحيح:

رواه مسلم (٥٢٣) عن أبي هريرة، بلفظ:

«فضلت على الأنبياء بست: أعطيت (وفي رواية بعثت) جوامع الكلم . . . . وخُتم بي النبيُّون».

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٨٠ و٨١)، وصحيح مسلم (٢٦٧١و٢٦٧٢) و«صحيح الترغيب» (٣٧و٥١و١١١) للألباني.

ومما يثبت قلوبهم أيضًا رجاؤهم -إذا أخلصوا النية وأحسنوا الاقتداء- فيما يكون لهم من الأجر العظيم والثواب الجزيل في جهادهم على قلتهم، وفيما يكون لهم من الثواب كذلك فيمن اهتدى بهم، وفيمن بذلوا جهدهم في هدايته، وكانت لهم الرغبةالعظيمة في إيصال الخير إليه، وإن لم يرجع إليهم.

* * *

عدم طاعة الكافرين، والجهاد بالقرآن العظيم

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٥٢].

المناسبة:

لما بيَّن له ما خصصه به من الكرامة دعاه إلى مقابلة ذلك بعدم طاعة أهل الكفر والثبات على جهادهم بالقرآن.

المفردات:

الفاء تفريعية.

الطاعة: الامتثال للطلب.

والجهاد: بذل الجهد من ناحيتك في مقابلة من هو باذل جهده في الناحية المقابلة لك، هذا مقتضى صيغة فِعال.

التراكيب:

جهادًا كبيرًا: مصدر مبين للنوع المطلوب بصفته وهي كبيرًا.

المعنى:

لما أكرمناك بعموم رسالتك وختم النبوة بك، فقابل هذه النعمة بإخلاص الطاعة لربك، ولا تطع الكافرين أعداء اللّه وأعدائك في أي شيء يدعونك إليه من مقتضيات كفرهم، كالرجوع إليهم، والسكوت عن بعض كفرهم، وابذل كل جهدك في دعوتهم للدين الحق، ومقاومة ما هم عليه من الباطل بالقرآن

العظيم، وجاهدهم بهذا القرآن جهادًا كبيرًا، يتحمل كل ما يأتيك من ناحيتهم من بلاء وإذاية، والصبر عليه والثبات على الدعوة والمقاومة.

تعميم:

كما لا تجوز طاعة الكافرين في شيء مما يمليه عليهم كفرهم، كذلك لا تجوز طاعة العصاة في شيء مما تمليه عليهم معصيتهم، لأن الجميع فيه مخالفة لدين اللَّه.

وكما يجاهد أهل الكفر بالقرآن العظيم الجهاد الكبير، كذلك يجاهد به أهل المعصية لأنه كتاب الهداية لكل ضال، والدعوة لكل مرشد.

وفي ذكر الكافرين تنبيه على العصاة، من التنبيه بالأعلى على الأدنى، لاشتراكهم في العلة، وهي المخالفة.

اقتداء:

ما كان للنبي ﷺ ليطيع الكافرين، وإنما جاء هذا النهي تهييجًا له على تمام مخالفتهم ومعاكستهم في جميع مناحي ومظاهر كفرهم، والخطاب وإن كان له، فالحكم شامل لأمته.

فلا يجوز لمسلم أن يطيع كافرًا أو عاصيًا في أي شيء من نواحي الكفر ونواحي المعصية.

وكما أن الجهاد بالقرآن العظيم هو فرض عليه، فكذلك هو فرض على أمته هكذا على الإجمال، وعند التفصيل تجده فرضًا على الدعاة والمرشدين الذين يقومون بهذا الفرض الكفائي على المسلمين.

فالنبي ﷺ قدوة لأمته فيما اشتملت عليه الآية من نهي وأمر .

استدلال:

هذه الآية نص صريح في أن الجهاد في الدعوة إلى اللَّه ، وإحقاق الحق من الدِّين ، وإبطال الباطل من شبه المشبهين ، وضلالات الضالين ، وإنكار الجاحدين ، هو بالقرآن العظيم .

ففيه بيان العقائد وأدلتها ، ورد الشبه عنها .

وفيه بيان الأخلاق : محاسنها ومساويها ، وطرق الوصول إلى التحلي بالأولى ، والتخلي عن الثانية ومعالجتها .

وفيه أصول الأحكام وعللها .

وهكذا فيه كل ما يحتاج إليه المجاهد به في دين اللَّه .

فيستفاد منها كما يستفاد من آيات أخرى غيرها أن على الدعاة والمرشدين أن تكون دعوتهم وإرشادهم بالقرآن العظيم .

ميزان:

عندما يختلف عليك الدعاة الذين يدَّعي كلٌّ منهم انه يدعوك إلى اللَّه تعالى ، فانظر من يدعوك بالقرآن إلى القرآن- ومثله ما صح من السنة لأنها تفسيره وبيانه ، فاتَّبعه لأنه هو المتبع للنبي ﷺ في دعوته وجهاده بالقرآن ، والممتثل لما دلت عليه أمثال هذه الآية الكريمة من آيات القرآن .

نعمة ومنقبة:

قد سمَّى اللَّه تعالى الجهاد بالقرآن جهادًا كبيرًا ، وفي هذا منقبة كبرى

للقائمين بالدعوة إلى اللَّه بالقرآن العظيم، وفي ذلك نعمة عظيمة من اللَّه عليهم حيث يسَّرهم لهذا الجهاد حتى ليصح أن يسموا بهذا الاسم الشريف (مجاهدون)، فحقٌّ عليهم أن يقدِّروا هذه النعمة، ويؤدوا شكرها بالقول والعمل، والإخلاص والثبات، والصبر واليقين.

جعلنا اللَّه والمسلمين منهم، وحشرنا في زمرتهم أجمعين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٤، م٨) غرة ذي الحجة ١٣٥٠هـ- أبريل ١٩٣٢م.

تعاقب الليل والنهار للتفكير والعمل

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٢] .

المناسبة:

لما سأل المشركون بقولهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفُرقان: الآية ٦٠] ؟ كما يسألون عن المجهول، ذكر لهم القرآن ما يعرفهم به من عظيم آياته وجلائل إنعاماته، التي هي من آثار رحمته، فذكر لهم بروج السماء والشمس والقمر، ثم ذكر لهم تعاقب الليل والنهار.

المفردات:

خلفة: يقولون: خلفتِ الفاكهةُ بعضُها بعضًا خَلَفًا- بالتحريك- وخلفة إذا صارت خلفًا من الأولى.

وخلف زيدٌ عمرًا يخلفه إذا جاء بعده في مكانه.

فالخِلفة مصدر، وهو لما كان على وزن فِعلة دل على الهيئة كالرِّكبة بمعنى الهيئة من الركوب.

فالخِلفة إذًا هيئة من الخلوف، فإذا قلتَ: خلفه خَلفًا أو خلوفًا، فقد أردت مطلق الحدث، وإذا قلتَ: خلفه خِلفة، فقد أردت هيأة خاصة من الخلوف.

«التذكُّر»: قبول التذكير، فإنَّ مخلوقاتِ اللَّه مُذَكِّراتٌ للعبد بربه،

فَتَذَكُّرُه: هو قبوله ذلك التذكير واعتباره واتعاظه به.

«الشكور»: مصدر شكر بمعنى القيام بعبادته وطاعته لأجل نعمه.

«أو»: للتفصيل والتنويع؛ لأن المستفيدين من اختلاف الليل والنهار هم المتذكرون والشاكرون، فلا تمنع من أن يكون الشخص الواحد متذكرًا شاكرًا في آنٍ واحدٍ.

التراكيب:

خِلفة مفعول ثان لجعل على معنى جعلهما ذوي خلفة.

وفي الإخبار تقول: الليل والنهار خلفة، والرجلان خلفة على هذا المعنى، أي: يخلف أحدهما الآخر، وكان مفردًا عن الاثنين، لأنه مصدر.

والجار في (لمن أراد) يتعلق بجعل. وكان الجعل لهما لأنهما المستفيدان منه.

ولم يكرر الاسم الموصول؛ لأن الشخص الواحد يمكن أن يتصف بالصلتين معًا، وكرر فعل الإرادة؛ لأنها لابد منها في التذكر وفي الشكر.

وقيل: «أن يتذكَّر». ليفيد المضارع الحدوث والتجدد، فإن الغفلة مستولية على الإنسان، والآيات المرئية ما تزال تحدث له التذكر وتجدد له.

وقيل (شكورًا) لمناسبة رؤوس الآي.

المعنى:

يقول تعالى: وهو الذي جعل الليل والنهار ووضعهما يختلفان ويتعاقبان على هيأة مخصوصة في التخالف والتعاقب ليستفيد مِنْ ذلك مِنَ العباد مَنْ أراد

أن يتذكر، فيعتبر بما فيهما من انتقال وتغير ونظام وتقدير، ويستدل بذلك على وجود خالقهما وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ورحمته بمخلوقاته، أو أراد أن يشكر فيقوم بعبادة خالقه المنعم عليه بجلائل النعم ودقائقها التي منها هذا الاختلاف والتعاقب بين هذين الوقتين الذي لا يصلح حال الإنسان، ولا تنتظم أعماله، ولا يستقيم عمرانه إلَّا به.

فقه لغوي:

اختيرت لفظة الخِلفة هنا لدلالتها على الهيئة، فتكون منبهة على هيأة هذا الاختلاف بالطول والقصر المختلفين في جهات من الأرض، وذلك منبه على أسباب هذا الاختلاف من وضع جرم الأرض وجرم الشمس، وذلك كله من آيات اللَّه الدالة عليه.

وبتلك الهيأة من الاختلاف المقدر المنظم عظمت النعمة على البشر، وشملتهم الرحمة، فكانت هذه اللفظة الواحدة منبهة على ما في اختلاف الليل والنهار من آية دالة، ومن نعمة عامة، وهكذا جميع ألفاظ القرآن في انتقائها لمواضعها.

فقه شرعي:

لما كان جعل الليل والنهار خِلفةً لأجل التذكُّر والعمل، كان كل واحد منهما صالحًا للعمل الذي يعمل فيه صاحبه، فمن فاته عمل بالليل أتى به في النهار، ومن فاته عمل بالنهار أتى به في الليل، وهذا إذا كان من العادات فهو على سبيل التدارك، وإذا كان من العبادات فهو على سبيل القضاء.

وقد روى ابن جرير بسند حسن أن رجلًا جاء إلى عمر بن الخطاب ﵁

فقال: فاتتني الصلاة الليلة. فقال: أدرك ما فاتك من ليلتها في نهارك، فإن اللَّه جعل الليل والنهار خِلفة لمن أراد أن يذكَّر أو أراد شكورًا[١٢٦].

ومن هذا ما رواه مسلم والأربعة عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتب له كأنما قرأه من الليل»[١٢٧].

فقه قرآني:

حياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاثة: الإرادة، والفكر، والعمل.

وهي المذكورات في هذه الآية؛ لأن التذكر بالتفكر، والشكر بالعمل. فاستفادة الإنسان مما خلقه اللَّه له وجعله لأجله لا تكون إلَّا بهذه الثلاثة.

وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لابد للإنسان منها: فالعمل متوقف

---

[١٢٦] ضعيف:

رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٠) قال: حدثنا ابن حميد قال: ثنا يعقوب القُمِّي عن حفص بن حُميد عن شِمر بن عطية عن شقيق قال: جاء رجل إلى عمر .... فذكره.

وهذا إسناد حسن -كما قال المصنِّف- لولا أن شيخ الطبري: ابن حُميد -وهو محمد بن حُميد الرازي- ضعيف، بل اتهمه بعضهم كأبي زُرعة وأبي حاتم والنسائي وغيرهم.

وشقيق هو ابن سلمة، ويعقوب هو ابن عبد اللَّه بن سعد الأشعري، واللَّه تعالى أعلم.

[١٢٧] صحيح:

رواه مسلم(٧٤٧) وأبو داود(١٣٠٩) والترمذي(٥٨٠) وقال: «حسن صحيح» والنسائي(٣/ ٢٥٩و٢٦٠) والدارمي(١/ ٣٤٦) وابن ماجه(١٣٤٣) وأحمد(١/ ٣٢و٥٣) عن عمر مرفوعًا.

على البدن، والفكر متوقف على العقل، والإرادة متوقفة على الخلق.

فالتفكير الصحيح من العقل الصحيح، والإرادة القوية من الخلق المتين، والعلم المفيد من البدن السليم.

فلهذا كان الإنسانُ مأمورًا بالمحافظة على هذه الثلاثة: عقله وخلقه وبدنه، ودفع المضار عنها، فيثقف عقله بالعلم، ويقوّم أخلاقه بالسلوك النبوي، ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء وتوقي الأذى والتريض على العمل.

موعظة:

قال الإمام ابن العربي: سمعتُ ذانشمند[1] الأكبر- يعني: الغزَّالي- يقول:

«إنَّ اللَّه خلقَ العبدَ حيًّا عالمًا وبذلك كماله، وسلَّط عليه آفةَ النوم وضرورة الحدث ونقصان الخلقة؛ إذ الكمال للأوَّلِ الخالق، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقلة الأكل والسهر في الطاعة فليفعل.

ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجلُ ستِّينَ سنةً ينام ليلَها فيذهب النصفُ من عمره لغوًا. وينام نحو سدس النهار راحةً فيذهب له ثلثاه، ويبقى له من العمر عشرون سنة.

ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجلُ ثلثي عمره في لذَّةٍ فانية ولا يتلف عمره سهرة في لذة باقية عند الغني الوفي الذي ليس بعديم ولا ظلوم»[2]. اهـ.

(١) في مطبوعة «الأحكام»: ذا الشهيد!
(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٤٢٨).

سلوك:

حافظ على العبادات في أوقاتها، واقض ما فاتك[١]، واربط أعمالك بأوقاتها، وتدارك ما فاتك، ووجِّه قصدك إلى ما ترى من آيات ا للَّه متفكرًا، ووجِّه قصدك في جميع أعمالك للَّه سامعًا مطيعًا؛ تكن عبدًا ذاكرًا شاكرًا سعيدًا- إن شاء اللَّه- في الدارين.

وفقنا اللَّه إلى ذلك والمسلمين أجمعين[٢].

* * *

---

(١) قضاء ما فات مشروع للمعذور، لا المفرط المتعمد، كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية- رحمهما اللَّه تعالى- فليراجع من شاء التوسع في المسألة وزيادة الاطلاع، ما سطره الأخير منهما في مساجلة علمية نافعة ومناظرة فقهية رائعة في كتابيه: «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٥- ٣٨٦) و «الصلاة وحكم تاركها» (ص٧٢- ١٠٩).

(٢) الشهاب (ج٥، م٨) غرة محرم ١٣٥١هـ - ماي ١٩٣٢م.

القرآن يصف عباد الرحمن

الصفة الأولى والثانية

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٣] .

المناسبة:

لما تجاهل المشركون الرحمن، واستكبروا عن السجود له، عرَّفهم القرآن بالرحمن، بخلقه وتدبيره وإنعامه، كما مضى في الآيات المتقدمة .

ثم عرَّفهم بعباده الذين عرفوه بذلك، فآمنوا به، وخضعوا له، بما اشتملت عليه هذه الآيات من صفاتهم .

وكما كانت مخلوقاتُ اللَّهِ المذكورةُ سابقًا دالةً عليه، ومعرفةً به، بما فيها من آثار قدرته وآثار رحمته؛ كذلك كان عباده المذكورون أدلة عليه، ومعرِّفين به، بأقوالهم وأفعالهم وهديهم وسلوكهم، ومظاهر آثار رحمة اللَّه عليهم، فذُكِروا بعد ذكر تلك المخلوقات، وذُكِرتْ هي قبلهم لأنها كانت أدلة لهم، والدليل سابق على المستدل سبق المستفاد منه على المستفيد .

وفي تعريف القرآن لعباد الرحمن بعد تعريفه بالرحمن تشريف كبير لهم، وتبكيت لأولئك المتجاهلين المتكبرين .

ووجه آخر في المناسبة، وهو أنه لما ذكر التذكر والشكر في الليل والنهار في الآية المتقدمة، ذكر صفات المتذكرين الشاكرين، وما أثمره لهم تذكرهم وشكرهم، ترغيبًا في التذكر والشكر.

وقولهم للجاهلين سلامًا من مقتضى هونهم ورفقهم، فلذلك قرن به وعطف عليه.

المفردات:

عباد: جمع عبد، بمعنى المملوك الذليل الخاضع، أو جمع عابد، كصاحب وصحاب، وتاجر وتجار، بمعنى المطيع والقائم بما يرضي ربه، والأول هنا أظهر.

الرحمن: المنعم[1] الذي تتجد نعمه في كل آن.

يمشون على الأرض: يتنقلون عليها.

هونًا: هان الأمر يهون هونًا بمعنى سهل، ومنه ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريَم: الآية ٩]. أي: سهل. وشيء هَيِّنٌ على وزن فيعل أي: سهل، ويقال: هين بالتخفيف.

ومن صفات المؤمن أنه هيِّن ليِّن، من الهون بمعنى: السهولة في أخلاقه ومعاملته.

وفي «مسند أحمد» عن ابن مسعود مرفوعًا: «**حُرِّمَ على النار كلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ**

---

(١) تقدم (ص١٥-١٦) أن هذا من تأويل الأشاعرة المخالف لما كان عليه السلف، فانظر ما علقناه هناك، واللَّه الموفق لا ربَّ سواه ولا إله غيره.

سَهْلٍ قَرِيبٍ من الناس»[١٢٨].

وهو على ما فسرنا من السهولة في أخلاقه ومعاملته، وذلك هو الذي يقرِّبه من الناس.

وفُسِّر الهون في الآية بالحلم والوقار والسكينة والتواضع والطاعة، وكلها ترجع إلى السهولة واللين.

وفُسِّر بعدم الفساد في الأرض وعدم التجبر والتكبر؛ لأنها كلها أضداد للسهولة واللين.

خاطبهم: كالَمَهم.

الجاهلون: السفهاء القليلو الأدب، السيئو الأخلاق.

---

[١٢٨] صحيح لغيره:

أخرجه أحمد (١/ ٤١٥) من طريق الأودي عن ابن مسعود مرفوعًا.

وهذا إسناد ضعيف: الأودي - واسمه عبد اللَّه بن عمرو - مجهول ولم يوثقه سوى ابن حبان على قاعدته في توثيق المجهولين.

ومن طريقه أخرجه الترمذي (٢٤٩٣) بنحوه وابن حبان (١٠٩٦و١٠٩٧) وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وللحديث شواهد يتقوى بها:

١- عن معيقيب: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٣٥٢/ ٨٣٢) و«الأوسط» (٩/ ٢٠٦/ ٨٤٤٧) وفيه أبو أمية بن يعلى الثقفي وهو ضعيف كما في «مجمع الزوائد» (٤/ ٧٥) للهيثمي.

٢- عن أبي هريرة: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٧٢١) وفيه من لا يعرف كما قال الهيثمي.

وأخرجه الحاكم (١/ ١٢٦) من طريق آخر وقال:

«صحيح على شرط مسلم»! ووافقه الذهبي! وأقره المنذري في «الترغيب»!

٣- عن أنس: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٢٥٢) وفيه الحارث بن عُبيدة وهو ضعيف. قاله الهيثمي.

والجهل ضد العلم، ويطلق بمعنى السفه والطيش؛ لأنهما عنه ينشآن، ومنه قول الشاعر:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا(١)

ومنه الجاهلون في الآية.

سلامًا: السلام كالسلامة، معناهما التعري من الآفات والمكروهات.

التراكيب:

وُصِلَتِ الجملةُ بما قبلها بالواو لاشتراكهما في القصد، وهو التعريف بالرحمن وبعباده.

وعباد مبتدأ، الذين خبر، وأضاف العباد للرحمن تخصيصًا لهم وتفضيلًا وتقريبًا، وفيه تعريض بأولئك المتجاهلين المتكبرين المبعدين.

وهونًا منصوبًا على أنه مفعول مطلق، والتقدير مشيًا هونًا، أو على أنه حال من فاعل يمشون أي: هينين، ومجيء المصدر حالًا كثيرٌ، ولمصدريته أفرد، والموصوف جمع، نظير: الزيدون عدل.

ويمشون على الأرض هونًا: تركيب كنائي أُريد به معناه ولازم معناه، فهم يمشون هينين برفق وتثبت، لا يضربون بأقدامهم، ولا يخفقون بنعالهم أشرًا وبطرًا.

هذا أصل المعنى وهو مراد، ومراد أيضًا لازمه، وهو سهولتهم،

---

(١) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم. انظر «شعره» (ص٤٠).

ومعنى قوله: (فنجهل فوق جهل الجاهلينا): أي فنهلكه ونعاقبه بما هو أعظم من جهله.

وتواضعهم، وعدم تكبرهم، ورفقهم في الأمور، وبعدهم عن الإفساد.

ومراد لازم آخر أيضًا، وهو سيرهم في الحياة، وتصرفهم في جميع الأمور، ومعاملتهم للناس، فإذا كانوا أهل رفق وسهولة في مشيهم في الأرض، فكذلك هم أهل رفق وسهولة في الأمور الأخرى مما ذكرنا؛ لأن الرفق والسهولة خُلُقٌ فيهم، فكما هو في المشي هو في غيره.

وكانت الصلة بالمضارع ليفيد التجدد، فإن المشي في الأرض ضروري للإنسان.

وكان المعطوف على الصلة بصورة الشرط؛ لأن خطاب الجاهلين لهم ليس مما يكون دائمًا.

وكان التعليق بإذا لأن مخاطبة الجاهلين لهم بالسوء أمر محقق، ومتى سلم أهل العلم والدين من الجاهلين؟

ولم يذكر ما يخاطبهم به الجاهلون للعلم بأن خطاب الجاهل- أي: السفيه- لا يكون إلا سوءًا مما يمليه عليه جهله وسفهه.

ونصب سلامًا على أنه مفعول مطلق، والتقدير: قالوا قولًا سلامًا. أي: ذا سلام، فيشمل كل قول فيه سِلامة من الأذى والمكروه، كسلام عليكم، ويغفر اللَّه لكم، وسامحكم اللَّه، ونحو ذلك.

أو نصب على أنه مفعول به، أي: قالوا هذا اللفظ سلامًا نفسه.

المعنى:

يقول تعالى: وعباد الرحمن ومماليكه القائمون بحق العبودية له هم أهل

الرفق والسهولة، الذين يمشون على الأرض هينين في مشيهم، وفي معالجتهم لشؤون الحياة، ومعاملتهم للناس لحلمهم وتواضعهم، غير مستكبرين، ولا متجبرين، ولا ساعين في الأرض بالفساد.

وإذا خاطبهم السفهاء بما لا ينبغي من الخطاب قابلوهم بالحلم، وقالوا لهم: سلامًا؛ لأنهم سلموا من الجهل، فسلم المخاطب لهم من أن يجهلوا عليه ولو جهل، أو قالوا لهم من الكلام ما فيه سلامة من الأذى والمكروه.

الأحكام:

في الآية استحباب الرفق في المشي، وكراهية العنف والاضطراب، ومن العنف الضرب بالرجل والخفق بالنعل، فإذا كانا بعجب وخيلاء فهو حرام.

وفيها الإغضاء عن الجاهل، ومقابلة كلمته السيئة بالكلام الحسن، وكراهة مجاراته في خطابه ومماثلته، وإذا كان في ذلك فتنة أو مفسدة محققة كان حرامًا.

تمييز:

ليس من الهون في المشي التثاقل والتماوت فيه.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لجماعة رآهم كذلك: «لا تميتوا علينا ديننا أماتكم اللَّه»[١٢٩].

---

[١٢٩] ؟ :

لم أقف عليه مسندًا بعد البحث الحثيث عنه في مظانه.

وقد أورده أبو العباس المبرد في «الكامل» (٢/ ١٢٣) بلا إسناد، مصدرًا إياه بصيغة التمريض، وعنه نقله السيوطي في «الأمر بالاتباع» (ص١٩٦)، واللَّه أعلم.

وإن عائشة رضي الله عنها رأت قومًا يتماوتون فسألت عنهم، فقيل لها: هؤلاء قوم من القراء. فقالت: لقد كان عمر من القراء، وكان إذا مشى أسرع، وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع[١٣٠].

وكان مشيه رضي الله عنه إلى السرعة خلقةً لا تكلفًا، والخير في الوسط.

وليس هون المشي وحده يعرفك بأن صاحبه من عباد الرحمن، فَرُبَّ ماشٍ هونًا رويدًا وهو ذئب أطلس(١)، ولكن بالهون في المشي، وبما ذكرنا في فصل التراكيب والمعنى من لوازمه.

بيان وردّ:

اشتملت الآية على بيان الأدب في معاملة الجاهلين من أفراد الناس، سواء أكانوا مسلمين أم غيرهم.

وما اشتملت عليه من الأدب قد جاء في آيات كثيرة مثل: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ

---

[١٣٠] ضعيف جدًا:

أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٩٠) قال: أخبرنا محمد بن عمر الأسلمي قال: أخبرنا عمر بن سليمان بن أبي حثمة عن أبيه قال:

قالت الشفاء ابنة عبد اللّه - ورأت فتيانًا يقصدون في المشي ويتكلمون رويدًا - فقالت: ما هذا؟ فقالوا: نساك! فقالت:

كان - واللّهِ - عمر، إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقًا.

والأسلمي هو الواقدي، متهم بالكذب.

وفي «التقريب»: «متروك مع سعة علمه».

والأثر ذكره في «الكامل» من طريق عائشة بلا إسناد، ثم السيوطي أيضًا. والعلم عند اللّه.

(١) هو الذئب الأمعط، في لونه غبرة إلى السواد. «القاموس المحيط».

﴿ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩] . و﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: الآية ٥٥] .

فهو أدب مشروع مؤكد، وحكم دائم محكم، وهو في معاملات الأفراد كما ترى.

فلا ينافي ما شرع في الحرب عند وجود أسبابها، وتوفر شروطها بين الأمم والجماعات، وهي من الأمور العامة- كما ترى- .

فبطل قول من زعم أن هذه الآية بالنسبة لغير المسلم منسوخة بآية السيف؛ لأن هذه الآية ثابت حكمها في حال، وآية السيف ثابت حكمها في حال أخرى، فلا تنسخ إحداهما الأخرى.

وما أكثر ما قُتلت أحكامٌ بآية السيف هذه، وهي عند التحقيق غير معارضة لها لمباينة حالها لحالها .

تمثيل واستدلال:

جاء في «الصحيح» من طرق مجموع ألفاظها: أنَّ رهطًا من اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم- والسام الموت- ففهمتها عائشة رضي الله عنها فقالت: وعليكم السام واللعنة وغضب اللَّه عليكم! فقال لها رسول اللَّه ﷺ:

«مهلًا يا عائشة! عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش، إنَّ اللَّه يحب الرفق في الأمور كلها» .

فقالت له عائشة: أوَ لم تسمع ما قالوا؟ فقال لها: **«أولم تسمعي ما قلتُ**

رددتُ عليهم. قد قلتُ: «وعليكم». فيستجاب لي فيهم - لأنه دعاء بحق-، ولا يستجاب لهم في - لأنه دعاء بباطل وظلم-»[١٣١].

فقد خاطبه هؤلاء الجاهلون بالسوء، فقال لهم كلمة سالمة من القبح، ليس فيها لفظ الإذاية وهو السام، بعيدة عن الإيحاش، خالصة للرفق، فهي من القول السلام، أي ذي السلام من مقتضى الآية على الوجه الأوَّل من وجهيها.

ففي الحديث مثال لقول السلام في خطاب الجاهل، ودليل على عموم الحكم وأحكامه.

سؤال وجوابه:

على الوجه الثاني في الآية، وهو أنه يقول للجاهل: سلامًا، يقال: هل يسلِّم عليه إذا كان كافرًا؟

فيقال: نعم، كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ [مريم: الآية ٤٧] وقد قال اللَّه تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [المُمتحنَة: الآية ٤]. ولم يستثن إلا قوله لأبيه: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ [المُمتحنَة: الآية ٤](١).

---

[١٣١] صحيح:

تقدم برقم (٨٤).

(١) قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره» (٦/ ٦٢٥):

«أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو للَّه تبرأ منه، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل اللَّه عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤]. وانظر أيضًا (٤/ ٤٦١) منه.

نعم، هو سلام موادعة ومتاركة، لا سلام تحية وكرامة[1].

لطيفة تاريخية:

قالوا: إنَّ إبراهيم بن المهدي العباسي كان منحرفًا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فرآه في النوم قد تقدمه لعبور قنطرة، فقال له إبراهيم: إنما تدَّعي هذا الأمر- يعني: الخلافة- بامرأة- يعني: فاطمة رضي الله عنها-، ونحن أحق به منك. وحكى إبراهيمُ رؤياه للمأمون، وقال له: فما رأيت له بلاغة في الجواب كما يذكر عنه، فقال له المأمون: فما أجابك به؟ قال: كان يقول لي: «سلامًا سلامًا»، فنبهه المأمون على هذه الآية، وقال: يا عمّ! قد أجابك بأبلغ جواب، فخزي إبراهيم واستحيى. اهـ.

فرضي اللَّهُ عن الإمام الهاشمي! ما أبلغه حيًّا وميِّتًا!

توجيه وسلوك:

القول السلام محمود ومطلوب في كل حال، وإنما خصت حالة خطاب الجاهل؛ لأنها الحالة التي تثور فيها ثائرة الغضب بما يكون من سفهه ومهاترته.

فعلى المؤمن أن يكون حاضر البال بهذه الآية عندما تسوق إليه الأقدارُ جاهلًا فيخاطبه بما لا يرضيه، حتى يسلم من شره ويكسر من شرته، فيسلم له عرضه ومروءته ودينه، ويسلم ذلك الجاهل- أيضًا- من اللجاج في الشر

(١) لثبوت النهي عن ابتداء الكافر بالسلام، كما في حديث أبي هريرة مرفوعًا: «لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه». أخرجه مسلم (٢١٦٧) وغيره.

والتمادي فيه.

فيكون المؤمن بقوله السلام وتأدبه بأدب القرآن قد حصل السلامة للجميع، و أعظم به من فضلٍ وأجرٍ في الدنيا والدين.

وفقنا اللَّه لذلك والمسلمين أجمعين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٦، م٨)، غرة صفر ١٣٥١هـ - جوان ١٩٣٢م.

الصفة الثالثة

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٤] .

المناسبة:

لما ذكر فيما تقدم سلوكهم مع الخلق، ذكر في هذه الآية سلوكهم في القيام بعبادة الحق. وفيما تقدم بيان حالهم عند اختلاطهم بالعباد، وفي هذه بيان حالهم عند تفردهم لرب العباد.

المفردات:

يَبِيُتونَ: من البيتوتة وهي أن يدركك الليل، نِمْتَ أو لم تنم، ويقابلها «الظلول» وهو أن يدركك النهار.

«السُّجَّد»: جمع ساجد.

و«القيام»: جمع قائم، وهو من الأوزان التي يشترك فيها المصدر والجمع.

التراكيب:

«الذين»: عطف على الخبر الأول، وأعيد لفظ «الذين» لاستقلال الحالة الثانية عن الأولى.

وقُدِّم الجار ليفيد تخصيص عبادتهم بربهم، ويفيد الكلام عبادتهم وإخلاصهم.

وقدَّم (سُجَّدًا) لأن السجود أقرب أحوال العبد للرب لحديث: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[١٣٢].

ووقع (قيامًا) في موقعه مناسبًا للفاصلة.

المعنى:

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يحيون الليل، فيبيتون يصلُّون لربهم يراوحون بين السجود والقيام.

بيان وترغيب:

هذه الآية من آيات الحث على قيام الليل مثل قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجدَة: الآية ١٦].

وقد بيَّنت السنة المطهرة مقداره.

فثبت في «الموطأ» من طريق أبي سلمة عن عائشة- رضي اللَّه تعالى عنها- «أن رسول اللَّه ﷺ ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلِّي أربعًا لا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلِّي ثلاثًا»[١٣٣].

---

[١٣٢] صحيح:

أخرجه مسلم (٤٨٢) وأبو داود (٨٧٠) والنسائي (٢/ ٢٢٦) وأحمد (٢/ ٤٢١) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وزادوا كلهم في آخره:

«فأكثروا الدعاء».

[١٣٣] صحيح:

رواه الإمام مالك في «الموطأ» (١/ ٢٤٦-٢٤٧/ ٢٦٢) ومن طريقه البخاري (١١٤٧) ومسلم (٧٣٨) وأبو داود (١٣٣٧) والترمذي (٤٣٩) وقال: «حسن صحيح» والنسائي (٣/ ٢٣٤) وأحمد =

والسلام بعد كل ركعتين لحديث: «**صلاة الليل مثنى**»[١٣٤].

وثبت عند مسلم من طريق سعد بن هشام عنها أنه «كان يفتتح صلاته بالليل بركعتين خفيفتين، فتلك ثلاث عشرة»[١٣٥].

وقد ثبت ذلك في «الموطأ» من طريق عروة عنها قالت: «كان رسول اللَّه ﷺ يصلي بالليل ثلاث عشرة ركعة»[١٣٦].

= (٦/ ٣٦و٧٣و١٠٤) عن عائشة ﵂.

[١٣٤] صحيح:

رواه البخاري (٩٩٠) عن عبد اللَّه بن يوسف، ومسلم (٧٤٩) عن يحيى بن يحيى، وأبو داود (١٣٢٢) عن القعنبي، والنسائي في «المجتبى» (٣/ ٢٣٣) وفي «الكبرى» (١٣٩٩) عن ابن القاسم، والدارمي (١/ ٣٤٠و٣٧٢) عن خالد بن مخلد، والبيهقي (٣/ ٢١) عن الشافعي ويحيى بن يحيى والطحاوي في «شرح المعاني» (١/ ٢٧٨) عن ابن وهب، سبعتهم عن مالك - وهذا في «الموطأ» (١/ ٢٥٢-٢٥٣/ ٢٦٦) عن نافع وعبد اللَّه بن دينار - ولم يذكر الدارمي عبد اللَّه بن دينار - عن عبد اللَّه بن عمر أن رجلًا سأل رسول اللَّه ﷺ عن صلاة الليل، فقال رسول اللَّه ﷺ:
«صلاة الليل مثنى مثنى: فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة توتر له ما قد صلى».
وللحديث طرق أخرى عن ابن عمر عند البخاري (٩٩٣و٩٩٥و ١١٣٧) ومسلم (١/ ٥١٦-٥١٧و٥١٩) والترمذي (٤٣٧) والنسائي (٣/ ٢٣٢-٢٣٣و٢٣٣) وابن ماجه (١١٧٤ و١٣١٨ و١٣٢٠) وأحمد (٢/ ٥و٩و١٠و٢٦و٣٠و. . .).
وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

[١٣٥] صحيح:

رواه مسلم (٧٦٧) من طريق سعد بن هشام عن عائشة قالت:
«كان رسول اللَّه ﷺ إذا قام من الليل ليصلي، افتتح صلاته بركعتين خفيفتين».

[١٣٦] صحيح:

رواه الإمام مالك في «الموطأ» (١/ ٢٤٧/ ٢٦٣) عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.
ومن طريق مالك أخرجه البخاري (١١٧٠).
وأخرجه مسلم (٧٣٧) من طريق هشام بن عروة به.

وهذا هو الغالب من أحواله.

وقد كان يصلي أقل منه في بعض الأحوال.

فقد ثبت عند البخاري من طريق مسروق عنها: «أن صلاته ﷺ بالليل سبع وتسع وإحدى عشرة سوى ركعتي الفجر»[١٣٧].

ومثل ما جاء عن عائشة من انتهاء ركعاته إلى ثلاث عشرة جاء في «الموطأ» في حديث ابن عباس[١٣٨]، وجاء فيه- أيضًا- من حديث زيد بن خالد الجهني[١٣٩].

وفي هذه السُّنَّة العملية الثابتة بيانٌ للقدر الأكمل الذي يكون به العبد ممن يصدق عليهم هذا الوصف من صفات عباد الرحمن.

* * *

---

[١٣٧] صحيح:

رواه البخاري (١١٣٩) عن مسروق قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن صلاة رسول الله ﷺ بالليل، فقالت: سبعٌ و... الحديث.

[١٣٨] صحيح:

رواه مالك (١/ ٢٤٨-٢٥٠/ ٢٦٤) وكذا البخاري (١١٣٨) ومسلم (٧٦٣و٧٦٤) من حديث ابن عباس.

[١٣٩] صحيح:

رواه مالك (١/ ٢٥١-٢٥٢/ ٢٦٥) ومن طريقه رواه مسلم (٧٦٥) عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

الصفة الرابعة

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان، الآيات: ٦٥، ٦٦].

المناسبة:

لما ذكر حسن سلوكهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق؛ ذكر خوفهم من ربهم واعتمادهم عليه في نجاتهم وعدم اغترارهم بأعمالهم، فهم يأتون ما يأتون من محاسن الأعمال، ولا يعتمدون إلَّا على الكبير المتعال.

المفردات:

«الغرام»: مادة (غ ر م) تدور على معنى الملازمة مع الثقل والشدة، ولذا فسر «الغرام» بالشر وبالعذاب وبالهلاك الملازم.

ساءت: بمعنى قبحت، مثل بئس لإنشاء الذم.

«المستقر»: محل الاستقرار، أي: الثبوت.

و«المقام»: محل الإقامة، أي: البقاء.

التراكيب:

(ساءت) فاعله الضمير المخصوص بالذم.

و(مستقرًّا ومقامًا) تمييز مفسر للضمير.

وجملة (إن عذابها) تعليل للجملة الدعائية، وفصلت عنها لكمال

الانقطاع بينهما، لإنشائية الأولى وخبرية الثانية.

وجملة إنها ساءت مؤكدة لمضمون الجملة قبلها مع اختلاف في المعنى، فإن ما أفادته الأولى من فداحة عذابها وملازمته، أكدته الثانية بما أفاده من مقامه ومستقرها، ففصلت عنها لما بينهما من كمال الاتصال نظير ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢]. والتأكيد فيهما بإن، لأنه قد لوح وأشير في الكلام السابق إلى هذا الخبر، وشأن السامع لهذا أن يستشرف له استشراف المتردد الطالب، فينزل منزلة المتردد، فيؤكد له الخبر.

ووجه التلويح بهذا الخبر أنه لما سئل صرف عذاب جهنم، كان هذا مشيرًا إلى قبح هذا العذاب وشدته، فهذا نظير ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هُود: الآية ٣٧].

المعنى:

ومن صفاتهم أنهم يدعون اللَّه- تعالى- أن يصرف عنهم عذاب جهنم؛ لأن عذابها عذاب شديد فادح ملح ملازم، ولأنها بئست المستقر الذي يستقر ويثبت فيه، وبئست المقام الذي يقام ويمكث فيه.

رد واستدلال:

زعم قومٌ أنَّ أكمل أحوال العابد أن يعبد اللَّه- تعالى- لا طمعًا في جنته ولا خوفًا من ناره!

وهذه الآية وغيرها ردٌّ قاطعٌ عليهم، ومثلها قول إبراهيم- عليه وعلى آله الصلاة والسلام-: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٢].

في نصوص لا تُحصى كثرة.

وزعموا أنَّ كمال التعظيم للَّه ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع في ثوابه!

وأخطأوا فيما زعموا فإنَّ العبادة مبناها الخضوع والذل والافتقار والشعور بالحاجة والاضطرار، وإظهار العبد هذه العبودية بأتمها، ومِن أتمِّ مظهرٍ لها أن يخاف ويطمع كما يذل ويخضع.

ففي إظهار كمال نقص العبودية القيام بحق التعظيم والإجلال للربوبية، ولهذا كان الأنبياء- عليهم وآلهم الصلاة والسلام- وهم أشد الخَلق تعظيمًا للَّه، أكثَرهم(١) خوفًا من اللَّه وتعوذًا من عذاب اللَّه وسؤالًا لما عند اللَّه! وكفى بهم حجة وقدوة.

وإن هذه المقالة تكاد تفضي إلى طرح الرجاء والخوف، وعليهما مبنى الأعمال لما فيهما من ظهور العبودية بالذل والاحتياج.

ومن دعاء القنوت الثابت المحفوظ: «**وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد**»[١٤٠].

وهذا ضروري في الدين.

ولكن مثل هذه المقالة إنما يجر إليه الغلو وقلة الفقه في الدين في الكتاب

(١) في الأصل: «ومن أكثرهم».

[١٤٠] صحيح:

تقدم برقم (٤٤).

والسنة وما كان عليه هدي السابقين الأولين.

اعتبار ونصيحة:

إنَّ جهنم هي أقبح مستقر وأقبح مقام، وإنَّ الدنيا هي مطية الآخرة، فمن ساء مستقره ومقامه في الدنيا ساء كذلك مستقره ومقامه في الآخرة.

وإن ملازمة العذاب في الآخرة على قدر ملازمة المعاصي في الدنيا، فمن لازمها بالكفر ومات عليه دامت له تلك الملازمة، ومن لازمها بالإصرار على الكبائر كانت له على حسب ذلك الملازمة.

فعلى العاقل أن يحسن مقره ومقامه، وأن يجتنب كل موطن تلحقه فيه الملامة، وأن يجتنب مجالس السوء والبدعة، ويلازم مجالس الطاعة والسنة، وأن يسرع بالتوبة مفارقًا الذنوب، وألا يصر على شيء من القبائح والعيوب، وأن يكون سريع الرجوع إلى اللَّه ولو عظم ذنبه وبلواه، فاللَّه يحب التوابين ويغفر للأوابين.

جعلنا منهم أجمعين آمين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٩، م٨) غرة جمادى الأولى ١٣٥١هـ - سبتمبر ١٩٣٢م.

أيهما أكمل: العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب أم العبادة دونهما؟[١]

زيادة بيان على قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٥].

قد قال قوم: إن العبادة دون رجاء ثواب ولا خوف عقاب هي أكمل العبادات.

وأنكرنا مقالتهم فيما كتبناه على قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٥]. في الجزء الصادر في غرة جمادى الأولى.

وقلنا في الإنكار عليهم: «وزعموا أن كمال التعظيم للّه ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع في ثوابه، وأخطأوا فيما زعموا».

وذكرنا إثر ذلك بعض الأدلة التي اعتمدنا عليها.

وبعد أن مضى على ذلك ثلاثة أشهر كاملة نشر الشيخ المولود الحافظي[٢]

---

(١) وفيه رد على مقال الشيخ الحافظي المدرج في جريدة (البلاغ) منذ بضعة أسابيع. (الشهاب).

(٢) هو الشيخ المولود بن الصديق سحابي الحافظي، الفلكي الأزهري، عالم فقيه، له مقالات قيّمة منشورة في جريدة ومجلة «الشهاب» وقد نشبت بينه وبين العلماء المصلحين أمثال المشايخ: مبارك=

مقالًا ردًّا علينا دون أن يذكر جميع أدلتنا، ودون أن يتعرض لنقضها في سندها أو متنها، أو عدم انطباقها أو إفادتها لما سيقت لإفادته، ودون أن يعارضها بمثلها في الرتبة والدلالة. وأطال بما بعضه خارج عن محل النزاع، وبعضه هو نفس الدعوى المحتاجة إلى الاستدلال.

فرأينا إثر اطلاعنا على مقاله أن نعود في هذا الجزء لذكر أدلتنا التي اعتمدنا عليها فيما اخترناه من أن وضع العبادة الشرعية على رجاء الثواب وخوف العقاب، وبيان دلالتها على المدعى، ثم نتكلم على بعض ما في مقاله، فنقول:

إن العبادة هي غاية الذل والخضوع مع الشعور بغاية الضعف والافتقار، ومن مقتضى الضعف أن يخاف ويوجل، ومن مقتضى الافتقار أن يرجو ويطمع.

فخوف العبد من عقاب ربه هو من مقتضى اعترافه بضعفه وقوة ربه وشهوده لعزته وقهره وعموم تصرفه في خلقه، وأنه لا معقب لحكمه، وأنه لا يؤمن من

= الميلي، والعربي التبسي، وأبي يعلى الزواوي، معارك قلمية، وردود علمية ومساجلات فقهية.
وكان أحد أعضاء «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» عند تأسيسها سنة ١٩٣١م، ولم يمض عام حتى انفصل عنها، ليترأس «جمعية علماء السنة!» التي تأسست ضرارًا، وأصدر جريدة «الإخلاص» لسان حالها.
من مؤلفاته «مثلث الربع المجيب» في الفلك وعلم الهيئة. توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ١٩٤٨م.
انظر: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (١/ ٧٥- ٧٩) لمحمد الحسن فضلاء، و«صراع بين السنة والبدعة» (١/ ٣٢٠، ٣٢٢- ٣٢٤) لأحمد حماني، و«الشيخ المولود الحافظي: حياته وأفكاره» لمحمد الصالح آيت علجت.

مكره.

وطمعه في ثوابه هو من مقتضى اعترافه بحاجته وفقره وغنى ربه وفضله وتصديقه بوعده.

فهو يعبده ويخاف ألا يقبل عبادته ويخشى نقمته. ويعبده ويرجو رحمته وينتظر مثوبته.

وفي عبادته هذه إظهار لغاية العبودية بنقصها وحاجتها، وقيام بحق التعظيم والإجلال للربوبية، والاعتراف لذلك المقام بالقدرة والعزة والغنى والرحمة والكمال.

فوضعت العبادة في الدين على خوف العقاب ورجاء الثواب لما في ذلك من إظهار غاية عبودية العبد بضعفه وافتقاره أمام ربه الغنيّ الرحيم القوي المتين.

والدليل على هذا ستسمعه من الكتاب والسنة وأقوال السلف.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: الآيات ١٥- ١٧].

ووجه الدليل من الآية أن هؤلاء المذكورين فيها هم الكُمَّلُ من عباد اللَّه الصالحين؛ بدليل حديث أبي هريرة رضي الله عنه المرويِّ في «الصحيح» قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم:

«يقول اللَّه تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخرًا بَلْهَ ما اطلعتم عليه». ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية ١٧] [١٤١].

ومع كمالهم لم تتجرد عبادتهم من الخوف والطمع.

ووجه آخر: هو أن اللَّه- تعالى- ذكر لنا عبادتهم لنعرف العبادة الشرعية كيف تكون، فذكرها مع الخوف والطمع، فعرفنا أن العبادة وضعت في الشرع على ذلك.

ووجه آخر: وهو أنه- تعالى- ذكر لنا صفاتهم وعبادتهم لنقتدي بهم فيها، فعلم أن العبادة التي يدعونا ربنا إليها هي العبادة خوفًا وطمعًا.

ومثل هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ

[١٤١] صحيح:

أخرجه البخاري (٣٢٤٤و٤٧٧٩و٤٧٨٠و٧٤٩٨) ومسلم (٢٨٢٤) والترمذي (٣٢١٠) و(٣٣٠٣) وقال: «حديث حسن صحيح» والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٨٥) والدارمي (٢/ ٣٣٥) وابن ماجه (٤٣٢٨) وأحمد (٢/ ٣١٣و٤٣٨و٤٦٦) من حديث أبي هريرة.

وله شاهد من حديث سهل بن سعد الساعدي: أخرجه مسلم (٢٨٢٥).

وآخر من حديث المغيرة بن شعبة: أخرجه مسلم (١٨٩) أيضًا.

وثالث من حديث أبي سعيد الخدري مختصرًا: رواه الطبراني والبزار بإسناد صحيح قاله الحافظ المنذري في «الترغيب»!

ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾
[آل عمران: الآيات ١٩١-١٩٤].

ووجه الدليل منها كالتي قبلها، وتزيد عليها ببيان صريح دعائهم وطلبهم الوقاية من النار وغفران وتكفير السيئات.

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٥].

ووجه الدليل منها كالتي قبلها.

ومثلها قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: الآيات ٧-١٠].

ووجه الدليل منها مثل ما تقدم، وتزيد ببيان أن خوف اليوم العبوس لا ينافي الإطعام لوجه الله.

ومثلها قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾
[الرعد: الآيات ١٩- ٢٢].

ووجه الدليل- كما تقدم-، وفيها أيضًا بيان أن خوف سوء الحساب لا ينافي الصبر ابتغاء وجه الله.

ومثلها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: الآيات ٥٧- ٦١].

ووجه الدليل ما تقدم، ومعنى الآية أنهم يعطون ما أعطوا من أعمال البر والطاعات وقلوبهم خائفة من أنهم راجعون إلى ربهم فيخافون ألا تُقْبَل منهم.

ففيها بيان أنهم كانوا يعملون راجين قبول الأعمال خائفين من عدم قبولها.

فهؤلاء هم الكُمَّل من عباد اللَّه وهذه هي عبادتهم في صريح هذه الآيات الكريمة التي ذكرت فيها صفاتهم، وكلها بكثرتها وصراحتها دالة دلالة قطعية لما قلناه من أن العبادة الشرعية موضوعة على رجاء الثواب والخوف من العقاب، إذ ذلك هو أظهر مظاهر العبودية بذلِّها وخضوعها وضعفها وحاجتها وفقرها وحالتها المباينة غاية المباينة لمقام الربوبية، مقام ذي الجلال والإكرام.

ولا تجد في القرآن العظيم آيةً واحدةً دالةً دلالة صريحة على ذكر عبادة- هكذا- دون خوف أو طمع.

ونزيد على الآيات المتقدمة آيةً دالةً على حال عبادة المعصومين- عليهم الصلاة والسلام-، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٢].

ووجه الدليل من الآية أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر عن نفسه بصيغة المضارع

المفيد للتجدد أنه يطمع من اللَّه أن يغفر له خطيئته، فدل ذلك على أنه كان في عبادته طامعًا، ومعلوم أنه معصوم وأنه مؤمَّن من العذاب، وأنَّ ما سمَّاه خطيئة هو بالنسبة إلى مقامه الرفيع من باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين»(١).

ومع ذلك كله فالمقصود من الدليل حاصل، وهو أنه خاف المؤاخذة- المؤاخذة اللائقة بمقامه- وطمع في الغفران وكانت عبادته على الطمع والخوف.

ولا يقال أنه كان معلمًا للناس؛ لأنه إخبار عن نفسه، وخبره صدق ثابت، فلابدَّ أن يكون كما أخبر.

وأما السنة: فمنها دعاء القنوت المشهور «**نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد**»[١٤٢].

ووجه الدليل منه أنَّ الصلاةَ أشرفُ أحوالِ العبدِ وأجلّ مقاماته وأعظم عباداته، وقد علم أن يدعو فيها هذا الدعاء الصريح في رجاء الرحمة وخوف العذاب، وما كان ذلك إلَّا لأنَّ العبادة الشرعية موضوعة عليهما.

ومنها حديث: «**وأما السجود فادعوا فيه، فَقَمِنٌ أنْ يُستجاب لكم**»[١٤٣].

(١) هذا ليس محفوظًا عمّن قوله حُجَّةً، لا عن النبي ﷺ ولا عن أحد من سلف الأمة وأئمتها، وإنما هو كلام لبعض الناس، وله معنى صحيح، وقد يحمل على معنى فاسد. قاله شيخ الإسلام ابن تيمية. وراجع «الضعيفة» (١٠٠) للألباني.

[١٤٢] صحيح:

تقدم برقم (٤٤).

[١٤٣] صحيح كما قال المصنف:

أخرجه مسلم (٤٧٩) عن ابن عباس قال: =

وهو حديث صحيح.

وفي الصحيح- أيضًا- «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[١٤٤].

ووجه الدليل أن أقرب أحوال العبد من ربه هو محل للدعاء، والداعي يرجو القبول ويخاف المنع، فالعبادة في أقرب أحوال العبد موضوعة على الرجاء والخوف.

ومنها الحديث الصحيح: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللَّهم أسلمتُ وجهي إليك، وفوضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك؛ رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللَّهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به**»[١٤٥].

= كشف رسول اللَّه ﷺ الستارة؛ والناس صفوف خلف أبي بكر فقال:

«يا أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ﷻ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقَمِنٌ أن يُستجاب لكم».

وأخرجه أيضًا أبو داود (٨٧١) والنسائي في «المجتبى» (٢/ ٢١٧-٢١٨) وفي «الكبرى» (٧٠٧و٧٦٢٣) والدارمي (١/ ٣٠٤) وأحمد (١/ ٢١٩).

[١٤٤] صحيح:

تقدم برقم (١٣٢).

[١٤٥] صحيح:

أخرجه البخاري (٢٤٧و٦٣١٣و٦٣١٥و٧٤٨٨) ومسلم (٢٧١٠) وأبو داود (٥٠٣٦) والترمذي (٣٤٠٣) والنسائي في «الكبرى» (١٠٦٠٩-١٠٦٢١) وفي «عمل اليوم والليلة» (٧٧٣-٧٧٦و٧٨٠ و٧٨٥) وابن ماجه (٣٨٧٦) وأحمد (٤/ ٢٨٥و٢٩٠و٢٩٢-٢٩٣و٢٩٦و٢٩٩و٣٠٠و٣٠١و٣٠٢) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

وقال الترمذي: «حديث حسن».

ووجه الدليل منه أنه تعليم لما يقوله المسلم فيما قد يكون آخر حال يلقى عليه ربه، ولا ينبغي أن يلقاه إلا على أكمل حال.

فعلمنا هذا الدعاء الصريح في الرغبة والرهبة ليقوله المؤمن ولو كان من أكمل الكُمل، فدل على أن الرغبة والرهبة عليهما وضعت العبادة في جميع الأحوال.

ومنها الحديث الصحيح: قالت عائشة ﵂: كنتُ نائمةً إلى جنب رسول اللَّه ﷺ ففقدته فلمسته بيدي فوضعت يدي على قدميه وهو ساجد يقول:

«أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك كما أثنيت على نفسك»[١٤٦].

ووجه الدليل أنه في الحال التي هو فيها أقرب ما يكون من ربه، وهي حالة سجوده، استعاذ برضى اللَّه من سخطه، وبعافيته من عقوبته، ثم لما لم يستطع الإحاطة بأفعاله رد الأمر لذاته فاستعاذ به منه، وهو في الجميع مستعيذ، والمستعيذ طالب، والطالب راج وطامع في نيل المطلوب، فلم يفارق عبادته الرجاء والطمع حتى في هذه الحالة التي هي بينه وبين ربه؛ لأنه كان ساجدًا في

---

[١٤٦] صحيح:

أخرجه مسلم (٤٨٦) وأبو داود (٨٧٤) والترمذي (٣٥٠٢) والنسائي في «المجتبى» (١/ ١٠٢-١٠٣و٢/ ٢١٠و٢٢٢-٢٢٣) وفي «الكبرى» (١٥٨و٦٨٧) وابن ماجه (٣٨٤١) وأحمد (٦/ ٥٨و٢٠١) ومالك (٢/ ٣٧/ ٥٠٠) عن عائشة.

وقال الترمذي: «حديث حسن، قد روي من غير وجه عن عائشة».

جنح الليل دون حضور أحد من الناس إلا عائشة التي كانت نائمة واستيقظت ففقدته، فاطلعت عليه في تلك الحال.

ومنها الحديث الصحيح عن ابن عباس الذي كان يعلمهم رسول اللَّه ﷺ إياه كما يعلمهم السورة من القرآن.

رواه مالك.

وفيه: «**اللَّهم أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**»[١٤٧].

ووجه الدليل منه أنه علمهم هذه الاستعاذة الصريحة في الخوف والرجاء كسائر ما علمهم من الدعوات المبنية عليهما.

وهكذا تجد جميع دعواته المأثورة، على الرغبة والرهبة، والرجاء والخوف، ولا تجد دعاءً واحدًا علمهم فيه أن يتوجهوا إلى اللَّه- تعالى- دون رغبة ولا رهبة، ولا رجاء ولا خوف.

ولو كانت العبادة الخالية من الطمع والخوف هي أكمل العبادة، لكان

---

[١٤٧] صحيح:

رواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٣٨-٣٩/ ٥٠٢) عن أبي الزبير المكي عن طاوس اليماني عن عبد اللَّه بن عباس أن رسول اللَّه ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن، يقول: ... فذكره.

ومن طريق مالك: أخرجه مسلم (٥٩٠) وأبو داود (١٥٣٩) والترمذي (٣٥٠٣) والنسائي (٤/ ١٠٤ و٨/ ٢٧٦-٢٧٧) وأحمد (١/ ٢٤٢ و٢٥٨ و٢٩٨ و٣١١).

وقال الترمذي: «حديث حسن».

وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٤) وابن ماجه (٣٨٤٠) من طريق آخر عن ابن عباس.

بيَّنها لهم بيانًا شافيًا صريحًا، كعادته في بيان الكمالات، وهو الحريص على دلالتهم على كل خير، فكيف لم يدلهم على هذا المقام بصريح المقال لو كان من الكمال بحيث يدعى لها بعض الناس.

فقد بان بما ذكرنا توارد آيات الكتاب وأحاديث السنة في صراحة وجلاء على مشروعية العبادة مقرونة بالرغبة والرهبة والرجاء والخوف، ولم نظفر بآية واحدة أو حديث واحد فيه التصريح بمشروعيتها مجردة منهما فضلًا عن أنها أكمل منها معهما، وما كنا لنترك أدلة الكتاب والسنة الصريحة لرأي أحد كائنًا من كان.

وإننا نورد فيما يلي حديثًا من «صحيح البخاري» يبين لنا كيف كان الصحابة سادة هذه الأمة يعبدون اللَّه- تعالى- يرجون قبول أعمالهم لديه:

«قال أبو بردة ابن أبي موسى الأشعري: قال لي عبد اللَّه بن عمر: هل تدري ما قال أبي لأبيك؟

قال: قلتُ: لا.

قال: فإن أبي قال لأبيك: يا أبا موسى هل يسرك إسلامنا مع رسول اللَّه ﷺ وهجرتنا معه وجهادنا[1] وعملُنا كلُّه معه بَرَدَ لنا، وإن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافًا رأسًا برأس.

قال أبي[2]- يعني: أبا موسى-: لا واللَّه، قد جاهدنا بعد رسول اللَّه ﷺ

(١) في «صحيح البخاري»: «وجهادنا معه».

(٢) كذا وقع فيه! والصواب: قال أبوك، لأن ابن عمر هو الذي يحكي لأبي بُردة ما دار بين عمر وأبي موسى، وهذا الكلام الأخير كلام أبي موسى، وقد وقع في رواية النسفي على الصواب=

وصلينا وصمنا، وعملنا خيرًا كثيرًا، وأسلم على أيدينا بشرٌ كثيرٌ، وإنَّا لنرجو ذلك.

فقال أبي- يعني: عمر-: لكني أنا والذي نفس عمر بيده، لوددت أن ذلك بَرَدَ لنا وأن كل شيء عملناه بعد نجونا منه كفافًا رأسًا برأس.

فقلتُ- أبو بردة-: إنَّ أباك واللَّهِ خيرٌ من أبي»[١٤٨].

ووجه الدليل عملهم على الرجاء وخوفهم من عدم القبول والعقاب على المخالفة وإن اختلفا فيما اختلفا فيه.

ولا تجد في كلام واحد منهم أنه كان يجرد عبادته عن الطمع والخوف، وما كان المقام الأكمل ليفوتهم وهم أفقه الناس في الدين وأحرصهم على الخير.

هذه هي أدلتنا فيما ذهبنا إليه، وردنا على مخالفيه، وهي أكثر من هذا عَدًّا في كتاب اللَّه وسنة رسوله، وفيما ذكرناه كفاية- إن شاء اللَّه- لمن نصح وأنصف، وأخلص الإيمان بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ٥٩].

= ولفظه: فقال أبوك: لا واللَّه.. إلخ».
أفاده الحافظ في «الفتح» (٧/ ٣١٨).

[١٤٨] صحيح:
أخرجه البخاري (٣٩١٥) عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري.
و(بَرَد) بفتح الموحدة والراء (لنا) أي ثبت لنا ودام، يقال: برد لي على الغريم حق أي ثبت.
و(كفافا) أي سواءٌ سواءٌ، والمراد لا موجبًا ثوابًا ولا عقابًا.
كذا في «الفتح» للحافظ.

والآن نعطف بالكلام على مقال الشيخ ونحصره في مواضع:

١- أنكرنا على من زعموا أن مرتبة العبادة العليا أن يعبد اللَّه- تعالى- لذاته دون الطمع في ثوابه ولا الخوف من عقابه، ونسبنا إليهم الخطأ.

ولما وجدنا آيات الكتاب وأحاديث السنة طافحةً بأنَّ عبادة الكُمَّل مِنْ عباد اللَّه مقرونة بالخوف والطمع كما قدَّمنا نَسَبْنا خطأهم إلى قلَّة التفقه في الدين، أي: في أدلة الدين، وهي الآيات والأحاديث المذكورة.

وما عسى أن يقال فيمن لم تكفه تلك الآيات والأحاديث كلها على صراحتها واتفاقها إلَّا أنه لم يتفقه فيها؟

ولما لم نجد آيةً واحدةً ولا حديثًا واحدًا يصرِّح بمدّعاهم حملناهم على الغلوِّ.

هذا كله دون أن نصرِّح بشخصٍ ولا بِطائفةٍ لأن الكلام مع القول والدليل.

فأبى حضرته إلَّا أن يحمل كلامنا على طائفة مخصوصة يحب هو اليوم التظاهر بالدفاع عنها، ثم تطرق من ذلك إلى رمينا بما يناسب غرضه من الجرأة وقلة النصيحة والتطاول على الأئمة، إلى ما يريد أن يصفنا به، ليقول القارئ أن حضرته موصوف بضده. وربك أعلم بتلك الأوصاف وأهلها.

٢- كان استدلالنا بآية ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: الآية ٦٣]. على الوجه الذي بيناه فيما تقدم دون أن نذكر الحصر ولا أن نشير إليه، ولا من مقتضى موضوعنا أن نقصر عباد الرحمن على تلك الصفات، لكن حضرته أخذ يقرر في قواعد الحصر الضرورية عند المبتدئين، وخرج من ذلك إلى أن الآية

لا حصر فيها، وأننا تسرعنا وما تدبرنا، ولم نحسن تطبيق قواعد العلوم على موضوع النزاع.

وفي الحق إن حضرته هو الذي لم يحسن تنزيل ما طولب به في الحصر على كلام لم ندع فيه الحصر ولم نستدل به، وإنما استدللنا بالآية مثلما استدللنا بغيرها على الوجه الذي تقدم وعلى ما معه من الوجوه.

٣- ما في كلام الإمام الرازي من أن اللَّه مستحق للعبادة لذاته، وأنه لو أمرنا بالعبادة بلا ثواب ولا عقاب لوجبت، فهو حقٌّ مُسَلَّمٌ، وليس هو موضوع النزاع، إذْ موضوع النزاع هل العبادة مع الخوف والرجاء أكمل أم العبادة دونهما؟

وما فيه من أن «مَنْ عبدَ اللَّهَ للثوابِ والعقابِ، فالمعبود في الحقيقة هو الثوابُ والعقابُ، واللَّهُ واسطةٌ»(١).

- إذا كان يعني به أنه عبد اللَّه للثواب من حيث ذاته والعقاب من حيث ذاته دون امتثال للأمر وتوجه للرب، فهذا ليس كلامنا فيه.

وإن كان يعني أنه يعبد للثواب والعقاب من حيث أن العبادة الشرعية موضوعة على رجاء الثواب وخوف العقاب فهو يعبد اللَّه امتثالًا لأمره، فكلامه ممنوع؛ لأن العبادة هي التوجه بالطاعة للَّه امتثالًا لأمره وقيامًا بحقه مع الشعور بالضعف والذل أمام قوة وعز الربوبية، وذلك يبعث على الخوف المأمور به، ومع الشعور بالفقر والحاجة أمام غنى وفضل الربوبية، وذلك

(١) تفسير الفخر الرازي (١/ ١٢٩).

يبعث على الرجاء المأمور به. فالمعبود في الحقيقة والواقع هو المتوجَّهُ إليه بالطاعة وهو اللَّه- تعالى- لا الثواب الذي تعلق به الرجاء، ولا العقاب الذي تعلق به الخوف.

وكيف يكون الثواب هو المعبود، والعقاب هو المعبود، واللَّه هو الذي شرعهما؟ فهل يشرع عبادة غيره؟

وما هذا إلَّا من عدم التأمل في مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٥٧] . أي شأنه أن يحذر ومن حقه أن يحذر.

وهل هذا إلَّا من عدم التفقه في قوله تعالى -في أم القرآن والسبع المثاني التي يناجي بها المصلي ربه وهو في أعظم عبادة-: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] . فإن المستعين طالبٌ للإعانةِ، والطالب راج قبول طلبه، خائف من عدم قبوله.

وقوله تعالى فيها: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٦] . طلب كذلك، فليتفقه المتفقهون في كلام رب العالمين.

٤- ونقل كلام الإمام الرازي في باب المحبة قوله: «وأما العارفون فقد قالوا: قد يحب اللَّه- تعالى- لذاته، وأما حب خدمته وحب ثوابه فدرجة نازلة».

ونحن نقول: إنَّ الذات الأقدس: الموصوف بالكمالات، المفيض للإنعامات، تتعلق به قلوب المحبين موصوفًا بكمالاته وإنعاماته التي منها ثوابه وجزاؤه، وتلك المحبة تبعث على خدمته بطاعته والتقرب إليه بأنواع

العبادات.

وأما عبادة الذات مجردًا عن الإنعامات فهو نوع من التعطيل في الاعتقاد والتقصير في الشهود، وإذا كانت المحبة عملًا من أعمال العبد القلبية التي يتقرب بها إلى اللَّه فهي عبادة.

وقد بيَّنا بالأدلة المتقدمة أن العبادة في الإسلام موضوعة على مصاحبة الرجاء والخوف، والمحب للرب ذي الجلال والإكرام والبطش والإنعام لا يغيب عن إجلاله بالخوف والتذلل له بالطمع كحاله في سائر العبادات.

٥- ونقل من كلام النيسابوري قوله: «المحققون نظرهم على المعبود لا على العبادة، وعلى المنعم لا على النعمة»[1].

فإن كان مراده أن نظرهم على المعبود أي: اعتمادهم في القبول على المعبود لا على العبادة، فهذا حق وليس كلامنا فيه.

وإن كان مراده أن نظرهم على المعبود أي توجههم إلى المعبود دون العبادة فهذا أيضًا حقٌّ؛ لأن العبادة متوجه بها لا إليها، وليس كلامنا في هذا.

وإن كان مراده دون تقرب بالعبادة فهذا باطل؛ لأن اللَّه تعالى قال: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المَائدة: الآية ٣٥] . أي: ما يقربكم إليه من طاعته.

وإن كان مراده دون شعور بالعبادة فهذا- أيضًا- باطل؛ لأن العابد ينوي العبادة ويقصد بها القربة ويتوجه بها مخلصًا فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفَاتِحَة:

---

(١) تفسير الرازي (١/ ١٢٧).

الآية ٥]. فكيف يكون لا شعور له بها؟!

وأما قوله: «وعلى المنعم لا على النعمة». فإن أراد أن المتقرب إليه هو اللَّه المنعم دون النعمة، فهذا حقٌّ، وليس كلامنا فيه.

وإنْ أراد أنَّ رجاء نعمة الثواب حين التوجه للَّه والتقرب إليه بالطاعة ينافي التقرب إلى المنعم ويُعَدُّ تقربًا للنعمة، فهذا هو الذي أبطلناه بالأدلة السابقة، ونقضناه في الموضع الثالث.

وإن أراد أن ذكر العبد لنعم اللَّه عليه مُخِلٌّ بكمال عبادته، فهذا باطل أيضًا؛ لأن عبادة اللَّه شكرًا على ما آتى من النعم وطلبًا للمزيد من أرفع المقامات، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سَبَإ: الآية ١٣]، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: الآيات ١٢٠- ١٢١]، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النَّمل: الآية ١٩]. ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمَان: الآية ١٤]. و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧].

٦- استدل النيسابوري: «بأنه قيل لبني إسرائيل: اذكروا نعمتي، ولأمة محمد: اذكروني»(١).

وهذا منقوض بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣]. ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ [الأحزَاب: الآية ٩].

٧- نقل من كلام النيسابوري ما يفيد أن عبادة اللَّه لكونه إلهًا وكون

---

(١) تفسير الرازي (١/ ١٢٧).

المخلوق عبدًا لا يكون معها رغبة في الثواب ولا رهبة من العقاب، وأنها هي أعلى الرتب[١].

ونحن نقول: من مقتضى شعورك بعبوديتك شعورك بضعفك وفقرك، وأن من مقتضى علمك بالله شهودك لقوته وفضله، وذاك الشعور وهذا الشهود يبعثان فيك الرجاء والخوف، فتكون وأنت تعبده؛ لأنه إله ولأنك عبدٌ، راجيًا خائفًا.

ودعوى تجرد العبادة عنهما قد أبطلناها بالأدلة السابقة.

٨- نقل قول الإمام ابن العربي[٢]: «أمر الله عباده بعبادته وهي أداء الطاعة [له] بصفة القربة، وذلك بإخلاص النية بتجريد العمل عن كل شيء إلا لوجهه، وذلك هو الإخلاص الذي تقدم بيانه».

ثم زعم هو من عنده أن من مقتضى تجريد العمل عن كل شيء تجريده من رجاء الثواب وخوف العقاب، وأنَّ الإخلاص هو ما كان لوجه الله لكونه إلهًا لا غير.

وهذا صريح منه في أن رجاء الثواب وخوف العقاب ينافيان الإخلاص، وهو باطل لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: الآية ٩] . . . الآية. وقد تقدمت، فخافوا وعملهم لوجه الله بنص القرآن.

وروى الأئمة في «الصحيح» أن أبا طلحة قال: يا رسول الله، إني أسمع

(١) المصدر نفسه (١/ ١٢٩).

(٢) في «أحكام القرآن» (٤/ ١٩٧٠)، والزيادة منه.

اللَّه تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٢] . وإنَّ أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة للَّه أرجو برها وذخرها عند اللَّه، فضعها حيث أراك اللَّه. فقال رسول اللَّه ﷺ:

«بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح»[١٤٩].

فأقرَّه على قوله: «أرجو برها وذخرها». ولم يقل له: إن هذا مناف للإخلاص. كما يقول الشيخ، وهو يسمبط ويشنبط[١] في كلام الإمام ابن العربي.

ثم ما لَكَ- يا أخي- ولابن العربي؟

حسبك ابن سينا وأمثاله الذين يحاولون تطبيق العبادة الإسلامية على الفسلفة اليونانية والآراء الأفلاطونية، أما ابن العربي فهو حكيم إسلامي وفقيه قرآني وعالم سُنِّيٌّ- حقيقي- لا يبني أنظاره إلَّا على أصول الإسلام ودلائل الكتاب والسنة.

---

[١٤٩] صحيح:

أخرجه البخاري (١٤٦١و٢٣١٨و٢٧٥٢و٢٧٦٩و٤٥٥٤و٥٦١١) ومسلم (٩٩٨) والنسائي في «الكبرى» (١١٠٦٦) والدارمي (١/ ٣٩٠) وأحمد (٣/ ١٤١) من طرق عن مالك - وهذا أخرجه في «الموطأ» (٤/ ٤١٨-٤٢٠/ ١٩٤٠) - عن إسحاق بن عبد اللَّه بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول:

«كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالًا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول اللَّه ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٢] قام أبو طلحة: إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول اللَّه . . . الحديث.

(١) أي أنه يحاول المحال في كلام ابن العربي حتى يكون له لا عليه.

وهاك كلامه في إرادة المأذون فيه مع العبادة من أمور الدنيا بله الرجاء والخوف، واسمع كلامه الصريح من الدليل الصحيح في الرد على مثل زعمك.

قال على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٨]:

«المسألة الثانية: قال علماؤنا: في هذا دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع أداء العبادة، وأن القصد إلى ذلك لا يكون شركًا ولا يخرج به المكلَّف عن رسم الإخلاص المفترض عليه، خلافًا للفقراء[1] أن الحج دون تجارة أفضل أجرًا»[2].

وقال على قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ [الأحزَاب: الآية ٢٩]:

«وهذا يدل على أن العبد يعمل محبة في اللَّه ورسوله لذاتيهما، وفي الدار الآخرة لما فيها من منفعة الثواب»[3].

٩- ونقل كلامًا للإمام الغزَّالي في المحبة، وقد قدمنا في الموضع الثامن الكلام على مثله، وبيّن[4] أن المحبة عبادة وأنها موضوعة كسائر العبادات الشرعية على الرجاء والخوف بالأدلة المتقدمة.

---

(١) يعني: الصوفية.

(٢) أحكام القرآن (١/ ١٣٦).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ١٥٣٢).

(٤) كذا الأصل، ولعل الصواب: «وبيّنّا».

١٠- وقال: «وكان من دعائه ﷺ: «**اللَّهم اجعل حبّك أحبَّ الأشياء إليَّ، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك**»[١٥٠].

وقد تقرر أن خوفه خوف إجلال وتعظيم لا خوف النار والعقاب»اهـ.

ونقول: إن خوف الإجلال لا يخرج به العبد عن ضعف وذل العبودية، ومشاهدة قوة وفضل الربوبية، فلا يتجرد خوفه الإجلالي عن خوف المؤاخذة: المؤاخذة التي ليست نارًا ولا عذابًا، ولكنها مؤاخذة مناسبة لذلك المقام العالي، بدليل أن إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- وهو مثل نبينا- عليه الصلاة والسلام- في العصمة وعدم النار والعقاب، وقد خاف المؤاخذة فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٢].

---

[١٥٠] ضعيف جدًّا:

أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٨٢) من طريق عباد الخواص حدثني أبو بكر بن أبي مريم عن الهيثم بن مالك الطائي أن رسول اللَّه ﷺ كان يدعو:

«اللَّهم اجعل حبك أحب الأشياء إلي، واجعل خوفك أخوف الأشياء إلي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم فأقر عيني من عبادتك».

وهذا إسناد ضعيف جدًّا، فيه ثلاث علل:

الأولى: عباد الخواص متروك كما في «الميزان» للذهبي.

والثانية: ضعف أبي بكر بن أبي مريم كما في «التقريب» للحافظ.

والثالثة: الإرسال فإن الهيثم بن مالك الطائي تابعي، من الخامسة، كما في المصدر نفسه، وفي «الإصابة» (٦/ ٤٦٠/ ٩١٠٤) ترجمهُ الحافظ في القسم الرابع فقال:

«تابعي من أهل الشام، أرسل حديثًا فظنَّه بعضهم صحابيًّا! .... وذكره البخاري وابن أبي حاتم وغيرهما في التابعين».

ولا خطيئة له ولجميع الأنبياء والمرسلين، لا من الكبائر ولا من الصغائر(١) على كل حال، وبدليل أنه هو- عليه الصلاة والسلام- قال: «**واللَّهِ إني لأستغفر اللَّه وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[١٥١]. رواه البخاري، وليس هذه لذنب لا صغير ولا كبير، وإنما هو لعلمه باللَّه، وعظيم حقه، وشدة تعظيمه لربه، فيخاف المؤاخذة فيطلب المغفرة.

فبان بهذا أن خوف الإجلال لا يتجرد عن خوف المؤاخذة.

وبعد هذا البيان نقول لحضرته: لا تستدل بالحديث دون بيان رتبته ولا ذِكرٍ لمخرجه، وما هكذا يكون استدلال الأمناء من العلماء، وأنه برمي الأحاديث هكذا مهملة اختلط الحق بالباطل، وتجرأ على السنة النبوية الغبيُّ

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه اللَّه تعالى- في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣١٩):

«إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل هو لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول».

قلت: ويدل عليه نصوص صريحة من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة، كقوله تعالى عن آدم - عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: الآية ١٢١]، وعن موسى -عليه الصلاة والسلام- لما وكز القبطي فقضى عليه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥-١٦]، وعن داود - عليه الصلاة والسلام- لما تسرع في الحكم قبل سماع قول الخصم الثاني: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٤، ٢٥]، وقوله معاتبًا النبي ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس: ١- ٤]، في أمثلة أخرى.

وانظر «الرسل والرسالات» (١٠٧- ١١٢) للدكتور عمر الأشقر.

[١٥١] **صحيح**:

رواه البخاري (٦٣٠٧) عن أبي هريرة.

والجاهلُ، حتى بلغ الأمر إلى نسبة الأحاديث إلى كتب الإسلام المتفق عليها ولا وجود لها فيها.

أما نحن فلا نعرف هذا الدعاء في الصحاح المتداولة عندنا، فليتك تبين من أين جئت به حتى نعرف مقدار ما تعتمد في احتجاجك عليه.

١١- وقال: «فللأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- حالتان: حالة مع اللَّه- تعالى- لا يرون فيها غير جلاله وعظمته، وحالة مع الخلق يستغفرون ويستعيذون من النار وسوء المنقلب وفتنة القبر والدجال، ويطلبون الرحمة والثواب والجنان»اهـ.

ونقول: قد بينا أن رؤية جلال اللَّه مما يبعث على الخوف من المؤاخذة كما مضى عن إبراهيم ومحمد- عليهما الصلاة والسلام- فلا يتجردون عن الخوف: خوف الإجلال وخوف المؤاخذة، في حالتهم مع اللَّه.

وقد دل حديث عائشة الذي قدمناه أن النبي ﷺ كان في سجوده في جوف الليل، والناس نيام فيما بينه وبين ربه، استعاذ برضا اللَّه من سخطه وبمعافاته من عقابه، فكانوا يستعيذون ويرجون ويخافون في حالتهم مع اللَّه.

وأما حالتهم مع الناس فإنهم كانوا يعلّمون وكانوا يخبرون عن أنفسهم بخوفهم وطمعهم، كما أخبر إبراهيم عليه السلام بطمعه، وأخبر محمد ﷺ أصحابه بأنه أتقاهم للَّه وأخوفه له[1]. وأخبر عن استغفاره لربه، وإخبارهم حق صدق لا شك فيه.

(١) انظر التخريجين (١٧١، ١٧٢) الآتيين قريبًا - إن شاء اللَّه-.

ولا يجوز أن يُقال أنهم قالوه لمجرد التعليم وهو في الواقع لا حقيقة له، إذ الإخبار عن النفس بشيء أنه كان وهو لم يكن هو الكذب الذي عصمهم اللَّه منه ونزههم عنه، ولو تفطن حضرته لهذا لما قال ما قال.

١٢- وذكر حديث الإحسان: **«أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[١٥٢].

وهذا الحديث يقتضي دوام المراقبة للَّه عند كل حركة وسكون، حتى لا تكون من العبد مخالفة فيهما، وحتى يأتي بعبادته على غاية الإتقان في صورتها، وأتم الإخلاص بها.

وقد علمت أن من مقتضى العبادة الشرعية الشعور بضعف وذل وفقر العبودية أمام عز وقوة وفضل الربوبية، فينبعث الرجاء والخوف في العابد وهما مما يحملانه على تمام الإحسان في العبادة بإتقانها والإخلاص فيها.

ثم من مقتضى مراقبة اللَّه- تعالى- مشاهدته، أي: مشاهدة جلاله وجماله؛ بصفات القهر والبطش والملك والسلطان، وجماله بصفات الفضل والرحمة والإحسان، وبصدق المشاهدة لصفات الجلال يخاف العبد ويخشى، وبصدق المشاهدة لصفات الجمال يرجو ويطمع، فصدق الشهود لابد معه من الرجاء والخوف.

---

[١٥٢] صحيح:

قطعة من حديث جبريل عليه السلام الطويل العظيم في بيان الدين كله.

أخرجه مسلم (٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري (٥٠و٤٧٧٧) ومسلم (٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وإذا غاب العبد عن الشعور بالموجودات فإنه لا يغيب عن مشاهدة جلال وجمال الذات الباعثين للخوف والرجاء، وإذا لم يشهدهما وزعم أنه يشهد الذات مجردًا فإنه لم يكن في الحقيقة مشاهدًا، بل غافلًا معطلًا جامدًا.

وأما غيبوبة العابد عن نفسه- إن كانت- فإنها حالة عارضة غير ثابتة، وليست مشروعة لا بنص من آية ولا من حديث، فضلًا عن أن تكون فاضلة كاملة.

فالحديث دلَّ على المراقبة والمشاهدة الشرعيتين اللتين يكون فيهما العبد عابدًا العبادة الشرعية الموضوعة على الرجاء والخوف حسب الأدلة المتقدمة.

١٣- ونقل كلام ابن سينا في «كتاب الإشارات» وكلام شراحه، وهو مثل ما تقدم لنا إبطاله بأدلة الكتاب والسنة والشرح بهما لمعنى العبادة المشروعة.

وإذا كنا نبحث عن العبادة التي شرعها اللّٰه لعباده على لسان رسوله، فإننا لا نعرفها إلّا من الكتاب والسنة، وقد قدمنا من أدلتهما ما جلى المسألة للعيان، وأغنى فيها عن كل كلام.

وتلخَّص وتبيَّن لنا مما تقدم:

أن العبادة المشروعة هي القصد إلى الطاعة مع الشعور بضعف العبد وذله، وحاجته وفقره، ومشاهدته لجلال ربه وقدرته وعزته، وجماله وفضله ورحمته، فيكون بتلك المشاهدة خائفًا من عقابه أو مؤاخذته، راجيًا لثوابه وإنعامه.

وأن هذه العبادة هي عبادة الكُمَّل من عباد اللَّه الذين وصفهم بأفضل صفاتهم في كتابه، وهي عبادة أنبيائه ورسله الذين ذكر عبادتهم القرآن، وهي عبادة محمد ﷺ التي دلت عليه صحاح الآثار، وعبادة أصحابه الثابتة في النقول.

وخلصنا من هذا إلى أن العبادةَ المجردةَ عن الخوف والرجاء منافيةٌ لصدق مشاهدة الجلال والجمال، مخالفةٌ لعبادة الأنبياء والمرسلين وعباد اللَّه الصالحين، وأنه لم يرد فيها نص صريح من كتاب أو سنة مثل واحد من الأدلة المتقدمة المتكاثرة.

وأنها ما دامت كذلك ليس لنا أن نعدَّها مشروعة، فضلًا عن أن نعدَّها كاملة، فضلًا عن أن ندعي أنها أكمل؛ لأن مشروعية الشيء لا تثبت إلَّا بدليل صحيح صريح.

وأنَّى لنا ذلك في العبادة المجردة عن الرجاء والخوف؟

واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل، والحمد للَّه رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١، م٩) غرة رمضان ١٣٥١هـ - جانفي ١٩٣٣م.

الصفة الخامسة

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٧].

المناسبة:

مضى وصفهم بأنهم يبيتون لربهم سُجَّدًا وقيامًا، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتربي النفس على استصغار الدنيا وما فيها، وعلى تعظيم الرب والوقوف عند حدوده، فلا يعظم شيء من الدنيا عند أهل الصلاة فيمسكوا عن بذله في الحق، ولا يستهويهم شيء منها فينتهكوا لأجله حدود اللّه وحرماته.

ولما كان المال هو أعز شيء من هذه الدنيا، وهو أعظم سبب لنيل مبتغياتها، وصفوا بأنهم في تصرفهم فيه على أكمل حال، وهي حالة العدل التي أثمرتها لهم الصلاة، فلا يمسكونه عن حق، ولا يبذلونه في باطل.

المفردات:

«أنفقوا»: بذلوا المال في وجه من الوجوه.

«الإسراف»: مجاوزة الحد المشروع.

«الإقتار»: والتقتير: التضييق.

«القوام»: العدل بين الشيئين، أي المعتدل ما بينهما، وسمي العدل بين

الشيئين قوامًا لاستقامة طرفيه واعتدالهما ، فلا إلى هذا ولا إلى ذاك .

التراكيب:

وكان : أي : هو ، أي إنفاقهم المفهوم من «أنفقوا» .

بين ذلك : خبر كان ، وقوامًا : حال مؤكدة ، فلو قيل : وكان بين ذلك ، لكان كافيًا ، ولكن أُكِّد بقوامًا لما فيه من صريح اللفظ المفهم للعدل .

والإنفاق يكون ولا يكون ، والشأن أن يكون ، ولهذا علِّق ، وكان التعليق بإذا .

وقدِّم نفي السرف على نفي التقتير ؛ لأن الإسراف شرهما ، ففيه مجاوزة الحدود وضياع المال ، وفي التقتير مفسدته مع بقاء المال ، فينفقه في الخير ، وقد يبقى لغيره فينتفع به .

المعنى:

إذا أنفقوا أموالهم لم يتجاوزوا الحد المشروع ، ولم يضيقوا فيقصروا في القدر المطلوب ، وكان إنفاقهم بين التجاوز والتضييق عدلًا مستويًا لا إفراط فيه ولا تفريط ، وصفهم بالقصد الذي هو وسط بين الغلو والتقصير ، وهو الحالة بين الحالتين ، والحسنة بين السيئتين .

تحديد:

الإسراف مذموم فهو ما كان في منهي عنه : نهي تحريم أو كراهة ، أو في مباح قد يؤدي إليهما .

فالأول: كمن أولم وليمة أنفق فيها جميع ماله وأصبح بعدها هو وأهله

للضيعة والحاجة.

والثاني: كمن أولم وليمة دعته إلى الاستدانة وإن كان يظن القدرة على الأداء؛ لأن الدَّيْنَ مُحَذَّرٌ ومستعاذٌ منه[1].

والثالث: كالاستمرار على إيلام الولائم مع القدرة عليها في الحال مما قد يؤدي إلى أحد الأمرين المذكورين في المال.

والتقتير مذموم أيضًا فهو ما كان إمساكًا عن مأمور به: أمر وجوب أو استحباب، أو عن مباح يؤدي إليهما.

فالأول كمن يمسك عن أهله شُحًّا حتى يذيقهم ألم الجوع والبرد.

والثاني: كمن لا يذيقهم بعض الطيبات التي يخص بها نفسه من السوق.

والثالث: كمن يمسك عن تطييب خاطر زوجته ببعض الكماليات مع قدرته عليها، مما قد يفسد قلب زوجته عليه، أو يحملها على ما لا يرضيه.

والقَوام العدل هو الممدوح، فهو أن ينفق في الواجب والمندوب وما يؤدي إليهما، ويمسك عن المحرم والمكروه وما يؤدي إليهما، ويتسع في الحلال دون مداومة في الأوقات واستيفاء لجميع اللذات واستهتار بالمشتهيات.

---

(١) أما التحذير منه فالأحاديث الصحيحة كثيرة وفيرة، أورد الحافظ المنذري جملة طيبة منها في «باب الترهيب من الدَّيْن» في كتاب البيوع وغيرها من كتابه الحافل «الترغيب والترهيب» (الأرقام ١٧٩٧-١٨١٣) من صحيحه للألباني)

وأما الاستعاذة منه، فيراجع «صحيح البخاري» (٨٣٢، ٦٣٦٣).

تطبيق:

حالة وطننا في الأعم الأغلب في الولائم والمآتم لا تخلو من السرف فيها الذي يؤدي إلى التقتير من بعدها، فيكون الإثم قد أصاب صاحبها بنوعيه، وأحاط به من ناحيتيه، والشر يجر إلى الشر، و الإثم يهدي إلى مثله.

وعلى «**جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**» علَّق كثير ممن سمعناهم يشكون هذه الحالة آمالهم في معالجتها، خصوصًا في المآتم، حقق اللَّهُ الآمال.

وثَمَّ نوع آخر موجود في غالب القطر ويكثر في بعض الجبال، وهو أن بعض المأمورين من بعض شيوخ الطوائف يأتون بثلة من أتباعهم، فينزلون على المنتمين إليهم من ضعفاء الناس، فيذبح لهم العناق إن كانت، ويستدين لشرائها إن لم تكن، ويفرغ المزاود، ويكنس لهم ما في البيت ويصبح معدمًا فقيرًا مَدينًا، ويصبح من يومه صبيته يتضاغون، ويمسي أهل ذلك المسكين يطحنهم البؤس، ويميتهم الشقاء ميتات متعددة في اليوم.

وشر ما في هذا الشر أنه يرتكب باسم الدين ويحسبه الجهال أنه قربة لرب العالمين.

فأما إذا جاء وقت شد الرحال إلى الأحياء والأموات، وتقديم النذور والزيارات، فحدّث هنالك عن أنواع السرف والتكلفات والتضييع للحقوق والواجبات.

نصيحة:

فياليت الذين تأتيهم تلك الوفود يسألونهم فردًا فردًا عن حالهم، ومن أين جاءوهم بما جاءوهم به من أموالهم، فعساهم أن يطلعوا على بؤس أولئك المساكين فترق لهم قلوبهم، ويرجعوا إليهم مالهم أو يزيدوهم من عندهم، وليقتصروا على من يجدونهم أهل قدرة على ما دفعوه لهم من أموالهم.

فهذه نصيحة إذا عملوا بها خففت من الشر والبؤس عن الزائرين، ومن الإثم واللوم عن المزورين.

فهل بها من عاملين؟.

وفقنا اللّٰه والمسلمين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١٠، م٨) غرة جمادى الثانية ١٣٥١هـ - أكتوبر ١٩٣٢م.

الصفة السادسة والسابعة والثامنة

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ [الفُرقان: الآية ٦٨] .

سبب النزول:

ثبت في الصحيحين- واللفظ لمسلم- أن عبد اللَّه بن مسعود قال:

قال رجل: يا رسول اللَّه أيّ الذنب أكبر؟ قال: «**أن تدعو للَّه ندًّا وهو خلقك**» قال: ثم أيّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**» قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»[١٥٣] .

فأنزل اللَّه تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفُرقان: الآية ٦٨] . . إلى ﴿أَثَامًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٨] .

المطابقة بين الآية وسبب نزولها:

تواردت الآية والحديث في الإثم الأول على شيء واحد.

وتواردا أيضًا في الثاني والثالث، إلا أن في الحديث ذكر فرد من العام، وهو شر أفراده وأكبرها إثمًا، وفي الآية ذكر العام.

ولا شك أن شر قتل النفس هو قتل الولد لما في ذلك- زيادة على قتل

---

[١٥٣] صحيح:
تقدم برقم (٧٧) .

النفس- من الخروج عن حنان الفطرة، وارتكاب ضد ما توجبه الرعاية والكفالة، وسوء الظن باللَّه المتكفل برزق الخليقة.

كما أن الزنى بحليلة الجار هو شر أفراد الزنى لما فيه زيادة على الزنى من انتهاك حرمة الجار وخيانة الأمانة- فإنهم ما تجاوروا حتى أمن بعضُهم بعضًا- وإدخال الفساد على أساس التكوين الاجتماعي في الناس، وهو التجاور والتقارب.

المناسبة:

لما أثبت لهم أصول الطاعات في الآيات المتقدمة نفى عنهم أمهات المعاصي في هذه الآية، تنبيهًا على أن الإيمان الكامل هو ما تثبت معه الطاعات وتنتفي المعاصي، وذلك هو غاية الامتثال للأوامر والنواهي، وفيه تعريض بما كان عليه المشركون من الاتصاف بهذه المعاصي من دعائهم آلهتهم مع اللَّه، وقتلهم النفس، وارتكابهم فاحشة الزنى.

وقدّم إثبات الطاعات على انتفاء المعاصي تنبيهًا على أن من راض نفسه على الطاعة ودانت نفسه بالإخبات والانقياد للأوامر الشرعية، ضعفت منه أو زالت دواعي الشر والفساد، فانكف عن المعصية.

نكتة استطرادية:

فمن هنا نعلم أن على المسلم الذي يعمل لتزكية نفسه أن يواظب على الطاعات بأنواعها، وأن يجتهد في حصول الأنس بها والخشوع فيها، فإن ذلك زيادة على ما يثبت فيه من أصول الخير، يقلع منه أصول الشر ويميت منه بواعثه.

وجه ترتيب هذه الصفات المنفيات:

قامت الشريعة على المحافظة على حقوق اللَّه وحقوق عباده.

وحق اللَّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، فمن دعا مع اللَّه غيره، وأشرك به سواه؛ فقد أبطل حق اللَّه وأعدم عبادته.

ومن قتل النفس؛ فقد تعدى على أول حق جعله اللَّه لعباده بفضله، وهو حق الوجود، وعمل على إبطال وجودهم وفناء نوعهم وزوال عبادتهم، فلهذا قرن قتل النفس بدعاء غير اللَّه معه.

ولما كان الزنى فيه بطلان النسب وفساد الخلق والجسد، وذلك مؤدٍّ إلى الاضمحلال والزوال والشرور والأهوال؛ قرن بقتل النفس، فذلك قتل حقيقي، وهذا قتل معنوي.

المفردات:

«الدعاء»: هو النداء لطلب أمر أو تنبيه عليه.

«الإله»: هو المعبود.

«حرم اللَّه النفس»: جعل لها حرمة ومنعة، فلا يجوز التعدي عليها. ومادة (ح ر م) تفيد المنع في جميع تصاريفها.

«الحق»: هو الثابت من مقتضيات القتل في الشرع.

التراكيب:

وصف النفس بالاسم الموصول المعروف الصلةِ، لأن تحريم اللَّه لها أمر

مركوز في النفوس، معروف للبشر بما جاءهم من جميع الشرائع، وكان النفي للفعل بصيغة المضارع للإشارة إلى استمرار ذلك النفي.

المعنى:

والذين لا يدعون ولا يعبدون مع اللَّه إلهًا آخر، فيشركون به سِواه في عبادتهم إياه، ولكنهم يخلصون له العبادة، ويفردونه بالطاعة، ويوحدونه في ربوبيته وألوهيته، ولا يقتلون النفس التي جعل اللَّه لها حرمة، وحرم قتلها بالسبب إلا الحق الثابت في دين اللَّه، المعارض لحرمتها، المقتضي لقتلها بالزنى بعد الإحصان، أو الكفر بعد الإيمان، أو القتل للنفس العمد العدوان[1]، ولا يزنون فيأتون ما حرم اللَّه عليهم إتيانه من الفروج.

مزيد بيان لتوحيد الرحمن:

من دعا غير اللَّه فقد عبده:

ما يزال الذكرُ الحكيمُ يسمّي العبادة دعاءً ويعبّر به عنها. ذلك لأنه عبادة، فعبر عن النوع ببعض أفراده، وإنما اختير هذا الفرد ليعبر به عن النوع، لأن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها، فإن العابدَ يظهر ذُلَّه أمامَ عزّ المعبود، وفقرَه أمام غِناه، وعجزَه أمام قُدرتِه، وتمام تعظيمه له وخضوعه بين يديه، ويعرب عن ذلك بلسانه، بدعائه وندائه وطلبه منه حوائجه.

فالدعاء هو المظهر الدال على ذلك كله، ولهذا كان مخ عبادته.

---

(١) كما في حديث ابن مسعود مرفوعًا: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأني رسول اللَّه؛ إلا بإحدى ثلاث: الثيبُ الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه؛ المفارق للجماعة». أخرجه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦). وقد تقدم برقم (٧٩) مع الإشارة إلى شواهده.

وقد جاء التنبيه على هذا في السنة المطهرة.

فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«**الدعاء هو العبادة**»، **ثم قرأ**: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠][١٥٤].

رواه أحمد والترمذي وأبو داود- رحمهم الله- والنسائي وابن ماجه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«**الدعاء مخ العبادة**»[١٥٥]. رواه الترمذي رحمه الله.

فتطابق الأثر والنظر على أن الدعاء عبادة، فمن دعا غير الله فقد عبده، وإذا كان هو لا يسمي دعاءه لغير الله عبادة، فالحقيقة لا ترتفع بعدم تسميته لها باسمها وتسميته لها بغير اسمها، والعبرة بتسمية الشرع التي عرفناها من الحديثين المتقدمين لا بتسميته.

من دعا شيئًا فقد اتخذه إلهًا:

لما ثبت أن الدعاء عبادة، فالداعي عابد، والمدعو معبود، والمعبود إله، فمن دعا شيئًا فقد اتخذه إلهه، لأنه فعل له ما لا يفعل إلا للإله، فهو وإن لم يسمه إلهًا بقوله فقد سمّاه بفعله.

---

[١٥٤] صحيح:

تقدم برقم (٥٥).

[١٥٥] ضعيف بهذا اللفظ:

تقدم برقم (٥٦).

ألا ترى إلى أهل الكتاب لما اتبعوا أحبارهم ورهبانهم في التحليل والتحريم- وهما لا يكونان إلا من الرب العالم بالمصالح- قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٣١].

وإن كانوا لا يسمونهم أربابًا فحكم عليهم بفعلهم، ولم يعتبر منهم عدم التسمية لهم أربابًا بألسنتهم.

فكذلك يقال فيمن دعا شيئًا أنه اتخذه إلهًا نظرًا لفعله وهو دعاؤه.

ولا عبرة لعدم تسميته له إلهًا بلسانه.

وفي حديث عديّ بن حاتم الذي رواه الترمذي وغيره أنه قال للنبي ﷺ لما سمعه يقرأ هذه الآية: إنهم لم يكونوا يعبدونهم! فقال رسول اللَّه ﷺ:

«**أليس كانوا إذا حرّموا عليهم شيئًا حرّموه. وإذا أحلّوا لهم شيئًا أحلوه؟**»

قال: قلتُ: نعم- قال:

«**فتلك عبادتهم إياهم**»[١٥٦].

قال الإمام الجصاص[١]: «ولما كان التحليل والتحريم لا يجوز إلّا من جهة العالم بالمصالح ثم قلد هؤلاء أحبارهم ورهبانهم في التحليل والتحريم، وقبلوه منهم، وتركوا أمر اللَّه تعالى فيما حرم وحلل؛ صاروا متخذين لهم أربابًا إذ نزّلوهم في قبول ذلك منهم منزلة الأرباب» اهـ.

---

[١٥٦] حسن لغيره:

تقدم برقم (٥٣).

(١) في «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٤).

وعلى وزانه نقول: لما كان الدعاء عبادة، والعبادة لا تكون إلا للإله، كان الداعي لشيء من المخلوقات متخذًا إياه إلهًا لما نزّله بدعائه إياه منزلة الإله، سواء دعاه وحده دون اللَّه، أو دعاه مع اللَّه، والعياذ باللَّه.

تحذير وإرشاد:

ما أكثر ما تسمع في دعاء الناس: «يا رب والشيخ»! «يا رب وناس ربي»! «يا رب والناس الملاح».

وهذا من دعاء غير اللَّه مع اللَّه، فإياك أيها المسلم وإياه، وادع اللَّه ربك وخالقك وحده وحده وحده، وأنف الشرك راغم.

* * *

الوعيد بالعذاب الشديد

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٨- ٦٩]

المناسبة:

إذا أمر القرآنُ بشيء ذكر فائدته وثمرته للعباد في الدارين، وكذلك إذا نهى عن شيء ذكر مضرته وسوء عاقبته عليهم فيهما.

فلما ذكر في صدر الآية نفي تلك المعاصي عن عباد الرحمن الذي يفيد النهي عنها؛ ذكر هذا الوعيد لبيان سوء عاقبتها وقبح أثرها.

نكتة استطرادية:

هذه هي سنة القرآن في التربية، وهي أنجع الطرق في جعل المأمور والمنهي يمتثل للأمر والنهي من كل نفسه، ويعمل لتنفيذهما بعقله وإرادته.

فالتربية التي تنبني على امتثال الأمر والنهي من غير المعصوم والانقياد لهما انقيادًا أعمى[1]- مخالفة لتربية القرآن، والخير كله في اتباع القرآن في جميع ما يفيده القرآن.

---

(١) يشير شيخنا الإمام إلى التربية الصوفية المخالفة للكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، القائمة على تلقين المريد: (اعتقد ولا تنتقد)! و(من قال لِشيخه: لِمَ؟ لَمْ يفلح أبدًا)! و(المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي مغسِّله)!.

المفردات:

اسم الإشارة راجع للثلاثة المذكورة من قبل.

يلق: يقابل ويصادف وينل.

أثامًا: عقابًا جزاء على إثمه، فالآثام جزاء الإثم.

يضاعف: يُزاد له على الأصل فيعذب عذابين أو أنواعًا من العذاب.

ويخلد: يبقى، وطول البقاء يُسمّى خلودًا، كما قالت العرب في أثافي الصخور خوالد، لطول بقائها بعد دروس الأطلال، لا لدوام بقائها إذ لا دوام لها، وعلى هذا قول المخبّل السعدي[1]:

إلا رمادًا هامدًا دفعتْ عنه الرياحَ خَوالدٌ سُحْمُ

«المُهان»: الذليل المحتقر الذي يفعل به ما يذله ويحقره.

التراكيب:

يضاعف: بدل من يلق بدل كُلٍّ من كلٍّ، قال الخليل: لأن مضاعفة العذاب هي لقي الآثام.

وعندي أنه بدلُ بعضٍ مِنْ كُلٍّ، لأن لقي العذاب جزاء على تلك الآثام يكون في الدنيا والآخرة، ومضاعفة العذاب والخلود فيه تكون في الآخرة.

وبهذا تكون الآية قد أفادت أن المرتكب لما تقدم من المعاصي: الشرك

(١) هو ربيع بن مالك بن ربيعة، أبو يزيد السعدي، من تميم، شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، مات في خلافة عمر أو عثمان. الأعلام (٣/ ١٥).

وقتل النفس والزنى، ينال جزاءه دنيا وأخرى، وعذاب الآخرة المضاعف المستمر أشد وأبقى، وهذا هو الجاري على سنة القرآن في التخويف بسوء عاقبة المعصية عاجلًا وآجلًا، والتنبيه على أن الآجل أشد وأفدح من العاجل.

المعنى:

ومن يأت هذه الأفعال: فدعا مع اللَّه إلهًا آخر، أو قتل النفس التي حرم اللَّه بغير حق، أو زنى، فإنه يلقى وينال جزاء معصيته في دنياه وجزاءها في أخراه، ويكون عذابه عليها في الآخرة مضاعفًا مزيدًا عليه أنواع، ويستمر فيه باقيًا مذللًا محقرًا.

توجيه:

إنما ضُعِّف لأهل هذه الكبائر العذاب، لأن كل كبيرة منها مضاعفة المفاسد والشرور.

ففي دعاء غير اللَّه الجهل باللَّه، والكفر بنعمة اللَّه، والإبطال لحق اللَّه.

وفي قتل النفس تأييمٌ وتيتيمٌ وتأليمٌ لغير من قتل، وفتحٌ لبابِ شَرٍّ بين أولياء القاتل والمقتول، وتعدٍّ على جميع النوع، وتهوينٌ لهذا الجرم الكبير.

وفي الزنى جناية على النسل المقطوع، وعلى من أدخل عليهم من الزنى من ليس منهم، وعلى أصحاب الإرث في خروج حقهم لغيرهم.

وغير ما ذكرنا في جميعها كثير، فكانت المضاعفة من باب جعل الجزاء من جنس العمل، وهو من مقتضى الحكمة والعدل.

تذكير:

يذكّرنا القرآن بمضاعفة العذاب على كبائر الآثام، لنذكر عندما تحدَّثنا أنفسنا بالمعصية سوء عاقبتها، وتعدد شرورها، وتشعب مفاسدها، ومضاعفة العذاب بحسب ذلك عليها، لنزدجر وننكف، فنسلم من الشر المتراكم، والعذاب المضاعف، ونفوز بأجر التذكر وثمرة التذكير.

جعلنا اللَّه والمسلمين ممن انتفع بالذكرى، وسلم من فتن الدنيا والأخرى، بمنِّه وكرمه. آمين[1].

* * *

---

(١) الشهاب (ج١١، م٨) رجب ١٣٥١هـ - نوفمبر ١٩٣٢م.

استثناء التائبين من المذنبين

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفُرقان: الآية ٧٠]

سبب النزول:

أخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما - واللفظ لمسلم - قال ابن عباس:

«نزلت هذه الآية بمكة ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفُرقان: الآية ٦٨] إلى ﴿مُهَانًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٩] فقال المشركون: وما يغني عنا الإسلام وقد عدلنا بالله؟ وقد قتلنا النفس التي حرم الله وأتينا الفواحش؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ إلى آخر الآية»[١٥٧].

المناسبة:

لما ذكر تعالى عظائم الذنوب وأكبر كبائرها، وتوعَّد بالوعيد الشديد عليها، عقبها بذكر التوبة منها ورغب فيها، لينبِّه عباده على طريق الرجوع إليه، وأن من تاب منهم إلى الله تاب الله عليه.

المفردات:

«التوبة»: الرجوع إلى الله أي: الرجوع من معصية الله إلى طاعته، وذلك

---

[١٥٧] صحيح:

رواه البخاري (٤٧٦٥) ومسلم (٣٠٢٣)(١٩) عن ابن عباس.

بالندم على ما فات، والعزم على عدم العود إليه، وهذان من عمل القلب، وبالإقلاع عما هو متلبس به، وهذا من عمل الجوارح.

«الإيمان»: عند ما يُذكَر مع الأعمال يُراد به تصديق القلب ويقينه واطمئنانه بعقائد الحق.

و«العمل الصالح»: هو العمل الطيب المشروع من طاعة اللّٰه على العباد، سواء كان من عمل الباطن وهو عمل القلب، أو من عمل الظاهر وهو عمل الجوارح.

والعمل الصالح من ثمرات الإيمان الدال وجودها على وجوده، وكمالها على كماله، ونقصها على نقصه، وعدمها على اضطرابه ووشك انحلاله واضمحلاله.

«التبديل»: التحويل فتجعل الحسنة مكان السيئة.

«الغفور»: الستار للذنوب المتجاوز عنها.

«الرحيم»: المنعم الدائم الإنعام[1].

التراكيب:

إلا من تاب: استثناء مِن (مَن يفعل) استثناء متصلًا لأن الذي يتوب من جملة من فعل.

والفاء في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ تفريعية لتفرع التبديل على التوبة، وعاطفة لجملة

(١) انظر لزامًا ما علقناه (ص١٥-١٦ و٨٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ على جملة استثني التي قامت مقامها إلا . كما عطفت عليها الجملة الأخيرة ﴿وَكَانَ﴾ ، ونظير هذا : من يقم منكم فله درهم إلا زيدًا فله درهمان .

المعنى:

يُستثنى من ذلك الوعيد الشديد بمضاعفة العذاب والخلود فيه مهانا من رجع إلى اللَّه من الشرك وقتل النفس والزنى بالتوبة الصادقة، وشفع توبته بالعمل الصالح الدال على صدق تلك التوبة .

فهؤلاء بتوبتهم وعملهم الصالح يقبلهم اللَّه، ويجعل مكان سيئاتهم حسنات، وكان اللَّه غفورًا يتجاوز عن ذنوب عباده، فقد تجاوز عما كان منهم من شرك أو قتل أو زنا، رحيمًا منعمًا على عباده، فقد أنعم عليهم بالحسنات مكان ما تقدم من سيئاتهم .

ترتيب وتوجيهه:

يكون العاصي في غمرات معصيته، فإذا ذكر اللَّه ووفقه اللَّه أسف على حاله ورجع إلى ربه، وهذه أول الدرجات في توبته .

فإذا استشعر قلبُه اليقينَ واطمأن قلبُه بذكر اللَّه صمَّم على الإعراض عن المعصية والإقبال على الطاعة .

فإذا كان صادقًا في هذا العزم فلابد أن يظهر أثر ذلك على عمله .

فلهذا روعيت الحالة الأولى فذُكرت التوبة، والثانية فذُكر الإيمان، والثالثة فذكر عملُ عملٍ صالح .

تأييد واقتداء:

روى الأئمة عن كعب بن مالك رضي الله عنه أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا أنه لما جلس بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعدما تاب اللَّه عليه قال: يا رسول اللَّه، إن من توبتي أن أنخلع من مالي إلى اللَّه، وإلى رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**». قال: قلتُ: فإنني أمسك سهمي الذي بخيبر[١٥٨].

فهذا الصحابي الجليل رأى أن من توبته أن يعمل هذا العمل الصالح ليكون دليلًا على صدق توبته كما اقتضته الآية، فتأيد بفهمه ما قدمنا، وكان خير قدوة للتائبين.

وجوه التبديل:

لما كانت السيئة لا تنقلب حسنة، كان معنى التبديل هو جعل الحسنة مكان السيئة وهذا على وجوه:

أولها: محو السيئات الماضية بالتوبة، وكتابة حسنة التوبة وما فيها من عمل باطن وظاهر كما تقدم.

وثانيها: تركه المعصية وإتيانه بالعمل الصالح، فصار يعمل الصالحات بعد ما كان يعمل السيئات.

---

[١٥٨] صحيح:

قطعة من حديث رواه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) مطولًا عن كعب بن مالك.

وثالثها: أن نفسه كانت بالمعصية مظلمة شريرة، فتصير بالتوبة والعمل الصالح منيرة خيرة.

فالتبديل في الكتب والعمل وحالة النفس.

مسألتان أصوليتان:

الأولى: هل يخرج غير التائب من النار؟

استثنى اللّه التائب من مضاعفة العذاب والخلود فيه مهانًا، فبقي غير التائب للخلود.

والخلود كما قدمنا في الآية السابقة طول البقاء ولا يقتضي التأبيد، فقد يكون معه التأبيد وقد لا يكون، فمع التأبيد لا خروج، ومع عدمه الخروج.

وغير التائب الذي بقي للخلود المطلق في الآية هو المشرك والقاتل والزاني.

فأما المشرك فلا خروج له من النار لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨ والآية ١١٦].

وأما القاتل والزاني إذا كانا من أهل الإيمان، فإنهما يخرجان بعد شديد العذاب بما معهما من الإيمان لأحاديث صحيحة، منها:

ما رواه الشيخان: البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه:

«**يخرج من النار من قال لا إله إلا اللّه وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا اللّه، وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرّة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا اللّه وكان في قلبه من الخير**

ما يزن ذرة»[١٥٩].

زاد البخاري في رواية قتادة عن أنس: «من إيمان» مكان «خير».

وهذا من عدل اللَّه ورحمته، فإنه أذاقهم من العذاب الشديد والهوان المخزي جزاءهم، ثم أخرجهم من النار وما أضاع عليهم إيمانهم، إنّ اللَّه بالناس لرؤوف رحيم.

الثانية: هل لقاتل النفس ظلمًا وعدوانًا من توبة؟

ذهب ابن عباس في المشهور عنه الذي رواه الشيخان وغيرهما أنه لا توبة له[١٦٠].

---

[١٥٩] صحيح:

رواه البخاري (٤٤و٧٤١٠) ومسلم (١٩٣) - (٣٢٥) من طريق هشام عن قتادة عن أنس.

وأما الرواية الأخرى فعلّقها البخاري إثر الرواية الموصولة في الموضع الأوّل فقال: قال أبان: حدثنا قتادة حدثنا أنس عن النبي ﷺ: «من إيمان» مكان «من خير».

قال الحافظ في «الفتح» (١/ ١٤٠-١٤١):

«وهذا التعليق وصله الحاكم في «كتاب الأربعين» له من طريق أبي سلمة قال: حدثنا أبان بن يزيد .. فذكر الحديث.

وفائدة إيراد المصنف له من جهتين:

إحداهما: تصريح قتادة فيه بالتحديث عن أنس.

ثانيتهما: تعبيره في المتن بقوله: «من إيمان» بدل قوله «من خير» فبين أن المراد بالخير هنا الإيمان.

فإن قيل: على الأولى لِمَ لَمْ يكتف بطريق أبان السالمة من التدليس ويسوقها موصولة؟

فالجواب: أن أبان وإن كان مقبولًا لكن هشام أتقن منه وأضبط، فجمع المصنف بين المصلحتين واللَّه الموفق».

وانظر - غير مأمور - «تغليق التعليق» (٢/ ٤٩-٥٠) له أيضًا.

[١٦٠] صحيح:

رواه البخاري (٤٧٦٤) ومسلم (٣٠٢٣) (١٩) و (٢٠) من طريقين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وقال في هذه الآية أنها نزلت في المشركين[١٦١]، وذكر سبب نزولها كما تقدم، وقال- إثره-: فأما من دخل في الإسلام وعقله ثم قتل فلا توبة له.

وقال في هذه الآية: إنها آية مكية نسختها آية مدنية[١٦٢]، وهي آية الفرقان(١): ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٣].

ومراده بالنسخ التخصيص، يعني أن لفظة «مَن» في ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عامة تشمل القاتل فتقتضي بعمومها أن له توبة، وأن آية الفرقان(٢) التي جاءت في القاتل خصصتها وأخرجته من عمومها.

قال ابن رشد- بنقل الأُبِّي-: «وإلى هذا ذهب مالك لأنه قال: (لا يؤم القاتل وإن تاب)(٣) قال ابن رشد: وهذا لأن القتلَ فيه حقٌّ للَّه وحق للمقتول، وشرط التوبة من مظالم العباد ردُّ التبعات أو التحلل، وهذا لا سبيل للقاتل إليه إلا بأن يعفو عنه المقتول قبل القتل»(٤) اهـ.

وذهب جمهور السلف وأهل السنة إلى أن للقاتل توبة، ونظروا في هذه الآية إلى عموم لفظها لا إلى خصوص سبب نزولها، وجعلوا عموم ﴿وَمَن

---

[١٦١] صحيح:
رواه البخاري (٤٧٦٦) ومسلم (٣٠٢٣)- (١٨) و(١٩) عنه.
[١٦٢] صحيح:
رواه البخاري (٤٧٦٢) ومسلم (٣٠٢٣) (٢٠) عنه.
(١) كذا في الأصل!
(٢) كذا في الأصل!
(٣) شرح الأُبيّ على صحيح مسلم (٩/ ١٨١).
(٤) شرح الأُبيّ على صحيح مسلم (٩/ ١٨١).

﴿يَقۡتُلۡ﴾ في آية الفرقان(١) مخصصًا بمن تاب المستثنى في هذه الآية.

فابن عباس خصص «من تاب» بـ«من يقتل»، وهم عكسوا فخصصوا «من يقتل» بـ«من تاب».

ورجّح تخصيصَهم العموماتُ الدالةُ على قبول التوبة من كل مذنب مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١١٠]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ(٢) ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشّورى: الآية ٢٥]. وقوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غَافر: الآية ٣]. وحديث **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»**[١٦٣] في عمومات كثيرة، والظواهر إذا كثرت تفيد القطع.

قدوة في الفتوى:

قال ابن رشد: «كان ابن شهاب إذا سئل يستفهم السائل ويطاوله، فإن ظهر له أنه لم يقتل يفتيه بأنه لا توبة له، وإن تعرف بأنه قتل أفتاه بأن التوبة تصح»(٣).

---

(١) كذا في الأصل!

(٢) في الأصل: «إن اللَّه يقبل»!

[١٦٣] حسن لغيره:

رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٨٥/ ١٠٢٨١) كلاهما من رواية أبي عبيدة بن عبد اللَّه بن مسعود عن أبيه، ولم يسمع منه، ورُواة الطبراني رُواة «الصحيح».

كذا في «الترغيب و الترهيب» للمنذري.

وقال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٣١٣):

«ورجاله ثقات، بل حسَّنه شيخنا - يعني الحافظ ابن حجر - يعني لشواهده».

ثم ساق بعضها فلتراجع ثمة، واللَّه ولي التوفيق.

(٣) شرح الأُبيّ على صحيح مسلم (٩/ ١٨١).

قال ابن رشد: «وإنه لحسن من الفتوى»[١].

فهكذا ينبغي مراعاة الأحوال في تنزيل الأقوال، فإن من لم يقتل يجب التشديد عليه وسدُّ الباب في وجهه، ومن قتل ينبغي ترغيبه في الرجوع إلى اللَّه.

وفي مراعاة هذا الأصل والاقتداء بهذا الإمام فوائد كثيرة في الحث على الخير والكف عن الشر، والحكيم من ينزّل الأشياء في منازلها، كانت أعمالًا أو كانت أقوالًا.

ترهيب:

ما أعظم هذا الذنب وما أكبره! ونعوذ باللَّه من ذنب اختلف أئمة السلف في قبول توبة مرتكبه، وقد أجمعوا على قبول توبة الكافر.

ولعظم شأن الدماء كانت أوّل ما يُقضَى فيه يوم القيامة بين الخلق[٢].

فإيَّاك أيها الأخ أن تلقى اللَّه تعالى بمشاركة في سفك قطرة من دم ظلمًا ولو بكلمة فإن الأمر صعب والموقف خطير!!

* * *

(١) شرح الأُبيّ على صحيح مسلم (٩/ ١٨١).

(٢) كما في الحديث الصحيح: «أول ما يقضى بين الناس [يوم القيامة] في الدماء».
أخرجه البخاري (٦٥٣٣ و٦٨٦٤)، ومسلم (١٦٧٨) والزيادة له، عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

بشارة التائبين إلى رب العالمين

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفُرقان: الآية ٧١] .

المناسبة:

لما أفادت الآية السابقة أن التوبة تمحو السيئات؛ جاءت هذه الآية إثرها تبين ما لأهلها من جزيل الإنعامات وعظيم الدرجات.

المفردات:

«المتاب»: مصدر كالمرجع.

التراكيب:

خالف جواب الشرط وهو ﴿يَتُوبَ﴾ فعل الشرط وهو ﴿تَابَ﴾ بمتعلقه وهو ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ومعموله وهو ﴿مَتَابًا﴾، وعبر بالمضارع في الجواب ليفيد التجدد باعتبار تجدد المثوبات للراجعين إلى اللَّه، ونوّن ﴿مَتَابًا﴾ تنوين تفخيم وتعظيم.

المعنى:

ومن تاب التوبة الصادقة وعمل عملًا صالحًا دليلًا على صدق توبته، فإنه يرجع إلى اللَّه الذي يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحسن لقاءهم، ويجزل ثوابهم- رجوعًا وأيّ رجوع: رجوع العز والتكريم إلى الحليم الكريم.

ترغيب:

دعا اللَّه بهذا عباده المذنبين حتى لا يتسرب القنوط إلى قلوبهم، وهو محرم عليهم، ولا يحول بينهم وبين خالقهم ذنب وإن عظم، ورغبهم في التوبة بأنها رجوع إليه وكفى، وأن الرجوع إليه فيه من الخير والشرف فوق ما تصوره الألفاظ.

فما أحلمه من رب كريم، وما أرحمه بعباده المذنبين!

فهذا داعي اللَّه فأجيبوه، وهذا باب اللَّه فَلِجُوه، فإنكم مهما رجعتم إليه لا تُطردوا، ومهما قصدتم إليه تُقبلوا وتُكرَموا.

اللَّهم فكما فتحتَ لنا بابك؛ فوفقنا إليه، وتب علينا لنتوب، إنك أنت التواب الرحيم[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١٢، م٨) شعبان ١٣٥١هـ - ديسمبر ١٩٣٢م.

الصفة التاسعة

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفُرقان: الآية ٧٢] .

المناسبة:

لما وصفهم بالصفات المتقدمة الدالة على كمال أخلاقهم، واستقامة أعمالهم، في ظواهرهم وبواطنهم، بانبنائها على قوة إيمانهم، وصحة علمهم، فكانوا أهل الحق المتصفين به في علمهم وعملهم، القائمين عليه في جميع أحوالهم؛ وصفهم هنا ببعدهم عن الباطل ومشاهده، ومجانبتهم لأهله.

المفردات:

«الشهود»: هو الحضور الذي يكون فيه إدراك بالحواس أو البصيرة.

و«الشهادة» هي الإخبار عن علم حصل عن شهود.

و(لا يشهدون): يحتمل أن يكون من الشهود وأن يكون من الشهادة.

والزور: أصله الميل، ويطلق على الكذب، لأنه ميل عن الحقيقة، وعلى كل باطل من الأقوال والأعمال لأنه ميل عن الحق.

التراكيب:

إذا كان ﴿لَا يَشْهَدُونَ﴾ بمعنى لا يحضرون، فالزور مفعول به، وإذا كان بمعنى لا يخبرون فالزور مفعول مطلق بعد حذف المضاف، والأصل:

ولا يشهدون شهادة الزور.

المعنى:

على الاحتمال الأول- والذين لا يحضرون مشاهدة الباطل والإثم من كل مجلس تُتعدى فيه الحدود، أو تُنتهك فيه الحرمات، أو يُحكم فيه بالجور، أو تُعظّم فيه الطواغيت، أو يُدعى فيه بدعوى الجاهلية، أو تحيا فيه معالم الوثنية، أو تُطمس فيه السنة النبوية، أو يُدعى فيه أحدٌ مع اللَّه، أو يُضرع إلى سواه.

وعلى الاحتمال الثاني- والذين لا يشهدون شهادة الزور ولا يخبرون إلا بالحق الواقع.

ترجيع وترجيح:

يلزم من أنهم لا يشهدون مشاهدة الباطل أنهم لا يشهدون بالزور لوجهين:

الأول: لأنهم إذا كانوا لا يحضرون مجالس الباطل، فبالأحرى أنهم لا يقولونه.

والثاني: أن مشهد شهادة الزور من مشاهد الباطل التي لا يحضرونها، فيكون الوجه الأول أولى لأنه أشمل.

توسع في البيان:

على أنه من بلاغة القرآن أن تأتي مثل هذه الآيات بوجوه من الاحتمالات متناسبات غير متناقضات، فتكون الآية الواحدة بتلك الاحتمالات كأنها آيات، نظير مجيء الآية بقراءتين: فتكون كآيتين.

مثل قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحُجرَات: الآية ٦] - فتثبتوا[١].

وقوله تعالى في آية الوضوء: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ [المَائدة: الآية ٦] بالنصب[٢] عطفًا على الوجه، فيفيد غسل الأرجل، وتلك هي الحالة الأصلية العامة.

وبالخفض عطفًا على الرؤوس، فيفيد مسح الأرجل، وتلك هي حالة الرخصة عند لبس الخفاف.

فتكون هذه الآية باحتمالها مفيدة تنزههم عن شهود الباطل وعن شهادته.

موعظة:

قال جار اللَّه في «الكشاف»[٣] عن هؤلاء الموصوفين من عباد الرحمن:

«إنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين، فلا يحضرونها، ولا يقربونها، تنزهًا عن مخالطة الشر وأهله، وصيانةً لدينهم عما يثلمه، لأن مشاهدة الباطل شركة فيه، ولذلك قيل في النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة: هم شركاء فاعليه في الإثم، لأن حضورهم [ونظرهم] دليل الرضا به وسبب وجوده والزيادة فيه، لأن الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة

(١) وهي قراءة حمزة والكسائي، من التثبت؛ وقرأ الباقون: (فتبينوا) من التبيين. كذا في «تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٢).

(٢) وهي قراءة نافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم، ويعقوب. وبكسر اللام قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم.
كذا في «زاد المسير» (٢/ ٣٠١) لابن الجوزي. وانظر «أضواء البيان» (٢/ ٦) للشنقيطي.

(٣) في (٣/ ١٠٥)، والزيادة بين المعقوفين استدركت منه.

ورغبتهم في النظر إليه». اهـ.

وهذا كما قال، فإن حضور مشاهد الباطل إقرار لأهلها عليها، وترك للنهي عن المنكر، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ [المائدة: الآية ٧٨- ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٦٨].

فتعم الآية كل ظالم. فلا تجوز لأحد مجالستهم مع ترك النكير عليهم، ولا يكفي أن ينكر ويجلس لأنه يكون ببقائه معهم قد أظهر ما يدل على الرضا بفعلهم، ونقض بالفعل إنكارَه عليهم بالقول.

وروى الطبراني والبيهقي بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا يقفن أحدكم موقفًا يُقتَل فيه رجلٌ ظلمًا فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفن أحدكم موقفًا يُضرب فيه رجلٌ ظلمًا، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه»[١٦٤].

---

[١٦٤] ضعيف:

رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٢٦٠) من طريق مندل بن علي عن أسد بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعًا.

وهذا إسناد ضعيف، وفيه علتان:

الأولى: أسد بن عطاء، قال الأزدي: مجهول، وقال العقيلي: «لا يتابع على حديثه» كذا في «الميزان» (١/ ٢٠٦) للذهبي. =

فأخبر أن اللعنة تنزل على الحاضرين لعدم دفعهم، واقتضى أنهم غير راضين بقلوبهم، وأحرى إذا رضوا.

فلا يجوز من هذا الحديث وغيره حضور الظلم والقبائح مع عدم دفعها ولو مع عدم الرضا بها.

وروى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه- لما وصلوا الحجر ديار ثمود-:

«لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلَّا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم»[١٦٥].

فإذا كان هذا فيمن ماتوا من أهل العذاب، فمثلهم مجالس أهل السوء والفساد، فإذا نزلت اللعنة والعذاب عمتهم ومن كان معهم.

وشهادة الزور المرادة بالنص على الوجه الثاني أو اللزوم على الوجه الأول من أكبر الذنوب إثمًا، وشر الكبائر مفسدةً، تنقلب بها الحقائق، وتضيع بها الحقوق، وتبطل المعاملات، وتزول الثقة بين الناس، وتتعرض النفوس

= والأخرى: مندل بن علي، ضعيف كما في «التقريب» للحافظ.

وقال الهيمثي في «المجمع» (٨/ ٢٨٤):

«رواه الطبراني، وفيه أسد بن عطاء، قال الأزدي: مجهول، ومندل وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات».

ومنه تعلم أن قول المصنف: «إسناد حسن» تبعًا للمنذري في «الترغيب»، ليس بحسن، والعلم عند الله تعالى.

[١٦٥] صحيح:

رواه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٢٩٨٠) عن ابن عمر.

والأموال والأعراض للأذى والشر، وتنعدم طمأنينة الناس على ما يعلمون من أنفسهم.

وصح عنه- عليه وآله الصلاة والسلام- أنه قال:

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله وعقوق الوالدين، ألا وشهادة الزور وقول الزور».

وكان متكئًا فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا (شفقة عليه): ليته سكت[١٦٦].

فجلس لها، وبقي يكررها لعظم شرها، وكبر مفسدتها، وعظم الإثم فيها على حسب ذلك منها.

أعاذنا الله والمسلمين منها، ومن كل زور وذي زور.

* * *

---

[١٦٦] **صحيح:**

رواه البخاري (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧) عن أبي بكرة ﷺ.

وقد تقدم برقم (٥٧) مختصرًا.

الصفة العاشرة

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٧٢]

المناسبة:

نفى عنهم فيما تقدم حضور مشاهد الزور، وأخبر هنا أنهم لا يقفون عند اللغو عندما يمرون عليه، ترقيًا في وصفهم بالبعد عن الباطل والإثم والعبث ومجانبة أهله.

المفردات:

اللَّغْو: مصدر لغا يلغو، أي قال باطلًا فهو القول الباطل، ومثله الفعل الباطل من كل ما لا فائدة فيه ولا نتيجة له، مما شأنه أن يُلغى ويُطرح.

والكريم: الخالص العنصر فهو الزكي غير المتدنس، ومن مقتضى ذلك حسن أخلاقه، واستقامة أعماله، وسلامته من الرذائل.

التراكيب:

كرامًا: حال من فاعل مَرُّوا الثاني ليبين وصفهم عند المرور.

المعنى:

وإذا مروا في طريقهم بقول يُقال، أو فعل يُفعَل، مما لا فائدة فيه جاوزوه معرضين عنه، أزكياء غير متدنسين بشيء منه، ولا ملتفتين لأهله.

موعظة:

في الإقبال على اللغو شغل للبال به، وتكدير للخاطر بظلمته، وتضييع للوقت فيه.

ولكل كلمة تسمعها أو فعلة تشهدها أثرٌ في حياتك وإن قلّ، وقد يعقبها ضدها، فتزول بعد ما شغلت وعطلت، وقد يردفها مثلها، فتثبت وتنمو وتسوء عاقبتها ولو بعد حين.

وبقدر ما تلتفت إلى اللغو تلتفت عن كرمك، وبقدر ما يعلق بك منه ينقص من زكائك، وبقدر ما تتساهل بالوقوف عليه تقرب من الدخول فيه، وإذا دخلت فيه واستأنست بأهله جرّك إلى الزور وعظائم الأمور.

وللشر أسباب متواصلة، وأنساب متصلة، يؤدي بعضها إلى بعض، فينتقل المغرور الغافل من خفيِّها إلى جليِّها، ومن صغيرها إلى كبيرها، فالحازم من لم يسامح نفسه في قليلها، وتباعد كل البعد عنها وعن أهلها.

وقد هدتنا الآيات هذه لنهتدي، وذكرت عباد الرحمن لنقتدي، والله المستعان، ولا توفيق إلا به[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٢، م٩) غرة شوال ١٣٥١هـ - فيفري ١٩٣٣م.

الصفة الحادية عشرة

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: الآية ٧٣] .

المناسبة:

لما وصفهم فيما تقدم بإعراضهم عن الباطل ومجانبتهم لأهله وبعدهم عنه؛ وصفهم هنا بإقبالهم على الحق وإكبابهم عليه، متفهمين مستبصرين .

الألفاظ:

ذُكِّروا : وُعِظوا ونُبِّهُوا .

بآيات ربهم : هي آيات القرآن . وفيها التذكير بآيات الأكوان التي تُرى بالعيان .

«الخرور» : هو السقوط كسقوط الساجد .

«الأصم» : فاقد حاسة السمع ، أو الذي لا يتدبر ما يسمع فلا ينتفع به ، وهو المراد هنا .

و«الأعمى» : فاقد حاسة البصر ، أي الذي لا يعتبر فيما يبصر فلا ينتفع به ، ويكون الأعمى بمعنى فاقد الإدراك القلبي ، وهو عمى البصيرة ، وما هنا يحتمل الوجهين الأخيرين .

التراكيب:

عبّر بإذا لأن التذكير مما هو واقع محقق، كالذي يُسمَعُ من القرآن في الصلاة ومن الخُطَب في الجمع.

وبنى الفعل للنائب لأن التذكير بالآيات يجب قبوله من أي مذكِّر كان.

وصمًّا وعميانًا: حال من الواو ضمير الجماعة في ﴿لَمْ يَخِرُّواْ﴾، والنفي منصب على الحال التي هي قيد في الكلام.

وإذا كان الكلامُ مقيدًا بقيد كما هنا فإن النفي ينصب على ذلك القيد في غالب الاستعمال العربي.

ونظيره ما رأيتُ زيدًا راكبًا. نفيًا للركوب لا للرؤية؛ ولا يلقاني مُسَلِّمًا، نفيًا للسلام لا للقاء.

فلم ينف عنهم الخرور، وإنما نفى عنهم الصمم والعمى عند الخرور.

المعنى:

ومن صفات عباد الرحمن أنهم إذا ذَكَّرهم مُذَكِّرٌ بآيات ربهم التي أنزلها على نبيهم ﷺ بما فيها من ذكر مخلوقاته وإنعاماته، وأيامه في أوليائه وأعدائه، ووعده ووعيده، وترغيبه وترهيبه، أقبلوا عليه وأكبوا على سماعها بآذان واعية، وأبصار راعية، وقلوب حاضرة، وعقول متدبرة، لا كمن يقبلون عليها ويكبون على سماعها، ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون، لأنهم لا يعقلون ولا يتدبرون.

عموم الحاجة للتذكير:

بعدما ذكر تعالى من صفات عباد الرحمن ما ذكر، ذكر استماعهم للتذكير تنبيهًا على أن التذكير محتاج إليه في كلِّ حالٍ، فإذا كان الموصوفون بتلك الصفات يحتاجون إليه فغيرهم أولى، وذلك لأن الغفلة من طبع الإنسان، ودوام الغفلة صدأ القلوب، وصقالها هو التذكير.

قبول التذكير من كُلِّ مُذَكِّر:

كما تُقبل كلمةُ الحقِّ من كلِّ قائل، كذلك يُقبل التذكير من كلِّ مذكِّرٍ، ولو كان المذكَّر من كمَّل العباد والمذكِّر من أوساطهم أو أدناهم، وفي عباد الرحمن المذكورين في استماعهم إذا ذُكِّروا من أيِّ مذكِّرٍ، القدوةُ الحسنةُ.

ما يكون به التذكير:

قال اللّه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ٤٥]، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: الآية ١٧]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: الآية ٧].

فالتذكير بآيات القرآن والأحاديث النبوية، هذا هو التذكير المشروع المتبوع، والدواء الناجع المجرَّب، ولذلك تجد مواعظ السلف كلها مبنية عليه راجعة إليه، والنصح للّه ولرسوله وللمسلمين في لزوم ذلك والسير عليه.

أقسام الناس عند التذكير:

الناس عند تلاوة آيات القرآن على قسمين: معرضين ومقبلين.

فالمعرضون غير المؤمنين.

والمقبلون على قسمين:

مقبلين بظاهرهم دون باطنهم، ومقبلين بظاهرهم وباطنهم.

فالمقبلون بظاهرهم دون باطنهم هم المنافقون، والمقبلون بظاهرهم وباطنهم على قسمين: مستمعين مستبصرين حاضرين متدبرين، وغافلين غير متدبرين غير سامعين ولا مبصرين.

والأقسام كلها مذمومة إلا قسم المقبلين بظواهرهم وبواطنهم المستمعين المستبصرين، وهذا القسم هو الذي وصف به عباد الرحمن، فكانوا مباينين لأهل الإعراض من الكافرين والمنافقين، ولأهل الغفلة وعدم التدبر من المؤمنين.

تحذير وتنبيه:

قد صوّرت الآية حالة المؤمن بالقرآن الذي ينكب عليه ويتلقاه بالقبول، ثم لا يتفهمه ولا يتدبره، بحالة الأصم الأعمى في عدم انتفاعه بما انكب عليه تقبيحًا لعدم التفهم والتدبر من المؤمن للآيات، وتحذيرًا منه وتنبيهًا على أن الانتفاع بالقرآن الذي تتفتح به البصائر، وتتسع به المدارك، وتتهذب به الأخلاق، وتتزكى به النفوس، وتتقوم به الأعمال، وتستقيم به الأحوال، إنما يكون بتفهمه وتدبره دون مجرد الانكباب عليه بلا تفهم ولا تدبر.

أمر وإرشاد:

الآيات الدالة على طلب التدبر والتفهم لآيات القرآن العظيم كثيرة، منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟

ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: الآية ٢٩] .

فعلينا أن نحضر قلوبنا عند سماعها ، ونستعمل عقولنا في فهمها ، ونحمل أنفسنا على الاتعاظ بها ، فإذا صدقت النية وأخلص التوجه فتح على العبد من وجوه العلم والعمل- بإذن اللَّه- بما لم يكن له في بال .

وإن اللَّه وصف هذا الكتاب بأنه مبارك لزيادة خيراته وتيسيره للذاكرين ، ترغيبًا لنا في فهمه وتدبّره ، واستنزال الخيرات واستزادة البركات منه .

فأقبل- يا أخي- على القرآن : على استماعه وعلى تفهمه ، والزم ذلك حتى يصير عادة لك وملكة فيك- تر من فضل اللَّه وإقباله عليك ما يدنيك- إن شاء اللَّه- ويعليك ، ويعود بالخير الجزيل عليك .

واللَّه نسأل لنا ولكم الإقبال على اللَّه بتلاوة وتدبر كتابه ، والتأدب بجميع آدابه ، حتى نحشر في زمرة أحبابه ، بمنّه وكرمه . آمين[1] .

* * *

(١) الشهاب (ج٣، م٩) غرة ذي القعدة ١٣٥١هـ - مارس ١٩٣٣م.

الصفة الثانية عشرة

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفُرقان: الآية ٧٤].

المناسبة:

لما وصفهم في الآيات المتقدمة بما دل على أنهم أهل خير وكمال في أنفسهم، وصفهم في هذه بما دل على محبتهم الخير والكمال لغيرهم من قرابتهم: أزواجهم وذريتهم ومن سواهم، وقدم الأزواج على الذرية لأنهم ألصق ولأنهم الأصل.

فقه هذه المناسبة:

فُطِر الإنسانُ على محبته لنفسه لتحمله هذه الفطرة على المحافظة عليها، والدفاع عنها، وتكميلها بكل وجوه الكمال، وكان من مقتضى هذه المحبة رغبته في الوجود والبقاء.

ومما هو قوة في وجوده ومظهر لبقائه أن يرى الناس على فكره وصفاته وأحواله، فيرى نفسه ممثلة في غيره، وأفكاره، وصفاته، وأحواله، باقية ببقاء الناس.

فالخيِّرُ الكاملُ من طبعه ومن مقتضى فطرته أنه يحبّ انتشار الخير والكمال في الناس.

والشرير الناقص من طبعه ومن مقتضى فطرته أنه يحب انتشار الشر والنقص فيهم، فلذا كان لازمًا لتتميم وصف عباد الرحمن ذكر محبتهم الخير والكمال لغيرهم.

ميزان مِن هذه المناسبة:

قد تخفى عليك دخيلة نفس الإنسان فيمكنك أن تعرفها بما يجري به لسانه، فإذا جرت كلماته بمحبّة انتشار الخير والكمال فهو من أهلهما، وإذا جرت بالضد فهو على الضد.

فما يحب الإنسان انتشاره هو الدليل على صفات نفسه، وهو ميزان تزنه به في الشر والخير، والنقص والكمال.

المفردات:

«الهبة»: العطاء من غير عوض، ولا تكون على الحقيقة التامة إلا من اللّه، فهو الغني الوهاب.

«من»: ابتدائية، فمن ناحية الأزواج والذرية تكون قرة الأعين.

«الأزواج»: جمع زوج، وهو يصدق على الرجل والمرأة، والنساء شقائق الرجال.

وهذا الدعاء كما يكون من المؤمنين يكون من المؤمنات، كما تصدق الآيات المتقدمة على الموصوفين من الصنفين بتلك الصفات.

«الذرية»: ما تناسل منهم من أبنائهم وبناتهم، وقرئت بالإفراد لاتحادها في أصل النسل، وبالجمع لاختلافها في الفروع والأنساب.

«قرة الأَعْيُن»: بردها إن كانت من القر وهو البرد. وسكونها إن كانت من القرور بمعنى الاستقرار.

«الإمام» هو المتبع المقتدى به، وأُفرد لأن المراد به الجنس، وحسن الإفراد من جهة اللفظ لوقوعه فاصلة على وزان ما قبلها وما بعدها، ومن جهة المعنى أن أئمة الهدى كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم بالسير على الصراط المستقيم، واتحاد وجهتهم بالقصد إلى اللَّه تعالى وحده.

التراكيب:

قرة أعين: تركيب كنائي.

فإذا كانت القرة من القر فهو كناية عن السرور لأن العين في حالة السرور باردة، وإذا سالت منها دموع في حالة الفرح كانت باردة.

وإذا كان الإنسان في حالة حزن، فالعين تكون سخنة بسبب ثورة النفس وآلامها التي تثير الحرارة، فإذا سالت منها دموع الحزن كانت سخنة.

ومما يقال على هذا: أقر اللَّه عين المُحِقّ وأسخن عين المبطل، وجاء عليه قول أبي تمام:

فأمّا عيونُ العاشقينَ فأُسخنتْ وأما عيونُ الشامتينَ فَقَرَّتِ

فقرة أعينهم على هذا كناية عن سرورهم بأزواجهم وذريتهم بما يرونهم عليه من الخير والكمال، وإعانتهم لهم عليهما.

وإذا كانت القرة من القرور، فهي كناية عن سكون النفس بحصولها على ما يرضيها من الأزواج والذرية، ومعنى هذا أن النفس إذا لم تحصل على ما يرضيها تعلقت بما عند غيرها، وتشوَّفت إليه فتمتد إليه العين، ويطمح إليه

البصر، وإذا حصلت على ما يرضيها زالت عن ذلك التعلقِ، وانكفت عن التشوُّف، فسكنت العين فلم تمتد إلى غير ما عندها، ولم يطمح البصر إليه.

ولهذا كما كان قرور العين كناية عن رضى النفس وسكونها، كان امتداد العين كناية عن اضطراب النفس وتشوُّفها وتعلُّقها، وعليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: الآية ١٣١].

فقرة أعينهم على هذا كناية عن رضى أنفسهم بما يكون لهم من أزواج وذرية، موصوفين بالصفات المرضية، من طاعة اللّٰه في القيام بوظائف الدين والدنيا، وإعانتهم لهم على القيام بها.

المعنى:

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يدعون ربهم يسألونه أن يهب لهم أزواجًا وذرية تقر بها أعينهم، بأن يكونوا موصوفين بمثل صفاتهم، سائرين على منهاجهم، معينين لهم على ما هم عليه، ويسألونه أن يكونوا على أكمل حال في العلم والعمل والاستقامة، يقتدي بهم فيها المتقون.

الأحكام:

الأول: التزوج وطلب النسل هو السنة، سنة النبي ﷺ، وسنة أصحابه عليهم الرضوان، وسنة عباد الرحمن، وليس من شريعته الحنيفية السمحة، الرهبانيةُ والتبتلُ[1].

---

(١) الرهبانية: منسوبة إلى رهبنة النصارى، وأصلها من الرهبة: الخوف، كانوا يترهبون بالتخلي من=

وقد رأى قوم من الزهاد رجحان الانقطاع إلى العبادة على التزوج والاشتغال بالسعي على الزوج والذرية.

فردَّ عليهم أئمة الدين والفتوى بأن في التزوج اتباعًا للسنة، وفي السعي على الأهل ما هو من أعظم العبادة.

وفي التزوج تكثير سواد الأمة، والمدافعين عن الملة، والقائمين بمصالح الدين والدنيا، وفي هذا ما فيه من الأجر والمثوبة.

وفي التبتل مخالفة السنة، وانقطاع النسل، وضعف الأمة، وتعطيل المصالح، وخراب العمرانِ، وكفى بهذا كله شرًّا وفسادًا.

الثاني: سؤال العبد من ربه أن يهب له من الزوج والذرية ما تقر به عينه، يقتضي سعيه بقدر استطاعته لتحصيل ذلك فيهما ليقوم بالسببين المشروعين من السعي والدعاء.

فعليه أن يختار ويجتهد عندما يريد التزوج،، وأن يقصد إلى ذات

= أشغال الدنيا، وترك ملاذها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها، وتعمد مشاقها. كما في «النهاية».
والرهبانية ليست من الإسلام في شيء، وإنما هي من ابتداع النصارى كما نص على ذلك القرآن وسنة سيّد الأنام - عليه الصلاة والسلام -.
وانظر تخريجي لأحاديث «رسالة الشرك ومظاهره» (٤) للشيخ مبارك الميلي.
والتبتل: الانقطاع عن النساء وترك النكاح. وامرأة بتول منقطعة عن الرجال لا شهوة لها فيهم. وبها سُميت مريم أم المسيح عليه السلام. وسميت فاطمةُ البتولَ لانقطاعها عن نساء زمانها فضلًا ودينًا وحسبًا، وقيل: لانقطاعها عن الدنيا إلى اللّه تعالى. كذا في «النهاية».
وقد ثبت النهي عن التبتل في حديث سعد بن أبي وقاص. أخرجه البخاري (٥٠٧٣ و٥٠٧٤)، ومسلم (١٤٠٢).

الدين[1].

وفي اختياره واجتهاده في جانب الزوجة سعي في اختيار الولد[2]، فإن الزوجة الصالحة شأنها أن تربي أولادها على الخير والصلاح.

ثم عليه أن يقوم بتعليم زوجه وأولاده وتهذيبهم وإرشادهم، فيكون قد قام بما عليه في الابتداء والاستمرار مع دوام التضرع إلى اللَّه تعالى والابتهال.

الثالث: ما تقرُّ به الأعينُ يحصل به الفرح والسرور، فالفرح والسرور بما هو خيرٌ وطاعةٌ من حيث إنه نعمةٌ من اللَّه وفضلٌ؛ محمودٌ ومشروعٌ.

الرابع: طلب الرتب العليا في الخير والكمال والسبق إليها والتقدم فيها مما يدعونا إليه اللَّهُ ويرغبنا بمثل هذه الآية فيه، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٨] و[المائدة: الآية ٤٨] لأن طلب الكمال كمالٌ، ولأنّ من كانت غايته الرتب العليا إنْ لم يصل إلى أعلاها لم ينحط عن أدناها، وإن لم يُساوِ أهلها لم يبعد عنهم.

ومن لم يطلب الكمال بقي في النقص، ومن لم تكن له غاية سامية، قصر في السعي، وتوانى في العمل.

فالمؤمن يطلب أسمى الغايات حتى إذا لم يصل لم يبعد، وحتى يكون في مظنة الوصول بصحة القصد وصدق النية.

---

(١) لحديث أبي هريرة مرفوعًا: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تَربت يداك». أخرجه البخاري (٥٠٩٠) ومسلم (١٤٦٦).

(٢) كما في قوله ﷺ: «تخيَّروا لنطفكم». انظر «الصحيحةِ» (١٠٦٧) للألباني.

الخامس: مِنَ الدِّين الاقتداءُ بأهل العلم والعمل والاستقامة في الهدي والسّمت.

السادس: لا يكون الإمامُ إلا تقيًّا فاق غيره في التقوى.

السابع: أنّ اقتداء المتقين بأئمتهم إنما هو في التقوى لأنهم ما كانوا أئمة إلَّا بها.

فالآية أفادت أن المتقين يقتدون بأئمتهم، وأن أئمتهم متقون مثلهم وأكمل منهم في التقوى، وأن اقتداءهم بهم في التقوى لا في غيرها، فمن حاد عنها فلا إمامة له.

تمييز:

الخَيِّرُ الكامل المقدَّم في الخير والكمال، المقتدى به فيهما، إذا طلب الإمامة من حيث الخير والكمال نفسهما ومن حيث حمل الناس عليهما بالقدوة الصالحة له فيهما، لأن فعل الخير والاتصاف بالكمال دعوة إليهما بالعمل، وهي أبلغ من الدعوة بالقول، ومن حيث انتشارهما في الناس وسعادة الناس بهما، إذا طلب الإمامة من هذه الحيثيات فطلبه مشروع محمود وهو طلب عباد الرحمن المذكور في الآية.

وإذا طلب الإمامة والتقدم لأجل الترأس والتقدم، فهذا طلب مذموم، من عمل المتكبرين لا من عمل المتقين.

فعلى الداعي أن يميز هذا التمييز ليخلص القصد في دعائه ويكون على صواب فيه.

كلمة عظيمة من إمام عظيم:

قال مجاهد التابعي الجليل الثقة الثبت المفسر الكبير : «أئمة نقتدي بمن قبلنا ، ويقتدي بنا مَن بعدنا»[١٦٧] .

ذكره البخاري ، ورواه ابن جرير بسند صحيح .

يعني أن الذين يقتدي بهم الناس من بعدهم هم الذين كانوا يقتدون بسلفهم الصالح من قبلهم ، فالذين أحدثوا في الدين ما لم يعرفه السلف الصالح لم يقتدوا بمن قبلهم ، فليسوا أهلًا لأنْ يقتدي بهم مَن بعدهم .

فكل من اخترع وابتدع في الدين ما لم يعرفه السلف الصالح فهو ساقط عن رتبة الإمامة فيه .

سلوك واقتداء:

كان الأعرابي الجاهل المشرك يأتي للنبي ﷺ فيؤمن به ويصحبه ، يتعلم منه الدين ، ويأخذ عنه الهدى ، فيستنير عقله بعقائد الحق ، وتتزكى نفسه بصفات الفضل ، وتستقيم أعماله على طريق الهدى ، فيرجع إلى قومه هاديًا مهديًّا ، إمامًا يُقتدى به ويُؤخذ عنه ، كما اقتدى هو بالنبي ﷺ وأخذ عنه .

فعلى كل مؤمن أن يسلك هذا السلوك فيحضر مجالس العلم التي تذكِّره

---

[١٦٧] صحيح كما قال المصنف :

ذكره البخاري في «صحيحه» (١٣/ ٣٠٨) معلقًا بإبهام القائل .

قال الحافظ : «وقد ثبت ذلك من قول مجاهد أخرجه الفريابي والطبري وغيرهما من طريقه بهذا اللفظ بسند صحيح ، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريقه بسند صحيح أيضًا» .

بآيات اللَّه وأحاديث رسوله ما يصحح عقده، ويزكي نفسه، ويقوِّم عمله، وليطبق ما يسمعه على نفسه، وليجاهد في تنفيذه على ظاهره وباطنه، وليداوم على هذا حتى يبلغ إلى ما قدّر له من كمال فيه، فيرجع وهو قد صار قدوة لغيره في حاله وسلوكه.

وطلبة العلم الذين وهبوا نفوسهم للَّه، وقصروا أعمارهم على طلب العلم، لدعوة الخلق إلى اللَّه، هم المطالَبون على الأخص بهذا السلوك، ليصلوا إلى إمامة الحق وهداية الخلق، على أكمل حالة ومِن أقرب طريق.

فاللَّهم وفقنا واهدنا إلى سنة نبينا إذا اقتدينا وإذا اقتُدِيَ بنا. آمين يا رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٦، م٩) غرة محرم ١٣٥٢هـ - ماي ١٩٣٣م.

جزاء عباد الرحمن

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: الآية ٧٥- ٧٦].

المناسبة وفقهها:

لما ذكر في الآيات المتقدمة صفاتهم وأعمالهم؛ ذكر ما أعدّ لهم من عظيم الجزاء على تلك الأعمال تنبيهًا على ما وضعه تعالى بمشيئته وحكمته ورحمته من الارتباط بين هذه الأعمال وهذا الجزاء، وإفضائها إليه إفضاء السبب لمسببه، ليسعى الراجون لهذا الجزاء من طريق هذه الصفات وهذه الأعمال، كما يسعى لسائر المسببات من طريق أسبابها، وتُؤتَى جميعُ الأمور من أبوابها.

وفي هذا حثٌّ لأهل هذه الأعمال على التمسك بما هم به عاملون، وتنبيهٌ لأهل الغرور على بطلان ما هم به مغترون، و«الكيس من دان نفسه (قهرها على الطاعة وحاسبها)، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على اللَّه الأماني»[١٦٨].

---

[١٦٨] ضعيف:

أخرجه الترمذي (٢٤٦٤) وابن ماجه (٤٢٦٠) وأحمد (٤/ ١٢٤) والحاكم (١/ ٥٧و٤/ ٢٥١) من طرق عن أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعًا.

وقال الترمذي: «حديث حسن»!

وقال الحاكم في الموضع الثاني: «صحيح الإسناد»! ووافقه الذهبي!. =

المفردات:

يجزون: يُعطون في مقابلة أعمالهم.

الغرفة: البيت الأعلى فوق بيت، و«ال» فيه للجنس، فيصدق بالمتعدد.

صبروا: حبسوا نفوسهم. والباء فيه سببية.

يُلَقَّون: من لقي بمعنى يجدون و«يُلَقَّوْنَ» من لُقِّي بمعنى تلقيهم الملائكة أي تقابلهم وتتلقاهم.

تحية: دعاء بالحياة.

سلامًا: دعاء بالسلامة.

خالدين: باقين.

مستقرًّا: هو المكان الذي ينتهي إليه من غيره ويثبت فيه.

مقامًا: هو المكان الذي يقام ويمكث فيه.

= وقال في الموضع الأول: «صحيح على شرط البخاري»!

فتعقبه الذهبي في «التلخيص» بقوله:

«قلت: لا واللَّه، أبو بكر واهٍ».

وفي «التقريب»:

«ضعيف، وكان قد سُرق بيتُه. فاختلط».

وله طريق آخر: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٤١) و«الصغير» (٢/ ٣٦) من طريق إبراهيم بن عمرو بن بكر السكسكي قال سمعت أبي يحدث عن ثور بن يزيد وغالب بن عبد اللَّه عن مكحول عن ابن غنم عن شداد بن أوس مرفوعًا.

وإبراهيم السكسكي: قال الدارقطني: متروك، وقال ابن حبان:

«يروي عن أبيه الأشياء الموضوعة، وأبوه أيضًا لا شيء» كما في «الميزان» للذهبي.

التراكيب:

جملة أولئك مستأنفةٌ بيانيًّا، فإنَّ تلك الصفات والأعمال تشوِّق السامعَ إلى معرفة مآلهم وثمرة أعمالهم فيسأل عنهما، فكانت الجملة جوابًا لذلك السؤال المقدَّر، وعرف المسند إليه بالإشارة تنبيهًا على أن استحقاقه للمسند كان بما تقدّم من صفات.

وجملة حسنت مستأنفة بيانيًّا، لأنّ من عرف حالتهم من الحياة والسلامة والبقاء يتشوف لمعرفة حال مكان هذه الحياة السالمة الباقية فيسأل عنه، فوقعت جملة حسنت موقع الجواب عن هذا السؤال المقدر، وهي إنشائية أفادت إنشاء مدح الغرف بالحسن وتعظيم ذلك الحسن.

وقدم المستقر لأن أول الحلول استقرار، والمقام ببقاء الاستقرار واستمرار المكث.

المعنى:

أولئك الذين ذُكرت صفاتُهم وأفعالُهم يُعطَون جزاء أعمالهم البيوت العلالي في الجنة بسبب صبرهم وحبسهم لأنفسهم على الطاعات والمجاهدات، وكفِّهم لها عن المعاصي والشهوات، وتتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام، باقين في هذا النعيم المقيم، وسكنى علالي الجنة التي هي أحسن مستقرٍّ ينتهي إليه الإنسان ومقامٍ يمكث فيه.

تطبيق حديث وفقهه:

روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«**إنّ أهل الجنة ليتراءون أهل الغُرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم**». قالوا: يا رسول اللَّه، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال:

«**بلى- والذي نفسي بيده- رجال آمنوا باللَّه وصدقوا المرسلين**»[١٦٩].

فهذا الحديث بيّن أن أهل الغُرف هم أكملُ المؤمنين وأعلاهم درجةً في الجنة بهذا المقدار من البعد، فهم الموصوفون بالصفات المذكورة في الآيات المتقدمة على أتمها، ومن لم يكن مثلهم فيها لم يكن في منازلهم التي جُوزُوا بها عليها، وكان على حسب حظه من الإيمان في منزلة من منازل أهل الجنة الذين يتراءون أهل الغُرف.

فدرجات أهل الجنة في منازلهم على حسب سلوكهم في أعمالهم.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: الآية ٢١- ٢٢].

دلالة:

دلت الآية على السبب الذي أفضى بهم إلى هذا الجزاء العظيم وهو

---

[١٦٩] صحيح:

تقدم بتخريجه برقم (٥١).

أعمالهم، ودلت على السبب الذي تمكنوا به من القيام بهذه الأعمال وهو الصبر لقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾.

ومن أعظم الحكمة معرفة الأسباب والمسببات وارتباط بعضها ببعض، فلا ينهض بامتثال المأمورات وترك المنهيات إلا من صبر، والصبر خلق من الأخلاق التي تتربى وتنمو بالمران والدوام.

فواجب على المكلف أن يجعل تربية نفسه عليه وتعويدها به من أكبر همه إذ لا يقوم بالتكاليف الشرعية إلا به، بل ولا يستطيع الحياة في هذه الدار الدنيا الموضوعة على المحنة والابتلاء إلا إذا تمسك بسببه.

بيان القرآن للقرآن:

في هذه الآية أنهم يُلَقَّوْنَ تحيةً وسلامًا، وقد بيّن من يتلقّاهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٣]

فالملائكة هم الذين يتلقونهم بالسلام والدعاء لهم بالطيب، وهو مما يدخل في التحية، لأن من طيبهم طيب حياتهم.

وما أكثر ما تجد في القرآن بيان القرآن، فاجعله من بالك تهتد- إن شاء اللَّه- إليه.

اقتداء ورجاء:

هؤلاء هم السالكون وما ذكر من أعمالهم وأحوالهم هو سلوكهم، ولما سلكوا الصراط المستقيم بالعمل المستقيم انتهى بهم السير إلى أحسن قرار

ومقام، إلى دار النعيم المقيم في جوار الرحمن الرحيم.

فإذا اشْتَقْتَ إلى نهايتهم فتمسك ببدايتهم، وزن أعمالك بأعمالهم وأحوالك بأحوالهم، فإذا جعلت ذلك من همّك، وحملت عليه نفسك بصادق عزمك، وصبرت كما صبروا رجوت أن تظفر بما ظفروا.

فاللَّه نسأل لنا ولك وللمسلمين صحة الاقتداء. وصدق الرجاء، وحسن الجزاء.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: الآية ٩٧] [١].

* * *

(١) الشهاب (ج٧، م٩) غرة صفر ١٣٥٢هـ - جوان ١٩٣٣م.

قيمة العباد عند ربهم بقدر عبادتهم

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٧٧] .

المناسبة:

قد أفادت الآيات السابقة كمال حال عباد الرحمن في نفوسهم وعقولهم وأخلاقهم وأعمالهم، وأفادت عظيم منزلتهم عند ربهم، ورفيع ما أُعِدَّ لهم من درجاتهم جزاءً على صالحاتهم وحسناتهم.

وجاءت هذه الآية تفيد أنّ ذلك المقام العظيم الذي كان لهم عند ربهم إنما هو بسبب عبادتهم وتعلن للناس أن عبادتهم هي الشيء الوحيد الذي يكون لهم به قدرٌ وقيمةٌ عند ربهم، وبدونها لا يكون لهم وزن عند خالقهم، ولا يكونون شيئًا يُبالى به، وأن من كذب وخلع بتكذيبه ربقة العبادة فقد حقّت عليه كلمة العذاب، وهو واقع به لا محالة.

المفردات:

ما يعبأ بكم: ما يبالي بكم.

«العبء» هو الثقل، فما عبأت به: بمعنى ما كان له عندي وزن ولا مقدار، وعبأت به: كان له عندي وزن ومقدار، وعُدِّي بالباء لأنه بمعنى ما باليتُ.

دعاؤكم: عبادتكم، من إطلاق الجزء على الكل.

كذبتم: كفرتم فلم تعبدوا.

لزامًا: ملازمًا، وأصل اللزام مصدر لازم، واختير هنا للتنبيه على أن بين المكذبين والعذاب ملازمة من الطرفين، فهم بتكذيبهم قد ألزموا أنفسهم العذاب فلازمهم العذاب.

التراكيب:

جواب (لولا) محذوف لدلالة ما تقدم، وتقدير الكلام: لولا دعاؤكم ما عبأ بكم.

وجملة ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾واقعة موقع التعليل لكلام مقدر تقديره- واللَّه أعلم- لا يعبأ بكم فقد كذبتم، أي لأنكم قد كذبتم، فالفاء تعليلية.

وأما جملة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ فمتسببة.

وضمير ﴿يَكُونَ﴾ عائد على العذاب المفهوم من المقام.

المعنى:

قل للذين أُرسلتَ إليهم ما يبالي بكم ربي ولا يعبأ بكم، ولا يكون لكم عنده وزن لولا إيمانكم وعبادتكم، فإذا كذبتم وكفرتم فهو لا يعبأ بكم وسوف يكون العذاب ملازمًا لكم بسبب تكذيبكم.

تحريرٌ في المخاطَب:

المخاطَبون هم الذين كذّبوا، ثم إنّ ما لحقهم بسبب التكذيب من العذاب الملازم، فهو خاص بهم وبالمكذبين أمثالهم.

وما كان موجَّهًا لهم من جهة أنهم عباد- وهو أن اللَّه لا يعبأ بهم لولا

دعاؤهم- فهو عام لجميع العباد لمماثلتهم لهم في العبودية للَّه، واستغناء اللَّه عنهم، وفرض العبادة عليهم، وعدم التقدير لهم إلا بها.

تفسير أثري:

أخرج البخاري في كتاب التفسير، عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: خمس قد مضين: الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام[١٧٠].

ورواه في مواضع أخرى من «صحيحه».

وعنى بالدخان المذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدّخَان: الآية ١٠]، وبالقمر المذكور في ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القَمَر: الآية ١]، وبالبطشة المذكورة في ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ [الدّخَان: الآية ١٦]، وباللزام المذكور في هذه الآية.

وفسّر ابن مسعود البطشة الكبرى بيوم بدر، وفسّر اللزام به أيضًا، فهي في الحقيقة أربع، وعدّها خمسًا باعتبار الوصفين: البطش والملازمة.

وفسّر الحسن(١) اللِّزام بعذاب يوم القيامة.

---

[١٧٠] صحيح:

رواه البخاري (٤٧٦٧) ومسلم (٢٧٩٨)(٤١) بهذا اللفظ عن ابن مسعود، ورواه البخاري أيضًا - كما قال المصنف - في مواضع أخرى من «صحيحه» بالأرقام (٤٨٢٠و٤٨٢٥) مختصرًا، و(٤٨٠٩و٤٨٢١و٤٨٢٢) مطولًا بنحوه، ومسلم (٢٧٩٨) (٣٩و٤٠) أيضًا.

(١) هو الحسن البصري التابعي الجليل المتوفى سنة (١١٠هـ).

مترجم في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٦٣- ٥٨٨) للذهبي، و«تهذيب التهذيب» (٢/ ٢٤٣- ٢٤٨) للعسقلاني.

ومن عادة السلف أنهم يفسرون اللفظ بما يدخل في عمومه دون قصدٍ للقصر عليه، ولا منافاة حينئذ بين التفسيرين فيكونون قد تُوُعِّدوا على تكذيبهم بلزوم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

ترهيب:

رتب لزوم العذاب على التكذيب، فأعظم العذاب لأكمل التكذيب، وهو تكذيب الكفر، ثم أصناف العذاب لازمة لتكذيب العصيان بالعدل والحكمة في التقسيم والترتيب.

استنباط:

لما كانت مقادير العباد عند ربهم بحسب عبادتهم، فالأنبياء عليهم السلام أعلى الناس منزلة عند اللَّه هم أعظمهم عبادة للَّه، وهم أتقاهم له وأشدهم خشية منه.

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه مالك وغيره: «**واللَّهِ إني أرجو أن أكون أخشاكم للَّه وأعلمكم بما أتقي**»[١٧١].

---

[١٧١] صحيح:

قطعة من حديث رواه مالك (٢/ ١٥٨-١٥٩/ ٦٤٨) ومن طريقه أبو داود (٢٣٨٦) إلا أنه قال: «أتّبع» بدل من «أتّقي» عن عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن معمر الأنصاري عن أبي يونس مولى عائشة عن عائشة أن رجلًا قال لرسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم وهو واقف على الباب وأنا أسمع: يا رسول اللَّه، إني أصبح جنبًا وأنا أريد الصيام، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأنا أصبح جنبًا وأنا أريد الصيام فأغتسل وأصوم» فقال له الرجل: يا رسول اللَّه، إنك لست مثلنا قد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر!

فغضب رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «فذكره». =

وقال أيضًا: «واللَّه إني لأتقاكم للَّه وأعلمكم بحدوده»[١٧٢].

سؤال استطرادي وجوابه:

كيف يخشى وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟

أجاب العلماء عن هذا بأجوبة:

منها: أنه لا يخشى العقاب ولكنه يخشى العتاب.

ومنها- وهو قول الأكثر-: أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بشرط امتثاله لما أمر به.

ذكر هذين ابن العربي في «القبس»[(١)].

= ورواه مسلم (١١١٠) والنسائي في «الكبرى» (٣٠٢٥و١١٥٠٠) من طريق عبد اللَّه بن عبد الرحمن به.

وزاد الحافظ في «الفتح» (٤/ ١٨٨) نسبته لابن خزيمة وابن حبان.

[١٧٢] صحيح:

قطعة من حديث رواه مالك (٢/ ١٦٣/ ٦٥١) عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رجلًا قبَّل امرأته وهو صائم في رمضان فوجد من ذلك وجدًا شديدًا فأرسل امرأته تسأل عن ذلك، فدخلت على أم سلمة زوج النبي ﷺ فذكرت ذلك لها، فأخبرتها أم سلمة أن رسول اللَّه ﷺ يقبِّل وهو صائم، فرجعت فأخبرت زوجها بذلك فزاده ذلك شرًا وقال: لسنا مثل رسول اللَّه ﷺ! اللَّه يُحِلُّ لرسول اللَّه ﷺ ما شاء، ثم رجعت امرأته إلى أم سلمة فوجدت عندها رسول اللَّه ﷺ فقال: ما لهذه المرأة؟ فأخبرته أم سلمة، فقال رسول اللَّه ﷺ: «ألا أخبرتيها أني أفعل ذلك»، فقالت: قد أخبرتها، فذهبت إلى زوجها فأخبرته، فزاده ذلك شرًا وقال: لسنا مثل رسول اللَّه ﷺ، واللَّه يحل لرسول اللَّه ما شاء، فغضب رسول اللَّه ﷺ وقال:

«واللَّه إني لأتقاكم للَّه وأعلمكم بحدوده».

وهذا إسناد مرسل، وقد وصله عبد الرزاق في «المصنف» (٤/ ١٨٤/ ٨٤١٢) ومن طريقه أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٤) عن رجل من الأنصار، وإسناده صحيح كما قال الحافظ في «الفتح» (٤/ ١٩٣).

(١) في (٣/ ٤٩٠- ط١، دار الغرب الإسلامي).

ومنها: أنها خشية الإجلال ومشاهدة عظمة الربوبية، وأنه لا يجب عليه تعالى شيء.

وهذان الحديثان الصحيحان من الأدلة الصريحة عند أهل العلم على أن العبادة الشرعية الإسلامية لا تتجرد من الخوف حتى عبادة أفضل الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

تعليل:

الإنسانُ مُهَيَّأٌ للكمال بما فيه من الجزء النوراني العلوي وهو روحه، ومعرَّضٌ للسقوط والنقصان بما فيه من أخلاط عناصر جزئه الأرضي الظلمائي وهو جسده.

ولا يخلص من كدرات جثمانه، ولا ينجو من أسباب نقصانه إلا بعبادة ربه التي بها صفاء عقله وزكاء نفسه وطهارة بدنه في ظاهره وباطنه.

فبعبادة ربه يكمل فيرقى في مراتب الكمال ويدنو من الملأ الأعلى عند الرب الأعلى ذي الجلال والإكرام.

فاللّه طيب لا يقبل إلا الطيب.

و﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠] ولا طيب ولا كمال إلا للعابدين، فلا قيمة ولا قبول لغيرهم عند رب العالمين.

إرشاد وتحذير:

قد بيّن لك الطريق الذي يوصلك إلى مولاك، ويرقيك في مراتب كمالك وعلاك، وما هو إلا عبادة ربِّك، فكن عبدًا له في اختيارك واضطرارك، وفي

جميع أحوالك.

واحذر أن تعتمد على شيء غير عبادته.

واحذر أن تتوجه بشيء من عبادتك لغيره.

ومن عبادتك- بل هو مخ عبادتك- دعاؤك وسؤالك واستغاثتك، فإيَّاك إيَّاك أن تتوجه بشيء منه لغيره.

فكن دائمًا عبدًا للَّه، وكن دائمًا عبدًا له وحده، فذلك حقه عليك، وذلك السبب الوحيد الذي ينجيك ويعليك.

واللَّه نسأل أن يقصرنا على عبادته، ويديمنا على الإخلاص في التوجه إليه، حتى نلقاه على ملّة الإسلام، وهدى عباده الصالحين. آمين يا رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٨، م٩) غرة ربيع الأول ١٣٥٢هـ - جويلية ١٩٣٣م.



تفسير الآيات (١٥- ٢٦)

ملك النبوة
مجمع الحق والخير، ومظهر الجمال والقوة

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النَّمل: الآية ١٥] .

تمهيد:

النبوة منزلة من الكمال التام البشري يهيئ اللَّه لها من يشاء من عباده، فيكون بذلك مستعدًّا لتلقي الوحي والاتصال بعالَم الملائكة، ولتحمل أعباء ما يلقى إليه، وتكاليف تبليغه بالقول والعمل، وتحمُّل كل بلاء يلقاه في سبيل ذلك التبليغ.

والمُلك ولاية على المجتمع لحفظ نظامه، تقتضي عموم النظر، وشمول التصرف في روابط الناس ومعاملاتهم وتصرفاتهم، وتسييرهم في ذلك كله على أصول عادلة توصل كل أحد إلى حقه، وتكفه عن حق غيره، ليعيشوا في رخاء وسلام، ويبلغوا غاية ما يستطيعون من متع الحياة.

وقد يتصف الشخص بالنبوة دون المُلك فيكون مبَلِّغًا عن اللَّه، ولا يكون له التنفيذ والإدارة والتنظيم.

وقد يتصف الشخص بالملك دون النبوة.

وقد وُجد الشخصان في شمويل وطالوت، فكان الأول نبيًّا وكان الثاني

ملِكًا كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٧].

وقد يجمع بينهما مثل داود وسليمان عليهما السلام.

ثم إن الملك قد تكون الأصول التي يستند إليها مستمدة من أوضاع البشر لحفظ مصالحهم في الحياة الدنيا، فيكون ملكًا بشريًّا.

وقد تكون تلك الأصول مستمدة من وحي اللَّه بما فيه حفظ مصالح العباد في الدنيا، وتحصيل سعادتهم فيها، وفي الأخرى، فيكون ملك نبوة.

ومن طبيعة ملك النبوة التزام الحق ونصرته حيثما كان، بإقامة ميزان العدل، في القول، والحكم، والشهادة بين الناس أجمعين، المعادين والموالين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٢].

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ [النِّساء: الآية ٥٨].

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المَائدة: الآية ٨].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النِّساء: الآية ١٣٥].

وبالوفاء بالعقود والعهود بين الأفراد والجماعات كما قال تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المَائدة: الآية ١].

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٢] .

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النّحل: الآية ٩١] .

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ﴾ [النّحل: الآية ٩٢] .

وبغير هذا من وجوه التزام الحق ونصرته .

ومن طبيعته بث الخير بين الناس ، بنشر الهداية والإحسان ، دون تمييز بين الأجناس والألوان ، كما قال تعالى : ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحجّ: الآية ٧٧] .

﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥] .

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المُمتحنَة: الآية ٨] .

ومن طبيعته الدعوة إلى القوة ، والتنويه بها ، وبناء الحياة عليها ، لكن في نطاق العدل والرحمة ، ولدفاع المعتدين ، كما قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] .

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: الآية ٢٥] .

وقبلها : ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ [الحديد: الآية ٢٥] .

فقوة الحديد لحفظ الكتاب والميزان ، وحمل الناس عليهما .

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٤].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الآيات [الشورى: الآيات ٣٩- ٤٠].

ومن طبيعته الدعوة إلى الجمال والتحبيب فيه في جميع مظاهر الحياة، لكن في نطاق الفضيلة والعفاف، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: الآية ٤].

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٤] و[التغابن: الآية ٣].

﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[1] [السجدة: ٧].

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصَّافات: الآية ٦].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يُونس: الآية ٢٤].

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النَّمل: الآية ٦٠].

﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحجّ: الآية ٥] و[ق: الآية ٧].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ [الأعراف: الآية ٣٢].

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ﴾ [المائدة: الآية ٥].

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ

---

(١) في الأصل زيادة «ثم هدى»! ولا أصل لها هنا، وإنما هي في قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٠].

بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النُّور: الآية ٣٠] .

ومن طبيعة الملك البشري- وإن روعيت في أوضاعه هذه الأصول الأربعة- أنه لا يقيم ميزان العدل بين أبناء المملكة وغيرهم، فتراه يكيل لهؤلاء بمكيال، ولهؤلاء بمكيال، ولا يرعى من العهود- في الغالب- إلَّا ما لا يعارض مصلحته، أو تلزمه بمراعاته قوة خصمه .

كما أنه يكاد يقصر بره وإحسانه على أبناء جلدته ومن كانوا من جنسه ولونه .

كما أنه يبني أمره على القوة المطلقة فتندفع مع رغباته إلى أقصى ما يمكنها أن تصل إليه، فيكون البغي والتسلط والعدوان .

كما أنه تستهويه زينة الحياة الدنيا وزخارفها، فتمتد يده إليها حيثما وجدها، فتتنازعها الأيدي بالقوة والحيلة، وتذهب في أفانينها الشهوات بالناس إلى النقص والرذيلة .

ثم إن من طبيعة الملك من حيث إنه ملك- سواء أكان بشريًّا أم نبويًّا- مظاهر الأبهة والجمال والقوة والفخامة، لما جبل عليه الخلق من اعتبار المظاهر والتأثر بها .

وهذا إذا كان في الحق فهو محمود مطلوب، وإذا كان للباطل والبغي والتعظيم النفسي فمذموم متروك .

ومن الأول أمر النبي ﷺ عمَّه العباس رضي الله عنه أن يحبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى تمر عليه كتائب المسلمين، وذلك لإدخال الرعب على قلبه

بما يرى من النظام والقوة، فحبسه العباس، فجعلت الكتائب تمر به فيسأل العباس عن كل كتيبة، فإذا أخبره قال: ما لي ولبني فلان، حتى مر الرسول ﷺ في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلَّا الحدق من الحديد، فقال: من هؤلاء؟ فقال العباس: هذا رسول اللَّه ﷺ في المهاجرين والأنصار، فقال أبو سفيان: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقةٌ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا، قال العباس: فقلت له: إنها النبوة. فقال: فنعم إذن[١٧٣].

قصد أبو سفيان عظمة الملك القاهر التي كان يعرفها من الأكاسرة وأمثالهم، فنفى ذلك العباس وردَّه إلى النبوة التي هي أصل تلك القوة، وذلك الملك النبوي المستند إلى الوحي الإلهي، ولم يُرد نفي الملك جملة.

ومنه ما كان من معاوية بالشام، لما قدم عليه عمر وجده في أبهة من الجند والعدة فاستنكر ذلك، وقال له: أكسروية يا معاوية؟ فاعتذر معاوية بأنهم في

---

[١٧٣] صحيح:

رواه الطبراني عن ابن عباس ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٦٧).

وعزاه البوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة» (٥/ ٢٤٠- ٢٤٢/ ٤٦٠٣) لإسحاق بن راهويه وقال: «قال شيخنا أبو الفضل العسقلاني - ومن خطه نقلتُ - : هذا حديثٌ صحيحٌ».

ولبعضه شاهد عن عروة مرسلًا عند البخاري (٤٢٨٠).

و(خطم الجبل): بفتح الخاء المعجمة وسكون المهملة وبالجيم والموحدة: أي أنف الجبل.

وفي رواية: (حطم الخيل) بفتح المهملة من اللفظة الأولى وبالخاء المعجمة وسكون التحتانية أي ازدحامها.

قال الحافظ: «وإنما حبسه هناك لكونه مضيقًا ليرى الجميع ولا يفوته رؤية أحدٍ منهم». «الفتح».

و(الحدق): جمع حدقة وهي العين.

ثغر تجاه العدو، وأنهم في حاجة إلى مباهاة العدو بزينة الحرب والجهاد، فسكت عمر وأقره[١٧٤].

فذلك المظهر من مظاهر طبيعة الملك من حيث هو ملك، وإنما أنكره عمر لما خاف فيه من تعظُّم واستعلاء وإعجاب، فلما كان للحق والمصلحة أقره.

ومن أقوى الأدلة على أن تلك المظاهر إذا كانت للحق والمصلحة فهي محمودة مطلوبة، ما قَصَّهُ اللَّهُ علينا في هذه الآيات عن مُلك سليمان نبيّ اللَّه- عليه الصلاة والسلام-.

نعم، في «مسند أحمد» أن النبي ﷺ خُيِّر من[(١)] أن يكون نبيًّا مَلِكًا أو يكون نبيًّا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا[١٧٥].

---

[١٧٤] ؟:

أخرجه ابن أبي الدنيا - كما في «البداية والنهاية» (٨/ ١٢٥) لابن كثير - قال حدثني أبي عن هشام بن محمد عن أبي عبد الرحمن المدني قال: كان عمر بن الخطاب - إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب.

والعلم عند اللَّه تعالى.

(١) كذا في الأصل!

[١٧٥] صحيح:

أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١) عن أبي هريرة قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا مَلَكٌ ينزل، فقال جبريل: إن هذا المَلَك ما نزل منذ يوم خُلِق قبل الساعة.

فإذا نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، أفملكًا نبيًّا يجعلك، أو عبدًا رسولًا؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد؟ قال: «بل عبدًا رسولًا».

وإسناده صحيح على شرط مسلم كما قال الألباني في «الصحيحة» (١٠٠٢). =

وكان ذلك تواضعًا منه.

ولا ينفي هذا أنه ﷺ، كما كان مبلِّغًا عن اللَّه تبارك وتعالى، كان قائمًا على الحكم والتنفيذ، وإدارة الشؤون العامة، وتنظيم المجتمع، مما يُسَمَّى ملكًا نبويًّا مستندًا إلى الوحي الإلهي؛ لأن التخيير راجع إلى حالته الشخصية الكريمة، فخيّر بين أن يكون لشخصه من مظاهر الملك مثل ما كان سليمان، أو لا تكون له تلك المظاهر، فاختار أن لا تكون، وأن يكون مظهره مظهرًا عاديًّا مثل مظهر العبد العادي، كما أن سليمان- عليه الصلاة والسلام- الذي كان مَلِكًا نبيًّا لم ينف ذلك عنه العبودية، وإنما ينفي عنه مظهرها العادي.

فهما حالتان للقائمين على الملك جائزتان، كان على إحداهما سليمان، وعلى الأخرى محمد، -عليهما الصلاة والسلام-، وحالة أفضل النبيين أفضل الحالتين، وقد اختار عمر ﷺ الفضلى، وأقر معاوية على الفاضلة الأخرى.

ولما كان محمد ﷺ جاء بملك النبوة كان القرآن العظيم جامعًا للأصول التي ينبني عليها ذلك الملك، وجاء فيه مثل هذه الآيات التي نكتب عليها ليبين صورة من صور ملك النبوة ومظهرًا صادقًا من مظاهره فيما قصت علينا من ملك

= ورواه البزار (٢٤٦٢- كشف الأستار) وأبو يعلى (٦١٠٥) وعنه ابن حبان في «صحيحه» (٢١٣٧- الموارد).

وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٨):

«رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح».

وصححه الشهاب الخفاجي في «نسيم الرياض» (٢/ ٩٤).

سليمان عليه السلام .

وهي ثلاثون آية من الآية الخامسة عشرة من سورة النمل إلى الآية الرابعة والأربعين منها .

* * *

الآية الأولى وهي: ١٥

الألفاظ والتراكيب:

علمًا: نوعًا عظيمًا ممتازًا من العلم، جمعا به بين الملك والنبوة، وقاما بأمر الحكم والهداية.

وقالا: قولهما متسبب وناشئ عن العلم، لكنه لو قيل: «فقالا» بالفاء لَمَا أفاد أن غير القول تسبب منهما عن العلم، ولما عطف بالواو دل على أن هنالك أعمالًا كثيرة عظيمة كانت منهما في طاعة اللَّه وشكره نشأت عن العلم، وعليها عطف قولهما هذا.

وفضلنا: أعطانا ما فُقْنا به غيرنا.

على كثير: فهنالك كثير لم يفضلا عليه ممن ساواهما أو فاقهما.

من عباده المؤمنين: ففضلا بين أهل الفضل، فكانا من أفضل الفاضلين، وذلك بما أعطيا من النبوة وملكها.

المعنى:

يخبرنا اللَّه تعالى عما أعطى لهذين النبيين الكريمين من هذا الخير العظيم، وعما كان منهما من الشكر له- والمعرفة بعظيم قدر عطائه، وإظهار السرور به مع الاعتراف لغيرهما بما كان من مثله أو نحوه، ومن إعلانهما ما كان للَّه عليهما من نعمة التفضيل العظيمة بحمده والثناء عليه.

تنويه وتأصيل:

قد ابتُدئ الحديثُ عن هذا الملك العظيم بذكر العلم، وقدمت النعمة به على سائر النعم تنويهًا بشأن العلم وتنبيهًا على أنه هو الأصل الذي تنبني عليه سعادة الدنيا والأخرى، وأنه هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا، وأنّ الممالك إنما تبنى عليه وتشاد، وأن الملك إنما ينظم به ويساس، وأن كل ما لم يُبْنَ عليه فهو على شفا جُرُفٍ هارٍ، وأنه هو سياج المملكة ودرعها، وهو سلاحها الحقيقي وبه دفاعها، وأنَّ كل مملكة لم تُحْمَ به فهي عرضة للانقراض والانقضاض.

إحماض[1]:

قال أبو الطيب المتنبي[2] :

أعلى الممالِكِ ما يُبنى على الأسلِ[3] والطعنُ عند مُحِبِّيهِنَّ كالقُبَلِ

نعم، إنّ محبِّي الممالك الصادقين في محبتها، والذين تصلح لهم، ويصلحون لها، هم الذين يستعذبون في سبيلها الموت، ويكون الطعن عندهم مثل القُبَل على ثغور الحسان.

فأما الممالك التي تُبنى على السيف فبالسيف تُهدم، وما يُشاد على القوة

---

(١) الإحماض: الإفاضة فيما يؤنس من الحديث والكلام.

(٢) هو أحمد بن الحسين الكوفي، أبو الطيب المتنبِّي، شاعر حكيم، أحد مفاخر الأدب العربي. له ديوان شعر مطبوع، ومشروح شروحًا وافية. توفي سنة (٣٥٤هـ). الأعلام (١/ ١١٥).

(٣) أي: الرِّماح والنبل.

فبالقوة يُؤخذ.

وإنما أعلى الممالك وأثبتها ما بُني على العلم وحُمي بالسيف، وإنما يبلغ السيف وطره ويؤثّر أثره إذا كان العلم من ورائه.

ولكن أبا الطيب شاعر الرجولة والبطولة، شاعر المعارك والمعامع، لا يرى أمامه إلَّا الحرب وآلات الطعن والضرب، فلا يمكن أن يقول- وقد غمرته لذة الانتصار، واستولت نشوة الغلب والظفر على لبّه وخياله- إلَّا ما قال.

فقه وأدب:

يجوز لمن أنعم اللَّهُ عليه بنعمةٍ وفضّله بفضيلةٍ أن يفرح بتلك النعمة، ويظهر فرحه بها في معرض حمد اللَّه عليها، من حيث أنها كرامة من اللَّه، لا من حيث أنها مزية من مزاياه فاق بها سواه، مثلما فعل هذان النبيان الكريمان[1]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: الآية ٥٨].

وكثيرًا ما يكون التفات المرء إلى نفسه حاجبًا له من غيره، فيذكر من شأنه ما أفرحه ويسكت عن غيره، وفيهم من هو مثله ومن يفوقه، فقد يجرّ هذا إلى عُجب بنفسه وغمط لحق من عداه.

فلهذا كان من أدب مقام الفرحِ بنعمة اللَّه وحمدِه عليها ذكرُ نعمته العامة عليه وعلى غيره، والإشارةُ إلى من فُضِّلوا عليه، فيكبح من نفسه بتذكيرها بقصورها، ويُرضي اللَّهَ باعترافه لذي الفضل بفضله، وحكمة اللَّه وعدله،

(١) في الأصل: هذين النبيين الكريمين!

وبوقوفه كواحد ممن أنعم عليهم من عباده .

إرشاد وإشادة:

أذكارُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، من حمد وتسبيح وتهليل وغيرها، أفضلُ الأذكار وأجمعُها وأسلمُها، وقد اشتمل الكتاب العزيز على كثير منها .

فعلى المسلم الحريص على الخير بها علمًا وعملًا .

فقد رأيت ما يحفّ بإظهار الفرح بنعمة اللَّه من مخاطر إذا لم يتنبه لها .

وقد جاء هذا الحمد النبوي محصلًا للقصد، سالمًا من كل خطره، بعباراته الموزونة الشاملة التي لا يصدر مثلها إلَّا منهم، لكمال علمهم وأدبهم، عليهم الصلاة والسلام[1] .

* * *

(١) الشهاب (ج٢، م١٥) غرة صفر ١٣٥٨هـ - مارس ١٩٣٩م.

الآية الثانية وهي ١٦ من سورة النمل

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النَّمل: الآية ١٦] .

الألفاظ والتراكيب:

الإرث: انتقال ما كان للميِّت إلى الحي فيقوم فيه الوارث مقام الموروث، سواء أكان مالًا أو ملكًا أو علمًا أو مجدًا، والمراد هنا الملك والنبوة.

عُلِّمنا: أُعطينا العلم، ولم يذكر المُعلِّم- وهو اللَّه- للعلم به، فإن هذا التعليم ليس من معتاد البشر ولا من طوقهم.

منطق الطير: نطقها وهو تصويتها، وقد يطلق النطق على كل ما يصوت به الحيوان، فالحيوان ناطق، والجماد صامت.

وأوتينا: أعطينا، والنون في الفعلين للعظمة إذ هي حالته التي هو عليها.

من كل شيء: هو على معنى التكثير، أو على معنى العموم الحقيقي فيما تقتضيه تلك العظمة مما يؤتاه الأنبياء والملوك.

الفضل: الزيادة.

المبين: الظاهر الذي لا خفاء به.

المعنى:

قام سليمان مقام أبيه داود- عليهما الصلاة والسلام-، فكان في بني

إسرائيل من بعد نبيًّا ملكًا .

وأراد سليمان أن يشهر نعمة اللَّه عليه وينوِّه بها ، ويدعو قومه إلى الإيمان به وطاعته، فدعا الناس، وذكر لهم ما خصَّه اللَّه به من علم منطق الطير، وعظائم الأمور، مما هو خارق للعادة، معجز للبشر، آية على نبوته، وتحداهم بذلك الفضل الذي امتاز به عن جميع الناس، وهو مشاهَدٌ لهم، لا يمكنهم إنكاره كما لا تمكنهم معارضته .

فقه وتحقيق:

من ميزة الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- أنهم يخرجون من الدنيا دون أن يتعلقوا بشيء منها ، فلا يورِّثون دينارًا ولا درهمًا ، وإنما يُورِّثُون العلم(1) .

وفي الصحيح : «**إنّا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة**»[176] .

---

(1) كما في قوله ﷺ : «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل اللَّه له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر».
أخرجه أبو داود (٣٦٣٦) وغيره بسند حسن.

[١٧٦] صحيح :

روي بلفظ : «لا نورَث، ما تركنا صدقة» عن جماعة من الصحابة ﷺ، منهم :

١- أبو بكر الصديق : رواه البخاري (٣٠٩٣) ومسلم (١٧٥٧و١٧٥٩).

٢- عمر بن الخطاب : رواه البخاري (٣٠٩٤) ومسلم (١٧٥٧).

٣- عائشة : رواه مالك (١٩٣٥) ومن طريقه البخاري (٦٧٣٠) ومسلم (١٧٥٨).

٤- أبو هريرة: رواه مسلم (١٧٦١).

نعم، روي بلفظ المصنف «إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة» خارج «الصحيح»=

فلم يرث سليمان من داود مالًا ، وإنما ورث ما نوَّه به من العلم والملك ، وما دل عليه ذلك من النبوة ، وقد خصصه اللَّه بذلك دون بقية إخوته .

تفرقة:

الشيء الموروث : إن كان من أمور الدنيا وأعراضها ، ومتناولات الأبدان ومتصرفاتها ، فإنه ينتقل بذاته من الميت إلى الحي ، وينقطع عنه ملك الميت .

وما كان من صفات الروح فإنه لا يفارق الميت- لبقاء الروح- وإنما يقوم الحي مقام الميت في أداء ما كان يؤديه الميت من أعمالٍ متصفًا بمثل ما كان متصفًا به الميت ، متحليًا بمثل حليته .

فإرث سليمان للملك هو من المعنى الأول ، فداود بعد موته لم يبق ملكًا ، وإرثه للعلم والنبوة هو من المعنى الثاني ، فداود بعد موته على علمه ونبوته .

تفرقة أخرى:

إذا كان الموروث مالًا فإنه يُستَحقُّ بالقرابة شرعًا .

وإذا كان علمًا أو نبوةً أو ملكًا فإنها لا تُستَحقُّ بها .

= فأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٦٣٠٩)عن عمر بن الخطاب مرفوعًا وإسناده صحيح رجاله ثقات.

وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٥٧٥) عن أبي بكر الصديق مرفوعًا وقال:

«لم يرو هذا الحديث عن عبد الملك بن عمير إلا تليد بن سليمان، تفرد به أبو موسى الأنصاري».

قلت: وهذا إسناد ضعيف: تليد «رافضي ضعيف».

وعبد الملك «ثقة فصيح عالم تغير حفظه، ربما دلس».

والجملة الأولى عند أحمد (٢/ ٤٦٣) من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح.

وانظر - غير مأمور - «فتح الباري» (١٢/ ١١) للحافظ .

فلم يرث سليمان من داود ما ورثه منه لأنه ابنه، وإنما كان ذلك تفضلًا من اللَّه ونعمة.

ولهذا لما دعا سليمان الناس لم يذكر لهم أبوة داود، وإنما ذكر لهم ما كان به أهلًا لمقامه مما خصَّه اللَّه به من علم وقوة ومظاهر الملك ومعجزة النبوة.

عجائب الخلقة وحكمة العربية:

للحيوانات كلها فهم وإدراك وأصوات تدل بها على ما في نفسها، وتتفاهم بها أجناسها بعضها عن بعض.

ومن تلك الأصوات ما يكون أخفى من أن يصل إليه سمعنا، ومنها ما نسمعه، ومما نسمعه ما نفهم مرادها به، ومنه ما لا نفهمه، فلا نسمع صوت النملة، ولكننا نسمع صوت الهرة- مثلًا- ونميز بين صوتها الذي تدل به على غضبها، وصوتها الذي تدل به على طلبها.

وفي مملكة النمل ومملكة النحل- مثلًا- من النظام والترتيب والتقدير والتدبير ما لا يبقى معه شك فيما لهذه الحيوانات من إدراك وتمييز، وما بينها من تفاهم، بل كثير من الحيوانات تصير بالترويض تفهم عنّا كثيرًا من العبارات والإشارات، وتأتي بالأعمال العجيبة طبق ما يراد منها وتدل عليه.

فهذا أصل ما بلغت إليه من إدراكها ونطقها اللذين أخبرنا بهما القرآن.

وتلك الغاية من الإدراك والنطق لا سبيل لنا إليها لاختلاف الخلقة وجهل مدلولات الأصوات، وقد أدركها سليمان -عليه الصلاة والسلام- بتعليم من اللَّه كرامةً له، وآيةً على نبوته، ومعجزةً للناس.

فمن حكمة اللغة العربية الشريفة أن سَمَّتْ أصواتَ الحيواناتِ نطقًا كما سَمَّتْ- في المتعارف- اللفظَ الذي يعبّر به عمّا في الضمير نطقًا، لأن الأصوات لغير الإنسان تقوم مقام الألفاظ للإنسان، فهي طريق تفاهمها، وطريق فهم ما يمكن لإنسان فهمه عنها.

فللّه هذه اللغة ما أعمق غورها، وما أدق تعبيرها!

نظر وإيمان:

قد شوهد بالعيان في أنواع من الحيوانات حسن تدبيرها لأمر معاشها، ودقة سعيها في جلب منافعها ودفع مضارها، فمن الجائز أن يصل إدراكها بالفطرة إلى ما وراء ذلك من وجود خالقها ورازقها.

وهذا هو الذي أخبرنا به القرآن في هذه الآيات من أمر النملة وأمر الهدهد الآتيين من بعد، فنحن به مؤمنون لجوازه عقلًا وثبوته سمعًا، مثل سائر السمعيات.

تمييز:

قد شارك الحيوانُ الإنسانَ في الإدراك والتمييز، وبلغ إدراكه إلى معرفة وجود خالقه ورازقه، ولكن الإنسان يمتاز عنه بقوة التحليل والتركيب لكل ما يصل إليه حسه وإدراكه، وتطبيق ذلك على كل ما تمتد إليه قدرته ويكون في متناول يده.

فمن ذلك التركيب والتحليل والتطبيق تغلّب على عناصر الطبيعة، وتمكّن من ناصيتها، واستعمل حيوانها وجمادها في مصلحته، ورقى أطوار التقدم في

حياته.

ولفقد الحيوان غير الإنسان هذه القوة بقي في طور واحد من حياته ومعيشته.

فإدراك الحيوان فطري إلهامي يعطاه من أول الخلقة، والإنسان يعطى أصل الإدراك الإجمالي، ثم بتلك القوة يتسع أفق إدراكه ويستمر في درجات التقدم.

وهذه القوة التي يمتاز بها الإنسان هي العقل، وهي التي ساد بها هذا العالم الفاني.

توجيه:

ذكر سليمان- عليه الصلاة والسلام- منطق الطير، وهو قد علم منطق غير الطير أيضًا، فقد فهم نطق النملة، ذلك لأن الحيوانات غير الإنسان مراتب: الزاحفة، والماشية، والطائرة، وأشرفها الطائرة، فاقتصر على الطير تنبيهًا بالأعلى على الأدنى.

تنزيه وتبيين:

عبّر سليمان- عليه الصلاة والسلام- عن نفسه بنون العظمة، ونوّه بذلك الفضل المبين، وما كان عليه السلام ليتعظم بسلطان، ولا ليتطاول بفضل.

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أشدُّ الخلقِ تواضعًا للَّه، وأرحمُهم بعباده.

وإنما أراد تعظيم نعمة اللَّه في عيون الناس، وتفخيم ملك النبوة في قلوب

الرعية، ليملأ نفوسهم بالجلال والهيبة، فيدعوهم ذلك إلى الإيمان والطاعة، فينتظم الملك، ويهنأ العيش، وتمتد بهم أسباب السعادة إلى خير الدنيا والآخرة.

وهذا هو الذي توخاه سليمان- عليه الصلاة والسلام- من المصلحة بإظهار العظمة، ولذا لم يقل: علمتُ، ولا لي، وعندي من كل شيء، ولم يقل: فضلي، فهو فضلُ مَنْ علّمه وآتاه، فضّله به عمن سواه.

ترغيب واقتداء:

يذكر اللَّه تعالى لنا في شأن هذا النبي الكريم ما أعطاه من علم، وما مكنه منه من عظيم الأشياء، ترغيبًا لنا في طلب العلم والسعي في تحصيل كل ما بنا حاجة إليه من أمور الدنيا، وتشويقًا لنا إلى ما في هذا الكون من عوالم الجماد وعوالم الأحياء، وبعثًا لهممنا على التحلي بأسباب العظمة من العلم والقوة، وحثًّا لنا على تشييد الملك العظيم الفخم على سنن ملك النبوة.

فقد كان سليمان- عليه الصلاة والسلام- نبيًّا، وما كان ملكه ذلك إلّا بإذن اللَّه ورضاه، فهو فيما ذكره اللَّه من أمره قدوة، وأيّ قدوة مثل سائر الأنبياء والمرسلين- عليهم الصلاة والسلام أجمعين-[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٣، م١٥) غرة ربيع الأول ١٣٥٨هـ - أفريل ١٩٣٩م.

الآية الثالثة وهي ١٧ من سورة النمل

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النَّمل: الآية ١٧]

الألفاظ والتراكيب:

الحشر: الجمع من أماكن متفرقة.

جنوده: هم المنتظمون في سلك عسكريته، فجُمعوا له عند الحاجة إليهم في سفر أراده.

يوزعون: يكفون عن الخروج عن النظام في السير، فيمنع أولهم من سبق آخرهم، وآخرهم من التأخر عن سابقهم، ويمنعون عن الخروج عن الصفوف إلى اليمين أو الشمال، لأن وزعه عن الشيء معناه كفه عنه.

وفي ترتيب الجنود في الذكر مراعاة الأقوى، وأعلاهم في ذلك الجن، ثم الإنس، ثم الطير.

وفي عطف الجملة الثانية بالفاء إفادة سرعة الانتظام بعد الاجتماع.

وفاعل (حشر) هم الأعوان الحاشرون.

وفاعل (وزع) هم الضباط المنظمون.

المعنى:

كان لسليمان- عليه الصلاة والسلام- من الجن والإنس والطير جنود معينون معروفون، يتركب منهم عسكره، يكونون متفرقين، فإذا عرض أمر

جمعهم، وكان له أعوان يعرفون أولئك الجنود ويعرفون أماكنهم، فهم الذين يجمعونهم عند الحاجة إليهم، فأراد سليمان أن يسافر فأمر أعوانه بجمع الجنود، فجمعوهم له، فلما اجتمعوا تولى رؤساؤهم تنظيمهم، فساروا مع سليمان في كثرة ونظام، يتولى أولئك الرؤساء تنظيمهم في سيرهم، ويمنعونهم من الخروج عن النظام.

تفصيل:

كما أنّ للإنس من يعرفهم من أعوان سليمان، ومن ينظمهم من رؤسائهم؛ كذلك يكون للجن، وكذلك يكون للطير، وسلطة سليمان على الجن، وتسخيره لهم، وسلطته على الطير، وفهمه لها، وفهمها عنه، معجزة له، وخصوصية ملك لم ينبغ لأحد من بعده.

تاريخ وقدوة:

تفيدنا الآية صورة تامة لنظام الجندية في ملك سليمان، فقد كان الجنود يُسرَّحون من الخدمة، ويجمعون عند الحاجة، وكانت أعيانهم معروفة مضبوطة، وكانت لهم هيئة تعرفهم وتضبطهم وتجمعهم عند الحاجة، وكان لهم ضباط يتولون تنظيمهم، وكان النظام محكمًا لضبط تلك الكثرة، ومنعها من الاضطراب والاختلال والفوضى.

تعرض علينا الآية هذه الصورة التاريخية الواقعية، تعليمًا لنا، وتربيةً على الجندية المضبوطة المنظمة.

ولا شك أن الخلفاء الأولين قد عملوا على ذلك في تنظيم جيوشهم، وأن مثل هذه الآية كان له الأثر البليغ السريع في نفوس العرب لما أسلموا،

فسرعان ما تحوّلوا إلى جنود منظمة مما لم يكن معروفًا عندهم في الجاهلية .

وبقيت الآيةُ على الدهر مذكِّرةً لنا بأن النظامَ أساسُ كُلِّ مجتمعٍ واجتماعٍ، وأن القوى والكثرة وحدهما لا تغنيان بدون نظام، وأن النظام لابد له من رجال أكفاء يقومون به ويحملون الجموع عليه، وأولئك هم الوازعون .

طبيعة وشريعة:

في عالَم الجماد وعالَم النبات وعالَم الحيوان، نجد الطبيعة- بصنع اللَّه- تستخلص الأعلى من الأدنى والأقوى من الأضعف، فتجد الممتاز من أصل الخلق وبانتخاب الطبيعة في هذه العوالم الثلاثة، كما تجد الذهب في المعدن، وتجد الزهر والثمر في النجم[1] والشجر، وتجد الملكة من النمل والنحل مثلًا .

فالإنسان لم يخرج عن هذا القانون الطبيعي، ففيه الممتازون الذين يحتاج إليهم النوع الإنساني في صلاح حاله ومآله، ومنهم الذين يتولون حكمه وتنظيمه في أممه ومجتمعاته وجماعاته .

فالهيئة الحاكمة، والأفراد المنظمون، والقادة المسيرون، من ضروريات المجتمع الإنساني ومقررات الشرع الإسلامي، مثل ما في هذه الآية من أمر الوازعين .

ولما ولي الحسن البصري القضاء، قال: لابد للسلطان من وزعة، أي أعوان يكفُّون الناس عن الشر والفساد، ويتولون تربيتهم وتنظيمهم .

---

(١) النجم من النبات: ما لا ساق له .

وفي رواية: لا بد للناس من وازع، أي كافٍّ يكفُّ بعضهم عن بعض، وهو الحاكم وأعوانه.

وفي حديث ذكره أهل الغريب: «من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن»[١٧٧].

ومعناه: أن من يكفّهم عن الشرّ خوفُ السلطان وعقابُه الدنيوي أكثر ممن يكفّهم عن الشرّ الوعدُ والوعيدُ في القرآن.

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: الآية ٢٥].

* * *

[١٧٧] لا أصل له مرفوعًا:

أورده العامري في «الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث» (٥٧) وقال:

«جاء عن عثمان موقوفًا، ونحوه عن عمر موقوف».

قلتُ: والموقوف على عثمان بن عفان رضي الله عنه أخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (١٧٠٤) بإسناد منقطع، واللَّه أعلم.

الآية الرابعة وهي ١٨ من سورة النمل

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النَّمل: الآية ١٨] .

الألفاظ والتراكيب:

أتوا على واد النمل: هبطوا إليه من مكان أعلى منه، وهو بالشام أو الحجاز[1] ، لم تتوقف العبرة على تعيينه فلم يعين، وأضيف للنمل لكثرته فيه.

نملة: لفظها مؤنث، ومعناها محتمل مثل شاة وحمامة.

مساكنكم: هي قرى النمل التي يسكنها تحت وجه الأرض، المحكمة الوضع والتركيب والتقسيم، ولذلك قيل فيها مساكن، ولم يقل غيران.

لا يحطمنكم: لا يكسرنكم بالحوافر والأقدام.

لا يشعرون: لا يحسُّون بوجودكم.

الإتيان بإذا وجوابها لإفادة أن قولها كان بسبب إتيانهم عند أول ما أتوا.

لا يحطمنكم: نهتهم عن أن يحطمهم، والحطم ليس من فعلهم حتى ينهوا عنه، وإنما المعنى لا تكونوا خارج مساكنكم فيحطمكم، فنهتهم عن

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٢٢٧):
«ومن قال من المفسرين أن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وأن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غيره ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها».

المسبب، والمراد النهي عن السبب لما في ذلك من الإيجاز المناسب لِسرعة الإنذار لِسرعة النجاة، ولما في ذكر المسبب وهو الحطم من التخويف الحامل على الإسراع إلى الدخول.

والجملة مؤكدة للأولى فكأنها قالت: ادخلوا مساكنكم لا تبقوا خارجها.

ونظير التركيب في التعبير بالمسبب عن السبب: لا أرينك ههنا، أي لا تكن هنا فأراك.

المعنى:

سار سليمان- عليه الصلاة والسلام- في تلك الجنود العظيمة يحيط به الإنس والجن وتظلهم الطير حتى هبطوا على وادي النمل، فرأتهم كبيرة النمل وقائدته فصاحت في بني جنسها فنادتهم للتنبيه، وأرشدتهم إلى طريق النجاة بأمرهم بالدخول في مساكنهم، وحذرتهم من الهلاك بحطم سليمان وجنوده لهم عن غير شعور منهم، فلا يكون اللّوم عليهم، وإنما اللَّوم على النمل إذا لم يسرع بالدخول.

عبرة وتعليم:

عاطفة الجنسية غريزة طبيعية، فهذه النملة لم تهتم بنفسها فتنجو بمفردها، ولم ينسِها هولُ ما رأت من عظمة ذلك الجند إنذار بني جنسها إذ كانت تدرك بفطرتها أن لا حياة لها بدونهم، ولا نجاة لها إذا لم تنج معهم، فأنذرتهم في أشد ساعات الخطر أبلغ الإنذار، ولم ينسها الخوفُ على نفسها وعلى بني جنسها من الخطر الداهم أن تذكر عذر سليمان وجنده.

فهذا يعلّمنا أن لا حياة للشخص إلّا بحياة قومه، ولا نجاة له إلَّا بنجاتهم، وأن لا خير لهم فيه إلّا إذا شعر بأنه جزء منهم، ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه، وأن لا يكون اهتمامه بهم دون اهتمامه بها.

واجب القائد والزعيم:

هذه النملة هي كبيرة النمل، فقد كان عندها من قوة الإحساس ما أدركت به الخطر قبل غيرها فبادرت بالإنذار.

فلا يصلح لقيادة الأمم وزعامتها إلَّا من كان عنده من بُعد النظر، وصدق الحدس، وصائب الفراسة، وقوة الإدراك للأمور قبل وقوعها، ما يمتاز به عن غيره، ويكون سريع الإنذار بما يحسّ وما يتوقع.

عِظَةٌ بالغةٌ:

هذه نملة وفت لقومها، وأدت نحوهم واجبها، فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه!

هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه ولا يؤدي الواجب نحوهم، ولمن يرى الخطر داهمًا لقومه فيسكت ويتعامى، ولمن يقود الخطر إليهم ويصبه بيده عليهم.

آه.. ! ما أحوجنا- معشر المسلمين- إلى أمثال هذه النملة!.

* * *

الآية الخامسة وهي ١٩ من سورة النمل

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النَّمل: الآية ١٩].

الألفاظ والتراكيب:

التبسم: انفراج الشفتين على الأسنان، وقد يكون للغضب، وقد يكون للسخرية، وقد يكون للضحك وهو الأكثر، وهو بدايته، ولهذا قيد بـ(ضاحكًا).

أوزعني أن أشكر: ألهمني شكر نعمتك.

وتحقيقه في اللغة والتصريف أنك تقول: وزعت الشيء أي كففته، وأوزعني اللّه الشيء أي: جعلني أزع ذلك الشيء أي أكفه.

كما تقول: ركبت الفرس وأركبني زيد الفرس أي جعلني أركبه، فأوزعني شكر نعمتك أي: اجعلني أزع أي أكف شكر نعمتك أي: أمنعه من أن يذهب عني وينفلت مني، فالمقصود: اجعلني ملازمًا لشكرك فلا أنفك لك شاكرًا.

نعمتك: عام يشمل كل نعمة للّه عليه وعلى والديه.

وأن أعمل: معطوف على (أن أشكر) فيقدر مثل تقديره كما تقدم.

ترضاه: وصف مؤكد، وقد يكون للتقييد على ما سيأتي لأن العمل

الصالح مرضي عند[1] اللَّه، وإنما ذكر الوصف ليفيد أن رضا اللَّه مقصود بالعمل الصالح.

وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين: اجعلني معهم، وأكملُ الصالحين الأنبياءُ والمرسلون- صلى اللَّه وسلم عليهم أجمعين-.

وتحقيقه: أن الصالحين بما امتازوا به من كمال صاروا كأنهم في حمى خاص بهم لا يدخل عليهم فيه إلّا من كان مثلهم، فلهم مقامهم في الرفيق الأعلى، ولهم منازلهم في الجنة، ولهم ذكرهم الطيب عند اللَّه وعند العباد، وهذه المنازل والمقامات لا يدخلها العبد إلا برحمة من اللَّه، بتيسير لأسبابها وتفضل عظيم.

المعنى:

لما سمع سليمان- عليه الصلاة والسلام- كلام النملة تبسم تبسم السرور والتعجب من قولها، وطلب من ربه تعالى أن يلهمه شكر ما أنعم به عليه وعلى والديه، وأن يلهمه عملًا صالحًا، ينال به رضاه، وطلب منه تعالى أن يجعله في الصالحين بأن يثبت اسمه بينهم، ويقرن ذكره بذكرهم، ويلحقه بهم، ويسكنه الجنة معهم، بما يغمره به من رحمته وفضله وإحسانه.

توجيه:

صدور ذلك الإنذار البليغ من مثل تلك النملة في ضعفها وصغرها طريفٌ مستظرفٌ، ككل شيء يصدر من حيث لا ينتظر صدوره، فهذا مبعث تعجب

---

(١) في الأصل: عنه!

سليمان- عليه الصلاة والسلام- .

وشهادة النملة له ولجنوده بأنهم لو وطئوا النمل لوطئوه عن غير شعور، فهم لرحمتهم وشفقتهم وارتباطهم بزمام التقوى، وأخذهم بالعدل، لا يتعمدون التعدي على أضعف المخلوقات العجماء.

هذه شهادة أدخلت السرور على سليمان- عليه الصلاة والسلام- لما دلت عليه من ثبوت هذا الوصف العظيم له ولجنده وظهوره منهم واشتهارهم به.

كما بعث سرورَه شعورُه بما آتاه اللَّه من الملك العظيم والعلم الذي لم يؤته غيره حتى فهم به ما همست به النملة، وهي من الحُكل[1] الذي ليس له صوت يستبان في حال من الأحوال.

أَدَبُ مَنْ سَرَّتْهُ النِّعْمَةُ:

نِعَمُ اللَّهِ على العبدِ تُدْخِلُ عليه السرورَ بِجِبِلَّةِ الفِطرةِ، والفرحُ بنعمةِ اللَّهِ من الاعتراف بفضله والإكبار لنواله.

ومن أدب العبد حينئذ أن يسأل اللَّهَ التوفيقَ لِشكرِ تلك النعمة بصرفها في الطاعة والتوفيقَ لشكرها بما يقوم به من أعمال صالحة في رضا اللَّه، كما فعل سليمان- عليه الصلاة والسلام- .

النعمة المزدوجة:

إذا أنعم اللَّه على الأبوين بنعمة الإيمان والصلاح فهي نعمة على ولدهما إذا اتبعهما، وتكون تلك النعمة من اللَّه عليهما، سيما في حسن تربيتهما له

(١) الحُكل بالضم: جمع أحكل، وهو ما لا يُسمع صوتُه كالذر والنمل.

وتوجيهه في الوجهة الصالحة.

كما أن نعمة اللَّه على الولد هي نعمة على والديه، فهو من أثرهما، ومثل حسناته في ميزانهما[1] لأنهما أصل ذلك وسببه، ويدعو له الناس فيدعون لهما، ويدعو هو لهما، وقد يؤذن له فيشفع لهما.

فالنعمة على الوالد أو على الولد هي نعمة مزدوجة بينهما، ولهذا ذكر سليمان- عليه الصلاة والسلام- نعمة اللَّه على والديه مع نعمته عليه.

الغاية المطلوبة:

إن شعور العبد برضى اللَّه عنه هو أعظم لذة روحية تعجز عن تصويرها الألسن، وإحلال الرضوان على أهل الجنة أكبر من كل ما في الجنة من نعيم[2].

---

(١) يشهد لذلك قوله ﷺ: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم» أخرجه الترمذي (١٣٦٢) وقال: «حديث حسن صحيح»، وغيره، وصححه الحاكم (٢/ ٤٦) ووافقه الذهبي.

(٢) كما في حديث أبي سعيد الخُدري مرفوعًا: «إن اللَّه يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربّ، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربّ! وأيّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلّ عليكم رضواني، فلا أسخط عيكم بعده أبدًا». أخرجه البخاري (٦٥٤٩ و٧٥١٨) ومسلم (٢٨٢٩).

وعن صهيب مرفوعًا: «إذا دخل أهل الجنة الجنةَ، قال: يقول اللَّه تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ. ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يُونس: الآية ٢٦]». أخرجه مسلم (١٨١).

وفي الجمع بينهما يراجع ما ذكره الحافظ في «فتح الباري» (١٣/ ٥٩٦ و١١/ ٥١٤).

فالغاية التي يسعى إليها الساعون ويعمل لها العاملون هي رضى اللَّه، فالعمل الصالح ترتضيه العقول وتستعذبه الفطر، ولكنه لا يفيد صاحبه إذا لم يبلغ به مرضاة اللَّه، ولهذا قال سليمان- عليه الصلاة والسلام-: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾.

جمع وتحقيق:

قال اللَّه تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: الآية ٣٢].

فأفاد أن الأعمال سبب في دخول الجنة.

وفي هذه الآية ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ﴾ [النَّمل: الآية ١٩].

فأفاد أن الدخول بالرحمة(١).

ولا منافاة ما بينهما، فالأعمال سبب شرعي لدخول الجنة، والهداية إليه والتوفيق فيه وقبوله هو رحمة من اللَّه.

والعمل من حيث ذاته لا يستحق على اللَّه جزاء، لأنه لا ينتفع به إذ هو الغني عن خلقه، وإنما تفضل فجعله سببًا في نيل ثوابه، ثم تفضل فجعل الجزاء مضاعفًا إلى عشر، إلى أضعاف كثيرة، إلى الموفي للصابرين بغير حساب.

دقيقة روحية:

إنّ الأرواح النورانية الطاهرة السامية لا لذّة لها حقيقية في هذا العالَم

---

(١) ويؤكده قوله ﷺ: «لن يُدْخِلَ أحدًا منكم عملُه الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللَّه منه بفضل ورحمة». أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦).

وفي الجمع بين هذه النصوص- إضافة إلى ما ذكره المصنف- يراجع «مجموع الفتاوى» (٨/ ٧٠، ٧١) لابن تيمية، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ١١٩- ١٢١) لابن القيم، و«فتح الباري» (١١/ ٣٥٧- ٣٥٩) لابن حجر.

الفاني المادي المنحط، وإنما لذتها الحقيقية في عالمها العالي الأقدس، وفي الرفيق الأعلى الأطهر، وفي معاشرة أمثالها من النفوس الطيبة الزكية، في ذلك القدس الأسنى، فهي دائمة الشوق إليه والانجذاب نحوه.

ولذا كان من دعوات الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- الدخول في الصالحين واللحوق بهم، مثل قول سليمان هنا، وقول إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٣] . وقول يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠١] .

وفقنا اللَّه لشكر ما منّ به من سابق النعمة، وللقيام فيما بقي من العمر بواجب الخدمة، وختم لنا باللحوق بعباده الصالحين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٤، م١٥) غرة ربيع الثاني ١٣٥٨هـ - ماي ١٩٣٩م.

الآية السادسة وهي ٢٠ من سورة النمل

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النَّمل: الآية ٢٠]

الألفاظ والتراكيب:

وتفقد: التفقَّد: تطلُّبك ما فقدته وغاب عنك، وتعرّفك أحواله.

لا أرى: لا أبصر.

الهدهد: هو «تبيب» وهو طائر صغير الجرم، منتن الريح، ليس من كرام الطير ولا من سباعها.

مالي لا أرى: استفهم عما حصل له فمنعه من الرؤية، حيث ظنَّ أوَّلًا أن الهدهد كان حاضرًا وإنما هو لم يره.

أم كان من الغائبين: استفهم عن غيبته حيث ظن ثانيًا أنه غائب فاستفهم عن صحة ما ظن، فكلمة (أم) فيها إضراب وفيها استفهام، فأضرب إضراب انتقال من ظن إلى ظن.

كان من الغائبين: تعريض بقبح فعله لمَّا انحطَ عن شرف الحضور وكان من الغائبين.

المعنى:

تطلّب سليمان عليه السلام معرفة ما غاب عنه من أحوال الطير فلم ير الهدهد،

وأخذ يتساءل، فظن أن شيئًا ستره عنه فلم يره، ولما لم يكن شيء من ذلك ظن أنه كان غائبًا غير حاضر، وذلك هو الظن الأخير الذي حصل به اليقين.

تعليم وقدوة:

من حق الرعية على راعيها أن يتفقدها، ويتعرف أحوالها، إذ هو مسؤول عن الجليل والدقيق منها، يباشر بنفسه ما استطاع مباشرته منها، ويضع الوسائل التي تطلعه على ما غاب عليه منها، وينيط بأهل الخبرة والمقدرة والأمانة تفقد أحوالها حتى تكون أحوالُ كلِّ ناحيةٍ معروفةً مباشرةً لمن كلّف بها.

فهذا سليمان على عظمة ملكه واتساع جيشه وكثرة أتباعه قد تولى التفقد بنفسه ولم يهمل أمر الهدهد على صغره وصغر مكانه.

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لو أن سخلة بشاطئ الفرات يأخذها الذئب لَيُسْأَلُ عنها عمر[١٧٨].

وهذا التفقد والتعرف هو على كل راع في الأمم والجماعات والأسر والرفاق، وكل من كانت له رعية.

تعليل وتحليل:

تفقد سليمان جنس ما معه من الطير للتعرف كما ذكرنا، وذكر الطير لأنه

---

[١٧٨]:
روى نحوه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٣٠٥) والدينوري في «المجالسة (٩٧٥) وابن جرير الطبري في «التاريخ» (٥/ ١٨) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٣) من طرق عن عمر موقوفًا، والله أعلم.
و(السخلة): ولد الغنم.

هو الذي تعلقت به القصة.

وليس في السكوت عن غير الطير ما يدل على أنه لم يتفقده، فالتفقد لم يكن للهدهد بخصوصه، وإنما لما تفقد جنس الطير فقده ولم يجده فقال ما قال.

فلا وجه لسؤال من سأل: كيف تفقد الهدهد من بين سائر الطير؟

تدقيق لغوي وغوص علمي:

سأل سليمان عن حال نفسه فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؟ ولم يسأل عن حال الهدهد فيقل: ما للهدهد لا أراه؟ فذكر حال نفسه قبل أن ينكر حال غيره.

فنقل الحافظ الإمام ابن العربي عن الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري شيخ الصوفية في زمانه قال:

«إنما قال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النَّمل: الآية ٢٠] لأنه اعتبر حال نفسه إذ[1] علم أنه أوتي الملك العظيم وسخر له الخلق، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العمل، فلما فقد نعمة الهدهد توقّع أن يكون قصّر في حق الشكر، فلأجله سلبها، فجعل يتفقد نفسه فقال: ﴿مَالِيَ﴾.

وكذلك تفعل شيوخ الصوفية إذا فقدوا آمالهم، تفقدوا أعمالهم.

هذا في الآداب، فكيف بنا اليوم ونحن نقصّر في الفرائض؟!»[2].

---

(١) في الأصل: ذ، وفي بعض النشرات: ذا، والتصويب من «الأحكام».

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٤٥٤) والزيادة بين المعقوفين منه.

توجيه:

مثل هذه المعاني الدقيقة القرآنية الجليلة النفيسة من مثل هذا الإمام الجليل من أجلّ علوم القرآن وذخائره، إذ هي معانٍ صحيحةٌ في نفسها، ومأخوذةٌ من التركيب القرآني أخذًا عربيًّا صحيحًا، ولها ما يشهد لها من أدلة الشرع.

وكل ما استجمع هذه الشروط الثلاثة فهو صحيح مقبول.

ومنه فهم عمر وابن عباس رضي الله عنهما أَجَلَ رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم من سورة النصر[١٧٩].

أما ما لم تتوفر فيه الشروط المذكورة- وخصوصًا الأول والثاني- فهو الذي لا يجوز في تفسير كلام اللَّه، وهو كثير في التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية، كتفسير أبي عبد الرحمن السلمي(١) من المتقدمين، والتفسير

[١٧٩] صحيح:

أخرجه البخاري (٤٩٧٠) عن ابن عباس قال:

«كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنَّ بعضهم وجد في نفسه فقال: لِمَ تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعا ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذٍ إلا ليريهم. قال: ما تقولون في قول اللَّه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: الآية ١] فقال بعضهم: أمرنا نحمد اللَّه ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا. فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلتُ: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم أعلمه له. قال: إذا جاء نصر اللَّه والفتح - وذلك علامة أجلك - فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول».

(١) هو محمد بن الحسين أبو عبد الرحمن السلمي النيسابوري، شيخ الصوفية، وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم، المتوفى سنة (٤١٢هـ).

قال الذهبي في «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١٠٤٦): «ألَّف «حقائق التفسير» فأتى فيه بمصائب وتأويلات الباطنية، نسأل اللَّه العافية».

=

المنسوب لابن عربي[1] من المتأخرين.

* * *

= وقال في «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢٥٢): «وفي حقائق تفسيره، أشياء لا تسوغ أصلًا، عدّها بعض الأئمة من زندقة الباطنية، وعدّها بعضهم عرفانًا وحقيقة، نعوذ باللَّه من الضلال ومن الكلام بهوى، فإن الخير كل الخير في متابعة السنة والتمسك بهدي الصحابة والتابعين ﷺ».

(١) هو محمد بن علي الطائي الحاتمي المرسي ابن العربي، نزيل دمشق، المتوفى سنة (٦٣٨هـ).

قال الذهبي في «السير» (٢٣/ ٤٨-٤٩): «من أردإ تواليفه كتاب «الفصوص» فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر، نسأل اللَّه العفو والعافية، فواغوثاه باللَّه! وقد عظمه جماعة وتكلّفوا لِما صدر منه ببعيد الاحتمالات، وقد حكى العلامة ابن دقيق العيد شيخُنا أنه سمع الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول عن ابن عربي: شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم، ولا يحرم فَرْجًا».

وانظر «الميزان» (٧٩٨٤) له أيضًا.

الآية السابعة وهي ٢١ من سورة النمل

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النَّمل: الآية ٢١]

الألفاظ والتراكيب:

عذابًا شديدًا: بنتف ريشه، هكذا فسره ابن عباس[١٨٠] وجماعة من التابعين.

بسلطان مبين: بحجة قاطعة توضح عذره في غيبته، سُمِّيتِ الحُجَّة سلطانًا لما لها من السلطة على العقل في إخضاعه.

أفادت (أو) أنّ المحلوف على حصوله هو أحد الثلاثة، فإذا حصلت الحجة فلا تعذيب ولا ذبح، ولو لم تحصل لفعل أحدهما، وقدم التعذيب لأنه أشد من القتل، وحالة الغضب تقتضي تقديم الأشد.

المعنى:

يُقْسِمُ سليمان على معاقبة الهدهد- وقد تحقق غيبته- بالتعذيب، أو بالذبح، إذا لم يأته بالحجة التي تبين عذره في تلك الغيبة، ولا يستثني للعفو، ولا يجعل سببًا لسلامته من العقوبة إلّا الحجة.

توجيه واستنباط:

ليس في الآية ما يفهم خصوص نتف الريش من لفظ العذاب الشديد،

---

[١٨٠] رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٤٥) من طرق عن ابن عباس.

وإنما فهم ابن عباس رضي الله عنهما وأئمةٌ من التابعين ذلك بالنظر العقلي والاعتبار، فإن نتف ريشه يعطّل خاصية الطيران فيه فيتحول من حياة الطير إلى حياة دواب الأرض، وذلك نوع من المسخ، وقد علم أن المسخ في القرآن أشنع عقوبة في الدنيا، فلهذا فسروا العذاب الشديد بنتف الريش.

والإنسان خاصيته التفكير في أفق العلم الواسع الرحيب، فمن حرم إنسانًا- فردًا أو جماعة- من العلم، فقد حرمه من خصوصيته الإنسانية وحوّله إلى عيشة العجماوات، وذلك نوع من المسخ، فهو عذاب شديد، وأيّ عذاب شديد؟.

صرامة الجندية:

كان هذا الهدهد من جنود سليمان، التي حشرت له، وقد كان في مكانه الذي عُيِّن له وأُقيم فيه، فلما فارق وترك الفرجة في صفه، وأوقع الخلل في جنسه؛ استحق العقاب الصارم الذي لا هوادة فيه.

وهذا أصلٌ في صرامة أحكام الجندية وشدتها لعظم المسؤولية التي تحملتها، وتوقف سلامة الجميع على قيامها بها، وعظم الخطر الذي يعم الجميع إذا أخلت بها.

تقدير العقوبة:

جرم الهدهد صغير، وما كلف إلّا بما يستطيعه من الوقوف في مكانه والبقاء في مركزه، ولكن جرمه بإخلاله بهذا الواجب كان جرمًا كبيرًا، فإن الخللَ الصغيرَ مجلبةٌ للخلل الكبير، فقدرت عقوبته على حسب كبر ذنبه، لا على حسب صغر ذاته.

تنبيهٌ وإرشاد:

كلّ واحد في قومه أو في جماعته هو المسؤول عنهم من ناحيته مما يقوم به من عمل، حسب كفاءته واستطاعته، فعليه أن يحفظ مركزه ولا يدع الخطر يدخل، ولا الخلل يقع من جهته، فإنه إذا قصّر في ذلك وترك مكانه فتح ثغرة الفساد على قومه وجماعته، وأوجد السبيل لتسرب الهلاك إليهم.

وزوال حجر صغير من السدِّ المقام لصدّ السيل يفضي إلى خراب السد بتمامه.

فإخلال أي أحد بمركزه ولو كان أصغر المراكز مؤدٍّ إلى الضرر العام.

وثبات كل واحد في مركزه وقيامه بحراسته هو مظهر النظام والتضامن، وهما أساس القوة.

الحق فوق كل أحد:

لقد أغضب سليمانَ غيابُ الهدهد، فلذا توعده هذا الوعيد، وأكده هذا التأكيد.

ولكن سلطان سليمان في قوته وملكه ومكانته يجب أن يخضع لسلطان آخر هو أعظم من سلطانه: هو سلطان الحق، والحق فوق كل أحد.

وملك سليمان ملك حق، فلابد له من الخضوع لسلطان الحجة ليقيم ميزان العدل، والعدل أساس الملك وسياج العمران[1].

(١) الشهاب (ج٥، م١٥) جمادى الأولى ١٣٥٨هـ - جوان ١٩٣٩م.

الآية الثامنة وهي ٢٢ من سورة النمل

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾

[النَّمل: الآية ٢٢]

الألفاظ والتراكيب:

«مَكُث»: أقام، وقرأ عاصم بفتح الكاف.

غير: صفة زمان محذوف. فالتقدير: زمان غير بعيد.

فاعل «مكث» هو الهدهد، مثل فاعل «قال» الآتي.

أحطت: الإحاطة بالشيء، عقليًّا هي العلم به من جميع نواحيه.

سبأ: اسم مدينة باليمن، سميت باسم سبأ جد العرب اليمانية حمير وغيرها، وصرفه الجمهور على اعتبار المكان، ومنعه من الصرف المكي والبصري على اعتبار البلدة.

بنبأ: النبأ، الخبر الذي له شأن وخطورة.

و«اليقين»: المحقق، جعله نفس اليقين مبالغة في تحققه.

وفي الكلام إيجاز بالحذف، إذ المعنى: فجاء الهدهد فسأله سليمان- عليه الصلاة والسلام- عن سبب مغيبه فقال.

المعنى:

لم تطل غيبة الهدهد عن مركزه في جنود سليمان، فلم يلبث في غيبته إلّا

زمانًا قصيرًا. وكان سؤال سليمان له عن غيبته فور رجوعه، فأسرع بالجواب والاعتذار عن الغيبة والدفاع عن نفسه، فقال: اطلعتُ على شيء لم تطلع أنتَ عليه، وعرفته من جميع نواحيه، وقد أتيتك من بلدة سبأ بخبر خطير ذي شأن عظيم تيقنته غاية اليقين.

توجيه واستنباط:

كان في جواب الهدهد حجة بينة لسبب غيابه، وذلك لأنه لم يذهب عابثًا ولا لغرض خاص به، وإنما ذهب مستطلعًا مكتشفًا، فحصّل علمًا، وجاء بخبر عظيم في زمن قصير، فرجعت هذه الفوائد العظيمة بتركه لمركزه في الجند فسقطت عنه المؤاخذة.

فإن قيل: إنَّ أصل مفارقته لمركزه دون استئذان كان مخالفة يستوجب عليها العقوبة.

فالجواب: إنّ هذه المخالفة كانت لقصد حسن، وهو الاستطلاع، وأثمرت خيرًا، فاستحق العفو عن تلك المخالفة التي كانت عن نظر، ولم تكن عن تهاون وانتهاك للحرمة.

فإن قيل: ما الذي أوقع في نفس الهدهد رغبته في طلب ما طلب؟

فالجواب: أنه يجوز أن يكون شاهد عمران اليمن من مكان بعيد ببصره الحاد فرغب في المعرفة، أو أن يكون قد مر باليمن من قبل ولم يتحقق من حالها، فأراد أن يتحقق.

وهذه الآية مأخذ من مآخذ الأصل القائل: إنّ المخالف للأمر عن غير

انتهاك للحرمة لا يؤاخذ بتلك المخالفة.

ومن فروع هذا الأصل سقوط الكفارة عمن أفطر في رمضان متعمدًا متأولًا تأويلًا قريبًا[1].

عِزَّةُ العلم وسلطانُه:

ابتدأ الهدهد جوابه معتزًّا بما أحاط به من العلم، متجملًا بما حَصل منه، مظهرًا لارتفاع منزلته به، متحصنًا به من العقاب. ولم تمنعه عظمة سليمان- عليه الصلاة والسلام- من إظهار علمه وإعلان اختصاصه به دون سليمان.

أدب واقتداء:

قد سمع سليمان هذا من الهدهد وأقرّه عليه، فللصغير أن يقول للكبير، وللحقير أن يقول للجليل: علمتُ ما لم تعلم، وعندي ما ليس عندك، إذا كان من ذلك على يقين، وكان لقصد صحيح.

ومن أدب مَنْ قيل له ذلك ولو كان كبيرًا جليلًا أن يتقبل ذلك، ولا يبادر بردِّه، وعليه أن ينظر فيه ليعرف مقدار صدق قائله فيقبله أو يردّه بعد النظر والتأمل، إذ قد يكون في أصغر مخلوقاتِ اللّٰهِ وأحقرِها من يحيط علمًا بما لم يحط مثل سليمان- عليه الصلاة والسلام- في علمه وحكمته واتساع مدركاته.

---

(١) وذهب بعض الفقهاء إلى سقوط القضاء عنه أيضًا، ويشهد له ما ثبت في «الصحيحينِ» أن عدي بن حاتم رضي الله عنه لما تأول الخيط الأبيض والخيط الأسود- المذكورين في آية البقرة- بالحبلين المعروفين، فجعل يأكل حتى تبينا له وقد طلع النهار، فعفا النبي ﷺ له عن ذلك، ولم يأمره بالقضاء لتأويله». وانظر «إعلام الموقعين» (٢/ ٥٢ و٤/ ٨٥) لابن القيم.

وكفى بمثل هذا زاجرًا لكلّ ذي علم عن الإعجاب بعلمه، والاغترار بِسَعَةِ اطّلاعه، والترفع عن الاستفادة ممن دونه.

مدرك عقيدة:

لا يعلم أحدٌ من الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- شيئًا مما غاب عنه إلَّا بإعلام اللَّه، فليس لهم كشف عام عن جميع ما في الكون، وإنما يعلمون منه ما أطلعهم اللَّهُ عليه.

ومن مدارك ذلك هذه القصة، فإنَّ سليمان- عليه الصلاة والسلام- لم يكن يعلم من مملكة سبأ شيئًا حتى أطلعه اللَّه عليه بواسطة الهدهد.

وإذا كان هذا حال الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام-، فغيرهم من عباد اللَّه الصالحين من باب أحرى وأولى.

تحقيق تاريخي:

رويت في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على شيء من الصحة، ومعظمها من الإسرائيليات الباطلة، التي امتلأت بها كتب التفسير مما تُلُقِّيَ من غير تثبت ولا تمحيص، من روايات كعب الأحبار ووهب بن مُنَبِّه.

وروى شيئًا من ذلك الحاكمُ في «مستدركه»[1] وصرح الذهبي ببطلانه.

---

(١) في (٢/ ٥٨٨) من طريق محمد بن جعفر بن محمد عن أبيه قال:
«أعطي سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها، فملك سليمان بن داود سبعمائة سنة وستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والإنس والشياطين والدواب والطير والسباع، وأعطي علم كل شيء، ومنطق كل شيء، وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة التي ما سمع بها الناس، وسخرت له، =

ومن هذه المبالغات الباطلة أنه ملك الأرض كلها مشارقها ومغاربها.

فهذه مملكة عظيمة بسبأ، كانت مستقلة عنه ومجهولة لديه، على قرب ما بين عاصمتها باليمن وعاصمته بالشام[١].

* * *

= فلم يزل مدبرًا بأمر اللّه ونوره وحكمته، حتى إذا أراد اللّه أن يقبضه أوحى إليه أن استودع علم اللّه وحكمته أخاه وولد داود، وكانوا أربع مائة وثمانين رجلًا بلا رسالة»

وتعقبه الحافظ الذهبي في «تلخيص المستدرك» - كما أشار إليه إمامنا المصنف - فقال: «قلتُ: هذا باطل».

(١) الشهاب (ج٦، م١٥) غرة جمادى الثانية ١٣٥٨هـ - جويلية ١٩٣٩م.

الآية التاسعة وهي ٢٣ من سورة النمل

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النَّمل: الآية ٢٣]

الألفاظ والتراكيب:

وجدت: أصبتُ.

امرأة: هي بلقيس بإجماع المفسرين والمؤرخين.

تملكهم: تتولى أمرهم ملكة عليهم، وعبّر بالمضارع تصويرًا للحال العجيب، وهو أن تتولى ملكهم امرأة. وعاد الضمير على سبأ ضمير جمع مذكر على معنى القوم، إذ كانوا يسمون باسم أبيهم، فذكر لفظ سبأ أوَّلًا بمعنى المدينة، وأعيد عليه الضمير بمعنى القوم على أسلوب الاستخدام.

من كل شيء: لفظ عام أريد به كل ما تحتاج إليه من أشياء الملك والسلطان والقوة والعمران.

عرش: هو سرير الملك الذي تجلس عليه.

عظيم: في كبره وقوته وحسنه.

المعنى:

يقول الهدهد لسليمان- عليه الصلاة والسلام- مبينًا الخبر العظيم الذي جاء به: إني وجدت أولئك القوم الذين يسكنون تلك المدينة قد جعلوا امرأةً

ملكةً عليهم، وقد أُعطيت تلك الملكة كل ما تحتاج إليه في نظام ملكها وعظمته، ومن مظاهر تلك العظمة السرير العظيم الذي تجلس عليه بين أهل مملكتها.

عظمة المملكة العربية اليمنية:

كانت بلقيس ملكة على اليمن في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد، وقد كانت ملكة عظيمة على مملكة عظيمة راقية، والهدهد الذي شاهد ملك سليمان وعظمته قد استعظم ملكها وعرشها، وعظمة العرش عنوان عظمة الملك، فلذا خصصه الهدهد بالذكر ورغب سليمان في الإتيان به.

تفوُّق العرب على الإسرائيليين:

كل ذلك الرقي وتلك العظمة بَلَغَتْهُما المملكةُ العربية اليمنية بنفسها من تفكيرها وعملها من قرون بعيدة.

فأمَّا الإسرائيليون- وهم إذ ذاك في القرن الخامس من تاريخهم- فإنهم لم يبلغوا في ذلك العهد إلى شيء من ذلك.

وما كان لسليمان من بناءات ومنشآت فهو مما صنعته له الجن والشياطين، كما جاء في آيات من القرآن عديدة[1].

ولم يترك بنو إسرائيل من الآثار ما يدل على شيء ذي بال من الفن والقوة.

فأما ما تركته اليمن فهو شيء كثير قائم مشاهد، والاكتشافاتُ ما زالت

(١) كما في الآيات (١٢- ١٣) من سورة سبأ، والآيات (٣٤- ٣٨) من سورة ص.

تُظهر منه شيئًا فشيئًا .

ولاية المرأة الملك:

ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : «**لن يفلحَ قومٌ ولّوا أمرهم امرأة**»[١٨١] .

قاله لما بلغه أن الفرس ملَّكوا عليهم امرأة .

فاقتضى هذا أن لا تلي المرأةُ ولايةً ولا إمارةً ولا قضاءً، وأَيَّدَتْ هذا النصَّ الصحيحَ السُّنَّةُ العمليةُ، فأخذ به جمهور أئمة الإسلام، وجاءت روايات عليلة عن بعضهم لم يُلتفَتْ إليها ولم يُعمل بها .

تعليل:

لا تصلح المرأة للولاية من ناحية خلقتها النفسية، فقد أُعطيت من الرقة والعطف والرأفة ما أضعف فيها الحزم والصرامة اللازمين للولاية .

وفي اشتغالها بالولاية إخلال بوظيفتها الطبيعية الاجتماعية التي لا يقوم مقامها فيها سواها، وهي القيام على مملكة البيت وتدبير شؤونه، وحفظ النسل بالاعتناء بالحمل والولادة وتربية الأولاد .

---

[١٨١] صحيح :

رواه البخاري (٤٤٢٥و٧٠٩٩) عن أبي بكرة قال :

لقد نفعني اللَّه بكلمة سمعتها من رسول اللَّه ﷺ أيام الجمل بعد ما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم . قال : لما بلغ رسول اللَّه ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال : «لن يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأة» .

ورواه النسائي (٨/ ٢٢٧) والترمذي (٢٢٦٧) وأحمد (٥/ ٤٣و٤٧و٥١) .

وقال الترمذي : «حديث حسن صحيح» .

دفع اعتراض:

في تواريخ الأمم نساء تولين الملك، ومن المشهورات في الأمم الإسلامية شجرة الدر[1] في العصر الأيوبي، ومنهن مَنْ قضت آخر حياتها في الملك وازدهر ملك قومها في عهدها، فما معنى نفي الفلاح عمن ولَّوا أمرهم امرأة؟

هذا اعتراض بأمر واقع، ولكنه لا يرد علينا، لأن الفلاح المنفي هو الفلاح في لسان الشرع، وهو تحصيل خير الدنيا والآخرة، ولا يلزم من ازدهار الملك أن يكون القوم في مرضاة اللَّه، ومن لم يكن في طاعة اللَّه فليس من المفلحين، ولو كان في أحسن حال فيما يبدو من أمر دنياه، على أن أكثر من ولوا أمرهم امرأة من الأمم إذا قابلهم مثلهم كانت عاقبتهم أن يُغْلَبوا.

* * *

(١) تولت ملك مصر بعد وفاة زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكانت ذات عقل وحزم، كاتبة قارئة، لها معرفة تامة بأحوال المملكة لكن لم يستقر أمرها غير ثمانين يومًا. ماتت مقتولة سنة (٦٥٥هـ). الأعلام (٣/ ١٥٨).

الآية العاشرة وهي ٢٤ من سورة النمل

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٢٤]

الألفاظ والتراكيب:

من دون اللَّه: تجاوزوا عبادة اللَّه إلى عبادة الشمس.

زين: حسّن.

أعمالهم: سجودهم للشمس وغيره من أعمال كفرهم.

فصدهم: صرفهم صرفًا شديدًا.

السبيل: هو الطريق الوحيد المعهود للنجاة، وهو توحيد اللَّه.

لا يهتدون: لا يكون منهم سلوك في طريق الحق والسداد.

جملة ﴿وَجَدتُّهَا﴾ مستأنفة للبيان جوابًا على تقدير سؤال، فالكلام السابق بيَّن حالتها من ناحية الدنيا، فتتشوف نفس السامع إلى معرفة حالتها من ناحية الدين.

عدم اهتدائهم مسبب عن صد الشيطان لهم، وصده مسبب عن تزيينه[1] لأعمالهم لهم، هذا ما تفيده «الفاء».

(١) في الأصل: تزييفه!

المعنى:

وجدتها وقومها مجوسًا يعبدون الشمس فيسجدون لها ولا يسجدون للَّه، وقد تمكّن الشيطان منهم فحسّن في أعينهم أعمالهم فصرفهم عن عبادة اللَّه وتوحيده مع ظهور الدلائل ووضوح الآيات، فثبتوا على ضلالهم، لا يكون منهم اهتداء لطريق النجاة الظاهر في حال من الأحوال.

سلاح الشيطان وأصل الضلال:

محبة الإنسان نفسه غريزة من غرائزه، وهو محتاج إليها، ليجلب لنفسها حاجتها، ويدفع عنها ما يضرّ بها، ويسعى في تكميلها.

هذه هي الناحية النافعة والمفيدة من هذه الغريزة، ولكنها من جهة أخرى هي مدخل من أعظم مداخل الشيطان على الإنسان فيحسّن له أعماله، وهو لمحبة نفسه يحب أعماله ويغترُّ بها، فيذهب مع هواه في تلك الأعمال على غير هدى ولا بيان، فيهلك هلاكًا بعيدًا.

فاستحسان المرء لأعماله هو أصل ضلاله، وتزيين الشيطان لتلك الأعمال هو أحدّ سلاح للشيطان.

الوقاية:

فعلى المرء أن يتهم نفسه في كل ما تدعوه إليه، وأن يزن جميع أعماله بميزان الشرع الدقيق، خصوصًا ما تشتد رغبته فيه ويعظم حسنه في عينه.

* * *

الآية الحادية عشرة وهي ٢٥ من سورة النمل

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٢٥]

الألفاظ والتراكيب:

ألا يسجدوا: عدم سجودهم، فإنْ مصدرية، و«لا» نافية، وهو بدلُ بعضٍ من أعمالهم، خصّص بالذكر لأنه أصل كفرهم ومبعث فساد أعمالهم.

الخبء: الشيء المخبوء، فعل بمعنى مفعول، يقال: خبأت الشيء أخبؤه خبأً، بمعنى سترته عن العيون.

الخبء يشمل كل ما احتوته السموات والأرض مما يبرزه اللَّه للخلق لمنفعتهم، فتشاهده العيون مثل المطر والنبات، أو تدركه العقول مثل بدائع الخلق ودقائق الصنع، ومنه ما يكشفه اللَّه لعلماء الأكوان من أسرار الخلقة عندما يستعملون عقولهم ووسائلهم العلمية، فيأتون بما فيه نفع للعباد ورقي للعمران.

«ما يخفون»: ما يكتمون في أنفسهم أو عن غيرهم.

«ويعلنون»: يظهرون للناس.

المعنى:

زيَّن لهم الشيطانُ من أعمالهم على الخصوص عدم سجودهم للَّه، الذي

أقام عليهم الحجة، بما يخرجه لهم من الخيرات المخبآت من السموات والأرض، من أمطار السماء ونبات الأرض، مما يدل على عظيم قدرته ولطف علمه، الذي أحاط بما ببواطن الأشياء وظواهرها، وبما تنطوي عليه السرائر، أو تواريه الستائر، وبما هو ظاهر للعموم.

استدلال وتوجيهه:

السجود مظهر لغاية الذل والخضوع والانقياد والاستسلام، وتلك أصل العبادة، ولا يستحقها من العبد إلّا من هو- حقيقة- المنعم الغني الكامل القوي، وما هو إلّا خالقه.

فاستدل على استحقاق اللَّه السجود دون غيره بما ذكر من إخراجه الخبء، ويشمل علمه لما خفي وما علن، وذلك متضمن لكماله وإنعامه، وشمول علمه، وعموم سلطانه.

حكم وانبناؤه:

انبنى على أن السجود عبادة، ولا يستحقّها إلّا الخالق: تحريمُ السجود للمخلوق، فلا يجوز أن يُعظِّم به أحدٌ أحدًا ولو لم يقصد به العبادة، أما إذا قصد به العبادة فهو الكفر البَواح[1].

تحذير:

كثيرًا ما رأينا في الرسوم التي تنشرها الصحف أناسًا من المسلمين راكعين أو مقاربين للسجود لذي سلطان.

---

(١) أي: جهارًا، من باح بالشيء يبوح به، إذا أعلنه. «النهاية».

فعلى المسلم أن يحذر من ذلك فلا يفعله، ولا ينحني لأحد من الخلق، وأن ينكره إذا رآه.

تشويق القرآن إلى علوم الأكوان:

من أساليب الهداية القرآنية إلى العلوم الكونية أن يعرض علينا القرآن صورًا من العالَم العلوي والسفلي في بيان بديع جذاب، يشوِّقنا إلى التأمل فيها، والتعمق في أسرارها.

وهنا يذكر لنا ما خبأه في السموات والأرض لنشتاق إليه، وننبعث في البحث عنه، واستجلاء حقائقه ومنافعه، بدافع غريزة حب الاستطلاع ومعرفة المجهول.

وبمثل هذا انبعث أسلافنا في خدمة العلم واستثمار ما في الكون إلى أقصى ما استطاعوا، ومهدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم، ولن نعزّ عزّهم إلَّا إذا فهمنا الدين فهمهم، وخدمنا العلم خدمتهم.

ترتيب في الاستدلال:

إخراج الخبء لا يكون إلّا من العالِم بذلك الخبء الذي أحاط علمه به في حال ستره وفي حال ظهوره، فيدل ذلك على شمول علمه لما ظهر وما بطن، ومنه ما يخفون وما يعلنون، ولذلك عطفه عليه لترتبه عليه ترتب المدلول على دليله.

* * *

الآية الثانية عشرة وهي ٢٦ من سورة النمل

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩﴾ [النَّمل: الآية ٢٦]

الألفاظ والتراكيب:

العرش: مخلوق عظيم من عالَم الغيب، أعظم من السموات والأرض(١).

المعنى:

الموصوف بتلك الصفات، والمنعم بتلك الإنعامات، المستحق للسجود منهم- وقد زين لهم الشيطان عدم السجود له- هو اللَّه الذي لا معبود غيره، ولا يستحق العبادة سواه، خالق المخلوقات كلها، والمالك لها، والمدبر لأمرها، والمتصرف فيها من أصغر مخلوق إلى أعظم مخلوق، وهو عرشه العظيم الذي فاق كل ما نرى من عالَم الشهادة.

توجيه الترتيب:

لما ذكر استحقاقه للعبادة بكمالاته وإنعاماته، ذكر أن لا مستحق للعبادة غيره، إذ لا يشاركه في تلك الكمالات والإنعامات سواه، فكأن الجملة كالنتيجة لما قبلها.

ولما ذكر وحدانيته في الألوهية فلا يعبد سواه؛ ذكر وحدانيته في الربوبية

---

(١) ويدل على عظمته قوله ﷺ: «ما السموات السبعُ في الكرسي إلا كحلقة ملقاةٍ بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة». كما في «الصحيحة» (١٠٩) للألباني.

بانفراده في الخلق والملك والتصرف والتدبير لهذا المخلوق العظيم، ونبه به على ما دونه من المخلوقات.

ولما كان الحديث على عظمة ملك العباد ملك النبوة وغيره؛ ذكر عظمة ملك اللَّه الذي تصغر إزاءها كل عظمة.

بيان مراد:

قد يتماثل(١) اللفظان، ولكن يجب أن يعبر كل واحد بمعنى لائق بالمقام الذي قيل فيه، فلقد جاء في حق سليمان -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّمل: الآية ١٦]، ووصف الهدهد بلقيس بأنها ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّمل: الآية ٢٣] ولما كان المتحدث عنه أولًا هو سليمان، فكل شيء يعم ما يحتاج إليه من أمر النبوة وملك النبوة.

كما أنه قد قال عنها: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النَّمل: الآية ٢٣]، وقال عن اللَّه ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبَة: الآية ١٢٩] و[المؤمنون: الآية ٨٦] و[النمل: الآية ٢٦] فعرش عظيم بين عروش الملوك، وعرش اللَّه عظمته أعظم من السموات والأرض.

وهكذا لابد من اعتبار المقام في فهم الكلام.

للعبرة والقدوة:

قد ألهم اللَّه الحيوانات إلى ما قد يخفى عن بعض العقلاء، ومضى منا كلام عن هذا فيما تقدم من هذه الآيات الكريمة.

---

(١) في الأصل: يتماثلان!

وهذا الهدهد بين الهداهد، فلهم[1] إلهام خاص يقتضيه تخصيصه بهذا الموقف واتصاله بسليمان -عليه الصلاة والسلام-، وزمن الأنبياء زمن خرق العوائد وظهور الآيات، وقد كان في حسن بيانه، وترتيب أخباره، وبديع تهديه، عبارة بالغة لأولي الألباب.

فقد تحصن بالعلم، ونوه بالنبإ المتيقن، وفصل النبأ فشرح حاليها الدنيوية والدينية، وتنقل من تشويق إلى تشويق أبلغ منه، فكان متثبتًا فيما أخبر، بارعًا فيما صور، مستدلًّا فيما قرر وفيما أنكر، بصيرًا بكيد الشيطان للإنسان، متفطنًا لانبناء الضلالات بعضها على بعض، خبيرًا بترتيب الأدلة وحسن الاستنتاج.

وفيما ذكر اللّه لنا من هذه العبر البالغة من هذا الحيوان الأعجم حثٌّ لنا على أن نسلك عندما نخبر ونبين، أو نبحث وننظر، أو نستدل ونرتب ونعلل- أن نسلك هذا المسلك.

وإذا كان اللّه تعالى قد بعث غُرابًا ليتعلم منه ابن آدم كيف يواري سوءة أخيه[2]، فكذلك ذكر لنا أمر هذا الهدهد الممتاز بين الهداهد لنقتدي به، تنبيهًا لنا على أخذ العلم من كل أحد، والاستفادة من كل مخلوق، والشعور دائمًا بالنقص للسلامة من شر أدواء الإنسان: العجب والكبر والغرور....

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤].

---

(١) كذا، والصواب: «فله».

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: الآية ٣١].

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٦] .

لمحة نفسية:

الظواهر دلائل البواطن .

فالمرء يعرف من سُبحات وجهه وفلتات لسانه ، وكثيرًا ما تدل كلماته على مهنته أو فكرته وعقيدته ، كما تدل هيئته أو لبسته وشمائله .

وما يباشره المرء تنطبع به نفسه ويصطبغ خياله ، فيجري على لسانه في تشبيهاته وتمثيلاته وفنون قوله ، فقد تختلف العبارات عن شيء واحد في وقت واحد باختلاف نفسيات المتكلمين عليه .

وقد عُرف الهدهد بين الطيور بثقوب البصر والاهتداء إلى الماء في جوف الأرض ، خصوصًا هدهد سليمان الممتاز بين الهداهد ، فلما استدل ذكر مِن صنع اللَّه ما هو أقرب إليه وأغلب عليه ، وهو إخراج الخبء الذي منه الماء المخبوء في جوف الأرض .

إشارة علمية:

دلالة الصنعة على الصانع دلالة فطرية عقلية قطعية ، فكل ذي صنعة في مكنته أن يستدل بصنعته على وجود خالق هذا العالَم وكماله .

يشاهد أن صنعته ما كانت إلّا به ، وبما له من قدرة فيها ، وعلم بها ؛ فيهديه ذلك إلى أن هذا العالَم ما كان إلّا من خالق قادر عالم .

فالهدهد ذكر ما هو من عمله في الاستدلال على وجود الخالق تعالى

ووحدانيته، ومثله كل ذي صنعة.

وفــي كُــلِّ شَــيْءٍ لَــهُ آيَــةٌ تَــدُلُّ عــلــى أَنَّــهُ واحِــدٌ[1]

* * *

(١) الشهاب (ج٧، م١٥) غرة رجب ١٣٥٨هـ - أوت ١٩٣٩م.

من سورة يس

تفسير الآيات (١- ١٢)

﴿يسٓ﴾ [يس: الآية ١]

مثل هذا اللفظ مما افتُتِحَتْ به بعضُ سورِ القرآن، للعلماء فيه طريقتان:

الأولى: أنه لفظ له معنى يعلمه اللَّه، فهو من المتشابه الذي لا يعلمه الراسخون، وإنما يؤمنون به، ويردّون علمه إلى عالمه.

سؤال وجوابه:

القرآن أنزل للبيان، ولا بيان إلّا بالإفهام، فكيف يكون في القرآن لفظ لا يُفهَم له معنى؟

والجواب: أن عدم فهم معنى من بِضع عشرة كلمة افتتحت بها بعض السور لا يخل ببيان القرآن لما أنزل لبيانه من عقائد، وآداب، وأحكام، وغيرها من مقاصد القرآن.

توجيه وتنظير:

إنّ اللَّه تعالى أعطانا العقل الذي به ندرك الآيات التي نَصبها لنا لنستدل بها على وجوده، ووحدانيته، وقدرته، وعلمه، وحكمته، ولطفه، ورحمته.

وبالنظر في هذه الآيات نَصِلُ- بتيسير اللَّه- بعقولنا إلى إدراك بدائع عجيبة، وأسرار غريبة، ما تزال تتجلى لنا ما دمنا نتأمل فيها ونعتبر بها.

وما يزال الإنسان يكتشف منها حقائق، مضت عليه أزمان، وهو يعدّها من المحال، ويجتني منها فوائد ما كانت تخطر له في أحقابه الماضية على بال.

لطف اللَّه في جعل حدّ لعقل الإنسان:

غير أنّ استجلاءَ هذه الحقائق واستحصال هذه الفوائد من الآيات

الكونية- على نفاستها وعظيم نفعها- محفوفٌ بخطر الإعجاب بذلك العقل حتى يحسب أنه محيط بالحقائق كلها، وأن مدركاتها يقينيات بأسرها.

فيؤديه حسبانه الأول إلى الفتنة بالمدركات، فيحسب أنه لا شيء بعدها، فقد يخرج إلى إنكار خالقها.

ويؤديه حسبانه الثاني إلى الذهاب في ظنونه وأوهامه وفرضياته إلى غايات لا نسب بين اليقين وبينها.

فكان من لطف اللَّه بالإنسان أن جعل لعقله حدًّا يقف عنده وينتهي إليه، ليسلم من هذا الخطر، خطر الإعجاب بالعقل.

ففي آيات اللَّه الكونية حقائق كثيرة تقف العقول حيارى أمامها، وقد تشهد آثارها ولا تستطيع أن تعرف كنهها، كحقيقة الكهرباء في الكون، وحقيقة الروح والعقل في الإنسان.

فمثل هذه الحقائق المنغلقة التي يرتد عقل الإنسان إليه عنها خاسئًا وهو حسير، هي التي تعرّفه بقدره، وبعظمة هذا الكون، وفخامة أمره، فيقف بعقله عند حد النظر والاعتبار والاستدلال ببديع الصنعة وعظيم النعمة على حكمة اللَّه البالغة ومنَّته السابغة، دون خلط للأوهام بالحقائق، ولا فتنة بالمخلوق عن الخالق.

خفاءُ بعضِ حِكم الأحكام ووجهُه:

هذه الحقائق التي خفيت عن العقل البشري فلم يدرك كنهها، لم تقدح في دلالة آيات الأكوان على ما دلّت عليه، من وجود الخالق ووحدانيته، وقدرته

وعلمه، وحكمته وفضله، وإحسانه ورحمته، فكذلك لم يقدح في بيان القرآن ودلالة آياته خفاء معاني بِضع عشرة كلمة من كلماته.

وكما كان خفاء تلك الحقائق في الآيات الكونية إيقافًا للعقل عند حده، وتعريفًا له بقدره، وتنبيهًا له على عظم آيات ربه، كذلك كان خفاء هذه المعاني في الآيات القرآنية لمثل ذلك.

ونظيرُ الآيات الكونية والآيات الكلامية في هذا الجلاء العام والخفاء الخاص: جملةٌ من الأحكام، كعدد الصلوات والركعات والسجدات، التي خفيت على العقول حكمتها، وقد ظهرت الحكم الكثيرة الجليَّة في سائر أحكام الشريعة غيرها.

ولم يقدح في حكمة الشريعة في أحكامها، خفاء ما خفي في بعضها، كما لم يقدح خفاء ما خفي من حقائق الآيات الكونية ومعاني الآيات الكلامية في دلالتها وبيانها.

والحكمة هنا في هذه الأحكام هي الحكمة المتقدمة فيهما.

ونظير الآيات الكونية والآيات الكلامية والأحكام الشرعية في هذا الخفاء الجزئي تصرفاتُ اللَّه في خلقه بمجاري أقداره، فقد تظهر حِكم اللَّه فيها، وقد تخفى، وقد تخفى دهرًا، وتظهر بعد مدة.

وقد نبهنا اللَّهُ على هذه الحقيقة بما قصّ علينا في قصة يوسف عليه السلام، وما كان مجهولًا من حِكم قدر اللَّه في مبدأ أمره، وما ظهر من تلك الحِكم الباهرة للقدر في آخر أمره.

وبما قصه علينا في قصة أم موسى لما أوحى إليها بقذفه في اليمِّ وعدم الخوف عليه، وما كان من عواقب أمره.

وكما لا ينفي الحِكمة عن تدبير اللَّه عدم ظهورها، كذلك لا ينفي الحكمة عن شرعه عدم فهمها، ولا يقدح في دلالة الآيات وبيانها عدم إدراك كنهها أو عدم فهم معناها.

قيام الحجة على الإنسان مما عرفه:

ففي خلق اللَّه، وفي شرع اللَّه، وفي قدر اللَّه، وفي كلام اللَّه، ما يخفى على العقول إدراك حقيقته أو حكمته، أو معناه، لطفًا من اللَّه بالإنسان وتنبيهًا له، وقد قامت الحُجَّة عليه فيما جهل بما عرف، وتجلّت له بدائع الخلقة وجلائل النعمة فيما ظهر، فآمن بوجود مثلها فيما خفي إذ الرب الحكيم الرحيم لا يكون منه إلَّا ما هو حكمة وفيه نعمة.

فكان الإنسانُ في القسم الأول مدركًا مستدلًّا معتبرًا، قد استعمل عقله فأداه إلى الإيمان واليقين فيما ظهر.

وكان في القسم الثاني مصدِّقًا مذعنًا لربه صاغرًا، قد أدرك الحجة فآمن بالغيب فيما استتر، فجمع بين النظر والاستدلال والتسليم والإذعان.

فهذا توجيه وجودِ لفظٍ لا نفهم معناه من كتاب اللَّه- عند من يقول به- ببيان حكمته، مع تنظيره بمثله في خلق اللَّه وشرعه وقدره.

بناء العمل على هذا العلم:

قد رأيتَ كيف يقف العقلُ عاجزًا أمام بعض أسرار الخلق والقدر والشرع

والقرآن، مع يقينه بما علم منها، أنّ ما عجز عن إدراكه ما هو إلّا مثل ما عرف في الحق والحكمة والنعمة، إذ الجميع- ما عرف وما عجز عنه- من إلهٍ واحدٍ حكيمٍ خبيرٍ رحمنٍ رحيمٍ.

فليذكر الناظر في خلق اللَّه وقدره وشرعه وكلامه دائمًا هذه الحقيقة: وهي ثبوت الحق والحكمة والنعمة في جميعها، وإمكان عجز عقله في بعض المواضع والأحوال عن إدراكها.

فيكون عمله في خلق اللَّه هو النظر والبحث والتحليل والاكتشاف، واستجلاء الحقائق الكونية، واستخراج الفوائد العلمية والعملية إلى أقصى حدٍّ توصله إليه معلوماتُه وآلاتُه، حتى إذا انتهى إلى مشكل استغلق عليه اعترف بعجزه، ولم يرتكب من الأوهام والفروض البعيدة ما يكسو الحقيقة ظلمة، ويوقع الباحث من بعده في ضلالة أو حيرة، فكثيرًا ما كانت الفروض الوهمية الموضوعة موضع اليقينيات سببًا في صد العقول عن النظر، وطول أمد الخطأ والجهل.

ويكون عمله في قدر اللَّه هو الاعتبار في تصاريف القدر، والاتعاظ بأحوال البشر، واستحصال قواعد الحياة من سير الحياة، فإذا رأى من تصاريف القدر ما لم يعرف وجهه ولم يتبين له ما فيه من عدل وحكمة وإحسان ورحمة، فليذكر عجزه، وليذكر ظهور ما خفي عنه من مثل ذلك في وقت ثم ظهر له، فيوقن أن هذا مثله، وأنه إذا طالت به الأيام قد يظهر له من وجهه ما خفي منه، فيتلقاه الآن بالتسليم والتنزيه، رادًّا علمه إلى اللَّه تعالى، مفوضًا أمره إليه.

ويكون عمله في شرع اللَّه هو الفهم لنصوص الآيات والأحاديث، ومقاصد الشرع، وكلام أئمة السلف، وتحصيل الأحكام وحِكمها، والعقائد وأدلتها، والآداب وفوائدها، والمفاسد وأضرارها، حتى إذا بلغ إلى حكم لم يعرف حكمته وقضاء لم يدر علته ذكر عجزه فوقف عنده، فلم يكن من المرتابين ولا من المتكلفين، ولم يمنعه عجزه عن تعليل وتبيّن وجه ذلك القليل عن المضي في التفهم والتدبر لما بقي له من الكثير.

ويكون عمله في كتاب اللَّه هو التفهم والتدبر لآياته، والتفطن لتنبيهاته ووجوه دلالاته، واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها، وما جاء من التفاسير المأثورة، وما نقل من فهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم، المشهود لهم بذلك من أمثالهم، فإذا وقف أمام المتشابه ردّه إلى المحكم، وإذا انتهى إلى فواتح السور ذكر عجزه فآمن بما لها من معنى، وقال: اللَّه به أعلم.

فهذا السير النظري والعمل العلمي المبني على اليقين بعدل الخالق ﷻ وحكمته ورحمته في خلقه وقدره وشرعه وكلامه، ومعرفة العبد بقدره ومقامه، يزداد السائر على مقتضاه إيمانًا وعلمًا وفوائد جمَّة، ويسلم من الغرور والأوهام والفتنة، وهو سبيل الراسخين الذين يقولون فيما لا يفهمونه:

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧].

القول الثاني في فواتح السور:

وذهبت جماعة من أهل العلم- من السلف والخلف- إلى أن هذه الفواتح قد فهمت العربُ المرادَ منها، ولذلك لم تعترض على البيان بها، ولا طعنت

في عربيته بعدم فهمها، وإن كنا لا نجد في كلامها ما نعرف به المعنى الذي فهمته منها.

وممن ذهب إلى ذلك الإمام أبو بكر ابن العربي، فقال في كتاب «القبس على موطأ مالك بن أنس»[١]:

«وليست من المتشابه الذي لا يعلمه إلا اللَّه، فإنّ محمدًا ﷺ لو خاطب الكفار منها بما لا يفهم لكان ذلك أقوى أسبابها في الطعن عليه، وكانوا[٢] يقولون: هذا يتكلم بما لا نفهم[٣] وهو يدّعي أنه بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ. وما ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: الآيات ١-٢] في اللسان؟ وما ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريَم: الآية ١] في الكلام؟ فدل أنهم فهموا الغرض وعرفوا المقصود»[٤].

اختلاف المتأولين:

منهم طائفة تكلمت على كل لفظ من ألفاظ الفواتح وذكرت له معنى، واختلفوا في تلك المعاني التي ذكروها، وهي كما ذكر الإمام ابن العربي: «لا سبيل إلى تمييز واحد منها بدليل لأنه معدوم، ولا بأثر لأنه غير منقول»[٥]. ولا تطمئن إلى شيء منها القلوب التي عاشت على اليقين، ولا تسلّم واحدًا منها العقول التي اعتادت قفو العلم على نور الدليل.

---

(١) في (٣/ ١٠٨٠- ١٠٨١).

(٢) في مطبوعة «القبس»: فكانوا.

(٣) في المطبوعة: «يفهم».

(٤) في المطبوعة: «فدلّ على أنهم علموا الغرض وفهموا المقصود».

(٥) «القبس» (٣/ ١٠٨٠).

ومنهم طائفة أخذتها كلها بوجه واحد.

فقال بعضٌ: إنها حروف تنبيه تقرع الأسماع فتلفت السامعين إلى الاستماع والتدبر، لما اشتملت عليه السورة من الأحكام والعقائد والآداب وغيرها من مقاصد القرآن، فهي نظير ألا والهاء في مألوف الاستعمال.

وقال بعضهم: إنها حروف تعجيز وإفحام وتقريع، لأن القرآن الذي عجزوا عن معارضته، من هذه الحروف وأخواتها تركبت كلماته، فكأنما يقال لهم: ما هذا الذي عجزتم عنه إلا كلام من جنس كلامكم. وما ركبت كلماته إلّا ممّا ركبت منه كلماتكم. وهذا لعجزهم أفضح، ولتقريعهم أوجع.

ومما يؤيد هذا أن أكثر هذه الفواتح ذكر بعده الكتاب المعجز وصفاته، مثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: الآية ١- ٢].

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: الآيات ١- ٣] الآية.

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: الآيات ١- ٢].

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: الآية ١].

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: الآية ١].

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف: الآية ١].

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [القصص: الآية ١- ٢].

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: الآيات ١- ٢].

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: الآيات ١- ٢].

وغيرها.

الفائدة العلمية:

قد افتُتِحتْ هذه السور من القرآن العظيم بكلمات التنبيه، وجاءت أول سورة منه بعد الفاتحة مفتتحة به.

فلتكن عند قراءته في انتباه، وإقبال على استيعاب لفظه وتفهم معناه، فإن التالي للقرآن والسامع له في حضرة الرب، على بساط القرب. والغفلة في هذا المقام من قلة الأدب.

ومن قلّ أدبه في مقام الإحسان والكرامة، استوجب أضعاف ما يستوجبه غيره من العتب والملامة، وتعرض لموجبات الحسرة والندامة.

فاللَّه نسأل أن يجعلنا من قرائه على انتباه واستحضار، آناء الليل وأطراف النهار، العاملين به بالعشي والإبكار. إنه الجواد الكريم الستار[1][2].

* * *

(١) أسماء اللَّه توقيفية، وليس من أسمائه تعالى الثابتة في الكتاب والسنة الصحيحة اسم «الستار»، واللَّه أعلم.

(٢) الشهاب (ج١، م١٠) رمضان ١٣٥٢هـ - جانفي ١٩٣٤م.

﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: الآيات ٢- ٦].

بيان المفردات:

الحكيم: هو الموصوف بالحكمة، وأصل اللفظ من حكم، بمعنى أمسك.

فالحكمة هي العلم الصحيح الذي يمسك صاحبه عن الجهالات، والضلالات، والسفالات، فيكون ذا إدراك للحقائق قويم، وخلق كريم، وعمل مستقيم، لا يحكم إلّا عن تفكير، ولا يقول إلّا عن علم، ولا يفعل إلّا على بصيرة، فإذا نظر أصاب، وإذا فعل أطاب، وإذا نطق أتى بفصل الخطاب.

ووُصِف القرآنُ بالحكيم لأنه هو العلم الصحيح المثمر لهذا كلِّه.

و«الصراط المستقيم»: هو دين الإسلام، الذي جاء به جميع المرسلين، قبل النبي- صلىٰ اللّه عليه وعليهم وآل كلٍّ وسلم-.

تنزيل: بمعنى مُنَزَّل، وهو الصراط المستقيم.

العزيز: القوي الغالب، الممتنع الذي لا نظير له.

الرحيم: المنعم الدائم الإنعام والإحسان(١).

«الإنذار»: الإعلام بوقوع ما يخاف منه، وهو الهلاك والعذاب العاجل

(١) انظر لزامًا ما علقناه (ص١٥-١٦ و٨٢).

والآجل.

و«الغافل عن الشيء»: التارك له المعرض عنه، مع حضوره لديه، لاشتغال باله بسواه.

المعنى:

أقسم اللَّه تعالى بالقرآن الحكيم على أن محمدًا ﷺ من المرسلين ردًّا على من قالوا له: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرّعد: الآية ٤٣] ، في حال أنه على دين الإسلام الذي بعثه اللَّه به، ثابتًا عليه في عقده، وقوله، وفعله، وجميع أمره.

وأخبر تعالى أن هذا الإسلام الذي جاء به النبي ﷺ نزَّله عليه اللَّه القوي الغالب، الذي لا يُغالَب، العديم الشبيه والنظير، والمنعم الدائم الإنعام المستمر الإحسان.

وبيّن تعالى أنه كان من المرسلين لينذر الأمة العربية ويعلمها سوء عاقبة ما هي عليه من الشرك والضلال، تلك الأمة التي ما أنذر آباؤها، فهي مشتغلة بما توارثته من آبائها من عبادة الأوثان، وارتكاب الإثم والعدوان، وأنواع الضلال والخسران، معرضة عن توحيد خالق الأرض والسموات، وعن النظر فيما نصب للدلالة عليه من الآيات، طال عليها أمد الجهالة، واستولت عليها أسباب الضلالة، فتمكنت منها الغفلة، التمكن التام، فذهبت في أوديتها البعيدة المدى، كالأنعام أو أضل من الأنعام.

أصل المعرفة والسلوك من هذه الآيات الكريمة:

تمهيد:

خلق اللَّه الخلق حنفاء موحدين، فأتتهم الشياطينُ فأضلّتهم عن سواء السبيل، فمن رحمته تعالى بهم، أن أرسل إليهم رجالًا منهم لهدايتهم، وأنزل عليهم كتبًا منه، لدلالتهم.

فاللَّه هو المرسِل، وتلك الكتب هي رسائله، وأولئك الرجال هم رُسُلُه، والخَلْقُ هم المرسَلُ إليهم.

المعرفة:

فللمرسِل العلو والكمال، وله الخلق، والأمر، ومنه الرحمة والعدل، والإحسان والفضل، وله الربوبية، والألوهية دون شريك ولا مثال.

وفي تلك الرسائل الحق، والحكمة والنور المخرج من كل ظلمة، والفرقان في كل شبهة، والفصل في كل خصومة.

بها تفتح البصائر، وتطهر الضمائر، وتعرف طريق الحق والهدى، من طرائق الباطل والضلال.

ولأولئك الرسل- عليهم الصلاة والسلام- أكمل ما يمكن للإنسان من كمال، وأكمل المعرفة بالمرسِل- تعالى- وأعظم الخشية، وأكمل الرحمة بالخلق، وأشد الشفقة عليهم، وأكمل العلم بما جاءوا به، وأعظم التمسك به، وأكثر الاتباع له.

فلا كمال إلا بالاقتداء بهم، ولا نجاة إلا باتباعهم، ولا وصول إلى اللَّه

تعالى إلا باقتفاء آثارهم.

وللمرسَل إليهم عجزُ المخلوق وضعفُه أمام خالقه، وحاجتُه وافتقارُه إليه، وعليه حق عبادته، وطاعتُه والرجاءُ لفضله، والخوف من عقابه، والفكرُ في آياته، ومخلوقاته، والنهوضُ للعمل في مرضاته، واستثمارُ أنواع نعمائه، والشكر له على جميع آلائه.

فبمعرفة هذه الأربعة حق معرفتها، ومعرفة مقام كل واحد منها، وما له فيه- كمالُ الإنسان العلمي الذي هو أصل كماله العملي، والشرط اللازم فيه.

وقد اشتملت هذه الآيات على هذه الأربعة في حق الأمة المحمدية.

فالمرسِل هو العزيز الرحيم.

والرسالة هي القرآن الحكيم.

والرسول هو محمد ﷺ المخاطب بـ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

والمرسل إليهم هم العرب الذين ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ﴾.

تمهيد:

لما ضلَّ الخلق عن طريق الحق، والكمال، الذي يوصلهم إليه إلى مرضاته والفوز بما لديه، أرسل إليهم الرسل ليعرِّفوهم بأن ذلك الطريق هو الإسلام، ويكونوا أدلتهم في السير وقادتهم إلى الغاية، وأنزل عليهم الكتب لينيروا لهم بها الطريق، ويقودوهم على بصيرة، ويتركوهم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يهلك عليها إلا من ظلم نفسه، فحاد عن السواء، أو تخلف عن القافلة فكان من الهالكين.

فالقافلة هم الخلق، والطريق هو الإسلام، والأدلة هم الرسل، والمصابيح هي الكتب، والغاية هو اللَّه جَلَّ جَلَالُهُ.

السلوك:

فعلى مريد النجاة من المهالك، والفوز بأسمى المطالب، وأعلى المراتب- أن ينضم إلى القافلة الربانية، يتعاون مع أفرادها، ويقوم بحق الرفقة فيها، ويعدّ نفسه جزءًا منها، لا سلامة له إلا بسلامتها.

فهو يحب لكل واحد منها ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، ويهديه إلى ما يهديها إليه من خير، ويقيه مما يقيها منه من سوء.

وأن يطيع أولئك الأدلة ويقتفي آثارهم، وينزل بنزولهم، ويرتحل بارتحالهم، وأن يرجع في معرفة وجوه السير وأصنافه وأوقاته ومراحله ومنازله إليهم دون أدنى اعتراض، ولا مخالفة.

ويقابل ما يتحملونه من مشاق الدلالة، ومتاعب القيادة، بغاية ما يستطيع من الأدب معهم، والتعظيم، والانقياد لهم والمحبة فيهم، وحسن الثناء عليهم، وطلب عظيم الجزاء من اللَّه تعالى لهم على عظيم إحسانهم.

وأن يلتزم ذلك الطريق، ويسير في سوائه غير مائل إلى جنباته، ولا ذاهب في بُنياته(١)، لا مفرطًا في السير يسبق الرفقة، فينفرد بلا دليل، ولا مفرِّطًا فيه، فيتخلف عنها بلا معين، نمطًا وسطًا مع الجماعة، لا من الغلاة ولا من

(١) بُنيات الطريق: جمع بُنية، تصغير بنت، هي ما يخرج من نواحيه من طرق صغيرة تضل السائر عن الغاية وتبعده عن الرفقة وتتعبه في السير. [المصنف].

المقصرين.

وأن يستنير بما رفعه أولئك الأدلة من مصابيح الهداية، وأن يسير تحت أنوارها الساطعة، مفتح البصر للاستضاءة بها، غير مغلق الأجفان عنها، متعرفًا بها أديم الأرض ومواقع قدمه منها.

وأن يعرف عظم الغاية التي هو سائر إليها، فيقصر همّه كلّه في الوصول إليها، ويحضرها قلبه في كل لحظات سيره ليسرع مع الرفقة إليها، وتخف عليه مشاق الطريق وأتعابها، ويعذب لديه كل ألم في الانتهاء إليها.

فبسلوك هذا الطريق القويم، بدلالة الرسول الكريم، وأنوار الكتاب المبين، إلى رب العالمين الرحمن الرحيم، كمالُ الإنسان العملي المبني على الكمال العلمي.

وقد اشتملت هذه الآيات على ذكر السالكين وهم المنذرون، وعلى الدليل وهو الرسول ﷺ، وعلى الطريق وهو الصراط المستقيم المنزل من اللَّه، وعلى ما بيَّن الطريق وهو القرآن الحكيم.

الحكمة في هذه الآيات:

قال ابن وهب: سمعت مالكًا[1] رضي الله عنه يقول: «الحكمة: الفقه في دين اللَّه والعمل به»[2].

ففي الفقه في دين اللَّه الكمال العلمي، وفي العمل به الكمال العملي.

---

(١) في الأصل «مالك».

(٢) تقدم في (١/ ٢٨٢).

وهذه الآيات- على إيجازها- قد اشتملت على أصول ما به كمال الإنسان العلمي وكماله العملي، اللذان بهما كماله الروحي والبدني، ونعيمه الدنيوي والأخروي.

وما كماله العلمي وكماله العملي إلا بالمعرفة الصحيحة والسلوك المستقيم، وهما اللذان تقدم في الفصل السابق بيانهما.

وفسّر مالك الحكمة بهما؛ إذ الفقه في دين اللَّه هو المعرفة الصحيحة، والعمل به هو السلوك المستقيم، وهما الحكمة التي وُصف به في الآية الأولى القرآنُ العظيم؛ لأنه كتاب العلم والعمل اللذين لا يكون بدونهما حكيم.

فكما اشتملت هذه الآيات على أصول الحكمة، دلت على أصلها، ومأخذها، وما يكون الإنسان بعلمه والعمل بما فيه من أهلها، وهو القرآن الحكيم.

توجيه القسم في الآيات:

أقسم اللَّه بالقرآن الحكيم على أن محمدًا من المرسَلين، لينذر الغافلين حال أنه على صراط عظيم مستقيم منزَّل من العزيز الرحيم؛ لأن القرآن هو كتاب محمد ﷺ الذي كان يتخلق به، ويهتدي بما فيه، وينذر به، ويدعو إليه، ويبينه للناس بقوله، وفعله، وهو برهانه، وحجته، وآيته، ومعجزته.

كما أنه كتاب الإسلام، الذي هو الصراط المستقيم، فيه حجته، ودلائله، فيه أحكامه وحِكمه، فيه آدابه وشمائله.

فيه بيان حقيقته وما هو منه ونفي ما ليس منه عنه.

فيه بيان تاريخه، وتاريخ الإنسانية معه.

فيه ذكر أوليائه، وحسن بلائهم في سبيله، وحسن أثره فيهم، والعود بالعاقبة المحمودة عليهم، وذكر أعدائه وجهدهم في مقاومته، وسقوط شُبههم أمام حُجَّته، وذهاب باطلهم أمام حقِّه، وشدة أخذه لهم على ظلمهم، ونزول نقمته بهم، وحلول دائرة السوء عليهم.

فيه الإسلام كله، فمن طلبه فيه وجده ونجا به، ومن طلبه في غيره[1] ضلّ، وكان من الهالكين.

عقائد وأدلتها من هذه الآيات:

العقيدة الأولى: محمد رسول اللَّه ﷺ.

دليلها الأول: القرآن الحكيم الذي جاء [به][2] رجل أُمِّيٌّ، ما قرأ ولا كتب، ولا دارس العلماء، ولا عرف الكتب.

ودليلها الثاني: موافقة دعوته ﷺ لدعوة المرسَلين- صلوات اللَّه عليهم- إلى عبادة اللَّه وحده، وتصديق ما جاءهم به من عنده دون أن يسألهم على ذلك أجرًا.

وهذا من قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فهو من المرسلين من جهة إرساله؛ لأنه منهم في أقواله وأفعاله، نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: الآية ٩]، وقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصَّافات: الآية ٣٧]،

---

(١) بيان النبي ﷺ للقرآن من القرآن، لقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النّحل: الآية ٤٤]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: الآية ٧]. [المصنف].

(٢) سقطت من الأصل.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٦٣].

ودليلها الثالث: هذا الدين الكامل الجامع الذي هدى به النوع الإنساني أفرادًا وجماعاتٍ إلى ما فيه سعادته، فأطلق فكره، وسدد نظره، وقوّم عقائده، وهذّب أخلاقه، ونظم اجتماعه، ووضع له قواعد الحياة والعمران على العدل والإحسان، ووجههم إلى خالقهم، وما أعدَّ لهم عنده- إن آمنوا وعملوا الصالحات- من النعيم المقيم والرضوان التام.

ودليلها الرابع: سلوكه هو في حياته على هذا الصراط المستقيم من يوم عرف الدنيا حتى فارقها، فكان يمثله على أكمل وجه لا يخلُّ بشيء منه، ثابتًا عليه لا يحيد قيد شعرة عنه دون أن تحفظ عنه زلَّة، ولا تعرف منه في القيام به والدعوة إليه فترة، ولا تقف أمامه قوة، ولا ترد له حادثة عزمة، ولا تحمله على هوادة فيه رغبة ولا رهبة، ولا تبدل حاله رخاء ولا شدة.

فكان في كرمِ خُلقِه، وتمامِ زُهده، وعظيم تألُّهه، وتوجُّهه لربه، بعد ما فتح اللَّه له الفتح المبين، ودخل الناس أفواجًا في الدين، كما كان أيام كان وحيدًا بين أعظم أعدائه من المشركين.

وما هذا من شأن البشر وطبعهم لولا عصمة وتأييد رب العالمين.

العقيدة الثانية: القرآن كلام اللَّه ووحيه.

ودليلها: أنه حكيم، فما فيه من العلم وأصول العمل، لا يمكن أن يكون إلا من عند اللَّه في عقائده ودلائلها، وأحكامه وحكمها، وآدابه وفوائدها، إلى ما فيه من حقائق كونية كانت مجهولة عند جميع البشر، وما عرفت لهم إلا في هذا العصر الأخير.

ومن أشهرها مسألة الزوجية الموجودة في جميع هذا الكون حتى أصغر جزء منه، وهو الجوهر الفرد المركب من قوتين موجبة وسالبة.

جاءت هذه المسألة في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: الآية ٤٩].

ومنها: مسألة حياة النبات التي جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠].

ومنها: مسألة تلاقح النباتات بواسطة الرياح التي تنقل مادة التكوين من الذكر إلى الأنثى، جاءت في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: الآية ٢٢].

فهذه حقائق علمية كونية أجمع علماء العصر أنها من المكتشفات الحديثة، ولم تكن معلومة عند أحد من الخلق قبل اكتشافها، ولا كانت عندهم الآلات الموصلة إلى معرفتها.

وكفى بهذا القل من الكثر دليلًا على أن هذا القرآن ما كان إلا من عند اللَّه الذي خلق الأشياء ويعلم حقائقها.

العقيدة الثالثة: الإسلام دين اللَّه الذي شرعه وارتضاه.

ودليلها مستفاد من وصفه بأنه صراط مستقيم، فهو تشريع تام عام لجميع أعمال الإنسان: أعمال قلبه، وأعمال لسانه، وأعمال جوارحه، وجميع معاملاته الخاصة والعامة بين أفراده وأممه، ولا تخرج كلية من كلياته ولا جزئية من جزئياته عن هذا الأصل العام المتجلي في جميع الأحكام وهو

«الحق والخير والعدل والإحسان».

وقد وضع عقلاء الأمم شرائع في بعض نواحي أعمال الإنسان، ولكنها بإجماع المتشرعين لا تخلو من نقص واعوجاج واضطراب، فهم ما يفتئون يتبعونها بالتكميل والتقويم والتعديل على ممرِّ الأيام.

ولو عرضت كل حكم من أحكامه على الأصل العام الذي ذكرناه؛ لوجدته منطبقًا عليه، ظاهرًا فيه، حتى ما خفي وجهه على الأمم الأجنبية من الإسلام أيام تأخرها، وقد ظهر لها فضله ونفعه أيام تقدمها، فجاء كبراء عقلائها يعترفون فيها بصواب ما شرعه فيها الإسلام.

ثم هم يعجزون عن تطبيقها على أممهم للعادة الغالبة والوراثة القديمة، منها مسألة الطلاق وتعدد الزوجات وتحريم الربا تحريمًا باتًّا.

فكم من عالم غير مسلم صرح بأن الحق والعدل والخير للإنسانية في هذه المسائل هو ما شرعه الإسلام على الوجه الذي شرعه الإسلام.

فهذه الاستقامة التامة العامة المطردة في شرع جاء به رجلٌ أُمِّيٌّ من أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ جاهلية، يجزم كل عاقل بأنه ليس من وضع العباد، وإنما هو من وضع خالق العباد(١).

* * *

(١) الشهاب (ج٢، م١٠) غرة شوال ١٣٥٢هـ - جانفي ١٩٣٤م.

الوحي مصدر الإسلام

جملة(١) ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: الآية ٥] بيّنت وجه استقامة ذلك الصراط الذي هو الإسلام بأنه تنزيل العزيز الرحيم.

وأفادت أن جميع هذا الدين وحي من اللَّه منزل على نبيه ﷺ، وهذا لأن مرجع الإسلام في أصوله وفروعه إلى القرآن، وهو وحي من اللّه، وإلى السنة النبوية، وهي وحي أيضًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: الآية ٣- ٤].

وكل دليل من أدلة الشريعة فإنه يرجع إلى هذين الأصلين، ولا يقبل إلا إذا قبلاه ودلا عليه.

وكل شيء ينسب للإسلام ولا أصل له فيهما فهو مردود على قائله، وقد قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[١٨٢].

الإسلام دين العز والرحمة:

ذكر من أسمائه تعالى في هذا الموطن ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ للتنبيه على أن هذا

(١) في الأصل: «جملة هو».

[١٨٢] صحيح:

رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ورواه مسلم بلفظ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد».

وقد تقدم برقم (١١٩).

الدين الذي نزله الرب الموصوف بالعزة والرحمة هو دين عزة ورحمة.

ومن مقتضى العزة: القوة والمنعة والرفعة، ومن مقتضى الرحمة: الفضل والخير والمصلحة، وهذه كلها متجلية في أحكام الإسلام.

والعدل والإحسان اللذان أمر اللَّه بهما وانبنت أحكام الإسلام عليهما لا يكونان إلا عن العزة والرحمة، فالذليل لا ينهض بالحكم ولا يقيم ميزان العدل، والقاسي لا يكون منه إحسان.

اهتداء واقتداء:

فالمسلم المتحقق بالإسلام المهتدي بهدايته لا يكون إلا عزيزًا رحيمًا.

فالذلة من المسلم نقص في إسلامه، والقساوة مثلها نقص فيه.

وقد ذكر اللَّه تعالى سادات المسلمين في عزتهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشّورى: الآية ٣٩]. وذكرهم في رحمتهم فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحَشر: الآية ٩].

ونِعْم القدوة هم لجميع المسلمين.

النذارة ثمرة الرسالة:

كان من المرسلين لينذر الغافلين، فالأول كمال، والثاني تكميل.

وقد فطر اللَّه رسله- صلى اللَّه عليهم وسلّم- على الرحمة وحب الخير، فكانوا أحرص الناس على نجاة الناس وكمالهم وسعادتهم، فصبروا على تكذيبهم وإذايتهم حتى أدوا أمانة اللَّه إليهم، وأقاموا حجته عليهم، وكان اللَّه ينجيهم ومن آمن بهم، وينزل عقوبته بالمكذبين لهم، وينصرهم عليهم؛ فأعلم

محمدًا ﷺ - بأنه من المرسَلين لينذر- ليأتسي بهم، ويصبر صبرهم، ويرجو من نصر اللَّه له وإهلاك أعدائه ما كان منه تعالى لهم.

اقتداء:

العلماء ورثة الأنبياء، وما ورَّث الأنبياء دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم(١).

والعلم مستمد من الرسالة، فعلى أهله واجب التبليغ والنذارة، والصبر على ما في طريق ذلك من الأذى والبَلايا، والعطف على الخلق والرحمة، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبَة: الآية ١٢٢].

التدريج في الإنذار:

أرسل اللَّهُ محمدًا ﷺ للعالمين بشيرًا ونذيرًا، ودرَّجه في النذارة على مقتضى الحكمة من القريب إلى البعيد.

فأمره بإنذار عشيرته بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢١٤]. فصعد الصفا فنادى بطون قريش حتى نادى العباس عمه، وصفية عمته، وفاطمة ابنته، وقال لهم: «**اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا**»[١٨٣].

---

(١) هذه الجمل من مشكاة النبوة، وردت في حديث ثابت تقدم بتمامه في هامش (ص٢٠٥).

[١٨٣] صحيح:

فعن أبي هريرة قال:

قام رسول اللَّه ﷺ حين أنزل اللَّه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢١٤] قال: =

وأمره بإنذار من حول مكة من العرب بقوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشّورى: الآية ٧] . على الوجه الأقرب في معنى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ المؤيد بصدر الكلام وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الشّورى: الآية ٧] .

ومثلها في إنذار العرب ما في هذه الآية وهو قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: الآية ٦] .

فكان يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم[١٨٤] .

وأمره بتعميم الإنذار بمثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٨] .

= «يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من اللَّه شيئًا، ويا صفية عمة رسول اللَّه لا أغني عنك من اللَّه شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من اللَّه شيئًا».

رواه البخاري (٢٧٥٣و٣٥٢٧و٤٧٧١) ومسلم (٢٠٦).

وله شاهد عن عائشة أخرجه مسلم (٢٠٥).

[١٨٤] صحيح:

فعن جابر بن عبد اللَّه قال:

«كان رسول اللَّه ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم فيقول:

ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي».

أخرجه أبو داود (٤٧١٩) والترمذي (٢٩٣٠) وقال: «حديث غريب صحيح»، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٢٧) والدارمي (٢/ ٤٤٠) وابن ماجه (٢٠١) وأحمد (٣/ ٣٩٠) والحاكم (٢/ ٦١٢-٦١٣) ولفظهما أتمُّ - وقال:

«حديث صحيح على شرط الشيخين» ! ووافقه الذهبي !!

وله طريق آخر عنه بنحوه مطولًا: أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢-٣٢٣و٣٣٩-٣٤٠).

فأرسل رسله إلى الأمم تحمل كتبه إلى ملوكها بالدعوة إلى الإسلام، وكان ذلك هو الإنذار العام.

اندفاع إشكال:

قد كان النبي يُرسَلُ إلى قومه خاصة، وأُرسل نبيُّنا ﷺ إلى الناس عامة بمثل قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٩] أي بالقرآن، كلّ من بلغه القرآن.

ولا يشكل على ذلك مثل ما تقدم من الآيات في إنذار عشيرته الأقربين وقومه العرب، لأنه ابتدأ بهما لحكمة التدريج وحق القريب، لا للتخصيص، بدليل ما جاء من آيات التعميم.

اقتداء:

هكذا على المرء أن يبدأ في الإرشاد والهداية بأقرب الناس إليه ثم من بعدهم على التدريج، وعندما يقوم كل واحد منا بإرشاد أهله وأقرب الناس إليه لا نلبث أن نرى الخير قد انتشر في الجميع.

فمن الأُسر تتركب الأمة، فعندما يُعنى كل واحد بأسرته ترتقي الأمةُ كلُّها بارتقاء أسرها كارتقاء أيِّ كُلٍّ بارتقاء أجزائه، فيكون المعتني بأسرته في الوقت نفسه معتنيًا بأمته.

وعندما يقصد بخدمة أسرته خدمة أمته يُثاب ثواب خادم الجميع، أسرته بالفعل، وأمته بالقصد، أو أسرته مباشرة، وأمته بواسطة، وكل هذا مما يثاب المرء شرعًا عليه.

استطراد واستنباط[1]:

لما كان العرب لم يأتهم نذير قبل النبي ﷺ بنص هذه الآية وغيرها، فهم في فترتهم ناجون لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية

(١) في هذا الاستنباط نظر عند المحققين، وبيانه:
أن أهل الفترة قسمان:
الأول: بلغتهم الدعوة، وهم بدورهم قسمان:
١- بلغتهم الدعوة فآمنوا، فهؤلاء ناجون.
وهذا القسم لا خلاف فيه، لثبوت الأحاديث الصحيحة الدالة على أنهم ماتوا على التوحيد.
ومثاله زيد بن عمرو بن نفيل -وهو أبو سعيد بن زيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة ﵁- كما في «صحيح البخاري» (٣٨٢٦، ٣٨٢٧، ٣٨٢٨)، وقد قال ﷺ: «**دخلتُ الجنةَ فرأيتُ لزيد بن عمرو ابن نفيل درجتين**». [صحيح الجامع (٣٣٦٢) للألباني].
٢- بلغتهم الدعوة فكفروا، فهؤلاء غير ناجين.
والأمثلة على هذا القسم كثيرة متوافرة، ثابتة في الأحاديث الصحيحة المستفيضة، منها:
- عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**رأيتُ عمرو بن عامر الخُزاعي يجرّ قصبه في النار، كان أوّل من سيّب السوائب**».
أخرجه البخاري (٣٥٢١، ٤٦٢٣) ومسلم (٢٨٥٦).
- وعن عائشة قالت: قلتُ: يا رسول الله! ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «**لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين**».
أخرجه مسلم (٢١٤).
- وعن أنس أن النبي ﷺ مرّ بنخل لبني النجار، فسمع صوتًا، فقال: «ماهذا.»، فقالوا: قبر رجلٍ دُفِنَ في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «**لولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله ﷻ أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمعني**».
أخرجه أحمد (٣/ ٢٠١) بسند صحيح على شرط الشيخين كما قال الألباني في «الصحيحة» (١٥٨).
- وعن أبي سعيد الخدري عن زيد بن ثابت -قال أبو سعيد: ولم أشهده من النبي ﷺ ولكن حدثنيه زيد ابن ثابت- قال:
«بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلةٍ له -ونحن معه- إذ حادت به، فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة -شك الجريري- فقال: «من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟»، فقال رجل: أنا، قال: «فمتى مات هؤلاء؟»، قال: ماتوا في الإشراك. فقال: «**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه**».. الحديث. =

= أخرجه مسلم (٢٨٦٧).

ويدخل في هذا القسم والدا النبي ﷺ للأحاديث الصحيحة الصريحة في أنهما في النار، منها:

١- عن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمّه فبكى، وأبكىَ من حوله، فقال: «**استأذنتُ ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت**».

أخرجه مسلم (٩٧٦) وغيره.

قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» (٧/ ٤٥):

فيه جواز زيارة المشركين في الحياة، وقبورهم بعد الوفاة، لأنه إذا جازت زيارتهم بعد الوفاة ففي الحياة أولى، وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، وفيه النهي عن الاستغفار للكفار».

٢- وعن بُريدة قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر (وفي رواية: في غزوة الفتح)، فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب، ففداه بالأب والأمّ، يقول: يا رسول اللّه ما لك؟ قال:

«**إني سألتُ ربي ﷻ في الاستغفار لأمي، فلم يأذن لي، فدمعت عيناي رحمة لها من النار، واستأذنتُ ربي في زيارتها فأذن لي، وإني كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ولتزدكم زيارتها خيرًا**».

أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٩) وابن أبي شيبة (١١٨٠٧) والحاكم (١/ ٣٧٦) وابن حبان (٧٩١- الموارد).

وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

وقال الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ١٨٨): «وهو كما قالا».

٣- وعن أنس أن رجلًا قال: يا رسول اللّه! أين أبي؟ قال: «**في النار**»، فلما قفَّى دعاه، فقال: «**إن أبي وأباك في النار**».

أخرجه مسلم (٢٠٣) وغيره.

قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٣/ ٧٩):

«فيه أن من مات على الكفر فهو في النار، ولا تنفعه قرابة المقربين، وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات اللّه تعالى وسلامه عليهم».

٤- وعن عامر بن سعد [بن أبي وقاص] عن أبيه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: إنّ أبي كان يصل، وكان، وكان، فأين هو؟ قال: «**في النار**».

قال: فكأن الأعرابي وجد من ذلك، فقال: يا رسول اللّه، أين أبوك؟ قال: «**حيثما مررتَ بقبر كافر فبشره بالنار**». =

= أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» والبزار (٩٣- كشف الأستار» وغيرهما بسند صحيح كما قال الألباني في «الصحيحة» (١٨) و«أحكام الجنائز» (ص ١٩٨- ١٩٩).

قال البيهقي في «دلائل النبوة» بعد روايته لهذه الأحاديث:

«وكيف لا يكون أبواه وجدُّه -عليه الصلاة والسلام- بهذه الصفة في الآخرة، وقد كانوا يعبدون الوثن حتى ماتوا ولم يدينوا بدين عيسى ابن مريم ﷺ، وكفرهم لا يقدح في نسبه -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن أنكحة الكفار صحيحة، ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم، فلا يلزمهم تجديد العقد ولا مفارقتهن، إذ كان مثله يجوز في الإسلام، وبالله التوفيق».

وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٢٨١):

«وأمَّا الحديث الذي ذكره السُّهيلي وذكر أن في إسناده مجهولين إلى ابن أبي الزناد عن عروة عن عائشة ﵂ «أن رسول اللّه ﷺ سأل ربّه أن يحيي أبويه، فأحياهما وآمنا به»، فإنه حديث منكر جدًّا، وإن كان ممكنًا بالنظر إلى قدرة اللّه تعالى، لكن الذي ثبت في «الصحيح» يعارضه، واللّه أعلم».

القسم الثاني: لم تبلغهم الدعوة، وهم غالب أهل الجاهلية الذين وردت فيهم النصوص بعدم إتيان النذير إليهم.

والأصل في هؤلاء امتحانهم في عرصات القيامة، لحديث الأسود بن سريع ﵁ أن النبي ﷺ قال:

«أربعة يحتجون يوم القيامة: رجلٌ أصمّ لا يسمع، ورجل هرم، ورجل أحمق، ورجل مات في الفترة.

أمَّا الأصم فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام وأنا ما أسمع شيئًا.

وأمَّا الأحمق فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر.

وأمَّا الهَرِمُ فيقول: ربِّ قد جاء الإسلام وما أعقل.

وأمَّا الذي في الفترة فيقول: ربّ ما أتاني رسول.

فيأخذ مواثيقهم لَيُطيعنّه، فيرسل إليهم رسولًا أن ادخلوا النار، فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا».

رواه أحمد (٤/ ٢٤٤) والبزار (٢١٧٤- كشف الأستار) بإسنادٍ صحيح، كما قال ابن القيم في «طريق الهجرتين» (ص ٥٨٨):

وصححه ابن حبان (١٨٣٧- الموارد)، والبيهقي في «كتاب الاعتقاد» كما في«تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٨٨)، وعبد الحق الإشبيلي كما في «طريق الهجرتين» (ص ٥٨٨- ٥٨٩).

وقواه ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٩١) وفي «البداية والنهاية» (٢/ ٢٨١)، وابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» (٣/ ٣١٣) والألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٤٣٤، ٢٤٦٨) وغيرها.

* أمَّا ما ذكره العلَّامة ابن باديس فجوابه كما يلي: =

= ١- قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.
فهذه الآية تدل على عدم حصول الإنذار لأهل الفترة، وهذا واضح، وليس فيها الحكم عليهم بالنجاة ودخول الجنة، فالذين لم تبلغهم الدعوة لا يؤخذ حكمهم من مثل هذه النصوص العامة لورود أحاديث خاصة تدل على امتحانهم في الآخرة كما تقدم.
٢- قوله: «لما كان العربُ لم يأتهم نذيرٌ قبل النبي ﷺ بنصّ هذه الآية وغيرها فهم في فترتهم ناجون لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ و﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾».
جوابه من وجهين:
أ- لا دليل على أن عدم مجيء النذير يدل على النجاة، وغاية الأمر أنه يدل على أنهم من أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة، وحكم هؤلاء الامتحان لثبوت الدليل الخاص.
ب- قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يدل على حصول العذاب لمن وصلته الدعوة وكفر، أمَّا من لم يبعث إليه الرسول ولم تبلغه الدعوة فلا يؤخذ حكمه من مفهوم هذه الآية، بل من منطوق النصوص النبوية الصريحة بصيرورتهم إلى الامتحان.
٣- قوله: «وغيرهما، وكلها آيات قواطع في نجاة أهل الفترة».
جوابه: هي قواطع في حصول العذاب على من بلغته الدعوة، أمَّا من لم تبلغه فلا دلالة في هذه الآيات على النجاة ودخول الجنان، وغايتها دلالتها على انطباق وصف الفترة عليهم، وحكم هؤلاء مأخوذ من نصوص الامتحان فلا إشكال.
٤- قوله: «ولا يستثنى من ذلك إلَّا من جاء فيهم نصٌّ ثابتٌ خاصٌّ، كعمرو بن لحي أول من سيّب السوائب وبدّل شريعة إبراهيم وغيرّ، وحلّل للعرب وحرّم».
جوابه من وجهين:
أ- عمرو بن لُحَي وغيره ممن جاء النص بعذابه مندرج تحت القسم الأوّل، وهم من بلغتهم الدعوة فكفروا، أمَّا من لم تبلغهم فحكمهم الامتحان ولا إشكال.
ب- لازمه استثناء والدي النبي ﷺ من النجاة لأنهما ممن جاءت فيهما نصوص ثابتة خاصة كما تقدم من حديث أبي هريرة وبُريدة وأنس وسعد بن أبي وقاص ﷺ.
٥- قوله: «فأبوا النبيّ ﷺ ناجيان بعموم هذه الأدلة».
جوابه من وجوه:
أ- أن والدي النبي ﷺ مندرجان تحت القسم الأوّل وهم من بلغتهم الدعوة فكفروا، وقد وردت فيهما نصوص خاصة، فلا يستدل على حكمهما بعموم تلك الأدلة ويترك الدليل الخاص الوارد فيهما.
ب- أن تلك الأدلة العامة ليس فيها التصريح بالنجاة، وغايتها دلالتها على حصول وصف الفترة عليهم، وحكمهم الامتحان كما سبق. =

= ج - أن إخباره ﷺ عن أبويه بأنهما من أهل النار في الأحاديث الصحيحة المتقدمة لا ينافي الحديث الصحيح في أن أهل الفترة يمتحنون في عرصات القيامة، فيكون منهم من يجيب، ومنهم من لا يجيب، فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب، فلا منافاة، كما أفاده ابن كثير في «البداية والنهاية».

٦- قوله: «ولا يعارض تلك القواطع حديث مسلم عن أنس مرفوعًا: «**إن أبي وأباك في النار**» لأنه خبر آحاد، فلا يعارض القواطع».

جوابه من وجوه:

أ- أن خبر الآحاد إذا صحّ فهو حجة في العقائد والأحكام، في القطعيات والظنيات، والتفريق بينهما بدعة من المعتزلة وبعض أهل الكلام، لم يعرفها الصحابة والتابعون وأئمة السلف الصالح، كما تقدم تعليقه في (١/ ١١).

ب- أن التفريق قائم على أن خبر الآحاد لا يفيد إلَّا الظن الغالب، ولا يفيد القطع، وهذا ليس مسلَّمًا على إطلاقه كما حققناه في الموضع المشار إليه قريبًا.

ج- أن حديث أنس ومثله حديث أبي هريرة أخرجهما مسلم في «صحيحه» ولم ينتقدا عليه من حفاظ الحديث وأساطين هذا العلم، فهما من الأحاديث الصحيحة المتلقاة بالقبول، فتفيد العلم والقطع عند المحققين، كما أشرنا إليه في الصفحة المذكورة.

د- أن تلك النصوص القواطع المشار إليها تدل على أن بلوغ الدعوة شرط في التعذيب، وليس فيها ما يدل على نجاة أهل الفترة ودخولهم الجنة، ووالدا النبي ﷺ قد بلغتهما الدعوة فلم يؤمنا، ولهذا قال ﷺ: «**إن أبي وأباك في النار**».

٧- قوله: «وهو قابل للتأويل بحمل الأب على العمّ مجازًا، يحسنه المشاكلة اللفظية ومناسبته لجبر خاطر الرجل، وذلك من رحمته ﷺ وكريم أخلاقه».

جوابه من وجهين:

أ- حديث أنس لا يحتاج إلى تأويل، لأن التأويل إنما يصار إليه إذا تعذَّر حمله على الحقيقة، ولا تعذّر هنا، فهو يدل على عدم نجاة من بلغته الدعوة من أهل الفترة فلم يؤمن، وكون الرسول ﷺ يخبر بنفسه أنَّ أباه وأبا الرجل في النار كافٍ لمعرفة أنهما بلغتهما الدعوة فلم يؤمنا.

وعلى احتمال أن أباه ﷺ ممن لم تبلغهم الدعوة من أهل الفترة، فمآله الامتحان كما تقدم في حديث الأسود بن سريع، وإخباره ﷺ عنه أنه في النار دليل على أنه ممن لا يجيب، فلا تعارض ولا منافاة إن شاء اللَّه كما تقدم.

ب- جبر خاطر الرجل يحصل أكثر فيما لو علم أن والد الرسول ﷺ -وليس عمّه فقط- في النار، لأن الوالد أقرب إلى الولد من العمِّ، واللَّه أعلم.

هذا ما يسّر اللَّه تعليقه، وأعان على تقييده، فإن وُفِّقتُ للصواب، فالحمد للَّه على تسديده، وأسأله المزيد من فضله. وإن كانت الأخرى فاللهم غُفرًا.

١٥] ، و﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المَائدة: الآية ١٩] وغيرهما ، وكلها آيات قواطع في نجاة أهل الفترة .

ولا يُستثنى من ذلك إلا من جاء فيهم نصٌّ ثابتٌ خاصٌّ كعمرو(١) بن لُحي ، أول من سيَّب السوائب[١٨٥] ، وبدّل شريعة إبراهيم وغيّر ، وحلّل للعرب وحرّم .

فأَبَوَا النبي ﷺ ناجيان بعموم هذه الأدلة .

ولا يعارض تلك القواطع حديث مسلم عن أنس رضي الله عنه : «أن رجلًا قال للنبي ﷺ : يا رسول اللَّه ، أين أبي؟ قال : في النار ، فلما قَفَّا الرجلُ دعاه فقال : «**إن أبي وأباك في النار**»[١٨٦] . لأنه خبر آحاد ، فلا يعارض القواطع ، وهو قابل للتأويل بحمل الأب على العم مجازًا ، يحسنه المشاكلة اللفظية ، ومناسبته لجبر خاطر الرجل ، وذلك من رحمته ﷺ وكريم أخلاقه .

---

(١) في الأصل : «كعمر»! .

[١٨٥] صحيح :

أخرجه البخاري (٣٥٢١و٤٦٢٣) ومسلم (٢٨٥٦) عن أبي هريرة مرفوعًا :

«رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجرُّ قصبه في النار ، وكان أول من سيب السوائب» .

وانظر : تخريج أحاديث «رسالة الشرك» رقم (٣٩)بقلمي .

[١٨٦] صحيح :

رواه مسلم (٢٠٣) وأبو داود (٤٧٠٣) عن أنس .

و (قفَّى) : أي ولَّى قفاه منصرفًا .

سبب الغفلة ودواؤها:

أفادت الفاء في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أنّ غفلتهم تسببت عن عدم إنذارهم، فكلُّ أمةٍ انقطع عنها الإنذارُ وتُرك فيها التذكيرُ؛ واقعةٌ في الغفلة لا محالة.

ولما كان ترك الإنذار والتذكير موقعًا في الغفلة، فالإنذار والتذكير يُزيلانها، فقد عرَّفتنا الآية الكريمة بسبب الغفلة وبعلاجها؛ لنحذر سببها ونعالج أنفسنا وغيرنا بعلاجها.

تطبيق:

كان الناس منذ زمن قريب لا يسمعون ولا يُسمَع منهم لفظُ الاهتداء بهداية القرآن العظيم، والاقتداء بهدي الرسول الكريم ﷺ والسير بسيرة السلف الصالح في النهوض بأعباء الدنيا والدين، وهم- إلا قليلًا- عن هذا غافلون.

أما اليوم بعد أن نهض العلماء المصلحون بواجبهم، ونشروا دعوة الحق في قومهم، فقد أصبح ذلك معروفًا عند أكثر الناس محلّ عناية طلاب العلم ومناط رغبتهم، وفي متناول الناس بجميع طبقاتهم.

وإنا لنرجو من فضل اللَّه المزيد، ونشاهد ذلك- والحمد للَّه- كل يوم يزيد، فالحمد للَّه على ما علّم وألهم، وبصّر ويسّر.

نسأله دوام التوفيق والتسديد، يارب العالمين[1].

* * *

---

(١) الشهاب: (ج٣، م١٠) غرة ذي القعدة ١٣٥٢هـ - فيفري ١٩٣٤م.

لا يُؤمن مَن سبق في علم اللَّه عدم إيمانه

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: الآية ٧].

المناسبة:

عَلِمَ اللَّهُ أنّ نبيَّه ﷺ يقوم بالنذارة لقومه، ويبذل غاية جهده في تنبيههم من الغفلة، وإنقاذهم من الهلكة.

وعَلِمَ أنهم لا يؤمن به إلّا أقلهم، وعلم أن ذلك يكون من أعظم ما يؤلم النبيّ ﷺ لشدة حرصه على إيمانهم، وعظيم شفقته عليهم. ولعدم ظهور ثمرة ما بذله من جهد في هدايتهم؛ فأراد تعالى أن يقوي قلب نبيه ﷺ على تحمل ذلك بإعلامه به من أول الأمر، إذ ليس المؤلم المتوقع كالمؤلم الذي يصدم عن مفاجأة، وأعظم منه الذي يصدم مع توقع ضده، كما هنا، فإن المتوقع منهم بعد الإنذار البالغ بالبرهان الساطع هو إيمان أكثرهم لا كفره.

المفردات:

حقَّ: وجب وثبت.

القول: قول اللَّه فيهم بما سبق في علمه أنهم لا يؤمنون.

فهم: أي: أكثرهم.

التراكيب:

نفي الإيمان عنهم نفيًا مؤكدًا بالإخبار عن ضمير «هم» بجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقرنت الجملة بالفاء السببية لتفيد أن من سبق في علم اللَّه عدم إيمانه لا يرجى إيمانه بحال، فارتباط الثاني بالأول ارتباط لا انفكاك له.

المعنى:

لقد وجب وثبت ما سبق في علم اللَّه في أكثرهم، وما كان من قوله بعدم إيمانهم، فلا يرجى من ذلك الأكثر الذي سبق في علم اللَّه عدم إيمانِه إيمانٌ.

سؤال:

ما مات النبي ﷺ حتى عمَّ الإسلامُ جزيرة العرب، ودخل الناسُ في دين اللَّه أفواجًا، ولا شك أنّ الذين ماتوا على الكفر هم الأقل بالنسبة لمن آمنوا، فما معنى قوله تعالى: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾؟

جوابه:

الذين قام النبي ﷺ بإنذارهم، وأقام بين ظهرانيهم، مُكَرِّرًا للنذارة عليهم صباح مساء مدة ثلاث عشرة سنة، هم أهل مكة. فهم الذين تتعين إرادتهم من الضمير في قوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ ولا شك أن أكثر من أنذرهم النبي ﷺ من أهل مكة ماتوا على الكفر.

سؤال على هذا الجواب:

هذا يقتضي أن المراد بلفظة ﴿قَوْمًا﴾ المتقدمة أهل مكة، مع أن المفسرين فسّروها بالعرب.

جوابه:

نسلِّم هذا، ويكون تفسير ﴿قَوۡمًا﴾ بالعرب، نظرًا لمماثلتهم لأهل مكة في وجوب إنذارهم، باعتبار مشاركتهم لهم في الوصف، وهو غفلتهم، لعدم إنذار آبائهم.

لا حجة لمن مات على كفره بما سبق من علم اللَّه فيه:

قامت حجة اللَّه على خلقه بما ركَّب فيهم من عقل، وما مكّنهم من اختيار، وما نصب لهم من آيات مشاهدات، وما أرسل إليهم من رسل بآيات بينات.

وهذه كلها أمور معلومة لديهم، ضرورية عندهم، لا يستطيعون أن ينكروا شيئًا منها، فلا يمكنهم أن يجحدوا ما عندهم من عقل ومن اختيار، ولا أن ينفوا ما يشاهدونه من الآيات في المخلوقات، ولا أن ينكروا مجيء الرسل إليهم، وما تلوا عليهم من آيات.

وبهذه الأشياء قامت حجة اللَّه عليهم، وكان جزاؤهم على ما اختاروه بعدها لأنفسهم.

فأما ما سبق من علم اللَّه فيهم، فهو أمر مغيب عنهم، غير مؤثر فيهم- لأن العلم ليس من صفات التأثير- ولا دافع لهم.

فليس لهم أن يحتجوا به لأنفسهم لأنهم لم يعملوا لأجله، كيف وهو مغيب عنهم. وإنما عملوا باختيارهم الذي يجدونه بالضرورة من أنفسهم.

توجيه للترتيب:

تقوم حجة اللَّه على العبد أوَّلًا، ويعمل هو- كاسِبًا ومُكتسِبًا- باختياره ثانيًا، ويظهر لنا ما سبق من علم اللَّه فيه بعد أن اختار ما اختار ثالثًا.

ولهذا قدمت النذارة وما يرتبط بها على هذه الآية التي فيها بيان ما سبق من علم اللَّه فيهم.

تقريب:

قد يكون لرجل وَلدان، هو عالِمٌ بنفسيتهما وأخلاقهما وسيرتهما، ثم يأمرهما بأمر فيه الخير لهما، وهو يعلم- بما علم من أحدهما- أنه يمتثل، ويعلم- بما علم من الآخر- أنه يخالف، ويقول لأهل بيته إن فلانًا سيمتثل، وإن فلانًا سيخالف.

فيظهر ما قاله وما علمه في كل واحد منهما، فجازى الممتثل على طاعته، وجازى المخالف على عصيانه.

فلا شك أنّ هذا الرجل قد أحسن إلى ولديه بما أمرهما به من خير، وفعل ما تقتضيه أبوته من النصح والإرشاد، ولا يقدح في ذلك علمه بما سيكون منهما.

كما أنّ هذين الولدين قد نال كل واحد منهما ما يستحق دون أن يكون للمخالف منهما حجة على مخالفته بما كان يعلمه منه أبوه.

لِلَّهِ المثلُ الأعلى، فقد أحاط بكل شيء علمًا، فعلم من سيطيعه ومن سيعصي، ولكنه الحَكَمُ العدلُ، فلم يكن ليجازيهم على سابق علمه فيهم الذي

لا دخل لهم فيه، بل جعل جزاءهم بعد إقامة الحجة عليهم بما يكون من اختيارهم، ليكون جزاؤهم على ما عملوا، وما قدمت أيديهم، ومالهم دخل فيه بالكسب والاكتساب.

تعليم:

أرأيت كيف أنّ اللَّه تعالى لم يُجاز الخلق على مقتضى علمه فيهم، وهو العلم الذي لا يتخلف، وإنما جعل جزاءهم على أعمالهم.

فهذا تعليم لنا كيف تكون معاملتُنا بعضنا لبعضٍ، فلا نجازي على مجرد الظن، بل ولا على مجرد اليقين، وإنما تكون المجازاة بعد صدور الأعمال.

فَرُبَّ شخصٍ قدّرت فيه الخير أو الشر، ففعل ضد ما قدّرتَ، فلو جازيته قبل الفعل لما طابق جزاؤُك موضعَه، ولنال كل ما لا يستحقه.

فالحكمة والعدل والمصلحة في ربط المجازاة بالأعمال، وهذا ما كان من اللَّه في مجازاة خلقه، وهذا ما ينبغي أن نربط به المجازاة بيننا.

* * *

تمثيل حال المعرضين عن الحق المعاندين فيه

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: الآية ٨، ٩].

المناسبة:

لما ذكر عدم إيمانهم، وكان مبدأ ذلك بإعراضهم عن الحق، واختيارهم الكفر على الإيمان، ذكر ما عاقبهم اللّٰه به من منعهم الخير ودوام الإعراض عنه.

المفردات:

«الغل»: ما يجعل في العنق محيطًا به.

«الذقن»: مجمع اللحيين، ملتقى عظميهما تحت الفم.

مقمحون: رافعون رؤوسهم، يقال: قمح البعير قموحًا، إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب.

ويقال: أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعًا لضيقه.

«السد»: الحاجز بين الشيئين.

فأغشيناهم: جعلنا عليهم غشاء أي غطاء، أحاط بجميع الذات، فمنع العيون من الإبصار.

التراكيب:

فهي إلى الأذقان: أي الأغلال منتهية من أسفل الأعناق إلى الأذقان. وهذا كناية عن عرضها، ولذا فرع عليه ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾.

فرع عدم إبصارهم على جعل سدّ أمامهم وسدٍّ خلفهم، لالتزاق السدين بهم، وضغطهما عليهم، فكما لا يستطيعون معهما تحركًا لا يستطيعون إبصارًا، وكيف يبصر من وجهه ملتزق بالحائط مثلًا؟

المعنى:

إنا جعلنا في أعناق هؤلاء الذين لا يؤمنون أغلالًا ضيقة عريضة، تركتهم رافعين رؤوسهم عن مناهل الإيمان، لا يستطيعون أن يطأطئوا رؤوسهم إليها فيرتووا، وجعلنا أمامهم حجابًا وخلفهم حجابًا، محيطين وملتزقين بهم، ومغطِّين لجميع ذواتهم، فلا يستطيعون معهما تحركًا ولا إبصارًا.

توجيه التمثيل:

دُعوا إلى الإيمان والتوحيد ومكارم الأخلاق، وهذه أمور مدرك حسنها بالفطرة السليمة، فهي كالماء الذي تُقْبِلُ عليه الحيوانات بفطرتها، فلما أعرضوا عنها شُبِّهوا بالإبل المقمحة عن الماء.

ثم إنّ هذه الأمور كما يدرك حسنها بالفطرة السليمة، تدرك باستعمال النظر فيما بين يدي الإنسان من الآيات التي يراها ويشاهدها، وما خلفه من أيام اللَّه في الأمم التي بلغته أخبارها وأنباؤها.

فلما أعرضوا عما يرون وما قد سمعوا، شُبِّهوا بمن جُعِل بين سدّين

ملتزقين ومحيطين به، فجمد في مكانه، فلا هو يتحرك إلى ناحيةٍ، ولا هو يبصر شيئًا.

ترهيب:

كل ما دعا إليه الإسلام من عقائد وأخلاق وأعمال، فهو مما تقبله الفطر السليمة، وتدركه العقول بالنظر الصحيح.

فمن قابل دعوة الإسلام بالإعراض والعناد، وخالف فطرته، وعاكس عقله؛ كان حقيقًا بهذا العقاب الشديد من طمس البصيرة والطبع على القلب.

فذكر اللَّه لنا هذه العقوبة بهذا التمثيل البليغ الذي صورها في أبشع وأفظع صورة، ليحذرنا من الإعراض عن الحق والعناد له، ويخوفنا بعاقبة ذلك على أهله.

تعليم:

لكل إنسان فطرته وعقله، فعلينا إذا دُعينَا إلى شيء أن نعرضه عليهما راجعين إلى الفطرة الإنسانية، وإلى العقل البشري، منزهين عن الأغراض والأهواء والأوهام والشبهات.

فإذا كان هلاك هؤلاء بعدم الاستفادة منهما، فإن النجاة- عندما تعرض الأمور- بالرجوع إليهما.

وتجد القرآن العظيم يخاطب العقل والفطرة، ليعلمنا الرجوع إليهما، والاستفادة منهما.

* * *

من استوى عنده الإنذار وعدم الإنذار لا يرجى منه إيمان

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يس: الآية ١٠] .

المناسبة:

لما ذكر- تعالى- عدم إيمانهم لما سبق من علم اللَّه فيهم، ذكر هنا سببًا آخر لذلك، وهو استواء الإنذار وعدمه لديهم.

الترتيب:

ذكر هذا السبب إثر ما تقدم من وصف حالهم في شدة الإعراض، للتنبيه على أن من فسدت فطرته، وانطمس عقله، يستوي عنده الإنذار وعدمه، فلا يكون منه إيمان على كل حال.

المفردات والتراكيب:

سواء: بمعنى مستو.

والهمزة الأولى أصلها للاستفهام وليس مرادًا هنا، وتسمى في مثل هذا التركيب همزة التسوية لوقوعها بعد لفظها ودخولها على الأول من أمرين يراد التسوية ما بينهما.

وهي حينئذ من أدوات السبك، ولذا يكون تأويل الكلام هكذا: «سواء إنذارك وعدم إنذارك».

المعنى:

إن أكثر أهل مكة الذين حكم اللَّه بعدم إيمانهم بلغوا من شدة الإعراض والعناد إلى حيث استوى عندهم الضدان: الإنذار وعدم الإنذار، فمحقق منهم عدم الإيمان، ومأيوس من صدوره من ناحيتهم.

تحذير:

يذكر اللَّه تعالى حالة هؤلاء الذين استوى عندهم الشيء وضده، يحذرنا منها ومما يؤدي إليها من إهمال الفطرة وترك النظر، فإن الإنسان إنما يمتاز على بقية الحيوان بتمييزه بين الحقائق بالفطرة والفكرة، وإدراكه الفوارق ما بينها. فإذا سُلب هذه المزية التحق بالعجماوات، بل كانت العجماوات خيرًا منه لبقاء فطرتها سليمة لإدراك ما فيها استعداد لإدراكه.

* * *

تجديد الإنذار للمنتفعين به وتبشيرهم

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: الآية ١١] .

المناسبة:

لما ذكر تعالى المأيوس من انتفاعهم بإنذار النبي ﷺ ؛ ذكر الذين ينتفعون به تأنيسًا له بهم، وتقويةً له بظهور ثمرة إنذاره فيهم.

المفردات والتراكيب:

الذكر: القرآن، وهو من أسمائه التي تكررت في التنزيل(١) ، و«ال» فيه للعهد.

الغيب: الخلوة عندما يغيب الإنسان عن عيون البشر.

«التبشير»: الإخبار بما يسرّ.

«المغفرة»: ستره الذنب بالتجاوز عنه وعدم المؤاخذة به.

«الأجر»: الجزاء على العمل.

«الكريم»: الطيب الشريف في نفسه، النافع في أثره، الذي لا يشوب ذاته

---

(١) في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: الآية ٦] ، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: الآية ٩] ، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النّحل: الآية ٤٤] ، وغيرها من الآيات.

نقص، ولا منفعته ضرر.

وأفاد المضارع في ﴿تُنذِرُ﴾ تجديد الإنذار للمتبعين، وذكر اسم الرحمن ليفيد التركيب أنهم يخشونه مع العلم برحمته، وذلك يقتضي جمعهم بين الخوف والرجاء.

الترتيب:

ذكر المنتفعين بعد المأيوس من انتفاعهم ترقيًا من الأدنى إلى الأعلى، ولأنهم كالزبدة التي يحصل عليها بعد طرح غيرها، ولإراحة القلب من أولئك لتتوجه العناية التامة إلى هؤلاء.

وذكرت الخشية بعد الاتباع لأنها لا تحصل إلا به.

وجيء بعدُ بالتبشير مقرونًا بالفاء لأنه إنما يكون لأهل الاتباع والخشية بسبب اتباعهم وخشيتهم، وذكر الأجر بعد المغفرة لأن التحلية بعد التخلية، والتزين بعد إزالة الأدران.

المعنى:

إنما يتجدد إنذارك وينتفع به الذين آمنوا، وهم الذين اتبعوا القرآن، وخافوا اللَّه في خلواتهم، لصدق إيمانهم، خاشين نقمته، راجين رحمته.

وهؤلاء كما تنذرهم وينتفعون بإنذارك؛ بَشِّرهم على اتباعهم للقرآن، وخشيتهم بالغيب للرحمن، بمغفرة ذنوبهم، وجزاء- شريف رفيع طيب نافع، لا نقص فيه ولا تنغيص- على أعمالهم.

دفع إشكال:

أُمر النبيُّ ﷺ بالإنذار العام، ثم كان ممن أنذرهم قوم مأيوس منهم، وهؤلاء هم المراد بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ [يس: الآية ٧] الآيات، وهم الذين جاء فيهم قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النّجم: الآية ٢٩] الآية، إذ لا فائدة من إنذارهم.

وكان قوم آخرون آمنوا، وهؤلاء هم المرادون بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ الآية.

فلا منافاة بين قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ الذي يقتضي التعميم، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ الذي يقتضي التخصيص؛ لأن الأول في مقام الإنذار العام، والثاني في مقام تجديد الإنذار والانتفاع به.

وأما الإعراض فلا يكون إلا عن المأيوس منه من الكافرين.

إرشاد:

طريق السلوك الشرعي إنما هي اتباع القرآن.

وأكمل أحوال العبد أن يخشى اللَّه ويرجو رحمته.

وأهل الاتباع والخشية لا يستغنون عن تجديد الإنذار، وذلك بدوام التذكير المشروع في الإسلام.

وتذكير المؤمنين بإنذارهم وتبشيرهم، فلا يُؤَمَّنُونَ من عذاب اللَّه، ولا يُقَنَّطون من رحمته.

صفة المؤمن من هذه الآيات:

المؤمن الكامل هو من سلمت فطرته، وصحّ إدراكه، واتبع القرآن في عقده وخلقه وعمله، واستوت خلوته وجلوته، وسره وعلنه، وعبد اللّٰه راجيًا رحمته، خائفًا عذابه، يخوفه الإنذار، وترجيه البشرى بالمغفرة والأجر الكريم.

ثبتنا اللّٰه والمسلمين على الإيمان مع هذه الصفات إلى الممات، آمين يا رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٥، م١٠) غرة محرم ١٣٥٣هـ - أفريل ١٩٣٤م.

الحياة بعد الموت

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يس: الآية ١٢].

المناسبة:

اشتملت الآيات المتقدمة على ذكر الرسول وصفته، ورسالته التي جاء بها- وهي القرآن- ووصفها، والمرسِل وهو العزيز الرحيم، والمرسَل إليهم، وتعميمهم بالنذارة، وانقسامهم إلى معرضين معاندين، ومقبلين متبعين.

فجاءت هذه الآية مشتملة على ما تكون فيه نتيجة ذلك وثمرته، وهو يوم القيامة.

ووجه آخر وهو أن أمهات أصول العقائد ثلاثة: الإيمان باللَّه، والإيمان برسول اللَّه، والإيمان باليوم الآخر.

وقد انتظمت الآيات المتقدمة تقرير الأصل الثاني بالقَسَم عليه على ما تقدم من البيان، وانتظمت الأصل الأول ضمنًا بذكر العزيز الرحيم، فجاءت هذه الآية لتقرير الأصل الثالث.

سؤال:

كيف لم يُذكَر الأصلُ الأولُ- وهو الأصل الأول- إلا بما ذُكِر به من الذكر الضمني؟

الجواب:

ذلك لأمرين:

الأول: أن هذه الأصول الثلاثة تذكر في أكثر السور، غير أن بعض السور تخصص بالحديث على بعض الأصول أكثر من غيره، ولا يذكر فيها غيره إلا ضمنًا كما هنا.

الثاني: أن تقرير الأصل الثاني هو تقرير للأصل الأول، إذ جميع دلائل النبوة دلائل على وجود الخالق، وقدرته، وعلمه، وحكمته، ورحمته.

المفردات:

«الإحياء»: إيجاد الحياة في الجسم، ولا يكون إلا من اللَّه.

«والميت»: الجسم الذي يقبل الحياة ولا حياة فيه، سواء أكانت فيه وزالت، أمْ لم تكن فيه بعدُ كالجنين قبل نفخ الروح فيه.

التراكيب:

أُكِّدت الجملةُ لأن الخطاب مع منكري البعث والنشور.

وأُكِّد اسم «إنّ» بنحن ليفيد الاختصاص، فهو المحيي دون غيره.

وعبَّر بـ ﴿نُحۡيِۦ﴾ فعلًا مضارعًا ليفيد تجديد الإحياء واستمراره، فيشمل إحياءه للأجنَّة في الدنيا، وإحياءه الإحياء الثاني في الأُخرى، وكثيرًا ما جاء في القرآن الاستدلال على الإحياء الثاني بالإحياء الأول، فتكون كلمة ﴿نُحۡيِۦ﴾ قد اشتملت على العقيدة، وهي الإحياء الثاني، ودليلها، وهو الإحياء الأول.

المعنى:

يعرِّفُ اللَّهُ- تعالى- عباده بأنه هو الذي يحيي الموتى دون غيره،

ويذكِّرهم بما يشاهدونه من ذلك فيهم وهم أَجِنَّةٌ في بطون أمهاتهم، فيؤمنون بأنه يحييهم كذلك بعد موتهم، فيستعدّون من حياتهم الأولى لحياتهم الثانية.

* * *

إحصاء الأعمال المباشرة وغير المباشرة

﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ [يس: الآية ١٢] .

المناسبة:

لما أعلم الخلق بأنهم يحيون بعد الموت؛ أعلمهم بأن أعمالهم المباشرة وغير المباشرة مكتوبة عليهم، لأن حياتهم بعد الموت لنيل جزاء ما كتب عليهم من أعمالهم.

المفردات:

«قدّم الشيء»: جعله قدّامه، وأعمال المرء التي يباشرها قدّمها قبله في طريقه إلى الآخرة، فهي محفوظة حتى يلحقها.

و«الأثر»: ما يحصل من العمل، كالذي يحصل على وجه التراب من وضع الأقدام ويبقى بعد رفعها، فآثار الإنسان ما يحصل من أعماله التي باشرها.

التراكيب:

عبَّر بنكتب مضارعًا ليفيد التجدد والاستمرار، فما من عمل أو أثر يتجدد إلا ويكتب.

وأسند الكتابة إليه، والكاتبون الملائكة، لأنهم بأمره يكتبون.

المعنى:

يُعلم اللَّهُ تعالى عبادَه بأنه يكتبُ كلَّ أعمالهم التي يعملونها ويباشرونها بأنفسهم، ويكتب كذلك ما يعمله غيرهم إذا كان متسببًا عن أعمالهم وأثرًا لها.

تنظير:

مِثلُ هذه الآية في الدلالة على أن العبد مؤاخذٌ بما عمل مباشرة وما عمله غيره وكان من آثار عمله؛ قولُه تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القِيَامَة: الآية ١٣].

فالذي أخَّره هو أثره المذكور في هذه الآية.

تأييد وبيان:

في «صحيح مسلم» من طريق جابر(١) بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال:

«جاء ناسٌ من الأعراب إلى رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم، عليهم الصوف، فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة، فحثّ الناس على الصدقة، فأبطئوا عنه حتى رؤي ذلك في وجهه، قال: ثم إنّ رجلًا من الأنصار جاء بِصُرَّةٍ من وَرِقٍ، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا حتى عُرف السرورُ في وجهه، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم:

«من سنّ في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده، كُتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة،

(١) كذا في الأصل، والصواب: «جرير»، كما في «صحيح مسلم» والمصادر التي خرجته.

فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء»[١٨٧].

وفيه من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[١٨٨].

---

[١٨٧] صحيح:

رواه مسلم (٢/ ٧٠٤-٧٠٥ و٤/ ٢٠٥٩-٢٠٦٠/ حديث رقم: ١٠١٧) عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

ورواه أيضًا النسائي في «المجتبى» (٥/ ٧٥-٧٧) وفي «الكبرى» (٢٣٣٥) والدارمي (١/ ١٣١) وأحمد (٤/ ٣٥٨-٣٥٩ و٣٦٠و٣٦١و٣٦١-٣٦٢).

ورواه مختصرًا دون القصة: الترمذي (٢٦٨٠) والدارمي (١/ ١٣٠) وابن ماجه (٢٠٣).

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وللحديث شواهد:

١- عن أبي هريرة: أخرجه مسلم (٢٦٧٤) وأبو داود (٤٥٩٦) والترمذي (٢٦٧٩) والدارمي (١/ ١٣٠-١٣١) وابن ماجه (٢٠٦) وأحمد (٢/ ٣٩٧).

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

٢- عن حذيفة: أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٧) والحاكم (٢/ ٥١٦-٥١٧) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي، وأقره المنذري.

٣- عن أبي جحيفة: أخرجه ابن ماجه (٢٠٧) بإسناد حسن.

٤- عن أنس بن مالك: أخرجه ابن ماجه (٢٠٥) أيضًا.

٥- عن واثلة بن الأسقع: أخرجه الطبراني في «الكبير» بإسناد لا بأس به كما قال المنذري في «الترغيب».

[١٨٨] صحيح:

رواه مسلم (٢٦٧٤) وغيره عن أبي هريرة.

وقد تقدم في الذي قبله.

فتأيّد بهذين الحديثين فهمُ المعنى المتقدِّم من الآية، وهو أنّ العبد له وعليه من آثار أعماله مما لم يباشره بنفسه مثل ما له وعليه من أعماله التي باشرها.

وبيّن الحديثُ الأوَّلُ أنّ ما تسبب عن عمل المرء يعدّ أثرًا لعمله عندما يُعمل به في حياته مثلما يُعمل به بعد مماته، إذ الذي جاء بالصُّرَّةِ أوَّلًا قد تسبّب عن مجيئه مجيء مَن بعده على أثره. والحديثُ سيق في شأنهم، فتكون حالتهم أول ما يشمل.

كما بيَّن الحديث الثاني أنّ أثر القول كأثر الفعل، إذ الكلُّ عمل.

وبيَّن الحديثان أن نيل المرء جزاء عمله الذي لم يباشره، لا ينقص من جزاء العامل المباشر شيئًا.

تنبيه:

من صورة الواقعة التي ورد فيها الحديث الأوّل، علمنا أن المراد بـ «**من سن سنة حسنة أو سيئة**» هو من ابتدأ طريقًا من الخير في أعمال البِرِّ والإحسان، وما ينتفع به الناس من شؤون الحياة، ولا يشمل ذلك ما يحدثه المحدثون من البدع في العبادات من الزيادات والاختراعات، إذ الزيادةُ على ما وضعه الشرع من العبادات وحدّده، افتياتٌ عليه واستنقاصٌ له، وهذه هي البدعة التي قال فيها النبي ﷺ: «**كلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار**»[١٨٩].

---

[١٨٩] صحيح:

قطعة من حديث أخرجه بهذا اللفظ النسائي في «المجتبى» (٣/ ١٨٨-١٨٩) وفي «الكبرى» (٥٨٩٢) وابن خزيمة في «صحيحه» (١٧٨٥) عن جابر بن عبد اللّه قال: =

تحذير:

على العاقل، وقد علم أنه محاسب عن أفعاله، وعلى آثار أقواله، أن لا يفعل فعلًا، ولا يقول قولًا، حتى ينظر في عواقبه، فقد تكون تلك العواقب أضرّ عليه من أصل القول وأصل الفعل، فقد يقول القولَ مرَّةً ويفعل الفعلَ مرَّةً، ثم يقتدي به فيه آلافٌ عديدةٌ في أزمنةٍ متطاولةٍ.

حقًّا إنَّ هذا لَشيْءٌ تنخلعُ منه القلوبُ، وترتعدُ منه الفرائصُ، وصدق القائلُ من السلف رضي الله عنه: «السعيدُ من ماتت معه سيئاته».

* * *

= كان رسول اللَّه ﷺ يقول في خطبته يحمد اللَّه ويثني عليه بما هو أهله، ثم يقول:
«من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، إن أصدق الحديث كتاب اللَّه، وأحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» ثم يقول:
«بعثت أنا والساعة كهاتين».
وكان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه، وعلا صوته، واشتد غضبه، كأنه نذير جيش يقول: «صبحكم مساكم» ثم قال:
«من ترك مالًا فلأهله، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإلي أو علي، وأنا أولى بالمؤمنين».
وإسناده صحيح.
وأخرجه مسلم (٨٦٧) والدارمي (١/ ٦٩) مختصرًا وابن ماجه (٤٥) وأحمد (٣/ ٣١٠-٣١١و٣١٩و٣٣٨و٣٧١) مختصرًا ومطولًا، وابن الجارود (٢٩٧و٢٩٨) وأبو يعلى (٢١١١) وغيرهم، دون قوله: «وكل ضلالة في النار».
وللجملة الأولى «كل بدعة ضلالة» شاهد من حديث العرباض بن سارية تقدم برقم (٣٩)، وآخر عن ابن مسعود عند ابن ماجه (٤٦) وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٥).

الإحصاء العام في الكتاب الإمام

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: الآية ١٢]

المناسبة:

لما أعلم العباد بأنه يكتب لهم وعليهم أعمالهم؛ أعلمهم بأنه تعالى قد كتب كلَّ الأشياء، لا خصوص أعمالهم، تعميمًا بعد تخصيص.

المفردات:

«الإحصاء»: تحصيلُ الشيء بالعَدِّ وضبطهُ والإحاطةُ به.

«الإمام»: ما يُؤتم ويُقتدى به. والكتاب إمام لأنه يتبع فيؤخذ بما فيه ويعتمد عليه.

و«المبين»: المُظهِر لما فيه، فكل ما فيه ظاهر فيه.

التراكيب:

أصل الكلام: أحصينا كُلَّ شيء أحصيناه، فحذف أحصينا الأول لدلالة الثاني، فكان هذا أقوى في ثبوت الإحصاء ووقوعه على كل شيء.

المعنى:

يعلم اللَّه عباده بأنه حصل كل شيء من ذوات وأقوال وأفعال، وجميع ما كان في العالَم وما يكون، وأثبته فردًا فردًا في كتاب إمام معتمد مظهر للأشياء التي فيه، فهي فيه ثابتة ظاهرة جلية.

اعتبار:

قد أحاط اللَّه بكل شيء علمًا، فهو غنيٌّ بعلمه عن هذه الكتابة، ولكنه جعل هذا الكتاب إظهارًا لعظمة ملكه، وليعلِّم عباده الضبط والإحصاء في جميع أمورهم، وليبالغوا في محاسبة أنفسهم، وليعلموا أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فيزول من قلوبهم الخوف من الحوادث والمخلوقات، وتعظم ثقتهم باللَّه، وفي ذلك أعظم قوة في هذه الحياة، وأكبر راحة للقلب مِن صروفها.

نسأل اللَّه أن يقوي قلوبنا بالإيمان، وأن يريحنا باليقين، وأن يعيذنا من الخوف إلا منه، ومن الخضوع إلا له. آمين يا رب العالمين(١).

* * *

(١) الشهاب (ج٦، م١٠) غرة صفر ١٣٥٣هـ - ماي ١٩٣٤م.



تفسير الآيات (٤٧ - ٥١)

الفرار إلى الله

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: الآيات ٤٧- ٥١].

تمهيد:

المقصود الأساسي من الآيات هو تحذير الخلق من الهلاك، وترغيبهم في النجاة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالفرار إلى اللّه. فمهد لذلك بالآيات الثلاث الأُوَل للترغيب فيه، وختم بالخامسة لبيان الفرار الصحيح المنجي عند اللّه.

الآية الأولى:

الألفاظ والتراكيب:

السماء: هي الجرم الأعظم الذي أحاط بالأجرام السابحة في الفضاء كلها، وعلا عليها.

بنيناها: ضممنا أجزاءها بعضها إلى بعض، بغاية الدقة والإحكام، فكانت كالقبة فوق الجميع.

بأيدٍ: بقوة[1].

---

(١) وبه فسرها ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، كما أسندها عنهم ابن جرير في «تفسيره» (٢٧/ ٧).
وهو قول: «سائر المفسرين واللُّغويِّين» كما في «زاد المسير» (٨/ ٤٠).
وانظر «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٣٠٣) للشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

لموسعون: لمقتدرون ومطيقون، على احتمال أن يكون الوسع بمعنى القدرة والطاقة. أو لموسعون ومبعدون بين أرجائها، على احتمال أن يكون من السَّعة.

وقُدِّمت السماء لأنها المشاهد المحسوس الذي تقوم به الحُجَّة. وليقع البناء عليها مرتين على لفظها وعلى ضميرها، لأن الأصل: وبنينا السماء بنيناها، لتحقيق أنها مبنية، وأن بناءها لم يكن إلا من اللَّه القادر الحكيم، ولذلك علق بالفعل قوله: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾، والجملة الحالية تدل على أن الإيساع ثابتٌ له عند البناء، فذلك البناء العظيم لم ينقص من قدرته أو لم يمنع من توسيعه.

المعنى:

إنّ هذه القبة التي أحاطت بكم من جميع الأرجاء، نحن بنيناها بقدرتنا ذلك البناء المحكم المتقن، بنيناها[1] ونحن على قوتنا وقدرتنا نقدر على بناء أعظم منها لو شئنا. أو ونحن على قدرتنا وطاقتنا في إفاضة الخيرات والبركات منها عليكم- هذا على أنه من الوسع-.

أو بنيناها وقد وسعنا أديمها حتى أحاطت بهذه الأجرام السابحة التي منها ما لا يكون معه جرم الكرة الأرضية إلا كحمصة فوق مائدة كبيرة- هذا على أنه من السَّعة-.

---

(١) في الأصل «بُنيانها».

تحقيق آية كونية من الآيات القرآنية:

السماء في اللغة: هي كلُّ ما علاك.

فكل ما علا الأرض من سحب وطبقات هواء وكواكب تسبح في الفضاء وما وراء ذلك من القبة المحيطة الكبرى هو للأرض سماء.

وكل هذه متقنة الصنع، محكمة الوضع، متلاحمة الأجزاء، مرتبط بعضها ببعض ارتباطًا مقدرًا بالمسافات المدققة التي لا يكون معها تصادم ولا ارتخاء، ووضعها على هذه الصورة المنظمة المحكمة هو البناء.

وعليها كلها ينبغي أن يحمل لفظ السماء في الآية المتقدمة.

وقد جاء لفظ السماء في القرآن مُرادًا به القبة المحيطة في مثل: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [المُلك: الآية ٥]، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصَّافات: الآية ٦].

وجاء مرادًا به السحاب في مثل: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [الزّخرُف: الآية ١١]، فإن المطر ينزل من السحاب لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النُّور: الآية ٤٣].

وجاء مُرادًا به طبقات الجو في مثل: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النُّور: الآية ٤٣] والبرد يتكوّر في طبقات الجو.

والمتتبع لمواقع لفظة السماء من الكتاب العزيز يتحقق هذا.

الآية الثانية:

الألفاظ والتراكيب:

الأرض: هي هذه الكرة التي نعيش عليها.

فرشناها: بسطناها بزينتها ومنافعها.

الماهدون: مِن مهّد الشيء، وضعه وسوَّاه، وهيأه للنوم والجلوس والراحة.

ويجري في تقديم الأرض ما تقدم في تقديم السماء.

ومن يسير على هذا البساط المفروش، ويطلع على ما هُيِّئَ فيه من أسباب الحياة لكل ما فيه من حيوان لا يتمالك أن ينطق بالمدح والثناء على من هيأ هذه التهيئة، ومهد هذا التمهيد، ولذا قرنت الجملة الأخيرة بالفاء فقيل: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾.

ولا يغني فرش الأرض عن مهدها، لأن المهد يتضمن ما حصل فيها من مرافق ومواد وأسباب للعيش على أديمها والتنعم بخيراتها.

المعنى:

إن الأرض التي أنتم متمكنون من الوجود على ظهرها، والسير في مناكبها، والانتفاع بخيراتها، نحن فرشناها لكم، وهيأنا لكم أسباب الحياة والسعادة فيها على أكمل وجه وأنفعه وأبدعه، مما نستحق به منكم الحمد والثناء.

دقيقة كونية في الآية القرآنية:

شأن الفراش أن يكون ما تحته لا يصلح للجلوس والنوم عليه، وما تحت وجه الأرض هو كذلك لا يصلح للحياة فيه، فإن تحت القشرة العليا من الأرض المواد المصهورة والمياه المعدنية والأبخرة الحارة مما تنطق به البراكين المنتشرة على وجه الأرض في أماكن عديدة، فكانت القشرة العليا مثل الفراش تمامًا.

الآية الثالثة:

الألفاظ والتراكيب:

«من كل شيء»: من كلِّ جنس من الأجناس.

خلقنا: كوَّنا.

زوجين: فردان متباينان يكمل أحدهما الآخر في عالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد.

تذكَّرون: تذكرون ما أودع في فطرتكم من المعرفة لما تنظرون بعقولكم في عجائب الخلق، فتدركون ما له ﷻ من الألوهية والربوبية والوحدانية.

وقدّم ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ لأن الأشياء هي المستدل بها، ولبعث الهمم على النظر فيها.

المعنى:

إنّا خلقنا الأشياء التي تشاهدونها على الزوجية والتركيب من شيئين متضادين، لتكونوا بحيث يرجى منكم أن تعلموا أن النقص والعجز عمَّ

المخلوقات كلها، لحاجة كل شيء منها إلى ضده وقصوره بنفسه.

فالقدرة والكمال للخالق وحده، فلا يستحق العبادة سواه فاعبدوه ووحّدوه.

توسُّع في التذكر:

النظر في الأزواج مُفْضٍ للعلم بما ذكرنا، وللعلم بأن الخلق غير صادر عن طبيعة الأشياء، فإن النار - مثلًا - لا يصدر عنها التبريد والتسخين، لأن السبب لا ينتج الضدين، فالمخلوقات كلها صادرة بطريق الخلق عن فاعل مختار. وللعلم بوجوه كثيرة من إحاطة علمه، وشمول حكمته، وعموم نعمته.

حقيقة نفسية في نكتة بلاغية:

إذا نظر العاقل في هذه الأزواج وفكّر انكشفت له وجوه سر دلائل الربوبية والألوهية والتوحيد، وإذا حصل الانكشاف الأول تبعته انكشافات، فإذا حصل منه التذكر أفضى به إلى تلك الوجوه الكثيرة، ولهذا نزل الفعل منزلة اللازم الذي لا يراد منه إلا حصول الحدث.

آية كونية في الآية القرآنية:

من الأزواج ما هو ظاهر مشاهد معلوم من قديم، مثل السماء والأرض، والليل والنهار، والحَرّ والبرد، والذكر والأنثى، في الحيوان وبعض النبات.

ومنها ما كشفه العلم بما مهد اللَّه له من أسباب كالجزء الموجب والجزء السالب في القوة الكهربائية وفي الذرة التي هي أصل التكوين.

فلا فردية إلا لخالق هذه الأزواج كلها الذي أنبأنا بها قبل أن تصل إلى

تمام معرفتها العقول، فكان من معجزات القرآن العلمية التي يفسرها الزمان بتقدم الإنسان في العلم والعمران.

بلاغة التنويع والتنزيل:

لما كانت السماء متلاحمة الأجزاء في العلاء، ثابتة على حالة مستمرة في هذه الدنيا على البقاء؛ ناسَبَها لفظ البناء.

ولما كانت مظهر العظمة والجلال ناسبها لفظ القوة.

ولما كانت الأرض يطرأ عليها التبديل والتغيير بما ينقص البحر من أطرافها، وبما قد يتحول من سهولها وجبالها، وبما يتعاقب عليه من حرث وغراسة وخصب وجدب؛ ناسبها لفظ الفراش الذي يُبسط ويُطوى ويُبدَّل ويُغيَّر.

ولما كانت أسباب الانتفاع بها الميسرة ضرورية للحياة عليها، وكلها مهيأة، وكثير منها مشاهد، وغيره معد يتوصل إليه بالبحث والاستنباط- ناسب ذكر التمهيد.

ولما كانت الأزواج مكونًا بعضها من بعض؛ ناسبها لفظ الخلق.

ولما كان النظر في الزوجين هو نظر في أساس التكوين لتلك المذكورات السابقة، وهو محصل للعلم الذي يحصل من النظر فيها؛ قرن بلفظ التذكر.

الآية الرابعة:

الألفاظ والتراكيب:

«الفاء» للترتيب، لأن ما قبلها على ما فيه من عظمة وكمال وجمال فهي

مخلوقة موسومة بسمة العجز والنقصان، فلا يصلح شيء منها للتعويل عليه، فلم يبق إلا الخالق القادر ذو الجلال والإكرام، فهو الذي يفر إليه دون جميع المخلوقات.

فروا: اهربوا.

النذير: المعلم بما فيه هلاك لتجتنب الأسباب المؤدية إليه.

المبين: الذي يوضح ما أنذر منه، والأسباب المؤدية إليه، والوسائل المنجية منه، مع إقامة الحجة على صدقه ونصحه.

وقدم ﴿لَكُمُ﴾ ليفيد اهتمامه بهم، وذلك ليجلبهم إليه فيستمعوا لنصحه، وبعده ﴿مِنْهُ﴾ ليبين مصدر رسالته، وذلك ليبين لهم أنه مأمور، فلا يستكبروا من قبول دعوته.

وأكد الجملة لأنهم في مقام التردد أو الإنكار.

المعنى:

هذه المخلوقات كلها عاجزة في نفسها مفتقرة- ابتداءً ودوامًا- إلى خالقها، فاهربوا من شرها إلى خالقها، فهو الذي ينجيكم من شرِّها، ويهديكم إلى خيرها، ولا تغتروا بشيء منها فإنها لا تملك حفظًا لنفسها فكيف تملكه لغيرها؟

إنني أحذركم الهلاك إذا اغتررتم بها، وقطعتكم عن خالقها، ولم تهربوا إلى اللّه منها، وقد أبنت لكم مصدر الهلاك وطريق النجاة.

نكتة التنويع:

جاءت الثلاث الآيات الأُوَل كما يكون قولها من اللَّه.

وجاءت هذه الآية كما يكون قولها من النبي ﷺ، تنويعًا للخطاب وتفننًا، فإنه لما كان ما في هذه الآية هو المقصود؛ حوّل أسلوب الكلام من الإخبار إلى الأمر، تجديدًا لنشاط السامع، وبعثًا لاهتمام المخاطبين، وحثًّا لهم وتوكيدًا عليهم.

وفيه تنبيه على أن ما يقوله النبي ﷺ مثل ما يقوله اللَّه في وجوب الإيمان والامتثال.

تبيان وتوحيد:

هذا العالَم بسمائه وأرضه وأزواجه هو فتنة للإنسان بما فيه من لذائذ ومن جمال، وما فيه من قوة، وما فيه من سلطان.

وقد ركبت في الإنسان شهواته وأهواؤه، وسلّط عليه الشيطان يغويه ويزين له.

فكل هذا العالَم، إذا ذهب فيه الإنسان مع أهوائه وشهواته تحت إغواء الشيطان وتزيينه، فإنه ينحط إلى أسفل السافلين، ويصير عبدًا لأهوائه وشهواته وشيطانه، ولكل ما فتنه من العالم وذهب بلُبِّهِ. وقد ينتهي به ذلك إلى عبادته من دون خالقه.

فالعالَم بهذا الاعتبار شر وبلاء وهلاك يجب الفرار والهروب منه، ولا يكون هذا الفرار منه إلا إلى خالقه بالإيمان به، والتصديق لرسله،

والدخول تحت شرعه .

فبذلك يعرف الإنسان كيف يجعل حدًّا لأهوائه وشهواته ، وكيف يضبطها بنطاق الشرع وزمامه ، وكيف يدفع عنه كيد شيطانه ، وكيف يتناول سماء العالم وأرضه وأزواجه بيد الشرع ، فيعرف ما فيها من نعمة وحكمة ، فيستغلها بهداية الشرع ، مفرقًا علميًّا وعمليًّا بين منافعها ومضارها ، فيعظم بها انتفاعه ، ويزداد فيها اطلاعه واكتشافه ، فتتضاعف عليه منها الخيرات والبركات ، ويزداد علمه وعرفانه ، ويقوى يقينه وإيمانه ، ويعظم للَّه بره وشكرانه ، فيكون له ذلك العالم جنّة الدنيا ، وقنطرة لجنّة الأخرى ، ويفوز من الدارين بالمبتغى .

كل هذا بفراره من المخلوقات إلى خالقها ، فسلم من شرها وفاز بخيرها .

فمن هرب من المخلوقات إلى خالقها نجا ، ومن فر من الخالق إلى شيء من مخلوقاته كان من الهالكين .

إرشاد وتعميم:

كل ما يصيب الإنسان من محن الدنيا ومصائبها وأمراضها وخصوماتها ، ومن جميع بلائها ؛ لا ينجيه من شيء منه إلا فراره إلى اللَّه .

ففي العدالة الشرعية ما يقطع كل نزاع ، وفي المواعظ الدينية ما يهوِّن كل مصاب، وفي الهداية القرآنية والسيرة النبوية ما ينير كل سبيل من سبل النجاة والسعادة في الحياة، يعرف ذلك الفقهاء القرآنيون السنيون، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

تنبيه على وهم:

ليس الفرارُ من الأمراض بمعالجتها، ومن المصائب بمقاومتها، فرارًا من اللَّه، لأنّ الأمراضَ هو قدّرها، والأدويةَ هو وضعَها، ودعا إلى استعمالها والتعالج بها.

وكذلك المصائب، وما شرع من أسباب مقاومتها، فكلها منه بقدره.

والإنسان مأمور منه بأن يعالج ويقاوم، فما فرّ من قدره إلا إلى قدره.

ولهذا لما قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما في قصة الوباء: أفرارًا من قدر اللَّه يا عمر؟ قال عمر: نفر من قدر اللَّه إلى قدر اللَّه[١٩٠].

---

[١٩٠] صحيح:

قطعة من حديث رواه البخاري (٥٧٢٩) عن عبد اللَّه بن يوسف، ومسلم (٢٢١٩) عن يحيى بن يحيى التميمي: كلاهما عن مالك - وهذا في «الموطأ» (٤/ ٢٣٦-٢٣٨/ ١٧٢٠) - عن ابن شهاب عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن الحارث بن نوفل عن عبد اللَّه بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد - أبو عُبيدة بن الجراح وأصحابه - فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام.

قال ابن عباس: فقال عمر بن الخطاب: ادع لي المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم واخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا فقال بعضهم: قد خرجْتَ لأمرٍ ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول اللَّه ﷺ ولا نرى أن نقدمهم على هذا الوباء.

فقال عمر: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوهم فلم يختلف عليه منهم رجلان فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة: أفرارًا من قدر اللَّه!؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نفر من قدر اللَّه إلى قدر اللَّه، أرأيت لو كان لَكَ إِبِلٌ فهبطت واديًا له عدوتان إحداهما مخصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت المخصبة رعيتها=

وفي الحقيقة كان الفرار من شر في مخلوق إلى اللَّه يرجو منه الخير في غيره.

تحذير من جهالة:

ليس المقصود بالفرار من الدنيا ترك السعي والعمل وتعاطي الأسباب المشروعة لتحصيل القوت ورغد العيش وتوسيع العمران وتشييد المدنية، بل المقصود الفرار من شرورها وفتنتها.

وتناول ذلك كله على الوجه المشروع هو من الفرار إليه والدخول تحت شرعه كما قدمناه.

وقد ضل قومٌ فزعموا ذلك طاعة وعبادة؛ فعطَّلوا الأسباب، وخالفوا الشريعة، وحادوا عما ثبت من السنة.

وفيهم سئل إمام الحديث والسنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ، سئل عن القائل: أجلس لا أعمل شيئًا حتى يأتيني رزقي. فقال:

«هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: «**إن اللَّه جعل رزقي تحت ظل رمحي**»[١٩١].

= بقدر اللَّه وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر اللَّه. فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان غائبًا في بعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علمًا: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم به فلا تخرجوا منها فرارًا منه».

قال: فحمد اللَّه عمر ثم انصرف.

[١٩١] صحيح:

قطعة من حديث أخرجه البخاري (٦/ ١٢٠-فتح الباري) تعليقًا، ووصله أحمد (٢/ ٥٠و٩٢) وابن=

وقوله: «تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[١٩٢]. وكان الصحابة يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم، وبهم القدوة».

= أبي شيبة (٤/ ٢١٨/ ١٩٣٩٤) والبيهقي في شعب الإيمان (١١٩٩) والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٤٢/ ٧٦٦) من طريق عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان: حدثنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر مرفوعًا: «بُعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد اللَّه وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعل الذل والصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم».

وليس عند البخاري الجملة الأولى والأخيرة، ولأبي داود (٤٠٢٤) الجملة الأخيرة.

وإسناده جيد، رجاله ثقات غير ابن ثوبان ففيه كلام لكن لا ينزل حديثه عن رتبة الحسن وقد قال فيه الحافظ في «التقريب»:

«صدوق يخطئ، وتغير بآخره»، وقال الذهبي في «سير النبلاء» (٧/ ٣١٤):

«صالح الحديث».

وله شاهد مرسل بإسناد حسن - كما في «الفتح» (٦/ ١٢٠) والتغليق (٣/ ٤٤٦) - أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٤٣٠) عن طاوس مرفوعًا.

وله طريق آخر أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٨٨) بإسناد فيه ضعف كما في «الإرواء» (٥/ ١٠٩-١١٠) للألباني.

والحديث صححه وقواه جمع من أساطين هذا الفن، منهم ابن حبان كما في «بلوغ المرام» لابن حجر وشيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٦٩) وفي «مجموع الفتاوي» (٢٥/ ٣٣١) والحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٦٣) والحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ١٢٠و١٠/ ٣٣٤) والسخاوي كما في «عون المعبود» (١١/ ٥٢) والعلامة الألباني في «الإرواء» (١٢٦٩) وفي«الجلباب» (ص٢٠٣-٢٠٤) و «صحيح الجامع الصغير» (٢٨٢٨).

(فائدة):

والحديث أفرده الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ برسالة شرحه فيها شرحًا ممتعًا وهي مطبوعة ولله الحمد.

[١٩٢] صحيح:

قطعة من حديث أخرجه الترمذي (٢٣٤٩)وابن ماجه (٤١٦٤) وأحمد (١/ ٣٠و٥٢) وابن حبان (٢٥٤٨-الموارد) والحاكم (٤/ ٣١٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وقال الحاكم: «صحيح الإسناد». وأقره الذهبي!

تطبيق:

إذا رأينا طائفتين من المؤمنين تنازعتا:

فأما إحداهما فالتجأت إلى السلطان تستغيثه، وتستعين به، وتحطب في حبله[1]، فأغاثها، وانتقم لها، وأمدّها، وقرّبها، وأدناها!.

وأما الأخرى فلم تستغث إلا باللَّه، ولم تستنصر إلا به، ولم تعتمد إلا عليه، ولم تعمل إلا فيما يرضيه من نشر هداية الإسلام، وما فيها من خير عام لجميع الأنام، وتحمّلت في سبيل ذلك كل ما تسببت لها فيه الطائفة الأخرى، ومن تولته وهربت إليه.

إذا رأينا هاتين الطائفتين عرفنا منهما - يقينًا - الفارة من اللَّه، والفارة إليه، فكنا - إنْ كُنّا مؤمنين - مع مَن فر إلى اللَّه.

الآية الخامسة:

الألفاظ والتراكيب:

ولا تجعلوا: ولا تضعوا من عند أنفسكم ما لا وجود له.

إلهًا: معبودًا تخضعون له، وترجون منه التصرف في الكون، ليجلب لكم النفع، ويدفع عنكم الضر.

وتقدمت ألفاظ آخر الآية.

(١) يقال: حطب في حبلهم يحطب، أي: نصرهم. «القاموس المحيط».

المعنى:

ولا تجعلوا في فراركم إلى اللَّه شيئًا معه من مخلوقات تعتمدون عليه وتلتجئون إليه، فتكونوا قد أشركتم به سواه، فإني أحذركم ما في ذلكم من هلاككم بالشرك الذي لا يقبل اللَّهُ معه من عمل، وإنني قد أبنت لكم لزوم توحيده في الفرار إليه كما بينت لكم لزوم ذلك الفرار.

نكتة التكرير:

أعاد ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مع الآية الخامسة ليبين لهم أن عبادة اللَّه مع الإشراك به كتعطيل عبادته، فهلاك المشرك كهلاك الجاحد، والنجاة أن تعبدوا اللَّه ولا تشركوا به شيئًا، لا في ربوبيته، ولا في ألوهيته.

تنبيه وتحذير:

جاء في الحديث فيما رواه أصحاب السنن أن «**الدعاء هو العبادة**»[١٩٣].

فمن دعا غير اللَّه فقد عبده، ومن دعا مخلوقًا مع الخالق فقد أشرك.

فإذا دعوتَ، فادع ربك ولا تدع معه أحدًا، وكيف تدعو من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا؟

وإذا توسلتَ، فتوسّل بأعمالك، بإيمانك وتوحيدك، وباتباعك لمحمد ﷺ، ومحبتك فيه، واعتقادك ما له عند اللَّه من عظيم المنزلة وسموّ المقام عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

---

[١٩٣] صحيح:

تقدم برقم (٥٥).

بيانٌ نبويٌّ قوليٌّ:

قال- عليه الصلاة والسلام- فيما يقال عند النوم: «**لا ملجأ ولا منجى إلا إليك**»[١٩٤].

والملجأ هو المهربُ الذي يُهرَبُ إليه، والمنجى هو مكان النجاة.

فبين لنا أنه لا يكون الهرب إلا إلى اللَّه، ولا تكون النجاة إلا بالهرب إليه، فمن هرب لغيره كان من الهالكين.

كما بيّن لنا أنّ كل ما يجري في هذا العالَم فهو بخلقه [و](١)بقدره، فلا مهرب ولا نجاة مما خلق وقدر إلا إليه.

بيانٌ نبويٌّ عمليٌّ:

روى أحمد وابن جرير عن حذيفة بن اليمان «أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا حَزَبَه أمرٌ صلى وفزع للصلاة»[١٩٥] يعني إذا نزل به مهم أو أصابه غم فزع للصلاة.

---

[١٩٤] صحيح:

قطعة من حديث تقدم تخريجه برقم (١٤٥).

(١) سقطت من الأصل.

[١٩٥] حسن:

أخرجه أبو داود (١٣١٥) وأحمد (٥/ ٣٨٨) والطبري في «تفسيره» (١/ ٢٦٠) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ١٥٤/ ٣١٨١و٣١٨٢) والخطيب البغدادي في «تاريخه» (٦/ ٢٧٤) من طرق عن عكرمة بن عمار عن محمد بن عبد اللَّه الدؤلي عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة عن حذيفة.

وهذا إسناد ضعيف: الدؤلي - هو ابن أبي قدامة - مجهول، قال الذهبي في «الميزان»: (٣/ ٥٩٥): «ما أعلم روى عنه غير عكرمة بن عمار»، وفي «التقريب» (٦٠٤٢): «مقبول» يعني عند المتابعة.

وشيخه عبد العزيز «لا يعرف» كما قال الذهبي، وقال الحافظ:

فبين لنا بالفعل أنّ الفرار إلى اللَّه بالتلبس بطاعته، وصدق التوجه إليه، والدعاء والتضرع والخشوع له، والاستسلام لدينه وشرعه، والإخلاص في عبادته، والاعتماد عليه، وذلك كله موجود على أكمله في الصلاة التي هي عمود الدين ومظهر كماله.

جعلنا اللَّه والمسلمين من الفارين إليه والمقبولين لديه. آمين[1].

* * *

«وثقه ابن حبان، وذكره بعضهم في الصحابة».

لكن للحديث شاهد يتقوى به: أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٤٥٠) وفي «عمل اليوم والليلة» (٦١٤) وأحمد (٤/ ٣٣٣) وغيرهما بإسناد صحيح عن صهيب رضي الله عنه، واللَّه أعلم.

(١) الشهاب (ج١، م١٥) غرة محرم ١٣٥٨هـ - فيفري ١٩٣٩م.

تفسير المعوذتين

تفسير المُعَوِّذتين

خلاصة تفسير المُعَوِّذَتَيْن
من درس الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس
الذي ختم به تفسير القرآن

كلمة بين يدي التلخيص[1]:

أكمل طرائق المتقدمين من علماء هذه الملة في تلقين العلوم طريقة الإملاء.

والإملاء نتيجة لاستحكام الملكة في العلم واستقلال الفكر فيه، أو سَعة المحفوظ ورحابة آفاق الحافظة.

واستحكام الملكة، واستقلال الفكرة، وقوة الحافظة، مزايا تكاد تكون خالصة لعلماء سلف هذه الأمة، لم يبلغ علماء الأمم الأخرى مُدَّ أحدهم فيها ولا نصيفه[2].

وكانت وظيفةُ السامعين كتابةَ ما يملى عليهم كله أو خلاصته، وكانت المحابر والأقلام والأوراق هي الأدوات اللازمة لرواد مجالس العلم إلَّا في مقامات مقابلة الأصول وضبطها، فهنا لابد من إحضار النسخ الكاملة من الكتب.

---

(١) بقلم الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ كما سيأتي التنبيه عليه من المجلة.

(٢) في الأصل: «نصيبه»!

ومن ثمرات تلك الطريقة المثلى في التلقين والتلقي كتبُ الأمالي في الحديث واللغة والأدب، وفي تراجم المحدِّثين والأدباء الشيء الكثير من ذلك، وإنْ لم يُبْقِ لنا الدهرُ منها إلَّا الأقل من القليل.

ولما انتهى عصر الرواية بجمع روايات السلف في التفسير، ورواياتهم للأحاديث والسنن، ودوّنت أصول اللغة والأدب والعلوم المتفرعة عنها، وجاء دور الاستغلال لها، نشأت عواملُ الانحطاط في العلوم الإسلامية، وكان من أظهر مظاهرها جفاف القرائح، وجدب الأفكار، وضعف القوى الحافظة، وانحطت طرائق التلقين تبعًا لذلك، وانحصرت في الطريقة الشائعة إلى اليوم، وهي التزام كتاب تتعدد نسخه بتعدد المتلقين له، يحلِّل الشيخ عباراته، ويشرح معانيه. وانحطت وظيفة السامعين من الكتابة والتقييد إلى الاستماع المجرد.

ولسنا نعيب طريقة التزام الكتب وشرح معانيها بالكلام، فذلك في حقيقته نوع قاصر من الإملاء. وإنما ننعى على السامعين إهمالهم لكتابة ما يسمعون، فتضيع عليهم الفوائد التي يلقيها الأستاذ، وقد تكون قيِّمة، كما تضيع في عصرنا هذا الخُطب والمحاضرات المرتجلة التي لا يكتبها ملقيها ولا متلقيها.

ولسنا بصدد التأريخ لهذه الطرائق والمقارنة بينها وبيان وجوه النقص والكمال فيها. وإنما ننبه في هذا المقام إلى أن أسوأ أثر لهذه الطريقة الشائعة اليوم هو القضاء على الملكة العلمية؛ لأنها شغلت المعلِّم والمتعلِّم معًا بالكتاب عن العلم؛ إذ أصبح همُّهما كله مصروفًا إلى تحليل الكتاب، وفك عباراته، والقيام على اصطلاحاته الخاصة، وفي بعض هذا ما يستغرق الوقت ولا يبقي سعة لإدراك قواعد العلم وتطبيق جزئياته على كلياته، وبعيد جدًّا على

من يدرس علمًا على هذه الطريقة أن تستحكم ملكته فيه .

وكيف تستحكم ملكة الفقه - مثلًا - لمن يقرأه من مثل «مختصر خليل» على هذه الطريقة، فيمضي وقته في تحليل عباراته وتراكيبه المعقدة التي ذهب الاختصار بكثير من أجزائها، وفي بيان التقديم والتأخير في الألفاظ، وربط المعمولات بالعوامل البعيدة، وإرجاع الضمائر المختلفة إلى مراجعها، والطفرة بالذهن من مذكور إلى مقدر؟

وهذا هو كل ما يشغل وقت المعلِّم والمتعلِّم، وهم في الحقيقة لا يدرسون علم الفقه، وإنما يدرسون كتابًا في الفقه، ودراسة الكتب لذاتها أصبحت اليوم فنًّا كماليًّا من التاريخ، لا أصلًا في تعلُّم العلوم .

والدارس لتاريخ العلوم الإسلامية يتجلَّى له هذا في تراجم علماء تلك العلوم؛ إذ يجد فيها دائمًا أشباه هذه العبارة : كان أقوم الناس على كتاب «الجمل» للخونَجي[1]، أو على كتاب «التهذيب» للبراذعي[2]، أو على كتاب «الشامل» لابن الصباغ[3]، كان نافذًا في إقراء «المحصل» للرازي، كان سديد البحث في «مختصر ابن الحاجب» الأصلي[4]، كثير المناقشة لعباراته .

(١) توفي سنة (٦٤٦هـ)، و«الجمل» اختصار «نهاية الأمل» في المنطق لابن مرزوق التلمساني. «الأعلام» (٧/ ١٢٢).

(٢) فقيه من كبار المالكية، من كتبه «التهذيب» في اختصار المدوَّنة. توفي سنة ٣٧٢هـ. «الأعلام» (٢/ ٣١١).

(٣) فقيه شافعي، من كتبه «الشامل» في الفقه، توفي سنة (٤٧٧هـ). «الأعلام» (٤/ ١٠).

(٤) يعني كتابه «منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل» في أصول الفقه، مقابل «مختصره» الفرعي المسمَّى «جامع الأمهات». وقد توفي ابن الحاجب سنة (٦٤٦هـ). «الأعلام» (٤/ ٢١١).

وأين سداد البحث وكثرة المناقشة في عبارة كتاب من تحصيل الملكة في علم؟

إنَّ الأصولي الحقيقي هو الذي ينفق مما عنده، أو يقرأه من أيِّ كتاب كان، ولا يفتتن بكتاب معيَّن هذا الافتتان.

وأن الفقيه الحقيقي هو الذي يفهم الفقه، لا الذي يفهم كتابًا في الفقه.

وفي وقتنا هذا نسمع علماء المعاهد المشهورة يتمدحون بمثل هذا، ويصفون من يحسن إقراء «التنقيح» للقرافي على هذه الطريقة بالأصولي المحقق.

ولقد حاول جماعة من العلماء الحفاظ في القرون الأخيرة إصلاح هذه الحالة، وإحياء طريقة الأمالي، فلم ينجحوا؛ لافتتان جمهور المتعلمين بالكتب وانصرافهم عن العلم إلى كتب في العلم.

حاول ذلك الحافظ ابن حجر، وهو أهل لذلك، ولكن أهل زمنه لم يكونوا أهلًا له.

ونعى معاصرُه ابن خلدون المؤرخ طرق التلقين في زمنه وكثرة المؤلفات والمختصرات في العلم، وعدَّها عائقة عن التحصيل.

وحاول ذلك بعد ابن حجر تلميذه الحافظ السيوطي، وهو أهل لذلك، على ما فيه من تبجح واستطالة، وقد شكا في بعض رسائله إخفاقه في هذه المحاولة بعبارةٍ مُرَّةٍ، ووصف انصراف الجمهور عنها بأنه من غلبة الجهل وكلال الهمم وضعف العزائم.

نجمت في هذه العهود الأخيرة ناجمة اضطراب وتبرم من طرائق التعليم المتبعة وكتبه الملتزمة، وارتفعت الأصوات بالشكوى من أضرارها وسوء عواقبها.

وكان الأستاذُ الإمامُ الشيخُ محمد عبده أعلى الحكماء صوتًا بلزوم إصلاحها، وأبلغهم بيانًا لأضرارها وسوءاتها ومعايبها، وأسدّهم رأيًا في تغييرها بما هو أجدى منها وأنفع، وأكثرهم عملًا جِدِّيًّا في ذلك.

وكان من إصلاحاته العملية في هذا الباب درسه لكتاب اللَّه بأسلوب حكيم لم يسبقه إليه سابق.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ وهو مَن هو في استقلال الفكر واستنكار الطرائق الجامدة، يجاري الطريقة الأزهرية بعض المجاراة لاعتبارات خاصة، ومن هذه المجاراة السطحية أنه كان يلتزم في تلك الدروس العامرة بالحكم العليا «تفسير الجلالين» ويستهلها بقراءة عبارته.

ولكن السامعين لتلك الدروس- على كثرتهم وجلالة أقدارهم في العلم والمعرفة، وتساويهم في الاعتقاد بأن تلك الدروس فيضٌ من إلهام اللَّه أجراه على قلب ذلك الإمام وعلى لسانه، وأنها مما لم تنطو عليه حنايا عالم ولا صحائف كتاب- لم تتسابق أقلامهم لتقييد تلك الدروس إلَّا قليلًا. ولو أنهم فعلوا لما ضاع من كلام ذلك الإمام حرف واحد.

ولو لم يقيض اللَّه محمد رشيد رضا لهذا العمل الجليل لضاع كله، ولكن اللَّه وفقه لحفظ معاني تلك الدروس، وسدد قلمه في أدائها، ثم نهج نهجه بعد موته وسار على شعاع هديه في تفسير كلام اللَّه، فأبقى لهذه الأمة تلك الأسفار

القيمة المعروفة بـ «تفسير المنار».

مدَّت حركة الإصلاح العلمي مدّها بعد موت الإمام، وانتشرت في الأقطار الإسلامية، وأسفرت عن إصلاح حقيقي لأساليب التعليم في المعاهد الحرة، وعن إصلاح صوري في المعاهد الرسمية، ولا تزال الحرب قائمة في هذه المعاهد بين طلاب الإصلاح وبين أنصار الجمود، وستكون العاقبة للمصلحين بإذن اللَّه.

ولقد كان من حسن حظ الجزائر أنَّ باعث النهضة العلمية فيها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قد وضع أساس هذه النهضة على قواعد صحيحة من أول يوم، فسلك في درس كلام اللَّه أسلوبًا سلفي النزعة والمادة، عصري الأسلوب والمرمى، مستمدًّا من آيات القرآن وأسرارها أكثر مما هو مستمد من التفاسير وأسفارها.

وقد قرأنا له في بعض افتتاحيات (مجلة الشهاب) أنه يعتمد في هذه الدروس على تفاسير مخصوصة في مواضيع مخصوصة، كالطبري في المأثور، والكشاف في أسرار الإعجاز، وذلك صحيح ومفيد لمن يجعل فهوم الرجال مقاييس لفهمه، ولا يعطيها أكثر من أنها فهوم تصيب وتخطئ، أما المعنى الصحيح لكتاب اللَّه فيستجليه من البيان العربي، والشرح النبوي، ومن مقاصد الدين، وأسرار التشريع، ومن عجائب الكون، وسنن اللَّه فيه، ومن أحكام الاجتماع الإنساني، ومن تصاريف الزمن، ونتائج العقول، وثمرات العلوم التجريبية.

وإذا كان من دواعي الغبطة ختم تفسير القرآن على هذه الطريقة في القطر

الجزائري، فإن من دواعي الأسف أنه لم ينتدب من مستمعي هذه الدروس من يقيدها بالكتابة، ولو وُجد من يفعل ذلك لربحت هذه الأمة ذُخرًا لا يُقَوَّم بمال، ولاضطلع هذا الجيل بعمل يباهي به جميع الأجيال، ولتمخض لنا ربع قرن عن تفسير يكون حُجَّة هذا القرن على القرون الآتية. ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة في «الشهاب» باسم: «مجالس التذكير» عَلِمَ أيَّ عِلْمٍ ضاع، وأيَّ كنز غطى عليه الإهمال.

ولما كان اليوم المشهود بختم هذه الدروس جمع أحد الحاضرين(١) ما وعته ذاكرته وأمكنه تقييده من معنى درس الختم في تفسير المعوذتين، وتصرف في ألفاظه بما لا يخرج عن معانيه، إذ لم يكن من الميسور أن يلتقط الألفاظ كلها. فجاء بهذه الخلاصة التي ننشرها على الناس في هذا العدد (الخاص بالاحتفال) لافتين أنظارهم إلى أن هذه الخلاصة محيطة بمعاني الدرس مع تصرف ضروري اقتضته مساوقة ما كتب لما قيل.

* * *

استهل الأستاذ الدرس بعد الاستعاذة والتسمية بالتحميد المأثور:

الحمد للَّه، إن الحمد للَّه، نحمده ونشكره ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يضلل اللَّه فلا هادي له، ومن يهد فما له من مضل، ونشهد أن لا إله إلا اللَّه ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله[١٩٦].

(١) الشهاب: هو الأستاذ البشير الإبراهيمي كاتب التلخيص.

ثم عقب بما ثبت أن رسول اللَّه ﷺ كان يبدأ به خطبه. وجرت عادة المحدِّثين والمفسرين أن يفتتحوا به مجالس التحديث والتفسير، وإن اختلفت الروايات في ألفاظه، وهو قوله ﷺ:

«أمَّا بعد، فإن أصدق الحديث كتاب اللَّه، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[١٩٧].

---

[١٩٦] صحيح:

ورد نحوه من طريق جماعة من الصحابة ﷺ، منهم:

١- عبد اللَّه بن مسعود: أخرجه أبو داود (٢١١٨- عون المعبود) والترمذي (١١٠٦) والنسائي في «المجتبى» (٦/ ٨٩- بشرح السيوطي) وفي «الكبرى» (٥٥٢٧و٥٥٢٨) والدارمي (٢/ ١٤٢) وابن ماجه (١٨٩٢) وأحمد (١/ ٣٩٢-٣٩٣و٤٣٢) وغيرهم، وقال الترمذي: «حديث حسن».

٢- ابن عباس: أخرجه مسلم (٨٦٨) والنسائي في «المجتبى» (٦/ ٨٩-٩٠) وفي «الكبرى» (٥٥٢٩) وابن ماجه (١٨٩٣) وأحمد (١/ ٣٠٢و٣٥٠) وغيرهم.

٣- جابر: أخرجه مسلم (٨٦٧) وغيره، وقد تقدم بلفظه برقم (١٨٩).

٤- أبو موسى الأشعري: «رواه أبو يعلى والطبراني في «الأوسط» و «الكبير» باختصار ورجاله ثقات، وحديث أبي موسى متصل».

قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٨٨).

(تنبيه):

ليس في شيء من طرق هذه الخطبة النبوية المعروفة عند العلماء بـ«خطبة الحاجة» من زيادة بعضهم فيها: «ونشكره»، و «ونتوب إليه» بل الثابت بدل هذه العبارة الأخيرة: «ونعوذ باللَّه من شرور ....»، مع تقديم جملة الهداية على الإضلال، وذكر الشهادتين بصيغة الإفراد لا الجمع، فينبغي التقيد بتعليمه ﷺ، واللَّه ولي التوفيق والهداية.

[١٩٧] صحيح:

تقدم قريبًا في (١٨٩).

ثم قال توطئة للدخول في تفسير المعوذتين ما معناه مع تصرف وتوضيح :

بُني هذا الكونِ الدنيوي على أن يقترن فيه الخير بالشر ، وأن يتصلا ، وأن يشتبها ، وأن يحيطا بالإنسان من جميع جهاته فتكون أعماله الكسبية في الحياة مكتنفة بهما ، دائرة بينهما ، موصوفة بأحدهما ولا بد، ذلك من قدر اللّٰه ومن سننه العامة في هذا العالم الإنساني .

وحكمته المبيَّنة في وحيه هي ابتلاء خلقه ليجازوا على ما يكون من كسبهم وسلوكهم بعد أن وهبهم العقل والتمييز ، وأكمل عليهم نعمته بهداية الدين ، عدلًا منه تعالى ورحمة .

وحكمة أخرى : وهي تمرين هذا الإنسان في حياتيه العلمية والعملية ، وتدريب فكره على اختيار الأنفع على النافع ، والنافع على الضار ، ثم سوق الجوارح إلى العمل على ذلك ا لترتيب وترويضها عليه .

والإنسان يكتسب القوة والدربة بتمرُّسه على ما يلقاه من الخير والشر بعمله وبفكره ، وللفكر الإنساني عمل سابق لأعمال الجوارح المجترحة ، وسائق لها ومُهَيِّئٌ لما يظهر أنه من بدواتها .

وهذا العمل الفكري تظهر قوته في نواح ؛ منها - وهو أهمُّها - التمييز بين الخير والشر . وأدق منه التمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ، فإن الخير درجات وأنواع ، والشر كذلك دركات وأنواع .

والإنسان في هذا الخضم الذي تلاطمت أمواجه ، وفي هذا الفضاء الذي تشابهت أفواجه ، محتاج إلى معونة إلهية في تمييز الخير من الشر . وقد أمده اللّٰه بهذه المعونة من دينه الحق .

ومحتاج إلى تأييد إلهي يعصمه من الشر ويقيه من الوقوع فيه عن جهالة أو عمد، وقد هداه اللَّه إلى أسبابه ووسائله بما شرع له من المنبهات عند طروق الغفلة، والمبصرات عند عروض الشبهة، والمعوذات المحصنات عند إلمام لمة الشيطان وطواف طائفه.

ومن هذه المعوذات عقائد تدفع عن صاحبها الشكوك وهي شر، وحقائق تقي صاحبها الوهم وهو شر، وعبادات تربي مقيمها على الخير وتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وأعمال تثبت فاعلها على الحق، وأقوال يمليها القلب العامر بتقوى اللَّه والخوف من مقامه على الألسنة لتكون شهادة لها وعنوانًا عليها، والألسنة تراجمة القلوب.

فكان مما شرع اللَّه لنا في كتابه وعلى لسان نبيه التعوذ باللسان من الشر والباطل، وأنزل اللَّه عليه هاتين السورتين وفيهما الاستعاذة باللَّه من أنواع من الشرور هن أمهات لما عداهن.

وكان نبينا عليه السلام يكثر التعوذ باسم اللَّه وكلماته من أنواع أخرى من الشرور مفصلة في صحاح السنة[1].

أما السورتان فيكفي في فضلهما ما أخرجه مسلم في «صحيحه» عن عقبة ابن عامر الجهني قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم:

«**ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير خير منهن قط**: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (٣٣٧١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٠٨)، و«صحيح الترغيب» (١٦٠١ و١٦٠٢) للألباني.

و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[١٩٨].

وفي رواية أخرى في «مسلم» عنه تسميتهما بالمعوذتين.

وفي رواية أبي أسامة في «مسلم» أيضًا وصف عقبة بن عامر بأنه كان من رفعاء أصحاب محمد ﷺ.

فتسمية هاتين السورتين بالمعوذتين تسمية نبوية مأثورة كأسماء جميع سور القرآن، وقد يقال: المعوذات ويراد بها ما يشمل سورة الإخلاص.

وكفى بما فيها من أصول العقائد معاذًا من الشرك، وهو أصل الشرور كلها.

وحديث مسلم هو أصح ما ورد في نزولهما.

وأما ما يذكر في نزولهما في قصة سحر النبي ﷺ، فإن ذلك لم يصح سببًا لنزولهما[١٩٩]، وإن كان لقصة السحر وصاحبها لبيد بن الأعصم أصل ثابت

---

[١٩٨] صحيح:

أخرجه مسلم (٨١٤) عن عقبة بن عامر مرفوعًا بلفظ «مثلهن» مكان «خير منهن».

والرواية الأخرى له (٨١٤) (٢٦٥).

ورواية أبي أسامة أخرجها عقبها فقال:

وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا وكيع (ح) وحدثني محمد بن رافع أبو أسامة كلاهما عن إسماعيل بهذا الإسناد، مثله.

وفي رواية أبي أسامة عن عقبة بن عامر الجهني، وكان من رفعاء أصحاب محمد ﷺ.

[١٩٩] صحيح:

وله طرق عن جماعة من الصحابة ﷺ، منهم:

١- زيد بن أرقم: أخرجه عبد بن حميد (٢٧١) والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٥٩٣٥)، وسنده صحيح كما قال الألباني في «الصحيحة» (٦/ ٦١٧). =

في الصحيح»[٢٠٠].

وقد تساهل كثير من المفسرين في حشر هذا السبب في تفسيرهما، وفي حشر كثير مما لم يصح في فضائلهما، ولنا فيما صح غنية عما لم يصح.

وهذه الخيرية التي أثبتها لهما حديث عقبة عند مسلم هي خيرية نسبية في ناحية مخصوصة، وهي ناحية التعوذ بهما من الشرور العامة والخاصة المذكورة فيها.

ودليل هذه النسبية ما أخرجه النسائي في «سننه» عن ابن عابس الجهني أن رسول اللّٰه ﷺ قال له:

«يا ابن عابس ألا أدلك -أو: - ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟» قال: بلى يا رسول اللّٰه. قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾. و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. هاتين السورتين»[٢٠١].

= ٢- عائشة: أخرجه سفيان بن عيينة في «تفسيره»: رواية أبي عبيد اللّٰه عنه، عن هشام بن عروة عن أبيه عنها كما في «التخليص الحبير» (٤/ ٤٠) للحافظ، وصححه.

وله طريق آخر عنها: أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ٩٢-٩٤) بإسناد فيه متروك.

٣- ابن عباس: أخرجه أيضًا البيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٤٨) من طريق محمد بن السائب عن أبي صالح عنه، ومحمد بن السائب هو الكلبي متهم بالكذب.

[٢٠٠] صحيح:

أخرجه البخاري (٥٧٦٣و٥٧٦٥و٥٧٦٦) ومسلم (٢١٨٩) عن عائشة رضي الله عنها.

[٢٠١] صحيح:

أخرجه النسائي في «المجتبى» (٨/ ٢٥١-٢٥٢) وفي «الكبرى» (٧٨٤١) وأحمد (٤/ ١٥٣) عن يحيى بن أبي كثير عن محمد بن إبراهيم بن الحارث أخبرني أبو عبد اللّٰه أن ابن عابس الجهني أخبره=

فبيَّن ﷺ أن خيريتهما وأفضليتهما من جهة ما تشتملان عليه من معنى التعوذ، وهو من المعاني الداخلة في دائرة ما كلفنا اللَّه به.

ولهاتين السورتين خصوصية غير المناسبات التي يذكرونها في ارتباط بعض السور بالبعض، ويستخرجون منها بالتدبر ما لا يحصى من الأنواع، وهذه الخصوصية هي ختم القرآن بهما، وهما كالسورة الواحدة.

فما هي الحكمة في ختم القرآن بهما؟ وترتيب السور توقيفي ليس من صنيع جامعي المصحف، كما ذكره السيوطي في «الإتقان»(١) وجماعة.

يستطيع ممارس القرآن ومتدبره، ومتلقيه بالذهن المشرق والقريحة الصافية، أن يستخرج من الحِكم في هذا الختم بهما أنواعًا، ولكن أجلاها وأوضحها أنهما ختم على كنوز القرآن في نفس المؤمن. وتحصين لهذه النعم المنشالة(٢) من القرآن عليه أن يكدرها عليه كيد كائد أو حسد حاسد، فإنَّ من

= أن رسول اللَّه ﷺ قال له: فذكره.

وهذا إسناده ضعيف، أبو عبد اللَّه «لا يعرف» كما قال الذهبي، لكن الحديث صحيح فإن له طرقًا كثيرة عن عقبة بن عامر - وهو ابن عابس الجهني - عند النسائي في «المجتبى» (٨/ ٢٥١-٢٥٤) و«الكبرى» (٧٨٣٨-٧٨٤٨ و٧٨٥٢ و٧٨٥٥ و٧٨٥٦) وأبي داود (١٤٥٩و١٤٦٠) وأحمد (٤/ ١٤٤ و١٤٨ و١٤٩ و١٤٩ -١٥٠ و١٥١ و١٥٢و١٥٣و١٥٥و١٥٨و١٥٩) وابن خزيمة (٥٣٥) والحاكم (١/ ٢٤٠).

ورواه ابن حبان (١٧٧٦و١٧٧٧-الموارد) والحاكم (٢/ ٥٤٠) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

وليس عندهما ذكر ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

وللحديث شاهد عن جابر: أخرجه النسائي في «المجتبى» (٨/ ٢٥٤) وفي «الكبرى» (٧٨٥٤) وابن حبان (١٧٧٨).

(١) في (١/ ٨٢- ٨٤).

(٢) في آثار الإبراهيمي: «المنثالة».

أُوتي الشيء الكريم ورزق النعمة الهنية هو الذي تمتد إليه أيدي الأشرار وألسنتهم بالسوء، وتقذفه عيونهم بالشرر، وتتطلع إليه نفوسهم بالحسد والبغضاء، ويشتد عليه تكالبهم سعيًا في سلبه منه أو تكديره عليه، وبقدر النعمة يكون الحسد، وعلى مقدار نفاسة ما تملك تكون هدفًا لمكائد الكائدين، وتأتيك البلايا من حيث تدري ولا تدري.

ومن أوتي القرآن فقد طوى الوحي بين جنبيه، وأوتي الخير الكثير، فهو لذلك مرمى أعين الحاسدين، ومهوى أفئدة الكائدين.

فكان حقيقًا وقد ختم القرآن حفظًا أو مدارسةً أو تلاوةً أن يلتجئ إلى اللَّه طالبًا منه الحفظ والتحصين من شرِّ كلِّ كيدٍ وحسدٍ يصيبه على هذا الخير العظيم الذي كمل له، وهذه النعمة الشاملة التي تمت عليه.

هذه حكمة.

وأخرى: وهي أن من أوتي القرآن وتفقَّه فيه فقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وأحاط بالعلم من أطرافه، وملك كنزه الذي لا ينفد.

وإنَّ من آفات العلم اغترار صاحبه به، وقد يتمادى به الغرور حتى يسوِّل له أنَّ ما أوتيه من العلم كافٍ في وقايته من الأضرار ونجاته من الأشرار، فكان من رحمة اللَّه بصاحب القرآن ولطف تأديبه له وحسن عنايته به، أن ختم بهاتين السورتين كتابه لتكونا آخر ما يستوقف القارئ المتفقه، وينبهه إلى أنَّ في العلم والحكمة مسألة لم يتعلمها إلا الآن، وهي أنه مهما امتدَّ في العلم باعه واشتد بالحكمة اضطلاعه، فإنه لا يستغني عن اللَّه، ولابد له من الالتجاء إليه، والاعتصام به، يستدفع به شر الأشرار وحسد الحاسدين، وكفى بهذه التربية

قامعًا للغرور، وإنه لشرُّ الشرور.

هذه هي المناسبة العامة بين جميع القرآن مرتبًا ترتيبه التوقيفي وبين هاتين السورتين في اتحاد موضوعهما.

وأما المناسبة الخاصة بين السورتين وبين سورة الإخلاص، فهي أن سورة الإخلاص قد عرَّفت الخلق بخالقهم بما فيها من التوحيد والتنزيه والتمجيد. فإذا قرأت القرآن وتدبرته على ترتيبه، ووجدت توحيد اللَّه منبثًّا في آياته وسوره، متجليًا ذلك التجلي الباهر بمعارضه وصوره، سادًّا ببراهينه على النفوس كُلَّ ثنيةٍ وكُلَّ مطلعٍ؛ كانت آخر مرحلة يقطعها فكرك من مراحل التوحيد في القرآن هذه السورة المعجزة على قصرها، فكأنها توكيد لما امتلأت به نفسك من معاني التوحيد، وكأنها وصيَّة مودِّع مشفق بمهمّ يخشى عليك نسيانه، فيعمد فيها من الكلام إلى ما قلّ ودلّ ولم يملّ.

ومِنْ صِدْقِكَ في توحيدك للَّه في ربوبيته وإلهيته، أن تنقطع عن هذا الكون وتكون منه وكأنك لست منه، بصدقِ معاملتك للَّه وإخلاص توحيدك إياه.

فأنتَ وقد آمنتَ وصدَّقتَ وخرجتَ من سورة الإخلاص متشبِّعًا بمعانيها، ومنها معنى الصمد، تستشعر أنَّ العالم كله عجز وقصور، وأنَّ خيراته مكدرة بالشرور، وأن لا ملجأ إلا ذلك الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد، فتجيءُ المعوذتان بعد الإخلاص مبينتين ذلك الالتجاء الذي هو من تمام التوحيد.

ولأجل هذه المناسبة والارتباط بين السور الثلاث جمع بينهن في التسمية.

ففي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان ينفث عن نفسه بالمعوذات[٢٠٢].

وسياق النسائي لحديث عقبة بن عامر المتقدم: «أن رسول الله [صلى الله عليه وآله وسلم] قرأ وقرأت معه الإخلاص ثم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾. و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. فلما ختمهن قال:

«ما تعوذ بمثلهن أحد»[٢٠٣].

وكما جمع صلى الله عليه وآله وسلم بينهن في التسمية والتعوذ؛ جمع بينهن عمليًّا في قراءة الوتر(١).

هذا إجمال المناسبة الخاصة بين السور الثلاث.

---

[٢٠٢] صحيح:

أخرجه مالك (٤/ ٣٢٧/ ١٨١٩) ومن طريقه البخاري (٥٠١٦) ومسلم (٢١٩٢) وأبو داود (٣٨٩٦) والنسائي في «الكبرى» (٧٥٤٤و٧٥٤٩و١٠٨٤٧) وابن ماجه (٣٥٢٩) وأحمد (٦/ ١٠٤ و١٨١و٢٦٣) من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث».

قالت: فلما اشتد وجعه كنت أنا أقرأ عليه وأمسح عليه بيمينه رجاء بركتها.

تابع مالكًا معمر: أخرجه البخاري (٥٧٣٥).

[٢٠٣] صحيح:

تقدم قريبًا في (٢٠١).

(١) ثبت ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

«كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في الركعة الأولى من الوتر بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثانية: بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثالثة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾».

رواه ابن حبان (٦٧٥ و٦٨٢- موارد الظمآن) والحاكم (١/ ٣٠٥) وقال: «صحيح على شرط الشيخين». ووافقه الذهبي.



تفسير الآيات (١- ٥)

سورة الفلق

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ . . .﴾ [الفلق: الآيات: ١- ٥].

الأمر المفرد للنبي ﷺ.

ومن حسن الأدب في مقدرات القرآن أن تقدر في مثل هذا الأمر: أيها الرسول. أو: أيها النبي. لأنهما الوصفان اللذان نطق بهما القرآن في نداء النبي ﷺ، وألا تقدر: يا محمد[1]. كما هو جار على الألسنة وفي التصانيف، فإن القرآن لم يخاطبه باسمه.

والأمر لنبينا أمر لنا؛ لأننا المقصودون بالتكليف، ولا دليل على الخصوصية، فهو في قوة: قل أنتَ، وقل لأمتك يقولون.

وأعوذ: أستجير وألتجئ، ويتعدى هو وجميع تصاريفه بالباء، كأستجير.

والعوذ والعياذ مصدران منه كالصوم والصيام، وفي القرآن مما جاء على المعنى اللغوي: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: الآية ٦] ومن كلام العرب: (قد استعذتَ بمعاذ).

و«الرب»: الخالق المكوِّن المربي، ومواقع استعمال هذه الكلمة في القرآن هي التي تكشف كل الكشف عن معناها الكامل.

---

(١) على هذا التقدير جرى الإمام فيما تقدَّم من «تفسيره» الذي بين أيدينا، فلعلَّ ما أبداه هنا من تغير الاجتهاد، واللَّه أعلم.

والفلق: الفجر المفلوق المفري.

ومن لطائف هذه اللغة الشريفة أن الفتح والفلح والفجر والفلق والفرق والفري والفأ والفقأ والفقه كلها ذات دلالات واحدة، وتخصيصها بمتعلقاتها باب من فقه اللغة عظيم.

ومما وصَفَ به ربُّنا نفسَه في القرآن ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعَام: الآية ٩٦]. و﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعَام: الآية ٩٥]. فهما من أسمائه تعالى[1].

ومواقع هذه الألفاظ التي تضاف إلى كلمة «رب» في القرآن كمواقع أسماء المخلوقات التي أقسم بها اللَّه، كلاهما عجيب معجز، فكل لفظة تستعمل في المقام الذي يناسبها وتناسبه، وكل لفظة تبعث في الأسلوب الذي وقعت فيه متانة وقوة وفي معناه وضوحًا وجلاءً.

وسر إضافة (الفلق) إلى (رب) هنا أن الفجر بمعناه العرفي هو تشقق الظلمة عن النور، فإنَّ الليل يكون مجتمع الظلمات مسدول الأرواق. فإذا جاء الصبح حصل الانفلاق. والذي يبقى بعد ذلك الانفلاق هو النور الذي نفى الظلمة. ولا ينفي ظلمات الشر والضلال والباطل إلَّا أنوار الخير والهدى والحق من خالقها، وفالق أنوارها.

وكما أضيف (الفلق) بمعنى الفجر، إلى كلمة (رب) هنا أقسم به في آية

---

(١) أسماء اللَّه توقيفية، ومن الغلط أن نجعل له من كل صفةٍ اسمًا يُشتَق له منها، فإن باب الأخبار والصفات أوسع من باب الإنشاء والأسماء، كما قرره المحققون.

انظر «طريق الهجرتين» (ص٤٨٦ - ٤٨٧) لابن القيم، و«تيسير العزيز الحميد» (ص٥٧٩) لسليمان بن عبد الوهاب.

أخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ [الفجر: الآية ١].

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفَلَق: الآية ٢]:

من كل مخلوق فيه شر، فلا يدخل في عمومه إلا كل شرير من أيِّ العوالم كان، كما يدخل في عموم الناطق كل ذي نطق، أو من شر كل مخلوق.

ومن مخلوقات اللَّه ما هو خير محض كالأنبياء والملائكة.

ومعلوم أن المخلوقات كلها خلقت بحق ولحكمة فهي في نفسها خير، فإن كان لا ينشأ من أعمالها أو آثارها إلا الخير فهي الخير المحض، وإن كان ينشأ عنها الشر أحيانًا أو دائمًا فعملها هو الشر وهو المستعاذ منه.

وتصح نسبة هذا القسم إلى اللَّه من حيث الخلق والحكمة، ونسبة أعماله إليه من حيث التقدير والتكوين لا من حيث الرضى والتكليف، فاللَّه لا يرضى بالشر ولا يكلف به، وقصارى إبليس- وهو مادة الشر في هذا الوجود- أن يزيِّن الشر ويلبسه بالخير، فالشر بيد اللَّه خلقةً وحكمةً، لا رضًا وتكليفًا. والخير بيد اللَّه خلقة وحكمةً ونعمةً وأمرًا.

وقد يكون الشر ذاتيًّا لا ينفك، وقد يكون نسبيًّا باعتبار حالة تعرض واتجاه يقصد، ونعم اللَّه على عباده قد تنقلب عليهم شرًّا وبلاء بسبب سوء تصرفهم فيها، كالمال الذي سماه اللَّه خيرًا في القرآن؛ يكسبه صاحبه من الوجوه المشروعة، وينفقه في الوجوه المشروعة، ويتحرى رضا اللَّه في جمعه وتفريقه، فيكون خيرًا بذاته وبعمل صاحبه، ويتصرف فيه بعكس ذلك، فيكون شرًّا لا من ذاته بل من عمل صاحبه.

وهذا العالم الإنساني المكلف هو الذي يتجلى الخير والشر في أعماله، ويتصلان بحياته اتصالًا وثيقًا، وإنما عيب عليه الشر وقبح منه؛ لأنه قادر على تمييزه واجتنابه ومكلف بذلك، وقد وضع له الدين قوانين ثابتة للخير والشر، ووضح له أن الخير ما نفع وأن الشر ما أضر.

ولكنه وإن أوتي قوة التمييز لم يؤت قوة الاستعصام ابتلاء من اللَّه.

فأما المخذول فيأتي الشر عامدًا متعمدًا وهو يعلم أنه شر.

وأما الموفَّق فيواقع الشر في مواقف يشتبه عليه فيها الخير بالشر، ويعسر التمييز.

والخير والشر لا يوزنان بميزان حسِّيٍّ يستوي الناس كلهم في إدراكه، وقد تدق الفوارق بينهما حتى تخفى، وفي هذه المواقف يجب الالتجاء إلى اللَّه ليرينا الخير خيرًا، ويكشف لبصائرنا عن حقائق الشر، فلا يلتبس علينا شيءٌ بشيءٍ، وبعد أن يوجه الاضطرار نفوسنا هذا التوجيه الصحيح؛ تندفع ألسنتنا، وتقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

وبهذا تظهر المناسبة الدقيقة بين (رب) و(الفلق).

فإن ربَّ الناس ومربيهم وسائقهم إلى ما يكمل وجودهم هو الذي تنكشف لعلمه سرائرهم.

والفلق نور يكشف للعيان كل المبصرات فتُرى على حقائقها ومقاديرها، لا يزيغ البصر في شيء منها، ولا يطغى.

والإنسان مهما يكن عالمًا فقد تخفى عليه حقائق المعقولات، فيزيغ فكره ويطغى.

ومناسبة أخرى: وهي أن الشر ظلام، وقد أجرى اللَّه في فطر البشر تصور الشر كالظلام، وأجرى على ألسنتهم تشبيه الشر بالظلام، ذلك أن ما يلابس إحساسهم من الأنس بالنور والبشاشة له، هو عين ما يلابسه من الأنس والبشاشة للخير، وأن ما يضايقهم من وحشة الظلام، وتوقع الهلاك فيه، هو عين ما يضايقهم من ذلك في الشر.

هذا كله في الشر على عمومه، ثم خصص تعالى من هذا العموم ثلاثة أنواع من الشر لشدة تعلقها بحياة الإنسان، وكثرة عروضها له، ويجيء أكثرها من أخيه الإنسان، ورتبها ترتيبًا بديعًا لا يستغرب في جنب بلاغة القرآن ودقته في رعاية المراتب وتنسيقها في العرض على الأذهان.

هذه الثلاثة هي: «الغاسق إذا وقب»، و«النفاثات في العقد»، و«الحاسد إذا حسد».

و«الغاسق»: الليل المظلم. والمراد هنا: المصيبة تطرق ليلًا وعلى غِرَّة.

ووقب: دخل في الوقب، وهو النقرة في الشيء.

والنفاثات: السواحر ينفثن الريق واللفظ، جمع نفاثة، كثيرة النفث.

والعُقد: جمع عقدة؛ بيان لعادة السواحر المعروفة من عقد الخيوط ونفث الريق عليها.

والجامع بين الثلاثة هو اشتراكها في الخفاء؛ فإن «الغاسق» ظلام تخفى فيه الشرور، والنفاثات مبني أمرهن على الإخفاء تخييلًا وإيهامًا، و«الحسد» داء دفين.

فالثلاثة- كما ترون- شرّها خفي، وكل شر يخفى عمله أو يخفى أثره يجلُّ خطبه ويعظم خطره، فيعسر التوقي منه والاحتياط له؛ لأنك تتقي ما يظهر ويستعلن، لا ما يخفى ويستتر، لا جرم كانت الثلاثة جديرة بالتخصيص.

أما نكتة الترتيب فإن الليل ليس شرًّا في نفسه ولا الشر من عمله، وإنما هو ظرف للشرور، والعلاقة بين الشيء وظرفه مكينة في النفوس، قوية في الاعتبار، مسببة للحكم على أحدهما بحكم الآخر.

بخلاف النفاثات والحساد فإن الشر من عملهما ومن وصفهما، ولانطباعهما عليه صار ذاتيًّا لهما.

ولا شك أن الشر الذاتي أمكن من العرضي، كما أن بين الاثنين تفاوتًا في ذاتية الشر وقوته وعسر التوقي منه.

فالنفاثات وإن كن يتحرَّين إخفاء عملهن، ولكنه مما يمكن ظهوره وافتضاحه، بخلاف الحاسد، فإنه يخفى شره ويبالغ فيظهر بمظهر الخير، فشره أشد والتوقي منه أعسر، ففي الترتيب بين الثلاثة تَرَقٍّ من الأخفِّ إلى الأشدِّ.

ومن جهة أخرى نجد التناسب ظاهرًا بين الثلاثة: «الغاسق» و«النفاثات» و«الحاسد»؛ فإن الجميع ظلام، ظلام الزمن وظلام السحر وظلام الحسد.

وفي تقييد الغاسق بالوقوب احتمالان، كلاهما صحيح، مفيد للمراد.

الأول: أن وقوب الغاسق عبارة عن اعتكار الظُّلَم وتكاثفها، فكأن بعض أجزائها يدخل بعضًا، والظلام يبدأ خفيفًا مشوبًا بإسفار من الشفق أو من طبيعة

الأرض، ثم يشتد ويحلولك حتى يغطي على كل شيء، فتلك التغطية هي الوقوب.

والوقوب على هذا الاحتمال منظور فيه إلى ظرفه الزماني.

وفائدة القيد حينئذ أن تلك الحالة المصورة بهذه الجملة هي التي تقع فيها الشرور من الآدميين وغيرهم.

فالطارق يطرق، والسارق يسرق، والحيات تنتهش، والضواري تفترس، وظلام الليل يستر ذلك كله، ويعين عليه، ويعوق عن الاستصراخ والاستنجاد. والعرب تقول في ما يشير إلى هذا: الليل أخفى للويل.

فالمستعاذ منه على هذا الاحتمال شر يقع في زمان.

والاحتمال الثاني: أن الوقوب في حقيقته هو دخول شيء في شيء دخولًا حِسِّيًا، فيقتضي ظرفًا مكانيًا، وما هذا الظرف إلا الأبنية والمساكن، والظلام حين يهجم يدخل المساكن فيملأها، ويكون دخوله فيها أبين من دخوله في الفضاء، وملؤه إياها أشد.

فالوقوب على هذا منظور فيه إلى ظرفه المكاني؛ لأن الشرور التي ترتكب في البيوت حين يغمرها الظلام أكثر مما يرتكب منها في الفضاء، خصوصًا من الآدميين، والمستعاذ منه شر يقع في مكان.

وعلى الاحتمالين لما كان الليل معوانًا لذوي الشر على شرهم أُضيف الشر إليه واستعيذ بالله منه.

والنفاثات: صفة إمَّا للنفوس، فتشمل الرجال والنساء، وتكون

الاستعاذة من شر كل من يتعاطى هذا الفعل، رجلًا كان أو امرأة، وإمَّا للنساء، وخصصن بذلك لأن وقوع هذا الفعل منهن أكثر، وهن به أشهر.

و«النفث»: إخراج الهواء من الفم مدفوعًا بالنفس بدون بصاق، أو مع قليل منه تتطاير ذراته وهو دون التفل.

والنفث وإن كان عامًّا لكنه اشتهر فيما يفعله السحرة؛ يعقدون خيطًا، ويتمتمون عليه بِرُقًى معروفة عندهم، وينفثون على كل عقدة منه بقصد إيصال الشر من نفوسهم الخبيثة إلى نفس المسحور. ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٢].

وما أمرنا اللَّه بالاستعاذة من شره إلا لأنه يؤثر في بعض النفوس القابلة للتأثر به. حاشا النفوس المعصومة كنفوس الأنبياء، فإن شرور الدنيا وأسوأها لا تعدو أبدانهم إلى أرواحهم.

ولا يتعاصى على هذه القاعدة ما ورد في سحر لبيد بن الأعصم اليهودي لرسول اللَّه ﷺ[٢٠٤]، وما يوهمه لفظ الرواية، فإن ذلك كله لا يخرج عن التأثر البدني.

ونحن نعتقد دينًا أن تأثير المؤثرات هو من وضع اللَّه وحده. ونقطع علمًا وتجربة أن للقوى النفسية تأثيرًا أعظم من تأثير القوى الجسمانية. وأن من مظاهر هذا التأثير النفساني تأثير العين في المعيون وتأثير التنويم في المنوَّم،

---

[٢٠٤] صحيح:
تقدم برقم (٢٠٠).

وأن التأثير والتأثر النفسانيين يختلفان باختلاف النفوس الفاعلة والمنفعلة قوةً وضعفًا، وأن تأثير العين ليس من ذاتها وإنما هو من النفس التي من وراء العين، ولو كان التأثير من ذات العين لكانت كل عين ناظرة تحدث ذلك الأثر، وأن هذا التأثير لون من ألوان النفس، فإن كانت خيِّرة كان تأثيرها خيرًا، وإن كانت شرِّيرة كان شرًّا.

فالنفث المذكور في الآية إن أثَّر فإنما يؤثر بالقوة النفسية التي من ورائه، والساحر لا ينفث من نفسه الخبيثة إلا نفث الشر؛ لأن الشر هو صفته الطبيعية، كالحية لا تنفث الترياق وإنما تنفث السم. وكالعدوِّ يلقاك بطعن الأسل(١)، لا بطعم العسل، إذ كان ذلك من طبيعة العداوة.

هذا نفث الشر من النفوس الشريرة كنفوس السحرة.

وأمَّا النفوس الخيِّرة الطيبة كنفوس المؤمنين، فإنها تنفث الخير للخير.

وفي الصحيح عن عائشة ﵂: «أنَّ النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه جمع بين كفيه ثم نفث فيهما وهو يقرأ المعوذتين ثم مسح بهما ما استطاع من بدنه، يبدأ برأسه ووجهه، يفعل ذلك ثلاث مرات»[٢٠٥].

---

(١) أي الرماح والنبل، كما تقدم.

[٢٠٥] صحيح:

أخرجه البخاري (٥٠١٧) عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات».

فهذا نفث الخير من خيرِ نفسٍ خلقها اللَّه .

ثم قالت في تمامه : فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك[٢٠٦] .

وفي رواية : كان يقرأ بالمعوذات، فلمَّا ثقل كنتُ أنفثُ عليه بهذا، وأمسح بيد نفسه؛ رجاء بركتها[٢٠٧] .

وفي رواية مسلم عنها : أنه كان يفعل ذلك إذا مرض أحد أهله[٢٠٨] .

فهذه الأحاديث- وهي ثابتة صحيحة- تثبت أن رسول اللَّه ﷺ كان يقرأ المعوذات وينفث حين القراءة نفث الخير قطعًا . وتُبيِّن لنا أن كل نفس تنفث ما وقر فيها . وأن النفث : إيصال للقوة الروحانية إلى ما يراد وصول الأثر إليه .

وهي دليلنا على ما أسلفنا من أن في النفث خيرًا وشرًّا . ولولاها لما كان النفث إلا من فعل السحرة .

والنفوس إذا استفزها شيء من ملابستها تتفشى فيها الروحانية وتضطرب، فكأنها بذلك النفث تنفض جزءًا من روحانيتها على نفس أخرى أو على بدن، وكأن تحريك اللسان بقراءة أو غيرها إثارة لتلك الروحانية واستدعاء لها حتى تتصل بالريق الذي ينفث، كما يتصل السيال الكهربائي

[٢٠٦] صحيح :

أخرجه البخاري (٥٧٤٨) عنها .

[٢٠٧] صحيح :

أخرجه البخاري (٥٧٣٥و٥٧٥١) بنحوه عنها .

[٢٠٨] صحيح :

أخرجه مسلم (٢١٩٢) عنها .

بشيء مادي- وقد علمنا أن السحرة لا ينفثون نفثًا مجردًا بل يغمغمون برقى شيطانية وأسماء أرواح خبيثة.

ومن الشواهد لنفث الريق: ما أخرجه مسلم من حديث عائشة ﵂: «أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت به قرحة أو جرح قال النبي [ﷺ] بأصبعه هكذا- تعني: وضعها على الأرض، كما فسرها سفيان بالعمل-، ثم رفعها وقال:

«**باسم اللَّه، تربة أرضنا، بريقة بعضنا؛ ليشفى به سقيمنا، بإذن ربنا**»[٢٠٩].

«بعد رواية الأستاذ لهذا الحديث سكت لحظة كمن يستجمع خواطره ثم اندفع فقال ما معناه بتوسع»:

إن القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة، فلا يستقل بتفسيره إلَّا الزمن، وكذلك كلام نبينا ﷺ المبيِّن له، فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع لم تفهم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سنن اللَّه في الكون، وكم فسرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث. وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين، وأرتنا مصداق قوله ﷺ في وصف

---

[٢٠٩] صحيح:

أخرجه مسلم (٢١٩٤) من طريق سفيان عن عبد ربه بن سعيد عن عمرة عن عائشة به، إلا أن فيه «ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها بسم اللَّه ...».

وهو عند البخاري (٥٧٤٥و٥٧٤٦) من طريقين عن سفيان - وهو ابن عيينة - مختصرًا، وكذا أخرجه أبو داود (٣٨٨٩) والنسائي في «الكبرى» (٧٥٥٠و١٠٨٦٢) وابن ماجه (٣٥٢١) وأحمد (٦/ ٩٣).

القرآن: «**لا تنقضي عجائبه**»[٢١٠].

والعلماء القوَّامون على كتاب اللَّه وسنة رسوله لا يتلقونها بالفكر الخامد

---

[٢١٠] **ضعيف**:

قطعة من حديث أخرجه الترمذي (٢٩١١) من طريق أبي المختار الطائي عن ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث قال:

مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على علي: فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث، قال: وقد فعلوها؟ قلت: نعم.

قال: أما إني قد سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:

«ألا إنها ستكون فتنة!» فقلت: ما المخرج منها يا رسول اللَّه؟ قال:

«كتاب اللَّه، فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه اللَّه، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله اللَّه، وهو حبل اللَّه المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخلَق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١و٢].

من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».

خذها إليك يا أعور!.

وقال الترمذي: «هذا حديث غريب: لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول وفي حديث الحارث مقال».

قلت: أبو المختار وابن أخي الحارث مجهولان، والحارث ضعيف بل متهم كما في «الميزان» و«الضعفاء والمتروكين» للذهبي.

ومن هذا الوجه أخرجه الدارمي (٢/ ٤٣٥) وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦/ ٢٩٩٩٨).

وللحديث طريقان آخران عن الحارث عند أحمد (١/ ٩١) والدارمي (٢/ ٤٣٥-٤٣٦) وقد تقدم ما فيه.

وروي موقوفًا ومرفوعًا عن ابن مسعود: أخرجه الدارمي (٢/ ٤٣١) بنحوه وابن أبي شيبة (٢٩٩٩٩) وفي سنده إبراهيم بن مسلم الهجري ضعيف.

وراجع تخريجي لأحاديث «رسالة الشرك» (١٦).

والفهم الجامد، وإنما يترقبون من سنن اللّه في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم، وقد أُثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات: لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد. يعنون أنه آتٍ وأن الآتي به حوادث الزمان ووقائع الأكوان، وكل عالم بعدهم فإنما يعطى صورة زمنه بعد أن يكيِّف بها نفسه.

ولو أننا عرضنا حديث التربة والريقة على طائفة من الناس مختلفة الأذواق، متقسمة الحظوظ في العلم، وسألناهم: أية علاقة بين الشفاء وبين ما تعاطاه النبي ﷺ من أسبابه في هذا الحديث؟ فماذا تقولهم[1] يقولون؟

يقول المتخلف القاصر: تربة المدينة بريق النبي ﷺ شفاء ما بعده من شفاء.

ويقول الطبيب المستغرب: هذا محال! في التراب مِكروب[2]، وفي الريق مِكروب، فأنَّى يشفيان مريضًا أو ينفِّسانِ عن مَكْروب؟!

ويقول الكيماوي: ها هنا تفاعل بين عنصرين، ودعوا التعليل، فالقول ما يقول التحليل.

ويقول ذوو المنازع القومية والوطنية، ولو كانوا يدينون بالوثنية: آمنَّا بأنَّ محمدًا رسول اللّه. فقد علَّم الناسَ من قبل أربعة عشر قرنًا أنَّ تربة الوطن

(١) كذا في الأصل، وفي آثار الإبراهيمي: «تراهم».

(٢) كلمة جارية في اللسان العامي الجزائري، وأصلها فرنسي: Microbe، ومعناها: جرثوم.

معجونة بريق أبنائه تشفي من القروح والجروح، ليربط بين تربته وبين قلوبهم عقدًا من المحبة والإخلاص له، وليؤكد فيها معنى الحفاظ له والاحتفاظ به، وليقرِّر لهم من منن الوطن مِنَّة كانوا عنها غافلين. فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة أن تربة الوطن تُغذي وتُروي، فجاءهم من علم النبوة أنها تشفي، فليس هذا الحديث إرشادًا لمعنًى طِبِّيٍّ ولكنه درسٌ في الوطنية عظيمٌ.

ولو أنصف المحدِّثون لما وضعوه في باب الرقى والطبِّ، فإنه بباب حب الوطن أشبه، وما نرى رافع العقيرة بقوله:

ألا ليت شِعري هل أبيتن ليلةً بوادٍ وحَوْلي إذْخِرٌ وجليلُ
وهل أَرِدَنْ يومًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ وهَلْ يَبْدُوَنْ لي شَامَةٌ وَطفِيلُ[1]

إلا سائرًا على شعاعه، وما نرى ذلك الغريب المريض الذي سئل: فيم شفاؤك؟ فقال: شمة من تربة اصطخر، وشربة من ماء نهاوند. إلا من تلامذة هذا الدرس.

ولقد زادنا إيمانًا به بعد إيمان أنه يقول: «**تربة أرضنا بريقة بعضنا**». ولم يقل: تربة الأرض بريق بني آدم. فليس السر في تربة، وريق ومرض، ولكن السر في أرضنا وبعضنا ومريضنا- فهذه- واللّٰه ربّنا- صخرة الأساس في بناء

(١) البيتان تمثل بهما بلال ﷺ لما أصابته حُمّى، كما أخرجه مالك في «الموطأ» (١٧١٤- شرح الزرقاني) ومن طريقه البخاري (٣٩٢٦).
وقيل: البيتان لبكر بن غالب الجرهمي أنشدهما لما نفتهم خزاعة من مكة.
و«إذخر وجليل»: نبتان من الكلأ طيب الرائحة يكونان بمكة وأوديتها، لا يكادان يوجدان في غيرها. قاله ابن عبد البر.
و(مجنة): موضع على أميال من مكة، وكان به سوق في الجاهلية.
و(شامة وطفيل): جبلان بقرب مكة.

الوطنية والقومية، لا ما يتبجح به المفتونون.

ويقول الروحانيون: إن هناك روحًا طاهرة تتصل بتربة الأرض التي خُلق المريضُ منها، وتغذى بنباتها ومائها، وتنفس كبده في جوها وهوائها، من ريقة منفوثة نفث الخير من نفس مؤمنة قوية الروحانية طيبتها، فيكمل التكوين بين الريق والتربة مع اسم اللَّه الذي قامت به السموات والأرض، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، فيحصل الشفاء بهذا العمل النفساني. وإذا تجلَّت النفس بعجائبها لم يبق في الوجود عجيب.

ويقول غير هؤلاء ما يقول، وهذه المتون كاسمها متون، وهذه الأصول كاسمها أصول.

وهكذا تأتي بعضُ المتون من كلام اللَّه وكلام رسوله معجزةً للعقول، فتتطاير من حولها الفهوم والآراء تطاير الشعراء، ويظن كل عقل أنَّ حرفته آلة لتفسير تلك المتون، والعلوم حرف العقول. والزمان من وراء الكل يصيح أن انتظروا . . .

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفَلَق: الآية ٥].

«الحاسد»: الذي قامت به صفة الحسد. وهو الذي يحب أن تُسلَب النِّعمُ من غيره، وقد تلج به هذه الصفة الذميمة فتزين له سلب النعم حتى من نفسه إذا توقف على ذلك سلبها من غيره، فهو لا يحب الخير لأحدٍ، ويتمنى ألا يبقى على وجه الأرضِ مُنْعَمٌ عليه.

وإنما ينشأ الحسد من العُجب وحبّ الذات، فتسوِّل له نفسه أن غيره ليس أهلًا لنعم اللَّه، وكفى بهذا محادّة للمنعم.

والحسد شرٌّ تلازمه شرور العُجب والاحتقار والكِبْر.

وقد جمع إبليس هذه الشرور كلها؛ حسدَ آدمَ عُجْبًا بنفسه فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] و[ص: الآية ٧٦]. ورآه لا يستحق السجود احتقارًا له فقال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: الآية ٦٢]. ثم تكبَّر ولم يسجد ورضي باللعنة والخزي، ولا أشنع من صفة يكون إبليس فيها إمامًا.

والحسد شرٌّ على صاحبه قبل غيره؛ لأنه يأكل قلبه ويؤرق جفنه ويقض مضجعه، ولا يكون شرًّا على غيره إلا إذا ظهرت آثاره بأن كان قادرًا على الإضرار أو ساعيًا فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾. والمتمني للشيء لا يمنعه من إتيانه إلا العجز.

وأعظم ما ينمِّي الحسد ويغذِّيه امتداد العين إلى ما متَّع اللَّهُ به عباده من متاع المال والبنين، ونعمة العافية والعلم، والجاه والحكم، وقد نهى اللَّه نبيه عن مدِّ العين إلى ما عند الغير فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: الآية ١٣١].

وفي هذه الآية مع النهي إرشادٌ إلى علاج الحسد، فإنَّ الحسدَ مرضٌ نفسانيٌّ معضل، ولكنه كغيره من الأمراض النفسية يُعالَج، وقد وصف الحكماء له أنواعًا من العلاج، فصَّلتها كتب السنة، وكتب الفقه النفسي، ككتاب «الإحياء»[1] للغزَّالي[2].

---

(١) في (٣/ ١٩٦- ١٩٩).

وانظر أيضًا: بدائع الفوائد (٣/ ٢٣٨- ٢٤٦) للعلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) الشهاب (٤ و٥، م١٤) ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٣٥٧هـ - جوان وجوليت ١٩٣٨م.

سورة الناس

تفسير الآيات (١- ٦)

سورة الناس

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ . . .﴾ [الناس: الآيات: ١- ٦].

قد علمنا أن الصفة الجامعة بين هذه السورة وبين التي قبلها- هي المعوذتان-، وعلمنا أنها تسمية نبوية، وقد جرت هذه الصفة مجرى الاسم لهما.

أما الاسم الخاص بهذه السورة فهو: «الناس»، كما أن الاسم الخاص بالسورة الأولى: «الفلق».

والمناسبة بين السورتين يرشد إليها اشتراكهما في الوصف، وهو التعوذ بهما من الشرور المذكورة فيهما.

وفي السورة الأولى الاستعاذة من الشر العام، ومن ثلاثة أنواع منه، ذكرنا الحكمة في تخصيصها بالذكر.

وفي هذه السورة الاستعاذة من شر واحد لكنه سبب في شرور كثيرة.

والمناسبة القريبة بين السورتين هي أن النفوس الشريرة ثلاثة أقسام:

قسم يصدر عنه الضرر ويعمله.

وقسم لا يريد الخير فيسعى في سلبه وانتزاعه، وهو شر من الأول.

وقسم يعمل إلى إيصال الشر إلى سلطان الجوارح ومالك هديها، وهو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله.

فهو يحسِّن له الأشياء القبيحة ويأتيه من جميع النواحي على وجه النصح وإرادة الخير، ويزيِّن للإنسان كل ما يُرْديهِ من القبائح، ويأتيه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، قريبًا منه متصلًا بهواه.

وهذا القسم الأخير هو الذي يوسوس بكلمة السوء، مزينة الظاهر، مغطاة القبح، حتى تستنزل صاحبها إلى الهلاك.

ولما كان هذا القسم الثالث أعظم خطرًا وأكثر شرًّا وأخسر عاقبةً خصص التعوذ منه بسورة كاملة.

رب الناس: هو مُربِّيهم ومُعطيهم في كل مرتبة من مراتب الوجود ما يحتاجون إليه لحفظها، وهاديهم لاستعمال ما منَّ به عليهم فيما ينفعهم؛ ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٠].

وأصله من: ربّه يربّه ربًّا، إذا قام على إنشائه وتعاهده في جميع أطواره إلى التمام والكمال.

ولفظه لفظ المصدر، ولكن معناه معنى اسم الفاعل، كالعدل يراد به العادل.

ومالك[١] الناس: هو الذي يملك أمر موتهم وحياتهم، ويشرع لهم من الدين ومن الأحكام ما يوافق حياتهم الدنيوية والأخروية.

وإله الناس: هو الذي يدينون له بالعبادة والعبودية.

---

(١) كذا في الأصل!

وبلاغة الترتيب إنما تظهر جلية عند استعراض أطوار الوجود الإنساني:

فالأول: طور التربية والإعداد، وهما من مظاهر الربوبية.

والثاني: طور القوة والتدبير، وهما من مظاهر الملك.

والثالث: طور الكمال والقيام بوظائف العبودية، وهو من مظاهر الألوهية.

والمستعاذ منه تارة يوسوس للإنسان بما يفسد عليه صلته بربه، وتارة بما يفسد عليه تدبيره وما شرع له لمنفعته وصلاحه، وتارة بما يفسد عليه عبوديته له وهي أشرف علائقه به وأقوى صلاته.

وجماع ذلك أن يبعده عن اللَّه بالوسوسة بواحدة من هذه، أو بكلِّها، أو بما يتفرع عنها مما تضمنته الآيات المبيِّنة لأفعال أصل هذه القوة الموسوسة، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٨].

أو لذلك الشأن الجاري مجرى الحوار بين إبليس وخالقه كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: الآية ٨٢]. وكقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسرَاء: الآية ٦٢]. وكقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النِّساء: الآية ١١٩].

فهو جاهد في أن يبعد الناس عن اللَّه بإفساد العقيدة الصحيحة فيه، أو بالصرف عن شرع اللَّه، أو بالحمل على عبادة غيره.

فلذلك كله جاء الترتيب على هذا النمط المذكور بتلك العلائق القوية التي

يريد الشيطان أن يقطعها. والربّ ربّ الناس وغيرهم، بل ربّ العالمين، وإنما خصّ الناس بالذكر؛ لأنهم هم هدفه ومرمى وسوسته. ولأنهم هم المأمورون بالاستعاذة منه، ولأن عالَم التكليف أشرف، فإليهم يُوجَّه الخطاب وإليهم يُساق التحذير.

وهذه الوسوسة نتيجة للعداوة بين أصليهما.

فَأَمْرُ اللَّهِ بالاستعاذة منها هو تسليحٌ إلهيٌّ لبني آدم لتثبيت سنة التعمير التي هي حكمة اللَّه من وجودهم.

ونكتة أخرى في تخصيص الناس بالذكر دون بقية أفراد المربوبين: وهي أنهم هم الذين ينطبق عليهم ناموس الهداية والضلال.

وقد ضلوا بالفعل في ربوبية اللَّه وفي ألوهيته . .

ضلوا في الربوبية باتخاذ المشرّعين ليشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به اللَّه ويصدوهم بذلك عما شرع اللَّه.

وضلوا في الألوهية بعبادة غير اللَّه بما لا يعبد به أحد غيره كالدعاء.

واختير لفظ «الناس» من بين الألفاظ المشاركة له في الدلالة، كالبشر والبرية؛ لأنه يَنوسُ ويضطربُ وينساقُ، وهي صفات يلزمها التوجه ويسهل التوجيه، فلا غنى لصاحبها عن توفيق اللَّه للوجهة الصالحة والتسديد فيها ما دام لا يملك لنفسه ذلك، وما دام محاسبًا عليه، وما دامت هناك قوة مسلطة تنزع به إلى الشر.

ففي تخصيص الناس بالذكر تنبيهٌ إلى أنهم أحوجُ المربوبين إلى تأييد اللَّه

وأحقُّهم بطلب ذلك منه، وقد أرشدهم إلى ذلك وله الحمد.

ولو تفقّه الناس في معنى اسمهم واشتقاقه لعلموا بفطرتهم أنهم مخلوقات ضعيفة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، ولأيقنوا أنه لابد لهم من ربٍّ يربِّيهم ويحميهم، ومالك يدبر أمورهم، وإله يعبدونه ويتخذون العبودية له جُنَّة من استعباد الأقوياء.

ويجوز- إذا راعينا الأدب وكمال التنزيه في حمل الألفاظ التي تضاف إلى كلمة رب على أشرف معانيها- أن تحمل كلمة «الناس» على معنى أخص مما يتناوله عموم الجنس، وهو الأماثل والأخيار منهم، الجامعون لمعاني الإنسانية الفاضلة، وهذا المعنى تعرفه العرب، فإنهم كثيرًا ما يطلقون اسم الجنس على الفرد أو الأفراد الكاملين في حقيقته. وإن كان هذا من المجاز في كلامهم وقد حملوا على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣].

ونكتة الإعادة والإظهار للفظ «الناس»، توضيح المعنى وإلفات النفس إليه وإيقاظ شعورها به، والتسجيل على الناس بأن لهم ربًّا هو مالكهم وإلههم.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾:

الوسواس هنا صفة الموسوِس وإن خالف المعهود في أبنية الصفات، أو هو اسم بمعنى الوسوسة، كالزلزال والزلزلة.

وأصل هذه الكلمة دائر على معنى الخفاء. والعرب تسمِّي حركة الحُليِّ وسواسًا، وهذا المعنى واضح في المراد هنا، فإن الموسوِس من الجن في نهاية الخفاء هو وعمله، والموسوِس من الإنس يتحرى الإخفاء ما استطاع،

ويحكم الحيلة في ذلك ولا يرمي رميته إلا في الخلوات.

وإنَّ الناس ليعرفون عرفانًا ضروريًّا من الفرق بين المصلحين والمفسدين أن الأولين يصدعون بكلمة الحق مجلجلة، ويرسلون صيحته داويةً، ويعملون أعمالهم في وضح النهار ومحافل الخلق، وأن الآخرين يتهامسون إذا قالوا، ويستترون إذا فعلوا، ويعمدون إلى الغمز والإشارة والتعمية. ولو وجدوا السبيل لكانت لهم لغة غير اللغات، ولكان الزمن كله ظلمات، والأرض كلها مغارات.

والخناس: وصف مبالغة في الخانس من الخنوس، وهو التأخر بعد التقدم.

ومن ملابسات هذا المعنى ومكمِّلاته في المحسوس أنه يذهب ويجيء، ويظهر ويختفي، إغراقًا في الكيد، وتقصيًا في التطور حتى يبلغ مراده.

فاللَّه تعالى يرشدنا بوصفه بهذه الصفة إلى أن له في عمله كرًّا وفرًّا، وهجومًا وانتهازًا، واستطرادًا على التصوير الذي صوَّره إبليس في ما حكى اللَّه عنه: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: الآية ١٧].

يرشدنا بذلك لِنُعِدَّ لكلِّ حالة من حالاته عُدَّتها، ولنضيِّق عليه المسالك التي يسلكها.

كما أن وصفه بهذه الصفة يشعر بأنه ضعيف الكيد؛ لأن الخنوس ليس من صفات الشجاع المقدام، وإنما هو كالذباب تذبه بذكر اللَّه من ناحية فيأتيك من ناحية، ثم دواليك حتى تملَّ أو يملَّ.

وأما التهويل في وصفه بما يأتي بعد فهو مبالغة في التحذير منه ؛ لأنَّ وصفه بالضعف مظنة لاحتقاره والتساهل في أمره .

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ :

قال : ﴿يُوَسْوِسُ﴾ بالمضارع إشعارًا بعد إشعار بتجدد الوسوسة منه وعدم انقطاعها .

وقال: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ . والصدر ملتقى حنايا الأضلع، ومستودع القوى التي كان الإنسان إنسانًا بها، ومجمع المضغ التي تحمل تلك القوى، والقلب واحد منها، فالقلب غير الصدر، وإنما هو فيه، ولذلك قال : ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦] .

ومواقع استعمال القرآن لكلمة «الصدر» مفردًا وجمعًا، والحكم عليها بالشرح والحرج والضيق والشفاء والإخفاء والإكنان- ترشدنا إلى أنه ليس المراد منه الصورة المادية ولا أجزاءها المادية، وإنما المراد القوى النفسية المستودعة فيه، وأنَّ الوسواس الخناس يوجِّه كيده ووسوسته دائمًا إلى هذه القلعة التي هي الصدر لأنها مجمع القوى .

وقال : ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ . ولم يقل : في قلوب الناس . لأن القلب مجلى العقل ومقر الإيمان، وقد يكون محصنًا بالإيمان فلا يستطيع الوسواس أن يظهره، ولا يستطيع له نقبًا .

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ .

الجِنَّة : جماعة الجِنِّ . وهم خلاف الإنس، والمراد هنا : أشرار ذلك

الجنس؛ لأن منهم المسلمين ومنهم القاسطين.

واستُعمِل لفظ «الجِنَّة» في القرآن بمعنى المصدر الذي هو الجنون في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: الآية ٤٦].

ولما كان الموسوِسون فريقين متعاونين على الشر؛ ذكرهما اللَّه تعالى في مقام الاستعاذة من شر الوسوسة؛ ليلتئم طرفا الكلام، ويحصل التقصي الوصفي في المستعاذ به والمستعاذ منه.

وقد قسم القرآن الشياطين، وهم القائمون بوظيفة الوسوسة، إلى قسمين: شياطين الإنس وشياطين الجن، وذكر أن بعضهم يوحي إلى بعض زخرف القول(١).

وشيطان الجن ميسر للشر، فكل من يعمل عمله من الإنس فهو مثله، ومن شياطين الإنس بطانة السوء وقرين السوء.

وورد في الآثار أنَّ لكلِّ إنسان قرينًا من الجن[٢١١].

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: الآية ١١٢].

[٢١١] صحيحة:

وردت عن جماعة من الصحابة، منهم:

١- عبد اللَّه بن مسعود: أخرجه مسلم (٢٨١٤) عنه مرفوعًا:

«ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول اللَّه؟ قال: «وإياي: إلا أن اللَّه أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير».

٢- عائشة: أخرجه مسلم (٢٨١٥) عنها أن رسول اللَّه ﷺ خرج من عندها ليلًا، قالت: فغِرتُ عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «ما لكِ يا عائشة! أَغِرْتِ؟». فقلتُ: وما لي لا يغار مثلي على=

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزّخرُف: الآية ٣٦].

وقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ [فُصّلَت: الآية ٢٥].

وهو من باب توزيع الجمع على الجمع، أي: لكل واحد قرين.

فهذا الإنسان الضعيف يلازمه قرين من الجن، ثم لا يخلو من قرين أو قرناء من الإنس، يزيّنون له ما بين يديه وما خلفه، ويصدُّونه عن ذكر اللَّه، فماذا يصنع؟

ما عليه إلّا أن يلتجئ إلى اللَّه ويستعيذ به ويتذكّر، فإنه لا يُؤخَذ وهو ذاكر مستيقظ، وإنما يُؤخَذ إذا كان غافلًا.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعرَاف: الآية ٢٠٠] و[فصلت: الآية ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية ٢٠١].

= مثلك؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «أقد جاءك شيطانك؟» قالت: يا رسول اللَّه، أوَ معي شيطان؟ قال: «نعم» قلت: ومع كل إنسان؟ قال: نعم. قلت: ومعك يا رسول اللَّه؟ قال: «نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم».

٣- عبد اللَّه بن عباس: أخرجه أحمد (١/ ٢٥٧) وفي سنده قابوس - وهو ابن أبي ظبيان - فيه لين كما قال الحافظ، لكنه حسن في الشواهد.

وفي الباب عن المغيرة بن شعبة وأبي هريرة وأسامة بن شريك، خرجها الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢٥).

ومن دقائق القرآن ولطائفه في البلاغة أنه يقدِّم أحد الاسمين المتلازمين في آية لسرٍّ من أسرار البلاغة يقتضيها ذلك المقام، ثم يؤخر ذلك المقدَّم في آية أخرى لِسِرٍّ آخر، فيقدِّم السماء على الأرض في مقام، ويؤخرها عليها في مقام آخر.

ومن هذا الباب تقديم الإنس على الجِنِّ في آية «الأنعام»؛ لأن معرض الكلام في عداوتهم للأنبياء، وهي من الإنس أظهر، ودواعيها من التكذيب والإيذاء أوضح.

وفي آية «الناس» قدَّم الجِنَّة على الناس؛ لأن الحديث عن الوسوسة، وهي من شياطين الجن أخفى وأدق، وإن كانت من شياطين الإنس أعظم وأخطر وأدهى وأمر.

فشيطان الجن يستخدم شيطان الإنس للشر والإفساد، فيربِّى عليه ويكون شرًّا منه؛ لأنه بمثابة السلاح الذي يفتك به، ورُبَّ كلمةٍ واحدةٍ صغيرةٍ يوحيها جنيٌّ لأنسيٍّ ويوسوس إليه بتنفيذها، فتتولد منها فِتَنٌ ويتمادى شرها من قرن إلى قرن، ومن جيل إلى جيل.

وهذا النوع الإنساني المهيأ لقابلية الخير وقابلية الشر، إذا انحط وتسفل كان شرًّا محضًا، وإذا ترقَّى وتعالى شارف أفق الملإ الأعلى، وأوشك أن يكون خيرًا محضًا لولا أنَّ العصمة لم تكتب إلَّا لطائفة منه، وهم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

فالإنسان إذا انحط يكون شرًّا من الشيطان، وإذا ارتقى يكون أفضل من الملك- أعني: جنس الإنسان- ومن هذا الجنس كان محمد ﷺ أكمل

الخلق الذي ليس لمخلوق رتبة مثله في الكمال.

* * *

انتهى تلخيص الدرس، وقد حرصنا على ما وعته الذاكرة من معانيه، وقيده القلم من ألفاظه، ثم تصرفنا في المواضيع التي طرقها الأستاذ بما لا يخرج عن مراده ولا يخالف طريقته في تفسير كلام اللَّه. واللَّه ينفعنا بالقرآن، ويوفقنا إلى خدمته[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٤ و٥، م١٤) ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٣٥٧هـ - جوان وجوليت ١٩٣٨م.

مَلاحِق

* حول كلماتٍ لأستاذٍ كبيرٍ في تفسير آيات الزينة والستر (١- ٢).
* حول حديث الشيخ ابن يوسف في مسألة الحجاب ومجلة «الشهاب».
* لا فضل بالمال لمن كان ذا فضلٍ فيه.
* العَرَبُ في القرآن (١- ٣).

* * *

حول كلمات لأستاذ كبير في تفسير آيات الزينة والستر

-١-

نشرت جريدة «الزهرة»[١] الغراء حديثًا لفضيلة العلامة الكبير الشيخ محمد ابن يوسف[٢] المفتي الحنفي بحاضرة تونس، أفضى به لأحد محرري جريدة «اللواء التونسي»، فرأينا في بعض ما قاله الأستاذ نظرًا لا ينبغي السكوت عليه، فكتبنا عليه ما يلي:

قال المحرِّر: «ثم تلا- الأستاذ- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٩] الآية.

يُقالُ للمرأة إذا زال ثوبها عن وجهها: أدني عليك من ثوبك. أي: استري وجهك.

وتلا قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النُّور: الآية ٣١] الآية.

(١) جريدة تونسية، أُسِّست سنة ١٣٠٧هـ- ١٨٩٠م، لصاحبها الصحافي الكبير عبد الرحمن الصنادلي رحمه الله. انظر: «أضواء على الصحافة التونسية» لعمر بن قفصية.

(٢) توفي رحمه الله سنة ١٣٥٨هـ، ١٩٣٩هـ.

انظر ترجمته في «تراجم الأعلام» (ص٢٦١- ٢٧٠) لمحمد الفاضل ابن عاشور، ومشاهير التونسيين (ص٦٠٦) لمحمد بوذينة.

قلتُ- المحرِّر- : وما المراد من الزينة؟

قال: الزينة هي الوجه؛ إذ الوجه هو مناط جمال المرأة».

فظاهر من مساق تلاوة الأستاذ للآية أنه يستشهد بها على وجوب ستر الوجه، وظاهر من السؤال أنه عن المراد بلفظ: «الزينة» من: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾. وظاهر من الجواب أنه فسر الزينة بالوجه في قوله: ﴿زِينَتَهُنَّ﴾.

ولو ذهبنا على هذا ا لرأي في الاستشهاد والجواب لكان تقدير الآية هكذا: ولا يبدين وجوههن إلَّا ما ظهر من وجوههن!

وهذا لا قائل به، وتكاد لا تكون فائدة لمعناه.

والصواب: أن الذي فسر بالوجه والكفين- لا بالوجه فقط- هو لفظة: ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. وهي واقعة على الزينة الظاهرة. إذ الزينة منها باطن كالسوار للذراع، والدملج للعضد، والقرط للأُذن، والقلادة للنحر، والخلخال للساق، ومنها ظاهر كالكحل للعين، والخاتم للأصبع.

والزينة في الحقيقة هي هاته الأشياء المتزين بها ونحوها. فتعلق بها هذا الخطاب باعتبار محالها، فالمقصود محالها بدليل أنها إذا لم تكن في محالها لا يتعلق بها هذا الخطاب.

وقد جاء تفسير الزينة الظاهرة عن السلف مرة بالوجه والكف، ومرة بالكحل والخاتم، والثاني راجع للأول؛ لأن الوجه محل الكحل، والكف محل الخاتم، فالثاني فسر على حقيقة اللفظ، والأول على المراد.

ولما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾. عمَّ اللفظُ الباطنةَ

والظاهرةَ، ولما قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾. خصَّ الظاهرة، فجاز إبداؤها، وبقيت الباطنة على المنع.

وأفادت الآية منع كشف العنق والصدر والساق والذراع وجميع الباطن، وأباحت كشف الظاهر، وهو الوجه والكفان؛ إذ هما ليسا بعورة من المرأة بإجماع[١].

فبان بهذا بطلان تفسير الأستاذ «الزينة» من ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ بالوجه، وبطلان استدلاله بالآية على وجوب ستره؛ إذ هي بالعكس دالة على جواز إبدائه بحكم الاستثناء الصريح.

ونرى أن نزيد المقام تقريرًا وتوضيحًا بما ننقله عن إمامين كبيرين في الحديث والفتوى: الإمام الجصاص الحنفي، والقاضي عياض المالكي. ثم عن إمام دار الهجرة.

قال الجصاص[٢]- وهو يريد: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾-:

«وقال أصحابنا: المراد الوجه والكفان؛ لأن الكحل زينة الوجه، والخضاب والخاتم زينة الكف، فإذ قد أباح النظر إلى زينة الوجه والكف فقد اقتضى ذلك لا محالة إباحة النظر إلى الوجه والكفين.

---

(١) في هذا الإجماع نظر، كيف والخلاف فيها قديم، كما في «مراتب الإجماع» (ص٥٣) لابن حزم وغيره. نعم، «على هذا أكثر أهل العلم» كما قال ابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ٣٦٤)، وهو الراجح دليلًا والأقوم قيلًا.

(٢) في «أحكام القرآن» (٣/ ٣١٥- ٣١٦).

ويدل على أن الوجه والكفين من المرأة ليسا بعورة- أيضًا- أنها تصلي مكشوفة الوجه واليدين، فلو كانا عورة لكانِ عليها سترهما كما عليها ستر ما هو عورة. وإذا كان كذلك جاز للأجنبي أن ينظر من المرأة إلى وجهها ويديها بغير شهوة».

وقال عياض:

«في هذا كله- وهو يعني: حديث نظر الفجأة[٢١٢]- عند العلماء حجة أنه ليس بواجب أن تستر المرأة وجهها، وإنما ذلك استحباب وسنة لها. وعلى الرجل غض بصره عنها»

إلى أن قال:

«ولا خلاف أن فرض ستر الوجه مما اختص به أزواج النبي ﷺ» اهـ.

من الإكمال بنقل المواق. ونقل صدره النووي(١) وأقره.

وفي «الموطأ»(٢):

«سئل مالك: هل تأكل المرأة مع غير ذي محرم منها أو مع غلامها؟

---

[٢١٢] صحيح:

أخرجه مسلم (٢١٥٩) وأبو داود (٢١٤٨) والترمذي (٢٧٨١) والنسائي في «الكبرى» (٩٢٣٣) والدارمي (٢/ ٢٧٨) وأحمد (٤/ ٣٥٨و٣٦١) وغيرهم عن جرير بن عبد اللّه قال:

«سألت رسول اللّه ﷺ عن نظر الفجاءة، فأمرني أن أصرف بصري».

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(١) في «شرح صحيح مسلم» (١٤/ ١٣٩).

(٢) في (٤/ ٣١٦- بشرح الزرقاني). وتمام كلامه: «.. ويكره- أي تحريمًا كما قال الزرقاني- للمرأة أن تخلو مع الرجل ليس بينه وبينها حُرمة».

فقال: ليس بذلك بأس، إذا كان على وجه ما يعرف للمرأة أن تأكل معه من الرجال.

قال: وقد تأكل المرأة مع زوجها ومع غيره ممن يؤاكله أو مع أخيها على مثل ذلك».

فمالك يرى جواز مواكلة المرأة للأجنبي إذا لم تكن في خلوة معه، بأن كان ذلك بحضرة زوجها أو أخيها مثلًا. وهي تقتضي إبداء وجهها وكفيها للأجنبي؛ إذ ذلك لازم عند المواكلة، كما قاله الباجي وأقره[1].

فهذه النقول كلها مفيدة لما دلت عليه الآية من أن الوجه والكفين ليسا بعورة. وأنه لا يجب على المرأة سترهما.

نعم، نصَّ أكثر الفقهاء المتأخرين من جميع المذاهب على أن المرأة يجب عليها ستر وجهها إذا خشيت منها الفتنة، وهذا حكم عارض معلل بهذه العلة فيدور معها وجودًا وعدمًا[2].

ولذا لما كنا نتحقق الفساد بسفور نساء المدن والقرى- وحالتنا هي حالتنا- لا نرى لهن جواز السفور ما دامت هاته الحال، ونعرف نساء جهات في بادية قطرنا لا يسترن وجوههن وليس بهن فساد ولم تقع بهن من فتنة، فلما سئلنا عن سفورهن أجبنا بتركهن على حالهن أخذًا بأصل الجواز.

---

(١) في «المنتقى شرح الموطأ» (٧/ ٢٥٢).

(٢) فيه نظر، ويرده ما ثبت في السنة الصحيحة في قصة الفضل بن عباس رضي الله عنهما مع الخثعمية الحسناء، وتكراره نظره إليها وهو حاجّ! وكيف كان النبي ﷺ يكتفي بصرف وجهه عنها، ولا يأمرها بأن تسدل على وجهها، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز كما هو مقرر عند العلماء.

إننا بما كتبنا أردنا اعتراض عبارة الأستاذ، وبيان الحكم الأصلي لستر الوجه والكفين، والحكم العارض، وقد بيَّنا ذلك حسب المستطاع، وبقي الكلام على آية الإدناء التي ربما تظن معارضتها لآية الإبداء المتقدمة، وسنتكلم عليها في العدد الآتي- إن شاء اللَّه-[1].

* * *

- ٢ -

نُعيد اليوم- وقد عُدنا إلى تمام هذا الموضوع- ما كنا صرحنا به في القسم الأول من قولنا: «. . . . . فهذه النقول كلها مفيدة لما دلت عليه الآية من أن الوجه والكفين ليسا بعورة، وأنه لا يجب على المرأة سترهما.

نعم، نص أكثر الفقهاء المتأخرين من جميع المذاهب على أن المرأة يجب عليها ستر وجهها إذا خشيت منها الفتنة. وهذا حكم عارض معلل بهذه العلة فيدور معها وجودًا وعدمًا. ولذا لما كنا نتحقق الفساد بسفور نساء المدن والقرى- وحالتنا هي حالتنا- لا نرى لهن جواز السفور ما دامت هاته الحال. ونعرف نساء جهات في بادية قطرنا لا يسترن وجوههن وليس بهن فساد ولم تقع بهن من فتنة. سئلنا عن سفورهن أجبنا بتركهن على حالهن أخذًا بأصل الجواز».

نعيد هذا ليتقرر ما نريده عند قارئنا بجلاء تام.

قد عرفنا في القسم الأول من الكلام على آية الإبداء. وهي آية قوله

(١) الشهاب (ج٢، م٥) غرة شوال ١٣٤٧هـ- مارس ١٩٢٩م.

تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النُّور: الآية ٣١] .

ونريد أن نتكلم في هذا القسم على آية الإدناء، وهي آية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٩] .

وفي هذه الآية تفسيران أخذ الأستاذ بأحدهما، وهو مرجوح في نظرنا بما نقيمه من الأدلة على مرجوحيته.

وسنتكلم على الآية في ثلاثة مباحث.

المبحث الأول

في معنى الإدناء والجلابيب ومِن

الإدناء: من الدنوّ وهو القُرب. فالإدناء: التقريب. فـ ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ بمعنى: يقربن عليهن.

وأصل فعل «دنا» أن يتعدى بـ«من»، تقول: دنوت منه، وأدنيته منه. وإنما يتعدى بـ«على» إذا كان في الكلام معنى الإرخاء أو الضم كما في قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ [الإنسان: الآية ١٤] . وكما في ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ .

والجلباب- على اختلاف عبارات اللغويين في تفسيره- هو الثوب الأعلى الذي تجعله المرأة فوق رأسها وترسله على بدنها، كالملحفة ونحوها.

و(مِن) للتبعيض؛ لأن الذي تدنيه عليها من ناحية وجهها إنما هو بعض جلبابها.

فأفادت الآية طلب تقريب المرأة بعض جلبابها وإرخائها وضمه عليها من ناحية وجهها، وهذا محتمل لأن يكون بتغطية جميع الوجه، وبتغطية بعضه.

واختلاف المفسرين من السلف في معنى الآية دليل على وجود هذا الاحتمال.

وما نقله الأستاذ بالمعنى من «تفسير الزمخشري» هو أحد الوجهين المحتملين.

وأجود ما نقل عن أئمة العربية في تفسير الآية قول الكسائي: «يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهن».

قال الزمخشري(١): «أراد بالانضمام معنى الإدناء».

والتقنع لا يقتضي ستر الوجه كله.

المبحث الثاني
في اختلاف المفسرين من السلف

في الآية قولان لهم، نقلهما ابن جرير في تفسيره الشهير:

الأول: هو أن يغطين وجوههن ورؤوسهن فلا يبدين منهن إلا عينًا واحدةً، وهذا قول عبيدة، وقول ابن عباس من طريق أبي صالح[٢١٣].

---

(١) في «الكشاف» (٣/ ٢٤٧).

[٢١٣] ضعيف:

أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٦) قال: حدثنا علي قال: ثنا أبو صالح قال: ثنا معاوية عن علي عن ابن عباس قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٩]:

=

الثاني: أُمِرْنَ أن يشددنَ جلابيبهن على جباههن، وهو قول قتادة، وقول ابن عباس من طريق محمد بن سعد[٢١٤].

المبحث الثالث
في الترجيح

قد مضت آية الإبداء مفيدة جواز إبداء الوجه والكفين على مقتضى ما تقدم من البيان، وجاءت بعدها هذه آية الإدناء محتملة لطلب ستر الوجه كله كما في القول الأول. وتكون عليه معارضة لآية الإبداء المتقدمة؛ تلك تبيح كشف

= «أمر اللَّه نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجةٍ أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عينًا واحدة».

وإسناده ضعيف، فيه علتان:

الأولى: الانقطاع بين علي - وهو ابن أبي طلحة - وابن عباس، فإنه لم يسمع منه بل لم يره.

والأخرى: ضعف أبي صالح واسمه عبد اللَّه بن صالح، كاتب الليث، وقد تقدم.

وشيخ الطبري هو علي بن داود القنطري، ومعاوية هو ابن صالح الحمصي، واللَّه أعلم.

وانظر «جلباب المرأة المسلمة» (ص٨٨) للألباني.

[٢١٤] ضعيف:

أخرجه الطبري أيضًا فقال: حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٩] قال:

«كانت الحرة تلبس لباس الأمة، فأمر اللَّه نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن، وإدناء الجلباب: أن تُقَنَّع وتشدَّ على جبينها».

وإسناده ضعيف، مسلسل بالضعفاء من آل العوفي، وقد ترجم لهم أخونا الفاضل الشيخ علي رضا - حفظه اللَّه تعالى - في تحقيقه للجزء المفقود من «تهذيب الآثار» (١٠٢٦) للطبري فليراجعها هناك من شاء زيادة الاطلاع، واللَّه الموفق.

الوجه، وهذه تحظره؛ ومحتملة لطلب الإرخاء والضم لبعض الجلباب على بعض الوجه وهو الجبين، كما في القول الثاني، ولا تكون حينئذ معارضة لآية الإبداء.

وحملها على ما لا تكون به معارضة بين الآيتين- وهو الوجه الثاني- أرجح وأولى إن لم يكن متعينًا.

ثم إن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾. يفيد أن علة طلب الإدناء هي تمييزهن عن الإماء اللاتي كن يمشين حاسرات، أو بقناع مفرد، فيتعرض لهن أهل الشطارة والسفهاء، وفي الإدناء على الوجه الثاني في الآية تحصيل لهذا المقصود من التمييز، فحملها عليه مناسب للعلة، وسالم من المعارضة فهو المختار.

وبهذا التقرير تكون كل آية مفيدة معنى غير الذي أفادته الأخرى، فآية الإبداء أفادت طلب ستر الأعضاء إلا الوجه والكفين، وآية الإدناء أفادت طلب الستر الأعلى الذي يحيط بالثياب ويعم الرأس وما والاه من الوجه، وهو الجبين، وينضم على البدن؛ ليحصل به تمييز الحرائر بالمبالغة في التستر والاحتشام. وهذا هو المناسب لجوامع كلم القرآن.

والله أعلم[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٣، م٥) غرة ذي القعدة ١٣٤٧ هـ - أبريل ١٩٢٩م.

حول حديث الشيخ ابن يوسف في مسألة الحجاب ومجلة «الشهاب»

تحت هذا العنوان جاءتنا مقالة بإمضاء الشيخ «محمد المختار بن محمود[1] المدرس بجامع الزيتونة» فسرَّنا أن تعرَّض أحدُ أساتذة جامع الزيتونة للبحث في هذا الموضوع، وسرَّنا أن ننشر على قراء «الشهاب» بحثًا بقلم أستاذ زيتوني يرون فيه كيف تُقام الأدلة وكيف تُنقَض، وكيف يبحث العلماء بالطريق الفني المبني على النظر والاستدلال، المنزه عن الحشو واللغو وجرح الخصم. فطالعنا المقال بإمعان حتى أتينا على آخره، فإذا بنا نخرج منه بغير ما كنا نعتقده فيه!

لم يَنْفِ حضرةُ الشيخ نقلًا من نقولنا، ولا نقض واحدًا من أدلتنا، وسلك طريق المعارضة بكلام المتأخرين الذي لم نغفل عنه في كتابتنا. ولو كان هذا حدَّ الأمر لهان، ولنشرنا مقاله ورددنا عليه.

ولكن حضرته مزج كلامه بتنقيص خصمه، وتحقير آرائه، بمثل قوله في طالعة مقاله: «وحيث كان الاعتراضان أوهى من بيت العنكبوت، فإننا نصطلح على تسميتهما: شبهتين».

ومثل قوله: «فقد تأيَّد عندي أن الكاتب تلهيه محبة الاعتراض عن التوصل

(١) توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ١٩٧٣م. انظر ترجمته في «مشاهير التونسيين» (ص٥٧٦)، و«أعلام من الزيتونة» (ص٣٠١- ٣٣٥) لمحمود شمام.

إلى حقائق الأغراض».

ومثل قوله- عن استدلالنا بنقل كلام الأئمة المتقدمين-: «وكأن الكاتب أراد أن يحدث بهذا الصنيع تشويشًا وشغبًا يوقعان العامة في الشكوك التي كثيرًا ما أوقعهم فيها عدم تفقه العلماء».

غير هذا كنا ننتظر من فضيلة الأستاذ في أدبه ومكانته، وغير هذا كان به أنسب، وإلى الحق وتحقيقه أقرب.

وبعد، فينبغي أن يذكر حضرته شرط نشر المقالات في باب: «المباحثة والمناظرة» الذي بيناه في الجزء الأول من «الشهاب» وهو أننا ننشر منها ما يكون يرمي إلى استجلاء الحقيقة من طريق الدليل. وما نقلناه للقراء من مقال فضيلته هو من طريق التنقيص والتحقير، فلذا رفضنا نشر مقاله.

ولفضيلته أن يحرر مقالًا خاليًا عن هذا ومثله، مقتصرًا فيه على ما يتعلق بنفي صحة نقل، أو نقض دليل، أو معارضة صحيحة، ونحن نعده بنشره شاكرين[١].

* * *

(١) الشهاب (ج٤، م٥) غرة ذي الحجة ١٣٤٧هـ - ماي ١٩٢٩م.

لا فضل بالمال لمن كان ذا فضل فيه

الفضل: هو الزيادة.

والفاضل: هو الذي زاد على غيره.

والمفضول: هو الذي زاد عليه سواه.

والتفضيل: هو الزيادة لغيرك أو اعتقادك الزيادة فيه.

واللَّه تعالى قد فضَّل بين عباده- بحكمته- في العطاء؛ في الجسم، في العلم، في العمل، في المال، فزاد بعضهم على بعض في ذلك.

وفضل بينهم- بعدله- في القدر والمنزلة دنيا وأخرى كذلك.

ومما يكون فيه التفضيل من أنواع العطاء ما جعله اللَّه سببًا للتفضيل في القدر والمنزلة، ومنه ما لم يجعله سببًا:

فالفضل في الجسم، والفضل في العلم، سببان في فضل القدر والمنزلة.

وبهما فضل طالوت على بني إسرائيل واختير عليهم مَلِكًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٧].

وليس المراد هنا من الجسم كبره و ضخامته، بل المراد صحته وقوته بقوة فؤاده، فإن ضخامة الجسم مع السقم أو ضعف القلب بلاء على صاحبها.

وفضل القدر والمنزلة المتسبب عن فضل الجسم والعلم هو فضل يستحق به التقديم في هذه الدنيا، وأما نيل الفضل بهما في منازل الأخرى فمتوقف على العمل بهما.

والرجل فضِّل على المرأة في قوة العقل وقوة البدن، وكانت قوتاه هاتان سببين في فضله في القدر والمنزلة والتقديم عليها في هذه الدنيا.

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النِّساء: الآية ٣٤].

وظاهر التسبب هنا من حرف الباء.

وأما الفضل في العمل، فإنه سبب في فضل القدر والمنزلة دنيا وأخرى.

قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٥].

وتعليق الحكم، وهو التفضيل بالمشتق، وهو المجاهدين، مؤذن بعلية ما منه الاشتقاق، وهو الجهاد، فيستفاد من سببيته في الفضل والتقديم في القدر والمنزلة.

وأما المال فلم يكن- أبدًا- سببًا في فضل القدر والمنزلة، ولذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ [النّحل: الآية ٧١]، فجعل التفضيل فيه، فيزيد فيه حظ بعض الناس على بعض، ولم يقل: «بالرزق» لأن الرزق ليس سببًا لتفاضل الناس في الأقدار والمنازل، لا دنيا ولا أخرى؛ لأن منازل الآخرة يتفاضلون فيها بما قدَّموا من صالح الأعمال، ومنازل الدنيا يتفاضلون فيها- على الحق والعدل- بالكفاءات والأخلاق والأعمال.

وقد رد اللَّه- تعالى- على بني إسرائيل لما قالوا في طالوت: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٧] . منكرين استحقاقه للملك، بأنه ليس من بيت الملك ولا بذي مال، لاعتقادهم أن الفضل بمنزلة الملك، إنما يتسبب عن النسب والمال.

ردَّ اللَّه- تعالى- عليهم بقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٧] . ليبين لهم أن منازل الفضل في هذه الدنيا بالكفاءات الشخصية، لا بما هو خارج عنها من النسب والمال.

فالفضل في منازل الدنيا والآخرة، إنما هو بما هو منك من جسمك وأخلاقك وعلمك وعملك، لا بما هو باين عنك، ومباين لك من هذا الحطام، حتى إذا حصلته من حلِّه ، وأنفقته في محله، كان لك الفضل العظيم بما كان لك فيه من أعمال[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١١، م٥) غرة رجب ١٣٤٨هـ - ديسمبر ١٩٢٩م.

العرب في القرآن

-١-

«الخطاب الذي ارتجله الأستاذ عبد الحميد بن باديس رئيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» في اجتماعها العام بنادي «الترقي» لهذه السنة. وموضوعه: «العرب في القرآن» وقد حافظنا على معانيه وعلى الكثير من ألفاظه، وهيهات هيهات لما نود من نقله للقراء بألفاظه وجمله، فإنه خطاب عظيم في موضوع خطير لا يضطلع به غير الأستاذ في علمه بفنون القرآن وغوصه على مغازيه البعيدة ونفاذه في معانيه العالية.

وعلى كُلٍّ فإننا نرجو أننا قدمنا الموضوع للقراء كامل المعاني وحسبنا هذا».

* * *

حق على كلٍّ من يدين بالإسلام ويهتدي بهدي القرآن أن يعتني بتاريخ العرب ومدنيتهم، وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام، ذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام، ولعناية القرآن بهم، ولاختيار اللَّه لهم لتبليغ دين الإسلام وما فيه من آداب وحكم وفضائل إلى أمم الأرض.

فأما أنهم قد ارتبط تاريخهم بالإسلام فلأنَّ العربَ هُيِّئوا تاريخيًّا لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية، ولأن اللَّه الحكم العدل الذي يضع الأشياء في مواضعها بحكمة ويأمرنا أن ننزِّل الناس منازلهم في شريعته؛ ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة؛ إذ لا ينهض بالجليل من

الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال. ولا يقوم بالعظائم إلا العظام من الناس.

وأما عناية القرآن بالعرب، فلأجل تربيتهم؛ لأنهم هم الذين هُيِّئُوا لتبليغ الرسالة، فيجب أن يأخذوا حظهم كاملًا من التربية قبل الناس كلهم، ولهذا نجد كثيرًا من الآيات القرآنية في مراميها البعيدة، إصلاحًا لحال العرب، وتطهيرًا لمجتمعهم، وإثارةً لمعاني العزة والشرف في نفوسهم.

ومن هذا الباب الآيات التي يذكر بها العرب أن القرآن أنزل بلسانهم مثل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزّخرُف: الآية ٣]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢].

والذين يعقلون القرآن قبل الناس كلهم هم العرب.

ومن أول القصد إلى العرب والعناية بلسانهم وتنبيههم إلى أن القرآن أنزل بلسانهم دون جميع الألسنة؛ جلبًا لهم حتى يعلموا أنه أنزل لهم وفيهم قبل الناس كلهم.

إنَّ العرب قوم يعتزون بقوميتهم، وهم قوم ذوو عزةٍ وإباءٍ- خصوصًا في الجاهلية- فكان من حكمة القرآن أن يجلب نافرهم ويقرِّب بعيدهم بأن هذا القرآن أنزل بلسانهم.

ومن هذا الباب توسعة اللَّه في قراءة القرآن على سبعة أحرف[1]، وهي

---

(١) نزول القرآن على سبعة أحرف ثابت في الأحاديث الصحيحة المستفيضة بل المتواترة عن النبي ﷺ، وقد أورد جملة طيبة منها الحافظ ابن كثير – رحمه اللَّه تعالى- في «فضائل القرآن» ذيل كتابه «تفسير القرآن العظيم».

اللَّهجات التي تجتمع على صميم العربية وتختلف في غير ذلك.

وسَّع عليهم في ذلك لتشعر كل قبيلة أن هذا القرآن قرآنها؛ لأن اللسان الذي نزل به لسانها، وهذا هو ما يقصده القرآن.

ومن هذا الباب- أيضًا- إشعارهم بأن صاحب الرسالة منهم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨] الآية.

فمن الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبي في شيء؛ لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها.

ولذلك نرى القرآن يذكرها بالشرف، ويحدثها كثيرًا عن أمة اليهود التي لا يناديها إلا بـ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. تذكيرًا لها بجدها الذي هو مناط فخرها، كل ذلك لأنها أمة تحيا بالشرف والسمو والعلو- ويذكرها بالذكر- وهو في لسانها الشهرة الطائرة والثناء المستفيض.

يقول تعالى لنبيه، وهو يعني القرآن: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾ [الزخرف: الآية ٤٣- ٤٤].

والأنبياء لم يبعثوا إلا في مناسب الشرف ومنابع القوة ومنابت العزة ليبنى المجد الطريف من الدين على المجد التليد من أحساب الأمة وأنسابها وشرفها وعزتها، وما كان لها من مناقب تلتئم مع أصول الدين.

فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾. يعني: أنه شرف لكم. وقومه هم العرب لا محالة.

ويقول بعد ذلك: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٤٤]. ليشعرهم أن عليهم

من الواجبات في مقابلة هذا الشرف الذي أعطوه ما ليس على غيرهم، ولا شك أن ثمن المجد غال.

وهذا الشرط الذي ذكره اللّه وذكر به العرب هو شرط واجب الاعتبار والتنفيذ.

لأن الأمة التي لا تؤدي ثمن المجد لا تحافظ عليه. ثم هي أمة لا يعتمد عليها في النهوض بنفسها ولا بغيرها.

وإنما ذكرهم اللّه بذلك لينهضوا بالأمم على ذلك الأساس، وهو إحياء الشرف الإنساني في نفوسها، وليعاملوها على ذلك الأساس بالعدل والرحمة والتكريم.

وما ذكَّر القرآن العرب بتكريم بني آدم وخلقهم في أحسن تقويم إلا ليعاملوهم على هذه القاعدة التي وضعها الخالق. وأن أعداء البشرية اليوم وقبل اليوم يعمدون إلى قتل الشرف من النفوس ليستذلوا من هذا النوع ما أعز اللّه، ويهينوا منه ما كرم اللّه.

والخلاصة: أن عناية القرآن بإحياء الشرف في نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هُيئوا له من سياسة البشر.

وبهذا نستعين على فهم السرِّ والحكمة في اختيار اللّه للعرب للنهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية، واصطفائه إياهم لإنقاذ العالم مما كان فيه من شرٍّ وباطل.

وهذا السرُّ هو أنهم ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها،

هو الذي هيَّأهم لذلك، ولو كانوا أذلاء لما تهيئوا لذلك العمل العظيم.

وانظروا واعتبروا ذلك بحال أمة هي أقرب أمة إلى العرب، وهي أمة إسرائيل، فإنها لم تكن مهيأة لإنقاذ غيرها. وإنما هيئت لإنقاذ نفسها فقط؛ لأن مقوماتها النفسية لم تصل بها إلى تلك الدرجة العليا. ولذلك عانى موسى معها ما عانى، مما قصه القرآن علينا؛ لنعتبر به في الحكم على الأمم.

ولا حاجة إلى التطويل في الحديث عن بني إسرائيل، فإن القرآن قد فصَّل لنا شؤونهم تفصيلًا، وإنما أنبهكم على هذا الفارق الجوهري بين الأمتين.

وقد تقولون: إن بني إسرائيل اختارهم اللَّه وفضلهم على العالمين.

والجواب الذي يشهد له الواقع: أنه اختارهم لينقذوا أنفسهم من استعباد فرعون، وليكونوا مظهرًا للنبوة والدين في أول أطوارهما، وأضيق أدوارهما، وهذا هو الواقع، فإن الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله، وأن تظهر دين اللَّه على الدين كله، و أما بنو إسرائيل فإنهم ما استطاعوا أن ينهضوا حتى بأنفسهم، وإنما نهض بهم موسى نهضة قائمة على الخوارق، وما نهضوا بأنفسهم إلا بعد موسى بزمن مع اتصال حبل النبوة فيهم ومغاداة الوحي الإلهي ومراوحته لهم.

فالأمتان- العربية والإسرائيلية- متمايزتان بالأثر، ومتمايزتان بحديث القرآن عنهما.

وإذا تلمسنا الحكمة المقصودة من اختيار اللَّه لبني إسرائيل، مع أنهم غير مستعدين للقيام بنهضة عالمية عامة، وجدنا تلك الحكمة في القرآن مجلوة في أبلغ بيان، في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: الآية ٥- ٦].

فالسرُّ المتجلي من هذه الآية هو أن اللَّه أراد بما صنع لبني إسرائيل وبما قال لهم أن يعلم هذا العالم الإنساني من سنن اللَّه في كونه ما لم يكن يعلم. وهو إخراج الضد من الضد، وإخراج الحيِّ من الميت، وإنقاذ الأمة الضعيفة- التي لا تملك شيئًا من وسائل القوة الروحية ولا من وسائل القوة المادية- من استعباد الأقوياء المتألهين.

فهو مثل عملي ضربه اللَّه لخلاص أضعف الضعفاء من مخالب أقوى الأقوياء، وجعل المستضعفين أئمة وارثين وسادة غالبين، والتمكين لهم في الأرض، وإراءة الأقوياء المستعلين في الأرض عاقبة باطلهم لكيلا ييأس المستضعفون في الأرض من روح اللَّه.

وقد قال موسى لبني إسرائيل؛ تمكينًا لهذا المعنى في نفوسهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٩].

وإلى هذا المثل العملي تشير الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٣].

وأما العرب فإنهم اختيروا لوظيفة عالمية عامة لما فيهم [من][1] شرف

(١) سقطت من الأصل.

متأصل واستعداد كامل وصفات مهيأة.

ولهذا كان منبع الرسالة بمكة، وشأنها عند العرب هو شأنها، فهم مجمعون على تقديسها، ولأنها في وسط الجزيرة وصميمها.

ووسط الجزيرة بعيد كل البعد عن المؤثرات الخارجية في الطباع والألسنة، تلك المؤثرات التي يجلبها الاحتكاك بالأجانب والاختلاط بهم، وكل أطراف الجزيرة لم تخل من لوثة في الطباع وعجمة في الألسنة جاءت من الاختلاط بالأجنبي، ولا أضر على مقومات الأمم من العروق الدساسة.

فاليمن دخلتها الدخائل الأجنبية من الحبشة والفرس على طباع أهلها وألسنتهم، والشام ومشارفه كانت مشرفة على الاستعجام، والعراق والجزيرة لم يسلما من التأثر بالطباع الفارسية، فكانت هذه الأطراف تنطوي على عروبة مزعزعة المقومات، ولم يحافظ على الطبع العربي الصميم، إلا صميم الجزيرة، ومنه مكة التي ظهر فيها الإسلام.

وهذا الوسط وإن كان عريقًا في الصفات التي تسمى العصر لأجلها جاهليًّا. ولكنه بعيدًا عن الذل الذي يقتل العزة والشرف من النفوس.

والجاهل يمكن أن تعلِّمه، والجافي يمكن أن تهذِّبه، ولكن الذليل الذي نشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تغرس في نفسه الذليلة المهينة عزَّةً وإباءً وشهامةً تُلحقه بالرجال.

هذا توجيه موجز مقرّب لاختيار اللَّه تعالى العرب للنهوض بالرسالة العامة.

وشيء آخر يرتبط بهذا، وهو أن اللَّه كما اختار العرب للنهوض بالعالم؛ كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة وترجمان هذه النهضة.

ولا عجب في هذا، فاللسان الذي اتسع للوحي الإلهي لا يضيق أبدًا بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها، وهذا جانب لا أتحدث عنه، فقد كفانا مؤنته أخونا الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي في محاضرته[1] التي سمعتموها بالأمس[2].

* * *

- ٢ -

أيها الإخوان:

جعلنا عنوان الخطاب «العرب في القرآن» وقلنا في أول كلمة منه: أن العناية بالعرب حقٌّ على كلِّ مسلم لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام.

فما هو حظ العرب من القرآن من الناحية التاريخية بعد أن سمعتم هذه التوجيهات العامة؟

العرب مظلومون في التاريخ، فإن الناس يعتقدون ويعرفون أن العرب كانوا همجًا لا يصلحون لدنيا ولا دين حتى جاء الإسلام فاهتدوا به فأخرجهم من الظلمات إلى النور.

هكذا يتخيل الناس العرب بهذه الصورة المشوهة، ويزيد هذا التخيل

---

(١) وقد نشرت في مجلة «الشهاب» (ج١، م١٥) الصادر غرة محرم سنة ١٣٥٨هـ.

(٢) الشهاب (ج١، م١٥) غرة محرم ١٣٥٨هـ - فيفري ١٩٣٩م.

رسوخًا ما هو مستفيض في آيات القرآن من تقبيح ما كان عليه العرب، ليحذرنا من جاهلية أخرى بعد جاهليتهم.

والحقيقة التي يجب أن أذيعها في هذا الموقف هي أن القرآن وحده هو الذي أنصف العرب.

والناس بعد نزول القرآن قصروا في نظرتهم التاريخية إلى العرب، فنشأ ذلك التخيل الجائر عن القصد.

والتاريخ يجب أن لا يُنظَر من جهة واحدة، بل يُنظَر من جهات متعددة، وفي العرب نواح تُجتبى، ونواح تُجتنب، وجهات تُذم وتُقبَّح، وجهات يُثنى عليها وتمدح.

وهذه هي طريقة القرآن بعينها. فهو يعيب من العرب رذائلهم النفسية كالوثنية، ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل.

وينوِّه بصفاتهم الإنسانية التي شادوا بها مدنياتهم السالفة واستحقوا بها النهوض بمدنية المدنيات.

ولنذكر عادًا فهي أمة عربية ذات تاريخ قديم ومدنية باذخة، ذكرها القرآن، فذكرها بالقوة والصولة وعزة الجانب، ونعى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت: الآية ١٥].

فالنظرة التاريخية المجردة في هذه الآية وفيما ورد في موضوعها تُرينا أنَّ عادًا بلغت من القوة والعظمة مبلغًا لم تبلغه أمة من أمم الأرض في زمنها، حتى

إن اللَّه- جلَّ شأنه- لم يتحدَّ قولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، إلا بقوته الإلهية التي يُذعن إليها كل مخلوق، ولو كانت في أمم الأرض إذ ذاك أمة أقوى منهم لكان الأبلغ أن يتحداهم بها، وأن أمة تقول هذه الكلمة بحالها أو مقالها لهي أمة معتدَّة بقوتها وعظمتها.

ومن هذه الآية وحدها نستفيد أن عادًا كانت أشد الأمم قوة، وأنها ما بلغت هذه الدرجة من القوة إلَّا بمؤهلات جنسية طبيعية للملك وتعمير الأرض، وأن تلك المؤهلات فيها وفي غيرها من شعوب العرب هي التي أعدتهم للنهوض بالرسالة الإلهية.

وأنَّ القرآن لا ينكر عليهم هذه المؤهلات، وإنما ينكر عليهم لوازمها، ولا ينكر عليهم القوة والعظمة، وإنما ينكر عليهم أن يجعلوها ذرائع للباطل والبغي ومحادة اللَّه، بدليل قوله لهذه الأمة: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هُود: الآية ٥٢].

فهو يضمن لهم أنهم إن آمنوا وعملوا الصالحات يزيد قوَّتهم تمكينًا وبقاء.

ومحال أن ينكر القرآن على الناس القوة، وهو الداعي إليها، والمنفر من الضعف، وإنما شرع القرآن بجنب الدعوة إلى القوة أن تكون للحق وللخير وللرحمة والعدل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الشعراء: الآيات ١٢٨- ١٣١].

فإن هذه الآية- زيادة عن إفادتها لمعنى ما قدمناه- تكشف لنا نواحي من

تاريخ هذه الأمة العربية، ومبلغ مدنيتها وتعميرها، فهي تدل على أنهم كانوا بصراء بعلم تخطيط المدن والأبنية، وهو علم لا يستحكم إلا باستحكام الحضارة في الأمة، ومأخذ هذا من قوله: ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾.

والآية في قوله: ﴿ءَايَةً﴾. هي بناء شامخ يدل على قوتهم، أو هي آية هادية للسائرين، وهي على كل حال بناء عظيم يدل على عظمتهم وقوتهم.

وما زالت عظمة البناء تدل على عظمة الباني، ولم ينكر عليهم نبيهم نفس البناء الذي هو مظهر القوة، وإنما أنكر عليهم الغاية المقصودة لهم من ذلك البناء الشامخ، فمحط الإنكار قوله: ﴿تَعْبَثُونَ﴾.

ولا شك أن كل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة فهو عبث ولهو وباطل.

والمصانع يقول المفسرون أنها مجاري المياه أو هي القصور، وعلى القولين فهي دليل على معرفتهم بفن التعمير علمًا وعملًا، وبلوغهم فيه مبلغًا عظيمًا، فهي من شواهدنا على ما سقنا الحديث إليه.

ولكن ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن معنى المصنع اللفظي الاشتقاقي؟!

والذي أفهمه ولا أعدل عنه هو أن المصانع: جمع مصنع، من الصنع، كالمعامل من العمل، وإنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران.

وهل كثير على أمة توصف بما وصفت فيه في الآية- أن تكون لها مصانع

بمعناها العرفي عندنا؟

بلى، وإنَّ المصانع لأول لازم من لوازم العمران، وأول نتيجة من نتائجه.

ولا أغرب من تفسير هؤلاء المفسرين للمصانع إلا تفسير بعضهم للسائحين والسائحات بالصائمين والصائمات.

والحق أن السائحين هم الرحالون والرواد للاطلاع والاكتشاف والاعتبار، والقرآن الذي يحثّ على السير في الأرض والنظر في آثار الأمم الخالية حقيقٌ بأن يحشر السائحين في زمرة العابدين والحامدين والراكعين والساجدين، فربما كانت فائدة السياحة أتم وأعم من فائدة بعض الركوع والسجود.

ولا يقولنَّ قائلٌ: إذا كانت المصانع ما فهمتم، فلماذا يقبحها لهم وينكرها عليهم؟

فإنه لم ينكرها عليهم لذاتها، وإنما أنكر عليهم غاياتها وثمراتها، فإن المصانع التي تشيد على القسوة، والقسوة لا تحمد في مبدأ ولا غاية.

وأي عاقل يرتاب في أن المصانع اليوم هي أدوات عذاب لا رحمة، ووسائل تدمير لا تعمير، فهل يحمدها على عمومها، وإن كانت دلائل حضارة ومدنية؟

ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم، ومن لوازم ذلك أن تُراعى فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ .

لا بد لكل أمة تسود وتقوى من بطش، ولكن البطش فيه ما هو حق، بأن يكون انتصافًا وقصاصًا وإقامة لقسطاس العدل بين الناس، وفيه ما هو بطش الجبارين.

والجبار هو الذي يجبرك على أن تعمل بإرادته لا بإرادتك، فبطشه إنما يكون انتقامًا لكبريائه وجبروته، وإرضاء لظلمه وعتوِّه، وتنفيذًا لإرادته الجائرة التي لا تُبنى على شورى، وإنما تبنى على التشهي وهوى النفس، لذلك لم ينقم منهم البطش لأنه بطش، وإنما نقم منهم بطش الجبابرة الذي كلّه ظلم.

وفي القرآن ما هو كالتتمة لبحثنا عن حضارة العرب، وكالعلاقة لحضارة عاد بعينها، وهي حكاية عاد إرم ذات العماد.

فهذا الوصف البليغ الذي نقرؤه في «سورة الفجر» صريح بألفاظه ومعانيه في أنه وصف لحضارة عمرانية لا نظير لها.

فالعماد لا تكون إلا في القصور والأبنية الباذخة والمدن المخططة على نظام محكم، وقد قال تعالى، وهو العالم بكل شيء، إنه ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: الآية ٨] .

ومدينة هذا وصفها لا تشيدها إلا أمة لا نظير لها في القوة. وآثار الحضارة يتبع بعضُها بعضًا في الضخامة والعظم.

والوصف القرآني لها، وإن سيق للاتعاظ بعاقبتهم، يدل الباحث التاريخي على أنهم بلغوا في الحضارة غاية لا وراءها. وهم أمة عربية.

فهذه المدينة شيدت في جزيرة العرب لا محالة، وإن الأقرب في التذكير بهم والاتعاظ بمصيرهم أن تكون الرؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ [الفجر: الآية ٦]. علمية؛ لأن التذكير عام لمن تتيسر له رؤية العين، ولمن لا تتيسر له.

ولو ائتمرت الأمم الإسلامية بأوامر القرآن لنشأ فيها رواد يرودون الجزيرة ويجوبون مجاهلها، ولو فعلوا لأمكن أن يعثروا على آثار هذه المدينة في أرض عاد وهي معروفة، ويجمعوا بين الرؤية البصرية والرؤية العلمية، وبين العلم والاتعاظ.

وإننا لا نعبأ في مقام البحث العلمي بما حفَّ هذه الحكاية من أساطير، ولا بما وقع فيه شيخ المؤرخين ابن خلدون حين تعرَّض لنقض تلك الأساطير(١).

* * *

- ٣ -

وأمة أخرى من الأمم العربية وهي ثمود: وهي أمة عربية نلعنها بلعن القرآن لها، ولكننا نذكرها بما ذكرها به القرآن من قوة وتعمير وحضارة.

فصالِحٌ رسول هذه الأمة يقول في دعوتها إلى اللَّه وتعريفها بنعمه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هُود: الآية ٦١].

فأمة -أية أمة- لا تعمر الأرض إلا إذا ملكت وسائل التعمير، وهي كثيرة، ومجموعها هو ما نسميه الحضارة أو المدنية.

---

(١) الشهاب (ج٢، م١٥) صفر ١٣٥٨هـ - مارس ١٩٣٩م.

وقد كشفت لنا عن هذا الاستعمار الثمودي عدة آيات بليغة الوصف، ولكن أبلغها وصفًا وأدقها تصويرًا قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: الآيات ١٤٦- ١٤٩].

أما المغزى الذي سيقت هذه الآية لأجله فهو النفي عليهم. كيف يستعينون بنعم اللَّه التي يسَّرها لهم على الكفر به؟ وإنذارهم أن الكفر بها وبمؤتيها سيكون سببًا في زوالها.

وفي ضمن هذا عرفنا حالتهم التي كانوا عليها في تعمير الأرض. وهي حالة أمة بلغت النهاية في الحضارة المادية وفنونها؛ من زرع الأرض، وتلوينها بأصناف الشجر منظمة، وتقسيم المياه على تلك الغروس إلى ما يستلزمها.

كل ذلك من علم بحال الأرض وطبائعها، وأحوال الأشجار المغترسة وطبائعها، وأحوال الفصول الزمنية، وأحوال الجو وأحوال التلقيح والآبار والجني، وعلم بأصناف التمتع من مناظر ومجالس ومقامات ومآكل. ثم القيام على حفظ ذلك العمران من إفساد الأيدي السارقة، وكل هذا مما يستلزمه وصف القرآن لحالهم لأجل تذكيرهم والتذكير بهم.

وقد ذكرهم القرآن في مواضع بإتقانهم لنحت الحجر، والشجر والحجر آيتا الحضارة المبصرتان، ومن يعرف الحضارة الرومانية بهذا الوطن يعرف أنها ما قامت إلَّا على نحت الحجر وغرس الشجر.

وإنَّ نحت الحجر ليستدعي حاسَّة فنيَّة خاصَّة، ويستدعي مع ذلك قوة بدنية، وقد نعتهم القرآن في نحتهم للحجر بحالة ملابسة، فوصفهم مرة بأنهم

آمنون، ومرة بأنهم فرهون، والفاره: هو الذي يعمل بنشاط وخفة، ولا يأتيه ذلك إلَّا من خبرته بما يعمل، وعلمه بدقائقه واعتياده له.

ومعنى هذا أن أصول هذه الصناعة التي اشتهر بها المصريون القدماء والرومان قد رسخت فيهم، ولكن التاريخ المنقول ظلم العرب وبخسهم حقهم كما قلتُ لكم في طالعة الخطاب.

هاتان أمتان من الأمم العربية أثبت القرآن حالهما، فكان لنا مصدرًا تاريخيًّا معصومًا في إثبات حضارة الشعوب العربية التي بزَّت فيها الأمم.

ولننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحي الجزيرة وهي اليمن التي عرفها اليونان وغيرهم. وعرفوا المدنيات التي قامت فيها، فسموها بالعربية السعيدة.

وإننا إذا انتقلنا إلى هذه الناحية من الجزيرة نجد العز القدموس[1] والمجد الباذخ والماضي الزاهر لهذه الأمة التي نفتخر بالانتساب إليها، ونباهي الأمم بمدنياتها بالحق والبرهان.

وإننا في حديثنا عن اليمن لا نخرج عن شواهد القرآن.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا

(١) أي: العظيم.

فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: الآيات ١٥- ١٩].

ليس المقام مقام تبسط في وجوه البلاغة المعجزة التي تنطوي عليها هذه الآيات، فقد استوعبت تاريخ أمة في سطور. وصورت لنا أطوارًا اجتماعية كاملة في جمل قليلة أبدع تصوير، ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبداوة في جمل جامعة لا أظن غير اللسان العربي يتَّسع لحملها كقوله: ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾. وكقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾. وكقوله: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾. حتى إذا وصل القارئ إلى مصير هذه الأمة التي سمع ما هاله من وصفها واجهه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾. وأدركه الغرق في لجج البلاغة الزاخرة.

اللَّهمَّ إنَّ السلامة في الساحل، وإننا لا نعدو موضوعنا، وهو تصور حضارة العرب مما يحكيه القرآن عنها في معرض بيان مصائرها حين كفرت بأنعم اللَّه وبرسله.

الآيات صريحة في أن مدنية سبأ كانت مدنية زاهرة مستكملة الأدوات، ومن قرأ القرآن بعقله فهم ما نفهم من آياته، وعلم كما نعلم أن مدن سبأ كانت عامرة بالبساتين عن يمين وشمال.

ويمين مَن؟ وشمال مَن؟ إنه لا شك يمين السائر في تلك المدن أو الأراضي وشماله.

ومعنى هذا أن طرق السير كانت منظمة تبعًا لتنظيم الغروس عن يمينها وشمالها.

والاكتشافات الأثرية اليوم التي كان لليمن حظ ضئيل منها- وإن كان على غير يد أهلها- تشهد بأن أمم الحضارات اليمنية كانوا من أسبق الأمم إلى بناء السدود المنيعة لحصر المياه والانتفاع بها في تعمير الأرض.

وإقامة السدود لا تتم بالفكر البدوي والعمل اليدوي، بل تتوقف على علوم فكرية منها الهندسة، والهندسة تتوقف ثمراتها على علوم كثيرة، وعلوم العمران كعروق البدن يمد بعضها بعضًا، فهي مترابطة متماسكة متلاحمة، فما يكون السبأيون بلغوا في الهندسة مبلغًا أقاموا به سد مأرب حتى يبلغوا في غيره من علوم العمران ذلك المبلغ.

ولكن لما كفروا بأنعم اللَّه، واستعملوها في ما يسخطه، سلط اللَّه عليهم من الأسباب ما خرب عمرانهم وأباد حضاراتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ . . . إلخ.

ويقول في وصف عمرانهم: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾. يعني أن عمرانهم لم يكن محدودًا وإنما كان متصلًا بعضه ببعضه، فالقرى والمدن يظهر بعضها من بعضها لقربها وتلاحمها، فلا يكاد المسافر يبرح مدينة حتى تبدو له أعلام الأخرى، ولا يكون هذا إلَّا إذا كان العمران متصلًا.

وهذا هو معنى الظهور في الآية، فهو ظهور خاص.

وتقدير السير هو أن يكون منظمًا، ومن لوازمه أن تكون الأوقات مضبوطة بالساعات، والطرق محدودة بالعلامات التي تضبط المسافة.

وقوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾. يرشدنا إلى امتداد العمران مسافة الليالي والأيام. وأن الأمن كان مادًّا رواقه على هذا العمران.

ولا يتم العمران إلا بالأمن.

ولكن فات القوم أن يحصِّنوا هذه المدنية الزاخرة بسياج الإيمان والشكر والفضيلة والعدل.

وكل مدنية لم تحصّن بهؤلاء فمصيرها إلى الخراب. والناس من قديم مفتونون بعظمة المظاهر يحسبون أنها خالدة بعظمتها باقية بذاتها.

فالقرآن يذكر لنا الكثير من مصائر الأمم حتى لا نغتر بمظاهرها، وحتى نعلم أن سنة اللَّه لا تتخلَّف في الآخرين كما لم تتخلَّف في الأولين.

وأما قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾. فإن المفسرين السطحيين يحملونه على ظاهره، وأي عاقل يطلب بُعد الأسفار؟!

والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم، وإنما هو نتيجة أعمالهم، ومن عمل عملًا يفضي إلى نتيجة لازمة فإن العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله، وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة.

ولا زال الناس- على عاميتهم- يقولون فيمن عمل عملًا يستحق عليه الضرب أو القتل: إنه يقول: أقتلني أو أضربني، وهو لم يقل ذلك، وإنما أعماله هي التي تدعو إلى ذلك.

فالمعنى: أن أعمالهم هي التي طلبت جزاءها اللازم لها المرتبط بها ارتباط اللازم بالملزوم، والدال بالمدلول، فكأن ألسنتهم قالت ذلك.

ويؤيد هذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٩]. لأن الجزاء أثر للفعل فهو مرتبط به.

ولا يقولن قائل: إن القول يقع مدلوله في القلب حالًا، ولا كذلك العمل، فقد يتأخر جزاؤه طويلًا؛ لأن الجزاء إذا كان محقق الوقوع يصير كأنه حاصل بالفعل. وكل عاقل يقطع بأنه إذا وقع الظلم من الظالم فقد استحق عليه الجزاء، ولا يلاحظ مسافة ما بين الظلم وجزائه.

أما المباعدة بين أسفارهم التي اقتضاها كفرهم بأنعم اللَّه، فهي كناية عن محو العمران وخراب القرى التي كانت ظاهرة متقاربة حتى لا يبقى منها إلا القليل فيتباعد ذلك القليل بالطبع بخراب الكثير.

وأين العمران المتلاحم الذي يرتاح فيه المسافر لضبط المسافة وتعدد المشاهد، من الخراب الذي يوحش النفس فيزيد المسافة بُعدًا على بُعدٍ؟

وملكة سبأ، وعرشها العظيم وملكها، وما قصه القرآن من نبئها أعظم وأروع.

فمخبر سليمان عليه السلام يقول عنها: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النَّمل: الآية ٢٣]. وما وصف عرش ملكة سبإ بالعظيم عند سليمان نبي اللَّه الذي سخر له الجن والريح؛ إلا وهو في نفسه عظيم.

أيها الإخوان:

إنَّ في قصة ملكة سبإ في القرآن لدرسًا تتفجر منه ينابيع العِظة والعبرة، وإرشادًا إلى ما تقوم به الأمم، ولولا أن هذا الخطاب قد طال لآثرنا منها العِبر وأثرنا بها العَبر، ولكن لا يفوتنا أن نختلس منها إشارات، وما عليكم بعد ذلك إلا أن تتدبروا الآية ففيها نظام الشورى صريحًا لا مواربة فيه، وفيها أن بناء الأمم إنما يعتمد على القوة، وقد تكون مؤنثة فلابد أن يسندها بأس شديد،

وفيها أن الملأ هم الأشراف وأهل الرأي، وهم أعضاء المجالس الشورية، ولعلهم كانوا بالانتخاب العرفي، وهو نظام مدني، ولعلهم كانوا بالانتخاب الطبيعي أو الوراثي، وهو لا يكون إلا في الأمم التي شبت عن طوق البداوة.

ولعلَّ كاتبًا من كُتَّابنا يتناول هذا البحث بحث الانتخاب في الإسلام، ولئن استرشد القرآنَ في هذا الباب ليرشدنَّه.

أيها الإخوان:

هذه مدنيات ضخمة غبرت في هذه الأمة التي أهَّلها اللَّه لحمل الرسالة الإلهية إلى العالَم.

وهذه بعض خصائص هذه الأمة التي هيأها اللَّه للنهوض بالعالم، وإنقاذه من شرور الوثنية وبنياتها، ومن ضلال العبودية بجميع أصنافها، وإن القومية العربية موضوع مترامي الأطراف، وليس من الممكن الإحاطة به في مثل هذا الخطاب. وحسبي أن أكون قد خدمتها من هذه الناحية التي هي خدمة للإسلام والقرآن. وعليكم[1]

---

(١) قال العلماء: يكره أن يقول المبتدئ بالسلام: عليكم السلام، لحديث أبي جري الهُجيمي قال: أتيتُ رسول اللَّه ﷺ فقلت: عيك السلام يا رسول اللَّه، قال: «لا تَقُلْ: عليك السلام. فإن عليك السلام تحية الموتى».

أخرجه أبو داود (٤٠٧٨ و٥١٩٨) والترمذي (٢٧٢٧) وغيرهما، وقال: «حديث حسن صحيح».

وقال الحاكم (٤/ ١٨٦): «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

وصححه أيضًا ابن القيم في «زاد المعاد» (٢/ ٤٢٠) وغيره.

قال ابن القيم في «بدائع الفوائد» (٢/ ١٧٢- ١٧٤): «إن قوله ﷺ: «عليك السلام تحية الموتى» ليس تشريعًا منه وإخبارًا عن أمر شرعي، وإنما هو إخبار عن الواقع المعتاد الذي جرى على ألسنة الشعراء والناس، فإنهم كانوا يقدّمون اسم الميت على الدعاء، كما قال قائلهم:

عليك سلام اللَّه قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما =

السلام[١].

= وقول الذي رثى عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عليك سلام من أمير وباركت　　　يد اللَّه في ذاك الأديم الممزق

وهذا أكثر في أشعارهم من أن نذكره ههنا، والإخبار عن الواقع لا يدل على جوازه فضلًا عن كونه سنة، بل نهيه عنه مع إخباره بوقوعه يدل على عدم مشروعيته، وأنَّ السنة في السلام تقديم لفظه على لفظ المُسَلَّم عليه في السلام على الأحياء وعلى الأموات.

فكما لا يقال في السلام على الأحياء: عليكم السلام، فكذلك لا يقال في سلام الأموات كما دلت السنة الصحيحة على الأمرين».

قال: «وهنا نكتة بديعة ينبغي التفطن لها، وهي أن السلام شرع على الأحياء والأموات بتقديم اسمه على المسلَّم عليهم لأنه دعاء بخير، والأحسن في دعاء الخير أن يتقدم الدعاء به على المدعوّ له، كقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هُود: الآية ٧٣]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصَّافات: الآية ٧٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٣٠]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرّعد: الآية ٢٤].

وأما الدعاء بالشر فيقدّم فيه المدعو عليه على المدعوّ به غالبًا، كقوله تعالى لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ [ص: الآية ٧٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ [الحِجر: الآية ٣٥]، وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [التّوبَة: الآية ٩٨] و[الفتح: ٦]، وقوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ [الشّورى: الآية ١٦].

وسِرُّ ذلك -واللَّه أعلم- أن في الدعاء بالخير قدَّموا اسم الدعاء المحبوب الذي تشتهيه النفوس وتطلبه، ويلذ للسمع لفظه، فيبدأ السمع بذكر الاسم المحبوب المطلوب، ويبدأ القلب بتصوره، فيفتح له القلب والسمع، فيبقى السامع كالمنتظر لمن يحصل هذا، وعلى من يحل، فيأتي باسمه، فيقول: عليك أولك، فيحصل له من السرور والفرح ما يبعث على التحاب والتواد والتراحم الذي هو المقصود بالسلام.

وأما في الدعاء عليه، ففي تقديم المدعو عليه إيذان باختصاصه بذلك الدعاء، وأنه عليه وحده، كأنه قيل له: هذا عليك وحدك لا يشركك فيه السامعون، بخلاف الدعاء بالخير فإن المطلوب عمومه، وكل ما عم به الداعي كان أفضل».

(١) الشهاب (ج٣، م١٥) ربيع الأول ١٣٥٨هـ- أفريل ١٩٣٩م.

الفهارس

* ★ فهرس أطراف الآيات القرآنية الكريمة.
* ★ فهرس أطراف الأحاديث النبوية الشريفة.
* ★ فهرس أطراف الآثار السلفية وغيرها.
* ★ فهرس الفوائد.
* ★ فهرس الألفاظ المشروحة.
* ★ فهرس الأعلام.
* ★ فهرس المذكورين بجرح أو تعديل.
* ★ فهرس الشِّعر.
* ★ فهرس الأمثال.
* ★ فهرس الأماكن والبلدان.
* ★ فهرس مراجع ومصادرالتحقيق والتعليق.
* ★ فهرس الموضوعات

* * *

فهرس أطراف الآيات القرآنية الكريمة

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] (٢/ ٣٦٧)

(سورة آل عمران)

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١- ٣] (٢/ ٢٦٠)

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣] (٢/ ٥١)

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] (٢/ ٢٥٨)

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] (١/ ٣٧٩)

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران: ٤٢] (٢/ ٢٥)

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾
[آل عمران: ٦٧] (١/ ٩٧)

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] (٢/ ١١٨)

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] (٢/ ١١٦)

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤] (١/ ٢١١، ٣٩٤)

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] (١/ ١٨٧)

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] (١/ ٤١٠)

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] (١/ ١٤٠)

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا
مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ
وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ
فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا
وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩١- ١٩٤] (٢/ ١٠٣)

(سورة النساء)

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] (٢/ ٣٦٧)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] (٢/ ١٩٢)

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] (١/ ١٨١)

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] (٢/ ٢٧٠)

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] (١/ ٥٠)

(سورة المائدة)

﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾ [المائدة: ١] (٢/ ١٩٢)

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ﴾ [المائدة: ٥] (٢/ ١٩٤)

﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] (٢/ ١٥٥)

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ﴾ [المائدة: ٨] (١/ ١٧٧)

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨] (٢/ ١٩٢)

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] (١/ ١٠٥)

﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ﴾ [المائدة: ١٩] (٢/ ٢٨١- هامش، ٢٨٣)

﴿لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ﴾ [المائدة: ٢٧] (٢/ ٢٨)

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] (٢/ ٢٨)

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ

(سورة الأنعام)

(سورة الأعراف)

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] (٢/ ٨٨)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] (٢/ ٣٧٣)

(سورة الأنفال)

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] (١/ ١٨٩)

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] (١/ ٣٧٤)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] (١/ ٦١)

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] (٢/ ١٩٣)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦] (٢/ ٥٧- هامش)

(سورة التوبة)

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] (٢/ ١١)

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] (١/ ١٨٨، ٢/ ١٣٦)

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠] (١/ ٢١٩- هامش)

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢] (١/ ٣١٤)

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ﴾ [التوبة: ٩٨] (٢/ ٤١٧- هامش)

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] (١/ ٢٠٢)

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا

تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾

[التوبة: ١١٣، ١١٤] (٢/ ٨٩- هامش)

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] (٢/ ٢٧٥)

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] (٢/ ٣٩٦)

﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] (٢/ ٢٤٧)

(سورة يونس)

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] (٢/ ٢٦٠)

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤] (٢/ ١٩٤)

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] (٢/ ٢٢١- هامش)

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩] (١/ ٤٠١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] (١/ ٨٢، ٣٥٤)

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] (٢/ ٢٠٢)

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] (١/ ٢٣٢)

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يونس: ٩٨] (١/ ٣١٠)

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

[يونس: ٩٨] (١/ ٣١٠)

(سورة هود)

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] (٢/ ٢٦٠)

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟

﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣] (٢/ ٢٦٣)

(سورة إبراهيم)

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] (٢/ ١١٦)

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] (٢/ ٢٣)

﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١] (٢/ ٢٥)

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] (٢/ ١٣)

(سورة الحجر)

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] (٢/ ٢٩٥- هامش)

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] (٢/ ٢٩٥- هامش)

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] (٢/ ٢٧١)

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] (٢/ ٢٤)

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ [الحجر: ٣٥] (٢/ ٤١٥- هامش)

(سورة النحل)

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] (٢/ ٢٢٢)

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] (١/ ٢٧٠- هامش)

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] (١/ ١١٠)

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: الآية ٤٤] (٢/ ٢٩٥- هامش)

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] (٢/ ٢٦٩- هامش)

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] (١/ ١٨٩)

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١] (٢/ ٣٩٢)

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] (٢/ ١٩٣)

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ

(سورة الإسراء)

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] (١/ ١٦٣)

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] (١/ ١٧٤)

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١] (١/ ١٧٩)

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢] (١/ ١٣٨، ١٨٢، ٢٨٥)

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] (١/ ١٩٢)

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] (١/ ١٩٩)

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥] (١/ ٢٠٦)

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦] (١/ ٢١٧)

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦] (١/ ٢٢٢)

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧] (١/ ٢٢٤)

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨] (١/ ٢٢٦)

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] (١/ ٢٢٩)

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠] (١/ ٢٣٦)

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣١- ٣٣] (١/ ٢٣٨)

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٣٤] (١/ ٢٤٩)

﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤] (١/ ٢٥٤)

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ [الإسراء: ٣٥] (١/ ٢٥٨)

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ . [الإسراء: ٣٦-٣٧] (١/ ٢٦١)

﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ [الإسراء:٣٧] (١/ ٢٧٥)

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ [الإسراء: ٣٨] (١/ ٢٧٩)

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ [الإسراء: ٣٩] (١/ ١٣٨، ٢٨٢)

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩] (١/ ١٣٨، ١٨٢، ٢٨٤)

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسراء: ٥٣] (١/ ٢٨٦)

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ [الإسراء: ٥٣] (١/ ٢٩١)

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٥٤] (١/ ٢٩٢)

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦] (١/ ٢٩٤)

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧] (١/ ٣٠٠، ٢/ ١١٤)

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٨] (١/ ٣٠٦، ٥٨)

﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٢] (٢/ ٣٦٧)

﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] (٢/ ٣٦٢)

﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠] (١/ ٣١٣)

(سورة الكهف)

(سورة الحج)

(سورة المؤمنون)

(سورة النور)

يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾
[النور: ٦٢] (١/ ٤٢٣)

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] (١/ ٤٢٨)

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] (١/ ٤٣٣)

(سورة الفرقان)

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾
[الفرقان: ١، ٢] (٢/ ٧)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٤- ٦] (٢/ ١٤)

﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٥] (٢/ ٦١)

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦] (٢/ ٦١)

﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] (٢/ ٢١، ٦١)

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾
[الفرقان: ٢٠] (٢/ ٢١، ٦١)

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠] (٢/ ٢٩)

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] (٢/ ٦٠)

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِىۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ

لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩] (٢/ ٣٥)

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] (٢/ ٤٢)

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١] (٢/ ٤٩)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢] (٢/ ٨، ٥١، ٦١)

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] (٢/ ٦٠)

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤] (٢/ ٦٤)

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١] (٢/ ٦٧)

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] (٢/ ٧١)

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧] (٢/ ١٢)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] (٢/ ٧٥)

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] (٢/ ٨١)

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤] (٢/ ٩٢)

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] (١/ ١٦٥، ٢/ ١٠٠، ١٠٤)

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦] (١/ ١٦٥، ٢/ ٩٦)

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] (٢/ ١٢٦)

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾ [الفرقان: ٦٨] (٢/ ١٣١)

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾

(سورة الشعراء)

(سورة النمل)

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] (٢/ ٢٣٧)

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] (٢/ ٤١٣)

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] (٢/ ٢٤٧)

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] (٢/ ٢٤٧)

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤] (٢/ ٢٤١)

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] (٢/ ٢٤٣)

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢٦] (٢/ ٢٤٦)

﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦] (٢/ ٢٤٧)

﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩] (١/ ٣١٣)

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ [النمل: ٤٦] (٢/ ٥١)

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠] (٢/ ١٩٤)

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] (١/ ١٨٩)

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ﴾ [النمل: ٩١- ٩٢] (١/ ٧٢، ٢/ ١١)

(سورة القصص)

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [القصص: ١، ٢] (٢/ ٢٦٠)

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦] (٢/ ٣٩٩)

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥، ١٦] (٢/ ١٢١- هامش)

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] (٢/ ٨٨)

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] (١/ ٣٠٨)

(سورة العنكبوت)

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] (٢/ ٢٩)

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] (١/ ١٩٣)

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] (١/ ٥٨)

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٤٧] (٢/ ٥٣)

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] (٢/ ٥٠)

(سورة لقمان)

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] (١/ ١٩٥)

﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] (٢/ ١١٦)

﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] (١/ ١٩٢)

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] (١/ ١٩٤)

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] (٢/ ٢٧٩- هامش)

(سورة السجدة)

﴿الم ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١- ٢] (٢/ ٢٦٠)

﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧] (٢/ ١٩٤)

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ [السجدة: ٩] (١/ ٢٣٩)

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝١٥ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥- ١٧] (٢/ ١٠٢)

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] (٢/ ٩٣)

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] (٢/ ١٠٣)

(سورة الأحزاب)

﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ [الأحزاب: ٩] (٢/ ١١٦)

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [الأحزاب: ٢٩] (٢/ ١١٩)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩] (٢/ ٣٧٩، ٣٨٥، ٣٨٧ هامش)

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] (١/ ٤٠١)

(سورة سبأ)

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ﴾ [سبأ: ١٣] (٢/ ١١٦)

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ﴾ [سبأ: ١٥- ١٩] (١/ ٢٧، ٢/ ٤٠٩)

﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ﴾ [سبأ: ٤٦] (٢/ ٣٧٢)

(سورة فاطر)

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] (٢/ ٥٦- هامش، ١٨٦)

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] (١/ ٤٠١)

(سورة يس)

(سورة الصافات)

(سورة ص)

(سورة الزمر)

(سورة غافر)

(سورة فصلت)

(سورة الشورى)

(سورة الزخرف)

(سورة الممتحنة)

(سورة: الصف)

(سورة الجمعة)

(سورة التغابن)

(سورة الطلاق)

(سورة الملك)

(سورة القلم)

(سورة الجن)

(سورة القيامة)

(سورة الإنسان)

(سورة عبس)

(سورة التكوير)

(سورة المطففين)

(سورة البروج)

(سورة الأعلى)

(سورة الغاشية)

(سورة الفجر)

(سورة الشمس)

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] (١/ ٢٠٧)

(سورة التين)

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] (٢/ ١٩٤)

(سورة العصر)

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] (١/ ٥٢)

(سورة النصر)

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] (٢/ ٢٢٧- هامش)

(سورة الفلق)

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١- ٥] (٢/ ٣٤٧)

(سورة الناس)

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾
[الناس: ١- ٦] (٢/ ٣٦٥)

* * *

فهرس أطراف الأحاديث النبوية الشريفة

طرف الحديث (الجزء/ الصفحة)

(أ)

(ك)

(ل)

(م)

(ي)

* * *

فهرس أطراف الآثار السلفية وغيرها

(ن)

(هـ)

(و)

(لا)

(ي)

* * *

فهرس الفوائد

١- أن يكون المعنى صحيحًا في نفسه.
٢- أن يكون مأخوذًا من التركيب القرآني أخذًا عربيًّا صحيحًا.
٣- أن يكون له ما يشهد له من أدلة الشرع (٢/ ٢٢٧)
- من الأصول المقررة عند العلماء: أن لا مؤاخذة للمخالف للأمر عن غير انتهاك للحرمة (٢/ ٢٣٣)
- من فروع الأصل المتقدم: سقوط الكفارة -بل والقضاء أيضًا- عمن أفطر في رمضان متعمدًا متأولًا تأويلًا قريبًا (٢/ ٢٣٤)
- الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يعلمون من الغيب شيئًا إلَّا ما أطلعهم اللَّه عليه وأعلمهم به (٢/ ٢٣٥)
- الفلاح المنفي في الحديث الصحيح: «لن يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأة» هو الفلاح في لسان الشرع، وهو تحصيل خير الدنيا والآخرة (٢/ ٢٤٠)
- تحريم السجود للمخلوق (٢/ ٢٤٤)
- الظواهر دلائل البواطن (٢/ ٢٤٩)
- اللَّه ﷻ لم يجاز الخلق على مقتضى علمه فيهم -وهو العلم الذي لا يتخلف- وإنما جعل جزاءهم على أعمالهم (٢/ ٢٨٩)
- التحلية بعد التخلية، والتزيّن بعد إزالة الأدران (٢/ ٢٩٦)
-ترتيب سور القرآن توقيفي (٢/ ٣٤٠)
- الأمر للنبي ﷺ أمرٌ لنا، لأننا المقصودون بالتكليف (٢/ ٣٤٩)
- من لطائف اللغة العربية أن الفتح والفلح والفجر والفلق والفرق والفري والفأ والفقأ والفقه، كلها ذات دلالات واحدة (٢/ ٣٥٠)
- من دقائق القرآن ولطائفه في البلاغة أنه يقدّم أحد الاسمين المتلازمين في آية لِسِرٍّ من أسرار البلاغة يقتضيها ذلك المقام، ثم يؤخر ذلك المقدّم في آية أخرى لِسِرٍّ آخَر (٢/ ٣٤٩)

* * *

فهرس الألفاظ المشروحة

الكلمة (الجزء/ الصفحة)

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(د)

(ذ)

(ش)

(ص)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

* * *

فهرس الأعلام

العَلَم — الجزء/ الصفحة

(أ)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(ن)

(ي)

* * *

فهرس المذكورين بجرح أو تعديل

(أ)

(هـ، ي)

* * *

فهرس الشِّعر

* * *

فهرس الأمثال

* * *

فهرس الأماكن والبلدان

* * *

فهرس مصادر ومراجع التحقيق والتعليق

- أولًا: الكُتب:

* آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (١- ٥) - دار الغرب الإسلامي- بيروت.

* إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة: للبوصيري -دار الوطن- الرياض.

* الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي -دار المعرفة- بيروت.

* أحكام القرآن: لأبي بكر بن العربي -دار المعرفة- بيروت.

* أحكام القرآن: للجصّاص -دار الكتاب العربي- بيروت.

* إحياء علوم الدين: للغزّالي -دار المعرفة- بيروت.

* الأدب المفرد: للبخاري -مكتبة المعارف- الرياض.

* الأذكار: للنووي -دار ابن حزم- بيروت.

* إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: للقسطلاني -دار الكتاب العربي- بيروت.

* إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: للألباني -المكتب الإسلامي- بيروت.

* الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر العسقلاني -دار الكتب العلمية- بيروت.

* أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: لمحمد الأمين الشنقيطي -عالم

الكتب- بيروت.

* أضواء على الصحافة التونسية: لعمر بن قفصية -دار بوسلامة- تونس.

* الاعتصام: للشاطبي -دار المعرفة- بيروت.

* الأعلام: للزركلي -دار العلم للملايين- بيروت.

* أعلام من الزيتونة: لمحمود شمّام- تونس.

* إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين: لابن القيم -دار الجيل- بيروت.

* اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: لابن تيمية -دار العاصمة- الرياض.

* الأمر بالاتباع: للسيوطي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* أهل الفترة ومَن في حكمهم: لموفق أحمد شكري- مؤسسة علوم القرآن- عجمان، ودار ابن كثير- دمشق.

* بدائع الفوائد: لابن القيم -دار الكتاب العربي- بيروت.

* البداية والنهاية: لابن كثير - مكتبة المعارف- بيروت.

* البدع والنهي عنها: لابن وضاح -دار ابن حزم- بيروت.

* تاريخ المدينة: لابن شبة -دار الكتب العلمية- بيروت.

* التبيان في آداب حملة القرآن: للنووي -دار ابن حزم- بيروت.

* تخريج أحاديث «رسالة الشرك»: لأبي عبد الرحمن محمود -دار الراية- الرياض.

* تخريج الإحياء = المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإيحاء من الأخبار، للعراقي = إحياء علوم الدين.

* التذكار في أفضل الأذكار: للقرطبي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* تذكرة الحفاظ : للذهبي -دار الكتب العلمية- بيروت .

* تراجم الأعلام : لمحمد الفاضل بن عاشور -الدار التونسية- تونس .

* الترغيب والترهيب : للمنذري -دار الفكر- بيروت .

* تغليق التعليق : لابن حجر العسقلاني -المكتب الإسلامي- بيروت .

* تفسير الطبري -دار الفكر- بيروت .

* تفسير القرآن العظيم : لابن كثير -دار الأندلس- بيروت .

* التفسير الكبير : للفخر الرازي -مكتبة عبد الرحمن محمد- مصر .

* تفسير المنار : لمحمد رشيد رضا- دار الكتب العلمية- بيروت .

* تقريب التهذب : لابن حجر -دار ابن حزم- بيروت .

* التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: لابن حجر العسقلاني- دون ذكر الناشر .

* التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: لابن عبد البر -وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة العربية السعودية .

* تهذيب الآثار : للطبري -دار المأمون للتراث- دمشق وبيروت .

* تهذيب التهذيب : لابن حجر -دار الكتب العلمية- بيروت .

* تيسير العزيز الحميد : لسليمان بن عبد اللّه بن محمد بن عبد الوهاب .

* جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر -دار ابن الجوزي بالدمام- السعودية .

* جامع التحصيل في أحكام المراسيل : للعلائي -عالم الكتب- بيروت .

* جامع العلوم والحِكم : لابن رجب -مؤسسة الرسالة- بيروت .

* الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي -دار إحياء التراث العربي- بيروت .

* الجدّ الحثيث في بيان ما ليس بحديث: للعامري.

* جلباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة: للألباني -المكتبة الإسلامية- عمان.

* حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نُعيم -دار الكتب العلمية- بيروت.

* دلائل النبوة: لأبي نُعيم -دار النفائس- بيروت.

* دلائل النبوة: للبيهقي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* الرسل والرسالات: لعمر الأشقر -دار النفائس- الأردن.

* رياض الصالحين: للنووي -المكتب الإسلامي- بيروت.

* زاد المسير في علم التفسير: لابن الجوزي -المكتب الإسلامي- بيروت.

* زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن القيم -مؤسسة الرسالة- بيروت.

* الزهد: لأحمد -دار الجيل- بيروت.

* سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها: للألباني -مكتبة المعارف- الرياض.

* سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: للألباني -مكتبة المعارف- الرياض.

* السنة: لابن أبي عاصم - المكتب الإسلامي- بيروت.

* السنن لابن ماجه -دار إحياء التراث العربي- بيروت.

* السنن لأبي داود = عون المعبود.

* السنن: للترمذي -دار إحياء التراث العربي- بيروت.

* السنن للدارمي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* السنن للنسائي -دار الكتاب العربي- بيروت.

* السنن الكبرى: للبيهقي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* السنن الكبرى: للنسائي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* سير أعلام النبلاء: للذهبي -مؤسسة الرسالة- بيروت.

* شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك -المكتبة العصرية- بيروت.

* شرح الأُبّي على صحيح مسلم -دار الكتب العلمية- بيروت.

* شرح الزرقاني على موطأ مالك بن أنس: دار الفكر- بيروت.

* شرح صحيح مسلم: للنووي -دار إحياء التراث العربي- بيروت.

* شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز -المكتب الإسلامي- بيروت.

* شرح العقيدة الواسطية: لابن عثيمين- دار ابن الجوزي- الدمام (السعودية).

* الشرح الكبير: للدردير.

* شُعب الإيمان: للبيهقي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* شمائل الرسول ﷺ: للترمذي = مختصر الشمائل.

* الشيخ المولود الحافظي، حياته وآثاره: لمحمد الصالح آيت علجت- منشورات دار الكتب- الجزائر.

* الصحاح: للجوهري -دار العلم للملايين- بيروت.

* صحيح ابن خزيمة -المكتب الإسلامي- بيروت.

* صحيح البخاري = فتح الباري.

* صحيح الترغيب والترهيب: للألباني -مكتبة المعارف- الرياض.

* صحيح الجامع الصغير: للألباني -المكتب الإسلامي- بيروت.

* صحيح سنن أبي داود: للألباني -غراس- الكويت.

صحيح مسلم -دار إحياء التراث العربي- بيروت.

* صحيح موارد الظمآن: للألباني -دار الصميعي- الرياض.

* صراع بين السنة والبدعة: لأحمد حماني -دار البعث قسنطينة- الجزائر.

* الصلاة وحكم تاركها: لابن القيم -المكتب الإسلامي- بيروت.

* الصواعق المرسلة =مختصر الصواعق.

* ضعيف موارد الظمآن: للألباني -دار الصميعي- الرياض.

* الطبقات الكبرى: لابن سعد -دار بيروت- بيروت.

* طريق الهجرتين: لابن القيم -دار ابن القيم بالدمام- السعودية.

* عون المعبود شرح سنن أبي داود: للعظيم آبادي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: دار العاصمة -الرياض.

* فتح الباري شرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني -دار السلام- الرياض.

* فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر، للمغراوي -مجموعة التحف النفائس الدولية- الرياض.

* فضائل القرآن: لابن كثير = تفسير القرآن العظيم.

* فضائل القرآن: لأبي عُبيد القاسم بن سلام -دار الكتب العلمية- بيروت.

* فيض القدير شرح الجامع الصغير: للمناوي -دار المعرفة- بيروت.

* القاموس المحيط: للفيروز آبادي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* القبس في شرح موطأ مالك بن أنس: لأبي بكر بن العربي -دار الغرب

الإسلامي- بيروت.

* الكامل: للمبرد.

* الكامل في الضعفاء: لابن عدي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* كتاب الضعفاء والمتروكين: للذهبي- مكتبة النهضة الحديثة- مكة.

* كتاب الفقيه والمتفقه: للخطيب البغدادي -دار ابن الجوزي- السعودية.

* كتب حذّر منها العلماء: لمشهور حسن -دار الصميعي- الرياض.

الكشاف: للزمخشري- دار المعرفة- بيروت.

* كشف الأستار عن زوائد البزار: للهيثمي -مؤسسة الرسالة- بيروت.

* لسان العرب: لابن منظور -دار صادر- بيروت.

* المجالسة وجواهر العلم: لأبي بكر الدينوري -دار ابن حزم- بيروت.

* مجمع الزوائد: للفحهيس ٣

هيثمي -دار الكتاب العربي- بيروت.

* المجموع شرح المهذب: للنووي -دار إحياء التراث العربي- بيروت.

* مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بالمملكة العربية السعودية.

* مختصر الشمائل المحمدية: للألباني -المكتبة الإسلامية- عمان.

* مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لابن الموصلي -مكتبة الباز- مكة.

* مدارج السالكين: لابن القيم -دار الكتاب العربي- بيروت.

* مراتب الإجماع: لابن حزم -دار ابن حزم- بيروت.

* المستدرك على الصحيحين: للحاكم -دار الكتاب العربي- بيروت.

* مسند أبي يعلى -دار الثقافة العربية- دمشق.

* مسند أحمد - المكتب الإسلامي- بيروت.

* مشاهير التونسيين: لمحمد بوذينة - تونس.

* المصنف: لعبد الرزاق -المكتب الإسلامي- بيروت.

* المصنف في الأحاديث والآثار: لابن أبي شيبة -دار الكتب العلمية- بيروت.

* المعجم الأوسط: للطبراني -مكتبة المعارف- الرياض.

* المعجم الصغير: للطبراني -دار الكتب العلمية- بيروت.

* المعجم الكبير: للطبراني- مكتبة ابن تيمية- القاهرة.

* مفتاح دار السعادة: لابن القيم -دار ابن عفان- السعودية.

* المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: للسخاوي -دار الكتاب العربي- بيروت.

* من أعلام الإصلاح في الجزائر: لمحمد الحسن فضلاء- الجزائر.

* المنتقى شرح الموطأ: للباجي.

* الموطأ: للإمام مالك = شرح الزرقاني على الموطأ.

* ميزان الاعتدال في نقد الرجال: للذهبي -دار المعرفة- بيروت.

* نسيم الرياض شرح الشفا لعياض: للخفاجي -دار الكتاب العربي- بيروت.

* نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية: للزيلعي -دار الحديث- القاهرة.

* النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير -المكتبة الإسلامية-

القاهرة.

- ثانيًا: المجلَّات:

* مجلة «الشهاب» (١- ١٦) - دار الغرب الإسلامي- بيروت.

* * *

فهرس الموضوعات

من سورة الفرقان

من سورة النمل

الآية الثانية عشرة وهي (٢٦) من سورة النمل ٢٤٦

من سورة يس

الفهارس

* * *